السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

أحداث ودلالات

قالت الظَّعينةُ: لا تَلاوَموا، فإنِّي رأَيتُ وجْهَ رجُلٍ لم يكُنْ لِيُخفِرَكم[يَخدَعُكم] ، ما رأيتُ أحدًا أشبَهَ بالقمرِ ليلةَ البدرِ مِن وجهِه

مُحَمَّد السَّيِّد حَسَن

الجزء الثالث

السيرة النبويـــة

أحداث ودلالات

الشيخ

محمد السيد حسن محمد

بطاقة الكتاب

اسـم الكتاب: السيرة النبوية (أحداث ودلالات – الجزء الثالث)

تأليف: الشيخ محمد السيد حسن محمد

غلاف: عبد الله أحمد

تدقيق لغوي: الشيخ محمد السيد حسن محمد

تنسيق: منى الغريب

الطبعة: الثانية

المقاس: ١٧*٢٤

رقم الإيداع: 2024/ 27962

الترقيم الدولي: 978-977-6937-96-2

للتواصل مع الكاتب haledsayed398@gmail.com

السيرة النبويـــة

أحـداث ودلالات

الجـــزء الثالث

الشيخ

محمد السيد حسن محمد

الباب الأول: أحداث السنة السادسة للهجرة

الفصل الأول

وفيه مباحث

المبحث الأول: غزوة بني لحيان

كانت غزوة بني قريظة في ذي القعدة وصدر من ذي الحجة، ثم كانت غزوة بني لحيان على اختلاف في بدء سنة ست أو جمادي الأولى، وهكذا ما يهمنا في كل ذلكم هو ربط أمتنا تاريخهم بغزوها؛ برهان عمل غزوهم فيهم، ودليل أمة ساهرة على دينها، واهتماما بعظائم الأمور؛ ولذا مكنهم ربهم من رقاب أعدائهم، بذلكم الجهاد فيه تعالى، والذي يخيف العدو، ويفعل فيه فلا يكاد يهنأ بنوم يوما.

إن اتصال غزوة بني قريظة بغزوة بني لحيان، بما يعني اتصال هذا الدين بالجهاد في سبيله تعالى، قيمة ترفع من شأن أمة، هكذا كان قدرها أن تكون حاملة لواء دينها، وفي حالي السلم والحرب معا، وعلى أي منهما، تجدها ساهرة على إعلاء دين ربها، باذلة في ذلك ما أمكنها بذله، وبكل أريحية، وصدر منشرح أيما انشراح، وقلب منبسط أينما انبساط، ولأنها تعلم قوله تعالى: ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكمۖوعسىٰ أن تكرهوا شيئا وهو خير لكمۖوعسىٰ أن تحبوا شيئا وهو شر لكمۗوالله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[البقرة: ٢١٦].

كان سبب غزوة بني لحيان طلب نبينا ﷺ بأصحاب الرجيع خبيب بن عدي وأصحابه، وأظهر أنه يريد الشام، ليصيب من القوم غرة [١]. وهذا برهان

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج ٢/١٨٨

جواز تأجيل القصاص، ريثما يحل وقته، وليست أمتنا في عجلة من أمرها، والمهم في ذلك أن يعلم أعداؤها أنه لن يضيع حق ووراءه أصحابه مطالبين به، والمهم أيضا أن يبقى في أذهان الأمة حاضرا إلى وقت تنجيزه، وهذا الذي دلنا عليه فعله ﷺ، وإذ كان يوم الرجيع سنة أربع هجرية، وها هو يخرج إليهم في بني لحيان سنة ست!!!

إن إعلان التاريخ أن أمتنا خرجت يوم بني لحيان طلب أصحاب الرجيع؛ برهان أن يبقى حاضرا في الأذهان؛ وكيما يبقى حاضرا في أذهان عدوها أيضا، فيعمل لها حسابا بلا عد، ويخافها بلا أمن، وحين كانت ساهرة، وعلى الاحتفاظ بحق الرد، مبدءا عسكريا، وعرفا حربيا، وإرثا قتاليا.

إن نية إعلان الحرب شيء وتوقيتها ووجهتها وأسلوبها وتكتيكها شيء آخر تماما، وهذا الذي ورَّى به نبينا ﷺ يوم بني لحيان، وحين أظهر أنه يريد الشام، ولأن الحرب خدعة، وهذا من ألف باء خداعها، وأن يظل الخصم في حيرة من أمره، وخيفة من شأنه، إذ يا ترى متى، وإذ يا ترى من أين؟! وهذا في حد ذاته يقض مضاجعه، فليس يكاد يهنأ بنوم!

إن مهمة جهاز الاستطلاع أن يهيمن على كل شبر من أرض وطنه!!! فليس يجد عدوه فيه خلة واحدة، والعسكرية المجيدة هي تلك التي يعرف عدوها يقظتها فلا تنام، وحكمتها فلا تؤتى، وعلمها فلا تجهل، وسيطرتها جوا وبحرا وبرا؛ لينفق أمواله وما ملك، طمعا لإيجاد خلة واحدة! وإذ ينكفئ، وحين جوبه بأبطال مهرة بفنون قتالهم، بررة لدينهم، ثم أوطانهم، وأوطانهم هي كل شبر من هذا العالم الواسع الفسيح الممتد!!!

وكسـرا لحجـب، وتحطيمـا لأسـوار، وفكـا لأسـلاك شـائكة! هـي حـدود مصطنعة؛ لتتنشأ فرق هزيلة! هي أشبه ما تكون، أنها ومن قبيل قول ربنا الرحمن ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢].

حين أصاب نبينا ﷺ بني لحيان غرة هربوا، وهذا فن عسكري، وحين يبغت الخصم، ومن حيث لا يحتسب، ولأن أرض العدو تعتبر كلها هدفا ومسرحا للعمليات الحربية، وهذا ألف باء من قانون الحرب، عدا ما نصت عليه مواثيق نبينا ﷺ، ألا يقتل شيخ أو امرأة أو طفل، سوى ما تترس بهم، ولا تهدم صوامع وبيع، وما إلى ذلك من أهداف سميت مدنية، إلا إذا تبين من جهاز الاستطلاع أنها أوكار عسكرية في أثواب مدنية! وهذا الذي حدث يوم بني لحيان، وحين أخذهم ﷺ غرة، فهربوا إلى الجبال، كموانع طبيعية، حسنت الإفادة بها، وعلى كل وجه ممكن!

وهذا الذي منه كان حاضرا في الأذهان، ويوم أن أطل قائد عسكري يوما؛ تفنيد أسباب هزيمته، وإذ زاد في إظهار عواره، وحين دفع بأن العدو قد هاجمنا من جهات، لم يكن في بالنا أنه سيداهمنا منها! وإلا كنا قد أذقناه ويله!! وليته ما فند!!

كان بعد بني لحيان عن المدينة حوالي ثلاثمائة كيلو مترا، وهو في حسابات الإبل طريق طويل، لكنه ﷺ ليس يبعد عنه وكر عدائي، بل يبغته، وحيثما كان تطهيرا لجيوب الغدر والمواجهة مع هذا الدين الجديد، وليرهبوا به عدو الله وعدوهم، وآخرين من دونهم، لا يعلمونهم، ولكن الله يعلمهم.

لا يمكننا الفصل بين نصره ﷺ يومي الأحزاب وبني قريظة وبين يوم بني لحيان؛ ولأن الأرض أصبحت بهذا النصر العظيم أمام غزوه ﷺ ممهدة لمن دونهم، وهذا فن عسكري، باستعمال الحدث الأكبر خدمة لحدث أقل منه خطرا، فيهون أمام الجنود إبلاع أرضهم بهم كبني لحيان!

ليس يغيب عن بالنا عسكره ﷺ يومين في أرض بني لحيان؛ استيطانا لأرضهم وإذ هربوا، وها هم لا يجرؤن عنها دفاعا، وقد حل بهم جند هذا النبي محمد ﷺ، وهذا فن عسكري، وحين تخور بهم أفئدتهم قبل قواهم، فلا يستطيعون قياما من كبوة!!!

المبحث الثاني: غزوة ذي قرد

عن سلمة بن الأكوع: خرجت من المدينة ذاهبا نحو الغابة، حتى إذا كنت بثنية الغابة، لقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف، قلت: ويحك ما بك؟ قال: أخذت لقاح النبي صلى الله عليه وسلم، قلت: من أخذها؟ قال: غطفان، وفزارة فصرخت ثلاث صرخات أسمعت ما بين لابتيها: يا صباحاه يا صباحاه، ثم اندفعت حتى ألقاهم، وقد أخذوها، فجعلت أرميهم، وأقول: أنا ابن الأكوع... واليوم يوم الرضع فاستنقذتها منهم قبل أن يشربوا، فأقبلت بها أسوقها، فلقيني النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله إن القوم عطاش، وإني أعجلتهم

أن يشربوا سقيهم، فابعث في إثرهم، فقال: يا ابن الأكوع: ملكت، فأسجح إن القوم يقرون في قومهم[١].

وعن سلمة بن الأكوع أيضا: خرجت قبل أن يؤذن بالأولى، وكانت لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم ترعى بذي قرد، قال: فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف، فقال: أخذت لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: من أخذها؟ قال: غطفان، قال: فصرخت ثلاث صرخات يا صباحاه، قال فأسمعت ما بين لابتي المدينة، ثم اندفعت على وجهي حتى أدركتهم، وقد أخذوا يستقون من الماء، فجعلت أرميهم بنبلي، وكنت راميا، وأقول أنا ابن الأكوع... واليوم يوم الرضع وأرتجز، حتى استنقذت اللقاح منهم، واستلبت منهم ثلاثين بردة، قال: وجاء النبي صلى الله عليه وسلم والناس، فقلت: يا نبي الله، قد حميت القوم الماء وهم عطاش، فابعث إليهم الساعة، فقال: يا ابن الأكوع، ملكت فأسجح قال: ثم رجعنا ويردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته حتى دخلنا المدينة[٢].

كانت غزوة ذي قرد بعد ليال من عودته ﷺ من غزوة بني لحيان! وهكذا نتخيل حياة جيلنا الأول، وقد كانوا هكذا، منارات حق، ومآذن هدى، لا ينفكون عن بذل، ولا يطيقون دعة، ولا يألفون راحة، ولأن راحتهم في استجلاب نصر دينهم سهرا، ولأن إيمانهم هكذا كان من موجبه ذلكم الفناء في البذل، واسترخاص كل غال في سبيل الله تعالى مولاهم الحق.

---

(١) صحيح البخاري: ٣٠٤١

(٢) صحيح البخاري: ٤١٩٤

كان سبب غزوة ذي قرد، أن أغار عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، في خيل من غطفان على لقاح(حوامل الإبل) النبي ﷺ بالغابة، وقتلوا حارسها، واحتملوا امرأته في اللثام[١]، وهذا برهان وجوب جهاد الدفع، وحين كانت المبادأة بالإغارة من خصم لدود، وموجب نفرة، وحين:

1 - أغاروا. وهذه جرأة على أموال المسلمين وحدودهم.

2 - وقتلوا. وهذا تعد على حرمات المسلمين في دمائهم.

3 - وأخذوا امرأة مسلمة ولو واحدة. وهذا تعد على حرمات المسلمين في أعراضهم. ومن قتل دون دمه وماله وعرضه فهو شهيد.

ومنه جاءت الضرورات الخمس: ومن حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ الأعضاء، وحفظ العرض، وحفظ المال؛ عنوانا لهذا الدين، وبرهان عزته وأنفته وشكيمته.

فعن سعيد بن زيد: من قاتل دون ماله، فقتل فهو شهيد، ومن قاتل دون دمه، فهو شهيد، ومن قاتل دون أهله، فهو شهيد[٢].

وإن جرأة على النبي ﷺ هي جرأة على الأمة، وقيامها بأسرها ذبا عنه هو ذب عن الدين الذي جاء به من أساس، وإن جرأة على أموال النبي هي جرأة على النبي وعلى أمته أيضا، وإن قتلا لرجل مسلم هو بمثابة اعتداء صارخ على دماء الأمة بأسرها، أوجب انتفاض الناس أجمعين ضده، وأن أسر امرأة مسلمة هو

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ٢٥٥

(٢) صحيح النسائي، الألباني: ٤١٠٥

اعتداء على كرامة الأمة كلها رجالها ونسائها، ولأنه يتعلق بأعراض المسلمين كافة، وكان مناسبا غزوة ذي قرد لكل هذا!

كان أول من نذر بالمهاجمين يوم ذي قرد هو سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي كرا وفرا وكطبيعة القتال، وهذا برهان منقبة لهذا الصحابي الكريم، وحين استأسد حمية لبيضة دينه، وأقل ما يمكن عمله من هكذا جيل جرى جهاد الكافرين في عروقهم، وكدمائهم وحياتهم به ومماتهم، وحين لا يألفون فرشهم وسهادهم! وها هي بيضة دينهم لتكاد ينالها الأعداء.

كان اتباع سلمة بن عمرو بن الأكوع أسلوب الكر والفر يوم ذي قرد، برهان حكمة، ودليل إقدام، وموجب إشادة، فكان ينبلهم إذا ولوا بظهورهم كرا، وكان يولهم فرا وإذا قدموا، وهذا إنهاك لقوى عدوه، وتشتيت أفكاره، ومن مقاتل واحد كان هذا شأنه!

لا ننسى مولى لطلحة بن عبيد الله، كان مرافقا لسلمة بن عمرو بن الأكوع يوم ذي قرد، برهان استصحاب المقاتل من يشد أزره، ويؤنس وحدته، وهذا فن اجتماعي، وكيما لا يخلون مفردا إلى وساوسه، وكيما لا يخلد إليها فتعمل فيه، فكان لذلك شرف الصحبة، وإلف الجليس الصالح.

خذها وأنا ابن الأكوع　　　اليوم يوم الرضع

:هذا ارتجاز سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي يوم ذي قرد، وهو موجب تحفيزي في جهات المنازلة، وليحرك فيه الإقدام، وليوطن به الاستبسال. وهذا برهان أنهم أولو جادة، ولم يذكر التاريخ أنهم ارتكبوا ما يغضب ربهم، وكما يقع!

ولذا حالفهم نصر ربهم، وحين استقاموا على الطريقة، فأسقاهم ربهم به ماء غدقا!

بلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع، يوم ذي قرد، فصرخ بالمدينة: «الفزع الفزع» فترامت الخيول إلى رسول الله ﷺ[1]: وانظر كيف ترامت بهم خيولهم، وللنداء الأول ؟! وأمة هذه رجالها لا خوف عليها، ولأن بهم تدك حصون عدوهم دكا، وحين كانت الشهادة موسومة بين حاجبي كل واحد منهم؛ ليقرأ عنوانها كل ذي شك مريب! وكذا من ألقى السمع وهو شهيد!

حين ترامى الناس بين يدي نبينا ﷺ يوم ذي قرد أمر عليهم سعد بن زيد، ثم قال: «اخرج في طلب القوم حتى ألحقك في الناس[2]: وهذا برهان أهمية القيادة العامة العليا للقوات المسلحة، ممثلة فيه ﷺ، وكذا القيادة الخاصة الأدني مرتبة، ممثلة في سعد بن زيد. ولأن ديننا نظام، ولا سيما معاركه وصولاته وجولاته.

عمل هيئة الإمداد والتموين للقوات المسلحة: كان في إرساله ﷺ عونا سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي يوم ذي قرد، برهان يقظة هيئة الإمداد والتموين للقوات المسلحة، وحين يقوم عملها بهكذا فن إمدادي، وعلى دفعات؛ لاختبار أرض الميدان، وحتى لا تؤخذ القوات وعلى حين غرة، وفي نفس الوقت تكون دعما معنويا وماديا لجبهة المنازلة، فتشحذ همم الجند، وحين يشعرون أنهم ليسوا وحدهم في الميدان.

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٧٥٢/٣

(٢) عيون الأثر، ابن سيد الناس: ج ٢ /٧٠

عمل جهاز التوجيه المعنوي: " يا أبا عياش لو أعطيت هذا الفرس رجلا هو أفرس منك فلحق بالقوم، قال أبو عياش: فقلت يا رسول الله أنا أفرس الناس، ثم ضربت الفرس فو الله ما جرى بي خمسين ذراعا حتى طرحني، فعجبت من ذلك!"[١] : هذا علم نبوة لنبينا ﷺ، وحين زعم أبو عياش ألا أحد أفرس منه! ومن بعد خمسين ذراعا طرحه فرسه! لكنه ﷺ أراد أن يعلمه درسا عمليا من جانب، واستنهاض الهمم وعدم كبتها من جانب، وليقع الإعجاز من جانب ثالث! وهذا بحد ذاته عمل رفع معنوي للمجاهدين، وحين يرون بأعين رؤوسهم علامات نبوة نبينا ﷺ، حينا من بعد حين آخر، وهذا درس لهيئات التوجيه المعنوي، أن تكون قائمة على حراسة معنويات الجند، وتمدهم كل حين بخوارق ومعجزات وقصص وأخبار وأنباء، تستنهض بها عزائمهم!

واجه محرز بن نضلة المشركين يوم ذي قرد، وقال: قفوا معشر اللكيعة حتى يلحق بكم من وراءكم من أدباركم من المهاجرين والأنصار قال وحمل عليه رجل منهم فقتله وجال الفرس فلم يقدروا عليه حتى وقف على آريه في بنى عبد الأشهل فلم يقتل من المسلمين غيره وكان اسم فرس محمود ذا اللمة [٢]. وفيه شجاعته رضي الله تعالى عنه وحين جابه جبهة الكفر وحده! وفيه الإثخان المعنوي في العدو؛ لتفكيك مفاصله، وريثما تأتي إمدادات هيئة الإمداد والتموين للقوات المسلحة، وإذ بها تجد ألا عمل لها، فقد كفاها من قد أتى قبلها!

عمل الإنابة: لحق نبينا ﷺ بكتائب الفتح المبين يوم ذي قرد، وفي المرحلة الثالثة؛ وليكون بين جنده، يقاتل عدوهم، ويشد أزرهم، ويوجه أفرادهم، عملا

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ١٧١/٤

(٢) تاريخ الطبري، الطبري: ج٢ /٢٥٩

دؤوبا، وبعد أن ولى ابن أم مكتوم على المدينة. قرارا إداريا، وعملا سياديا؛ وكيما لا يترك فراغا إداريا، وهذا ابن أم مكتوم لهذا عمل أهل وبه كفؤ، لأنه ومن بعد شأنه تعالى له ويوم: ﴿عبس وتولى﴾ [عبس:١].، ومن حينها ونبينا ﷺ يقوم له ويوليه.

قتل أبو قتادة حبيب بن عيينة يوم ذي قرد وغشاه برده، كيما يعرف أنه هو الذي قتله. ولعله من التمويه على العدو؛ وكيما لا يطلبه! وهذا فن عسكري!

أدرك عكاشة بن محصن أوبارا، وابنه عمرو بن أوبار وهما على بعير واحد، فانتظمهما بالرمح فقتلهما جميعا، واستنقذوا بعض اللقاح(النوق الحوامل)[١]. وهكذا يسترجعون لقاح نبيهم ﷺ، وهو سبب غزوهم الأول، يوم ذي قرد؛ برهان بقاء هدف المعركة عالقا بالأذهان، وكيما يتفانى الناس في تحقيقه هدفا مرسوما.

وقال له سلمة بن الأكوع: يا رسول الله لو سرحتني في مائة رجل لاستنقذت بقية السرح، وأخذت بأعناق القوم[٢]: ولازال سلمة بن الأكوع حاضرا، ولازال هدف المعركة ماثلا، ولازال جرحهم نازفا، وحين لم يحققوا بعد أهدافهم، وإذ إنها لعالقة بأذهانهم.

وزع نبينا ﷺ المهام يوم ذي قرد، وبعد أن منح كل مائة جزورا – والجزور هو ما يصلح أن يذبح من الإبل-: وهذا برهان كفاية إمدادات هيئة الإمداد والتموين للقوات المسلحة؛ وليقوموا بأعمالهم نشطاء، وبلا سرف أو ترف.

---

(١) عيون الأثر، ابن سيد الناس: ج ٧١/٢

(٢) عيون الأثر، ابن سيد الناس: ج ٧١/٢

أقبلت امرأة الغفاري على ناقة من إبل النبي ﷺ، حتى قدمت عليه المدينة، فأخبرته الخبر[١]، وهذا تحقيق الهدف الثاني لمعركة ذي قرد. وبعد أن كانوا قد أسروها، ولتأت وقد فكت أسرها، وهذا أيضا من نبل تصرفها وحكمتها، عملا ميمونا، واقتداء مبرورا.

حين جاءت امرأة الغفاري على ناقة من إبل النبي ﷺ ونذرت أن تنحرها! فأبى ﷺ عليها ذلك. لأنها ليست ملكا لها وكذا لأنها كان عليها أن تحسن إليها أن حملتها من دار أسرها إلى المدينة! وهذا وفاء نبي للحيوان!.

ومنضافا إليه ذلكم البعد الاقتصادي، في الحفاظ على إناث الحيوان؛ قيمة اقتصادية منتجة.

وإذ قال النبي ﷺ: لا وفاء لنذر في معصية، ولا فيما لا يملك العبد[٢].

فعن الحسن البصري قال: وأقبلت امرأة الغفاري على ناقة من إبل النبي حتى قدمت عليه المدينة فأخبرته الخبر فلما فرغت قالت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إني قد نذرت الله أن أنحرها إن نجاني الله عليها قال فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال بئسما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرينها إنه لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين إنما هي ناقة من إبلي فارجعي إلى أهلك على بركة الله[٣].

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣ / ٧٥٥

(٢) أخرجه مسلم: (١٦٤١)

(٣) البداية والنهاية ابن كثير: ١٥٣/٤، خلاصة حكم المحدث: مرسل وجاء متصلا من وجوه أخر

عن سلمة بن الأكوع قال: أغار عبد الرحمن بن عيينة على إبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتل راعيها فخرج يطردها هو وأناس معه في خيل فجعلت وجهي قبل المدينة ثم ناديت ثلاث مرات يا صباحاه ثم اتبعت القوم فجعلت أرمي وأعقرهم فإذا رجع إلي فارس جلست في أصل شجرة حتى ما خلق الله شيئا من ظهر النبي صلى الله عليه وسلم إلا جعلته وراء ظهري وحتى ألقوا أكثر من ثلاثين رمحا وثلاثين بردة يستخفون منها ثم أتاهم عيينة مددا فقال ليقم إليه نفر منكم فقام إلي أربعة منهم فصعدوا الجبل فلما أسمعتهم قلت أتعرفوني قالوا ومن أنت قلت أنا ابن الأكوع والذي كرم وجه محمد صلى الله عليه وسلم لا يطلبني رجل منكم فيدركني ولا أطلبه فيفوتني فما برحت حتى نظرت إلى فوارس رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخللون الشجر أولهم الأخرم الأسدي فيلحق بعبد الرحمن بن عيينة ويعطف عليه عبد الرحمن فاختلفا طعنتين فعقر الأخرم عبد الرحمن وطعنه عبد الرحمن فقتله فتحول عبد الرحمن على فرس الأخرم فيلحق أبو قتادة بعبد الرحمن فاختلفا طعنتين فعقر بأبي قتادة وقتله أبو قتادة فتحول أبو قتادة على فرس الأخرم ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على الماء الذي جليتهم عنه ذو قرد فإذا نبي الله صلى الله عليه وسلم في خمس مائة فأعطاني سهم الفارس والراجل[1].

وإذ قال سلمة ابن الأكوع يوم ذي قرد: والذي كرم وجه محمد لا يطلبني رجل منكم فيدركني ولا أطلبه فيفوتني: وهذا برهان صدق توكله، ودليل حق يقينه، أنهم لا يدركونه إذا طلبوه، وهو إذا يدركهم، وحين فروا منه فلا يفوتونه!

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٢٧٥٢

ولعل إحسان بلاء سلمة يوم ذي قرد هو الذي منه منحه نبينا ﷺ سهم الراجل؛ ولأنه كان راجلا، وكذا أعطاه سهم الفارس؛ ولحسن بلائه يومها، وهذا عمل يدخل في السلطة التقديرية للسلطان، ولتنتظم أمور الأمة، سبقا ومسارعة ومنافسة في الخيرات.

* * *

وهذا حديث طويل جليل القدر، أردت سوقه وحسب؛ بيان اتصاله بمسألتنا، وعلى قول بعضهم: إن غزوة ذي قدر كانت بعد الحديبية وقبل خيبر.

فعن سلمة بن الأكوع **قدمنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أربع عشرة مئة، وعليها خمسون شاة لا ترويها، قال: فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبا الركية، فإما دعا، وإما بصق فيها، قال: فجاشت، فسقينا واستقينا، قال: ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعانا للبيعة في أصل الشجرة، قال: فبايعته أول الناس، ثم بايع، وبايع، حتى إذا كان في وسط من الناس، قال: بايع يا سلمة قال: قلت: قد بايعتك يا رسول الله، في أول الناس، قال: وأيضا، قال: ورآني رسول الله صلى الله عليه وسلم عزلا، يعني ليس معه سلاح، قال: فأعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم حجفة، أو درقة، ثم بايع، حتى إذا كان في آخر الناس، قال: ألا تبايعني يا سلمة؟ قال: قلت: قد بايعتك يا رسول الله، في أول الناس، وفي أوسط الناس، قال: وأيضا، قال: فبايعته الثالثة، ثم قال لي: يا سلمة، أين حجفتك، أو درقتك، التي أعطيتك؟ قال: قلت: يا رسول الله، لقيني عمي عامر عزلا، فأعطيته إياها، قال: فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: إنك كالذي قال الأول: اللهم أبغني حبيبا هو أحب إلي من**

نفسي، ثم إن المشركين راسلونا الصلح حتى مشى بعضنا في بعض، واصطلحنا، قال: وكنت تبيعا لطلحة بن عبيد الله أسقي فرسه، وأحسه، وأخدمه، وآكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجرا إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، قال: فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها فاضطجعت في أصلها، قال: فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأبغضتهم، فتحولت إلى شجرة أخرى، وعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي، يا للمهاجرين، قتل ابن زنيم، قال: فاخترطت سيفي، ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم، فجعلته ضغثا في يدي، قال: ثم قلت، والذي كرم وجه محمد، لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: وجاء عمي عامر برجل من العبلات، يقال له: مكرز يقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على فرس، مجفف في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: دعوهم، يكن لهم بدء الفجور، وثناه، فعفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنزل الله: {وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم} الآية كلها. قال: ثم خرجنا راجعين إلى المدينة، فنزلنا منزلا بيننا وبين بني لحيان جبل، وهم المشركون، فاستغفر رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن رقي هذا الجبل الليلة، كأنه طليعة للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، قال سلمة: فرقيت تلك الليلة مرتين، أو ثلاثا، ثم قدمنا المدينة، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهره مع رباح، غلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا معه، وخرجت معه بفرس طلحة، أنديه مع الظهر،

فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستاقه أجمع، وقتل راعيه، قال: فقلت: يا رباح، خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبيد الله، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المشركين قد أغاروا على سرحه، قال: ثم قمت على أكمة، فاستقبلت المدينة، فناديت ثلاثا: يا صباحاه، ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز، أقول: أنا ابن الأكوع... واليوم يوم الرضع فألحق رجلا منهم فأصك سهما في رحله، حتى خلص نصل السهم إلى كتفه، قال: قلت: خذها. وأنا ابن الأكوع... واليوم يوم الرضع قال: فو الله، ما زلت أرميهم وأعقر بهم، فإذا رجع إلي فارس أتيت شجرة، فجلست في أصلها، ثم رميته فعقرت به، حتى إذا تضايق الجبل، فدخلوا في تضايقه، علوت الجبل فجعلت أرديهم بالحجارة، قال: فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا خلفته وراء ظهري، وخلوا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين رمحا، يستخفون ولا يطرحون شيئا إلا جعلت عليه آراما من الحجارة يعرفها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، حتى أتوا متضايقا من ثنية، فإذا هم قد أتاهم فلان بن بدر الفزاري، فجلسوا يتضحون، يعني يتغدون، وجلست على رأس قرن، قال الفزاري: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح، والله، ما فارقنا منذ غلس يرمينا حتى انتزع كل شيء في أيدينا، قال: فليقم إليه نفر منكم أربعة، قال: فصعد إلي منهم أربعة في الجبل، قال: فلما أمكنوني من الكلام، قال: قلت: هل تعرفوني؟ قالوا: لا، ومن أنت؟ قال: قلت: أنا سلمة بن الأكوع، والذي كرم وجه محمد صلى الله عليه وسلم، لا أطلب رجلا منكم إلا أدركته، ولا يطلبني رجل منكم فيدركني، قال أحدهم: أنا أظن، قال: فرجعوا، فما برحت مكاني حتى رأيت

فوارس رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخللون الشجر، قال: فإذا أولهم الأخرم الأسدي، على إثره أبو قتادة الأنصاري، وعلى إثره المقداد بن الأسود الكندي، قال: فأخذت بعنان الأخرم، قال: فولوا مدبرين، قلت: يا أخرم، احذرهم لا يقتطعوك حتى يلحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، قال: يا سلمة، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق، والنار حق، فلا تحل بيني وبين الشهادة، قال: فخليته، فالتقى هو وعبد الرحمن، قال: فعقر بعبد الرحمن فرسه، وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحول على فرسه، ولحق أبو قتادة فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبد الرحمن، فطعنه فقتله، فو الذي كرم وجه محمد صلى الله عليه وسلم، لتبعتهم أعدو على رجلي حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ولا غبارهم شيئا حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له: ذو قرد ليشربوا منه، وهم عطاش، قال: فنظروا إلي أعدو وراءهم، فخليتهم عنه، يعني أجليتهم عنه، فما ذاقوا منه قطرة، قال: ويخرجون فيشتدون في ثنية، قال: فأعدو فألحق رجلا منهم، فأصكه بسهم في نغض كتفه، قال: قلت: خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع قال: يا ثكلته أمه، أكوعه بكرة؟ قال: قلت: نعم يا عدو نفسه، أكوعك بكرة، قال: وأردوا فرسين على ثنية، قال: فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ولحقني عامر بسطيحة فيها مذقة من لبن، وسطيحة فيها ماء، فتوضأت وشربت، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على الماء الذي حلأتهم عنه، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ تلك الإبل وكل شيء استنقذته من المشركين، وكل رمح وبردة، وإذا بلال نحر ناقة من الإبل الذي استنقذت من القوم، وإذا هو يشوي لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كبدها وسنامها، قال:

قلت: يا رسول الله، خلني فأنتخب من القوم مئة رجل فأتبع القوم، فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلته، قال: فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه في ضوء النار، فقال: يا سلمة، أتراك كنت فاعلا؟ قلت: نعم، والذي أكرمك، فقال: إنهم الآن ليقرون في أرض غطفان، قال: فجاء رجل من غطفان، فقال: نحر لهم فلان جزورا فلما كشفوا جلدها رأوا غبارا، فقالوا: أتاكم القوم، فخرجوا هاربين، فلما أصبحنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة، قال: ثم أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم سهمين سهم الفارس، وسهم الراجل، فجمعهما لي جميعا، ثم أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة، قال: فبينما نحن نسير، قال: وكان رجل من الأنصار لا يسبق شدا، قال: فجعل يقول: ألا مسابق إلى المدينة؟ هل من مسابق؟ فجعل يعيد ذلك قال: فلما سمعت كلامه، قلت: أما تكرم كريما، ولا تهاب شريفا، قال: لا، إلا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: قلت: يا رسول الله، بأبي وأمي، ذرني فلأسابق الرجل، قال: إن شئت، قال: قلت: اذهب إليك وثنيت رجلي، فطفرت فعدوت، قال: فربطت عليه شرفا، أو شرفين، أستبقي نفسي، ثم عدوت في إثره، فربطت عليه شرفا، أو شرفين، ثم إني رفعت حتى ألحقه، قال: فأصكه بين كتفيه، قال: قلت: قد سبقت والله، قال: أنا أظن، قال: فسبقته إلى المدينة، قال: فوالله، ما لبثنا إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فجعل عمي عامر يرتجز بالقوم. تالله لولا الله ما اهتدينا... ولا تصدقنا ولا صلينا ونحن عن فضلك ما استغنينا... فثبت الأقدام إن لاقينا وأنزلن سكينة علينا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من هذا؟ قال: أنا عامر، قال: غفر لك ربك، قال: وما استغفر

رسول الله صلى الله عليه وسلم لإنسان يخصه إلا استشهد، قال: فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له: يا نبي الله، لولا ما متعتنا بعامر، قال: فلما قدمنا خيبر، قال: خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه، ويقول: قد علمت خيبر أني مرحب... شاكي السلاح بطل مجرب. إذا الحروب أقبلت تلهب قال: وبرز له عمي عامر، فقال: قد علمت خيبر أني عامر... شاكي السلاح بطل مغامر قال: فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عامر، وذهب عامر يسفل له، فرجع سيفه على نفسه، فقطع أكحله، فكانت فيها نفسه. قال سلمة: فخرجت، فإذا نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون: بطل عمل عامر، قتل نفسه، قال: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله، بطل عمل عامر؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قال ذلك؟ قال: قلت: ناس من أصحابك، قال: كذب من قال ذلك، بل له أجره مرتين، ثم أرسلني إلى علي وهو أرمد، فقال: لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله، أو يحبه الله ورسوله، قال: فأتيت عليا، فجئت به أقوده وهو أرمد، حتى أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبسق في عينيه فبرأ وأعطاه الراية، وخرج مرحب، فقال: قد علمت خيبر أني مرحب... شاكي السلاح بطل مجرب. إذا الحروب أقبلت تلهب فقال علي: أنا الذي سمتني أمي حيدره... كليث غابات كريه المنظره. أوفيهم بالصاع كيل السندره قال: فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه[1].

---

(١) صحيح مسلم: ١٨٠٧

وإذ قال الأخرم الأسدي يوم ذي قرد: يا سلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق، والنار حق، فلا تحل بيني وبين الشهادة: وهذا مثال لأمة ينطق واحد منها بلسان حاله ومقاله من تتوق نفوسهم إلى الشهادة في سبيل الله تعالى مولاهم الحق.

وإذ قال نبينا ﷺ: خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة: وهذا أسلوب تحفيز الرعية؛ لاستدعاء طاقات بذلهم جميعا، وفي ذات الوقت إعطاء من بذل، وإشادة به على رؤوس الأشهاد، فنا إداريا، ولأن كلا يملك مواهب ربانية ومنحا إلهية. واستنطاقها فن إداري، وريثما يتأهب البقية؛ لنيل ذلكم شرف الإشادة بصنيعهم.

يا رسول الله خلني، فأنتخب من أصحابك مائة، فآخذ على الكفار بالعشوة، فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلته: هذا قول سلمة بن الأكوع، يوم ذي قرد، برهان يقظة وشجاعة وبذل وموجب صدق، وأنه يمكن أن يكون في أمتنا واحد كألف، أو يزيدون حقا!

* * *

عن عمران بن الحصين أيضا: كانت ثقيف حلفاء لبني عقيل، فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، رجلا من بني عقيل، وأصابوا معه العضباء، فأتى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الوثاق، قال: يا محمد، فأتاه، فقال: ما شأنك؟ فقال: بم أخذتني، وبم أخذت سابقة الحاج؟ فقال: إعظاما لذلك أخذتك بجريرة حلفائك ثقيف، ثم انصرف عنه، فناداه، فقال: يا محمد، يا محمد، وكان

رسول الله صلى الله عليه وسلم رحيما رقيقا، فرجع إليه، فقال: ما شأنك؟ قال: إني مسلم، قال: لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح، ثم انصرف، فناداه، فقال: يا محمد، يا محمد، فأتاه، فقال: ما شأنك؟ قال: إني جائع فأطعمني، وظمآن فأسقني، قال: هذه حاجتك، ففدي بالرجلين. قال: وأسرت امرأة من الأنصار وأصيبت العضباء، فكانت المرأة في الوثاق وكان القوم يريحون نعمهم بين يدي بيوتهم، فانفلتت ذات ليلة من الوثاق، فأتت الإبل، فجعلت إذا دنت من البعير رغا فتتركه حتى تنتهي إلى العضباء، فلم ترغ، قال: وناقة منوقة فقعدت في عجزها، ثم زجرتها فانطلقت، ونذروا بها فطلبوها فأعجزتهم، قال: ونذرت لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها، فلما قدمت المدينة رآها الناس، فقالوا: العضباء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: إنها نذرت إن نجاها الله عليها لتنحرنها، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكروا ذلك له، فقال: سبحان الله، بئسما جزتها، نذرت لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها، لا وفاء لنذر في معصية، ولا فيما لا يملك العبد. وفي رواية ابن حجر: لا نذر في معصية الله. [وفي رواية]: وفي حديث حماد قال: كانت العضباء لرجل من بني عقيل، وكانت من سوابق الحاج، وفي حديثه أيضا، فأتت على ناقة ذلول مجرسة. وفي حديث الثقفي: وهي ناقة مدربة[١].

وعن عمران بن الحصين: كانت العضباء لرجل من عقيل أسر، فأخذت العضباء منه فأتى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، علام تأخذوني، وتأخذون سابقة الحاج، وقد أسلمت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه

(١) صحيح مسلم: ١٦٤١

وسلم: لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخذت بجريرة حلفائك وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار، عليه قطيفة، فقال: يا محمد، إني جائع فأطعمني، وظمآن فاسقني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذه حاجتك، ثم إن الرجل فدي برجلين وحبس رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء لرحله[1]

فقال: يا محمد علام تأخذوني وتأخذون سابقة الحاج؟ فقال رسول الله ﷺ: «نأخذك بجريرة حلفائك ثقيف». وكانت ثقيف قد أسروا رجلين من أصحاب النبي ﷺ: وفيه جواز أخذ أحد الحليفين بجريرة حليفه.

(١) نخب الافكار، العيني: ٤٠٥/١٢. خلاصة حكم المحدث: طريقه صحيح

الفصل الثاني

غزوة بني المصطلق(المريسيع)

وإنما سميت باسم غزوة بني المصطلق نسبة إلى بني المصطلق، وهم فرع من قبيلة خزاعة، وإنما سميت بغزوة المريسيع نسبة إلى اسم الماء الذي لقيهم نبينا ﷺ عنده.

كان الفارق الزمني بين غزوتي ذي قرد وبني المصطلق شهرين تقريبا! وهذا أمر ذو بال؛ ولأن أمة في التاريخ لم يشهد لمثلها هكذا أمة الفتح المبين والنصر العظيم والجهاد والتمكين سوى هذه الأمة، وحين لم يفرق بين غزوتين فيها إلا شهران!

كان الجامع بين غزوتي ذي قرد وبني المصطلق هو جهاد الدفع؛ ولأنه في ذي قرد كان الهجوم من غطفان؛ استلابا للواقح نبينا ﷺ، وقتل حارسها، وأسر امرأته! وهذه ثلاث فواجع تقوم بها القائمة، وفي بني المصطلق وصلت تقارير جهاز الاستخبارات أنهم يعدون عدتهم لغزوه ﷺ، وبه فقد صار ضررا مؤكدا، لا مجرد احتمال وظن؛ مما أوجب نفرة لمواجهته وكبته ودكه، وكيما يعتبر كل قاص ودان أن هذه الأمة ذات شوكة وشكيمة، وأن هذا الدين مرفوعة هامته، وإذ كان هناك جنده الساهرون؛ طلب الفردوس الأعلى من الجنة!

كان قائد الخصوم يوم بني المصطلق هو الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية بنت الحارث التي تزوجها رسول الله ﷺ بعد هذا! وهذا برهان عظيم أن ديننا وإن

كان ذا شكيمة بإحدى يديه، إلا أنه يمد يده الأخرى داعية سلم وأمن؛ ولأنه جاء أول ما جاء لبسط سلم الإسلام على ظهر البسيطة، وأن خير ذلك عائد على كل من أسلم؛ ولأن الأصل حقيقة هو قوله تعالى: يا عبادي ولو أن إنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد ثم سألوني فأعطيت كل واحد مسألته! ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر!! وهذا مطلق الغنى مما يشي أن خير إسلام العبيد لهم وأن شر كفرهم وباله عليهم!!!

فعن أبي ذر الغفاري عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع، إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار، إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي، فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم،

ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا، فليحمد الله ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه.وفي رواية: إني حرمت على نفسي الظلم وعلى عبادي، فلا تظالموا[١].

ومن حيث كان قائد بني المصطلق هو الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية بنت الحارث التي تزوجها رسول الله ﷺ بعد هذا: وهذا برهان آخر على حرص الإسلام أن يضمد جراحا، ولو كان الخصم هو سببها وداعيها، وهذه منقبة عظمى لهذا الدين، وحين يصاهر النبي ﷺ قوما كان قائدهم والد زوجته جويرية بنت الحارث! وليس يقال غير ذلك! ولأنه وعلى فرض رغبة في النكاح لديه ﷺ وحسب، فإن الذي خلق جويرية هو سبحانه خالق آلاف الجويريات، حسنا ومالا ودينا وحسبا ونسبا، وهذه هي مقومات طلب المرأة!!!

الجـزاء مـن جـنس العمـل: وهذا الذي حدث يوم بني المصطلق أو غزوة المريسيع، فقد هزمهم المسلمون وأخذوا أموالهم ونساءهم وذراريهم فيئا! وهذه عبرة، وحين يسكن امرئ فلا يطلبن شرا، ولربما عادت عليه بوائقه!!

حكمة العدد (٧٠) **:** إننا لا نمر مرورا غير ذي بال على أحداث سيرة نبينا ﷺ، وإنما نقتطف من بساتينها الغناء زهرات لا زهرة واحدة! وذلك لأننا وحين نقف على العدد(٧٠)، وإذ كان هو مجموع مقاتلي كل من يوم أحد، ويوم حمراء الأسد، ويوم بني المصطلق الذي بين أيدينا!! نقول هذا ولا نملك دليلا معتبرا على حكمته، وبقدر أنه في نفس الوقت لا يمكننا إمراره هكذا دون وقفة تأمل- على الأقل-، ولعل حكمة وإن جهلناها من ورائها، ولأنه تعالى العزيز الحكيم ذو الحجة البالغة!

---

(١) صحيح مسلم: ٢٥٧٧

يسجل التاريخ أن الإسلام له سبق نظامه المحكم، وله تفرد انضباطه المبرم، وحين نظمت صفوف المجاهدين يوم بني المصطلق، فهذه راية المهاجرين لأبي بكر أو لعمار بن ياسر- على خلاف- وهذه راية الأنصار لسعد بن عبادة، وهذا تنظيم قائم على التقارب والتوافق الاجتماعي فحسب، ولسنا نشتم منه رائحة التمايز الطبقي!! ولأن الإسلام إنما جاء لدك حصون العيبة الجاهلية، وكان منها ذلكم التمايز البغيض، وحين أقض الإسلام مضاجعه، ولأنه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح.

قال الله تعالى﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ۚ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ۚ إن الله عليم خبير** ﴾[الحجرات:١٣].

وعن جابر بن عبدالله: يا أيها الناس إن ربكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم[١].

يسجل التاريخ أن أمتنا غنية عن غزوة، وأن ديننا براء من حرب، إلا ما فرض عليه فرضا! وكان منه التماس الإسلام من بني المصطلق، ورغم عدوهم لمهاجمة المسلمين، وحين أذن الفاروق عمر- رضي الله تعالى عنه- فنادى في الناس: أن قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم، فأبوا فتراموا بالنبل![٢]. وإنهم حين لو قالوها لعصموا هم دماءهم وأموالهم ونساءهم، حتى جويرية بنت الحارث!

---

(١) غاية المرام، الألباني: ٣١٣. خلاصة حكم المحدث. صحيح.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ١٧٨/٤

إن عبارة الصحيح: من حديث عبد الله بن عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال فقال: قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق، وهم غارون في أنعامهم: لا يفهم منها أنهم غاروا دون دعاء- أي دعوة القوم- ولأن هذا أصل معهود ذكر أم لم يذكر في سياق الحديث، ولا سيما وروده فيما سواه، وجمعا بينهما، نقول بلزوم الدعوة قبل الغزو، وخاصة أن أحد الدليلين نص صراحة، والآخر جاء مبهما لا نص أو خلافه.

فعن عبدالله بن عمر: **إن النبي صلى الله عليه وسلم أغار على بني المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذ جويرية"** [١].

وعن ابن عون كتبت إلى نافع أسأله عن دعاء المشركين عند القتال فكتب إليّ أن ذلك كان في أول الإسلام وقد أغار نبي الله صلى الله عليه وسلم على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تسقى على الماء فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث حدثني بذلك عبد الله وكان في ذلك الجيش[٢].

وأصيب رجل من المسلمين من بني ليث بن بكر اسمه هشام بن صبابة أخو مقيس بن صبابة، أصابه رجل من الأنصار من رهط عبادة بن الصامت بسهم وهو يرى أنه من العدو فقتله خطأ [٣].

---

(١) صحيح البخاري: ٢٥٤١

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٢٦٣٣

(٣) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: (٣٠٩/١)

حين قتل مسلم أخاه المسلم خطأ يوم بني المصطلق، وطالب أخوه النبي ﷺ بديته فدفعها: وهذا برهان أن القتل الخطأ فيه الدية، وأنها تدفع من بيت المال العام، وحين كانت في غير علاقة شخصية، بل في علاقات العمل وبسببه!

بعض النفوس تحمل من غرائب الأمور ما يجعل الحليم حيران! وذلك يوم أخذ الرجل دية أخيه من النبي ﷺ، إلا أنه عدا على قاتله فقتله!! وزاد على ذلك ردته!! وهكذا حين يسلم المرء نفسه لا لضوابط دينه الذي يحمله بل لهوى غلبه أو لغوي لبسه!

الجزاء من جنس العمل: وهذا الذي حدث يوم الفتح، وحيث كان مقيس بن صبابة من الأربعة الذين أهدر رسول الله ﷺ دماءهم، وإن وجدوا معلقين بأستار الكعبة. ولأنه كان مسلما فارتد، وبعد أخذه دية أخيه هشام بن صبابة الذي قتل خطأ يوم بني المصطلق، ثم أغار على قاتل أخيه فقتله فصار حربيا بامتياز!!

فعن سعد بن أبي وقاص: لما كان يوم فتح مكة، أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس، إلا أربعة نفر وامرأتين وقال: اقتلوهم، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة وعبد الله بن سعد بن أبي السرح فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله فقالوا: وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك، هلا أومأت إلينا بعينك؟ قال: إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين[١]

* * *

(١) صحيح النسائي، الألباني: ٤٠٧٨

لا تزال عيبة الجاهلية منهجا معيبا متبعا؛ من هوى أو من جهل أو من كليهما معا! وذلك حين تقاتل جهجاه مولى عمر الفاروق وسنان بن وبر الجهني خائف بني سوف من الخزرج على الماء وتصايحا هذا بالمهاجرين وذلك بالأنصار!!! وقد كان أمكنهما وأد فتنة الجاهلية مكانها، وحين علما أن الولاء لله[1] .

وعن جابر بن عبدالله: كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الأنصاري: يا للأنصار وقال المهاجري: يا للمهاجرين قال: فسمع النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال: (ما بال دعوى الجاهلية)؟ فقالوا: يا رسول الله رجل من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار فقال: (دعوها فإنها منتنة) فقال عبد الله بن أبي ابن سلول: قد فعلوها لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال: (دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه)[2]

وعن جابر بن عبدالله: كنا في غزاة قال سفيان يرون أنها غزوة بني المصطلق فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال المهاجري يا للمهاجرين وقال الأنصاري يا للأنصار فسمع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما بال دعوى الجاهلية قالوا رجل من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار فقال النبي صلى الله عليه وسلم دعوها فإنها منتنة فسمع ذلك عبد الله بن أبي ابن سلول فقال أوقد فعلوها والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فقال عمر يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال النبي صلى الله عليه وسلم دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه وقال غير عمر فقال له ابنه عبد الله بن

(١) يراجع في ذلك: السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣ /٧٥٨

(٢) صحيح ابن حبان: ٥٩٩٠

عبد الله والله لا تنقلب حتى تقر أنك الذليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز ففعل[١].

ينبغي ألا يخرجنا الهدف الأعلى، هدف إعلاء كلمته تعالى، وحين آلى أحدنا على نفسه ذلك، عن جادة صوابنا، ولينال من أخيه؛ سدا لذرائع الهوى، وإغلاقا لمنافذ إبليس، وكمثل ما حدث يوم المريسيع بين مسلمين: جهجاه المهاجري وسنان الأنصاري. وكاد احتدام وطيس بينهما، وحين التنادي بعيبة الجاهلية، والتي جاء ديننا أول ما جاء لينحسم جرحها ويبترن أصلها!

* * *

يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل حدبا على ابن أبي، ودفعا عنه[٢]: هذا جيل تربى على التماس الأعذار، ولا تأخذنه عجلة من أمره، ولأن الشيطان يفعل فعله في هذا الجانب، ولأنه حين يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب لكنه لم ييأس من التحريش بينهم. ولعل هذا يكون متوافرا بين الأخوين في الله أكثر!!! وحين يولي أحدهم ظهره لأخيه، وكأنما محيت من صحيفته بنود التماس الأعذار!!! وكأن لم تكن بينه وبينه مودة يوما! وهو إذ تراه يكاد يفعل الأفاعيل في التماس الأعذار لمن سواه! وباسم التصنع والتودد لصالح الدعوة!!! وها هو قد قطع حبال المودة بينه وأخيه!!! وحين كان من إثمها ما قال الله تعالى عنه **﴿وما يضل به إلا**

(١) سنن الترمذي: ٣٣١٥ ، حسن صحيح.

(٢) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ٢٦١

﴿الفاسقين﴾[البقرة:٢٦]. **﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ۚ أولٰئك هم الخاسرون ﴾** [البقرة:٢٧].

قال أسيد بن حضير: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز[١]: وهذا ربت على صدر القائد؛ لطمأنته أن الرأي العام معه، وذلك رغم سماع أصوات خافتة أو معلنة من تخرصات جهات المعارضة، وكابن أبي بن سلول! وإن حسن أن يعمل لها حسابا، خشية ضوضائها. وأخذها بغير العصا! هديا وسنة! وهذا الذي حدث يوم لم يقتل نبينا ﷺ ابن أبي؛ لا نزولا على رأي عمر! وهذه سياسة شرعية في أمور الراعي والرعية، قل الانتباه إليها! فيحدث في اللحمة شروخ لا شرخا واحدا، يظل أثره باقيا لينخر في جسدها، وبدل أن تتفرغ لتقدم الصنائع، وإذ بها تعد عدتها في صنوف الكيد لمعارضيها، فينسيها عملها الأقوم، وسبيلها الأعظم!!!

مشى نبينا ﷺ بالناس يوم محاولة ابن أُبَيٍّ خلخلة الصفوف حتى يتعبوا!!!! ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض، فوقعوا نياما!!! وهذه سياسة نبوية في القيادة!! وإذ أراد ﷺ بما لديه من إمكانات القائد الماهر أن يئد الفتنة، وذلك بابتكار ند وصفه، وحين يمشي الناس فيتعبون فيخلدون!! حتى إذا استيقظوا راح كل إلى عمله، هادئا ثورانه وخاملا بركانه!!!

ثم نزل ﷺ بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما!! [٢].

وهذا فن إدارة في القيادة، وتراك تلمست فيه الحكمة البالغة، وحين كان المشي

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج ٢ / ١٩٣

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ١٨٠/٤

أمرا صحيا مطلوبا لراحة الأجساد، وحين كان من شأنه إراحة الأعصاب، فينام الناس من إثره، وكل هذا مشروع، بل ومطلوب أن تتربى الأمم على رياضة المشي لما سبق!!

ولكنك ترى إلهاء الجماهير بما ليس بنافع مجتمعا!! من مثل مسلسل أو عرض تمثيلي أو سينمائي أو استعراضي!! ونحو ذلك مما يعد خروجا عن قيم الأمم ومبادئها التي قد تربت عليها، ومالت بأفئدتها إليها! فخسر المجتمع أكثر مما كسب!! وحين أهدرت أموال، وضيعت أوقات، فيما لا يحل، وحين شوشنا على الناس إلفهم الاجتماعي، وإرثهم وشأنهم الشرعي، فذاق الناس أجمعون وبال الصنيع، وحين كان عملا غير صالح، فلا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى!!! وإن فن إدارة الأمم حسن أن يكون نابعا من إرثها الشرعي ومن إلفها الاجتماعي، وكيما لا يحدث انفصام بينها وبين أمر ربها، فتذوق وبال أمرها مرتين!!!

فلما راح رسول الله ﷺ هبت على الناس ريح شديدة، فآذتهم وتخوفوها، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخوفوها فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار»[١]: وهذا علم نبوة ضاف، ولا يكاد يمر بنا حدث في سيرته ﷺ إلا وهو غدق بعلم نبوة موجب طمأنة الجماهير، وسبيل تجديد اليقين في قلوبهم، وهذه رسالة إلى وسائل الإعلام الحديثة، أن تربت على صدور الناس فتتقدم بين أيديهم الفينة بعد الفينة الأخرى ما يكون سبيلا إيجابيا لقناعاتهم السياسية، وبما تدار به بلدانهم، شرط صدقه، وملاءمته لموروثاتهم؛ كيما لا يلفظوه!!!

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢/٢٦٢

فلما راح رسول الله ﷺ هبت على الناس ريح شديدة، فآذتهم وتخوفوها، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخوفوها فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار». وبالفعل حين قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت أحد بني قينقاع، وكان عظيما من عظماء اليهود وكهفا للمنافقين مات ذلك اليوم!!! (١).

إن إدارة الأمم فنون، ومن ذلك بعث الطمأنينة في قلوبهم، وعند كل حدث، وبحيث يمكن تسخير كل حدث لخدمة الأهداف العليا للأمة، والتي قامت أول ما قامت على أسسها، وبحيث لا يمكنها إحداث شرخ فيه، فتحدث ثلما ما هي بمالكة ما به تزيل أثاره الجانبية!!!

* * *

كان زيد بن أرقم هو الذي رفع إلى نبينا ﷺ عن عبد الله ابن أبي بن سلول قوله: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فأكذبه عبد الله بن أبي وحلف أن زيد بن أرقم كاذب، فأنزل الله تصديق زيد بن أرقم، فتبادر أبو بكر وعمر إلى زيد ليبشراه فسبق أبو بكر عمر فأقسم عمر ألا يبادره بعدها إلى شيء، وجاء النبي ﷺ فأخذ بأذن زيد وقال: وفت أذنك يا غلام!!! (٢).

إن تصديق القرآن الحكيم لصحابة نبينا ﷺ غير مرة، برهان أن هذا الكتاب سماوي!! وحين كان إلفا اجتماعيا للصحب الكرام، وحين تنزل بما قالوه أو فعلوه، برهان نسبة كل قول إلى قائله، وكل فعل الى فاعله؛ لاستخراج مكنونات النفوس؛ نهضة للأمة؛ وهذا هو نبينا ﷺ القائد، ينسب إليهم ما نسبه

(١) [إمتاع الأسماع، المقريزي: ج ١/ ٢١١].
(٢) [الاستيعاب، ابن عبد البر: ج ٢ / ٥٣٥].

القرآن إليهم، وهذه رسالة إلى القادة وغيرهم، أن ينسبوا كل قول أو فعل إلى صاحبه؛ وكيما لا يضن الموظفون عن إبداء نصح، تتقدم به المؤسسات!!

عن أنس بن مالك: حزنت على من أصيب بالحرة، فكتب إليَّ زيد بن أرقم - وبلغه شدة حزني- يذكر: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار - وشك ابن الفضل في: أبناء أبناء الأنصار- فسأل أنسا بعض من كان عنده، فقال: هو الذي يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا الذي أوفى الله له بأذنه[١].

«هذا الذي أوفى لله بأذنه»: وهذا استنهاض لما في دواخل النفوس من طاقة خلابة، وما وهب الله تعالى منها لكل عبد، ما به تتكامل الطاقات، وتتلاقح الأفكار، وتتوالد الإبداعات، وإذ ليس كل أحد محيطا، وإذ كان في ذلك سنة ربانية لقيادة العمل الجماعي، وبحيث كل يدلي بما منحه الله تعالى من رزق الرأي وصواب المشورة، ومن ثم ينسب كل ذي رأي إلى رأيه، ولتتضامن المؤسسة وتعلو، وحين كان فريقها هكذا بروح وثابة، يألف بعضهم بعضا، ويحب بعضهم بعضا؛ حسبة لله تعالى؛ ولأنه من حقوق وواجبات الأخوة في الله تعالى، وكذا المواطنة، وإذ كان من ألف بائها نسبة كل فضل لأهله.

* * *

حين علم عبدالله بن عبدالله بن أبي بن سلول بمداولات حول قتل أبيه، راح لنبينا صلى الله عليه وسلم، وأخبره أن لو كنت لا بد فاعلا، فكلني إلى ذلك، وحتى لا يقتل مؤمن بكافر!!! وهذه ملاحظات الواقعية والإيجابية، التي لا تتخلف

---

(١) صحيح البخاري: ٤٩٠٦

يوما عن ديننا، وحين كان رده صلى الله عليه وسلم أنه سيرأف به ما دام ظاهرا في الصف، ولو أخبرت السماء بنفاقه! وحين قال صلى الله عليه وسلم: بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا»[١]. وأيضا فيه مراعاة الجوانب العاطفية الفطرية بين الابن وأبيه، وإن اختلف الدين، وعلاوة على وقوف الشريعة إزاء ذلك بالقبول والترحاب؛ ولأن الفطرة هي الفطرة، وهذا ما جبل الله تعالى الخليقة عليه، إلفا اجتماعيا، به تقوم الأمم وتتأسس الحضارات!

كيف ترى يا عمر أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته»[٢]: وهذا بعد نظر القائد وحكمته، ومنه نتعلم أن شيئا ما يغيب عن آحادنا، وحين يدلي برأي، ربما كان في مخيلته وحده، وصوابه وحده أيضا. والفروق الفردية جبلة جبل ربنا تعالى الناس عليها، ورب رأي رآه أحدنا حقا، فأصبح باطلا، وإذ أظهر عيبته صواب آخر، ومنه فلا يصر آحادنا على رؤيته؛ فرب حامل فقه ليس بفقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه!

فعن جبير بن مطعم: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخيف من منى، فقال: نضر الله امرأ سمع مقالتي، فبلغها، فرب حامل فقه، غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لولاة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم، تحيط من ورائهم[٣].

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣ / ٧٦٠
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣ / ٧٦١
(٣) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٢٤٩٨

قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري: وهذا أيضا ما يوجب تمهلا، وحين يدلي آحادنا بدلوه، وليرفق، وليهدأ، وليلتمس، وليعذر؛ محافظة على روح الجماعة، وتضامن الأخوة، وانسجام الفرقاء؛ وكيما تغشاهم الرحمة، وحين لا يضرب الله تعالى قلوبهم ببعض، وحين ولى كل دبره، وباسم الإسلام الخالد!!

وهذا هو عبد الله بن أبي بن سلول، يصلي عليه نبينا ﷺ يوم مات، ولأن هذا من حكمة دعوته ﷺ، ورغم علمه خالص نفاقه، لكن الظاهر أنه كان في الصف، ولكن عدم صلاته عليه كانت سوف تفعل ما أشار به ﷺ يوم أشار عمر بقتله، وهو قوله آنف الذكر: كيف ترى يا عمر أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته؟!

وعن عمر بن الخطاب: لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول دعي له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه، فلما قام رسول الله عليه السلام، وثبت إليه، فقلت: يا رسول الله، أتصلي على ابن أبي، وقد قال يوم كذا وكذا: كذا وكذا، أعدد عليه قوله، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: أخر عني يا عمر، فلما أكثرت عليه قال: إني خيرت فاخترت، ولو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له زدت عليها. قال: فصلى عليه[١].

وهذا هو مقتضى إيمان العبد، وحين قال تعالى **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهمۗ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا﴾** [الأحزاب:٣٦].

(١) تخريج مشكل الآثار، شعيب الأرناؤوط: ٦٨ ، صحيح.

مسألة العزل

كانت غزوة بني المصطلق فتحا في مسألة جواز العزل، وحين تشاور فيها الصحب الكرام، وانتهوا إلى نبينا ﷺ، وألا يفعلوا فعلا ولو خاصا لفطرة الميل الى النساء إلا بإذنه ﷺ، وحين كان فيه شرعنا متوافقا مع الأحوال الاجتماعية، وليس بمنفصم عنها، وكما قال ﷺ:«ما عليكم أن لا تفعلوا، ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا كائنة.

فعن أبي سعيد الخدري: دخلت المسجد، فرأيت أبا سعيد الخدري فجلست إليه، فسألته عن العزل، قال أبو سعيد: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق، فأصبنا سبيا من سبي العرب، فاشتهينا النساء، واشتدت علينا العزبة، وأحببنا العزل، فأردنا أن نعزل، وقلنا: نعزل ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا قبل أن نسأله؟! فسألناه عن ذلك، فقال: ما عليكم أن لا تفعلوا، ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة[١].

* * *

زواجه صلى الله عليه وسلم من جويرية بنت الحارث

أظهر الله تعالى نبيه ﷺ يوم بني المصطلق، وكان منه سبي نسائهم، ووقعت جويرية بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس، فكاتبته على نفسها، ولم يكن معها مال الافتداء، فأقبلت على نبينا ﷺ تطلب فداءها، وتستعينه ﷺ على ذلك،

---

(١) صحيح البخاري: ٤١٣٨

وكانت على حكاية عائشة أم المؤمنين حلوة ملاحة! ورأت أنه لو رآها ما خلاها! وهذه أمور فطرية لا لوم عليها!! ولسنا نريد أن يضرب على هذا الوتر كثيرا؛ ولأجل الفطرة وكفى! وحين عرض عليها القضاء عنها، على أن يتزوجها، وهذا إيجابه، ووقعت الموافقة، وهذا قبولها رضي الله تعالى عنها.

خرج خبر زواجه ﷺ إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية بنت الحارث. فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما بأيديهم من فيئ احتراما لصهارة نبيهم ﷺ. وما كانت امرأة أعظم بركة على قومها منها ولأنه قد أعتق لسببها مائة!!!

فعن عائشة أم المؤمنين: وقعت جويرية بنت الحارث بن المصطلق في سهم ثابت بن قيس بن شماس أو ابن عم له فكاتبت على نفسها وكانت امرأة ملاحة تأخذها العين قالت عائشة فجاءت تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابتها فلما قامت على الباب فرأيتها كرهت مكانها وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيرى منها مثل الذي رأيت فقالت يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث وإنما كان من أمري ما لا يخفى عليك وإني وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس وإني كاتبت على نفسى فجئتك أسألك في كتابتي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهل لك إلى ما هو خير منه. قالت: وما هو يا رسول الله قال: أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك. قالت: قد فعلت. قالت: فتسامع - تعنى الناس - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج جويرية فأرسلوا ما في أيديهم من السبي

فأعتقوهم وقالوا: أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها أعتق في سببها مائة أهل بيت من بني المصطلق[1].

وهذه محبتهم لنبيهم صلى الله عليه وسلم، وحين أكرموه في أهله، وبركة نزلت بآل بني المصطلق؛ سبب صهارته صلى الله عليه وسلم لهم. **﴿ ذَٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء ۚ والله ذو الفضل العظيم ﴾**[الجمعة:٤].

وهذا فضله تعالى على امرأة كجويرية، وحين نالت فضل انتسابها إلى بيت سيد ولد آدم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، زوجة لرسول رب العالمين، وأما للمؤمنين.

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٩٣١.

الفصل الثالث

حديث الإفك. أحداث ودلالات

عن عائشة أم المؤمنين: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه، فأيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما أنزل الحجاب، فكنت أحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل، دنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فلمست صدري، فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوني، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يهبلن، ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل فساروا، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي، غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلمنا بكلمة، ولا

سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول، قالت: فهلك من هلك، وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول، قال عروة: أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده، فيقره ويستمعه ويستوشيه، وقال عروة أيضا: لم يسم من أهل الإفك أيضا إلا حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، في ناس آخرين لا علم لي بهم، غير أنهم عصبة، كما قال الله تعالى، وإن كبر ذلك يقال له: عبد الله بن أبي ابن سلول، قال عروة: كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وتقول: إنه الذي قال: فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء قالت عائشة: فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهرا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم، ثم يقول: كيف تيكم، ثم ينصرف، فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت حين نقهت، فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع، وكان متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا، قالت: وأمرنا أمر العرب الأول في البرية قبل الغائط، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، قالت: فانطلقت أنا وأم مسطح، وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلا شهد بدرا؟ فقالت: أي هنتاه ولم تسمعي ما قال؟ قالت:

وقلت: ما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، قالت: فازددت مرضا على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم، ثم قال: كيف تيكم، فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، قالت: فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: يا أمتاه، ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية، هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثرن عليها، قالت: فقلت: سبحان الله، أولقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، قالت: ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي، يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلك، ولا نعلم إلا خيرا، وأما علي فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟. قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق، ما رأيت عليها أمرا قط أغمصه غير أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، قالت: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي، وهو على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما يدخل على أهلي إلا معي. قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل، فقال: أنا يا رسول الله أعذرك، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام

رجل من الخزرج، وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه، وهو سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، قالت: وكان قبل ذلك رجلا صالحا، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل. فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: فثار الحيان الأوس، والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر، قالت: فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم، حتى سكتوا وسكت، قالت: فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوما، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي، فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء، قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس، ثم قال: أما بعد، يا عائشة، إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب، تاب الله عليه، قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم عني فيما قال: فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال: قالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: وأنا جارية حديثة السن:

لا أقرأ من القرآن كثيرا: إني والله لقد علمت: لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة، لتصدقني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلا إلا أبا يوسف حين قال: {فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون} ثم تحولت واضطجعت على فراشي، والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيا يتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه من العرق مثل الجمان، وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فسري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: يا عائشة، أما الله فقد برأك. قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل، قالت: وأنزل الله تعالى: {إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم} العشر الآيات، ثم أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق: وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا، بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: {ولا يأتل أولو الفضل منكم} - إلى قوله - {غفور رحيم}، قال أبو بكر الصديق: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا، قالت عائشة: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال لزينب: ماذا علمت، أو رأيت. فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما

علمت إلا خيرا، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع، قالت: وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت، فيمن هلك قال ابن شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط ثم قال عروة، قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: سبحان الله، فوالذي نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثى قط، قالت: ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله[١]

هذا حديث صحيح، رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، ويحكي لنا حديثا تقشعر من ذكره القلوب والأبدان، وليس أحدهما وحده! وذلك لأنه يروي لنا قصة الصدق، في ثوب الصدق نفسه!! وبحيث إنك لست بواجد منه إلا ذكرا لحديث، قد تربع صدقا في دلالته، وكما قد تبوأ صدقا من روايته، وإذ لا علاقة بينه وبين غيره من أحاديث- ولو من طرف- إلا حديث الصدق وحده!!

ولست بسالك مسالك، وإلا كمثل أفذاذ سبقوا، وإذ لست مضيفا إلى علمهم علما، سوى ما يعد ظلالا لما حفلت به الكثير من أحاديث الناس، وإذ قد استعصت حصرا، وما ذاك إلا لاهتمامهم بشأن رد كيد كل ذي كيد إلى نحره، فرحمهم الله تعالى جميعا أحياء وأمواتا.

وإنما سوف أسلك سبيلا، تكون محطاته هي نفس محطات الأفذاذ الآخرين، وإن من زاوية أخرى، وليقبل قارئ كريم دعوتي أن يصاحبني رحلة، سيألف منها قولا رشيدا، وصوابا ورأيا سديدا، وليأخذن بلبه أخذا! وإذ نحن

---

(١) صحيح البخاري:٤١٤١

جميعا شركاء هما واحدا، هو ذلكم الذود عن حياض ديننا الحنيف، ولما كان هو الإسلام ﴿ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾[آل عمران: ٩٥].

ولئن كان من حظنا، ولئن وقع من نصيبنا، أن نلوذ بحياض الدفع عن سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ كان ذلك من أقل واجب، ندين به الله تعالى ربنا العلي الأعلى سبحانه، ونحو ديننا، ومنه تجاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ كان ذلكم كذلك نحو آل بيته صلى الله عليه وسلم أيضا.

﴿لا تحسبوه شرا لكم ۖ بل هو خير لكم ﴾! وإذ كان ذلك جريا وراء نظم القرآن المجيد، وإذ جعل ذلكم الحدث العالمي خيرا لنا كلنا، وإذ كان هو نفسه لا سبب خير وحسب، بل هو الخير نفسه!! وهذا تعبير جليل القدر، عظيم الأثر، وحين تسري منه قشعريرة في سائر عروق العباد، وإذ كان هذا التأثير القرآني المجيد في أوصالهم- جميعا- جميعها أيضا! وإذ كان من حسن ظنهم بربهم أنه تعالى ليس يقدر في ملكوته الواسع العريض، إلا شأن الخير كله، ولعل هذا هو مصداق قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من حديث صهيب بن سنان الرومي: **عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرا له**[١].

وإذ كان خيرا كله، وذلك ما يقدره الرب الرحيم لعبده، إلا أنه صرف عنه كل سوء، وإلا أنه محا عنه كل شر، يمكن ورود معنى له في قواميس الألفاظ، وحين قال تعالى: ﴿لا تحسبوه شرا لكم ۖ بل هو خير لكم ﴾! وهذا أيضا في تعبير رباني حان لطيف، يأخذ بمجامع العبيد أيضا، وإذ كان من لطفه تعالى أن جعل

---

(١) صحيح مسلم: ٢٩٩٩

حديث الإفك منفكا عن كل شر، ممكن تخيله، وفي ذات الوقت متضمنا لمعاني الخير كله، فجمع بين إثبات الخير كله، ونفي نقيضه كله، وهو الشر كله أيضا!! وباستعمال حرف الابتداء بل، وما يحمله من إضراب كلي عن الشر كله، بل ليس إضرابا وحسب، وإنما إبطالا له ولمعناه ولأثره معا! وإلى إقبال كلي على الخير كله أيضا! لا إثباتا له وحسب، وإنما إثباتا لمعانيه وآثارها أيضا، وهذه من لفتات القرآن العظيم، الموجبة علما يسري لأداء مهمات التذكر والاعتبار الأعلى، وفي أعلى معانيها أيضا!

قال الله تعالى﴿ **إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ۚ لا تحسبوه شرا لكم ۖ بل هو خير لكم ۚ لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ۚ والذي تولىٰ كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾[النور:١١].

تعدد روايات حديث الإفك وأثره: وإذ قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة وعبد الله بن أبي بكر عن عمرة بنت عبد الرحمن، عن عائشة عن نفسها حين قال فيها أهل الإفك ما قالوا.[(١)].

وهذان طريقان جاءنا منهما حديث الإفك المشهور، وإذ قد تضمن كل طريق اثنين منفصلين، وحيث كان الأول من طريق عبد الله بن الزبير عن أبيه، وهذان اثنان، وحيث كان الثاني من طريق عبد الله بن أبي بكر عن عمرة بنت عبد الرحمن، وهذان اثنان آخران أيضا، وكلا الطريقين عن عائشة رضي الله تعالى عنها، فصار الرواة من ههنا أربعة، ويحال تواطؤهم جميعا على الكذب، كما

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ١٨٣/٤

لا يحال تواطؤهم على الصدق! سوى أنهم قد تربوا على مائدة الحق، وفي الصدر الأول منه، وبالتالي فيكون كل واحد منهم صادقا منفردا عن غيره، فكان خبره وحده قول الحق الذي فيه يمترون، وحين نجمع كل صدق إلى صدق مثله، فسنحصل على صدق مضاعف مركب، ليس يكون أمامنا معه سوى التصديق، ولأن هذا كان حديث الشارع في محيطه، وإذ كان هذا الانتشار وحده آية عظمى!!!

ولأن ألسنة كثيرة ستتناوله، مما يعنى إخراجه في قالبه الذي وقع به، وبحيث يسجل التاريخ شهادات مؤتلفة لا مختلفة، وبما رآه رأي عينه تماما، وبلا محاباة لأحد كائنا من كان هذا الأحد، ولأن التاريخ وظيفته إثبات الحقائق كما هي، وبأدواته التي لا يفوت منها شيء! ومن ثم كشف النقاب عن هذه الحقائق؛ لتبدو جلية مجلاة ناصعة بيضاء بادية، لا خفاء فيها، ولو بوجه!!!

فعن الزهري: وكل قد حدثني بهذا الحديث، وبعض القوم كان أوعى له من بعض، وقد جمعت كل الذي حدثني القوم[1].

و"هذا الذي ذكره الزهري من جمعه الحديث عنهم جائز لا منع منه، ولا كراهة فيه، لأنه قد بين أن بعض الحديث عن بعضهم، وبعضه عن بعضهم، وهؤلاء الأربعة أئمة حفاظ ثقات من أجل التابعين، فإذا ترددت اللفظة من هذا الحديث بين كونها عن هذا أو ذاك لم يضر، وجاز الاحتجاج بها لأنهما ثقتان، وقد اتفق العلماء على أنه لو قال حدثني زيد أو عمرو وهما ثقتان معروفان بالثقة عند المخاطب جاز الاحتجاج به"[2].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ١٨٣/٤

(٢) النووي على مسلم: ١٧/ ١٠٢- ١٠٣

وقال البخاري رحمه الله تعالى: **حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال حدثني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، وكلهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض، وأثبت له اقتصاصا، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة، وبعض حديثهم يصدق بعضا، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض**[1] .

وهؤلاء أربعة أخرون عن ابن شهاب قد رووا حديث الإفك، عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، مما كان مجموعهم ثمانية، وجميعهم عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، ونعيد التأكيد مرة أخرى، أن هذا الرهط يحال تواطؤهم على الكذب؛ ولعدالتهم وضبطهم، وكما اشتهروا به لدى أئمة هذا الفن.

فكل قد دخل في حديثها عن هؤلاء جميعا، يحدث بعضهم ما لم يحدث صاحبه نصا، ولو من وجه، وكل كان عنها ثقة، فكلهم حدث عنها، بما سمع[2] .

هذا؛ "ومعنى هذا أن الرجل إذا جمع بين حديث جماعة وساق الحديث سياقة واحدة فالظاهر أن لفظهم لم يتفق، فلا يقبل هذا الجمع إلا من حافظ متقن لحديث، يعرف اتفاق شيوخه واختلافهم كما كان الزهري يجمع بين شيوخ له في حديث الإفك وغيره"[3]

---

(١) صحيح البخاري، باب حديث الإفك: ٣٥٥

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ١٨٣

(٣) شرح علل الترمذي، ابن رجب: ٤٧/١

وحدة موضوع حديث الإفك وإن تعددت رواياته: وهذا الذي ذكره التاريخ، توكيدًا لذكر حديث الإفك! والذي منه يحال تغاير الحق الذي جاء به، ولأن صاحبة البلوى فيه ربما قد ذكرت حديثها غيرة مرة، وأنبأت به عدة مرات: مرة لأبيها، وأخرى لأمها، وثالثة لزوجها نبينا صلى الله عليه وسلم، ولعل غيرها...، ويحال عليها أن تحفظ ما قالته نصا كل مرة، وكما يقع من آحاد الناس، وحين يقصص قصته غير مرة، فإنك لا بد واقف على نبرة صوتية هنا، وعلى أخرى هناك! ولئن كان يحال الخلاف بين مضمون كل حديث سبق عنها أو عن غيرها في مثل ما حكينا وقررنا.

وذلك مقتضاه أن يكون تعدد الحق الذي ورد مستويا على حظه من التوكيد، وليتكون من مجموع ذلك سفر، يوضع أمام وجانب ما يشبه التحقيق النيابي، الذي أفرز من خلاله أن يكون القاضي ملما بأوراق الدعوى المختلفة، ومن ثم ليصدر حكمه التاريخي النهائي البات، وهو ذلكم الذي تركه لنا التاريخ؛ لنعيش على أمجاده مغربلا بغرابيل الحق، لا غربالا واحدا!!!!

زكاء نفوس وطهارة قلوب: إن قوما خرجوا يوم غزوة بني المصطلق، وإذ كان مبتغاهم فيها الجنة، لم يكن لديهم ذلكم الذي أفك الأفاكون إفكه! ولأن كل واحد منهم ما أخرجه إلا ذلكم الاهتمام العالي بمعالي الأمور، وخاصة أنهم رجعوا بفيء عظيم، كان منه نساء بني المصطلق!!! وبالتالي فيحيل العقل على مثل وضعهم هذا أن يروح تفكير أحدهم لحرام! وهذا هو الحلال الطيب بين أيديهم! وصبر عليه ريثما يوزعه نبيهم صلى الله عليه وسلم، هو ذلكم الفارق الزمني بين شهوة حلال منتظرة، وبين شهوة حرام يحال على من كان في وضعهم يومهم هذا

أن يقوده شيطانه إليها، ولو كلمح بصر، ولو خاطرة نفس أمارة! والذي منه أيضا، وإذ كانوا يعرفون، كما يعرف العقلاء، أن لوثة من هذا النوع من السيرة تظل لصيقة بصاحبها وما ولد! ما بقي التاريخ يسجل! والتاريخ باق مسجلا أبدا!!!!

هذا؛ وقد زعم أن تأخر صفوان بن المعطل عن القوم يوم بني المصطلق كان لحاجة في نفسه! وهذا قول معرى عن كل صدق، وكما أنه متلبس بكل كذب، ومكتنف بسائر الشك والريب! وكما أنه يفتقد إلى دليل صالح تسنده أوراق الدعوى الماثلة أمامنا!

وهذا هو قول عائشة، ولم يكذبها التاريخ في شهادتها تلك، فدل على صدقها فيها: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: سبحان الله، فو الذي نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثى قط، قالت: ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله.

و" قالت فبلغ الأمر ذلك الرجل فقال سبحان الله والله ما كشفت كنف أنثى قط أي ما جامعتها والكنف بفتحتين الثوب الساتر ومنه قولهم أنت في كنف الله أي في ستره والجمع بينه وبين حديث أبي سعيد على ما ذكر القرطبي أن مراده بقوله ما كشفت كنف أنثى قط أي بزنا قلت وفيه نظر لأن في رواية سعيد بن أبي هلال عن هشام بن عروة في قصة الإفك أن الرجل الذي قيل فيه ما قيل لما بلغه الحديث قال والله ما أصبت امرأة قط حلالا ولا حراما وفي حديث بن عباس عند الطبراني وكان لا يقرب النساء فالذي يظهر أن مراده بالنفي المذكور ما قبل هذه القصة ولا مانع أن يتزوج بعد ذلك فهذا الجمع لا اعتراض عليه إلا بما جاء عن بن إسحاق أنه كان حصورا لكنه لم يثبت فلا يعارض الحديث الصحيح "[١] .

---

(١) فتح الباري، ابن حجر: ٤٦٢/٨، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩

ولئن قيل وما سبب تأخره يومها؟ قلت: قال ابن شهاب: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل، ليقول: سبحان الله، فو الذي نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثى قط، وأن سبب تأخره الصحيح، هو أنه يتتبع ما يسقط من الجيش مما يخفيه الليل[١].

سياج منيع وحصن حصين: إن الناس يرون بأم أعينهم كيف يكون انتقال زوجات السلاطين! وكل منهم يشعر من نفسه حارسا على إحداهن، إن كان في فرق الحراسة المباشرة، أو كأنه يرقب ومن بعيد، ذلكم السياج الحصين، مما كان منه عيون ساهرة على حرم الرئيس! ويحال مع وضع كهذا أن يتخلل لأحدهم إفك أو قريبا منه! أو أن يتخللها هي الأخرى إفك أو طرفة عين منه أيضا! وخاصة أننا نرى بأعين رؤوسنا كيف هي تحركات زوجة الرئيس! وإذ كل العيون عليها، ومن منزلها الذي خرجت منه، وإلى أن تعود إلى عشها مرة أخرى! وهذا عرف جار ما جرى تاريخ، وعلى اختلاف تمليه طبيعة البيئات المصاحبة للحدث لا أكثر!

عمر الصديقة الصغير وتربيتها يتأبيان عن نقيصة: كان عمر عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أربعة عشر عاما يوم بني المصطلق! وهذا عمر طفولة بريء طاهر، ويشهد واقع الأحوال أن صاحبة عمر كهذا يحال أن تفكر في إثم أو يخاللها ظله! لا سيما والحال أنها ربيت في محاضن العفة كبيت أبيها أبي بكر! وتزوجت في محاضن العفة والستر كبيت النبي الكريم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم! وهذان الأمران يمثلان وإن جاز التعبير شهادتي حسن سير وسلوك لحقها رضي الله تعالى عنها.

---

(١) معالم السنن، الخطابي: ٣/ ٣٣٧، و فتح الباري: ابن حجر: ٤/ ٣١٦

وانظر قول بريرة الجارية! وحين ناداها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟. قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق، ما رأيت عليها أمرا قط أغمصه غير أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله!!!

وأقول: إن شرف الانتساب إلي بيت النبوة أمر ذو بال، وتعرف ذلك أمهات المؤمنين، وكما يعرف ذلك غيرهن، والذي منه يكون الحرص الشديد، ألا تلاك سمعة إحداهن، ولو بريب أو في جزء منه! ولأن ذلك سوف يكون ثمنه خلع صفة أمهات المؤمنين، وإذ كان وساما على صدورهن جميعهن، وبالتالي كان هذا هو جواز مرورهن- وإن جاز التعبير- على الجنة دارا لخلودهن ونعيمهن.

وإن أنفة طبعية تمتزج بها نفوسهن الطاهرة، وألا يخالجهن منه شيء مما تلاسن به من تلاسن!

﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾: إذ وكيف كنا سنفهم، وعلى أي وجه كان ذا فهمنا لقوله تعالى**﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾**[الأحزاب:٣٣]. ولو لم يكن- كلهن- طاهرات مطهرات، وبحكم السماء، وقول رب الأرضين السبع والسماوات السبع، العلي الأعلى سبحانه؟!

مقتضى الطعن في أمهات المؤمنين: إن وحلا أصاب الخائضين في إفكهم، ليس كان ذاك الذي ألم بهم وحده، وحين كان إفكهم من مقتضى الطعن في خبر السماء نفسه! ولعل خبيئة قلوبهم ههنا؛ وليكشف القرآن المجيد عوارها، وحين

يتنزل كشفا لحقائق، كانت منشأة تنشئة، وإنما أكدها، وبعث فجرها من جديد، وكأنما كل حين، ما بقي قرآن يتلى، وإلى يوم الدين!

الحقائق التاريخية أدلة قاطعة: ذكر التاريخ ولا مراء في ذكره، أن عائشة كانت خفيفة، مما يستوي معه حملها في الهودج أم غير حملها فيه! وهذه حقيقة تاريخية، بمثابة دليل إثبات قاطع، في أوراق الدعوى؛ لأنها حين تركت فكان القصد الجنائي منتفيا، ولتسقط الدعوى من سببه تلقائيا، ولأنه ركنها، ومن حيث لا ركن فلا مركون به أو عليه! ولا سيما والحال كما ذكر منضافا إليه ذلكم الجيل الذي كانت تعرف بهم نسائم عفتهم وطهارتهم و تقواهم، ليس من باب إلا مما سجله التاريخ في صحيفة كل واحد منهم على حده! وخاصة الخصوص أولاء أصحاب الواقعة كلها، فما ذكر التاريخ عنهم إلا صحائف لا بيضاء فحسب، بل كان البياض عنوانا لها!

انعدام الأدلة الجنائية: في أعراف التحقيق النيابي الجنائي يقولون: إن مسرح الجريمة غدق بأدلة الإثبات المتضافرة!! وبقي على المحقق الماهر كيفية استلابها من زقاقها، وحاراتها المتشعبة، والمتقابلة، والمتداخلة، والمتعامدة، والمتوازية والمتخالفة، والمتعاكسة، والمتحالفة، والمتوافقة، والمتراصة جنبا إلى جنب، وعلى هيئة خيوط داهمها التمويه مرة هنا وأخرى هناك! وإذ لم يذكر لنا التاريخ عن أحدهم قولا واحدا، تطمئن إليه محكمة العدل العليا، وإلا ما يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى!

والشأن أنهم متفقون على بقاء أدلة الإثبات، وعلى مسرح الجريمة، ويحال على مجموعة المحققين التاريخيين أن يفوتهم بصيصها، أو ألا يحالفهم حظهم،

والفرض أنهم أولاء المصطفين الأفذاذ لمثل هكذا قضية! وحال إثبات ولو طرف منها لسقط الدين كله، ولم تكن لتقوم له قائمته، التي يتربع على عرشها الآن، وكل آن آخر، فضلا من ربنا العزيز الغالب المتعال سبحانه! وإذ حرص الشيطان أن يلعب فيها الدور الرئيس، والذين كانوا حريصين ولا زالوا للظفر بمجد؛ لتحقيق سبق تحقيقي، يكتب في صحائفهم مجدا لهم، وهذا هو التاريخ لم يذكر سبقا ولو واحدا أيضا، لواحد من هؤلاء جماعتهم وفرادى!! فدلت وقائع الدعوى خلوها من دليل إثبات واحد يشهد لصحتها، بل ولأنها غير ذات موضوع يصلح بساطا للبحث من أصل! وبالتالي فليس أمام القاضي إلا حكمه بالبراءة حكما نهائيا باتا! وهو ما توافق فيه السرد التاريخي مع التنزيل الإلهي، والذي ما عهد عنه إلا ذكر الحقائق مجردة عن شخوصها، ولو كان نبيا رسولا!

إن الشأن في التحقيق النيابي، أنه يتكرر بين فينة وأخرى، من نفس أشخاص التحقيق الابتدائي أو غيرهم، وبتنوع يحفظ له جديته، وحين يتفاجأ المتهم بكيل من الاستجوابات التي لا تخطر له على بال! والتي يمكن استلال الحقيقة بها من أقواله المتعارضة أو المبهمة، والتي بها يصل المحقق إلى خيط، يسوقه إلى تحقيق مجد نيابي، لطالما سهر الليالي من أجله، وهذه هي أقوال الصديقة بنت الصديق رضي الله تعالى عنها، وقد سيقت غيرة مرة، وعلى صغر سنها، فلم يجد المحققون ثغرة- ولو كشعرة- ينفذون من خلالها إلى فوز بسبق تحقيقي نيابي جنائي!

ضمير الجمع وأثره في الدعوى! وإذ قالت عائشة أم المؤمنين: وكان النساء إذ ذاك يأكلن العلق، لم يهجهن اللحم فيثقلن، وكنا إذا رحل لي بعيري جلست في

هودجي، ثم يأتي القوم فيحملونني يأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه، ثم يضعونه على ظهر البعير ويشدونه بالحبال وبعدئذ ينطلقون[1].

هكذا جاءت أقوال المتهمة بلفظ الجمع، ودلك عليه ضمير الرفع المتصل- واو الجماعة- في الأفعال: (فيحملونني، ويأخذون، فيرفعونه فيضعونه، فيشدونه، يأخذون)!!!؛ ولأنه يمكن للمحقق الماهر استلال الحقيقة من تضارب الأقوال في وقائع الدعوى- إن وجد-، ومن أقوالهم جميعا أيضا، وهو واقع لا محالة! ولما لم يجد التاريخ لذلكم ولو ثغرة، ولو كشعرة! فكان حكمه النهائي البات في الدعوى لصالح المتهمة البريئة! وحين برأها ربها من عليائه، وحين وفت السماء بسرعة براءتها، وحين لزمت بيتها، وفوضت إلى الله أمرها، وحين كان ذلك يقينها بربها، وألا يتركها هملا؛ ليخوض الخائضون، وإنما نزل ببرهان قاطع، ودليل ساطع، كفى به أنه كان إفكا، وكما قال تعالى ﴿ **إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ۚ لا تحسبوه شرا لكم ۖ بل هو خير لكم ۚ لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ۚ والذي تولىٰ كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾!!

* * *

وإذ قالت عائشة: فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك، وجه قافلا حتى إذا كان قريبا من المدينة نزل منزلا فبات به بعض الليل، ثم أذن مؤذن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس وخرجت لبعض حاجتي، وفي عنقي عقد لي فيه جزع ظفار، فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت

(١) فقه السيرة، الألباني: ٢٨٨

ألتمسه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته[1].

: وهذه سياقات تحكي الصدق، وكأنما تراه عيونا تجري غدائرها، ولا تحكي سواه، ولأنها كما ترى سليقة بريئة، وكبراءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

وهذا أيضا حكى لنا قصة البراءة في أطراف الدعوى المختلفة.

شهادة الشهود: قالت عائشة: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال لزينب: ماذا علمت، أو رأيت. فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرا، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع، قالت: وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت.

ومهما يكن من أمر فقد نزلت براءتها من السماء.

ومهما يكن من أمر أيضا فقد تحلى نبينا صلى الله عليه وسلم بأروع مقامات الصبر والحكمة في مواجهة أمر ضار كهذا، والتزم أدبا علمه إياه ربه، وحين تحلى بحلم عز، وبهذا المستوى الرفيع السامق، إلا فيه صلى الله عليه وسلم، وحين انتظر براءة السماء لزوج كانت أحب أزواجه إليه صلى الله عليه وسلم.

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج / ٧٦٥

قالت أم عائشة: يا بنية، هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثرن عليها،:هذا ربت أم حانية على ابنتها، وحين وقوع ابتلاء؛ تخفيفا وترويحا وإذهابا لبعض ما ألم بها، وهذا عامل نفسي عظيم، يؤتي أكله وأمام حملات التشهير المقابلة العاتية الضارية، والتي لا ينفك عنها العاملون في حقل ما، ولاسيما حقل العمل الإسلامي، والقائم على مراعاة مشاعر الناس لدرجة عالية، ومن بعد كفر بالطاغوت وإيمان بالله تعالى العلي العظيم، وهذان أساسان جنبا إلى جنب مع منظومة الأخلاق الحسنة في ديننا؛ ولتقوم عليها من قديم ركائز هذا الدين المجيد، فهذه يد تحمل بوتقات العقيدة والتوحيد الخالص لله تعالى وإفراده تعالى بهذا التوحيد والنذارة عن الشرك والبراء منه وأهله، وهذه يد أخرى تحمل قناديل نور الخلق الحسن المجيد، وليبدو بها المسلم منارة خير وعطاء، يمد يد السماحة من دينه، ولأننا لن نسع الناس بأموالنا، وقدر أن نسعهم بحسن أخلاقنا، وهذا هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكما روى أبو هريرة: إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، فليسعهم منكم بسط الوجه، وحسن الخلق[١].

ما علمت عليه إلا خيرا: وإذ قال نبينا صلى الله عليه وسلم: يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما يدخل على أهلي إلا معي: وهذا نصيب العاملين، وهذا قدر المخلصين، لا تفتأ تهدأ عاصفة النيل منهم، ما أصروا على تقديم الخير للناس، وبدل أن يشكروا، وإذ بهم ينكل بهم،

---

(١) السلسلة الضعيفة، الألباني : ٦٣٤

وحين لم يريدوا إلا الإصلاح لمن فسد، وإلا الهدى لمن ضل، وإلا الرشاد لمن غوى، وهذه منظومة عصية على الفهم! غير التسليم بأنها موجودة وجود ابن آدم على ظهر البسيطة!

ولعل النيل كان من حاملي مشاعل الخير للناس كان زادا للناس أن يصروا على نور يبعثوه رسالة محبة، ورسالة أخرى كان مفادها الإصرار على رش قطرات الندى، وعلى وجوههم، وإن خالفوا، وإن ضيقوا؛ ولأن نخلة ترمي بالحجر؛ فتعطي أطيب الثمر!

مفارقة بين حمنة بنت جحش وزينب بنت جحش! وأما حمنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارني لأختها فشقيت بذلك: وإذ كانت قد تكونت جبهة إعلامية؛ لتصيد في مائها العكر، وحين تزعق ظانة أن طنين صراخها ذو أثر، وحين لم تعلم أن السماء تظلل دعاة الحق بسكينتها المعهودة، وأن ذلك هو وقود مشاعل الخير للناس، وفي وقت يوقن أصحاب الدعوات أن هذا الصراخ لا محالة خامد، وحين يحل ليل يرخي سدول سباته على الخيرين، وليصبحوا دعاة الحق من جديد، وإنما كان زادهم في عون السماء، ولئن شنع ابن أبي وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش! وحين لم ترع في زوج أختها ميثاق الشرف الاجتماعي، والذي حال إثبات شيء من ذلك لتنالن شرره حمنة! ولأنه يطاير إليها مما أعاب بيت أختها زينب! والذي تنهال بنوده بندا بندا وأمام نفوس غوت، وأكلت قلوبها نار تأجج!!!

ولأنه وحال إثبات شيء من ذلك، لتنالن شرره حمنة! ولأنه يطاير إليها مما أعاب بيت أختها زينب! وما حمنة عنه ببعيد! ولكنه هكذا وحين يرخي الجهل سدوله على حمنة فينسيها أصولا ويقعدها عن مروءات!

زعماء فتنة الإفك: تولى مسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش وبقيادة عبد الله بن أبي بن سلول كبر هجمة إعلامية شرسة على بيت نبينا صلى الله عليه وسلم في يوم إفكهم، وهذا شأن باعث على الخلود! وحين لم ينج منه قائد العالم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، فما بالك بمن هو دونه، وهذه بحد ذاتها تسلية ربانية عظمى، ورسالة أن هذا الدين ذو كلفة، وأن الابتلاء فيه سنة، وأن الإيذاء فيه تعالى ماض، وإلى قيام الساعة، وأن غير ذلك ليس من شأن دعوات التوحيد الخاص والعقيدة الصافية فيه تعالى. وأن ثمنها هو ذلكم البأساء والضراء والزلزلة الشديدة، وأنه دون ذلك انطراح سلبي أمام ضوء خافت هافت، ﴿يحسبه الظمآن ماء حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه ۗ والله سريع الحساب﴾ [النور:٣٩]!

إن المرء ليعجب عجبه الشديد، وحين تجند امرأة نفسها لتحارب دينا أتاها بالهدى ودين الحق؛ ولأن المرأة من رقتها أنفة تجاه الشدة والنيل والكيد، وحين تخرج نفسها عن إلف طبيعتها الدفيئة، إلى قسوة وعناد لا تزيدانها إلا دفع ثمن غال! وحين تفقد أنوثتها الحانية الرقيقة، فتخسر دينا هداها، وتخسر حنوا يوما كساها! وهاك مثلا حمنة بنت جحش! وحين لم ترع في أختها زينب رحما، وحين تولت كبر إثم الإفك، مثلما فعل مسطح وابن سلول وكانا رجلين!!

إن تولي حمنة بنت جحش كبر يوم الإفك لا مبرر له؛ ولأنه لا ناقة لها فيه ولا جمل، ولربما لو كانت أختها زينب قد ركبت هذه الموجة العاتية لكان هناك شبه مبرر، ولدافع الغيرة المشينة، وحين تخرج امرأة عن ضبط مشاعرها، ولكن لأن حدود العقيدة أقوى وأعلى وأسمى، فقد أكرمت بها زينب نفسها، وحين تزيت بزينة وقارها وسكينتها، ووقفت موقف الرشاد، وحين أثنت خيرا على ضرتها عائشة، وأمام زوجها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا إكبار حفظه لها التاريخ، وحين لا ينسى لكل صاحب خلة خلته، وحين لا يغفل أيضا لكل ذي زلة زلته! وإذ لا يغمض طرفا عن شفيع شفاعته.

وهكذا نرى كثيرا راكبي موجات التشهير بالحق وأهله، وها هم أولاء لا يعرفون حقا، ولا يعلمون أهله! وكأطرش الزفة! وإن هو إلا ضجيج الإعلام السلبي، وقد عمل فيهم! وإن هو إلا أخذ الصالحين بجريرة أنهم يريدون الإصلاح ما استطاعوا، ولئن كلموا من أهليهم! ولئن ثلموا من ذويهم! ولئن ضربوا من سجانيهم!

قصف جبهة: لاكت السنة كثيرة يوم الإفك، وكادت ريحها أن تقصف الجبهة، وأخذ كل يصول، وراح جل يجول، فهذا أسيد بن حضير يقول: يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفيكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا أمرك، فو الله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم! وهذا سعد بن عبادة يقول لأسيد: كذبت لعمر الله ما تضرب أعناقهم، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا.

وليرد عليه أسيد بن حضير: كذبت لعمر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين. وهذا أسامة بن زيد يقول: يا رسول الله أهلك، وما نعلم منهم إلا خيرا، وهذا الكذب والباطل.

وهذا علي يقول: يا رسول الله إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية فإنها ستصدقك.

شهادة بريرة كدليل إثبات البراءة ودليل نفي التهمة معا: وإذ وكأن كلمة لبريرة كانت بردا وسلاما! وحين ناداها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟. قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق، ما رأيت عليها أمرا قط أغمصه غير أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله!!! وهذه إصابة امرأة جارية! وإذا قيست بحمنة بنت جحش، لغارت أرض حمنة بها؛ حياء حرة! لو كانت حرة! وأمام جارية!

وهكذا جعل الحق على ألسنة عباد لله، لو وزنوا بملئ الأرض ذهبا لرجحوا به! وقول بريرة هذا هو الذي تأيد به قولنا: إن هذه المسكينة المغبونة عائشة، وإن تزوجت إلا أنها كانت من الصغر والغبن ما يرفع عنها هذا، وكان حريا بمجتمعها أن يرحمها، ولعلمهم بها أكثر من علمنا عنها، وكبريرة رضي الله تعالى عنها!

النبي الزوج الحاني وسط وطيس الفتنة! أما بعد، يا عائشة، إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب، تاب الله عليه: وهذه هي لمسات زوج حان، وحين تلبس بصبر، وحين تزيا بجلد، ومواجهة لهذا السيل العرمرم، والذي

لو كان غيره فيه لكان في الأرض ما كان! لكن الحكمة ضالة المؤمن، وحين يربت على مبتلى، ولا يزيد من همه هما آخر؛ ليصير هما مضاعفا، ولربما ابتلعته أرضه به! ولكن هذا النبي ﷺ كان مأدبة عطاء، واستشرافا لتوبة ربه، وإن أسرف امرئ على نفسه، وإن زلت به قدمه يوما، ولأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم. ولينسى حينئذ مشاعره الشخصية، ولئن كلمه كلمه، ولئن أصابه ثلمه، وليعود أدراجه وأهله معه إلى خيمة تظللها التقوى والبر والمغفرة والتوبة والتعلق بحبل الله، وهذا الاستشراف ربما كان ماء اكفأ نارا مؤججة، وحين جاءه من بعدها لطف مولاه ببراءة مغبونة، كانت تنام عن عجينها فتأكله الشاة!

استصغار النفس وأمام إعظام الرب الأعلى وأثره! ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيا يتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها: وهكذا وحين يستصغر عبد نفسه أمام خالق نفسه، وليعظم ربه قدره؛ ولأن الجزاء من جنس العمل، وكما أكبر ربه، فيكبره ربه، وحين ينزل في عائشة قرآنا يتلى، ويصلى به! وهذا تعبير مغبونة، وكأنما نطق ملك بلسانها! ولأن ثقة العبد بربه تفعل معه الأفاعيل! فيقول أقوالا تنهد لها الجبال هدا، قوة ورصانة وبلاغة وبيانا، وحين يكون بحبل تعالى مستعصما، وذلك مواجهة أنه تعالى أبى إلا أن يذل من عصاه، وعلى قول الحسن البصري رحمه الله: إنهم وإن طقطقت بهم البغال ،وهملجت بهم البراذين، إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه! ومنه قوله تعالى ﴿ومن يهن الله فما له من مكرم ۚ إن الله يفعل ما يشاء﴾[الحج: ١٨].

استشراف الفرج مؤذن بمجيئه: إن استشراف الفرج مؤذن بمجيئه، وإلى عند من استشرف قدومه! بل وزيادة! وانظر عائشة مثلا، وحين كان غاية مرادها أن يرى زوجها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في المنام رؤيا تبرؤها! إلا أنه تعالى أراها بنفسها وغيرها إلى يوم الدين أن الله تعالى مع البرآء، وأنه تعالى يؤيدهم بأكثر مما تاقت إليه نفوسهم، وكنزول قرآن يتلي ويصلى به في إعلان براءة الصديقة بنت الصديق! وهذا ما يجب ألا يغيب عن حس، ولا يغرب عن نظر، استشرافا، وكمثل عائشة!

إن التأمل في حديث الإفك ليخرج أحدنا مقتنعا، وأيما قناعة بصدق راويتها! وذلك لأنك تشعر بانسياب، وإنك لتلمس تزاحما، وأنك ترقب صدقا، ولايزال منسابا على الحديث، ومنه أطرافه كلها، وأن إحكاما في هذا الانسياب أحال معه كل شيء سوى الصدق، ومن جانب آخر فإن نظم الحديث لا تكاد تشعر فيه خلالا يمكن لهفوة أن تناله! وهذه كلها أمور مشاهدة، فإن الصادق وحين يتكلم يغمرك بصدقه الذي يصدق فيه، لست أنت وحدك، بل كل محيط به، أو سامع له، أو مستمع! وكاد الوجود كله حكاية صدقه، وكما وقع من هذا الحديث، ومنذ أربعة عشر قرنا، وإلى يوم الناس هذا، فما وجدت له عيبة، ولا التمست فيه نقيصة، وهو على دربه هذا وإلى يوم الدين إن شاء الله تعالى.

إن إلقاء التهم وريبها جزافا سهل ويسير! لا سيما وحين تطلق الحبال على غرائبها، ودون استشهاد من حس، ودون استدلال من منطق، وبغير

برهان من واقع، أو سياق أو شهود، ولأن الشر يأتي من هنا، من دليل مادي قاطع، ومن برهان واقعي ساطع، أو استشهاد بمن تاريخه أو تاريخها حسن السير والسلوك، وبغير هذا لا يمكننا الانتصاب لنقاش خلا من دعائمه ابتداء، وهذا الذي يمكن تنزيله كله على واقعية حديث الإفك، فلا نحن أمام شيء يصلح للاحتجاج، ولا نحن فقدنا شيئا يمكننا الاستماع إليه، فنعض أصابع الندم عليه! وأن ههنا نقصا، أو بترا، أو حشوا، أو خللا في هذا الحديث، الذي بين أيدينا، والمقول من مغبونة، كان عمرها حينها أربعة عشر عاما!! وها نحن وغيرنا نطوف حوله من بعيد، ونفند حروفه حرفا حرفا من قريب، ونزداد كل مرة يقينا فوق يقيننا الأول، أن هذا هو قول الصدق الذي فيه يمترون!!!

حسان يهجو صفوان! هجا حسان بن ثابت صفوان بن المعطل؛ ولتسمع نبا إليه أن صفوان قد أثم، فضربه صفوان! وحين اختصما إلى نبينا صلى الله عليه وسلم، قال لحسان: يا حسان أتشوهت على قومي إذ هداهم الله». ثم قال: «أحسن يا حسان فيما أصابك» فقال: هي لك يا رسول الله، فعوضه منها بيرحاء التي تصدق بها أبو طلحة وجارية قبطية يقال لها: سيرين، جاءه منها ابنه عبد الرحمن[١].

وهذا برهان أن الأصل في المتهم براءته، وحتى تثبت إدانته، وهذا أصل في القانون الجنائي، سبق به ديننا، ومن خلال واقعة توا ذكرناها! وإذ له كل الحقوق وعليه جميع الواجبات المقررة له، وبموجب قوانين الأهلية وجوبا أو أداء، ولا يحرم من حق واحد قررته الشريعة، ولطالما لم يصدر بحقه حكم يقيد

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ١٨٧/٤

من أهليته، بل وتحفظ عليه كرامته، ويحاط بسياج التقدير والإكرام، وإن حدث ونيل منه فعلى المحكمة أن ترد إليه اعتباره، وكما حدث حين أمر نبينا صلى الله عليه وسلم حسان أن يعطي صفوان! وبتنزيل هذا المشهد على عالم الناس يومهم هذا لتكاد تنفرط دهشة مما أسمي عدلا!

أحسن يا حسان فيما أصابك، فقال: هي لك يا رسول الله: هذه مداولة نبوية مع أحد الرعية، وتكاد تتلمس منها عبق الإحسان، وطيب الكلام، وحميد الأخلاق، إن من هذا النبي صلى الله عليه وسلم طيب السريرة، حسن الأخلاق، رفيع الشأن، وإن من هذا حسان شاعره رضي الله تعالى عنه، وحين طرح نفسه بين يديه صلى الله عليه وسلم ليقرر أمره بالإحسان، وما أجمل الإحسان! وحين يكون من رضا، وحين يتألف من سماحة، وحين ينساب كسيل وكماء عذب يروى الظمآى في هواجر قيظهم!! وهذا الدين وإذ تراه أبدا يطرق على أبواب الإحسان، والإحسان درجة لا يسأل معها عن حقوق! بل هو أعلى قامة! ولا يبحث فيها عن واجبات! بل هو أسمق همة! ولأنه به ينخلع المرء من بقية نفسه!

﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربىٰ والمساكين والمهاجرين في سبيل اللهۖ وليعفوا وليصفحواۗ ألا تحبون أن يغفر الله لكمۗ والله غفور رحيم ﴾ [النور:٢٢] ؟! كان عزم أبي بكر وحين كان محسنا لصفوان أن يمانعه عطاءه الذي كان منه عليه غدقا! وإذ يسعفه ربنا تعالى بقوله: **﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربىٰ والمساكين والمهاجرين في سبيل اللهۖ وليعفوا وليصفحواۗ ألا تحبون أن يغفر الله لكمۗ والله غفور رحيم﴾**

[النور:٢٢] ؟! وهذه مقامات الإحسان في ديننا، وأنت خبير أن هذا صنيع عال سامق رفيع، وحين يقطع كيد النفوس مدحورا، وبإحسانها الأقصى! إلى من أساء إليها الإساءة العظمى! ولهذا قال أبوبكر: بلى، والله إنا نحب - يا ربنا - أن تغفر لنا

و" إن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك. فعند ذلك قال الصديق: بلى، والله إنا نحب - يا ربنا - أن تغفر لنا" [١].

اهتمام القرآن بحديث الإفك: عالج القرآن الحكيم حديث الإفك في مساحة واسعة منه، بلغت ست عشرة آية من سورة النور، والقرآن حين يعطي هكذا مساحة واسعة لعفاف في الأرض وقع، وهكذا دفعا لظلم فيها قد حدث، فلاهتمامه تعالى البالغ بتثبيت قواعد العفاف والطهر ولإعمالها، وحين تمثلت في صفوان وغيره، وكذا أسس الظلم ولنفيها، وحين تمثلت في مسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش وعبد الله ابن أبي بن سلول وغيره!

شرف الانتساب إلى بيت النبوة وأثره: كان يجب على العقلاء رفس تهمة عائشة رضي الله تعالى عنها يوم الإفك ابتداء! وذلك لأنها اكتسبت شرف الانتساب إلى بيت النبوة، مما كان حاصله أنها من أمهات المؤمنين، وبالتالي فإن لها الجنة! وعاقل لا يتهم امرأة كان هذا حظها الجميل من الدنيا، وما كانت بحاجة حسا يوما أن تخلع عنها هذه الميزة، ووالله لو كان ثمن ذلك هو الدنيا بأسرها!

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٣١/٦

الفصل الرابع

غزوة الحديبية. أحداث ودلالات

عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين. فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيرا لقريش، وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال: والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فوثبت، قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضا، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش، فانتزع سهما من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة، ويخلوا بيني وبين الناس، فإن

أظهر: فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره، فقال بديل: سأبلغهم ما تقول. قال: فانطلق حتى أتى قريشا، قال: إنا قد جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي صلى الله عليه وسلم، فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد، اقبلوها ودعوني آتيه، قالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم نحوا من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لأرى وجوها، وإني لأرى أوشابا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر الصديق: امصص ببظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟! فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، قال: وجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، فكلما تكلم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي صلى الله عليه وسلم، ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة

بن شعبة، فقال: أي غدر، ألست أسعى في غدرتك؟! وكان المغيرة صحب قوما في الجاهلية فقتلهم، وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء. ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر، وكسرى، والنجاشي، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم محمدا؛ والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتيه، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه، قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص، فقال: دعوني آتيه، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: هذا مكرز، وهو رجل فاجر، فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. قال معمر: فأخبرني أيوب، عن عكرمة: أنه لما جاء سهيل

بن عمرو، قال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد سهل لكم من أمركم. قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو، فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابا، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الكاتب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم، قال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب «باسمك اللهم» كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اكتب «باسمك اللهم»، ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب «محمد بن عبد الله»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: والله إني لرسول الله، وإن كذبتموني، اكتب «محمد بن عبد الله» -قال الزهري: وذلك لقوله: لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها- فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: على أن تخلوا بيننا وبين البيت، فنطوف به، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما؟! فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا -يا محمد- أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنا لم نقض الكتاب بعد، قال: فوالله إذا لم أصالحك على شيء أبدا، قال النبي صلى الله عليه وسلم: فأجزه لي، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: بلى فافعل، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: بل قد أجزناه لك، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما، ألا ترون

ما قد لقيت؟! وكان قد عذب عذابا شديدا في الله، قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ألست نبي الله حقا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري، قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال: قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به، قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه؛ فوالله إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به. قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك؛ نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا، فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى: **{يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن}** حتى بلغ **{بعصم الكوافر}** [الممتحنة: ١٠]، فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن

أمية. ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا، فاستله الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به، ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه: لقد رأى هذا ذعرا، فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد -والله- أوفى الله ذمتك؛ قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ويل أمه مسعر حرب! لو كان له أحد. فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشأم إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده بالله والرحم، لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، فأنزل الله تعالى: **{وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم}** حتى بلغ **{الحمية حمية الجاهلية}** [الفتح: ٢٤ - ٢٦]، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا بـ« بسم الله الرحمن الرحيم»، وحالوا بينهم وبين البيت[١].

(١) صحيح البخاري: ٢٧٣١

بين يدي الحدث: أقام رسول الله ﷺ بالمدينة رمضان وشوال، وخرج في ذي القعدة معتمرا لا يريد حربا، وذلك بعد رؤيته في منامه أنه يطوف بالبيت الحرام: هذا هو يوم الحديبية، يوم تاريخ فصل في تاريخ هذا الدين الإسلام، ولأنه كان فاتحة خير، ولرجوع الإسلام إلى محاضن البيت العتيق من قريب، وبعد غياب طويل، تفهم منه أن ظلاما وإن طال فلابد له من نهار يزيح ظلامه، وليتبدد ذلكم الظلام الحالك، فيمشي الناس نهارهم فيبصرون، ومن بعد ليل كانوا فيه يعملون ليومهم هذا، ويرقبون فجره من قريب، وإذ يحدوهم الأمل تفاؤلا بقول ربهم الحق ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾[البقرة:٢١٤].

لكن ما يلفت النظر في نصنا السابق، وكما أورده ابن إسحاق رحمه الله تعالى بقوله: لا يريد حربا! وهذا هو الأصل، والحرب فرع، ولأنه صلى الله عليه وسلم وحين جاء بالإسلام سلما، ولأن السلم مشتق منه، وبالتالي فيكون من أصول ديننا هو ذلكم السلم، والأخذ بمراميه وأطرافه كلها، ما لم تعجز الأمة المسلمة، ويعييها خصومها، فهنا السيف البتار! وهنا النبل المغوار! وفي كل ذلك فإنما كانت الوجهة هي إسلام الناس لرب العالمين، وإن لخيرهم، وليس بعائد من ذلكم من شيء على العبيد، سوى أنهم قاموا بأمره تعالى إحقاقا بحقه ولا ريب، وإبطالا لباطل، لطالما كانت تسنده قوى بطش، وكان لا بد من إزاحتها، إن سلما فكان، وهذا هو الأصل، وإن حربا فكان، وهذا هو الفرع كما قدمنا.

وليس يغيب عن بالنا أن يوم الحديبية هذا كان برهان رحمة نبي، وكان دليل عفو نبي، وكان دليل حلم نبي، وإذ راح إليهم في عقر ديارهم، في بادرة حسن نية، لملمة لما تبعثر من أوراق بينهم، وحين أخرجوه يوم الهجرة، إلا أنه صلى الله

عليه وسلم لم ينس رحما له فيهم، ولم يجحد قربى له معهم، فراح كيما يلملم هذه الأوراق المبعثرة، ولكنها على نبأ من الدين صحيح، ذلكم الدين الذي يعني أخذه كله، ولأنه لا يعبد ما يعبدون شيئا، وكما كانوا يعرضون، ولا تفريط، والذي خرج من أجله هو الإسلام، مازال ماثلا، وبلا تنازل ولا تفريط، وإن مرت السنون والأزمان.

كان خروج نبينا صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، وإظهار أنه يريد عمرة كافيا لإعلان أنه ليس يريد حربا، ولئن كانت هذه هي النية فلا حرب، ولكنها تحمل أيضا ما منه يمكن أن تكون له تبعات، وريثما يحين وقت كل حدث، وهذه يراعيها الدعاة الصالحون، وحين كان اقتداؤهم بنبيهم صلى الله عليه وسلم، إصرارا على حق يحمله، ودون تنازل قيدا، وفي نفس الوقت يحمل بإحدى يديه غصن الزيتون!

إن خروج نبينا صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية كان نبأ أن قريشا يلزمها فهم الرسالة! لأنها وإن لم تئب فستؤوب يوما، ولتخضع لسلطان الإسلام الخالد! وهذه حكمة نبوية جديرة بالتسجيل؛ لأنه برهان إصرار، ودليل عزم، وليس يرده عن ذلكم من شيء، وكان على قريش فهم الرسالة أيضا، لكنها غوت، فركبت رأسها يومها! وإذ لم تكن تعلم حلمه صلى الله عليه وسلم، وبأقصى حلم يمكن تخيله، وهي مرحلة من مراحل الدعوات، يحسب حسابها، وألا يكون الدعاة في عجلة من أمرهم، ومهما استفزهم خصمهم، لأنهم يعملون بترتيبات ودرجات، ليس يسبق بعضها بعضا.

استعمل نبينا ﷺ على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي يوم الحديبية: وهذا برهان التناوب الإيجابي بين الموظفين؛ تجديدا للدماء، وإكسابا للخبرات، ولأن الوقوف على أحدهم دهرا لربما أدى إلى فساد إداري، ولو لم يكن مقصودا، لأن الطاقم وحين يألف الروتين فلا شك أنه عامل فيه سلبا، وإن لم يقصد! وجميل أن يأتي من يعيد للماء جريانه، وللدم دورانه، ومن فعله صلى الله عليه وسلم، حين غاير بين أمراء المدينة مرة إثر أختها، ولئن غلب على ذلك ابن أم مكتوم.

* * *

تكتيك عسكري ماهر: استنفر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم العرب ومن حولها من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت، فتبعه المهاجرون والأنصار وتأخر بعض الأعراب: وهذا برهان وجوب أخذ الحيطة، ولئن أراد سلما، فقد تعرض له قريش. وهذا من حكمة القائد، وألا يركن أو يأمن، ولربما أحاط به عدوه، فلم يقدر لهجمته قدرها، مما يمثل خروجا على عرف عسكري، كان ألف بائه هو الحذر دائما.

وقد كشف القرآن الكريم عن حقيقة نوايا الأعراب، كما قال الله تعالى **﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا * بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا﴾**[الفتح:١١-١٢].

وليس يهمنا سوى أنهم الأعراب، وقد ذكر مجاهد أن الأعراب الذي عنتهم الآية هم أعراب جهينة ومزينة، وذكر الواقدي أن الأعراب الذي تشاغلوا بأموالهم وأولادهم وذراريهم هم أعراب المدينة من غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع وبني الدئل من كنانة.

* * *

دلالة سلم وبراءة حرب: ساق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم معه الهدي يوم الحديبية، وأحرم بالعمرة يومه ذلك؛ ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له: وهذا برهان وضوح النية، وهو إيذان ألا يثير قريشا، وهو إعلان سلم، وإنما ليتوافق مع دين جديد جاء به، كان من أصوله الحفاظ على الضرورات الخمس: دينا، ومالا، ونفسا، وعرضا، وعقلا. وهذا بلا شك فاعل في قريش فعله، وحين ترى برهان السلام، وها هو ﷺ يرتدي الإحرام!

وإذ خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية، يريد زيارة البيت لا يريد قتالا، وساق معه الهدي سبعين بدنة، وحيث كانوا سبعمائة، أو ألفا وأربعمائة-على قول-: وهذا برهان انتقال حالهم من فقر إلى غنى، ومن ضيق إلى سعة، وها هم أولاء الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم؛ يبتغون فضلا من الله ورضوانا، وينصرون الله ورسوله، وإذ يغدق عليهم ربهم نعمه، وإذ يعمهم بفضله، والله واسع عليم، والله ذو الفضل العظيم، ولترى قريش من أخرجوهم، وكيف كانوا! وكيف هم يكونون! وإذ كانت قريش نفسها تنحر مائة لألف يوم بدر!!!

خرج نبينا صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة؛ ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت، ومعظما له: وهكذا يكون البيت العتيق من مهمات الفرد المسلم؛ ولأنه مثابة للناس، وأمنا، ولأنه يربط الفرد المسلم بتاريخ مجيد يستحضره، كلما زاره وطاف به، ويعرف ماهية هذا الاستحضار، وكيف عمله فيه وأثره، مما يفعله ذلكم التماس بين جنباته، وأركانه، وحجره، وحجره، وطوافه، وسعيه، وزمزمه، ورمله، واضطباعه، وصفاه، ومروته، وحلقه، وتقصيره، وإحرامه، وإزاره، وردائه، وانحسار رأسه، وحرمة نكاحه وطيبه وعطره، وسننه، وواجباته. وسائر ما يوجب تعظيما لشعائره تعالى، وكان هذا وغيره حاضرا في وجدانه صلى الله عليه وسلم، وأكثر منه! ولأنه أتقى لله وأخشى! وحين كان علمه عن ربه تعالى قوله ﴿ **ذٰلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب** ﴾[الحج:٣٢].

* * *

عناد بهيم: حين علمت قريش محضر رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوم الحديبية، ورافعا لواء السلام، وانه إنما يريد البيت معتمرا، فوقفت دونه، وأقسمت ألا يدخله! ولكنه صلى الله عليه وسلم على عهده الأول: يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب. فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا! وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم

يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فو الله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة - يعني الموت[(١)].

إصرار قائد: وهذا إصرار القادة على منهجهم، فلا يتزحزحون عنه شيئا! ولئن فعلت معهم الأفاعيل، وهذا هو وقود كل طريقهم أبدا! ولأنهم أولا هم الأمناء على دين ربهم، وثانيا لأنهم هم القدوة، وعزمهم عزم لمن معهم ومن بعدهم، ولأنهم أيضا قلائد الخير والهدى أبدا.

* * *

هذا برهان محاولة إغلاق باب حـــرب قدمه نبينا صلى الله عليه وسلم للتاريخ يوم الحديبية، وحين سلكت قريش طريق حرب ومواجهة، ويطلب صلى الله عليه وسلم أن يسلكوا سبيلا آخر يحول دون هذه المواجهة، ويزيدك عجبا علمها أنه صلى الله عليه وسلم قد جاء محرما في علامة صدق لا تأويل فيها، ومنذ متى وقريش تمنع قاصدي بيته تعالى من زيارته، وقد كانوا يستحصلون من ذلك مكانتهم، ويجدون من ذلك أنفسهم، وأنهم من ذلك كان شرفهم ومجدهم وتاريخهم العريق، وبأي صفة تمنع وبأي صفة تمنح، وهذا البيت مقصد أمن للناس، تاريخا له مجيدا شاهدا به؟!

وأمرهم شورى بينهم: كما وأن فيه المشورة، وإيكال أمر اختيار الطريق لمن هم به أعلم. وهذه مهارة القائد، وحين تتوزع مسؤولياته على رعيته، وكل بما يحسنه، فيناط به، وهذا شأن الراعي الفذ الماهر، وحين يوزع المهام، وكل على

---

(١) فقه السيرة الألباني:٣٢٤. حكم المحدث: صحيح، وهو قطعة من حديث طويل في صلح الحديبية، وقد أخرجه البخاري.

قدر ما يحسنه، وعلى قدر خبرته وعلمه معا، وعلى أساس من الصدق والتفاني وحمل هم المؤسسة، وعدم تكريس المهام في يده، فلا هو يستطيع لها قياما، ولا على وجهها، وفيه تعطيل لخبرات، وتجنيب لكفاءات!

"قولوا نستغفر الله ونتوب إليه": فقالوا ذلك: وهذا حين سلم بهم رجل من أسلم طريقا وعرا يوم الحديبية، وحين هيأ الله تعالى لهم طريقا أسهل، وكان ذا من فضله تعالى، وفيه أن الاستغفار والتوبة عملان يتعلق بموجبها العبيد بحبل السماء، ومنها تستمد طاقات خلابة، وأمامها يخرجون بمخرجات الحق والهدى، وحين استغفروا وتابوا، وعلم ربهم منهم صدق الالتجاء، وأن الأمر كله لله تعالى، وأنه سبحانه لطيف ييسر للعبيد أمورهم، وحين علم منهم صدق التوجه، وأنهم يبتغون وجه ربهم الحق وفضله ورضوانه، وحين حاولوا يريدون بيته، وفي إشارة سلم معلنة، إن قبلت بها قريش ورضيت فحل السلام، أم كرهت وأبت وسفينة الحق ماخرة لا يردها كيد كائد، وإن غرته الأماني!

والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها: "قولوا نستغفر الله ونتوب إليه" فقالوا ذلك. فقال: «والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها»[١]. هذا ربط وثناء! ولأنه استدعاء التاريخ لبني إسرائيل وعنادهم، وحين أمروا بدخول بيت المقدس سجدا، ويدعون ربهم عندها أن يحط عنهم خطاياهم، ولو كانت كزبد البحر كثرة، ولو كانوا قد فعلوها لفعل بهم ذلك، واطهروا من ذنوب، لطالما قد تحيط بالعبد، ولما يأته فرجه تعالى، ومن مثل حدث كحدث دخول الباب سجدا، وهذه أسباب ربانية مجردة، ومنح إلهية متفردة، وأن

(١) السيرة الحلبية، الحلبي: ج ٢ / ٦٩٢

يلهم الله العبيد سبلهم لمغفرة ذنوبهم، وحينما أمروا إلا يسارعون رغبا ورهبا، لا كبني إسرائيل! ولما خالفوا فدخلوا على إستاهم! في مشهد معيب دال على الجفوة والغفلة، وممهور بالرعونة والخفة!

والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها» (١): هذا الربط التاريخي جد مهم، وقد أعطاه القرآن الحكيم مساحة واسعة منه، وكما قال تعالى: **﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾**[يونس:١٠١]. وكذا قوله تعالى **﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾**[الأنعام:١١]. ولأن ذلك مؤذن بحركة إيجابية في كونه تعالى الفسيح، تمنح العبد قوة دافعة وحركة دائبة، تثمر فردا فاعلا في محيط مجتمعه، وبحيث تكون له فيه بصمة من خير، تكون زادا له ولغيره على الطريق، ومن ثم يتبدل الحال من فساد إلى صلاح، وبفعل هذا التأثر الإيجابي لسنن الذين خلوا من قبل.

توبة واستغفار: وكما أن فيه ثناء على المسلمين، وحين أمرهم نبيهم صلى الله عليه وسلم بالاستغفار والتوبة، فقالوا! وهكذا بفاء العاقبة، التي منعت مجرد زمن معتبر، كتأويل أو تفكير أو إمهال أو تأجيل، والمنحة إذا جاءت فعاقل ذلك الذي يتلقاها بعين الرضا ووافر التسليم، ولربما لم تعد فيعض أنامل الندم، وهيهات حين مناص!

اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض في طريق يخرجه على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة(٢) : وهذا دال على ما للتيامن من قيمة في هذا الدين، وفي

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣ /٧٧٥

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣ /٧٧٥

أمره كله، وأن اليمين بركة، وفي محاله ومظانه، وما أعظمها وما أكثرها، وبرهان آخر على علمه صلى الله عليه وسلم بدروب مكة.

فعن عائشة أم المؤمنين: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعجبه التيمن، في تنعله، وترجله، وطهوره، وفي شأنه كله[1].

علم عسكري باهر: وثمة برهان آخر على وجوب معرفة القائد بجغرافيا منطقة عملياته، ولأن هذا من ألف باء وأبجديات الحركة الإيجابية الفاعلة، وحين يكون ذلك عملا مؤديا إلى ثقة الرعية بقائدها، وفي نفس الوقت يوفر على الأمة نفقات وأوقاتا في مثل هذه المنعطفات، وما تقتضيه من خفة حركية تتطلبها طبيعة ميادينهم التي يسلكونها. وكما أن معرفة القائد بدروب منطقة العمليات ومسرحها يجعلها سهلة ممهدة لا وعرة، وحين كانت لينة معبدة! ويجعله من وقته مستغنيا وحين يعز الخبير، فلا يكون طوعا لغير ذي خبرة ولا لذي مظنة!

ما خلأت، وما هو لها بخلق! حين سلك نبينا صلى الله عليه وسلم إلى مكة بركت ناقته القصواء، فقال الناس: خلأت القصواء! فقال صلى الله عليه وسلم: ما خلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة: وهذا يقف بنا على حلمه صلى الله عليه وسلم برعيته، وحين لم يحالفهم إحسان اختيار اللفظ الدال على مقتضى الحال، فتراه يعرض بلا تعنيف، وتراه يحلم بلا تأفيف، في رسالة نبوية كريمة، تنبئ عن خلقه، ولطالما نعته ربه الرحمن به، وحين قال تعالى: ﴿ وإنك لعلىٰ خلق عظيم ﴾ [القلم:٤]. وما أحوج الناس إلى ترسم هديه، واقتفاء أثره!

---

(١) صحيح البخاري: ١٦٨

سبق إسلامي فريد: وفيه ذلكم الخلق الحميد العالي تجاه القصواء الحيوان! وهذا سبق نبوي، وتفرد إسلامي، بقيمة الحيوان في هذا الدين، ولنعرض هذه الصورة الحية، وما وقع الحدث على جمعيات الرفق بالحيوان؟ ولا علينا بأفعال الأفراد، فليست حاكمة على ديننا، وإنما ديننا هو الضابط.

والله الذي حبس فيل أبرهة يوم حاول به هدم الكعبة في حادث الفيل المشهور، هو نفسه سبحانه الذي حبس القصواء يوم بركت، وهو تعليل نبينا لهذا الذي حدث، ونقف عنده؛ ومن حيث لم يرد غيره.

علم نبوة ضاف

وشكي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش، فانتزع سهما من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه: هذه رواية البخاري رحمه الله تعالى، و" قال للناس: «انزلوا». قيل له: يا رسول الله ما بالوادي ماء ينزل عليه، فأخرج سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه، فنزل به في قليب من تلك القلب، فغرزه في جوفه فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن[١]. ولا تعارض، وهذا علم نبوة كثيرا ما ألفناه في هذه السيرة النبوية المباركة، وأنه يتأيد به ويستأنس به، ويمنح الناس عند رؤيته أو مطالعته طاقة حركية تدفعه دفعا نحو قيم الإسلام العليا.

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/ ١٨٩

ومن ثم كانت أعلام النبوة هذه وعلى مرأى ممن حكوها لنا، وليس خبرا عنه صلى الله عليه وسلم، ولم يروه أو لم يشعروا بحلاوته، وإذ كان رأي العين، وهذا لا شك أدعى لليقين، وحين رأيت المخبر به عيانا لا سمعا ولا مخابرة.

مراحل المفاوضات الطويلة

١- مرحلة بديل بن ورقاء

حين راح بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة إلى قريش، بخبر أنه صلى الله عليه وسلم إنما جاء لزيارة البيت، ومريدا العمرة، فاتهموهم وجبهوهم، وقالوا: وإن جاء ولا يريد قتالا، فوالله لا يدخلها علينا عنوة، ولا تحدث بذلك عنا العرب[1]: هذا صلف في المفاوضات، ولا يغني شيئا، وكان على قريش أن تتحلى بشيء مما اصطلح عليه في المفاوضات من أخذ ورد؛ للوصول إلى كلمة سواء، يخرج منها جميع الأطراف منتصرين، وبدلا عن هكذا تعال دك أنوفهم غير مرة، ولا وهم يذكرون! وليس يوم بدر ببعيد! وها هم قد راحوا إلى مشارف المدينة، وكان عليها أن تحسن قراءة الرسالة، حتى ولئن جاء صلى الله عليه وسلم محرما يريد العمرة وزيارة البيت! فإنه ما كان أقدم على ذلك إلا وقد تبدل حالهم من بعد خوفهم أمنا.

وجاء في رواية البخاري: فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ولأنه ليس يخلو زمان من

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣/٧٧٧

عقلاء يحسبون للكلام حسابه، ومنه كان قول ذوي الرأي فيهم: هات ما سمعته يقول.

٢- مرحلة الحليس بن علقمة

قال الحليس بن علقمة: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاهدناكم، أيصد عن بيت الله من جاءه معظما له؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد[١] : وذلك حين استعظم قولهم وعزمهم أن يمنعوا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم من زيارة البيت، وخاصة أنهم ما كانوا يمنعون أحدا من قبل، ولا سيما تواتر الخبر أنه صلى الله عليه وسلم ما جاء إلا بهذا.

وإذ ليس الحليس فقط، وإنما أجمع رسل المفاوضات على قلب رجل واحد، أن محمدا صلى الله عليه وسلم ما جاء إلا بهذا.

٣- مرحلة عروة بن مسعود الثقفي

طفح الكيل وبلغ السيل الزبى: توسط كثر بين نبينا صلى الله عليه وسلم وقريش، وكان منهم بديل بن ورقاء، ومكرز بن حفص بن الأخيف، والحليس بن علقمة، وعروة بن مسعود الثقفي الذي قال: يا محمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا. ليرد عليه أبوبكر: إمصص بظر اللات! أنحن

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣١٦/٣

ننكشف عنه؟! [1] : وهذا إدلاء لم يكن نبينا صلى الله عليه وسلم قد ربى أحدا عليه، ولكنه من فيض كيله، مما قاله هذا عروة! فأراد أن يمثل به، ولعله ينهد! وعلى كل حال فهذا معفو عنه؛ ولحالة غضب استوت عليه وقتها، دلنا عليها ذلكم القول الشديد، ولا نتخذه هديا. ولئن مال الخصم، أو خرج هو من طوق القيم النبيلة وآداب الأخلاق الجميلة.

ولئن راح من راح في تبرير ذلكم قول أبي بكر رضي الله تعالى عنه، أنه كان مشتهرا بين العرب، ومن مثل ذلك، وكناية عن شدة اعتراض للخصم وعليه!

صنائع المعروف تقي مصارع السوء: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، وهذه رواية الإمام البخاري رحمه الله تعالى، وقد جاءت في كتب السيرة بوجه آخر، ولا خلاف بينهما إلا في لفظ يسير، وعلى نحو" أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بهذه" [2]: هذا رد عروة بن مسعود الثقفي على أبي بكر يوم الحديبية، وحين قال له قوله السابق، وهذا برهان أن المعروف يثمر ثمره، وحين لا ينسى، وقد كان إغداق أبي بكر على عروة سببا لإخماد نار عصبيته، ولا ندري إلى أين كانت ستنتهي الأمور، وهذا يؤكد مرة أخرى أن المسلم زاده في الدنيا هذا العطاء الواسع الممتد، من كرم، ومن بذل، ومن معروف، ولما يأته وقته!!!

حلم النبي وجهالة عروة بن مسعود الثقفي: جعل عروة بن مسعود الثقفي يقرع يده إذ يتناول لحية رسول الله ﷺ ويقول له المغيرة بن شعبة: اكفف يدك عن

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٧٧٨/٣
(٢) عيون الأثر، ابن سيد الناس: ج ١١٧/٢

وجـه رسـول الله ﷺ قبـل أن لا تصـل إليـك [١].، وجـاء في روايـة حـديث البـاب سـالفة الـذكر للبخـاري" فكلمـا أهـوى عـروة بيـده إلى لحيـة النبي صـلى الله عليـه وسلم ضرب يده بنعل السيف، وقال لـه: أخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرفع عروة رأسه": وهذان اثنان يمثل كل منهما معسكره! ولأن كل إناء ينضح بما فيه، فهذا عروة يسيء الأدب أمام مقام سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم ولا يرعوي! وهذا هو المغيرة بن شعبة يذود عن نبينا صلى الله عليه وسلم، ويقف حارسا له، ويذود عنه صلى الله عليه وسلم، وإذ ينافح دونه، ومنه نفيد أهمية حراسة القادة، والنبي صلى الله عليه وسلم بوجه أخص، ومنه أيضا تعليم الأمة الأخذ بالسبب، فهذا نبينا صلى الله عليه وسلم قد اتخذ حراسا، وكان يمكنه الإعراض عن ذلك، واعتمادا على قوله تعالى: ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾[المائدة:٦٧]. وكما أن فيه مدى استماتهم في الذود عنه صلى الله عليه وسلم.

ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا فروا رأيكم: يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكا في قومه قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا فروا رأيكم[٢] .

. وجاء في رواية حديث الباب للبخاري: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر، وكسرى، والنجاشي، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم محمدا؛ والله إن تنخم

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣/ ٧٧٨

(٢) الروض والحدائق في تهذيب سيرة خير الخلائق، علي بن محمد البغدادي المتصوف/الخازن:ج٢/٤٥٢

نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها: هذا قول عروة بن مسعود الثقفي لقريش، وحين رأي ما وصف وصفه الحق، وهذا نبينا صلى الله عليه وسلم، وإذ كان لأنه على ما قال عروة قول الحق، محبة لا كمثله أحد يحب، وتوقيرا لا كمثله غيره يوقر، وهذا كاشف عن مدى ما لهذا الدين من عمل في قلوب المؤمنين، حتى انساب منهم ما يجعل عدوهم منبهرا هذا الانبهار، ومما لم يره لا عند كسرى، ولا مما سمع عن قيصر أو رآه، وهذه مناقب هذه الأمة، وبشهادة أعدائها، وعلى ما قيل: الحق ما شهدت به الأعداء!

ما رأيت ملكا في قومه قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا فروا رأيكم. وفيه دلالة على محاولة قريش النيل من نبينا صلى الله عليه وسلم، وأنه مقصود بالعداء، ولأنه النبي الذي يعرفونه، كما يعرفون أبناءهم! ولكنه التأبي عن الحق، والكبر عن الهدى، وهذه بلية الخارجين، وهي عوار المناوئين، وحين يستدبرون الهدى، ولنفعهم هم أولا! وماذا أنت قائل في مثل ذلكم صنف من الناس يأتيهم خير السماء، وهم عنه يعرضون، وها هم أولاء في الظلمات غارقون، وفي سباتهم يعمهون.

٤- مرحلة خراش بن أمية الخزاعي

أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم خراش بن أمية الخزاعي إلى قريش في رابعة الجولات المكوكية بينهما، وأنه ما جاء يريد شرا، بل يريد خيرا، ليزور بيت ربه، ويعتمر عمرته، وكما الناس، إلا أنهم عقروا به جمل رسول الله ﷺ - وكان

يسمى الثعلب- وأرادوا قتله، فمنعه الأحابيش، فخلوا سبيله، حتى أتى رسول الله ﷺ. وهؤلاء يعرفون أن الرسل لا تقتل، وهذا عرف جار في العلاقات الدولية، لكنهم وحين خرجوا عن دوائر الأدب غير مرة، فلا جديد، وإذ خرجوا عليه هذه المرة، وكل مرة؛ ولينفضوا أيديهم من كل بقية خير، يمكنها أن تحاج عن صاحبها وقت حاجته، وما أكثر الحاجات التي تعرض للمرء، ليجد نفسه أمامها ﴿حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا﴾ [الأنعام:٧١]، فيقول: ﴿إن هٰذا إلا أساطير الأولين﴾ [الأنفال:٣١].، في حكاية المناوئين زمانهم ذلك، وكل زمان آخر، سنة الله في الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا، وحين يلوي أحدهم عنقه عن حق جاءه، وإلى حيث عنده، وبلا كلفة، إلا أن إبليس أبى!!

إنما أنا رحمة مهداة: بلغ قريش أن نبينا صلى الله عليه وسلم وإنما جاء للعمرة، وعلى مدى خمسة من الرسل بينه وبين قريش يوم الحديبية، ورغم ذلك فلا يفتأون يمكرون ويكيدون، ويحاولون قتله صلى الله عليه وسلم، وحين بعثوا إليه أربعين رجلا لينالوا منه صلى الله عليه وسلم، وإذ به يفاجئهم، وعلى عهده معهم، فأتى بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم، وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل! وهذه أخلاق نبوة، تعلو، وتسمق، وتحلق في علياء السماء، تتبوأ مقعدها، العالي علوها، والرفيع رفعتها.

إن عفوه صلى الله عليه وسلم عن أربعين قرشيا، جاؤوا محاربين يوم الحديبية، برهان أن هذا النبي ذو خلق عظيم، وعلى حد وصف القرآن الحكيم له، وكما قال تعالى﴿ وإنك لعلىٰ خلق عظيم﴾[القلم: ٤]. ودليل عملي أنه ما جاء يومه ذلك إلا معتمرا، ويريد زيارة بيت الله تعالى المحرم، البيت العتيق، وهذه

نفوس لطالما كانت تواقة إلى ذلك، ولا سيما بعد ست سنين من هجرتهم، كانت كافية لإتمام هذه الزيارة، والحال كما ذكر، فقد كان يمكنه صلى الله عليه وسلم ومن حيث قد أمكنه الله تعالى من هؤلاء الأربعين أن يقيد من حريتهم- وعلى الأقل-، ومن ثم يجعلها مائدة للمساومة؛ وللحصول على أقصى ما كان يمكنه من مكاسب، وبدل أن تمعن قريش هكذا في إصرارها المعيب، أو أنه كان يمكنه قتلهم؛ ولتوافر القصد الجنائي في حقهم، وها هم قد قبض عليهم؛ مدججين يريدون شرا.

عفا نبينا صلى الله عليه وسلم عن الأربعين قرشيا، وانتدب على إثرها عمر الفاروق؛ ليروح إليهم، ويبين لهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء يريد حربا، بل جاء يريد العمرة، وزيارة البيت الحرام.

إني أخاف قريشا على نفسي: وقد كان عمر شديدا على قريش، وخشي من عدم أداء مهمته على وجهها، فأدلى بذلكم رأيه على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومبررا موقفه، وهذا سداد، وبأنه يجوز إبداء نصح القائد، ولعل رأيا يكون صوابا، وهذا ما عهدناه من عمر، وحين قال: يا رسول الله: إني أخاف قريشا على نفسي، وليس بمكة من بني عدي أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان [(١)]. وقد كان.

وهذا قول عمر الفاروق، وهو قول تتقاطر الحنكة من حواليه، وتنساب الحكمة عن يمينه وعن شماله؛ ولأنه يحكي لنا أمرين غاية في فن المعاملة،

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٧٨٠/٣

وسلوك السبيل الاجتماعي، وأثره في حركة الفرد والجماعة، وحين كانت العصبة لها أهميتها في النفوس كشهادة اجتماعية تؤهل صاحبها أن يقول أو لا يقول، وحين كان اعتذاره ممهورا بألا أحد له من بني عدي، وقد يجيره، أو يدفع عنه، أو يسير في ظله، وحين تعترضه قريش، وهذا فن حسن مراعاته، وقد مر بنا وكيف كانت وقفات أبي طالب وعملها مع نبينا صلى الله عليه وسلم بداية دعوته، وكعنوان على صدق قول عمر الفاروق.

وكذا شدة عداوة قريش له، وللحق الذي يحمله، وحين جابهم جميعا بإسلامه ويوم هجرته، وهذه أيضا حيطة واجبة، وحسن إلفها، وسلوك دربها، حال التعرض للدعوة الجديدة، ولأنها تكون ذات صوت لم تعهده البيئة، ولم تتكيف معه بعد، ومنه تفهم أيضا ثبات هذا الجيل على دينه الذي يحمله، وحين أدرك تبعاته، وأن الأمر جد لا هزل فيه.

علم نبوة ضاف

هذا رجل غادر: حين رأى نبينا صلى الله عليه وسلم مكرز بن حفص بن الأخيف أخا بني عامر بن لؤي، مقبلا قال: «هذا رجل غادر»[1] وهذا علم نبوة ضاف، ومنبئ عما يمكن أن يكون عليه القائد من خبره بالناس، وأنه كيس فطن، وليس يلدغ مؤمن من جحر مرتين، فكان من حذق المسلم ما يجعله يقرأ الحدث، لا عن ادعاء للغيب، وإنما عن كياسة وفطانة وفراسة، وهذا أمر مشاهد، ولا

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣ / ٣١٦

علاقة له بادعاء للغيب، من مكان قريب ولا بعيد، وإنما هذا رزقه تعالى للعبد، وابتلاؤه به.

وأذكر يوما أن رجلا جاء متبرعا للمسجد بترميمه، ودون أن تعلن جماعته ذلك! وأخذ يتردد كثيرا على المسجد، ومن باب إشرافه على عمل تبرع به، ثم رأيت الإمام يقول: أنا في ريب من هذا الرجل! وتوا خلصت الترميمات، وإذ برواد المسجد أغلبهم كانوا في غياهب السجن!! وما من شيء فعلوه إلا أنهم قالوا: ربنا الله! وأخذ الناس يتأولون ما حدث، فخرجوا إلى قولهم: إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر!! ولأنه قام بعلاج المسجد! وأما عن سجن الرواد فليحتسبوه عند ربهم، ولأنه ما زال ريبا لا يقينا!

وهذا جزء من حديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، جاء فيه"... وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر[(١)] .

٥- مرحلة عثمان بن عفان

وإذ دعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، وكخامس رسول بينهم، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائرا لهذا البيت، ومعظما لحرمته. وهذا الذي نفيد منه طول النفس في المفاوضات، وأن الفرج مع الصبر، وأن محاولة التأثير في الخصم غير مرة أمر محمود؛ اتقاء شرور المواجهة، ومحاولة عدم الانجرار إلى المجابهة، وهكذا يحسب لهذا الدين، وكيف

(١) صحيح البخاري: ٦٦٠٦

حاول صلى الله عليه وسلم استمالة قريش، وحتى لا يجرح أحد من طرفي النزاع، وخاصة أن بينهم نسبا وصهرا!

ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ: حين بلغ عثمان أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى قريش عرضوا عليه إن كان لابد فاعلا فليطف هو بالبيت دون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لهم: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ [1]، واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل. وهذه أمة الرسل، وحين تبعث سفراء عن أقوامهم، ولا تشترى ذممهم، ولا يأبهون بمثل تيكم عروض، ويكونون من بعدها أسارى فعلهم هذا، فلا هم كسبوا ولاءهم لقائدهم، ولا هم حصلوا ثقة أعدائهم، ولما أصبحوا ينظرون إليهم نظر الريب الذي فيه يعمهون، ولربما أدى بهم فعلهم هذا أن ينتحروا، وهذا أمر مشاهد، وإذ كان عثمان على ولاء ويقين وثقة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم به، وإذ كان في مكانه، ولذلك يجب على السفراء أن يكونوا أمناء، وكما يجب على القادة اختيار سفرائهم بعناية، وكيما يبيضوا وجوههم، وحين لا يشترون في ذممهم، وكما قد عرض على عثمان الطواف وحده فأبى، وهذا برهان سداد نبينا صلى الله عليه وسلم، وحين وقع اختياره على عثمان القوي الأمين!

أمانة السفير تمنحه ثقة أطراف العلاقة: وكما أن قوة وأمانة السفير فوق أنها تمنحه ثقة أطراف العلاقة، وإنما ينضاف إليها مكاسب أخر، وحين لا يعود صفر اليدين من مهمته، بل وحين كان ثقة، فلرب مكسب ضاف آخر، وحين يعود

---

(١) السيرة الحلبية، الحلبي: ج ٧٠١/٢

بأنصار أخر جدد، يزيدون من أنصار الدعوة الجديدة، وما فعل مصعب بن عمير ببعيد، ويوم أن كان من فضله تعالى عليه أن كان سببا في تمهيد طيب رشيد، بنجاح أمر الهجرة، وحين كان تمام بيعتي العقبة على يديه رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

خروج قريش عن العرف الدولي: وكما أن فيه خروج هذه قريش عن عرف عدم حبس السفراء. ولكنك ماذا أنت قائل وحين تنكفئ القيم، وحين تنقلب موازينها، إن جهالة وهذا شؤم جهالتهم، وإن جهلا ومثل أولاء لا يصلحون لقيادة قومهم، وإن كبرا وها هو الإسلام القادم لتندك أنوف غرها كبرها يوما، وأمام صيحات التكبير والتوحيد العالية!!

لا نبرح حتى نناجز القوم: حين بلغ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن عثمان قد قتل قال: «لا نبرح حتى نناجز القوم» ومنه كانت بيعة الرضوان، تحت الشجرة، وكانت سمرة[1] ، وهذا وفاء نبي لسفيره، وليشهد التاريخ أن جيوشا تجيش أجل سفير واحد! وكمثل عثمان رضي الله تعالى عنه، وحين أثني الله تعالى على صنيعهم هذا، ويوم أنزل فيه قرآنا يتلى إلى يوم الدين، وكما قال تعالى ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا * ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما** ﴾ [الفتح ١٨-١٩]، وكما وكأنهم بايعوا ربهم على استنقاذ سفيرهم!

وإذ ثبت أن مقتل عثمان يوم الحديبية كان إشاعة. ومنه فيجب على جهاز الاستخبارات أن يكون يقظا، وحين تبث إشاعة لتفريق الجهود، والفت في

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري: ج ٥٤٦/٣

العضد، وكيما ينصرف الناس عن أهدافهم التي رسموها بأنفسهم من قبل، ولربما نسوها هدفا هدفا، واذ كما نقول يجب حذر الأجهزة المعنية ألا تصرف عما خرجت من أجله، ولا تلتفت كثيرا إلى بث الإشاعات، وليكن لديها من الرصيد الدعائي ما يمكنها من الوقوف على الحقائق وبثها أولا بأول، ومحافظة على صفوفها.

موجز أهداف يوم الحديبية

وهكذا كان يوم الحديبية مركب الأهداف:

١- إصرار على تحقيق هدف الزيارة والعمرة.

٢- إظهار التأكيد على أن الإسلام قد أصبحت له شوكته التي بها يكون الند للند، لكن نده الأقوى وحين قال تعالى: ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ۚ فمن نكث فإنما ينكث علىٰ نفسه ۖ ومن أوفىٰ بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما** ﴾ [الفتح:١٠].

٣- إثبات قيمة الفرد المسلم، وحين تجيش من شأنه الجيوش!!

وما يوم بني قينقاع عنا ببعيد ويوم أن جيشت الجيوش أجل امرأة مسلمة واحدة!!

وإذ كان يوم قينقاع لامرأة بيوم الحديبية لرجل!

إلا الجد بن قيس! هذه سوأة ذكرها التاريخ، ولم ينسها، ولم يفته تسجيلها، وحين بايع الناس جميعهم نبيهم صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، إلا الجد بن

قيس! وهذا عار لا على الأمة، فقد خرجت عن آخرها، وبايعت نبيها صلى الله عليه وسلم، على الموت فأهلا ،أو على عدم الفرار فسهلا، وعلى كليهما فأهلا وسهلا! وإنما إلا الجد بن قيس، وحين شعر بفعله، وكان كما وصفه جابر بن عبدالله: والله لكأني أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته قد ضبأ إليها، يستتر بها من الناس.

وهذا الجد بن قيس كان ينظر إليه على أنه كان منافقا، وحين تخاذل عن غزوة تبوك، معلنا عذرا، وما هو بعذر! وأمام نبينا صلى الله عليه وسلم، وأمام ولده الذي لم يستح منه، وحين قال له نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله! أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله! لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبا بالنساء مني. وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: قد أذنت لك[1].

ولينزل فيه قرآن يفضحه، ومن كان على سريرته، إلى يوم الدين أيضا، وحين قال الله تعالى ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ [التوبة:٤٩].

وإذ كان تقدم الصفوف، وحين ذكره التاريخ أيضا للجميع إلا واحدا! وهو ذاك الجد بن قيس! ومنه فحذار! فعين التاريخ ساهرة ترمق كلا!

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢٨٧/١٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (ص: ١٨٠٩)، والطبراني في المعجم الأوسط (٥٦٠٤) والبيهقي في دلائل النبوة ٢٢٥/٥]. وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٣٣/٧): فيه يحيى الحماني وهو ضعيف. وقال الألباني: في ((فقه السيرة))(ص٤٠٦): ضعيف.

أبو سنان الأسدي: وإذ كان أول من بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان أبو سنان الأسدي. وكما كان من تأخر هو الجد بن قيس. وهكذا التاريخ كما عهدنا به يسجل! ولأنه تعالى قال: **﴿ هٰذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ۚ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾**[الجاثية:٢٩]! وكما قال تعالى أيضا**﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هٰذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ۚ ووجدوا ما عملوا حاضرا ۗ ولا يظلم ربك أحدا ﴾**[الكهف:٤٩].

٦- مرحلة سهيل بن عمرو

حين وجدت قريش إصرار نبينا صلى الله عليه وسلم على هدفه الذي جاء من أجله يوم الحديبية أرسلت هي سهيل بن عمرو وقالت له: آت محمدا وصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبدا[١]. ومهما يكن من أمر، فهذا شأن المفاوضات، تتعثر كثيرا وتنهض قليلا، مما يعوزها إلى كثير طول نفس، شرط وصول العلم لدى أطراف التفاوض الهدف الأساس لكل، وأنه لا تزحزح عنه شيئا، وبالتالي يكون التفاوض من حوله، ودورانا عليه، وتطوافا حوله، والمهم أيضا أن يعلم الخصم طرق وسبل ومداخل ومخارج خصمه هو الآخر؛ ليعرف كيف يناور، وهذه فنون لم تكن غائبة على فريق التفاوض بقيادة النبي محمد صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، وإذ عسكر محله حتى يبلغ الهدف محله أيضا.

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٧٨١/٣.

علم نبوة ضاف

حين أتى سهيل بن عمرو، ولما رآه رسول الله ﷺ مقبلا قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». وهذه من نبوآته صلى الله عليه وسلم. وهذه نبوءة خير، وإذ تفاءل صلى الله عليه وسلم بأسمائهم، وحين سأله عن اسمه فقال: سهيل فقال صلى الله عليه وسلم: سهل الله لكم، وفيه فضل الأسماء الحسنة؛ لأنها موجب فأل حسن، وهذا الذي وقع يوم الحديبية، وإذ كان الاتفاق وسببه هذا سهيل بن عمرو، وحين أرسلته قريش؛ ليصالح الدعوة الجديدة المتمركزة على أطراف بلد الله الحرام، مكة المكرمة، وفيها بيت الله تعالى البيت الحرام مثابة للناس وأمنا، ومقام إبراهيم مصلى، والحِجْر والحَجَر، والصفا، والمروة، وزمزم الخير والنماء والشفاء والطعام والشراب!!

مفارقة: وانظر حين رأى نبينا صلى الله عليه وسلم مكرز بن حفص بن الأخيف أخا بني عامر بن لؤي، مقبلا وحيث قال: «هذا رجل غادر». وحين رأى سهيل بن عمرو فقال: سهيل فقال صلى الله عليه وسلم: سهل الله لكم. وكيف أن آحاد الناس يكون بمثابة فأل حسن، وأن آخر يكون عكسه ونقيضه، وعلاوة على أن هذه أعلام نبوة ضافية، إلا أنها أيضا تكشف عن مدى ما يمكن أن تكون هنالك من علاقة إيجابية بين الاسم والمسمى.

ثم أقسم النبي صلى الله عليه وسلم أن كفار قريش لن يسألوه أمرا يتفقون فيه على منع القتال تعظيما لمكة والكعبة، إلا وافق عليه، وذلك حين قال: لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها-؛ من أجل حرمة تلك الأماكن وعظمها عند الله تعالى.

إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري: في نقاش دار بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر الفاروق رضي الله تعالى عنهما، وهو نقاش مشهور وقع يوم الحديبية، وحين كانت بنود الصلح متضمنة لما رآه الفاروق دنية في ديننا، وعلى قوله: ولم نرض الدنية في ديننا؟ هذا النقاش نخلص منه إلى جواز الإدلاء برأي الرعية، وأمام قائدها، ولأنه هذا هو حمل الأمة بأسرها، وإن عظائم الأمور كان للأمة فيها رأيها صوابا وليسمع قائدهم، أو خطأ وليسمع أيضا، ولربما خرجوا جميعا بخير يعود أثره الإيجابي على الأمة بأسرها، ولا ننسى أن يد الله تعالى مع الجماعة، ولا ننسى أن أمة يقال فيها بالمشورة لا نادمة ولا خائبة، ولا ننسى أن اتباع سبيل المؤمنين خير كله، ولأن الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولا ننسى أنه ليس كل من عرف أو لم يعرف يقول! وإلا صارت فوضى، فليس يقول إلا ذو علم وخبرة وبصيرة وعدل، ويحمل هم أمته فوق رأسه، وانظر مكان الصديقين من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، فقد كان في موقع الحدث، لا على إشراف منه فحسب، وهذا باب قمن بالدراسة ،ولأن من كان خارج قلب الحدث، فلربما أضر قوله وما نفع!

وإذ لا ننسى وجوب القول والمشاركة، وعلى شروطنا الماضية؛ ولأنه قال أبو يوسف: وحدثني أبو بكر بن عبد الله الهذلي عن الحسن البصري أن رجلا قال لعمر بن الخطاب: اتق الله يا عمر "وأكثر عليه" فقال له قائل: اسكت فقد أكثرت على أمير المؤمنين. فقال له عمر: دعه، لا خير فيهم إن لم يقولوها لنا، ولا خير فينا إن لم نقبل. وأوشك أن يرد على قائلها [(١)].

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف: ٢٢/١

وإذ قالها الفاروق- فعلام نعطي الدنية في ديننا-؟ وإذ هدأه الصديق، وهذا عنوان إيجابية هذه الأمة، وحين تقول وتشير، وحين يأخذ بعضها على أيدي بعضها، فتنهض، وتعلو، وتسمق، وحين كان من بينها كأمثال عمر الفاروق، لا سلبية تجاه قضاياها المصيرية العليا، وإذ كان فيها أيضا وكمثل الصديق، ما يخفف عن أخيه الفاروق ما أهمه، وحين قال له: يا عمر الزم غرزه فإني أشهد أنه رسول الله. وإذ كان يقينا أن الفاروق تكلم فيما يعني أمة، بتاريخها الطويل الممتد، ولذا سجل التاريخ لها هذا المضاء الشامخ العالي، وكيما يكون أسوة وسنة حسنة للأجيال جميعا، وجيلا من بعد جيل آخر، ورحم الله أمة كان من وصفها أنها أمة مرحومة، وكان من رحمتها تلك مشورتها، وإدلاؤها رأيها، وقولها قولا حسنا، وحين يربت كل على صدر أخيه، وهو إذ يقول ذلكم القول الحسن الجميل، ولأنه تعالى أمر فأوجب حين قال: ﴿ **وقولوا للناس حسنا** ﴾ [البقرة:٨٣].

موجز عقد صلح الحديبية

وإذ كانت بنود صلح الحديبية على ما تضمنها وفي ظاهرها ما يلتمس فيه عذر لما قام به عمر الفاروق! إلا أننا نقف أيضا موقفا إيجابيا آخر، وحين علمنا أن يقين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بربه في درجاته العليا، وأن به يقينا لا يتزحزح شيئا، وإذ كان منه يقينه بأنه تعالى ليس يخذله، وأنه عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولن يضيعه الله، ولن يخيبه، وحين قال صلى الله عليه وسلم: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف، أمره ولن يضيعني! ولأننا نوقن أن السماء ترقب الأرض وما يدور في جنباتها، وما كان الله ليذر نبيه صلى الله عليه

وسلم، وحين أوشك، أو كان قاب قوسين أو أدنى ولذا: صالح النبي صلى الله عليه وسلم المشركين يوم الحديبية على ثلاثة أشياء: على أن من أتاه من المشركين رده إليهم، ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه، وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم بها ثلاثة أيام، ولا يدخلها إلا بجلبان السلاح السيف والقوس ونحوه، فجاء أبو جندل يحجل في قيوده، فرده إليهم قال أبو عبد الله: لم يذكر مؤمل عن سفيان: أبا جندل، وقال: إلا بجلب السلاح[1].

ولسنا نقف كثيرا أيضا عند أمور الكتابة والتسمية والشهادة يوم الحديبية؛ ولأنه:

١- كان هديه صلى الله عليه وسلم توثيق العهود والمواثيق، سواء مع المشركين أو الذميين أو المسلمين، وانظر عقد المؤاخاة يوم هجرته الميمونة إلى يثرب، وانظر يوم الحديبية، الذي بين أيدينا فلزم منه كتابة ما اتفق عليه، وتوثيقه بالشهادات والتسجيلات اللازمة، ولا عليك من عشوائيات قوم، وحين يرفضون التزاما موثقا! فهذا خارج الأعراف، ومباين للعادات، وليس ينهض أن تخرج دولة، وحين أسميت دولة، وإذ لم تصطبغ دولة باسم الدولة، وإلا كانت ذات أهليتي الإيجاب والقبول المكتوبتين الموثقتين، وإلا فإنها لتشهد بذلكم على نفسها أنها خارج السرب!!!

(١) صحيح البخاري: ٢٧٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

كانت مسألة التسمية يوم الحديبية مثار نقاش دار بين المتفاوضين، وإذ أراد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يكتب: بسم الله الرحمن الرحيم؛ ولأن هذا هدي الأنبياء الكرام، يرون بركة أعمالهم من تسميتهم، واستصحابا لأخيه سليمان عليه السلام، وحين قرأت بلقيس ﴿ **إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمٰن الرحيم** ﴾[النمل:٣٠]. وحين كانت قريش تريد أن يكتب: باسمك اللهم، ولأنها لا تعرف اسم الله تعالى الرحمن، ولقد صدقت مع نفسها يومئذ، وحين سجل القرآن عليها قوله تعالى: ﴿ **وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمٰن قالوا وما الرحمٰن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا** ﴾ [الفرقان:٦٠]؟!

إلا أن حكمة النبوة كانت ذلكم الموقف الإيجابي، وأمام جهل قريش، وريثما يتعلمون فيعرفون، وبعد إسلامهم، أنه تعالى هو الرحمن الرحيم، وخاصة أن سهيل بن عمرو كان جاهلا، ولا ريب أن منهم صادقين، وحين قال سهيل: لا أعرف هذا! ولكن اكتب باسمك اللهم! وهنا وقفة بديعة، وحين لا يركب أحدنا رأسه أمام جهل الجاهلين! وليصبر، وليأخذهم على قدر عقولهم، ومن حيث لا ارتكاب لإثم، فإن المسافة بين باسمك اللهم وبين بسم الله الرحمن الرحيم ليست بعيدة، إلى الحد الذي يفوت مصلحة أعلى، وهي إبرام الاتفاق مع هذه ال(قريش)!! وبين ارتكاب مفسدة أدني وهي تفويت نص البسملة، خاصة وأن القاسم المشترك بينهما كان موجودا، وهو التسمية، وإن اختلف لفظها شكلا لا موضوعا. وإنما كانت الطامة، وحين لو رفضوا التسمية من أساس، وحينها كان موقف نبينا ﷺ وبالطبع موقفا آخر مغايرا تماما!

وهذا هدي نبوي نسجله، وكما سجله التاريخ، ألا يوقف موقف العناد، وأمام مسلمات موضوعية، وإن اختلفت ألفاظها بين فريقي التفاوض!

وإذ دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم». قال: فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن أكتب باسمك اللهم! ثم قال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو». قال: فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. قال: فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وإن بيننا عيبة مكفوفة، وإنه لا أسلال ولا أغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه». وفيه جواز اتخاذ الكاتب، وجواز العقد بين الطائفتين إلى عشر سنين، وهذا هو الدليل، ولا التفات إلى إنكاره.

الإشهاد على اتفاق الصلح: وكما شهد على الاتفاق فريق من المؤمنين وفريق من المشركين: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمود بن مسلمة، ومكرز بن حفص، وهو يومئذ مشرك، وعلي بن أبي طالب، وكتب وكان هو كاتب الصحيفة.

تفاصيل عقد صلح الحديبية: عن البراء بن عازب صالح النبي صلى الله عليه وسلم المشركين يوم الحديبية على ثلاثة أشياء: على أن من أتاه من المشركين رده

إليهم، ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه، وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم بها ثلاثة أيام، ولا يدخلها إلا بجلبان السلاح السيف والقوس ونحوه، فجاء أبو جندل يحجل في قيوده، فرده إليهم قال أبو عبد الله: لم يذكر مؤمل عن سفيان: أبا جندل، وقال: إلا بجلب السلاح. [١] .

١- وضع الحرب عن الناس عشر سنين.

٢- يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.

٣- من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم.

٤- ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه.

٥- وإن بيننا عيبة مكفوفة.

٦- وإنه لا أسلال ولا أغلال.

٧- وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه.

٨- ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

* * *

وقد كان إنزال سورة الفتح على نبيه محمد ﷺ وهو إذ في طريق عودته إلى المدينة المنورة، وإذ كان المسلمون في هم وغم، وذلك حين حيل بينهم وبين نسكهم، وها هم قد انقلبت كآبتهم فرحا، وإذ تحول غمهم سرورا، وحين أدركوا

---

(١) صحيح البخاري: ٢٧٠٠

أن التسليم لأمر الله ورسوله فيه كل الخير لهم، وكما أن فيه الخير لدعوة الإسلام الخالد.

وهذا أبو جندل بن سهيل بن عمرو: ذلك الصحابي الذي أسلم، وليعذبه أبوه سهيل بن عمرو ويحبسه، ثم ها هو أخذ يفر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، وقبل توقيع العقد، وكان هذا ابتلاء منه تعالى، وإذ جادل عنه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ لم يتم توقيع الوثيقة بعد، وبالتالي لا تصبح نافذة إلا بعد توقيعها من أطرافها، وإذ تمحك سهيل بن عمرو، ولأنه ولده على ما يبدو، وقد عز عليه أن يكون ولده أول من يفجأه بالذهاب إلى المسلمين، وإذ يتصور مدى غبنه، وإذ يتخيل مدى خجله، وأن تكون إرهاصات الفتح قد هبت رياحها من بيته أولا!!! وليشفع له غير والده أن يلحق بنبينا صلى الله عليه وسلم. وهذا كاشف على كل حال عن صلف سهيل وعنته، وحين خالف بنود الاتفاق أول مرة! ولئن كان عقد الصلح على يديه، وهو في نفس الوقت كاشف عن بقية مروءة لدى العرب، وحين استجاب أحدهم نداءه صلى الله عليه وسلم، وحين قال مكرز: بل قد أجزناه لك، لكنه على ما يبدو لم يكن صاحب قرار نهائي في ذلك! وإذ ينادي أبا جندل مستشرفا آفاق الفتح المبين قائلا: يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وأنا لا نغدر بهم».

وأبو جندل هذا هو الذي أخذ الأمان لأبيه يوم الفتح؛ وحين أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أبي تؤمنه؟ قال: "هو آمن بأمان الله،

فليظهر". ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله: "من رأى سهيل بن عمرو فلا يشد إليه النظر. فلعمري إن سهيلا له عقل وشرف، وما مثل سهيل جهل الإسلام". فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال سهيل: كان والله برا كبيرا وصغيرا[1]: وهذا هو بر الإسلام الخالد، وحين بر أبو جندل أباه الذي أوثقه بالحديقة وعذبه، يوم أن أسلم وجهه لله، وهذا أيضا يكشف عن مدى سماحة العبد المسلم، وحين يقابل السيئة بالحسنة، وهذا عامل ضاف تميزت به أمتنا، وحين نزع الله تعالى الغل من قلوبها، وجعلها صافية كالماء العذب الزلال.

وكما أن هذا الحدث كاشف أيضا عن مدى سماحة ومروءة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قبل شفاعة أبي جندل في والده سهيل بن عمرو، ورغم كفره!

وفيه جواز الشفاعة للكافر، وجواز قبولها، ولأن ديننا لم يترك ثقبا لسماحة إلا ولجه، ولم يدع بابا لعفو إلا طرقه!!

إن من جاءك منا ترده علينا، ويكأن هذا البند، وإنما وضعه سهيل بن عمرو خصيصا لولده أبي جندل؛ ولعلمه أنه سيكون أول من يفر إلى نبينا صلى الله عليه وسلم، فخلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك. وهذا أمر مشاهد عند سن القوانين البشرية والتي يكون لأولي المصلحة يد طولى في تقديمها، كمشروعات قوانين وسرعان ما يصوت لها!!

---

(١) الاستيعاب، ابن عبد البر: ج ٩٢٥/٣

وانظر إلى التشريعات البشرية عموما فلا تكاد تخلو من ذلك. ولا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية، وحين يتناوب عليها الحزبان الجمهوري والديمقراطي، وكل لحاجته من ذلك! [١] .

وقد غلطت طائفة ألفت في الصحابة في أبي جندل هذا، فقالوا: اسمه عبد الله بن سهيل، وإنه الذي أتى مع أبيه سهيل إلى بدر، فانحاز من المشركين إلى المسلمين، وأسلم وشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا غلط فاحش. وعبد الله بن سهيل ليس بأبي جندل، ولكنه أخوه، كان قد أسلم بمكة قبل بدر، ثم شهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما ذكرنا من خبره في بابه. واستشهد باليمامة في خلافة أبي بكر. وأبو جندل لم يشهد بدرا ولا شيئا من المشاهد قبل الفتح. قال موسى بن عقبة، لم يزل أبو جندل وأبوه مجاهدين بالشام حتى ماتا- يعني في خلافة عمر [٢] .

وذكر عبد الرزاق، عن ابن جريج، قال: أخبرت أن أبا عبيدة بالشام وجد أبا جندل بن سهيل بن عمرو، وضرار بن الخطاب، وأبا الأزور، وهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قد شربوا الخمر، فقال أبو جندل: ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنواۚ والله يحب المحسنين﴾ [المائدة:٩٣]. فكتب أبو عبيدة إلى عمر: إن أبا جندل خصمني بهذه الآية. فكتب عمر: إن الذي زين لأبي جندل الخطيئة زين له الخصومة، فاحددهم. فقال أبو الأزور: أتحدوننا؟ قال أبو عبيدة: نعم. قال: فدعونا نلقي العدو غدا فإن قتلنا فذاك، وإن رجعنا إليكم

(١) الوجيز فى قانون القضاء، قوانين المرافعات: دراسة مقارنة بالشريعة الاسلامية، عاشور مبروك
(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، ج ٥ / ١٦١

فحدونا، فلقي أبو جندل وضرار وأبو الأزور العدو، فاستشهد أبو الأزور، وحد الآخران. فقال أبو جندل: هلكت. فكتب بذلك أبو عبيدة إلى عمر، فكتب عمر إلى أبي جندل- وترك أبا عبيدة: إن الذي زين لك الخطيئة حظر عليك التوبة، ﴿حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير﴾.[غافر:١-٣] (١).

مسألة المسح على الخفين: وأبو جندل هذا هو الذي سأل بلالا عن المسح على الخفين بدمشق، فقال بلال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح على الخفين والخمار.

عن مكحول قال: كان الحارث بن معاوية الكندي، وأبو جندل بن سهيل يتوضآن عند مطهرة باب البريد، فذكرا المسح على الخفين، فمر بهما بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألاه عن ذلك، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: امسحوا على الخفين والخمار (٢).

وهذا الأثر يؤيده حديث بلال بن رباح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح على الخفين والخمار. وفي رواية: رأيت رسول الله ﷺ (٣).

حكم الخمر بين الحرمة والاستحلال: عن نافع قال: لما قدم على عمر كتاب أبي عبيدة في ضرار وأبي جندل كتب إلى أبي عبيدة في ذلك، وأمره أن يدعوهم على رؤوس الناس، فيسألهم: أحلال الخمر أم حرام؟ فإن قالوا: حرام فاجلدوهم

---

(١) أسد الغابة، ابن الأثير: ج ٥: ١٦١

(٢) كتاب مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور:٢٢١/٢٨

(٣) صحيح مسلم: ٢٧٥

ثمانين جلدة، واستتيبوهم، وإن قالوا: حلال فاضرب أعناقهم. فدعاهم، فسألهم، فقالوا: بل حرام، فجلدهم، فاستحيوا، فلزموا البيوت، ووسوس أبو جندل[١].

وكتب أبو عبيدة إلى عمر: إن أبا جندل قد وسوس إلا أن يأتيه الله عز وجل على يديك بفرج، فاكتب إليه، وذكره. فكتب إليه: من عمر إلى أبي جندل: " إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء "، فتب، وارفع رأسك، وابرز، ولا تقنط؛ فإنه يقول: " يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ". فلما قرأه عليه أبو عبيدة تطلق، وأسفر عنه. وكتب إلى الآخرين بمثل ذلك. فبرزوا. وكتب إلى الناس: عليكم أنفسكم، من استوجب الغير فغيروا عليه. ولا تعيروا أحدا فيفشوا فيكم البلاء.

قالوا: وجاشت الروم: دعونا نغزهم، فإن قضى الله تعالى بالشهادة فذاك، وإلا عمدت للذي تريد. فاستشهد ضراب بن الأزور في قوم، وبقي الآخرون فحدوا[٢].

من أحكام الإحصار يوم الحديبية: وفي حديث الباب الآنف ذكره للبخاري رحمه الله تعالى يوم عمرة الحديبية والصلح: أن النبي ﷺ لما فرغ من قضية الكتاب قال لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور: ٢٨ / ٢١٩

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٧ / ١٠٦

هذا الذي فعله النبي ﷺ يوم الحديبية، وذلك لأنه إذا أحصر عن العمرة أو الحج نحر هديه وتحلل بعد الحلق أو التقصير، فإن عجز صام عشرة أيام عن ذلك، والنبي لم يأمر من أحصر معه أن يقضوا، وهذا على رواية الإمام البخاري رحمه الله تعالى. وبه أخذ الإمام مالك رحمه الله تعالى، وهذا من مطلق الجمع بين روايتي أحمد والبخاري رحمهما الله تعالى.

والتحقيق أنه صلى الله عليه وسلم نحر وحلق يوم الحديبية، رغم أنه لم يعتمر على شروط الصلح وتأجيله إلى العام القادم، ولأن هذا هو حكم المحصر، فإذا حبسه حابس حال بينه وبين العمرة أو الحج فمحله حيث حبس، ومن ثم وكأنه حج أو اعتمر، فينحر جبر عدم الإكمال، ويحلق أو يقصر، والحلق أولى؛ لدعائه صلى الله عليه وسلم للمحلقين ثلاثا، وللمقصرين مرة واحدة. ولأن الحلق عادة أظهر في إعلان الإخبات منه في حال التقصير، وهذا أمر مشاهد حسا وعادة.

وأما رواية الإمام ابن إسحاق: قالوا يا رسول الله: فلم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: «لم يشكوا». فلم أجد لها في روايات أخرى صدى، بل وجرت عادة أهل العلم على عدم الالتفات إليها، ولعلها تكون ضعيفة أو زائدة من أحد الرواة.

وإن أمكن تخريجها تأسيسا على أن الحلق أظهر للانقياد، وأدل على الإخبات، والله تعالى أعلم.

التخول بالموعظة: عن زيد بن خالد الجهني: صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم،

قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب[1]. وهذا قوله صلى الله عليه وسلم صبيحة يوم الحديبية بعد صلاة الفجر، ولتعلق القلوب بربها سبحانه، ومن ثم الرجوع بالنعمة والفضل على الله تعالى الخالق العظيم، المنان بكل من، وصاحب كل فضل، ثم الانخلاع من حظ النفس، وحين لم يكن لها من الأمر من شيء؛ ولأنه تعالى بيده مقاليد السماوات والأرض، وإنما يكون تحقيق العبودية لله تعالى، وعلى وجهها، وحين يتأكد في حق العبد أمران:

الأول: الاعتراف الجازم واليقين الحازم أن كل نعمة منه تعالى وحده، وأنه تعالى هو المنعم بها على عبيده وبلا استحقاق، وإنما هو غاية فضله ومنه وجوده وكرمه.

الثاني: انخلاع العبد من حوله وقوته كليهما وجميعهما إلى حوله تعالى وقوته كليهما وجميعهما أيضا.

وعلى هذا جرى هدي الأولين والآخرين من العباد الخلص والأولياء المتقين، والذين حين حققوا ذلك، فلا خوف عليهم، ولا هم يحزنون. وذلك من مقتضى قوله تعالى: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾[يونس:٦٢و٦٣].

---

(١) صحيح البخاري: ٨٤٦

وإنما قال صلى الله عليه وسلم هذا بعد الصبح؛ ولأنه وقت سكينة وهدوء، وتخيم فيه دلالات الرحمة، وإشرقات الإخبات، وكان منه شهود الملائكة الصباح، دونما سواه، ولاختصاصه بذلك وحيا، وكما قال تعالى: ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلىٰ غسق الليل وقرآن الفجرۖ إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ [الإسراء:٧٨].

وإنما قال صلى الله عليه وسلم ذلك يوم الحديبية؛ ولأنه كان يوما عظيما في تاريخ أمتنا، وكان منه ما تأزز به عمر الفاروق، لكنه كان فتحا مبينا. وحين هيأ الله تعالى أن تنقض قريش عهدها فيه،- وبنفسها- وليدخل الناس في دين الله أفواجا، وما عملت آلاتهم الإعلامية السلبية من شيء، ولما جاء أمر ربك!!!

وهي رسالة إلى كل آلة أيضا أن تكتسح صيحات التكبير كل ميدان، ولتخمد كل صرخات التضليل والتعمية على العباد مرة واحدة، ولا قيام لها من كبوة!!!

إهداء جمل أبي جهل: عن عبدالله بن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم أهدى في بدنه جملا كان لأبي جهل برته فضة أحمد [١].

وهذا الفعل دلالة على أن رسول الله ﷺ أهدى عام الحديبية في هداياه جملا لأبي جهل في رأسه برة من فضة، وكان قد اغتنمه منه، يوم بدر؛ وليغيظ بذلك المشركين. وهذا عمل نبينا غاية ما يقع نبل!! وهذا تصرف ليس يكون إلا من نبي!!! ولأنه علا وفوق جراح سببت كلما في هذا النبي، ومن عمه أبي جهل هذا! وحين أثار عليه ثائرة مكة كلها! وها هو الآن يمد إليهم غصن الزيتون! وفي

(١) مسند أحمد، أحمد شاكر: ٣/٣٤٥. خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن.

محاولات لتقريب القلوب نحو الهدف الأعلى والغاية الأسمى، وهي تحقيق العبودية لله تعالى.

وهذه هي النقطة الفارقة، والتي يقوم عليها وحدها مبدأ الولاء والبراء، ولا عليك مما سواها، ولئن أهدى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم جمل عمه أبي جهل، ذاك الذي قتله الله تعالى شر قتلة، يوم بدر، يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، وإن ذلك لا يضيره صلى الله عليه وسلم، اللهم إلا محاولات لاكتساب الناس، وخاصة الرؤساء منهم لصالح الدعوة، ولأن وراءهم من سوف يهمهم معهم بقول خافت: سمعنا وأطعنا. ولما يدخل الإيمان في قلوبهم.

وهذا درس أيضا؛ ولأنك تراه صلى الله عليه وسلم يفتح أبوابا أوصدتها قريش بمغاليق لا يفتحها إلا علام الغيوم!

وهي رسالة أيضا إلى من تنكب أخاه، وبغير ذي رشد من سند، ودونما علة من سبب! إلا ذلكم الشيطان الرجيم اللعين، وحين وجد أهبة قلوب ينفث فيها سمه الناقع، ليعرض هذا ويعرض هذا، ولكن: وخيرهما الذي يبدأ بالسلام!!!

وحسبنا نقف هنا؛ ولعله أنه يريد إغاظة المشركين، وحين تحول حاله صلى الله عليه وسلم من ذل إلى عز، ومن فقر إلى غنى، ويكأن الكون يصدح: أن هذه هي بركات التوحيد العظيم!!!

أبو بصير: اختلف في اسمه ونسبه، فقيل: عبيد بن أسيد بن جارية. وذكر خليفة، عن أبي معشر، قال: اسمه عتبة بن أسيد بن جارية بن أسيد ابن عبد الله بن سلمة بن عبد الله بن غيرة بن عوف بن قسي، وهو ثقيف بن منبه ابن

بكر بن هوازن، حليف لبني زهرة. وقال ابن إسحاق: أبو بصير عتبة ابن أسيد بن جارية. قال ابن شهاب: هو رجل من قريش وقال ابن هشام: هو ثقفي[1].

وفي حديث الباب الذي معنا: ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا، فاستله الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به، ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه: لقد رأى هذا ذعرا، فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد- والله- أوفى الله ذمتك؛ قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ويل أمه مسعر حرب! لو كان له أحد. فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشأم إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده بالله والرحم، لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، فأنزل الله تعالى: **{وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم**

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر القرطبي النمري: ٦١٢/٤

ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم} حتى بلغ **{الحمية حمية الجاهلية}** [الفتح: ٢٤ - ٢٦]، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا بـ« بسم الله الرحمن الرحيم»، وحالوا بينهم وبين البيت.

وعن الزهري، عن عروة، عن المسور ومروان، قالا: فلما أمن الناس وتفاوضوا لم يكلم أحدا في الإسلام، إلا دخل فيه، فلقد دخل في تلك السنتين أكثر مما كان دخل فيه قبل ذلك، وكان صلح الحديبية فتحا عظيما، ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واطمأن بها، أقبل إليه أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية الثقفي، حليف بني زهرة، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخنس بن شريق الثقفي، والأزهر بن عبد عوف، وبعثا بكتابهما مع مولى لهما ورجل من بني عامر بن لؤي، استأجراه ليرد عليهم صاحبهم أبا بصير، فقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفعا إليه كتابهما، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بصير، فقال له: " يا أبا بصير، إن هؤلاء القوم قد صالحونا على ما قد علمت، وإنا لا نغدر، فالحق بقومك "، فقال: يا رسول الله، تردني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اصبر يا أبا بصير واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين من المؤمنين فرجا ومخرجا ".

قال: فخرج أبو بصير وخرجا حتى إذا كانوا بذي الحليفة، جلسوا إلى سور جدا، فقال أبو بصير للعامري: أصارم سيفك؟ قال: نعم، قال: أنظر إليه؟ قال: إن شئت فاستله، فضرب به عنقه، وخرج المولى يشتد وطلع على رسول الله صلى الله

عليه وسلم وهو جالس في المسجد، فلما رآه قال: " هذا رجل قد رأى فزعا ". فلما انتهى إليه، قال: قتل صاحبكم صاحبي.

فما برح حتى طلع أبو بصير متوشح السيف، فوقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله وفت ذمتك، وقد امتنعت بنفسي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ويل أمه محش حرب، لو كان معه رجال ".

فخرج أبو بصير حتى نزل بالعيص، وكان طريق أهل مكة إلى الشام، فسمع به من كان بمكة من المسلمين، فلحقوا به حتى كان في عصبة من المسلمين قريب من ستين أو سبعين، وكانوا لا يظفرون برجل من قريش إلا قتلوه، ولم يمر بهم عير إلا اقتطعوها، حتى كتبت فيهم قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه بأرحامهم لما آواهم، فلا حاجة لنا بهم، ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدموا عليه المدينة[١].

وفيه:

١- وفاؤه صلى الله عليه وسلم بما صالح عليه يوم الحديبية.

٢- استشراف الفرج وقربه، مما كان له أثره الإيجابي عاملا في الناس.

٣- شدة أذى المشركين لأهل الحق.

٤- صبر أهل الحق على ما يصيبهم ابتغاء مرضاة ربهم.

٥- الاجتهاد في الإجهاز على الكفار، ودون علم أو إذن الإمام الأعظم. وإن ذلك مخالفة للأصل.

---

(١) أسد الغابة، ابن الأثير: ج ٥ / ١٤٩، رقم: (١٧٧٢)

٦- اعتبار سكوته صلى الله عليه وسلم على فعل أبي بصير إيجابا سكوتيا، وإقرارا عمليا لفعلهم، واستثناء من أصل، ولقاعدة: الضرورات تبيح المحظورات. ولقاعدة: الضرر يزال، وحين كان إيذاء المشركين لهم ضررا محققا.

٧- اضطرار قريش أن تطلب من نبينا صلى الله عليه وسلم إيواءهم! وإذ يعتبر هذا إخلالا بنصوص عقد الصلح، ومن جانب قريش، وحتى ولو كان هذا الإخلال لصالح المسلمين، مما يجعل المسلمين في حل منه كله، وهذا بحد ذاته فتح عظيم!

وكان أبو بصير يصلي لأصحابه، وكان يكثر من قول الله العلي الأكبر، من ينصر الله فسوف ينصره. فلما قدم عليهم أبو جندل كان هو يؤمهم[١].

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي جندل وأبي بصير ليقدما عليه ومن معهما من المسلمين أن يلحقوا ببلادهم وأهليهم، فقدم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي جندل، وأبو بصير يموت، فمات وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده يقرؤه، فدفنه أبو جندل مكانه، وصلى عليه، وبنى على قبره مسجدا[٢].

وشبهة بناء المسجد هذه معلوله لاحتمال عدم علمه صلى الله عليه وسلم بها، وإنما هي من عمل أبي جندل وحده، وهو اجتهاده وحده أيضا فحسب، أو أنه كان على شرع من قبلنا، وكما شبهة أهل الكهف في ذلك أيضا، وخاصة أن الأحاديث الواردة في تحريم اتخاذ القبور مساجد أصح وأصرح، وقد جاءت عن

(١) الاستيعاب، ابن عبد البر، ج ٤ /١٦١٣

(٢) الاستيعاب، ابن عبد البر، ج ٤ /١٦١٤

نبينا صلى الله عليه وسلم وبلا واسطة، وجاءت في نهاية دورة التشريع، إن جاز التعبير، ولأن واقعة بناء مسجد على قبر أبي بصير كانت في السنة السادسة، في حين جاء حديث أبي هريرة الآتي ذكره في نهاية حياة نبينا محمد الله صلى الله عليه وسلم، وقبل موته بثلاثة أيام، وخاصة أيضا أن نفرا من أهل العلم قد ضعفوا رواية بناء مسجد على قبر أبي بصير سندا ومتنا.

فإن القصة التي أوردها ابن الأثير في أسد الغابة بدون زيادة: «وبنى على قبره مسجدا» ضعيفة لا تقوم بها حجة لكونها مرسلة؛ لأن مدار هذه القصة على الزهري على اعتبار أنه تابعي صغير سمع من أنس بن مالك رضي الله عنه وإلا فهي معضلة؛ ولأن الزهري نفسه قال: بلغنا! في إشارة إلى أنه معضل.

قال: " فقدم كتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زعموا - على أبي جندل وأبي بصير، وأبو بصير يموت، فمات وكتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في يده يقرؤه، فدفنه أبو جندل مكانه، وجعل عند قبره مسجدا"[1]

ومفارقة بين عبارة الاستيعاب وأسد الغابة: «وبنى على قبره مسجدا»، وهذا غير جائز قطعا، وعبارة ابن عساكر: وجعل عند قبره مسجدا، وهذه يمكن تجاوزها، ولئن بقي في النفس منها شيء؛ وحماية لجناب التوحيد.

وهذا في الوقت الذي بين أيدينا فيه رواية الإمام البخاري رحمه الله تعالى، وهي خالية من هذه الزيادة، ولا شك أن رواية البخاري أقوى وأصرح وأصح.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر (٢٩٩/٢٥ - ٣٠٠)]، من طريق البيهقي السابق، ومن طريق الخطيب البغدادي، عن أبي الحسين بن الفضل القطان شيخ البيهقي، به.

وبه يصبح التضارب في هذا المتن قاطعا بالخروج منه، وعلى الأصل من تحريم ذلك، ولرواية أبي هريرة الحاكمة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** [١]

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: **فلولا ذاك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا** [٢].

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾

[الفتح:٢٧].

وإذ كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أري في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة. فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه في ذلك،

---

(١) رواه البخاري (٤٣٧)، ومسلم (٥٣٠)

(٢) صحيح مسلم: ٥٢٩

فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: " بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا " قال: لا قال:" فإنك آتيه ومطوف به ". وبهذا أجاب الصديق - رضي الله عنه - أيضا حذو القذة بالقذة؛ ولهذا قال تعالى: **(لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله)**[1] .

وقوله:(آمنين) أي: في حال دخولكم. وقوله:**(محلقين رءوسكم ومقصرين)**، حال مقدرة، وقوله:(لا تخافون): حال مؤكدة في المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد[2] .

وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدي، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار أصحابه يلبون. فلما كان قريبا من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا، وظنوا أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيف مغمدة في قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. قال: " وما ذاك؟ " قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال: " لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج "، فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت

---

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج ٤ / ٢١٥

(٢) المرجع السابق: ج ٤ / ٢١٥

رءوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ولا إلى أصحابه غيظا وحنقا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام ناقة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يقودها[١] .

وعن عبدالله بن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما نزل مر الظهران في عمرته بلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قريشا تقول: ما يتباعثون من العجف فقال أصحابه: لو انتحرنا من ظهرنا فأكلنا من لحمه وحسونا من مرقه أصبحنا غدا حين ندخل على القوم وبنا جمامة قال: لا تفعلوا ولكن اجمعوا إلي من أزوادكم فجمعوا له وبسطوا الأنطاع فأكلوا حتى تولوا وحثا كل واحد منهم في جرابه ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل المسجد وقعدت قريش نحو الحجر فاضطبع بردائه ثم قال: لا يرى القوم فيكم غميزة فاستلم الركن ثم دخل حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود فقالت قريش: ما يرضون بالمشي إنهم لينقزون نقز الظباء ففعل ذلك ثلاثة أطواف فكانت سنة قال أبو الطفيل: وأخبرني ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك في حجة الوداع[٢]. وعن عبدالله بن عباس أيضا: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وقد وهنهم حمى يثرب، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة،

---

(١) المرجع السابق: ج ٤ /٢١٦

(٢) مسند أحمد: ٢٧٧/٤. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم[(١)].

قال البخاري: وزاد ابن سلمة- يعني حماد بن سلمة- عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم النبي - صلى الله عليه وسلم - لعامه الذي استأمن قال: " ارملوا ". ليرى المشركون قوتهم، والمشركون من قبل قعيقعان[(٢)].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: إنما سعى النبي- صلى الله عليه وسلم- بالبيت وبين الصفا والمروة ليري المشركين قوته[(٣)].

وعن ابن عمر؛ أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- خرج معتمرا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحا عليهم إلا سيوفا، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن قام بها ثلاثا، أمروه أن يخرج فخرج[(٤)].

﴿ فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ﴾ [الفتح: ٢٧]. فعلم الله تعالى من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم، (فجعل من دون ذلك) أي: قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا

---

(١) صحيح البخاري: ١٦٠٢

(٢) المرجع السابق: ج ٥ / ٨٦

(٣) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني: ج٦/٣٨٢، رقم:٤٢٥٧

(٤) صحيح البخاري، البخاري: ج ٥ / ٨٥

النبي- صلى الله عليه وسلم- (فتحا قريبا): وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين[1].

عن البراء بن عازب قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية؛ كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مئة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فأتاها، فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا[2] : وهذا فقه، ومن وراء فقه آخر: ولأنه ولئن كان فتح مكة فتحا، وهذا لا ريب فيه، ولأنه كان إيذانا بدك حصون الشرك التي كانت قد عششت وتغلغلت في هذا المجتمع، والذي ما فتئ يحسب أنه على شئ، وحين قدم السويق للحجيج، وزعموا أنهم بذلك يستحقون قيادة البشرية، وإن قيادة البشرية عمل غير صالح، وبهذه المقاييس التي لا تنهض أن يسندها برهان، أن لها به مستند قيادة الأمم، وإن قيادة الأمم وحين تعبد نفسها لله تعالى الحق المبين، ولأنها تعني أيضا فك الارتباط بين شوائب شرك، تغلغل فيهم، وجرى في عروقهم، وإن زعموا أنهم مصلحون، ولأن مقياس الإصلاح نابع من بئر الصلاح العميق، ونهر الإيمان العذب الجاري، لا من عفن جاهلي، ولا من رأي بشري، ولا من حمية أسماها ربنا: حمية الجاهلية؛ تلك التي وحين تحل على مجتمع، فتأتي عليه، كما النار تأكل هشيمها!

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ١٧٤/٤

(٢) صحيح البخاري: ٤١٥٠

هذا، وإن الفتح الأعظم كان يوم الحديبية! لأنه أشعل الشرارة الأولى، وقد أتي على مجتمع الشرك في مكة، وليأذن لميلاد عصر جديد، تكون فيه الكلمة الأولى والأخيرة للإسلام الخالد وحده، وحين سيطرت آلات إعلامية جبارة لإيهام الجماهير أنهم مصلحون، في سحر كسحرة فرعون، وحين سحروا أعين الناس واسترهبوهم، أن هذا هو الحق، وليس منه في شيء؛ ولأن الحق نور يفيض على جنبات الطرق كافة، ولينير للسالكين دروبهم، وليزيل هذا الحق أشواكا وركاما هائلا عشش في العقول، ونخر في عظام أبدانها، أن هذا هو الحق المبين، ولتأتي قوافل الحق من يثرب رائدة محملة بهدي السماء، وليستيقظ الرعاء أن هذا هو الحق، وليس سواه، وإن هملجت قريش وإن أزبدت!

ولأجل هذا كان يوم الحديبية هو الفتح المبين!!!

﴿ فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ﴾ [الفتح: ٢٧]. قال ابن إسحاق: هو صلح الحديبية؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم يوم صلح الحديبية جاء بألف وأربعمائة، وبعد سنتين من نقض قريش لهذا الصلح- وفي إشارة إلى أن المشركين لا أيمان لهم-! جاء صلى الله عليه وسلم مكة فاتحا وبعشرة آلاف، وعلى أضعاف مضاعفة من أعدادهم قاطبة مذ بعث وإلى يوم الناس هذا- فتح مكة-!!! وفي إشارة استشراف للخير والهدى والنور، ومن بين جنبات الظلم والشرك والطغيان يبزغ نور الفجر، يلوح في الأفق الممتد؛ ليبسط أجنحة تظلل الناس بظلال الإسلام الخالد، ولتنقشع أباطيل الناس، ويوم زينوا لهم أعمالهم، ﴿ويحسبون أنهم علىٰ شيءٍ ألا إنهم هم الكاذبون﴾[المجادلة:١٨].، وقد كانوا!!!

﴿ إن الله مـــع الـــذين اتقـــوا والـــذين هـــم محســـنون ﴾ [النحـــل:١٢٨]: هذا قول ربنا الرحمن الرحيم، وهو القول الفصل، ولينظر الإنسان نظرته إلى ما حوله، ومن هذا المقياس الرباني الكريم، وحينها يطاول عنان السماء، مجدا ورفعة وعلوا، وحين كانت وجهته ربه وحده لا شريك له، غاضا طرفه عن سائر من خلق، وحين يكون ميزانه هو ميزان التقوى وحده، سامقا بها، وكما الجبال العالية الشاهقة المرتفعة المتسامقة، ولأنه يحمل بين جنباته هما واحدا، هو أن يكون عبدا لمولاه تعالى الحق المبين، وحينها ليربط الله تعالى على قلبه، ولتستوي أمام عينيه وبصيرته الدنيا مدرها وذهبها.

وقد نفيد من ذلك أكثر، وحين نستحضر قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأبي جندل، وكما في حديث الباب أيضا: يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، أنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وأنا لا نغدر بهم»[١]!

ولأن قريشا جاءت يوما، وهي التي طلبت منه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ أبا جندل، وتلك القاعدة الإيمانية التي كانت قد تكونت داخل المجتمع المكي، ولتدكه دكا، وتأتي عليه سائره، ولا تبقي منه ولا تذر، في عزة وشموخ وأنفة، ومن بين أظهرهم وبأيديهم، وفي إشارة عملية إعجازية، تنهض برهانا على أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم هو النبي لا كذب، وهو ابن عبدالمطلب!!!

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٧٨٣/٣

وكذا استحضار صورة سهيل بن عمرو، وهو إذ يناضل ويكافح ويجادل عن سوء أدب، إلا أن يسلمه نبينا صلى الله عليه وسلم ولده أبا جندل، وإلا فلا صلح، ومن ثم استحضار صورة يوم طلبوا أن يسلموه هم وبأيديهم له صلى الله عليه وسلم! فماذا أنت قائل هنا إلا قول ربك: ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾!

* * *

علم نبوة ضاف

هذا النبي كان بركة السماء لأهل الأرض، وبكل المقاييس! ولذا وجب على أهل الأرض أن يخروا لله سجدا شكرا وهم داخرون؛ ولأنه **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾** [الجمعة:٢]!

وذلك لأنه ما من مناسبة تحل فيهم إلا ويرون إعجازا وتحديا، وذلك أيضا حين توضأ صلى الله عليه وسلم من ركوة يوم الحديبية، والناس ظمآى، ولا ماء لهم، لا لشربهم، ولا لوضوئهم، ليضع صلى الله عليه وسلم يده في الركوة، ليشرب الجميع، ويتوضأ الجميع أيضا، وحين يسأل جابر بن عبدالله بن حرام، صاحب الأخوات السبع، وصاحب الجمل، وصاحب دعوة النبي ﷺ على عناق وصاع من شعير، يقول: لو كنا مائة ألف لكفتنا! ولتجربة مر بها يوم عناقه وصاعه، وسهيلة امرأته الزوجة المباركة، وحين كفتا ألفا يوم الأحزاب، ووزعوا على الجيران يومهم هذا، ولبركة هذا النبي الأمي صلى الله عليه وسلم أيضا!!!

فعن جابر بن عبدالله: **عطش الناس يوم الحديبية والنبي صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة فتوضأ، فجهش الناس نحوه، فقال: ما لكم؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مئة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مئة**[١]

وعن البراء بن عازب، **كنا يوم الحديبية أربع عشرة مئة والحديبية بئر، فنزحناها، حتى لم نترك فيها قطرة، فجلس النبي صلى الله عليه وسلم على شفير البئر فدعا بماء فمضمض ومج في البئر فمكثنا غير بعيد ثم استقينا حتى روينا، وروت، أو صدرت ركائبنا**[٢].

أنتم اليوم خير أهـــل الأرض: وما ظنك بألف وأربعمائة يكونون خير أهل الأرض قاطبة؟! ولأنه قال عمرو: سمعت جابرا قال: **قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: كنا يوم الحديبية ألفا وأربع مئة، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: أنتم اليوم خير أهل الأرض. وقال جابر: لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة**[٣].

وإن كان في زمانهم، وهذا محتمل، وإن في غير زمانهم، وهذا محتمل أيضا، ومنه فهذا هو شأن المسلم، وحين يحمل هم هذا الدين، يكون كل فرد فيه يعدل أمة وحده، ولأنه يصلح حين يفسد الناس، ولأنه يفتح الله تعالى به قلوبا غلفا

---

(١) صحيح البخاري: ٣٥٧٦
(٢) المرجع السابق: ٣٥٧٧
(٣) صحيح مسلم: ١٨٥٦

وأعينا عميا وآذانا صما، وهذا هو سر الخيرية فيه، يقدم للناس قدوة حسنة في العقيدة والتوحيد أولا، ويصفي القلب عن شيء ما خلا الله تعالى؛ ولأنه قد سبقه بذلك الشاعر لبيد، وحين كان مشركا، ولكنه نطق بحق الفطرة، التي يحملها بين جنباته، جارية في عروقه، وحين قال عنه نبينا محمد ﷺ: أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد: (ألا كل شيء ما خلا الله باطل). وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم[١]!

وما أجمل الفطرة! وحين يخلى بينها وبين عوائق الناس، وجواذب الأرض وترابها وغبارها، تراها تنطق بالحق وبه تعدل، ولا يعوق شعرة واحدة فيها زمجرة مزمجر، ولأنها تصهل كفرس هيجا في الميدان، كنقع مكر مفر مدبر معا.

كان من فضله تعالى أن سبب أسبابا مختلفة وعديدة ليدخل الله تعالى بها أصحابها الجنة، ولا يلجون النار، ليفوز أحدهم بحسنيين: وحين دخل الجنة وهذه واحدة، وحين لم يدخل النار وهذه الثانية، ولأن جابرا أنبأ: أن عبدا لحاطب جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو حاطبا فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذبت لا يدخلها، فإنه شهد بدرا والحديبية[٢].

ولأنهما- يوم الحديبية ويوم بدر- حدثان كان لهما ذلكم الأثر في دك حصون الشرك الذي عشش في أوكار قريش، وهذا برهان ألا يقنط مصلح، وهذا دليل ألا ييأس داع؛ ولأنه تعالى حين يعلم في قلوب الناس خيرا يؤتهم خيرا،

---

(١) صحيح البخاري: ٣٨٤١

(٢) صحيح مسلم: ٢٤٩٥

فيكونون مصابيح الدجى للناس في ظلامهم الحالك، فيصبحون جميعا وقد أغدق عليهم ربهم بالهدى والصلاح والعزة والتقوى والهدى والنور والسرور والحبور.

هذا، وإن فضلا ليوم الحديبية وليوم بدر، وحين كانا سببا ألا يلج أحد من أصحابهما النار.

وهذا برهان واف أن الأخذ بالسبب هو سبيل الناس للفوز برضا ربهم، وفوزهم يوم اللقاء الأعظم، ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [الشعراء:٨٨و٨٩]. خال من الشرك، دقه وجليله، مستظهرا دنيا الناس من وراء ظهره، وإذ ينام ليس يحمل في قلبه شيء من أحد، صافيا كماء عذب زلال!!!

﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ [البقرة:٨٣]: عن أم مبشر الأنصارية: لا يدخل النار، إن شاء الله، من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها قالت: بلى، يا رسول الله، فانتهرها، فقالت حفصة: {وإن منكم إلا واردها} فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قد قال الله عز وجل: {ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا} [١].

هذا جدال حان لطيف بين امرأة فقيهة وزوجها النبي ﷺ، يرينا كيف كانت مخرجات بيوت النبي ﷺ، إن على المستوى الداخلي في محيط بيته وأسرته، دلك عليه ذلكم الفقه الذي تسربلت به إحداهن وهي حفصة، وكلهن على هذا الطراز العالي، ودلك عليه أيضا كل مناسبة جاء ذكر إحداهن.

(١) صحيح مسلم: ٢٤٩٦

وهـذه رسـالة للـدعاة العـاملين في حقـل العمـل الإسـلامي، وأن تكـون مخرجـات بيـوتهم على مسـتوى يليـق بتنشـئة أمـة مسـلمة، تكون تمهيـدا لتنشـئة جيل مسلم فريد، يمكن أن تقام على أكتافه دولة الحق المبين الإسلام العظيم.

وإن على المستوى الخارج عن أسرته صلى الله عليه وسلم، ودلك عليه ما ترى من أصحاب الشجرة، وحين أنزل الله تعالى فيهم قولا فصلا، نقف به على ما كان هذا الجيل من تربية إيمانية صادقة، وحين بايعوا نبيهم صلى الله عليه وسلم على الموت، وألا يفروا، وكما قال تعالى **﴿ لقد رضى ٱلله عن ٱلمؤمنين إذ يبايعونك تحت ٱلشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل ٱلسكينة عليهم وأثٰبهم فتحا قريبا ﴾** [الفتح – ١٨].

وهـذا السـجال بين زوج هـو نبينـا محمـد صلى الله عليـه وسـلم وزوجـه هي حفصـة بنـت عمـر الفـاروق رضي الله تعـالى عنهمـا كان وليـد رحمـة وشـفقة، أنبـاك عنها ذلكم لطف القول وحنو الرد عليه من كليهما، مما يشي بظلال الرحمة بين طرفي الأسرة الواحدة، وحين تتبادل رأيها وتدلي بدلوها في تدارس جميل لدين الله تعالى الإسلام، وكيما تتنشأ أسرة قوامها الرحمة وعمادها الإلف.

وإذ رأينـا سـجالا آخـر كثيـرا مـر علينـا في أثنـاء تشـرفنا بدراسـة غـزوة الحديبية، كان نبعا صافيا مهذبا لمنهج الأخذ والرد في هذا الدين العظيم القويم، وانظـر يـوم عقـد صـلح الحديبيـة، وإذ كـادت الأرض أن تزلـزل مـن تحتـه أقـدام الفاروق وأخيه الصديق، بل وأصحاب الشجرة جميعهم، وحين تلطف بهم ومعهم نبيهم صلى الله عليه وسلم، وحين هدهدهم بقوله الحاني اللطيف: أنا عبد الله ورسوله ولن يضيعني الله!!!

وفي إشارة كيف يكون تداول الرأي والرأي الآخر، بلا صخب تكون نتيجته مرة، وأية مرارة يمكن تخيلها، وإذ وبدل أن تكون المخرجات نافعة للأمة، واذ بها تكون مثال الصخب والرعونة، وحين هدمت ولم تبن، وحين فرقت ولم تجمع، وحين أغضبت ولم تؤلف.

وأنت من خلال عرض آية أصحاب الشجرة، وكما وقفت رأيت كيف وأنهم قد رضي الله تعالى عنهم، وهم الذين جادلوا نبيهم صلى الله عليه وسلم، وإذ علم الله جدالهم بالحسنى، يوم كتابة وتوقيع عقد صلح الحديبية، دلالة على أن السجال الإيجابي حسن تناوله، وكيما تتنشأ على مخرجاته أمة صلبة، يحسب لها حسابها.

حل أكل الحمار الوحشي للمحرم

وقع يوم الحديبية أن أبا قتادة قال: كنت يوما جالسا مع رجال من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في منزل في طريق مكة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم نازل أمامنا، والقوم محرمون وأنا غير محرم، فأبصروا حمارا وحشيا وأنا مشغول أخصف نعلي، فلم يؤذنوني له، وأحبوا لو أني أبصرته، فالتفت فأبصرته، فقمت إلى الفرس فأسرجته، ثم ركبت ونسيت السوط والرمح، فقلت لهم: ناولوني السوط والرمح، فقالوا: لا والله لا نعينك عليه بشيء، فغضبت فنزلت فأخذتهما ثم ركبت، فشددت على الحمار فعقرته، ثم جئت به وقد مات، فوقعوا فيه يأكلونه، ثم إنهم شكوا في أكلهم إياه وهم حرم، فرحنا، وخبأت

العضد معي، فأدركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عن ذلك، فقال: معكم منه شيء؟ فناولته العضد فأكلها حتى تعرقها وهو محرم [١].

وقال أبو قتادة الحارث بن ربعي أيضا: انطلقنا مع النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية، فأحرم أصحابه ولم أحرم، فأنبئنا بعدو بغيقة، فتوجهنا نحوهم، فبصر أصحابي بحمار وحشي، فجعل بعضهم يضحك إلى بعض، فنظرت فرأيته، فحملت عليه الفرس فطعنته فأثبته، فاستعنتهم فأبوا أن يعينوني، فأكلنا منه، ثم لحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم، وخشينا أن نقتطع، أرفع فرسي شأوا وأسير عليه شأوا، فلقيت رجلا من بني غفار في جوف الليل، فقلت: أين تركت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: تركته بتعهن، وهو قائل السقيا، فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتيته، فقلت: يا رسول الله، إن أصحابك أرسلوا يقرؤون عليك السلام ورحمة الله وبركاته، وإنهم قد خشوا أن يقتطعهم العدو دونك فانظرهم، ففعل، فقلت: يا رسول الله، إنا اصدنا حمار وحش، وإن عندنا فاضلة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: كلوا. وهم محرمون[٢].

وهذا من فقه صحابة تربوا على مائدة الحق، مائدة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وحين علموا جواز أكل لحم الحمار الوحشي لا الأهلي، ولأنه صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل لحوم الحمير الأهلية، فخرج به لحوم الحمير الوحشية، وهذا

---

(١) صحيح البخاري: ٥٤٠٧

(٢) المرجع السابق: ١٨٢٢

فقه استدلالي عال، وحين تعلموا الفقه المقارن على يدي نبيهم صلى الله عليه وسلم، وحين: نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر[١].

وعن جابر بن عبدالله: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل[٢].

وهذا فقه الواقع، بمعنى أن يحظى المسلم بتعليم نفسه ما يحتاجه، وحسب مجريات بيئته، وعلى أساس مخرجات مجتمعه الذي يعيش فيه، فهؤلاء كانت بيئتهم فيها الحمار الوحشي فعلموا فقهه! وبالتالي يكون الفقه وليد البيئة، وليس منعزلا عنها، وكيما يكون الناس على بينة من أمور دينهم، اتباعا للهدى، وكيما لا يقولوا من عند أنفسهم هذا حلال وهذا حرام!

وعلى انه يلاحظ ان أبا قتادة لم يكن محرما ولهذا حل له صيد البر.

وإنما كان الصحب الطريم وقائهم نلبينا نحند صلى الله عليه وسلم محرمين .

وبه دل على أنه وجمعا بين الحديث وآية المائدة السادسة والتسعين، هو ذلكم بيان وأنهم لم يكونوا قد وقع منهم هم فعل الصيد ومن كونهم محرمين وإنما وقع من خارج وهو من فعل أبي قتادة ولما لم يكن محرما.

وقال الله تعالى ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[المائدة: ٩٦].

---

(١) المرجع السابق: ٥٥٢١

(٢) صحيح مسلم:١٩٤١

هذا، وإن مناسبات تقع ويجد الناس لها حلولا فقهية، وحين كانت بغيتهم وجه ربهم الحق، فلا يعملون من عمل أو يتركونه إلا ولهم فيه سند، وفقه ودليل، وهذا هو منهج الحق، والذي تسمو فيه الأمة وتعلو، وحين تستصحب معها دين ربها، حلاله فتعمل به، وحرامه فتنأى عنه، لا من عند أنفسهم، بل من عند ربهم، ولهم فيه من الله تعالى دليل وبرهان، وهذا هو مطلق العبودية لله تعالى الحق المبين سبحانه، وحين لا يرفع أحدنا قدما أو يضعها إلا بعلم ونية معا!

كان الصحابة الكرام لا يلقون بالا كثيرا للذكريات! فعن طارق بن عبد الله قال: **انطلقت حاجا، فمررت بقوم يصلون، قلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي: أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل أنسيناها، فلم نقدر عليها. فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها، وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم؟**[١].

فليس القصد أنهم لم يعلموها، وإنما القصد أنهم لم يكن اهتمامهم بالشجرة! قدر اهتمامهم لما تم تحت الشجرة! وحين بايعوا نبيهم صلى الله عليه وسلم على الموت من تحتها! وهذه هي اهتماماتهم، لا على ما قال سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى. ومنه: ولولا موضع هذه اللبنة!

وهكذا يكون من هم ديننا تخريج بادرات الهدى، يبينونه للناس ولا يكتمونه، ويستوي في ذلك أن قالوه أو بينوه من تحت شجرة! أو من تحت قبة

---

(١) صحيح البخاري: ٣٩٣٠

البرلمان! فكل هذا لا يهم، ولأنه يخص جانب الشكل، وإنما المهم مخرجات خرجوا بها، تنفع الأمة وترفع من شأنها!

وهذا علاوة على أن الصحب الكرام رضي الله تعالى عنهم وعلاوة على علو اهتماماتهم، وعمل هو عليه غيرهم قطعا، إلا أنهم أيضا أرادوا بذلك حماية جناب التوحيد، والذي ما فتئ فريق منهم حديث عهد بالإسلام، وإذ يخشى عليه فتنة، كما في حديث ذات الأنواط: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم. فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: **{اجعل لنا إلها كما لهم آلهة}** [الأعراف: ١٣٨]، والذي نفسي بيده، لتركبن سنة من كان قبلكم[١].

أفاد الإمام البخاري رحمه الله تعالى وأجاد في بيان بيعة الرضوان تحت الشجرة يوم الحديبية، وأنها كانت على الموت، كما أخرج عن عباد بن تميم قال: **لما كان يوم الحرة، والناس يبايعون لعبد الله بن حنظلة، فقال ابن زيد: على ما يبايع ابن حنظلة الناس؟ قيل له: على الموت، قال: لا أبايع على ذلك أحدا بعد رسول الله ﷺ، وكان شهد معه الحديبية**[٢].

وهذا أيضا عمل الصحابي، وهو ليس حجة فيما جاء النص بخلافه، وأن البيعة على الموت في سبيل الله تعالى كانت عمل الأولين من السابقين لهم بإحسان، وإذ كيف تقوم للدين قائمته وإلا بمثل هذه البيعة؟! وأمامنا يوم

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٢١٨٠

(٢) صحيح البخاري: ٣٩٣٤

الشجرة، شجرة الرضوان حجة ودليلا وبرهانا ، وأن منها أنه يبايع الإمام الأعظم على الموت في سبيل الله تعالى، وحين توافر سببه، وبعد جلسات استماع وأخذ ورد، ثم صدور قرار بذلك، يكون ممهورا بتوقيع القائد الأعلى للقوات المسلحة!

ولعظم شأن البيعة في سبيل الله تعالى على الموت في سبيله تعالى أيضا: أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن نافع قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار، يأتي به ليقاتل عليه، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدري بذلك، فبايعه عبد الله ثم ذهب إلى الفرس، فجاء به إلى عمر، وعمر يستلئم للقتال، فأخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع تحت الشجرة، قال: فانطلق، فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، فهي التي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر. وفيه أن البيعة كانت كإعلان الإسلام وبيعة عليه[١] وهذا بيان لعظيم شأنها وعلو شأوها!

الإسلام دين عبادة ونظام واستطلاع: وهذا هو الذي فعله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، فقد خرج في بضع عشرة مائة ليوم الحديبية؛ يريد العمرة لله تعالى، وبعد أن ساق هديه، وأحرم من ذي الحليفة، وهكذا يكون للبيت العتيق هذه المهابة، وحين يقف منه على بعد أميال؛ للتجهز لزيارته، ولكل شيء في الدين ميقات زماني وآخر مكاني، وكانت المواقيت بمثابة أهلة ومواقيت للناس والعمرة والحج؛ لتمنح العبيد طاقة إيمانية إيجابية، والحال أنهم زائرو بيت الله تعالى المحرم، وكان لابد من التجهز لهذا البيت- كما

(١) صحيح البخاري: ٣٩٥٠

أسلفنا- وفي مشهد يشعر كل حي أن هذه الحياة الدنيا هكذا، يوم يكون فراقها ووداعها ومباينتها، وإنما مثلما يكون يوم الإحرام تماما، فليس يحمل معه من شيء، إلا كما يحمل إحراما؛ وليستر عورته لا أكثر، وما خلا ذلك يتركه ما خوله مولاه وراء ظهره لورثته، وهذا المشهد عند استحضاره كما هو في اللاشعور يفعل بنا الأفاعيل، لو أقدرناه حق قدره! وهذا هو المقصود الاول من مقاصد الإحرام التجرد، وكأنما تحكي يوم لقائنا بالله تعالى العلي الأعلى، تاركين كل شيء!

وإن قدومه صلى الله عليه وسلم ومعه بضع عشرة مائة برهان إظهار القوة والمنعة، كأسباب مانعة لطمع طامع أو تجهم جهيم، وهذه أسباب مادية، أمرنا بها ديننا، وفي نفس الوقت نستلهم رشدنا من منحه وأفضاله ومنته ونعمته التي لا تحصى، ولكن عقيدة الأخذ بالسبب هي الفارق بين الانضباط والعشوائية تماما، كما لو قلنا بإحالة الولد دون نكاح، وكما لو قلنا بإحالة غرس دون غارس أو زرع دون زارع، في تقريبات تلقائية لا تقبل ريبا.

وكما أن في إرساله صلى الله عليه وسلم عينا على قريش برهان أخذ بالسبب، منضافا إلى ما سبق، وبرهان إعمال شرعي لعقيدة التوكل على الله تعالى، ممهورة بهذا السبب، وكان هذا من فعله صلى الله عليه وسلم، وأمام العباد الحاضر منهم والباد، كيما ينغرس في قلوب الناس مدي ما لعقيدة التوكل من شرط السبب، مع تفويض كامل لله تعالى الحق المبين.

وهذا خيط رفيع بينهما، والموفق لذلك من وفقه مولاه لفقه ذلك.

وكان ذا أهمية لا تقل شأنا عما سواها يوم الحديبية وغيره من أيام الله تعالى اتخاذه صلى الله عليه وسلم عينا، ولترقب مسيرة الخصم ونواياه تجاه هذه

العصبة المؤمنة، التي ما فتئ أعداؤها يتربصون بها الدوائر، وهذا أيضا ما يمثله جهاز الاستخبارات في يوم الناس هذا، وبحيث يكون قوله هو القول الفصل، وبحيث يكون قراره هو القرار المضاء، وحيث كان مبتنيا على أسس واضحة، وكما نهار يوم الناس في ضحاه.

وهذا حديث الإمام البخاري رحمه الله تعالى يقف بنا على شرح ما أسلفنا:

عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم: يزيد أحدهما على صاحبه قالا: **خرج النبي ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة، قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة، وبعث عينا له من خزاعة، وسار النبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، قال: إن قريشا جمعوا لك جموعا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت، ومانعوك. قال: (أشيروا أيها الناس علي، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع عينا من المشركين وإلا تركناهم محروبين). قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامدا لهذا البيت، لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. قال: (امضوا على اسم الله)**[١].

وهذا هو خالد بن الوليد، وحين كان كافرا يوم الحديبية، وليرى بعيني رأسه ما يوجب إسلامه، في ترتيبات ربانية، تخشع لها الأبدان، ومن بعد

---

(١) صحيح البخاري: ٣٩٤٤

خشـوع قلوبها في إعجـاز السـماء يـوم الحديبيـة، وليعمـل فيـه عملـه، ويـؤزز فيـه مراجل التفكير ومراجعة النفس، حتي حيل بينها وبين كفره يوما، كما قد حيل بينها وبين إسلامه يوما آخر، وحين كان من خطته صلى الله عليه وسلم عدم المواجهة معه، وحين جاء من طريق ليسلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم طريقا آخر، ولإثبات أنه إنما جاء لزيارة البيت العتيق، وها هو محرم في إشارة لا تقبل ريبا.

ولكن قريشا هكذا في وحل الجاهلية وحين لم تفد الدرس من مواجهات أقضت مضاجعها مع هذا الدين الجديد، ولا تفتأ ترعوي إلا بكفوف الإهانة على وجوهها، وحينا من بعد حين آخر، وحين كان من إصراره صلى الله عليه وسلم إنفاذ ما خرج له، ولو كان ثمن ذلك المواجهة التي يحاول ألا تكون، وعلى مشهد سجله له التاريخ أننا أمة مسالمة، ما لم يفرض علينا القتال فرضا، وحينها قد حمي الوطيس!!!

وانظر حديث الباب- حديث الإمام البخاري رحمه الله تعالى- في ذلك: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيرا لقريش... "

أم سلمة: قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا

نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك؛ نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا، فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما.

قوموا فانحروا ثم احلقوا:وهذا برهان الترتيب في أعمال العبادة؛ ولأنها توقيفية من جانب، ولأنها معقولة ههنا من جانب آخر.

وهذا برهان حكمة أم سلمة رضي الله تعالى عنها، وكما أنه برهان حكمة النبي صلى الله عليه وسلم، وحين اصطبر على فعل الناس يومهم هذاأ ولم يعنف، ولم يؤسف، ولم يؤفف، وكما أنه فيه حكمته؛ ولشكواه لأم سلمة؛ ولعل الله تعالى أن يفتح على قلبها، وبما قد فتح عليها، ومن مشورتها هذه، التي كان منها الرأي والمشورة الصائبتين، صوابا أخرج النبي صلى الله عليه وسلم منتصرا بقومه!

وهذه مائدة تربية الإسلام الحسنة، لهكذا جيل كان من مخرجاته هكذا امرأة كمثل أم سلمة أيضا!

خاتمة القول في صلح الحديبية

كان يوم الحديبية يوما مجيدا في الإسلام، وذلك أنه كشف لنا عن معادن قوم بايعوا نبيهم على السمع والطاعة منشطهم ومكرههم، وكما أنه يبين عن مدى قيمة فرد واحد في الإسلام، وحين بلغ المسلمين إشاعة مقتل عثمان فقال لهم النبي: لا نبرح حتى نناجز القوم. ودعا المسلمين للبيعة فبايعوا.

وقد أثمر يوم الحديبية بيعة الرضوان، وكتجديد للبيعة لإزكاء التعاون والتلاحم واطمئنان القائد، ومنه فإن تجديد بيعة الجند فيه تجديد ولائهم لقائدهم!

وكان من نتائج صلح الحديبية إيفاء الصحابة لعهد البيعة في المنشط والمكره؛ لاطمئنان القائد لولاء وصدق الرعية!

وإذ لم يسمع الصديق قول الفاروق لرسول الله: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ ورغم ذلك قال نفس الكلام!، ومنه فإن ذلك برهان أن هذه أمة على قلب رجل واحد!

حين طلب رستم من القعقاع رجلا آخر يكلمه! فأخبره أن ما سيسمعه من غيره هو ما سمعه منه! نفس قول الفاروق والصديق يوم الحديبية. فدل على أنها أمة قلبها قلب رجل واحد وفي جميع أحوالها خلف عن سلف.

ونفس عبارة: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ وكتأكيد على أن هذه العبارات هي نفس عبارات عمر والصديق.

فعن سهل بن حنيف: **كنا بصفين، فقام سهل بن حنيف، فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم، فإنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: بلى. فقال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا، أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدا، فانطلق عمر إلى أبي بكر فقال له مثل ما قال للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدا، فنزلت سورة الفتح فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمر إلى آخرها، فقال عمر: يا رسول الله، أوفتح هو؟ قال: نعم**[١].

وإذ قال الفاروق: ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت. ومنه فرب ذنب أورث خشية!

وإذ قال الفاروق عمر: اتهموا الرأي على الدين، فقد رأيتني أرد أمر رسول الله برأيي. ومنه فلا تقدم عقلك على النص، فالذي أنزله يعرف أين مصلحتك فيه! فتكون قد نلت شرف العبودية ومصلحة الطاعة للنص.

وإذ كان من نتائج صلح الحديبية إرسال قريش ثلاثة من زعمائها لمفاوضة الرسول صلى الله عليه وسلم. ومنه فتعلم الصبر، وطول النفس في المفاوضات مؤذن بظفرها مع الخصم، فيزداد رصيد المفاوض الحذق الماهر الصابر!

---

(١) صحيح البخاري: ٣١٨٢

وكان من نتائج صلح الحديبية تفرغ الرسول لدعوة غير قريش؛ لإعداد أمة صالحة تجابه الشرك في عقر داره!

ساق الرسول هديا في عمرة الحديبية، وذلك تحسبا للإحصار، فتكتب لهم عمرتهم، وهذا من فقه نبينا صلى الله عليه وسلم، وقد كان ما توقعه، وحين رجعوا إلى قابل.

وإذ ساق الرسول صلى الله عليه وسلم في هديه جملا كان لأبي جهل! إغاظة للمشركين، وفيه مشروعية إغاظة العدو. وكما قال تعالى ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾[الفتح:٢٩]!

وإذ دعا الرسول صلى الله عليه وسلم للمحلقين ثلاثا، وللمقصرين مرة واحدة! وفيه أفضلية الحلق على التقصير. ومنه الترغيب بالمفاضلة.

وإذ أمر الرسول أصحابه بالحلق والنحر يوم الحديبية فلم يأتمروا، فاهتم لذلك! ومنه فلا توغر صدر أخ لك!

وإذ أشارت أم سلمة أن يبدأ هو صلى الله عليه وسلم بالحلق والنحر، ولا يكلم أحدا بشأنهما ولأنهم إذا رأوه فعلوا، ففعل فأطاعوا! ومنه فإن النساء شقائق الرجال!

وحين أشارت أم سلمة أن يبدأ صلى الله عليه وسلم بنفسه أولا! ومنه فإن استشارة الزوجة، ترفع من شأنها، وتنال ودها!

وحين أقبل سهيل بن عمرو يوم الحديبية فقال الرسول: قد سهل الله أمركم، وفعلا تم الصلح بسببه! وهذا معلم نبوي، وفيه الفأل الحسن!

وإذ قال الرسول حين بلغه أن عثمان رضي الله عنه قد قتل يوم الحديبية: لا نبرح حتى نناجز القوم. ومنه فإن الاهتمام بالجند موجب نيل ولائهم!

وهذه هبَّة القائد، ولو لأجل فرد واحد من رعيته!

وإذ: خلص عثمان من بيننا إلى البيت فطاف به، فقال الرسول: ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون! وهذه تربية إيمانية أثمرت ثقة القائد برعيته!

وإذ قال عروة بن مسعود الثقفي: يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه . وقيصر في ملكه . والنجاشي في ملكه . وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا، فروا رأيكم .ومنه كان توقير القائد، وأمام خصمه أدعى.

وإذ بعثت قريش عروة بن مسعود الثقفي، وأخذ يتناول لحية الرسول! فيدفعه المغيرة بن شعبة: ومنه فهذه هي الاستماتة في الدفاع عن القائد، ولأنه رمز الإسلام!

ورؤيا الأنبياء حق، فقد رأي الرسول أنه دخل البيت هو وأصحابه، وطافوا، وحلق بعضهم وقصر آخرون،: وكما قال تعالى ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقۖلتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافونۖفعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذٰلك فتحا قريبا** ﴾ [الفتح:٢٧]. ومنه فإن الصدق مع الله تعالى موجب لهدايته عبده.

وثمة ما يتعلق بمسائل عملية واجهوها، وليجدوا عند نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم لها حلا شافيا، وعلاجا وافيا.

فعن كعب بن عجرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به زمن الحديبية فقال قد آذاك هوام رأسك قال نعم فقال النبي صلى الله عليه وسلم احلق ثم اذبح شاة نسكا أو صم ثلاثة أيام أو أطعم ثلاثة آصع من تمر على ستة مساكين[1].

(١) سنن أبي داود، تحقيق الألباني، صحيح: ١٨٥٦

الفصل الخامس

سرايا زيد بن حارثة في العام السادس للهجرة

هذا الدين- الذي هو الإسلام- يترك في النفوس أثرا حانيا لطيفا، وبرا وافيا لفيفا، وطيفا من الإحسان البالغ، وبحيث يكون فاعلا في صاحب كل ذلك فعلا، وكأنما نور يمشي به في الناس، هاديا وداعيا إلى الله تعالى، وبأثر فعل له، قد سابق قولا.

وحين كان ذلك كذلك؛ فدلك عليه فعل هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ومع صحابته الكرام رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وحين تركوا لنا ميراثا خالدا من البر، يكاد يكون هاديا لنا إلى سواء السبيل أيضا، ولأنهم أولاء هم القدوة الحسنة، ولأنهم أولاء هم الأسوة الفذة، التي عز على دين غير الإسلام أن يخرج أجيالا على هذا الطراز النبيل، الغاية في نبله، الفريد الغاية في تفرده.

أولا: سرية زيد بن حارثة إلى الحموم

وانظر فعل رسول الله ﷺ، وحين بعث زيد بن حارثة بالحموم، فأصاب امرأة من مزينة يقال لها حليمة، فدلتهم على محلة من محال بني سليم، فأصابوا منها نعما وشاء وأسروا من المشركين، وكان فيهم زوج حليمة هذه، فوهبه رسول الله ﷺ لزوجها وأطلقهما[١].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ٢٠٣

١- حين أسروا امرأة، ولم يمسوها بسوء، لا كما يفعل مفترسون، إذا خلوا بامرأة!

٢-حين راحوا بكل أسراهم الى نبيهم صلى الله عليه وسلم، وهذه أمانة الموظف، وحين يستشعر أنه موظف، وأن هذا هو سلوكه الوظيفي الواجب تجاه المال العام للأمة، وإن هو إلا مؤتمن عليه، لاينقص منه شيئا، بل يؤديه وكما أخذه، ولأن له قيمة فيه ونصيبا حلالا، يكتفي به، وفيه البركة، ولا يتعداه، ولأنه يحمل بين جنباته فؤادا يسوقه إلى الحلال الطيب المبارك فيه، ولا شأن له بكثرة الهالكين في هذا المجال، وفي غيره من مجالات العمل العام.

إن الموظف العام وحين يستشعر أن له نصيبا موفورا مما يكتسب ولصالح خزانة الأمة العام، فإنما نحن بهذا نكون قد كفيناه وشجعناه، وأملنا منه عطاء أوفر، وانظر كيف جعل الله تعالى للمجاهدين أربعة أخماس الغنائم، ولله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل! وجعل هذا شرطا من شروط الإيمان الذي يدعونه، وهم بلا شك في قلوبهم يحملونه، ولكنه ولما كان هذا فعلهم وحين تلقوا أمر ربهم فإنما كان هذا تصديقا لصحيح إيمانهم! وحين قال الله تعالى ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا علىٰ عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ۗ والله علىٰ كل شيء قدير** ﴾[الأنفال:٤١]! وفي بادرة إدارية تراعي حظ النفوس، وتملأ العيون، لا تتبقى لها بقية من ثقب تنفذ خلاله إلى ما حرم ربها عليها! وهذا عمل يثمن لجهة الإدارة، وتؤجر عليه المنشأة، وحين أعطت بسخاء، لموظف كان سبب هذا الكسب الجميل، فكفت

ووفت، فنالت الولاء، وحصنت الجهاز من التعديات، وأنشأت جيلا وفيا مخلصا، يراعي حقوق العباد ورب العباد.

٣- أكاد أستشعر هذا الوفاء لاسم حليمة مرضعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أطلق سراح امرأة كان اسمها على اسم مرضعته حليمة، ومعها زوجها أيضا!!!

وهذا من عجائب صنيعه صلى الله عليه وسلم!

وينضاف إلى ذلك بر بها، وحين أسلمت مشركي قومها إليهم.

وهذا هو الدين الذي يترك خلالا حسنة في الناس، مشركهم ومسلمهم سواء بسواء، ولينشر رشات عذب مائه الزلال على العالمين، فيقيهم حر كفرهم، ويريهم برد إيمان المؤمنين وإسلامهم، ولينهضوا من كبوة، وليفيقوا من غفلة، وليؤوبوا من توبة، ليظلهم سلام هذا الدين القيم، ملة إبراهيم، وما كان من المشركين.

٤- إن التفاؤل بالأسماء كان هديا له صلى الله عليه وسلم. ومنه ههنا موافقة اسم حليمة هذه الأسيرة لاسم حليمة المرضعة! وفي استصحاب مؤثر بتاريخ مجيد، لم ينسه صلى الله عليه وسلم، علامة فارقة على البر، ودلالة فريدة على الوفاء.

٥- وكم ينضاف إلى ذكم الفأل الحسن ومن حلم ينشر عبقه، ومن الاسم أيضا!

وكم رأينا من ذلكم فألا كثيرا، وها نحن نكاد نكون حديثي عهد بمجيء سهيل بن عمرو يوم الحديبية، وحين قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولما رآه: سهل الله لكم!

وحقا تم على يديه الصلح التاريخي المجيد صلح الحديبية الوليد!

وهذا زيد بن حارثة، وقد بعثه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على رأس أربع سرايا في عام واحد، هو العام السادس عام الحديبية:

١- مرة يوم الحموم، يوم إطلاق حليمة وزوجها؛ برا من هذا الرسول بها، وحين أبلغتهم بمواقع قومها، وبرا لمرضعته حليمة السعدية؛ ولموافقة في الاسم، برهان فأل حسن بالأسماء الحسنة، وكما كان منه صلى الله عليه وسلم حين رأى سهيل بن عمرو وكما أنف، إلا أن الإعراض- ولا نقول التشاؤم- عن الأسماء السلبية كان هديا له صلى الله عليه وسلم أيضا، ومنها حين رأى مكرزا بن الأخيف، يوم الحديبية، فقال: هذا رجل غادر! وهذه كلها وأمثالها على كل حال من أعلام نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

٢- وكما أرسل زيد بن حارثة أيضا إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلا، فهربت منه الأعراب، فأصاب من نعمهم عشرين بعيرا، ثم رجع بعد أربع ليال[١].

وهذا برهان شجاعة منقطعة نظيرها، لهذا الجيل الفريد التليد، وحين يهرب قوم بأكملهم أمام خمسة عشر رجلا منهم!!!

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣ / ٣٣٨

وهذا دلالة على أن العدد لم تكن له حساباته الكثيرة في جيوش الفتح العظيم، بقدر ما كان إعدادا فريدا مميزا لطبيعة الجندي في هذا الدين، وبحيث يخرج الى ميدانه متسلحا بسلاح التقوى ذلك خير، وحين اعتنت به إدارته العسكرية، فأجادت به العناية، حتى أخرجت خمسة عشر رجلا؛ ليعدل كل واحد منهم أمة وحده!!!

وهذه إشارة مرة أخرى إلى الاعتناء لتنشئة الجندي المسلم، ولو على قلة من أعدادهم، وبحيث يكون في عقد إدارته العسكرية أنها تعد ليوثا، تملك غابات، وتسيطر على أرض الميدان!!!

إن تنشئة الجندي المسلم وبعناية فائقة، وحين تتربى فيه عقيدة الدين، ومن قبل أي عقد آخر، فهذا النوع هو الذي يبذل، وهذا الطراز هو الذي يتفانى في تحقيق أدبيات أمته، ولو كانوا قلة في أعدادهم، وكمثل خمسة عشر رجلا يوم بني ثعلبة؛ لتهرب الأعراب، وعن آخرها، وأمام زحف هذه الثلة المؤمنة القليلة عددا، الكثيرة جدا بما تحمل من دين ساقها إلى منازل الفردوس نزلا!!!

٣- وهذا يوم العيص، وحين خرج زيد بن حارثة أيضا؛ ليقتلوا المشركين كافة، وإذ يهرب العاص بن الربيع، الذي كان زوجا لزينب بنت نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين هرب إلى المدينة، واستجار بها، فأجارته، خلقا نبيلا، عن أبيها، ووفاء جميلا، كانت قد تسربلت به، وحين كان بينهما ذلكم الميثاق الذي أسماه ربنا﴿ **وأخذن منكم ميثاقا غليظا** ﴾ [النساء:٢١]. وكان من نبل هذا الميثاق أن يترك أثره عاملا في الأمة عمله، وحين أمرها ربها بقوله تعالى ﴿ **ولا تنسوا الفضل بينكم** ﴾ [البقرة٢٣٧].

والجميل أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قد أقر ابنته زينب على وفائها وإجارتها للذي كان زوجها العاص بن الربيع، ليس هذا فحسب، بل وأعاد له الأموال التي كان قد غنمها منه زيد بن حارثة! برهان أن هذا الدين غايته غرس قيم الوفاء النبيلة في الناس، وبحيث تعلو فوق متاع الدنيا، ولأن المتاع الحقيقي هو العيش على هذا الدين، مكتسيا العباد بكساء التقوى ذلك خير!

وليعود العاص بن الربيع إلى مكة بأموال قومه التي ردها إليه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وليوزعها عليهم واحدا واحدا، وكل بما خصه من ماله الذي فقده يوما!

وليعمل هذا الوفاء أثره في العاص بن الربيع؛ ليرجع بعد سنتين مسلما، وليرجع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إليه زوجته زينب، وعلى النكاح الأول، الذي كان بينهما، ودون حاجة لعقد نكاح جديد!!!

وعود مرة أخرى إلى زيد بن حارثة وقيامه بأربع سرايا في عام واحد! رسالة إلى الناس، أن هكذا هي الهمم التي تتبع، وأن هكذا هي القمم التي تقتدى!!!

* * *

وهكذا رأينا زيد بن حارثة متربعا على كرسي جهاده عامه السادس، ويتصور أن فردا كلف بهذه المهام العظام، وللمرة الرابعة خلال عام واحد، وكيف له أن يستطيع ترتيب أوراقه، ولكنها يسيرة بتيسير مولاه تعالى الحق المبين، وهذا أيضا كاشف ومرة أخرى ومرات عن كم كانت هي اهتمامات هذا الجيل، إثخانا في عدو، وإنهاكا لخصم؛ حتى سلموا لنا ذخرا مفعما بالبطولات

والتضحيات، ولنكون على قدر مسؤولية، هي أقل القليل وجوبا، نحو إقامة هذا الدين، في الواقع عملا صالحا، يرى الناس منه نور الهدى ودين الحق، مآذن خير، وقناديل هدى، تضيء للناس دروبهم، وبكل جادة، وأن هذا الدين إنما جاء ليخرج الناس- كل الناس- من ظلمات الهوى والغوى، إلى نور التوحيد الخالص، والعقيدة الصافية، في الله تعالى الحق المبين، وأنه وحده هو الآمر الناهي في منظومات الناس المختلفة والمتباينة، والتي تخرج عن نطاق قدراتهم المحدودة، والتي بالكاد تكون وظيفتهم هي كيف يمكنهم التلقي عن ربهم الحق، وحين ذلك يكونون قد قاموا بواجب العبودية لله تعالى الحق المبين.

وأدرك زيد بن حارثة أن مثل هذا العمل هو الذي قاده طائعا مختارا أن يخرج أربع مرات وفي عام واحد، ومتقلدا سيف جهاده: أن نعم، ولكنه كان في خلده أنه يمكن ألا يعود أدراجه مرة أخرى، بل كانت هذه بغيتهم، وحالهم﴿ **إن الله اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ۚ يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ۖ وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ۚ ومن أوفىٰ بعهده من الله ۚ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ۚ وذٰلك هو الفوز العظيم**﴾ [التوبة:١١١]. وهم يقومون بمثل عملهم هذا، ولربما عاد أحدهم وتعلوه خيبة! إلا إذا عاد بإحدى الحسنيين!

٤- وهذا زيد بن حارثة كان المثال الأعلى، وهذا زيد بن حارثة كان المثل الأسنى، وحين أخبرته عيون نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الساهرة على قضايا أمتها: أن دحية بن خليفة الكلبي أقبل من عند قيصر قد أجازه بأموال وخلع،

فلما كان بحسمى لقيه ناس من جذام فقطعوا عليه الطريق فلم يتركوا معه شيئا، فبعث إليهم رسول الله ﷺ زيد بن حارثة أيضا رضي الله عنه[1].

وهذه رواية الموسوعة التاريخية من موقع الدرر السنية: أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم بكتاب إلى قيصر الروم وكان حامل الكتاب هو دحية بن خليفة الكلبي، فلما كان من قيصر ما كان أجاز دحية بن خليفة الكلبي بمال وكسوة، ولما كان دحية بحسمى في الطريق لقيه ناس من جذام، فقطعوها عليه، فلم يتركوا معه شيئا، فجاء دحية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يدخل بيته فأخبره، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة إلى حسمى، وهي وراء وادي القرى، في خمسمائة رجل، فشن زيد الغارة على جذام، فقتل فيهم قتلا ذريعا، واستاق نعمهم ونساءهم، فأخذ من النعم ألف بعير، ومن الشاة خمسة آلاف، والسبي مائة من النساء والصبيان. وكان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قبيلة جذام موادعة، فأسرع زيد بن رفاعة الجذامي أحد زعماء هذه القبيلة بتقديم الاحتجاج إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه، ونصروا دحية حين قطع عليه الطريق، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم احتجاجه، وأمر برد الغنائم والسبي.

وأنت ناظر دائما كيف كان من هديه صلى الله عليه وسلم تجييش الجيوش- وعلى قدرها- أجل واحد من رعيته!!! ولأنك رأيت الآن كيف خرج زيد بن حارثة أجل دحية بن خليفة الكلبي! وأن هكذا يكون هذا الدين في قلوب الناس وعقولهم، وحين يملك عليهم أمرهم كله، وحين علموا أنه لا يتركهم أحدهم

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/ ٢٠٣

وحده، وإنما يمكن أن يكون كما يوم وامعتصماه! وحين رد المعتصم أن: لبيك يا أختاه!!!

وهذه أجيال ممتدة عريقة في التاريخ كله، تنهض قومة رجل واحد، وحين ابتلي أحد أفرادها، رجلا كدحية، أو امرأة كصاحبة النداء الأعظم: وما معتصماه!!! وحين كانت سببا عظيما لفتح عمورية، وطرد الروم، ودك حصونهم، في إشارة أن ملوك الغابة ساهرون ويقظون!!!

ودحية الكلبي هذا هو الذي كان يتمثل به ملك الوحي جبريل عليه السلام، وإذ كان ينزل على صورته، يوم وحيه تعالى إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وأنت ناظر أيضا كيف كان احتجاج قبيلة جذام، وكيف كان قبوله صلى الله عليه وسلم لهذا الاحتجاج، في رسالة إيجابية أنه يمكن التذكير للسلطان إذا نسى، أو تنبيهه إذا غفل، ولأن المسلمين أمة واحدة.

* * *

وهكذا كانت هيئة الإمداد والتموين للقوات المسلحة الإسلامية ساهرة يقظة، مثلها تماما بتمام وكجهاز الاستطلاع للقوات المسلحة، وليقوموا بأعمالهم، نشطاء ليل نهار، يقظة ودأبا؛ ليرقبوا عدو الله وعدوهم من قريب، وكيما لا يؤخذوا على حين غرة من أمرهم، ولأنهم يحتسبون كل عملهم لله تعالى، ولأنه تعالى لا يضيع أجر المحسنين، ولأنهم لا يعملون من عمل إلا كتب لهم، ليجزيهم الله أجر العاملين، تاما غير منقوص، ولأنهم يجدون سلواهم في إثخانهم في عدوهم، وإذ يدكونه دكا، كلما علت أصواتهم، عودا إلى الضلال، وروما إلى

الانحلال، فيقومون عليه مرة واحدة، وليقطعوا عنه خطوط إمداده، في أعمال يحيطها السر لا العلانية، وكيف يحيطون به، ومن كل جانب، وإذ يرونه يخلط عشواء في عشواء؛ من أثر شباكهم المشرعة، وحبالهم التي لفوها حول عنقه؛ كيما يختنق، وإذ قطعوا به السبل، وهذا عمل صالح، وبكل المقاييس، وحين كان ولا يكون إلا لله تعالى.

وهذا الذي حدث، يوم خرج علي بن أبي طالب إثر بلاغ وصل إلى القوات المسلحة، أن عيونا ترمش كيدا بالمؤمنين، وليروح إليهم وإلى عندهم، فيبترهم بترا، ويقطعهم إربا؛ جزاء فعلهم هذا، وعبرة لهم ولغيرهم ممن يرقبون المشهد من بعيد أيضا.

وليس يحسب أن هذه مهام سهلة!!! وإذ كانت يسيرة!!! لكن ذلك ولما علموا حين خرجوا قول ربهم الحق ﴿ **إن الله اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ۚ يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ۖ وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ۚ ومن أوفىٰ بعهده من الله ۚ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ۚ وذٰلك هو الفوز العظيم** ﴾ [التوبة: (١١١)].

وإذ قد كان يمكن تلافي ذلك كله، وبجرة قلم واحدة، كان منها قول الله تعالى ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلىٰ كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ۚ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ [آل عمران: (٦٤)].

لكنك وماذا أنت قائل، وحين تنكفئ القيم، وحين تنقلب موازينها، وفي مشهد يند وصفا، حكاه قرآننا عن نبي الله نوح عليه السلام، يوم قال تعالى ﴿

وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾ [نوح: (٧)].

وفي إشارة إلى اتباع الشهوات والأهواء، التي تظل بصاحبها، حتى يري المعروف منكرا والمنكر معروفا!

وما سبق كان برهانه ما حكاه الواقدي رحمه الله تعالى، وحين قال: خرج علي رضي الله عنه في مائة رجل إلى أن نزل إلى حي من بني أسد بن بكر، وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن لهم جمعا يريدون أن يمدوا يهود خيبر، فسار إليهم بالليل وكمن بالنهار، وأصاب عينا لهم فأقر له أنه بعث إلى خيبر يعرض عليهم على أن يجعلوا لهم تمر خيبر[١].

* * *

بعض الناس لديهم هوس في محبة الإثخان فيهم!!! وتراهم يستحثون المؤمنين حثا كيما ينكأوا فيهم!!! ويشعرون أن لذتهم في انهزامهم أمام جند الله المسلمين!!! ويرون في ذلك متاعهم وغذاءهم المعنوي، والمادي صباحا وعليه يفطرون، وظهيرة وعليه يتغدون، وعشاء عليه يبكون!!

وهذا الذي حصل مع أهل دومة الجندل، وتوا رجعت القوات المسلحة من عندهم في سنة خمس للهجرة، وها هم يطلون برؤوسهم مرة أخرى، ومن قريب في سنة ست!!! ثم بعدها في سنة اثنتي عشرة للهجرة، إبان خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه!!!

---

(١) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ابن سيد الناس: ١٥٠/٢

ولكنه في سنة ست كان قد خرج إليهم الصحابي الكريم عبد الرحمن بن عوف؛ ليقطع أعناقا أينعت، وقد حان قطافها!

لكنك مستصحب نعم تاريخا مجيدا لهذا الصحابي، وحين هاجر من مكة خارجا من أمواله ودياره؛ لله تعالى وحده، ولذا أغدق عليه ربه، وحين تعفف عن عرض أخيه ذي الإيثار سعد بن الربيع رضي الله تعالى عنهما، وحين عرض عليه مشاركة ماله وزوجه، ليدله على سوق المدينة، حتى فتح الله تعالى عليه، ليكون من أغنى الناس عصره ذلك!!!

ثم ها هو يخرج من ذلك كله، وإلى الله تعالى؛ وكيما لا يقال غنيمة!!! وأي غنيمة والرجل يحوز أمثال الغنائم!!!

هذا نداء الإيمان، وحق الإسلام، وحين ينادي آحادهم فيلبي، وكمثل تلبية نداء: حي على الصلاة حي على الفلاح! وعلى حد ما قال الواقدي رحمه الله تعالى: وفي سنة ست في شعبان كانت سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل، وقال له رسول الله ﷺ: «إن هم أطاعوا فتزوج بنت ملكهم» فأسلم القوم وتزوج عبد الرحمن بنت ملكهم تماضر بنت الأصبع الكلبية، وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف[١].

وهذا النبي صلى الله عليه وسلم كان من توفيقه تعالى له ذلكم العطاء، وكل على قدره وقيمته وأهميته صلى الله عليه وسلم، فاليوم يتزوج عبدالرحمن بن عوف من ابنة ملك دومة الجندل، وأول كان يفك أسر حليمة وزوجها؛ ولأنها

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ٢٠٤

دلت المسلمين على قومها، ولأن اسمها كان موافقا لحليمة السعدية مرضعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم!!!

ثانيا: حديث العرنيين

الثبات من الله تعالى ولذا كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك.

فعن شهر بن حوشب قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين ما كان أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قالت: فقلت: يا رسول الله ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؟ قال: يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ. فتلا معاذ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا[١].

وعن أنس بن مالك: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك فقلت يا نبي الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء[٢].

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٣٥٢٢

(٢) تخريج أحاديث المصابيح، محمد المناوي: ١/١١٢، خلاصة حكم المحدث: رجاله رجال مسلم في الصحيح.

عن أنس بن مالك: أن أنسا رضي الله عنه حدثهم: **أن ناسا من عكل وعرينة قدموا المدينة على النبي صلى الله عليه وسلم وتكلموا بالإسلام، فقالوا: يا نبي الله، إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف. واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذود وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا، حتى إذا كانوا ناحية الحرة، كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي صلى الله عليه وسلم، واستاقوا الذود، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم، فبعث الطلب في آثارهم، فأمر بهم، فسمروا أعينهم، وقطعوا أيديهم، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم. قال قتادة: بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة. وقال شعبة، وأبان، وحماد، عن قتادة: من عرينة. وقال يحيى بن أبي كثير، وأيوب، عن أبي قلابة، عن أنس: قدم نفر من عكل**[1].

والذي كان من قوم عرنيين، أنهم جاؤوا فأسلموا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن تلقاء أنفسهم؛ وكيما لا تتبقى شبهة أنهم أكرهوا، ثم كان من أمرهم أنهم اجتووا- مرضوا- بالمدينة، فراحوا يشكون أمرهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذود وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه، فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرة، قتلوا راعي رسول الله ﷺ واستاقوا الذود، وكفروا بعد إسلامهم. وهذا دال على ما يمكن أن يكون عليه من تأثير لعوامل الطقس والمناخ في الأبدان صحتها وسقمها، ولأن هؤلاء كانوا أعرابا أبناء البادية، فكانت لهم بها عادات مباينة لعادات أهل المدينة.

---

(١) صحيح البخاري: ٤١٩٢

وعلى كل حال فهذا أمر مشاهد، فاختلاف البيئات وما ينتج عنه من اختلاف المناخ والمأكل والمشرب وغيره له أثر ولاشك في الأبدان، وحتى الأرواح وما به تسكن، وما إليه تطمئن.

وهذا هو الذي حدث مع هؤلاء، فحين جاؤوا الى المدينة أصابهم نفاخ بطونهم واصفرار وجوههم!!!

وهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لا يتوانى في تلبية طلبهم، فيرسل معهم راعيا، وأمرهم أن يلحقوا بالإبل، ويشربوا من ألبانها وأبوالها، ففعلوا فصحوا!!!

وهذا برهان بركة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وإذ دلهم على معروف وحكمة، وأن ألبان الإبل وأبوالها علاج لمرض البطن وعلل الأمعاء وغيرهما!

وفيه دلالة على جواز الاستشفاء بذلك! وقد ثبتت صحة ذلك.

وفيه دليل على أن أبوال ما يؤكل لحمه طاهرة!

ونحن نروح مع النص حيث راح، وطالما ثبتت صحته، وبقطع النظر عن معرفتنا لحكمة هذا الفعل أو ذاك.

لكن هؤلاء العرنيين قد انقلبوا على وجوههم! وبدل أن يعتبروا بما حل بغيرهم، وحين ولوا مدبرين، وتراهم يتنمرون، ولما تأتهم الفرصة سانحة؛ لكشف خبايا نفوس بما فيها من غي وضلال، وعشش فيها الريب ونكران المعروف وجحود الفضل والجميل!!!

وتراهم وهم قد ارتدوا عن دينهم وقتلوا الراعيين ومثلوا بهما، وكان منه وباعتباره صلى الله عليه وسلم القاضي في وقته، أن أمر بهم فانطلقوا، حتى إذا كانوا بناحية الحرة، قتلوا راعي رسول الله ﷺ واستاقوا الذود، وكفروا بعد إسلامهم.

فبعث النبي ﷺ في طلبهم فأمر بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمر أعينهم، وتركهم في الحرة حتى ماتوا وهم كذلك.

قال قتادة: فبلغنا أن رسول الله ﷺ كان إذا خطب بعد ذلك حض على الصدقة، ونهى عن المثلة. وهذا الحديث يعتبر ناسخا للمثلة. ولئن ظلم الخصم فنعود إلى قرار ديننا فيه. لا نعمل عقولنا كثيرا لأننا قد نصل إلى القول المفيد أو نتقول على الله تعالى بفعل شيطان مريد!

وفي تبرير ما حدث، قال أبو قلابة: فهؤلاء قتلوا، وسرقوا، وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله ﷺ.

خاتمة القول

مرت السنة السادسة من الهجرة متوجة بيوم الحديبية أصلا، وبأربع سرايا لزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسرية لعبد الرحمن بن عوف، وكذا يوم العرنيين بمجموع سبعة أعمال قام بها جهاز القوات المسلحة يسنده فيها كل من جهازي الاستخبارات والاستطلاع.

وهذه الأعمال كلها قد تكللت بنصر مبين على الكافرين.

وهذه الأعمال دالة في مجموعها على كم هي قيمة الجهاد في هذا الدين!

وكم يمكن أن نخرج به، وإذ وهذه هي أمة الفتح المبين!

وكم يمكن أن يكون عليه أمرها، ومن حيث كانت هذه هي اهتمامات أجيالها المربين على مائدة البذل والتجرد!

وكم يمكن أن تكون مثالا يحتذى؟ ومن حيث لا أجد أمة في تاريخها المديد قامت بسبعة أعمال عسكرية في عام واحد مثلها!

وكم يمكن أن يكون أثره في أتباعها المحليين، وهذا صنيع أسلافهم من قبل؟!

وإذا كان هذا فعل زيد بن حارثة المولى، فما هو واجب العاملين ذوي الحرية لأديانهم إذًا؟!

الباب الثاني أحداث السنة السابعة

الفصل الأول: غزوة خيبر في السنة السابعة للهجرة

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى في قوله: { وأثابهم فتحا قريبا } قال: خيبر[1] . وكانت خيبر في شهر الله المحرم. أي بعد شهرين تقريبا من عودته صلى الله عليه وسلم من الحديبية. وبه فقد كانت راحة هذا الجيل في الخروج! لا كخروج الناس، وإنما لإحقاق الحق وإبطال الباطل، مع ما يكتنف هذا من أمور وتضحيات، كان أولها مهجهم وتقدمها نفوسهم.

وحين نقف على تسميته تعالى ليوم خيبر أنه الفتح القريب! وذلك لأنهم وحين بذلوا ما بذلوا يوم الحديبية، وإنما رجعوا دون غنائم، لم يخرجوا أجلها ابتداء، ولكن هكذا حين الصنيع الرباني، وحين يبدلهم يوم خيبر قريبا، ليعودوا ظفرا بنصر، وإحرازا لغنم معا، وإذ كان قريبا! ليكون حبل الفتح متصلا ما بين فتحين: هما يوم الشجرة، ويوم خيبر، وليعلم الخلف كم كان بذل السلف!

وهذا هو عمل هيئة الإمداد والتموين للقوات المسلحة السلبي، وحين تقطع خطوط إمداد الخصم، قبل النزال ومعه وبعده، في الوقت الذي يكون عندها إمدادها، وقد حسبت له حسابه جيدا.

---

(١) الدر المنثور، السيوطي: ٥٢٣/٧

عظم شأن الصلاة وعظم شأن القرآن

وإذ صلى بهم صلاة الصبح فقرأ في صلاة في الركعة الأولى: { كهيعص } وفي الثانية: { ويل للمطففين } فقلت في نفسي: ويل لفلان إذا اكتال اكتال بالوافي، وإذا كال كال بالناقص.

وهذا شأن الصلاة وشأن القرآن الحكيم معا وهما اللذان يمثلان زاد المسلم لدنياه فيرضى ولأخراه فيرضى أيضا ويكون حاله بين حالي الرضا ماذا يريد عبد فوق هذا أو معه إذن؟!

فعن أبي هريرة: قدمت المدينة والنبي صلى الله عليه وسلم بخيبر ورجل من بني غفار يؤمهم في الصبح فقرأ في الأولى {كهيعص} [مريم: ١] وفي الثانية **{ويل للمطففين}** [المطففين: ١] وكان عندنا رجل له مكيالان مكيال كبير ومكيال صغير يعطي بهذا ويأخذ بهذا فقلت: ويل لفلان[(١)].

وقلت: إن هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وحين كانت هذه صلاته، وليقرأ في صلاة الصبح مقارب نصف الجزء! وهو الذي قال صلى الله عليه وسلم: "إذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير. وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء" (رواه البخاري ومسلم).

وحين يجمع بين هذين الحديثين تتضح أمور منها:

١- مراعاة حال المأمومين، وموقفهم من التطويل أو التقصير. ومن ثم يصلي بهم إمامهم وعلى وسعهم مما يعلمه منهم.

---

(١) تخريج صحيح ابن حبان، شعيب الأرناؤوط: ٧١٥٦، خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح على شرط مسلم.

٢- تـذكير المصـلين بعظـم شـأن الصـلاة، وعظـم شـأن القـرآن الحكـيم، واعتبار ذلك فرصة سانحة للوقوف بين يدي الرحمن الرحيم، وجمعا بين خيرين: خير الصلاة؛ لأنها صلة العبد بربه، ومن اسمها الصلاة، وهذا أمر يعرفه الكافة!

٣- وحين يكون المصلي منفردا لنفسه فليطول ما شاء، وهذا هو نص قوله ﷺ.

وخير سماع القرآن الحكيم، وما فيه من رجاء الرحمة منه تعالى، وحين قـال تعـالى﴿وإذا قـرئ القـرآن فاسـتمعوا لـه وأنصـتوا لعلكـم ترحمـون﴾ [الأعراف:٢٠٤].

فتحصل من الصلاة خيران: أحدهما غاية كالآخر، في الأجر والثواب من الله تعالى العلي الأعلى.

وهذه غطفان قد استيقظت بعد فوات وقت قطع خطوط إمدادها خيبر! ليرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أموالهم وأهليهم، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر[١].

وهذا راجع الى إحكام خطة الغزوة كلها، وكل مرحلة تؤدي إلى مرحلة أخرى تليها، في دقة أداء، وحسن انسياب!

وإذ صلى العصر ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا بالسويق، فأمر به فثرى، فأكل وأكلنا، ثم قام إلى المغرب، فمضمض ثم صلى ولم يتوضأ.

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢/٢٩٨

وهذا الذي كان طعام كتائب الفتح المبين! ولينظر الناس في موائدهم، وليعيدوا نظرهم في إطعامهم؛ وكيما لا يكونوا عامل صد، وإذ يحسبون أنهم يحسنون صنعا. وحين تترهل أوعية، ويتمرد المساكين على حالهم، وينعون أقدارهم!!! وحين فعلنا بهم هذا، وباسم الإسلام الخالد!!!

وفيه جواز أكثر من صلاة بوضوء واحد. وكفاء المضمضة حينئذ. ومن حيث لم يقطع الوضوء ما ينقضه كنوم أو خلافه.

فعن سويد بن النعمان الأنصاري **خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر، فلما كنا بالصهباء -قال يحيى: وهي من خيبر على روحة- دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بطعام، فما أتي إلا بسويق، فلكناه، فأكلنا منه، ثم دعا بماء، فمضمض ومضمضنا، فصلى بنا المغرب ولم يتوضأ**[1].

* * *

من جمال السيرة النبوية أنك تعيش مع أصحابها، فتألف هذه الحياة، وكم تمنيت- وهذا أماني- أن تكون معهم، ولتعرف فقه الحياة وفقه الممات، من أفواههم ومن أفعالهم، وهم أولاء يأخذون علمهم بوجه واحد، ومعنى واحد، ويطمئنون حينها أنهم غير متأولين ولا مجتهدين ولا يخشون خطأ في فهم أو زللا في فقه، ولأنهم يأخذون علمهم من نبيهم صلى الله عليه وسلم مباشرة وبلا واسطة.

---

(١) صحيح البخاري: ٥٣٨٤

ودلك على ذلك أنهم وهم أولاء يوم خيبر يشعلون نارهم ليشووا عليها لحوم الحمير الإنسية أو الأهلية، وإذ ينهاهم عن ذلك نبيهم صلى الله عليه وسلم، في واقعة عين، وكتدريب عملي لا ينسى.

وهذا من بركات العلم، أن يكون مأخوذا لا عن مجرد خبر، بل من واقع عملي معاش؛ ليكون أدعى وأثبت.

وهذا فن نبوي في إدارة أمور أمته.

وهو أيضا فن تعليمي باهر، وحين يكون التعليم، وعلى حسب الحوادث الحادثة والنوازل النازلة، فتراه معها أثبت وأوقع.

ودلك على هذا هو قولهم يوم خيبر من حديث سلمة بن الأكوع: **خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر، فسرنا ليلا، فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر، ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ وكان عامر رجلا شاعرا، فنزل يحدو بالقوم يقول: اللهم لولا أنت ما اهتدينا.. ولا تصدقنا ولا صلينا فاغفر فداء لك ما أبقينا.. وثبت الأقدام إن لاقينا وألقين سكينة علينا.. إنا إذا صيح بنا أبينا وبالصياح عولوا علينا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع، قال: يرحمه الله، قال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا أمتعتنا به؟ فأتينا خيبر فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصة شديدة، ثم إن الله تعالى فتحها عليهم، فلما أمسى الناس مساء اليوم الذي فتحت عليهم، أوقدوا نيرانا كثيرة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما هذه النيران؟ على أي شيء توقدون؟ قالوا: على لحم، قال: على أي لحم؟ قالوا: لحم حمر الإنسية، قال النبي صلى الله عليه وسلم: أهريقوها واكسروها، فقال رجل: يا رسول الله، أو نهريقها ونغسلها؟**

قال: أو ذاك. فلما تصاف القوم كان سيف عامر قصيرا، فتناول به ساق يهودي ليضربه، ويرجع ذباب سيفه، فأصاب عين ركبة عامر، فمات منه، قال: فلما قفلوا قال سلمة: رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيدي، قال: ما لك؟ قلت له: فداك أبي وأمي، زعموا أن عامرا حبط عمله! قال النبي صلى الله عليه وسلم: كذب من قاله؛ إن له لأجرين -وجمع بين إصبعيه- إنه لجاهد مجاهد، قل عربي مشى بها مثله. [وفي رواية]: نشأ بها(١).

وعن حديث سلمة بن الأكوع أيضا: **خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر، ثم إن الله فتحها عليهم، فلما أمسى الناس اليوم الذي فتحت عليهم، أوقدوا نيرانا كثيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما هذه النيران؟ على أي شيء توقدون؟ قالوا: على لحم، قال: على أي لحم؟ قالوا: على لحم حمر إنسية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أهريقوها واكسروها، فقال رجل: يا رسول الله، أو نهريقها ونغسلها؟ قال: أو ذاك**(٢). وهذا نص قولي من واقع عملي بحرمة لحوم الحمير الإنسية.

واستدلوا منه تحليل لحوم الحمير الوحشية، ومن مفهوم المخالفة.

وقد مر بنا في هذه السيرة النبوية المباركة، وقريبا يوم الحديبية، وحين صاد أبو قتادة حمارا وحشيا، وأكل منه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والصحب الكرام.

---

(١) صحيح البخاري: ٤١٩٦

(٢) صحيح مسلم:١٨٠٢

وهذا صنف من الناس قام مجاهدا في سبيل مولاه يوم خيبر، وحين كان عامر قصيرا، فارتد عليه سيفه، فمات منه. فظن الناس أنه قتل نفسه فرموه أنه من أهل النار!

ولينكر عليهم ذلك نبيهم صلى الله عليه وسلم، وفي واقعة حال عملية أيضا، ولأن الرجل مات شهيدا، ولأن سيفه هو الذي ارتد إليه، وفارق بين أمرين واضحين ههنا.

كما ودلنا ذلك على عدم التسرع في الفتوى، ولأنها أمانة عظيمة، ويترتب عليها آثار أعظم أثرا، فيكون المرء معلقا بفتواه، وحين أخطأ قوله، أو زايل الصواب في المسألة، ولربما وقع تحت وطأة القول على الله تعالى دون علم، وكذا حديث الكذب على رسول الله صلى الله عليه. وكما وأنه موقع عن الله تعالى، وبالتالي يصطبر العبد نفسه أمام الفتوى، ولأنه يتكلم حينها عن الله، وما أدراك ما شأن ذلك!

وانظر تحقيق ذلك من واقعة عامر يوم خيبر، وحينما تصاف الناس كان سيف عامر قصيرا، فتناول به ساق يهودي ليضربه، فيرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبة عامر فمات منه. فلما قفلوا قال سلمة: رآني رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدي، قال: «ما لك؟». قلت: فداك أبي وأمي، زعموا أن عامرا حبط عمله. قال النبي ﷺ: «كذب من قاله، إن له لأجرين - وجمع بين إصبعيه - إنه لجاهد مجاهد، قل عربي مشى بها مثله».

جاءت رواية الإمام مسلم رحمه الله تعالى، وفهم منها أن عامر بن الأكوع مات منتحرا، وهي لا تفيد ذلك، ولأنه صلى الله عليه وسلم قطع بقوله: إنه لجاهد مجاهد، قل عربي مشى بها مثله».

بيد أن رواية أخرى بين أيدينا كانت أصرح هي الأخرى على أنه رضي الله تعالى عنه مات شهيدا، وحين أنه سمع دهر الأسلمي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في مسيره إلى خيبر لعامر بن الأكوع وهو عم سلمة بن عمرو بن الأكوع وكان اسم الأكوع سنان انزل يا ابن الأكوع فخذ لنا من هناتك قال فنزل يرتجز برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا – إنا إذا قوم بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا – فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحمك الله فقال عمر وجبت والله يا رسول الله لو أمتعتنا به فقتل يوم خيبر شهيدا[١].

والشاهد قوله: فقتل يوم خيبر شهيدا. فدل دلالة صريحة على أن عامر بن الأكوع مات في سبيل الله تعالى شهيدا يوم فتح خيبر.

* * *

ولا يزال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يعلمنا هديه تعليما عمليا، وعلى أرض الواقع؛ وكيما يعمل عمله فينا، ومن ذلك الاقتداء العملي الحسن سنة وهديا له صلى الله عليه وسلم، وحين علم، لكنه وإذ ماذا يقولون حين دخول البلدة، وكيما يصدق العبد نفسه أن صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين

---

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ١٥١/٦. خلاصة حكم المحدث: رجاله ثقات.

وذلك حين قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، حتى إذا كنا قريبا وأشرفنا عليها، قال رسول الله ﷺ للناس: «قفوا» فوقف الناس. فقال: «اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية، وشر أهلها، وشر ما فيها، اقدموا بسم الله الرحمن الرحيم»(١).

* * *

عن أنس بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى خيبر ليلا، وكان إذا أتى قوما بليل لم يغر بهم حتى يصبح، فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم، ومكاتلهم فلما رأوه قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم {فساء صباح المنذرين} [الصافات: ١٧٧](٢).

* * *

هذا الدين الذي هو الإسلام عزيز بعز عزيز، هو الله الخالق البارئ المصور. وهذا الإسلام رحمة، وليس سببا لها أو سبيلا إليها فحسب، بل هو جامع لقاموس الرحمة كلها، إن في سلمه، وإن في حربه، ولأنه في الحالين إنما جاء ليخرج الناس من ظلمات الهوى والغوي إلى نور التوحيد الخالص والعقيدة الصافية في الله تعالى الحق المبين، وهو في هذا يربت ربتا كريما أيضا على قلوب الناس؛ محبة إيمانهم، وإن عادوا، ورغبة إسلامهم، وإن حادوا، وليس ينظر إلى مثل ذلك، وحين

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/ ٢٠٩

(٢) صحيح البخاري: ٤١٩٧

صدوره من فريق منهم، ولأنهم يقفون موقف جامدا تجاه صد أنفسهم بأنفسهم عن الهدى! وإلا كنوع من عارض مرض أحاط بهم، وليكون معهم حينئذ كطبيب ماهر باهر، وحين تخيم عليه أمارات السكينة والعفو والرضا، وهو إذا تراه يعالج من يبادله صراخه وعويله! بل ولربما ألقى على مسامعه وبدنه ما لا تقره قواعد العقلاء! وتأباه أصول الحكماء!

وكان من ذلك أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بات ليلة كاملة، وليخبر القوم أن بهم شبهة من إسلام، أو دلالة من إيمان، وليكف عنهم قتاله، وليعفو من مجابهته، وكان آية ذلك أن يسمع أذانا! ولأنه لم يكن أحد يؤذن يومهم هذا إلا المسلمون، فلذلك كان التأذين علامة فارقة على الإسلام، حين ذلك الزمان!!!

وإذ كان هذا الأذان آية وبرهانا على إسلام العبيد وجوههم وقلوبهم لله تعالى مولاهم الحق المبين.

وهذا علاوة على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن ليغير إلا صباحا! وهذه أخلاق هذا الدين، ولأنه لا يأخذهم على حين غرة منهم، وليفتح لهم مجالا أرحب للتفكير والمراجعة والمداولة.﴿ **لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا**﴾ [طه:١١٣].

وهذا أيضا من حقائق هذا الدين الغائبة، وإذ نفخت أقوام في بوق إعلامي سلبي، كانت وظيفته تعرية هذا الدين عن رحمة، وإكساءه بصيحات الأذى والرعب، فأخافوا الناس من هدى، وحالوا بينهم وبين الرشد والصلاح والقسطاس المستقيم.

وأنت إذ ترى ذلك لتعجب عجبا يملأ عليك أركانك! وإذ كان هذا الدين دلالة نور وآية حفظ، وحين يرفرف الناس بأجنحته المعروفة بهدوئه وسكينته، ليحل الأمن محل الفوضى، والرضا محل السخط، والهدى محل الضلال، فينعم الناس كلهم، وتقل معدلات الإجرام، التي أقضت مضاجع الناس يومهم هذا، كما كان يومهم ذاك، وما وجدت البشرية طوق نجاتها إلا في الدين القيم، ملة ابراهيم حنيفا، وما كان من المشركين.

ودلك على ما أنف ذكره ما جاء عن أنس بن مالك: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا غزا بنا قوما، لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذانا كف عنهم، وإن لم يسمع أذانا أغار عليهم، قال: فخرجنا إلى خيبر، فانتهينا إليهم ليلا، فلما أصبح ولم يسمع أذانا ركب، وركبت خلف أبي طلحة، وإن قدمي لتمس قدم النبي صلى الله عليه وسلم، قال: فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم، فلما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم، قالوا: محمد والله، محمد والخميس، قال: فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الله أكبر، الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم **{فساء صباح المنذرين}** [الصافات: ١٧٧][١].

---

(١) صحيح البخاري: ٦١٠

الله أكبر خربت خيبر

الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

هذا هو أدب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في الحرب، واذ يرجع كل أمره لله، وإذ يبدأ جهاده بصيحة التكبير، وأن كل ما خلا الله تعالى أصغر، وهذا فن عسكري باهر، ومعه تتضاءل جيوش العالم الجرارة؛ ولأن (الله أكبر)!

وهذه عقيدة الإسلام القتالية، والتي معها يشعر المجاهد المسلم بأنه مالك الدنيا، وأن جميع من كفر تحت سلطانه، وبين فكي الافتراس، في انتظار إشارة بدء النزال من العرين!!

وهذا في الوقت الذي يكون فيه التكبير علامة فارقة على مستوى التواضع لله تعالى، وخفض الجناح له تعالى، وليخرج العبد من كل حوله، إلى حول الله تعالى كله! وهذا هو مطلق العبودية لله أولا، ثم إنه ليحجب عن العبد منطقة غرور إن وجد، ولئن وجد كان سببا أوليا لأول من تسعر بهم النار يوم القيامة: مجاهد ليقال شجاع وقد قيل، وقاريء ليقال قارئ وقد قيل، وجواد ليقال جواد وقد قيل!!!

فعن أبي هريرة: أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل يقتتل في سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي قال بلى يا رب قال فماذا عملت فيما علمت قال كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار فيقول الله له كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول له الله بل أردت أن يقال

فلان قارئ فقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد قال بلى يا رب قال فماذا عملت فيما آتيتك قال كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله له كذبت وتقول الملائكة له كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل ذلك ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله له في ماذا قتلت فيقول أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة[١].

وهذا الذي يجعل أحدنا يكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله تعالى. في محاولة جادة لبسط أجنحة التواضع والاستكانة لله تعالى؛ كيما لا يحرم مخلص إخلاصه، وأجل أن يكرم باذل لبذله.

وانظر عقيدتنا الإسلامية في القتال وحين قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

حينها أعلن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم القتال يوم خيبر، وبعد نذارة وبلاغ، قتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم، وكانت منهم صفية بنت حيي، سيدة قريظة والنضير وحين وقعت في سهم أحدهم فأهداها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقها وكان عتاقها مهرها فتزوجها صلى الله عليه وسلم وأصبح معرسا ليجمع كل وعلى قدره ما به كانت وليمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٢٣٨٢

وفيـه جـواز تـأخير الوليمـة لمـا بعـد العـرس لسـبب. وكمـا أن فيـه إيثـار الصحابة بعضهم البعض وحين تقدم في ذلك نبيهم صلى الله عليه وسلم.

فعن أنس بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا خيبر، فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس، فركب نبي الله صلى الله عليه وسلم وركب أبو طلحة، وأنا رديف أبي طلحة، فأجرى نبي الله صلى الله عليه وسلم في زقاق خيبر، وإن ركبتي لتمس فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم، ثم حسر الإزار عن فخذه حتى إني أنظر إلى بياض فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم، فلما دخل القرية قال: الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم **{فساء صباح المنذرين}** [الصافات: ١٧٧] قالها ثلاثا، قال: وخرج القوم إلى أعمالهم، فقالوا: محمد، قال عبد العزيز: وقال بعض أصحابنا: والخميس - يعني الجيش - قال: فأصبناها عنوة، فجمع السبي، فجاء دحية الكلبي رضي الله عنه، فقال: يا نبي الله، أعطني جارية من السبي، قال: اذهب فخذ جارية، فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي، سيدة قريظة والنضير، لا تصلح إلا لك، قال: ادعوه بها فجاء بها، فلما نظر إليها النبي صلى الله عليه وسلم قال: خذ جارية من السبي غيرها، قال: فأعتقها النبي صلى الله عليه وسلم وتزوجها، فقال له ثابت: يا أبا حمزة، ما أصدقها؟ قال: نفسها، أعتقها وتزوجها، حتى إذا كان بالطريق، جهزتها له أم سليم، فأهدتها له من الليل، فأصبح النبي صلى الله عليه وسلم عروسا، فقال: من كان عنده شيء فليجئ به

وبسط نطعا، فجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، قال: وأحسبه قد ذكر السويق، قال: فحاسوا حيسا، فكانت وليمة رسول الله ﷺ[١].

* * *

وإذ كان هذا النبي ﷺ ذا خلق عظيم، مستجمعا لأصول الأخلاق وقواعد المروءات وفروع السجيات والحسنات. ولما روى أنس بن مالك أنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المريض، ويشيع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار، وكان يوم قريظة، والنضير على حمار، ويوم خيبر على حمار مخطوم برسن من ليف، وتحته إكاف من ليف[٢].

* * *

إنه لا جناح على المريض إذا تخلف عن القتال؛ ولمرضه، وهذه من رحمات الدين القيم، إلا أن نفرا باع نفسه لله، وإذ كان من علامته تقديم عزيمته على رخصته، وحين قدم علي المشاركة في يوم خيبر، على أنه كان قد نزلت به لمة من مرض، أو وعكة من ألم! لكنه هو ذلك العبد الصالح، زوج ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن عمه أبي طالب، ثم هو عبد صالح وحين عزم ألا يتأخر عن ركب المجاهدين، نيلا للثواب، ورغبة في الأجر والاحتساب!

وانظر في هذا ما جاء عن سلمة بن الأكوع قال: **كان علي قد تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم، في خيبر وكان رمدا، فقال: أنا أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج علي فلحق بالنبي صلى الله عليه وسلم فلما كان**

---

(١) صحيح البخاري: ٣٧١

(٢) ضعيف ابن ماجه، الألباني:٤٩٦٩

مساء الليلة التي فتحها الله في صباحها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأعطين الراية، أو ليأخذن بالراية غدا رجل يحبه الله ورسوله، أو قال يحب الله ورسوله، يفتح الله عليه فإذا نحن بعلي، وما نرجوه. فقالوا: هذا علي، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية. ففتح الله عليه[١].

وزاد في رواية الإمام البخاري أن عليا رضي الله تعالى عنه يحب الله ورسوله، كما وأن الله تعالى ورسوله يحبانه! وأنه صلى الله عليه وسلم بصق في عينيه، ودعا الله تعالى له، فبرأ من وقته!

فعن سهل بن سعد الساعدي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم: أيهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو -يا رسول الله- يشتكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه. فأتي به فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه؛ فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا، خير لك من أن يكون لك حمر النعم[٢].

---

(١) صحيح مسلم: ٢٤٠٧

(٢) صحيح البخاري: ٤٢١٠

تتضافر علامات وأعلام نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تترا!

ولا ننسى قصة إسلام سلمان الفارسي، وإذ أخبره يهود بعلامات نبوته صلى الله عليه وسلم الأربعة، كونه من العرب، ولايقبل الصدقة، ويقبل الهدية، وفي ظهره خاتم النبوة! وما أسلم سلمان يومها إلا حين توافرت لديه هذه الشروط الأربعة!

واليوم في خيبر تتجلى أعلام أخر كان منها:

١- دعاؤه صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله تعالى عنه بشفائه من رمد عينيه، وبعد أن بصق فدعا ربه فبرأ منها علي من توه!

٢- شهادته أن عليا يحب الله ورسوله. وأن عليا يحبه الله ورسوله!

وهاتان منقبتان لعلي، وأنه رجل كان وليد تربية مائدة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

ولئن كانت محبة علي لله تعالى ولرسوله متحققة في علي نفسه، فلا يعني ذلك إلا شيئا واحدا، هو صدق وإخلاص التلقي عن الله تعالى في كل أمره، ومسلما تسليما، وراضيا مرضيا بالله تعالى ربا، فلا يتلقى إلا منه ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وكان من ذلك أن أحبه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وهذا أمر غيبي في حقه تعالى، وما كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليقول به، إلا وحين كان عنده فيه من الله تعالى برهان. ولذا؛ كان علما على نبوته صلى الله عليه وسلم.

هذا، وفي جانب عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه تعليق فؤاده بالإمامة، ليس حبا لها بل، لما علم من محبة عجيبة بين أطرافها الثلاثة (الله، ورسوله، وعلي).

ولذا؛ استشرفت نفسه أن يعطى الراية كيما ينطبق عليه هذا الثلاثي الفضيل! وإذ لم يكن يعرف من سيعطاها ابتداء.

ولا يفوتنا ذكر محبة هذا الجيل لبذل أنفسهم في سبيل ربهم، وهذه درجة عالية سامقة تحتذى، ولا نضحك على الناس وعلى أنفسنا، حين اختزال هذا الدين في شعائر تعبدية، كانت في درجة تالية لتحقيق موجبات المحبة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. من تعبيد الناس لربهم الحق أولا، وحين كان منهج الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم هو المعين الأول والأخير للتلقي، أمرا ليعتمل، ونهيا ليجتنب.

وهاتان الخصيصتان هما الفارق الحقيقي بين الحق والباطل.

ولهذا جاء النص على ذلك في غير ما مناسبة من القرآن الحكيم، وكما قال تعالى ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتىٰ يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ [النساء: (٦٥)]. وقوله تعالى: ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهمۗ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا**﴾ [الأحزاب: (٣٦)].

وإذ ننوه إلى أن الرسول الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم كان قد أمر عليا أن يقاتل القوم، ورغم علمه رضي الله تعالى عنه بقواعد ملته، وأصول القتال فيها، إلا أنه أراد الاستيثاق من أمره، وهذه منقبة أخرى، يتحقق فيها

صدق الاتباع، وألا يتحرك عبد حركة إلا ببرهان من الله تعالى، وهذا هو موجب عقد المحبة بين طرفي العلاقة، الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من جانب، وعلي رضي الله تعالى عنه من جانب ثان. وحين قال علي: على ما أقاتل الناس؟

ودلك على ما أنف ما جاء من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال يوم خيبر: لأعطين هذه الراية رجلا يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ، قال فتساورت لها رجاء أن أدعى لها، قال فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، فأعطاه إياها، وقال: امش، ولا تلتفت، حتى يفتح الله عليك قال فسار علي شيئا ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله، على ماذا أقاتل الناس؟ قال: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على الله[1].

* * *

استعصت خيبر على الفتح يومين كاملين. وبعد محاولتين خاض كلا منهما أبا بكر وعمر على الترتيب، وليتم الله تعالى الفتح على يدي علي، وحين قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: «لأعطينها غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يأخذها عنوة» وليس ثم علي. وكان هذا علما آخر ضافيا على نبوته صلى الله عليه وسلم؛ ولأنه قد أتم الله تعالى على يديه فتح خيبر.

وحينها يرتجز عامر بن الأكوع:

---

(١) صحيح مسلم: ٢٤٠٥

والله لــولا أنــت مــا اهتــدينا
ولا تصــــــدقنا ولا صــــــلينا
ونحن من فضلك ما استغنينا
فـــأنزلن ســــكينة علينـــا
وثبـــت الأقـــدام إن لاقينـــا.

وحين علم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنه القائل قال: غفر لك ربك.

وكان الصحابة يتبعون أقوال نبيهم تماما، حتى قالوا حين سمعوا ذلك: وما خص رسول الله ﷺ قط أحدا به إلا استشهد!

وليكون قول عامر هذا حقيقة وصدقا، فنازل يهوديا سمع رجزه، حتى ارتد عليه سيفه فمات شهيدا رضي الله تعالى عنه.

فعن محمد بن عمر الواقدي: قيل أن محمد بن مسلمة ضرب ساقي مرحب فقطعهما، فقال مرحب: أجهز علي يا محمد! فقال محمد: ذق الموت كما ذاقه أخي محمود، وجاوزه، فمر به علي رضي الله عنه فضرب عنقه وأخذ سلبه، فاختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في سلبه، فقال محمد: يا رسول الله! والله ما قطعت رجليه وتركته إلا ليذوق الموت، وقد كنت قادرا أن أجهز عليه، فقال علي رضي الله عنه: صدق، ضربت عنقه بعد أن قطع رجليه، فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم سلبه محمد بن مسلمة سيفه ودرعه ومغفره وبيضته، وكان عند آل محمد بن مسلمة سيفه فيه كتاب لا يدرى ما هو، حتى قرأه يهودي من يهود تيماء، فإذا فيه: هذا سيف مرحب من يذقه يعطب[١].

(١) السنن الكبرى للبيهقي: ٣٠٩/٦. خلاصة حكم المحدث: منقطع.

كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يتقدم الصفوف في الجهاد، ولا يمنعه من ذلك إلا ضرورة كمرض.

وهذا الذي حدث يوم خيبر، وإذ أصيب بالشقيقة يومين كاملين، أناب عنه في اليوم الأول أبا بكر، وفي اليوم الثاني عمر، ولكنه تعالى لم يفتح على أي منهما خيبر، وليعطي الراية يومه الثالث عليا، فيفتحها الله تعالى على يديه.

وفيه جواز التخلف عن القتال لمرض المقاتل، كما حدث لنبينا صلى الله عليه وسلم يوم خيبر، أو لمرض من يقوم عليه مسؤوليته، وكما حدث لعثمان يوم بدر ولتطبيبه زوجته رقية.

هذا وقد تناوب الأصحاب على قتل مرحب اليهودي؛ ولشدة بأسه في القتال. حتى أن محمد بن مسلمة هو الذي قتل مرحبا.

* * *

هذا، وليضع أحدنا يده على قلبه، ويطلب الثبات من الله تعالى، ولأن الإنسان ولربما فتن بقول أو فعل، يكون ختم حياته به، حسنا كما عامر بن الأكوع، أو سيئا كما عن سهل بن سعد الساعدي قال: التقى النبي صلى الله عليه وسلم والمشركون في بعض مغازيه، فاقتتلوا، فمال كل قوم إلى عسكرهم، وفي المسلمين رجل لا يدع من المشركين شاذة ولا فاذة إلا اتبعها فضربها بسيفه، فقيل: يا رسول الله، ما أجزأ أحد ما أجزأ فلان، فقال: إنه من أهل النار، فقالوا: أينا من أهل الجنة، إن كان هذا من أهل النار؟ فقال رجل من القوم: لأتبعنه، فإذا أسرع وأبطأ كنت معه، حتى جرح، فاستعجل الموت، فوضع نصاب سيفه

بالأرض، وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فجاء الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: **أشهد أنك رسول الله، فقال: وما ذاك. فأخبره، فقال: إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وإنه لمن أهل النار، ويعمل بعمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة**[١].

وهذا حديث عظيم.

ولما كان منه علم من أعلام نبوة هذا النبي الأمي العربي القرشي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أيضا.

* * *

وثمة علم نبوة ضاف آخر يوم خيبر وإذ روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن سلمة بن الأكوع قال: **رأيت أثر ضربة في ساق سلمة، فقلت: يا أبا مسلم، ما هذه الضربة؟ فقال: هذه ضربة أصابتني يوم خيبر، فقال الناس: أصيب سلمة، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فنفث فيه ثلاث نفثات، فما اشتكيتها حتى الساعة**[٢].

---

(١) صحيح البخاري: ٤٢٠٧

(٢) صحيح البخاري: ٤٢٠٦

إن تصدق الله يصدقك!

ويحكي التاريخ في ذلك عبرا! وحين تكون وجهة عبد مولاه، وبقطع النظر عن مغنم تماما، وحين أسلم وجهه لله.

وهذا مثل بين أيدينا، يرينا كيف كانت هؤلاء قلوبهم، تواقة إلى الرضوان والفوز العظيم بما عند الله تعالى، وبصرف النظر عن أي شيء آخر.

وهذه درجة صديقية عالية رفيعة.

ودلك على ما أنف أن رجلا من الأعراب جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه، فلما كانت غزوة غنم النبي صلى الله عليه وسلم سبيا، فقسم وقسم له، فأعطى ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبي صلى الله عليه وسلم، فأخذه فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما هذا؟ قال: قسمته لك، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى إلى ههنا، وأشار إلى حلقه بسهم، فأموت فأدخل الجنة فقال: إن تصدق الله يصدقك، فلبثوا قليلا ثم نهضوا في قتال العدو، فأتي به النبي يحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي: أهو هو؟ قالوا: نعم، قال: صدق الله فصدقه، ثم كفنه النبي في جبة النبي، ثم قدمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا في سبيلك فقتل شهيدا أنا شهيد على ذلك[١].

---

(١) صحيح النسائي، الألباني: ١٩٥٢

حين شفى الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم من الشقيقة يوم خيبر قام ففتح حصونهم بنفسه، وهذا برهان تهاوي أعلام الكفر والشرك في يثرب المهاجَر! وكيما تنفض المدينة عن نفسها خبث كبر يهود! وكيما تتطهر يثرب من كيد ومكر طالما كانا عهدا ليهود! وفي ذات الوقت وليعلم الناس عن قرب حلاوة دين جديد حلت بركاته على يثرب ليزيل خبثها، ويحل فيها أمنها ورغدها وطيب عيشها في ظل هذا الدين الجديد الذي ترفل في ظلاله الأمم بالنعم والرضا كفارا كانوا أو مسلمين!! ولأنه يبسط أجنحة العدل بمعناه المطلق على ضفاف يثرب أو غيرها، مما حاصله أنه يشعر كل أحد تفيأ ظلاله بظلاله الوارفة، وحين تميل إلى مظلوم لترفع عنه ظلما وقع، وحين تهدهد مكلوما تئن من وطأة جراحه قواه لينهض من عثرة ويثب من كبوة!

وانظر قول قائد المسلمين عمر بن العاص يوما لذمي ضربه ولده: قم فاضرب ابن الأكرمين!!

وهذا هو الدين الذي ينبغي تقديمه للجماهير!! دين رحمة وسلم وأمن وعطاء وعفو وتسامح وعدل وطهارة ورفع الظلم وتثبيت دعائم المساواة بين رعيته مسلمهم وغير مسلمهم تماما!

وإذ يلاحظ هذا التصبر في معاملة يهود خيبر كما غيرهم وحين أمهلوا ولعلهم يعودون!

وإذ كانت مناسبة هذه الجولات تخرج لنا إرثا فقهيا غنيا، ونوافذ بذل، وطاقات إبداع، ومواهب خلق حسن حميد رفيع:

١- فقهيا: وكمثل تحريم لحوم الحمير الإنسية، وحل لحوم الحمير الوحشية.

وكمثل تحريم الثوم غير المطهي، وكذا تحريم نكاح المتعة يومها.

٢- ونوافذ بذل: لا تحصر؛ وكما نهض علي من ألم رمده، وحين استعظم أن غزوة واحدة لا ينبغي أن تفوته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم! وكمثل من قال: ما على هذا بايعتك!

٣- وطاقات الإبداع: وحين كانت أفئدتهم على قلب رجل واحد؛ لدك هذه الحصون؛ وكيما يتركوا في تاريخهم بصمات علو همة تسامق الجبال طولا. وانظر فعلهم وكيف أسقطوا محربا هاويا وحين كتب على سيفه:

هذا سيف مرحب   من يذقه يعطب!

وإذ قطع ابن مسلمة رجليه؛ لينهض علي فيقضي عليه؛ وليخر أمام سيفه، وحين لم يغن عنه من الله تعالى شيئا!

٤- وضرب مثال الخلق الحسن الحميد: وحين تعففوا، وحين اجتمعوا على إيثار نبيهم صلى الله عليه وسلم بصفية بنت حيي بن أخطب، وحين جمعوا وليمة نبيهم يوم عرسه عليها أيضا.

وحين لم يحدث التاريخ هنة واحدة حدثت بين فرقاء الهدف الواحد يوم خيبر! بل حكى اجتماعا وإلفا ومحبة وإيثارا وتفانيا، عز مثله على أي تجمع بشري! وإذ كان سهلا أن ترى تأفف هذا وتمعض ذلك وتبرم ثالث... في منظومة غريبة على هذا الدين، لا بل منتسبيه! وحين يولي أحدهم دبره عن أخيه، واستجابة

لنفثة إبليس اللعين، وحين أقسم أن يحرش، وحين أبرم عهدا أن يفرق!!! وليجد أرضا خصبة تحت قدميه، وكأنما كانوا على حين أهبة للطاعة!!! وكأنهم استأخروه: ولم تأخرت عن قيامك بواجب دعوتك التي قلت فيها: إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي!! وحين قال الله تعالى ﴿ **وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ۖ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ۖ فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ۖ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي ۖ إني كفرت بما أشركتمون من قبل ۗ إن الظالمين لهم عذاب أليم**﴾ [إبراهيم:٢٢].

هكذا في مجرد دعوة يتساقط إخوة هدف لطالما كان واحدا، ولما كان واجبا أن يسيطر، وإن تخلى أحدهم، وإن تحلى أحدهم أيضا!!

* * *

إنه لا جناح أن يبحث الناس عن علة تحريم إذا ظهرت لمن مطلق العبودية هما السمع والطاعة علمت حكمة أو خفيت علة!

وهذا الذي حدث في خصوص تحريم لحوم الحمير الأهلية يوم خيبر، وهل هي لذاتها، أم لأنه يفوت بذلك حمل الأثقال والركوب، أم لأنها لم تخمس بعد؟ وكل هذا قيل، ولكن الذي نخرج منه هو مسارعتهم إلى الطاعة وتسابقهم إلى الانقياد، وبغير تأجيل أو تأويل أو جدال أو مماحكة!

ودلك على ذلك أنه حين نادى منادي رسول الله ﷺ أن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر فإنها رجس، فأكفأوها والقدور تفور بها!

وهذا الذي عليه أهل الأصول، أن الأمر على الفور لا التراخي، ولم يقفوا طويلا عند فوات المصلحة، أو إدراك وقتها. ولأن وظيفتهم هي التي أرادهم ربهم عليها وحين قال: ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولٰئك هم المفلحون﴾ [النور: (٥١)].

إن التمحك والتمحل والتأويل والتأجيل لا ينتج أمة سوى وكأنما باب نخر فيه السوس؛ ليبقى بابا شكليا، ليهوى فجأة وغرة، وحين حل وقت زواله إلى الأبد!!!

نهى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم خيبر عن نكاح المتعة وعن أكل لحوم الحمير الإنسية وعن الثوم.

واستشكل أن نهيه صلى الله عليه وسلم عن نكاح المتعة كان مقيدا بيوم خيبر؛ للنص في ذلك! وهذا عوار فقهي!

١- ولأنه ولم لا يقاس على تحريم الحمير الإنسية وأنها أبدا، وكذا أكل الثوم؟!

٢- وأن رسول الله ﷺ أذن لهم في المتعة زمن الفتح، ثم لم يخرج من مكة حتى نها عنها، وقال: «إن الله قد حرمها إلى يوم القيامة».

فعن بن معبد الجهني: يا أيها الناس، إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا[1].

وأما تحريم الثوم فحمل على أنه غير مطبوخ، وهو توجيه معقول عقلا ومفهوم فقها.

٣- قال علي لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إنك امرؤ تائه أن رسول الله ﷺ نهى عن نكاح المتعة ولحوم الحمر الأهلية يوم خيبر، فجمع له النهي ليرجع عما كان يعتقده في ذلك من الإباحة.

٤- لا وجه لمن قال بحل نكاح المتعة للحاجة! ولأن أحكامه تعالى جد ولا تخضع لما تخضع له أهواء قوم! ولأن ديننا قائم على النص، وندور معه حيث دار.

٥- لا ينبغي أن نفتش كثيرا عن رجوع ابن عباس أو عدم رجوعه عن تحليل نكاح المتعة؛ ولأنه قضاء وقت أمام نصوص صريحة، ولأن ابن عباس يقابله قول علي رضي الله تعالى عنهما، وانتهى به الإشكال.

* * *

تتجلى عطيات الله تعالى لعبده، وعلى أوسع أبوابها، وحين يكون عبدا!

إن يُقَنِّعه ربه بما قسم له، وإن يفتح له أبواب خير لم تكن على باله ولا على بال غيره!

---

(١) صحيح مسلم: ١٤٠٦

وإن الـذين يقعـون في وحل المعاصي يعـوزهم يقظة إلى كثير إنعامه الـذي حرموه، ولما وقعـوا تحت نير الهوى والشـرك المَريد؛ ولتراهم يشكون وكأنما يشكون ربهـم، وحين حـرمهم وحتى الرضـا، ولا هـم يرعـوون بمـوقفهم حيـال مـا حـرم ربهـم لينتهوا، أو ما أحل ليجدهم عنده.

وهذه وقفة حاكمة في سلوك الناس، وضبطها واجب شـرعي، وحبكها فقـه ديني! ولأن غيـاب هـذه القاعـدة يكلـف المجتمـع المسـلم جـدا بليغـا في علاجـه هـو الآخر. وحين توجيه الطاقات إلى ما سواها.

وانظر إلى صحة مذهبنا ههنا، وحين أتـت بنـو سـهم من أسـلم رسـول الله ﷺ فقـالوا: يا رسـول الله لقـد جهدنا وما بأيـدينا شيء، فلـم يجـدوا عنـد رسـول الله ﷺ شـيئا يعطيهم إياه. فقـال: «اللهـم إنـك قـد عرفـت حـالهم، وإن ليسـت لهـم قـوة، وإن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غنى، وأكثرها طعاما وودكا». فغدا الناس ففتح عليهم حصن الصعب بن معاذ وما بخيبر حصن كان أكثر طعاما وودكا منه[1].

* * *

خلق البـذل خلق حميـد، وحين يبـذل العبـد نفسـه خدمة للهـدف الأسـمى، وهو هدف تعبيد نفسـه وجوارحه وقلبه لله تعالى الحق المبين. وحينئذ يكون العبد في أحسن مقامات العبودية، وبحيث تسمق نفسه إلى الأعلى، ولأنه قد فعل الأعلى مـن الخلـق الرفيـع، وحـين كان عضـوا فـاعلا إيجابيـا في الجماعـة المسـلمة، فيـؤثر ويبذل ويخـدم ويقـوم وينهض وينشـط ويكر ويفر، وما من حظ لنفسـه في هذا قل

(١) تاريخ الطبري، ج ٢٩٨/٢

أو كثر، وإنما كانت مرضاة خالقه من أمامه ومن خلفه، ودون ذلك من وراء ظهره، ولذا فحين يفعل ذلك، ولا يفعله إلا لله، فثمت الراحة، راحة الفؤاد والجوارح والسكينة والرضا، وبكل ما يحمل كل من ذلك من معانيه في القاموس!

وأذكر أن أخا كان معنا في الليمان وكنا سبعة عشر أخا في زنزانة واحدة! وكنت أراه إذا حضر الفول المدمس (المسوس)! يسابق زمنه كيما يعده لنا لنتناول طعام الإفطار والعشاء أيضا!

والواقع أنني كنت مساعده ونائبه ويده اليمنى! لأنني كنت أغبطه على ذلك، ولأنه كان صاحب فضل في الواقع أن تعلمت منه شيئا من ذلك، ولست أذكر من ذلك اليوم إلا اسمه محمدا! وكان الأخ عبدالفتاح وهذا الذي أذكره الآن اسمه وحسب، وحسبه أن الله تعالى يعلمه، أقول: كان الأخ عبدالفتاح هذا يطربنا بأناشيده الحماسية، وهو إذ يعاوننا في تجهيز الفول الذي ولله الحمد ذهبت آثار السوس منه، وبفعل التنقية الحثيثة، والبحث المكثف عن كل سوسة يمكننا أو يخالها أن تجد مهربا منا نحن الثلاثة، أو هكذا كنا نقنع أنفسنا، لنرضى بوجبة هذا الفول الصباحية والمسائية اللذيذة!

لكن يوما قد انتقلت إلى زنزانة أخرى مجاورة، وكان فيها أخ ماهر في أعمال الطبخ والتجهيز! وعند مقارنة عملنا الأول بعمله كنت أقول: أعان الله إخواننا علينا في الزنزانة الأولى! فقد اتضح جليا أننا كنا نعك لهم عكا! وأمام عبق وطيب رائحة الفول الجديدة من عمل هذا الأخ! ويأتي أخ يكبرنا سنا في هذه الزنزانة ويقول: هذا ترف! لا تعملوا الفول المسوس بهذا الجمال، وهذه الرائحة

المقلقة لمشاعر الجوع والطوي!! اخشوشنوا!!!! وهدد وتوعد بأنه سوف يعد هو الفول بدلا عن هذا التنعم في إعداد الفول المسوس، لا المدمس!!

وفعلا نفذ تهديده ووعيده، وكان يقدم لنا الفول كما جاء من البستلية!! حتى نخشوشن!! ورحمهم الله جميعا!

وأقول هذا استحضارا لتاريخ مجيد من يوم خيبر، وحين عسكرت كتائب الفتح المبين، وتاقت أنفسهم أن يأكلوا، والله أعلم منذ كم ولم يأكلوا لحما؟! ولتمر غنيمات ليهود خيبر، لينادي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في القوم: من يطعمنا من هذه الغنم؟ ولأنها أصبحت في حكم الغنائم، وليس يفصلهم عن ذلك إلا فتح الحصن وثم! لينهض أحدهم: أنا يا رسول الله! ولينفذ وعده، ويوثق عهده، ونتركه يحكي قصته، ويروي حكايته، ولأن فيها زكاء البيان أكثر من البيان، ولأن يحكي تجربة الصدق في ثوب الصدق نفسه، بعيدا عن الصور البيانية والتعابير البلاغية المتكلفة، ولأن ما سوف يحكيه هو البيان نفسه، ولأن ما سوف يرويه هو البلاغة نفسها!

فعن كعب بن عمرو: والله إنا لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر عشية، إذ أقبلت غنم لرجل من يهود تريد حصنهم، ونحن محاصروهم، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رجل يطعمنا من هذه الغنم؟ قال أبو اليسر: فقلت: أنا يا رسول الله، قال: فافعل. قال: فخرجت أشتد مثل الظليم، فلما نظر إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم موليا، قال: اللهم أمتعنا به. قال: فأدركت الغنم وقد دخلت أوائلها الحصن، فأخذت شاتين من أخراها، فاحتضنتهما تحت يدي، ثم أقبلت بهما أشتد كأنه ليس معي شيء، حتى ألقيتهما عند رسول الله

صلى الله عليه وسلم، فذبحوهما فأكلوهما، فكان أبو اليسر من آخر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هلاكا، فكان إذا حدث بهذا الحديث بكى، ثم يقول: أمتعوا بي، لعمري كنت آخرهم[١].

* * *

إن للبيئة والطقس والمناخ وتغييراتهما أثرا فاعلا في طبائع النفوس، ولربما رأيت قاطني البيئات الباردة يموتون إذا انقلبوا إلى بيئات حارة! وعكس ذلكم صحيح تماما!

ومنه تغييرات المآكل والمشارب وغيرها، مما تحكمه بيئة آحاد الناس وجماعاتهم إجمالا.

ولذا يحسن بالناس ألا يفجأوا أنفسهم بتغييرات مناخية أو بيئية مفاجئة، ودون تمهيد، وبغير توطيد، ودون تدريب أو ترتيب، وأجل ألا ينتج ما نفس عنه بغنى!

وهذا الذي حدث يوم خيبر، وحين فتحت حصونهم، وإذ كان لديهم خضرة يانعة، وثمار ناضجة، ونخيل وأعناب، ولم يكن لأهل الفتح بذلك من عهد، ولما حموا حين تفاعلوا مع هذه البيئة الجديدة.

ولئن كان ذلك حدث، وكما يحدث، فإنما علاجه بالماء، ولأن الحمية نار، ولا يطفئها إلا الماء ولقوله صلى الله عليه وسلم: الحمى من فيح جهنم، فابردوها بالماء[٢].

(١) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ١٥٥٢٥. خلاصة حكم المحدث: إسناده ضعيف.
(٢) صحيح مسلم: ٢٢١٠

ولأمره لهم يوم خيبر أن يجروا على أنفسهم الماء فجرا، وهذا توقيت نبوي كريم! وبعد أن ينالوا بركة التسمية، ولأن كل عمل يبدأ فيه بالبسملة فإنه عمل مبارك.

ودلك على هذا أنه لما قدم النبي ﷺ خيبر، قدم والثمرة خضرة. قال: فأسرع الناس إليها فحموا، فشكوا ذلك إليه، فأمرهم أن يقرسوا الماء في الشنان ثم يجرونه عليهم إذا أتى الفجر، ويذكرون اسم الله عليه، ففعلوا ذلك فكأنما نشطوا من عقل.

* * *

الإسلام دين سمح هين لين مرن، ليس جامدا، وليس صعبا، وإنما يدور مع المصلحة حيث دارت! وإنما يأخذ بتلابيب أتباعه؛ كيما يكونوا بدور الناس وأقمارهم في لياليهم المظلمة الحالكة، وإنما يغض طرفا عما لا يخرم مروءة، أو يمس صلب عقيدة، وإذ يراعي طبائع النفوس، وما ملاحتها! وإنما يسد رمقها، وما استشرافها! وحين كان حازما عند حدود الله!

وهذا رجل طمع في بعض شحم من شحم يهود يوم خيبر، ولأنه تاقت إليه نفسه! وليقطع عليه طريقه خازن المغانم يومها! وألا يأخذه، فهذا حق الجماعة المسلمة كلها! ولا يستأثرن أحد، ولو بقليل شحم!! وبينما هما يتجاذبان أطراف حديثهما، وإذ كان يرمقهما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وخشية امتداد أثر الحديث، فخلى بينهما، وأمر خازن المغانم أن يأذن! لا سيما وأنه سيشرك معه الجماعة المسلمة في إطعامه، ولن يستأثر به. وهذا الذي حدث، ونترك صاحب الحدث ليقصص علينا حكايته، ويقصص علينا روايته!

فعن عبد الله بن مغفل المزني قال: أصبت من فيء خيبر جراب شحم، قال: فاحتملته على عنقي إلى رحلي وأصحابي، قال: فلقيني صاحب المغانم الذي جعل عليها فأخذ بناحيته، وقال: هلم حتى تقسمه بين المسلمين، قال: وقلت: لا والله لا أعطيكه، قال: وجعل يجاذبني الجراب.

قال: فرآنا رسول الله ﷺ ونحن نصنع ذلك، فتبسم ضاحكا، ثم قال لصاحب المغانم خل بينه وبينه، قال: فأرسله فانطلقت به إلى رحلي وأصحابي فأكلناه[١].

ودار خلاف بين أهل العلم بخصوص حل أو تحريم شحوم أهل الكتاب، والجمهور على الإباحة لهذا الحديث، وخالفهم الإمام مالك رحمه الله تعالى؛ لاحتمال أن يكون هذا الشحم مما يحل أكله.

وكما أثار هذا الحديث حل أو حرمة الطعام من الغنائم، قبل أن تخمس أو تعضد.

فعن عبد الله بن أبي أوفى قال: قلت: هل كنتم تخمسون -يعني: الطعام- في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: أصبنا طعاما يوم خيبر، فكان الرجل يجيء فيأخذ منه مقدار ما يكفيه، ثم ينصرف[٢].

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣٦٩/٣

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٢٧٠٤

زواجه صلى الله عليه وسلم من صفية بنت حيي النضرية

بعض الناس لديهم مهارة عجيبة في تأويل الرؤى! ولربما جاءت كفلق الصبح! وهذا الذي حدث يوم خيبر، وحين رأت صفية بن حيي في منامها أن قمرا ألقي في حجرها! وحين قصت رؤياها على زوجها ابن عمها، ليلطمها على وجهها قائلا: أتريدين أن تكوني بعلا لملك العرب!

وهذه صفية كان قد اختصها صلى الله عليه وسلم يوم خيبر لنفسه، وحين طلبها منه أحدهم ليزوجه بدلا عنها اثنتين من بنات أعمامها، وليقاربها فيما لأجله راحت إلى صفية نفسه!!

وليجد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أثر لطمة على وجهها ولتخبره خبر رؤيتها وما كان من زوجها وحين لطمها!!

وهذه شهادة أخرى لنبينا صلى الله عليه وسلم. وأنه قمر يهتدي بنوره السائرون!

وكانت صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، أن قمرا وقع في حجرها، فعرضت رؤياها على زوجها فقال: ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمدا، فلطم وجهها لطمة خضر عينها منها. فأتي بها رسول الله ﷺ وبها أثر منه، فسألها «ما هذا؟» فأخبرته الخبر[1].

وعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا خيبر، فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس، فركب نبي الله صلى الله عليه وسلم وركب أبو طلحة،

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ /٢٢٤

وأنا رديف أبي طلحة، فأجرى نبي الله صلى الله عليه وسلم في زقاق خيبر، وإن ركبتي لتمس فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم، ثم حسر الإزار عن فخذه حتى إني أنظر إلى بياض فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم، فلما دخل القرية قال: الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم **{فساء صباح المنذرين}** [الصافات: ١٧٧] قالها ثلاثا، قال: وخرج القوم إلى أعمالهم، فقالوا: محمد، قال عبد العزيز: وقال بعض أصحابنا: والخميس - يعني الجيش - قال: فأصبناها عنوة، فجمع السبي، فجاء دحية الكلبي رضي الله عنه، فقال: يا نبي الله، أعطني جارية من السبي، قال: اذهب فخذ جارية، فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي، سيدة قريظة والنضير، لا تصلح إلا لك، قال: ادعوه بها فجاء بها، فلما نظر إليها النبي صلى الله عليه وسلم قال: خذ جارية من السبي غيرها، قال: فأعتقها النبي صلى الله عليه وسلم وتزوجها، فقال له ثابت: يا أبا حمزة، ما أصدقها؟ قال: نفسها، أعتقها وتزوجها، حتى إذا كان بالطريق، جهزتها له أم سليم، فأهدتها له من الليل، فأصبح النبي صلى الله عليه وسلم عروسا، فقال: من كان عنده شيء فليجئ به وبسط نطعا، فجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، قال: وأحسبه قد ذكر السويق، قال: فحاسوا حيسا، فكانت وليمة رسول الله ﷺ(١).

وهذه صفية الرقيقة وحين: بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي فبكت فدخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم وهي تبكي فقال: فما يبكيك؟ قالت: قالت لي حفصة أني ابنة يهودي فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وإنك لابنة نبي،

(١) صحيح البخاري: ٣٧١

وأن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك؟ ثم قال: اتقي الله يا حفصة[1].

بساطة دين، ويسر عقيدة

إن البساطة دين، وإن الكلفة مشقة. نأى عنها الدين، وما أوقع الناس في حرج إلا حين استبدلوا العسر باليسر، والكلفة بالسهولة. وإذ كان منه هذه البساطة المتناهية في وليمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم عرسه بصفية رضي الله تعالى عنها، وإذ كانت بعض سمن وتمر!!

وذلك ليس منافيا لوسع في ذلك، وحين كان قادرا، ولما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه: أن عبد الرحمن بن عوف جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه أثر صفرة، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار، قال: كم سقت إليها؟ قال: زنة نواة من ذهب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أولم ولو بشاة[2].

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٩٤). وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقال محمد المناوي في ((تخريج أحاديث المصابيح)) (٥/٣٢٣): سنده لا شك في صحته، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)).
(٢) صحيح البخاري: ٥١٥٣

وإن حجاب المرأة المسلمة أخذ مساحة في الحديث، لم يأخذها في القديم، ولاتضاح الرؤية فيه!

وغني عن البيان أنه ما أسمي الحجاب حجابا إلا من حجبه، وما أسمي سترا إلا من ستره. وإلا لكان مفرغا من معنى الحجاب ابتداء وانتهاء!

وحين وقفت على تفسير قوله تعالى: ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا﴾ [الإسراء:(٤٥)]. رأيتهم يقصدون بالحجاب الستر كاملا، وحين قرأ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم القرآن الحكيم، وإذ جاءت امرأة أبي لهب لتؤذيه فيحجبه الله تعالى عنها؛ فدل على هذا المعنى الكريم الحجاب. ولذا تكون المحاجة فيه مفرغة من معناها.

ودلك على ما أنف أنه: **أقام النبي صلى الله عليه وسلم بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبنى عليه بصفية، فدعوت المسلمين إلى وليمته، وما كان فيها من خبز ولا لحم، وما كان فيها إلا أن أمر بلالا بالأنطاع فبسطت، فألقى عليها التمر والأقط والسمن، فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه؟ قالوا: إن حجبها فهي إحدى أمهات المؤمنين، وإن لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه، فلما ارتحل وطأ لها خلفه ومد الحجاب**[١] .

وهكذا نفهم أن إلقاءه صلى الله عليه وسلم رداءه عليها برهان حجاب ساتر لبدنها وهذا هو المفهوم من رواية الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى.

(١) صحيح البخاري: ٤٢١٣

أنزعت منك الرحمة يا بلال حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟

وديننا دين رحمة ومراعاة مشاعر ودفء أحاسيس، ولا ينبغي النظر إليه إلا هكذا دينا ينشر رحمته ويبسط رأفته، وتصويره وتقديمه على غير ذلك فتنة وبلاء، حسن التوبة منها؛ ولأنه قلب لحقائق ثابتة، يذوق وبالها أمرها فاعله أو قائله.

ودلك عليه قول رسول الله ﷺ لبلال حين رأى بتلك يهودية تطيش وتحثو التراب حين مر بها وصفية بلال على قتلى خيبر: «أنزعت منك الرحمة يا بلال حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟»[1].

وذلك لما تحمله المرأة من ضعف طبعي وهلع فطري، حسن مراعاته أبدا، ومنه اضطلاع النساء على موتاهن وتحلقهن حولهم، مما يثير فيهن النوح واللطيمة ودعوى الجاهلية!

إيلام المتهم لاستنطاقه!

يجوز إيلام المتهم لانتزاع الاعتراف منه، وحين تحوم حوله ظنون قوية، وشبهات قوية أيضا، وبشهادة شهود، وبحيث لا يخرج بذلك عن نظام التكريم الرباني للإنسان، وعلى قدره أيضا، وبحيث لا يسار إلى اعتراف تحت إكراه! فيعاقب المتهم على غير جريرة ارتكبها، فيقع ظلم، وحين أردنا تحقيق عدل، وهذا عمل أجهزة البحث الجنائي.

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/٢٢٤

ودلك على صحة مذهبنا هذا قول الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى: وأتي رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله عنه فجحد أن يكون يعلم مكانه، فأتى رسول الله ﷺ رجل من اليهود، فقال لرسول الله ﷺ: إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة فقال رسول الله ﷺ لكنانة: «أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك؟». قال: نعم. فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقي، فأبى أن يؤديه، فأمر به رسول الله ﷺ الزبير بن العوام، فقال: عذبه حتى تستأصل ما عنده. وكان الزبير يقدح بزنده في صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة[١].

ذكرت في بحث متقدم جواز إيلام المتهم، لإقراره بما نسب إليه، لوجود قرائن دالة على ذلك، وبشرط عدم التوسع في ذلك، أو إهدار كرامته، وبإشراف قضائي حسن السمعة، وشرط ألا يضرب في أماكن المقاتل كالوجه والفرج والبطن، وألا يفوت عضو عن عمله، وأن ذلك مقصور على من ثبت اتهامه، كما سبق ذكره، وبقرائن تقوي جانب اتهامه، وما تبقى من حرص الوصول إلى أدلة أخرى، قد تصب في صالح القضية، ومراعاة أهل الصلاح والمعروفين به، فلا يساوون بمن عرف عنهم التعدي على الحرمات والأموال والأديان والنفوس والعقول، والمعروف ذلك عند أهل العلم بالضرورات الخمس، فكما أنه يجب القيام عليها وحفظها، فإنه أيضا يجوز اتخاذ ما يلزم لردع من يتعدى عليها، بشروط سيقت سبقت.

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ /٢٢٤

ولئن كان حديث الاستدلال فيه كلام، وبخاصة مع وجود حديثه صلى الله عليه وسلم في حرمة الأموال والأعراض والأبشار، إلا أن هذا محمول على ما لا مصلحة فيه، أو تعد على شرطه، كما أنف، وإلا أن هذا هو خلاصة مذاهب أهل العلم في هذا الباب. والله تعالى أعلى وأعلم.

فعن أبي بكرة نفيع بن الحارث: **أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس فقال: ألا تدرون أي يوم هذا قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس بيوم النحر قلنا: بلى يا رسول الله، قال: أي بلد هذا، أليست بالبلدة الحرام قلنا: بلى يا رسول الله، قال: فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، وأبشاركم، عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت قلنا: نعم، قال: اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فإنه رب مبلغ يبلغه لمن هو أوعى له فكان كذلك، قال: لا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض فلما كان يوم حرق ابن الحضرمي، حين حرقه جارية بن قدامة، قال: أشرفوا على أبي بكرة، فقالوا: هذا أبو بكرة يراك، قال عبد الرحمن: فحدثتني أمي عن أبي بكرة، أنه قال: لو دخلوا علي ما بهشت بقصبة**[١].

وهذا فضلا عن رواية الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى، والتي قطع بصحتها، فعن عبدالله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم فغلب على الزرع والأرض والنخل فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله صلى الله عليه وسلم الصفراء والبيضاء واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يغيبوا شيئا فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا

---

(١) صحيح البخاري: ٧٠٧٨

عهد فغيبوا مسكا فيه مال وحلي لحيي بن أخطب كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعم حيي بن أخطب ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير قال أذهبته النفقات والحروب قال العهد قريب والمال أكثر من ذلك فدفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الزبير فمسه بعذاب وقد كان قبل ذلك دخل خربة فقال قد رأيت حييا يطوف في خربة ها هنا فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة فقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ابني أبي الحقيق وأحدهما زوج صفية بالنكث الذي نكثوا[١].

وهذه قرائن أيضا ثبتت بالوحي وحين قال نبينا صلى الله عليه وسلم ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير؟

قال: ويسوغ ضرب هذا النوع من المتهمين، كما أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - الزبير بتعذيب المتهم الذي غيب ماله حتى أقر به، في قصة ابن أبي الحقيق[٢].

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد العزيز بن عبد الله بكتاب قرأته: أن إذا وجد المتاع مع الرجل المتهم، فقال: ابتعته فلم ينفده فاشدده في السجن وثاقا، ولا تخليه بكلام أحد حتى يأتي أمر الله، فذكرت ذلك لعطاء، فأنكره[٣].

وهذه أيضا قرائن باعثة على إيقاع الحبس أو التهديد به.

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن القيم: ٨ . خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن القيم: ٧٥/١ .

(٣) المصنف، عبد الرزاق الصنعاني: ج ٢١٨/١٠

وعن أنس بن مالك **أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: فتكلم أبو بكر، فأعرض عنه، ثم تكلم عمر، فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة، فقال: إيانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا، قال: فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس، فانطلقوا حتى نزلوا بدرا، ووردت عليهم روايا قريش، وفيهم غلام أسود لبني الحجاج، فأخذوه، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن أبي سفيان، وأصحابه، فيقول: ما لي علم بأبي سفيان، ولكن هذا أبو جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف، فإذا قال ذلك ضربوه، فقال: نعم، أنا أخبركم، هذا أبو سفيان، فإذا تركوه فسألوه، فقال ما لي بأبي سفيان علم، ولكن هذا أبو جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف، في الناس، فإذا قال هذا أيضا ضربوه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، فلما رأى ذلك انصرف، قال: والذي نفسي بيده، لتضربوه إذا صدقكم، وتتركوه إذا كذبكم. قال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا مصرع فلان، قال: ويضع يده على الأرض هاهنا، هاهنا، قال: فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ**[1].

وليس يقال إن هذه كانت حالة حرب استثناء من قاعدة عدم الإيلام؛ ولأن النص لا يسند هذه الدعوى. وإنما القرائن الحالية هي التي تبعث على مثل ذلكم ضرب، وإذ نحن أمام حالة حرب يحيل العقل إقامتها دون أن يكون رؤوس الكفر على قيادتها ابتداء وانتهاء.

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٧٩

وعن علي بن أبي طالب: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير، والمقداد بن الأسود، قال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة، ومعها كتاب فخذوه منها، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا حاطب ما هذا؟، قال: يا رسول الله، لا تعجل علي إني كنت امرأ ملصقا في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفرا ولا ارتدادا، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد صدقكم، قال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال: إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، - قال سفيان: وأي إسناد هذا –[١].

وهذه قرائن ثابتة بالوحي، وإذ بها تبرر التهديد والوعيد، وما عدا القرائن فليس يبرر إثما، هو أو حبس أو إيلام.

"وذلك أن الناس في التهم ثلاثة أصناف:

---

(١) صحيح البخاري: ٣٠٠٧

الأول: صنف معروف عند الناس بالدين والورع وأنه ليس من أهل التهم. فهذا لا يحبس، ولا يضرب؛ بل ولا يستحلف في أحد قولي العلماء؛ بل يؤدب من يتهمه فيما ذكره كثير منهم.

والثاني: من يكون مجهول الحال لا يعرف ببر ولا فجور. فهذا يحبس حتى يكشف عن حاله. وقد قيل: يحبس شهرا. وقيل: يحبس بحسب اجتهاد ولي الأمر.

والأصل في ذلك ما روى أبو داود وغيره «أن النبي صلى الله عليه وسلم حبس في تهمة» وقد نص على ذلك الأئمة، وذلك أن هذه بمنزلة ما لو ادعى عليه مدع فإنه يحضر مجلس ولي الأمر الحاكم بينهما، وإن كان في ذلك تعويقه عن أشغاله، فكذلك تعويق هذا إلى أن يعلم أمره، ثم إذا سأل عنه ووجد بارا أطلق.

وإن وجد فاجرا كان من الصنف الثالث: وهو الفاجر الذي قد عرف منه السرقة قبل ذلك، أو عرف بأسباب السرقة: مثل أن يكون معروفا بالقمار. والفواحش التي لا تتأتى إلا بالمال، وليس له مال، ونحو ذلك فهذا لوث في التهمة؛ ولهذا قالت طائفة من العلماء إن مثل هذا يمتحن بالضرب يضربه الوالي والقاضي- كما قال أشهب صاحب مالك وغيره- حتى يقر بالمال. [١].

و"تعذيب المتهم لا بأس به إذا صار متهما، فالنبي ﷺ أمر بعم حيي بن أخطب أن يعذب حتى يقر بالكنز الذي خلفه حيي من الذهب، لما قال: "أكلته

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية:١٩/١١٥

النفقة يا رسول الله!" قال: لا، المدة قصيرة والمال كثير، وأمر الزبير أن يمسه بعذاب حتى يقر"[١].

يحسن استثمار عيون من داخل صفوف الخصـــم. ولأنهم يعرفون من داخلهم ما لا يمكن الاطلاع به، أو يصعب ذلك، أو يكلف كثير مال وجهد، وإذ كان استمالة آحادهم ولو بتضحية أعظم وفرة مالا ووقتا وجهدا وكلفة، وما سوف ما يحصل عليه من أمثال هؤلاء أضعاف مضاعفة مما سيأخذون، وهذا عمل جهاز الاستخبارات، وحين يحسن استمالة آحاد أفراد الخصم، ولأنهم وبلا شك موجودون، ما بين معارض ومناهض ومكلوم ومظلوم، وهؤلاء جميعا يمثلون خنجرا في ظهور أقوامهم، وحين يحسن استمالتهم لصالح قضيتنا.

كما وأنه يفاد من عمل الخصم كثيرا مفيدا، والتاريخ حقل تجارب غني للإفادة منه، وبحيث بكون مغنما، ومن نوع آخر، وحين ما تحصل على أفكار الخصم وأعماله، التي يتحصن بها، ويطيل أمد المعركة، مما يفوت فرصا، ومما يكبد كثير كلفة على صعد كثيرة.

وكان من ذلك استثمار الأرض في أعمال الحروب، كخزائن تموين، ودروع وقاية وتخف، ومستودعات عتاد، وخنادق للمقاتلين، وما سواه مما تفرضه قواعد الاشتباك والترصد والتخفي وما سواه أيضا، ولأن اتخاذ الأرض مسرحا للتمويه على الخصم يجعله يدور حول نفسه، وحين لم يجد بصيص حيلة أمام هكذا إبداع!

---

(١) فتاوى ابن باز، الجنايات والحدود:١٦/

ودل على صحة قولنا هذا أنه لما حاصر رسول الله ﷺ يهود خيبر ثلاثة أيام، فجاء رجل من اليهود يقال له: غزال، فقال: يا أبا القاسم، تؤمنني على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاة، وتخرج إلى أهل الشق فإن أهل الشق قد هلكوا رعبا منك؟

قال: فأمنه رسول الله على أهله وماله، فقال له اليهودي: إنك لو أقمت شهرا تحاصرهم ما بالوا لك، إن لهم تحت الأرض دبولا يخرجون بالليل فيشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم! [١].

علم نبوة ضاف: تطالعنا بركات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كل حين. وتطربنا أعلام نبوته كل وقت، وما بين فيئة وأخرى، فيزداد يقيننا، ويتأكد إيماننا، ومن طالعه مثلنا أو أشد وأكثر نبلا، وحين استعصى حصن من حصون يهود يوم خيبر، ليقذفه صلى الله عليه وسلم بكف من حصى فيرميه به ليرجف أمام جنده! وهذا عمل جهاز التوجيه المعنوي للقوات المسلحة. ليأتي بخوارق كل فينة، وعلى حين فجأة، ليعمل عمله في المقاتلين شجاعة وبأسا وتحملا.

ودلك على قولنا هذا أن يهود تمنعت يوم خيبر حتى صاروا إلى حصن البزاة بالشق، وتمنعوا أشد الامتناع. فزحف إليهم رسول الله ﷺ وأصحابه، فتراموا، ورمى معهم رسول الله ﷺ بيده الكريمة، حتى أصاب نبلهم بنانه عليه الصلاة والسلام، فأخذ عليه السلام كفا من الحصا، فرمى حصنهم بها، فرجف بهم، حتى ساخ في الأرض، وأخذهم المسلمون أخذا باليد![٢].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ٢٢٥

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٢٢٦/٤

ليس كل سلاح يعمل في القوات المسلحة. وإنما لكل سلاح دوره المنوط به، ولما يحن وقته. وهذا فن عسكري تدركه جيدا مراكز القيادة والسيطرة العملياتية، وبناء على ما يرد إليها من تقارير وقتية لا تتأخر، ليصدر القرار بالتعامل مع كل وضع جديد تمليه ساحات القتال ومسارح العمليات، وبحيث يكون قرارها سريعا للتعامل مع كل حدث طارئ، واليوم توجد وسائل تمكن مراكز القيادة والسيطرة من المتابعة اللحظية الحية لمسرح العمليات، لإدارة المعركة على أحسن وجه ممكن، ولتقدير الموقف لحظة لحظة.

ودلك على قولنا هذا أنه لما تمنعت يهود وجعلوا لا يطلعون من حصونهم حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب المنجنيق عليهم.

فلما أيقنوا بالهلكة، وقد حصرهم رسول الله ﷺ أربعة عشر يوما، نزل إليه ابن أبي الحقيق، فصالحه على حقن دمائهم، ويسيرهم ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من الأرض، والأموال، والصفراء، والبيضاء، والكراع، والحلقة، وعلى البز، إلا ما كان على ظهر إنسان - يعني لباسهم - فقال رسول الله ﷺ: وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله، إن كتمتم شيئا، فصالحوه على ذلك. ولهذا لما كتموا، وكذبوا، وأخفوا ذلك المسك الذي كان فيه أموال جزيلة تبين أنه لا عهد لهم، فقتل ابني أبي الحقيق وطائفة من أهله، بسبب نقض العهود منهم والمواثيق.

فعن عبدالله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قاتل أهل خيبر فغلب على النخل والأرض وألجأهم إلى قصرهم فصالحوه على أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الصفراء والبيضاء والحلقة الدروع وقد يراد بها السلاح مطلقا ولهم

ما حملت ركابهم على أن لا يكتموا ولا يغيبوا شيئا فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد فغيبوا مسكا لحيي بن أخطب وقد كان قتل قبل خيبر كان احتمله معه يوم بني النضير حين أجليت النضير فيه حليهم قال فقال النبي صلى الله عليه وسلم لسعية أين مسك حيي بن أخطب قال أذهبته الحروب والنفقات فوجدوا المسك فقتل ابن الحقيق وسبى نساءهم وذراريهم وأراد أن يجليهم فقالوا يا محمد دعنا نعمل في هذه الأرض ولنا الشطر ما بدا لك ولكم الشطر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي كل امرأة من نسائه ثمانين وسقا من تمر وعشرين وسقا من شعير[١].

ليس كل آحادنا يعرف كل شـــيء: ولكل فن أهله، ويجب إيكال الأمور لمن يحسنها، وبهذا يعود الخير على الجميع، وحين يتفق على جعل مقسوم معلوم في هذا العقد، وليعرف كل طرف التزاماته وحقوقه تماما، وهذا الذي حدث يوم خيبر، وحين عرضت يهود على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن تقوم هي على الأرض زراعة، ولأنهم أعرف بتربتهم من نبينا صلى الله عليه وسلم ومن معه، فصالحهم على ذلك، وإن لهم النصف.

وإذ كلف نبينا صلى الله عليه وسلم عبدالله بن رواحة بالقيام على هذا العقد ومعالجته، واذ تفاجئه يهود بعرض الرشوة الدنيء، في محاولة لشراء ذمته! وليصهل في وجوههم، وكأنه فارس ميدان مسعر حرب!

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٠٠٦

وهـذا برهـان أمانـة الموظـف العـام وطهارتـه وعـزة نفسـه وقـوة شـكيمته وعفته وعدله، وحين أبى، ولكنه طمأن يهود أن بغضه لهم لا يحرك فيه تجاههم إلا العدل، ولأنه لا يعرف الظلم له ثقبا!!

ودلك على قولنا هـذا أن يهـود قـالوا: يـا محمـد دعنـا نكـون في هـذه الأرض نصلحها، ونقوم عليها، ولم يكن رسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل، وشيء ما بدا لرسول الله ﷺ. وكان عبد الله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرصها عليهم، ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله شدة خرصه، وأرادوا أن يرشوه، فقال: يا أعداء الله تطعموني السحت، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي، ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض[1].

* * *

كان عقد الصلح والذي أبرمه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع يهود خيبر مشروطا. إذا شاء أمضاه وإذا شاء ألغاه. ومنه جازت الشروط في العقود، إلا شرطا أحل حراما وإلا شرطا حرم حلالا. وهذا أيضا كاشف عن معرفته صلى الله عليه وسلم بيهود وخشيته من مثل ذلكم صنف، لا يرعى

(١) تاريخ الإسلام، الذهبي: ج٢ /٤٢٤

ميثاقا، ولا يحفظ عهدا، ولا يوثق عقدا، ولأنه تعالى قال فيهم: ﴿ **أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون** ﴾ [البقرة:(١٠٠)].

هذا، وسبق أن بينا أن العقود عموما قائمة على جلب المصالح وتكميلها، وكذا على درء المفاسد وتقليلها، وهذا أصل شرعي حاكم، والدوران في فلكه دين وشرع أيضا.

ودلك على صحة مذهبنا في ذلك أنه صلى الله عليه وسلم أبرم عهده معهم، فأعطاهم خيبر، على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل، وشيء ما بدا لرسول الله ﷺ.

والشاهد قوله: ما بدا لرسول الله ﷺ.

وكذا ما رواه أبو داود من حديث محمد بن إسحاق: حدثني نافع، عن عبد الله بن عمر، أن عمر قال: أن عمر قال: أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم إذا شئنا، فمن كان له مال فليلحق به؛ فإني مخرج يهود، فأخرجهم[(١)].

فتح الله تعالى خيبر يهود على يدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وذلك لنقضهم ميثاقهم. وخمس الغنائم ووزع الأربعة الأخماس على المقاتلين، للراجل سهم وللفارس سهمان سهم له وسهم لفرسه.

(١) تخريج سنن أبي داود، شعيب الأرناؤوط: ٣٠٠٧. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

فعن سهل بن أبي حثمة، قال: قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر نصفين نصفا لنوائبه وحاجته ونصفا بين المسلمين قسمها بينهم على ثمانية عشر سهما[١].

وقد احتج بهذا الإمام مالك رحمه الله، ومن تابعه، على أن الإمام مخير في الأراضي المغنومة، إن شاء قسمها، وإن شاء رصدها لمصالح المسلمين، وإن شاء قسم بعضها وأرصد بعضها، لما ينوبه في الحاجات والمصالح[٢].

وللتمر قيمة عند الناس، ولاسيما بلاد العرب، وقد غنم المسلمون نخلا وفيرا يوم خيبر، حتى قالت عائشة أم المؤمنين: لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر[٣].

عن سهل بن أبي حثمة: أنه سمع نفرا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا، فذكر هذا الحديث: أي حديث: قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر نصفين: نصفا لنوائبه وحاجته، ونصفا بين المسلمين، قسمها بينهم على ثمانية عشر سهما، قال: فكان النصف سهام المسلمين وسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعزل النصف للمسلمين لما ينوبه من الأمور والنوائب[٤].

عن بشير بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أفاء الله عليه خيبر، قسمها ستة وثلاثين سهما، جمع فعزل للمسلمين الشطر ثمانية عشر سهما، يجمع كل سهم مائة، النبي صلى الله عليه وسلم معهم له سهم، كَسَهْمِ

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٠١٠
(٢) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣ / ٣٨١
(٣) فتح الباري، ابن حجر: ج ٩ / ٤٦١
(٤) سنن أبي داود، شعيب الأرناؤوط: ٣٠١١. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

أحدهم، وعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثمانية عشر سهما، وهو الشطر لنوائبه، وما ينزل به من أمر المسلمين، فكان ذلك الوطيح، والكتيبة، والسلالم وتوابعها، فلما صارت الأموال بيد النبي صلى الله عليه وسلم، والمسلمين لم يكن لهم عمال يكفونهم عملها، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود فعاملهم(١).

تحريم الربا

ومن فقه يوم خيبر، ما جاء عن أبي هريرة **أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا على خيبر، فجاءه بتمر جنيب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أكل تمر خيبر هكذا؟ قال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تفعل، بع الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبا**(٢).

وهذا درءًا للربا، والذي كان دينا ولايزال ليهود وقوم آخرين، فأراد نبينا صلى الله عليه وسلم أن يباع هذا بثمنه، ثم يشترى هذا بثمنه، وعلى سعر السوق، وهذا هو المنهج الأقوم، وهو الطريق الأسلم.

وجاء عامل خيبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتمر كثير جيد فقال له: أكل تمر خيبر هكذا؟ قال: لا وإنما نرد الرديء ونأخذ بالصاعين منه صاعا جيدا،

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٠١٤. خلاصة حكم المحدث: صحيح [لغيره].
(٢) صحيح البخاري: ٢٢٠١

فنهاه صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأعلمه أنه ربا، ثم علمه الحيلة فيه، وهي أنه يبيع الرديء بدراهم ويشتري بها الجيد[١].

وكان سهم النبي ﷺ الذي أصاب مع المسلمين، مما قسم بخيبر وفدك بكمالها، وهي طائفة كبيرة من أرض خيبر، نزلوا من شدة رعبهم منه صلوات الله وسلامه عليه، فصالحوه وأموال بني النضير المتقدم ذكرها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت هذه الأموال لرسول الله ﷺ خاصة[٢].

وكان يعزل منها نفقة أهله لسنة، ثم يجعل ما بقي مجعل مال الله، يصرفه في الكراع، والسلاح، ومصالح المسلمين، فلما مات صلوات الله وسلامه عليه اعتقدت فاطمة وأزواج النبي ﷺ - أو أكثرهن - أن هذه الأراضي تكون موروثة عنه، ولم يبلغهم ما ثبت عنه من قوله ﷺ: «نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة»[٣].

وإذ طالبت فاطمة الزهراء من الصديق توزيع ما رأته تركة، أو على الأقل يوزع كما كان والدها صلى الله عليه وسلم يفعل، فأبى رضي الله تعالى عنه، وماتت فاطمة بعدها بستة أشهر، حتى غلب الناس عمر، أن يوزعها كما كان يفعل نبينا صلى الله عليه وسلم، ففعل تحت ضغط الناس وكثرة مشاغله، وظلت هكذا إلى يوم بني العباس.

---

(١) الزواجر، الهيتمي المكي:٢٢٩/١. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ /٢٣١

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ /٢٣١

﴿ لن تنالوا البر حتىٰ تنفقوا مما تحبون ﴾ [آل عمران:٩٢].

وعن عبدالله بن عمر أن عمر بن الخطاب أصاب أرضا بخيبر، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضا بخيبر لم أصب مالا قط أنفس عندي منه، فما تأمر به؟ قال: إن شئت حبست أصلها، وتصدقت بها قال: فتصدق بها عمر، أنه لا يباع ولا يوهب ولا يورث، وتصدق بها في الفقراء، وفي القربى وفي الرقاب، وفي سبيل الله، وابن السبيل، والضيف لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، ويطعم غير متمول قال: فحدثت به ابن سيرين، فقال: غير متأثل مالا[١].

وهذا تصرف يقطر منه عبق الإيثار، وهذا إيثار يحكي للتاريخ عن نفسه، مائدة يتحلق حولها الباذلون، وليعرف الناس كيف كان هذا الجيل! ولما كانت هكذا الدنيا في عقدهم ونظرهم، ولما هانت عليهم أقبلت إليهم!!

الإسلام دين طيب طاهر جابر للخواطر الكواسر!

وهذا الذي حدث يوم خيبر، وحين راحت نسوة ضعاف يعرضن المشاركة في سقيا المجاهدين، ومداواة جرحى القتال، وبما استطعن. وكذلك موالي يعرضون المشاركة في خيبر، وعلى وسع كل منهم.

---

(١) صحيح البخاري: ٢٧٣٧

ونبينا صلى الله عليه وسلم يوافق هؤلاء وهؤلاء. وهذا برهان فتح المجال أمام طوائف الأمة أجمعها، أن تشارك عملها الأعظم، ولا أعظم من مقاتلة عدو الله وعدوها.

بيد أن ما يلفت نظرا، ويحرك ساكنا، هذه الصغيرة التي لم تكن قد بلغت بعد! ومن ذا الذي علمها هذا الهم العظيم بأمور دين تحمله، حملها أن تذهب وتجاهد وتداوي وتسقي! وهي إذ كانت من عداد من يلعبن في الطين!!

وهذا الذي ينبغي على الأمم أن تنشئ أجيالا، هكذا عوالي الهمم، يسامقون القمم، وبحيث يكون همهم هذا الدين، رفعة ونشرا وجهادا وقتالا وبذلا وتضحية وفداء وافتداء، وحين يعلم عدوها أن هكذا اهتمام رعيته، لحسب لهم حسابا، ولا أمن منهم عقابا.

ولأنهم جميعا حوائط صد ومنع، فيعلم حينها أنه وحين يواجه، فليس يواجه جيشا جرارا وحسب، بل يواجه أمة بأسرها، ولم يحك التاريخ أن أمة بأسرها خرجت إلا ورجعت منتصرة فائزة باهرة!

وهذه رسالة أخرى إلى المهتمين بشأن تنشئة الأجيال، أن ينشؤوهم على دين يحفظ للجميع القيمة والعزة والمنعة.

ولأن الغنائم والفيء للمقاتلين، ولم يكتب على النساء قتال، وحين شاركن بما يستطعن مداواة وسقيا، وكذا الموالي، فقد رضخ لهن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الغنائم، أي أعطاهن جعلا على رؤوس الغنائم قبل قسمتها وتوزيعها. وهذا الذي نحسبه كرما وعدلا.

بيد أن ضربا على وتر هذه الآثار، وأنها مستند لتجنيد النساء، وإقامة معسكرات تدريب لهن، فهذا الذي لا تقوم به حجة!

ولأنهن أتين أولا بلا استدعاء، وبلا إقامة معسكرات، قد تكون مظنة فتنة، أبعد ما يجب أن يكون البعد عنها هؤلاء الأشاوس المقاتلون، وحين لا نفت في عضدهم بأيدينا، وبدل أن يكونوا سلاحا فقد أصبحوا وبالا مفتونين!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، عن عمير مولى آبي اللحم، قال: شهدت مع سادتي خيبر، فأمر بي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلدت سيفا، فإذا أنا أجره، قال: فقيل له: إنه عبد مملوك، قال: فأمر لي بشيء من خرثي المتاع، قال: وعرضت عليه رقية كنت أرقي بها المجانين في الجاهلية، قال: اطرح منها كذا وكذا، وارق بما بقي، قال محمد بن زيد: وأدركته وهو يرقي بها المجانين[(١)] .

وعن امرأة من بني غفار: جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة من بني غفار فقلنا: يا رسول الله، قد أردنا أن نخرج معك في وجهك هذا إلى خيبر فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: على بركة الله، فخرجنا معه، وكنت جارية حدثة، فأردفني رسول الله حقيبة رحله، فنزل إلى الصبح ونزلت فإذا على الحقيبة دم مني وذلك أول حيضة حضتها فتقبضت إلى الناقة واستحييت، فلما رأى رسول الله ما بي، ورأى بي الدم قال: لعلك نفست؟ قلت: نعم. قال: فأصلحي من نفسك وخذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحا فاغسلي ما أصاب الحقيبة واغتسلي ثم عودي لمركبك فكانت

---

(١) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ٢١٩٤١. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

لا تطهر من حيضتها إلا جعلت في طهرها ملحا، وأوصت به أن يجعل في غسلها حين ماتت[1].

وفيه من فقه الطهارة معالجة الماء بالملح، وهو أمعن في الطهارة، ولما يعمله كلوريد الصوديوم من ذلك، وثبوت عمل الملح في قتل الجراثيم والبكتيريا.

وفيه جواز استخدام من لم يبلغ أو لم تبلغ وعلى قدرهما.

وفيه رحمة الإسلام، وحين كلف النساء والموالي بما يطيقون.

وفيه دفع جعل من الغنائم، ولمن عمل. تشجيعا وحقا وعدلا.

* * *

إن حزم القائد كحلمه سواء بسواء، وبينهما خيط رفيع، وحين سلك كل منهما في وقته، وعلى قدره.

وهما صفتا القيادة الأوليان. وحين تحلي القائد بهما معا، فيفرز منهما جيل قد تربى وأربع وربى! وحين ألفى قائدا حليما، وسيحلم مثله، وحين قابل قائدا حازما، فسيكون حازما مثله، ولأن الناس على دين ملوكهم، ويغلب على الناس اهتمامات ملوكهم، وهذا شأن هام في تنشئة الأمم، وقد شهد التاريخ بصحته.

قالوا كانت همة الوليد في البناء، وكان الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل، فيقول: ماذا بنيت؟ ماذا عمرت ؟. وكانت همة أخيه سليمان في النساء، وكان

---

(١) المهذب، الذهبي: ٨٣٢/٢ . خلاصة حكم المحدث: بهذا إلا أنه لم يذكر فيه: واغتسلي. وفيه سليمان قيل: ما لقي أمية ، فيكون الخبر منقطعا ، ثم من أمية؟!

الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل، فيقول: كم تزوجت؟ ماذا عندك من السراري ؟. وكانت همة عمر بن عبد العزيز في قراءة القرآن، وفي الصلاة والعبادة، وكان الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل، فيقول: كم وردك؟ كم تقرأ كل يوم؟ ماذا صليت البارحة؟ والناس يقولون: الناس على دين مليكهم...)[١] .

وكما أن معالجة النفساء بالتمر المنقوع بالماء هدي نبوي. وكما كان من هديه صلى الله عليه وسلم للحائض باستعمال محلول الملح والماء.

وكما أنه صلى الله عليه وسلم كان تعجبه من خروج حوالي ست نسوة! وليس جيشا جرارا. وهذا الذي نقول إنه الهدي.

بيد أن سياق رواية الإمام أحمد رحمه الله تعالى تحتمل أنه أسهم للنساء كما أسهم للرجال.

ودلك على صحة مذهبنا لما سبق أنه: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، ثنا رافع بن سلمة الأشجعي، حدثني حشرج بن زياد، عن جدته أم أبيه، قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة خيبر، وأنا سادسة ست نسوة، قالت: فبلغ النبي ﷺ أن معه نساء. قالت: فأرسل إلينا فدعانا، قالت: فرأينا في وجهه الغضب، فقال: «ما أخرجكن وبأمر من خرجتن؟». قلنا: خرجنا نناول السهام، ونسقي السويق، ومعنا دواء للجرحى، ونغزل الشعر، فنعين به في سبيل الله. قال: «فمرن فانصرفن» قالت: فلما فتح الله عليه خيبر أخرج لنا سهاما كسهام الرجال، فقلت لها: يا جدة وما الذي أخرج لكن؟ قالت: تمرا [٢].

---

(١) البداية والنهاية،١٨٦/٩

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٢٣٣/٤

وعن أم زياد الأشجعية جدة حشرج بن زياد إنها خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر سادس ست نسوة، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعث إلينا فجئنا فرأينا فيه الغضب، فقال: مع من خرجتن؟ وبإذن من خرجتن؟ فقلنا: يا رسول الله! خرجنا نغزل الشعر، نعين به في سبيل الله، ومعنا دواء للجرحى، ونناول السهام، ونسقي السويق، فقال: أقمن، حتى إذا فتح الله عليه خيبر أسهم لنا كما أسهم للرجال، قال: فقلت لها: يا جدة! وما كان ذلك؟ قالت: تمرا[١].

وعن عبد الله بن أنيس، قال: خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر ومعي زوجتي وهي حبلى فنفست في الطريق، فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: « انقع لها تمرا فإذا انغمر بله، فأمر به لتشربه » ففعلت فما رأت شيئا تكرهه، فلما فتحنا خيبر أحذى النساء، ولم يسهم لهن فأجدى زوجتي ومولودي الذي ولد. قال عبد السلام: لست أدري أغلام أم جارية[٢]. وأجدى أي: جعل له نصيبا وحظا.

تبعة الإسلام!

كان بين هجرة الحبشة الأولى ومرجعهم منها اثنتا عشرة سنة!

وحيث كانت الهجرة إلى الحبشة في العام الخامس للبعثة، وكان فتح خيبر في العام السابع الهجرة، وهو تاريخ مرجعهم رضي الله تعالى عنهم!

(١) السنن الكبرى للبيهقي:٦/٣٣٣. حكم المحدث:[الإسهام لهن بخيبر] منقطع لا تقوم به حجة.
(٢) دلائل النبوة للبيهقي: (٤/٣٣٦)

وهذا برهان كم لهذا الدين من تبعة! وحين يهاجر قوم الى أرض قوم آخرين، مختلفين في كل شيء دينا وبيئة ومناخا وطقسا وعادات وتقاليد؛ وكيما نعلم أنها لم تكن فسحة! وبقدر ما بلغ هذا الدين مبلغه فيهم، حتى هان عليهم أمر هجرتهم، وكفاهم أنها كانت لله!

وفي سياق حديث بين أسماء بنت عميس وعمر الفاروق ما يبين منه وكم كانت الهجرة قاسية! وحين أسمتها أسماء بدار البعداء البغضاء! وهذا ولأن الغربة كربة، وإن أكل الغرباء في أطباق من ذهب! ناهيك عما سبق ذكره وأنها كانت خروجا من هجمة كفر شرسة على أولاء الصحب الكرام! وكم كان صعبا أن يفارق امرؤ وطنا ترعرع فيه إلى دار مقام ليست بينهما نقاط التقاء!

وهذا الذي نفيده من تلقيب عمر الفاروق لهم، وكما قال لأسماء: الحبشية البحرية! في خلع كل صفة كانت لها من موطن مولدها! وحين قالت: نعم! في إقرار لما قال ووفاق لما لقب!

بيد أنه تعالى ليس يضيع عنده عمل كان له! وحين كتب لأولاء هجرتين، ولعمر الفاروق ومن معه هجرة واحدة! ولحيثيات ذكرتها أسماء خلدها التاريخ، ولأنها معائن صدق، بل هي الصدق، يحكي تجربته فيهم! وحين حاجت عمر الفاروق، وأنهم كانوا:

١- مع رسول صلى الله عليه وسلم.

٢- يطعم جائعهم.

٣- ويعظ جاهلهم.

وذلك مقابلة أنهم كانوا في أرض البعداء والبغضاء! وفي هكذا تعبير تئن منه الخلجات، ويشعر بحرارة النبضات، ويثير الحركات والسكنات الموجعات!

بيد أن ما يهون من وقعها أنها كانت هجرة لرب الأرضين والسماوات!

ودلك على صدق المشاعر وحرارة التجربة الشعورية ما نبض به حديث أسماء، كما قال البخاري: حدثنا محمد بن العلاء، ثنا أبو أسامة، ثنا يزيد بن عبد الله بن أبي بردة، عن أبي بردة، عن أبي موسى، قال: - بلغنا مخرج النبي صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم، أحدهما أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال: بضع، وإما قال: في ثلاثة وخمسين، أو اثنين وخمسين رجلا من قومي، فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا، فوافقنا النبي صلى الله عليه وسلم حين افتتح خيبر، وكان أناس من الناس يقولون لنا، يعني لأهل السفينة: سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عميس، وهي ممن قدم معنا، على حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة، وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشية هذه البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم، فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار - أو في أرض - البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله صلى الله عليه وسلم، وايم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا، حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه

وسلم، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ، ولا أزيد عليه. فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم قالت: يا نبي الله إن عمر قال: كذا وكذا؟ قال: فما قلت له؟ قالت: قلت له: كذا وكذا، قال: ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم - أهل السفينة - هجرتان، قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني أرسالا، يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم، قال أبو بردة: قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني[١].

﴿ وأوحي إلي هذا القرءان لأنذركم به ومن بلغ ﴾![الأنعام:١٩].

عن أبي موسى الأشعري أن نبينا صلى الله عليه وسلم قال: إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار، ومنهم حكيم: إذا لقي الخيل -أو قال: العدو- قال لهم: إن أصحابي يأمرونكم أن تنظروهم[٢].

هذا فعل القرآن بأولاء قوم قرآنيين! ولسنا نجد لهم وصفا غير هذا! فحين يهيم ليل كانت أصواتهم بالقرآن الحكيم دالة عليهم! وحين يدخلون منزلهم كان تغنيهم بالقرآن الحكيم برهانا عليهم! وما ظننا بأمثال أولاء القمم؟! وما قولنا في هكذا عوالي الهمم؟!! وإذ كان الذكر الحكيم شاهدا لهم في الدنيا، وإن شاء الله

(١) صحيح البخاري:٤٢٣٠
(٢) صحيح البخاري: ٤٢٣٢

تعالى يكون شاهدا لهم في الاخرة، عند غفور رحيم جواد كريم لطيف خبير عفو حليم!

هذا هو القرآن الحكيم، وهذا هو فعله فيمن اتخذه صاحبا، فكان ترنيمته، وحين ذاق حلاوته، وأخذت لبه عليه طلاوته، واستحضار بيان بلاغته، وحسن عبارته، وإعجازه وتحديه وعبره وعظاته، وخبره وإنشائه، وأمره ونهيه، وحلاله وحرامه، وقصصه وآلائه وآياته، وذكر الأولين، وليعتبر الآخرون! وكما قال تعالى﴿ وأوحى إلى هٰذا ٱلقرءان لأنذركم بهۦ ومنۢ بلغ ﴾![الأنعام:١٩].

وإذ كان إطراؤه صلى الله عليه وسلم أولا الأشعريين منقبة لهم، وشحذا لغيرهم، أن يكونوا مثلهم.

﴿ إن الله هو الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ [الذاريات: ٥٨].

الإسلام دين تكافلي. وهو نظرة رحمة، وصاحب نظرية عطاء، كانت مثالا للتطبيق كلها، وحين يرمق من بعيد قوما هاجروا في الله تعالى، يوم الحبشة، وحين ينظر من قريب قوما آخرين، حضروا يوم خيبر.

وليقسم لهؤلاء، كما قسم لهؤلاء، وليغني الله تعالى من فضله من يشاء من عباده.

ومن يدرينا ولعلهم جاؤوا من الحبشة يوم تقسيم غنائم خيبر؛ وليكون لهم من قسمتها نصيب! ويهدي الله لنوره من يشاء و﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضلهۦ والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ [النور: (٣٨)].

وهذا برهان أن العبد عليه فقط تحقيق عبوديته لله، وما عليه بعد ذلك!

وهذه كلية قمنة بالدراسة والتحليل والوقوف عليها مليا.

وما ذلك الرابط بين قوله تعالى ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [الذاريات:٥٦].وقوله تعالى ﴿ **ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ [الذاريات ٥٧-٥٨]. إلا وكيما يكون في حسبان الناس أنه: من عبد الله حق عبادته واتخذه وحده ربا واحدا في ربوبيته وأسمائه وصفاته وألوهيته، فلا يحملن هم رزقه لا في روحته، ولا في غدوته!!

ودلك على ما أنف أن الإمام البخاري رحمه الله تعالى قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، ثنا حفص بن غياث، ثنا يزيد بن عبد الله بن أبي بردة، عن أبي موسى، قال: قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن افتتح خيبر فقسم لنا، ولم يقسم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا [١].

الخزانة العامة الدولة حصن الأمة منيع: ولأن ما بها من أموال إنما هو ملك للأمة بأسرها فليس يجوز لأحد أن يتجرأ ولو على شملة منها! ومثلها في ذلك كل مال خاص أيضا، ولا يقرب أحد مما ليس له، إلا ناله وبال أمره، وعاش حياة السحت والتملق وعدم الرضا، وحرم القناعة، وذايله الغنى، وإن جمع كقارون! فتراه دائما ذا حاجة، وتحسبه أبدا ذا فقر مدقع، مكتوبا بين عينيه(فقير)! وإن لم يره رؤيا العين! لكن ذل المعصية لا يكاد إلا له ملازما، ولا يفارقه، وحين مات لم يمت شهيدا، وإن ضربه سهم، أو ناله نبل! وحين غل يده من حرام، ليس له

---

(١) صحيح البخاري: ٤٢٣٣

إن رشا أو غلولا، ما قل منه أو كثر، وهذا برهان عظم إثم الغلول، ولأنه تعد على الجماعة المسلمة كلها!

ودل على هذا قول أبي هريرة يوم خيبر: **خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر، فلم نغنم ذهبا ولا فضة، إلا الأموال والثياب والمتاع، فأهدى رجل من بني الضبيب، يقال له رفاعة بن زيد، لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلاما، يقال له مدعم، فوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وادي القرى، حتى إذا كان بوادي القرى، بينما مدعم يحط رحلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا سهم عائر فقتله، فقال الناس: هنيئا له الجنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا، والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم، لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارا فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك – أو شراكين – إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: شراك من نار – أو: شراكان من نار –** [١].

«والله ما أدري بأيهما أفرح، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟!

عن أبي جحيفة: قدم جعفر بن أبي طالب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أرض الحبشة، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين عينيه، وقال: ما أدري أنا بقدوم جعفر أسر أم بفتح خيبر؟ [٢].

---

(١) صحيح البخاري: ٦٧٠٧

(٢) تخريج زاد المعاد شعيب الأرناؤوط:٢/٤١٤. حكم المحدث: إسناده ضعيف.

هذا بيان لقيمة الفرد المسلم في جماعته المسلمة، وحين يكون لا عضوا مكملا عددا، بل عضوا سادا مسد أمة!

ولأن جعفرا عاد من الحبشة ضمن بضع وخمسين صحابيا، ففاقهم ذكرا، مع أن كل واحد منهم كانت له هجرتان، بنص حديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم خيبر! وهذا فضلا عن أنه رضي الله تعالى عنه كان جعفر الطيار، وذا الجناحين، عوضا عن يديه، وحين احتسبهما كلتيهما يوم مؤتة: وحين صلى عليه نبينا صلى الله عليه وسلم يوم استشهاده في مؤتة وقال: «استغفروا لأخيكم فإنه شهيد، وقد دخل الجنة وهو يطير في الجنة بجناحين من ياقوت حيث يشاء من الجنة»[١].

ولأنه كان زوجا لأسماء بنت عميس الحبشية البحرية! وحين أقسمت ألا تأكل أو تشرب حتى يحكم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بينها وبين عمر، ولأن جعفرا كان أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم خلقا وخلقا. ولأنه هاجر الهجرة الأولى، فظل بها اثني عشر عاما صحبة زوجة صابرة محتسبة هي أسماء بنت عميس.

ولئن كانت هذه هي قيمة الفرد المسلم الواحد في أمته، ولنعم أمة تقدر أفرادها حق قدرهم.

وفي حديث الباب إظهار الفرح والبشاشة لقدوم الغائب.

(١) السلسلة الضعيفة، الألباني: ٢٣٦٢

هل جعلتم في هذه الشاة سما؟

لا تفتأ معسكرات الباطل تنفث سمها أبدا. ولأنه لا يريحها أن يثبت حق في ركنه، ولا أن ينتشر عبيره ونسيمه في كونه- سبحانه-.

والمذهول منه هو مجيء الحق في صورته الخلابة لينشر سناه على العالمين كل العالمين. وليس يريد أهله إلا الإصلاح ما استطاع مسلم إلى ذلك سبيلا. وهم يريدون- وحسب- تقديم الخير للناس، على رغبة صادقة أن تحفهم ملائكة الرحمة جميعا!

ويبدو أن هذا السمو لم يصل شذاه إلى أسماعهم بعد! وهو إذ يكاد نسيمه ينشر نداه، وهو إذ يشرع هذا الندى أن يلطف أجواء حارة بباطل عتيد، عشش في أركانهم، ويكسو أرضا كادت تئن من كبر وصلف ممزوجين جهلا مركبا بحقائق هذا الدين، وحين جاء أول ما جاء لتعبيد الناس- كل الناس- لربهم الحق، وعلى هدي ونور وشرع وبرهان ودليل، لا خبط عشواء، يحسبونه هينا ﴿ وهو عند الله عظيم ﴾ [النور:١٥]!

وهذا الذي حدث بعد فتح خيبر، وحين جنت يهود للفتح المبين، وبدل أن يعدلوا من دفة مركبهم إلى الهدى ودين الحق، فتراها تكيد لنبينا صلى الله عليه وسلم، وبدعاوى باهتة، لا ترقى أن تصلح بساطا، لبحث أو محلا لنقاش!

فهم قد رأوا بأم أعينهم آيات الله تترى، وفيهم أنفسهم، وليس خبرا، بل معاينة!! لكن الباطل هكذا، يكاد يتملك امرأً؛ ليأتي عليه، وإذ قد كان يحسب أنه يحسن صنعا!!

فأولاء وبدل أن يخروا سجدا لله؛ أن فتح الله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خيبر، وكيما يهمهم الفضل والفتح المبين فيسلموا، وإذ تراهم يقابلون نفعا بضر، وخيرا بشر، وحين وضعوا السم في شاة قدموها لنبي الهدى والنور محمد صلى الله عليه وسلم! وإذ ما زالت تسيطر على أمخاخهم أكذوبة أن الله لن يطلع على ذلك تصرف!! وها هم أولاء ذووا عهد قريب بيوم إخوانهم في بني النضير، وحين أسعف الملك جبريل عليه السلام نبينا صلى الله عليه وسلم أن، قم من ههنا؛ فإن حجرا سيلقى عليك!!! وفي كل مرة يزعمون، وفي كل مرة لا يرعوون!!

وهذا الحق جاءهم ليخرجهم من النور إلى الظلمات لما جاءهم ما عرفوا كفروا به بل كانوا أول كافر به. وتلك جناية النفس على النفس!! أن تعلم حقا وتزايله!! وتدرك باطلا وتعالجه!!

ومثل ذلكم صنف لا تكاد تجد له حلا؛ ولأنه وضع على عيني رأسه غشاوة؛ كيما يزداد عيا، وإذ هذا هو الكتاب المسطور بين يديه، وإذ هذا هو الكتاب المنظور أمام عينيه، **﴿والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم ﴾** [النور:٤٦].

ودل على صحة قولنا ما قاله الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا عبد الله بن يوسف، ثنا الليث، حدثني سعيد، عن أبي هريرة قال: **لما فتحت خيبر أهديت للنبي صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اجمعوا إلي من كان هاهنا من يهود. فجمعوا له، فقال: إني سائلكم عن شيء؛ فهل أنتم صادقي عنه؟ فقالوا: نعم. قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم:**

من أبوكم؟ قالوا: فلان. فقال: كذبتم، بل أبوكم فلان. قالوا: صدقت. قال: فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيرا، ثم تخلفونا فيها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدا. ثم قال: هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: هل جعلتم في هذه الشاة سما؟ قالوا: نعم. قال: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذبا نستريح، وإن كنت نبيا لم يضرك[١] !

***

وإذ كان ولا يزال الباطل يستخدم المرأة اللطيفة الرقيقة الحانية كسلاح ناعم لينفث به سمه الناقع!

وهذا ظلم مركب يطال إثمه من فعله، ولا يسلم شريك من شركه، ولا ينجو قسيم من عقابه، وليس ههنا ما يمكن أن يكون محلا لحسن ظن!! وذلك لأن ألسنة لهبهم مشرعة كيما تحكم قبضتها على أولي النهى والخير والصلاح والرشاد! وبالتالي فقاعدة إحسان الظن غير متوافرة هنا!

ولأن المرأة مسكينة، فقد كانت هي ذلكم الموسي، الذي يحلقون به الفضائل، ويبثون من خلاله الرذائل!!

ودل على هذا صنع يهود، يوم فتحت حصونهم، يوم خيبر، وإذ وبدل أن يرشدوا، فزادوا في غيهم، وحين خيل لهم من زعمهم أن شاة مسمومة يقدمونها

(١) صحيح البخاري: ٣١٦٩

لنبينا صلى الله عليه وسلم، وعن طريق امرأة، وأن ذلك سوف لا يكشفه الله، أو سوف لا يظهره لنبيه مولاه!!

ودل على صدق الصنيع، ما رواه الإمام أبي داود رحمه الله تعالى عن عبدالرحمن بن عوف: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة زاد فأهدت له يهودية بخيبر شاة مصلية سمتها فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وأكل القوم فقال ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة فمات بشر بن البراء بن معرور الأنصاري فأرسل إلى اليهودية ما حملك على الذي صنعت قالت إن كنت نبيا لم يضرك الذي صنعت وإن كنت ملكا أرحت الناس منك فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلت ثم قال في وجعه الذي مات فيه مازلت أجد من الأكلة التي أكلت بخيبر فهذا أوان قطعت أبهري[١].

كان من الإعجاز ألا ينال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من امرأة قدمت شاة مسمومة بين يديه. وعلى أن هذه جريمة جنائية مستوفاة أركانها، وكان سيد ذلك اعترافها، وهذا هو القصد الجنائي، كركن من أركان جريمة القتل العمد! ولتوفر على مصلحة البحث الجنائي جهده ووقته!

بل كانت جريمتها ممهورة بسبق الإصرار والترصد، وهما ظرفان مشددان للعقوبة في القانون الجنائي!

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٤٥١٢

لكن الإعجاز تبدو ملامحه وحين نجيب عن سؤال: لم لم يؤاخذ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هذه المرأة والحال كذلك؟!

والجواب أنه:

١- هذا عفو تحلى به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ابتداء! ولأنه حق شرعي.

٢- قمة الإعجاز أن يتركها؛ لترى صنيعه تعالى بنبيه صلى الله عليه وسلم، وحين يطلعه على فعلها آية للعالمين!

وهذا فقه نبوي عال سامق!

وإذ ينظر إلى تحصيل المصالح وتكميلها وإذ ينظر إلى درء المفاسد وتقليلها. وإذ ينظر في الترجيح بين الأعلى والأدنى من ذلك. فإيقاع العقوبة بها مصلحة أقل مقابلة بما سوف يطلعه الله أمامها من خزيها!

٣- وكيما يترك لنا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إرثا طبيا وعلاجيا، وفي أخطر ما يمكن أن يصاب به المرء وهو السم! وإذ بحجامة تنجيه، وبفضل الله تعالى يعافيه، وإذ كلما شعر بوخز سمها احتجم، في بيان نبوي إلى أهمية الحجامة في الاستشفاء، وحين قال صلى الله عليه وسلم: **الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنهى أمتي عن الكي رفع الحديث ورواه القمي، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم: في العسل والحجم**[١].

(١) صحيح البخاري: ٥٦٨٠

ودلك على صدق صنيعنا ما رواه الإمام الحبر الترجمان عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أن امرأة من اليهود أهدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة مسمومة فأرسل إليها فقال ما حملك على ما صنعت قالت أحببت أو أردت إن كنت نبيا فإن الله عزوجل سيطلعك وإن لم تك نبيا أريح الناس منك قال وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجد من ذلك شيئا احتجم قال فسافر مرة فلما أحرم وجد من ذلك شيئا فاحتجم[(١)].

فوائد وعبر

يظل خبر الشاة المسمومة عمل الساعة. وذلك لأنه أفاد الدعوة في مواقف عدة:

١- تقوية جانب اليقين في الله تعالى. وحين أكل صلى الله عليه وسلم منها، وهو إذ لا زال حيا.

٢- تعظيم جوانب العفو عن الجناة، ولعلهم يتوبون أو يذكرون.

٣- تقديم جوانب الإعجاز في الحدث، وعلى مرمى ومسمع من الناس، ولعلهم يتذكرون فيفيؤون.

٤- فضل العلاج بالحجامة.

---

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ٢٩٨/٨. خلاصة حكم المحدث: رجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة. التخريج: أخرجه أحمد في ((المسند)) (٣٠٥/١)، وابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (٢٠٠/٢) باختلاف يسير.

٥- اختيار أماكن العلاج بالحجامة، وحسب كل مرض، ولأنه صلى الله عليه وسلم احتجم في كاهله، أي: ما بين عنقه وكتفه أعلى الظهر، وهذه مما يجب تعلمها من المتصدرين للحجامة.

٦- تقوية جوانب الإعجاز في المسائل، وليزداد الذين آمنوا إيمانا، وكما قال صلى الله عليه وسلم: «أخبرتني هذه التي في يدي» وهي الذراع.

٧- احتمال إسلام المجرم، وحين يجد الإعجاز بنفسه، ولما قال الزهري: فأسلمت فتركها النبي صلى الله عليه وسلم، قال معمر: وأما الناس فيقولون: قتلها النبي صلى الله عليه وسلم [١].

٨- احتمال قتلها؛ ولرواية الإمام أبي داود رحمه الله تعالى: فأمر رسول الله ﷺ فقتلت.

٩- ميل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى شرف الشهادة في سبيل الله تعالى؛ ولقوله صلى الله عليه وسلم: ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر عدادا، حتى كان هذا أوان انقطاع أبهري» فتوفي رسول الله ﷺ شهيدا.

وعن عائشة أم المؤمنين: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مرضه الذي مات فيه: يا عائشة، **ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم**[٢].

---

(١) المصنف، عبد الرزاق الصنعاني: ج ٢٩/١١

(٢) صحيح البخاري: ٤٤٢٨

١٠- نيل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم شرفي النبوة والشهادة، ختما بها لحياته صلى الله عليه وسلم، وبعد جهاد في الله تعالى حق جهاده، ولينال أجرهما معا.

صلوا على صاحبكم!

هكذا كان حزمه صلى الله عليه وسلم، وحين تتعدى حدود مولاه تعالى، وذلك تطبيق عملي لكونه صلى الله عليه وسلم أمين من في السماء، وأنه يبين من شأن عظم الأمانة، وحين فتشوا في متاع ذلكم الرجل، ليجدوا خرزا! لا يساوي درهمين! وهذا تأديب هذا الدين لهذه الأمة، ولأن من تضعف نفسه أمام درهم أو درهمين يمكن أن تنهار قواه وأمام أكثر من ذلك، ويوم أن يسكت على ذلكم الدرهم أو ذلكم الدرهمين!

وإذ كان فيه رسالة تأديبية لعموم المسلمين، وحين لم يصل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على صاحبهم! في هكذا إعراض ومن نبيهم صلى الله عليه وسلم، وهذا تقريع عظيم تكاد الأرض أن تنشق له، وتكاد السماوات والأرض يتفطرن منه. وإذ كان في خلد من فعله أنه هين، وإذ كان عند الله عظيما، برهان أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل عليه.

وهذا نظر الإسلام إلى المال العام! وإذ لو تضافرت جهود الناس متضامة متضامنة حول هذا المال العام، صيانة وحفظا وحرزا، لضاق الأفق من كثرة خيرات العباد، ولفاض مالهم العام من حوالهم فيضان سيول المطر! وحينها ربما

لم تجد فقيرا، وربما لم تجد مسكينا! وإذ يرفل الكل تحت أديم أمانة الإسلام الخالد، وحين ربى أجيالا تصون المال العام أكثر مما تصون به المال الخاص.

إنما أنا رحمة مهداة[١].

وإذ بلغت رحمة نبينا بمن غل!! وحين أمر الناس أن يصلوا على صاحبهم! في لفتة طيبة، تند وصفا، وتعود إلفا، إلا على هذا الدين، وحين لم ييأس أفراده من الرحمة، وحين لم يقنط أهله من المغفرة، والتماسا لفيوضات رحمة السماء وعفوها ومغفرتها ورضوانها.

بيد أننا لا ننسى أنه صلى الله عليه وسلم قال: صاحبكم، ولم يقل: صاحبها! هكذا في عبارة تجعل الأحياء يرعوون، وحين رأوا أنه يمكن لنبيهم صلى الله عليه وسلم ألا يصلي على أحد منهم، إذا مات يوم أن مات غالا، ولو بما لا يساوي درهمين!

ودلك على صحة ما أنف عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنه قال: توفي رجل يوم خيبر، وأنهم ذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم: " صلوا على صاحبكم ". فتغيرت وجوه الناس لذلك، فزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن صاحبكم قد غل في سبيل الله ". ففتحنا متاعه فوجدنا خرزات من خرز يهود ما تساوي درهمين[٢].

وانظر كيف كان يمكن استئذان نبينا صلى الله عليه وسلم، وله حينها أن يأذن أو يرفض، وذلك لأنه "أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة

(١) بداية السول، الألباني: ٧٣. خلاصة حكم المحدث: صحيح
(٢) السنن الكبرى، البيهقي: ج ٩ / ١٠١

فإذا فيها سيف فأخذته فأتيت به الرسول صلى الله عليه وسلم فقلت: نفلني هذا السيف فأنا من قد علمت حاله، فقال: رده من حيث أخذته؛ فانطلقت حتى إذا أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي فرجعت إليه فقلت: أعطنيه، قال فشد لي صوته: رده من حيث أخذته، قال: فأنزل الله – عز وجل - **يسألونك عن الأنفال** [الأنفال: ١] قال: ومرضت فأرسلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأتاني فقلت: دعني أقسم مالي حيث شئت قال: فأبى قلت: فالنصف قال: فأبى قلت: فالثلث قال: فسكت فكان بعد الثلث جائزا قال: وأتيت على نفر من الأنصار والمهاجرين فقالوا: تعال نطعمك ونسقيك خمرا وذلك قبل أن تحرم الخمر قال: فأتيتهم في حش والحش البستان فإذا رأس جزور مشوي عندهم وزق من خمر قال: فأكلت وشربت معهم قال: فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم فقلت: المهاجرون خير من الأنصار قال: فأخذ رجل أحد لحيي الرأس فضربني به فجرح بأنفي فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأنزل الله – عز وجل – في يعني نفسه شأن الخمر **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان"** [المائدة: ٩٠])) [١] .

تظن فئام الكفر أن الإسلام يمكن أن تضعف شـــكيمته: وإذ إنه دين يحمل مشاعل الخير في يد، كما يحمل سلاحه البتار في يده الأخرى! أو أنه وحين جاء من خيبر منتصرا، وإذ يمكن أن ينال منه آثار إرهاق حل، ونتيجة نصب تحقق، من يوم خيبر وعلاجها.

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٤٨

وهذا الذي حدث مرجعه صلى الله عليه وسلم يوم خيبر، وإذ طمعت بنو فـزارة أن نـيلا منـه أمكنهـا! وإذ يواعـدهم ويهـددهم ويزلـزلهم ويـرعبهم ويـرهبهم؛ لينحاشوا هاربين، وليولوا مدبرين!

ودل على مـا أنـف مـا ذكـره الإمـام البيهقي رحمـه الله تعـالى: أن بني فـزارة أرادوا أن يقـاتلوا رسـول الله ﷺ مرجعـه مـن خيبر وتجمعـوا لـذلك، فبعـث إلـيهم يواعدهم موضعا معينا فلما تحققوا ذلك هربوا كل مهرب؛ وذهبوا من طريقه كل مذهب.

وإذ خرج علي بن أبي طالب في مائة رجل إلى فدك إلى حي من بنى سعد بن بكر وذلك أنه بلغ رسول الله أن لهم جمعا يريدون أن يمدوا يهود خيبر فسار إليهم الليل وكمن النهار وأصاب عينا فأقر لهم أنه بعث إلى خيبر يعرض عليهم نصرهم على أن يجعلوا لهم ثمر خيبر[١].

وفيـه كيـف كانـت عبقريـة هـذا الـدين، وحـين قطـع خطـوط الإمـداد عـن خيبر، وكيما لا تقوم لهم قائمة بعد هزيمتهم، وليأمن جبهتهم، وليتفرغ لأخرى.

وإذ" أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا أبا بكر فغزونا ناسا من بنى فزارة فلما دنونا من الماء أمرنا أبو بكر فعرسنا فلما صلينا الصبح أمرنا أبو بكر فشننا الغارة عليهم قال فوردنا الماء فقتلنا به من قتلنا قال فأبصرت عنقا من الناس وفيهم النساء والذراري قد كادوا يسبقون إلى الجبل فطرحت سهما بينهم وبين الجبل فلما رأوا السهم وقفوا فجئت بهم أسوقهم إلى أبى بكر وفيهم امرأة من بنى فزارة عليها قشع أدم معها ابنة لها من أحسن العرب قال فنفلني أبو بكر ابنتها

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ٢٨٧

قال فقدمت المدينة فلقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسوق فقال يا سلمة لله أبوك هب لي المرأة فقلت يا رسول الله والله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوبا قال فسكت عنى حتى إذا كان من الغد لقيني في السوق فقال يا سلمة لله أبوك هب المرأة فقلت يا رسول الله والله ما كشفت لها ثوبا وهى لك يا رسول الله قال فبعث بها رسول الله إلى مكة ففادي بها أسارى من المسلمين كانوا في أيدي المشركين[١].

التعبد لله تعالى ذو أوجه غير محصورة. ومنه زينة المرأة في بيتها لزوجها.

وحين نقول تعبدا. فيعني ذلك أنها مأجورة على فعله، وكما أنها آثمة على تركه!

وهذا باب شائك، وقعت في حبال صيده نسوة الزمان، قل من نجت من أسره، وندر من حلت من قيده!

وأذكر أن أخا شكا لي زوجته، وهو إذ سمعته في أساه قائلا: زوجتي في بيتي يأكلها الصدأ! وإذا خرجت جلته جلاء، وكأن لم يكن بها صدأ!

وأهمس فأقول: نعاود التذكير بأن زينة المرأة في بيتها حق لزوجها وواجب عليها.

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ٢٨٧و٢٨٨

واستوقفتني مناسبة زواج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بصفية أم المؤمنين، وحين مشطتها وزينتها وأعدتها وهيأتها له امرأة يقال لها أم سليم بنت ملحان.

فدل هذا على مدى ما لذلك من أهمية في العلاقات الزوجية. كما أنه دل على أهمية التذكير به. وحين اعتباره تعبديا كشأن الصلوات والزكوات والحج والعمرة والحج وطاعة الزوج، وما سوى ذلك، ولنكون قد وضعناه نصابه.

وأذكر أن أخا أخبرني أن زوجته تبلغ عنايتها بهذا الشأن عنايتها بالصلاة!

ويزيد فيقول: إن زوجتي تمعن في زينتها أكثر حين تمرض!!! وتقول: لو كنت على فراش موتي لتزينت لك!!!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما ذكره الإمام محمد بن إسحاق في سيرته فقال: لما أعرس رسول الله ﷺ بصفية بخيبر - أو ببعض الطريق - وكانت التي جملتها إلى رسول الله ﷺ ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك[١].

وهذه أم المؤمنين وهذا فعلها ولنبي أمتها ﷺ، فعن عائشة، قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى في يدي فتخات من ورق، فقال: ما هذا يا عائشة ؟، فقلت: صنعتهن أتزين لك يا رسول الله، قال: أتؤدين زكاتهن؟ قلت: لا، أو ما شاء الله، قال: هو حسبك من النار[٢].

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣ / ٤٠٢

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ١٥٦٥

وهذا من صحة تأويل القرآن الحكيم، وإلا يكون معطلا عن قصده، وإلا كان مفرغا من هديه، وحين جعل الله تعالى خلق الأزواج آية من آياته الدالة على قدرته، وأن جعل بينهم مودة ورحمة، وإذ إن من سبب تحصيلها ذلكم التزين وذلكم التملح، وحين قال الله تعالى﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ [الروم: ٢١].

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا علي بن الجعد أخبرنا مبارك بن فضالة، حدثنا الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أول ما تسأل عنه المرأة يوم القيامة صلاتها، ثم عن بعلها، كيف فعلت إليه؟ ". وهذا مرسل جيد.

وقال معلى بن أسد: حدثنا المعلى بن زياد قال: حدثتنا بكرة بنت عقبة أنها دخلت على عائشة وهي جالسة في معصفرة فسألتها، عن الحناء؟ فقالت: شجرة طيبة وماء طهور وسألتها، عن الحفاف فقالت لها: إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتصنعينهما أحسن مما هما فافعلي[١].

ورغم هذا كله فكل ذلك الفرد الذي يلحقه التقصير، وعلى طرفي العلاقة الزوجية أن يأخذ كل منهما على يدي صاحبه، محبة وودا والتماسا لأعذار لا عذرا واحدا، وأن كل زوج حين يكره خلقا من زوجه الحاني فإنما يحب منها وجها آخر يقابله، لتكون المسألة مطابقة لا معادلة!

---

(١) سير اعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي: ٣ /٤٥٩

فعن أبي هريرة: لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر، أو قال: غيره[١].

وإذ كان ديننا يأمر الزوجة أن تتزين لزوجها، وكذلك يأمر الزوج أن يتزين لزوجته. ولأنه تعالى قال ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم ﴾ [البقرة:٢٢٨].

وعن ابن عباس قال: إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة لان الله تعالى يقول: (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف)[٢].

اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني

اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني: وهذا فعل أبي أيوب تلقاء نفسه. وحين بات يحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة عرسه بصفية! ولأنه راح به اجتهاده أنه خشي عليه منها، ولأنه صلى الله عليه وسلم كان قد قتل زوجها وأخاها وقومها في خيبر.

وهذا برهان حراسة القادة، ودليل حماية العيون. ولاحتمال أنهم مستهدفون، برهان أن النبي ﷺ دعا لأبي أيوب؛ لحسن صنيعه، مبادرة من نفسه.

وهذا أبو أيوب هو صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده يوم الهجرة، وهو الذي ائتمر بأمر ربه، وحين تأول قوله تعالى، وكان أبو أيوب رحمة الله

---

(١) صحيح مسلم: ١٤٦٩

(٢) المصنف، ابن أبي شيبة الكوفي: ج ٤ / ١٨٣

عليه يقول قال الله تعالى انفروا خفافا وثقالا لا أجدني إلا خفيفا وثقيلا.... قال ليزيد بن معاوية حين دخل عليه اقرئ الناس مني السلام ولينطلقوا بي فليبعدوا ما استطاعوا قال فحدث يزيد الناس بما قال أبو أيوب فاستسلم الناس فانطلقوا بجنازته ما استطاعوا[(١)].

وهو الذي نزل أسفل بيته، وأعلا نبينا صلى الله عليه وسلم؛ حياء أن يكون في طابق أعلى مما فيه نبينا صلى الله عليه وسلم. وهذا أبو أيوب وحين هدد وتوعد أمير المؤمنين أن يجيش جيشا لحماية قبره وحين يرجف لذلكم راجف! وحين: توفي أبو أيوب عام غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية في خلافة أبيه معاوية بن أبي سفيان سنة اثنتين وخمسين وصلى عليه يزيد بن معاوية وقبره بأصل حصن القسطنطينية بأرض الروم فلقد بلغني أن الروم يتعاهدون قبره ويرمونه ويستقون به إذا قحطوا[(٢)].

ودل على ما أنف قول الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى: وبات بها رسول الله ﷺ في قبة له وبات أبو أيوب متوشحا بسيفه يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة، حتى أصبح، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانه قال: «ما لك يا أبا أيوب؟».

قال: فتح عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك.

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ٤٨٥/٣

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ٤٨٥/٣

فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني»[1].

قال الله تعالى: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾ [النساء:(١٠٣)].

وقال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى يقول: { وأقم الصلاة لذكري } ».

وهذان برهانان جنبا إلى جنب، يعملان في ضبط المسلم سلوكه ووقته وحياته ومماته، وقفا على مراد الله تعالى، وحين كان من ذلك شأن الصلاة عظيما.

ألا وإن كل شيء في ديننا على صفة ووقت وأداء، وليست الصلاة فحسب، فالصيام مؤقت بشهر رمضان، ومن وقت طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والحج وما يتضمنه من مواقيته الزمانية والمكانية، وبحيث لا يكون حج إلا في هكذا مواقيته، والزكاة مواقيتها حلول حولها وأنصبتها، ويوم حصاده...وهكذا. ضبطا للنظام العام، وكيما يكون كل ذلك مجتمعا مؤتلفا مكونا منظومة المجتمع المسلم الصافية الضافية المؤشجة بوشائج التقوى والنظام والانضباط.

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي: ١٥٨/٢

والصلاة من هذه الأركان التي تربعت أيضا على كرسي مواقيتها، ضبطا للسلوك، وقيمة للمنهج، وأداء للنظام أيضا.

وكان من ضبط مواقيتها إعجاز ضاف!

وذلك لأنه وحين تؤدى على وقتها، فكما أنه ضابط لمسألة النظام العام، والشاهد على إشهاد الكون أن ههنا أمة تقيم صلاتها، وعلى هذا الوجه المبهر والمعجز معا، وحين يشهدون ملائكة ربهم أنهم ها هم يصافون، ولأنهم هاهم يصافون كما تصف الملائكة، في منظومة ما كان لها أن تتحقق إلا وحين يجعل نظامها موقوتا! وإلا فقل لي بالله عليك: كيف يمكن حشد الناس حشدا هكذا مبهرا إلا بهذا الضابط الأوحد الذي مكن لها أن تكون هكذا، إلا بقوله تعالى ﴿ **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا**﴾؟!

بيد أنك تقف خاشعا منبهرا أيضا، وحين تعلم أن أداء الصلاة على وقتها كان من علامات صدق إيمان المصلين، وبنص الآية الكريمة التي معنا. وبشاهد قوله تعالى﴿ على المؤمنين ﴾، وهذا أيضا إشهاد رباني أن الله تعالى قد زكى أولاء المصلين، وعلى وقت صلاتهم أنهم مؤمنون! ولأنهم أيضا في مشهد ملائكي، وحين اصطفوا كما الملائكة، فنالوا وصفا من أوصافهم، ولله در من كان هذا فعله خمس مرات يومه!!!

لكن هذا الدين العظيم جعل مخارج، لا مخرجا واحدا، وحين أمكن لمسلم أن تفوته صلاة، نسيانا أو نوما، ومراعاة لهكذا سنن وطبائع، كان لها في الإسلام حل. وهذا الحل لن يترك لأقوالنا ومذاهبنا، وإلا فقد كنا رحنا فيه مذاهب شتى، وربما كنا في حيرة من أمرنا.

صحيح لا تجتمع أمتي على ضلالة، ولكن في مثل هذه الأمور تولى الشرع المطهر بيانها، وكفانا بحثها، لنأخذها جاهزة غضة ندية طرية، ومن فاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وحين قال: من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى يقول: { وأقم الصلاة لذكري } ».

بيد أننا نقف عند عذرين هما النوم والنســـيان! وهذا الذي حدث يوم خيبر أو الحديبية أو تبوك أو في كل من ذلك، وحين ناموا عن صلاة الصبح، وقاموا فصلوها على وصفها المعهود، جماعة وبعد إقامة ووضوء.

بيد أنك لست تخرج من هذه العبقات إلا خاشعا مبهورا، وحين رأيت إلفا ومودة ورحمة وأدبا وخلقا حسنا، وأنت إذ ترقب حنان الكلام، وطيب الحديث، وعبق الخطاب، بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهذا الذي كان حبشيا يوما! وهذا الذي لم تلن قناته يوما، وحين صدح الكون كله معه: أحد أحد! وحين قال صلى الله عليه وسلم له قولا حسنا جميلا: ماذا فعلت بنا يا بلال! ليكون رده الحسن الجميل أيضا: أخذني الذي أخذك يا رسول الله!!!

ودلك على صحة صنيعنا هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قفل من غزوة خيبر، فسار ليله، حتى إذا أدركه الكرى عرس، وقال لبلال: اكلأ لنا الليل فصلى بلال ما قدر له، ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فلما تقارب الفجر، استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر، فغلبت بلالا عيناه وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولهم استيقاظا، ففزع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أي بلال فقال بلال: أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك،

بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال: اقتادوا فاقتادوا رواحلهم شيئا، ثم توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر بلالا فأقام الصلاة، فصلى بهم الصبح، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة قال: من نسي صلاة، فليصلها إذا ذكرها، فإن الله عز وجل قال: وأقم الصلاة لذكري[1].

الله أكبر لا إله إلا الله. هذا كلام خبري موجز كاشف كاف!

ولأن الذي أنشاهما في الأصل كون أنه تعالى أكبر! وكون أن الله تعالى هو الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد!

بل إن الذي أخرج الناس يوم خيبر، يوم قولهم هذا، ما هو إلا ذاك التوحيد، الذي دانوا به لربهم الحق المبين، ذلكم الفصل بين ملل ونحل ومذاهب شتى! وبين دين الإسلام، الذي جاء لينشي مجتمعا، لا تكون العبودية فيه إلا لله تعالى الحق المبين، وهذا الذي جاء به، إنما هو تكريم، وأي تكريم لهذا الإنسان، وحين يكون توجهه إلى رب واحد، وذلك خير، لا إلى أرباب متفرقين! وحين يكون هواها موزعا، على أهوائهم شتى! فيذوب مع كل ذلك شخصه وعزته وأنفته، وبحيث كانت تتلقفه آلهة مدعاة، وما هي بآلهة! وإن هي إلا مفردات على يمين الفاصلة!!!

ولكن هذا الدين، وحين جاء لإخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة رب العباد، فإنما كان ذلك هو مطلق التكريم لمفردات العلاقة كلها، وحين كان الرب الخالق العظيم هو المعبود وحده، ولما كان الأمر أمره وحده ليطاع، ولما كان النهي

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٥٧٧

نهيه وحده لينتهى عنه، ولما كان الشرع شرعه وحده أيضا ليبتغى ويقتفى، وبه وحده يهتدى. وإذ ليس لأحد من العبيد من ذلكم من شيء!!!

وههنا- وههنا فقط- تكون العبودية لله. وغير ذلك ترميمات في بناء متهالك، لا تزيده إلا ضعفا ووهنا، وليس يكاد ينهض قائما يوما! ولايكاد يثبت، وليس يكاد يشهد لمن كان هذا صنيعهم أنهم على جادة الطريق، ولأنهم في طريق آخر، غير ذاك الذي رسم لهم أول مرة، وحين يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وإذا كانت أعمالهم من هذا الصنف، الذي حكاه القرآن الحكيم، وحين قال تعالى: ﴿**قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا**﴾[سورة الكهف: ١٠٣-١٠٤].

هذا ولأن ديننا دين قلوب قبل الألسنة، ولما رآهم نبيهم صلى الله عليه وسلم يرفعون بها أصواتهم، أمرهم أن يربعوا على أنفسهم، ولأنهم لا يدعون أصم ولا أبكم، وإنما يدعون سميعا بصيرا، في لافتة تعليم تربوي بالمحاكاة والتدريب الواقعي، تخرج جيلا تقيا حق التقوى، نقيا طيب النقاء، وحين دبت في أوصاله كلها هذه العلائق المتضامة، من تربية على عقيدة، كان من ألف بائها علمها أن ربها سميع بصير، وحين تعلم ذلك فلن يكون الله تعالى من بعدها أهون الناظرين إلى عبيده!!!

لاحول ولا قوة إلا بالله: سمع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أحدهم يوم خيبر يقولها فأقره، وأبان له، ووضح له شأن ما يقول وثمرته، وحين أبان أنها كنز من كنوز الجنة، وليس تفسير أوضح من أنك حين تقولها إذ وكأنك ملكت كنزا من كنوز الجنة، بل قد ملكته حقا!

ومع أنها كنز من كنوز الجنة، ورغم أن العبد يقولها، وإذ يتبرأ من كل حول له، إلى إسناد الحول كله لله تعالى، وهذا هو مطلق العبودية لله تعالى الحق المبين. وذلك لأن العبد لا حول له بفعل طاعة، ولو واحدة، إلا بإذن الله، وهو كذلك لا يمكنه ترك عمل إلا بعون منه تعالى.

و«الحول الحركة، تقول: حال الشخص إذا تحرك، وكذلك كل متحول عن حاله، فكأن القائل إذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله يقول: لا حركة ولا استطاعة إلا بمشيئة الله.»[(١)].

فعن أبي موسى الأشعري قال: لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر -أو قال: لما توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم- أشرف الناس على واد، فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اربعوا على أنفسكم؛ إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا؛ إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم. وأنا خلف دابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسمعني وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال لي: يا عبد الله بن قيس. قلت: لبيك يا رسول الله، قال: ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة؟ قلت: بلى يا رسول الله، فداك أبي وأمي، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله[(٢)].

عطاء بلا حد، و كلفة بلا قيد! هذا الدين كما أنه ذو عطاء بلا حد، إنه ذو كلفة بلا قيد.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ١١/ ١٨٩

(٢) صحيح البخاري: ٤٢٠٥

ومن عطائه أول درجة، أنه يخلص العبد من شوائب الشرك، ليكون عبدا خالصا لله الذي خلقه. وحين قد أفرد الله تعالى في وحدانيته، كما أفرده سبحانه في ربوبيته.

ذلك وأن كثيرا من الناس قد وقع بين براثن الهوى، وذلك بسبب جهل قد عم، وذلك بسبب عدم اهتمام قد طم، وحين كان التوحيد وتصحيح العقيدة في الله تعالى هو أوجب الواجبات، وهذا الذي يجب العلم به أولا، لأنه تعالى أمر بذلك فقال: ﴿ فٱعلم أنه لآ إلٰه إلا ٱلله وٱستغفر لذنبك وللمؤمنين وٱلمؤمنٰت وٱلله يعلم متقلبكم ومثوىٰكم ﴾ [محمد:١٩].

ومن مقتضي هذا العلم أنه تعالى متفرد في أمره، فليس أمر إلا له، ووجب طاعته، ومتفرد في نهيه، فليس نهي إلا منه، ووجب الانتهاء عنه.

ومن حاصل هذين يحقق العبد عبوديته لمولاه تعالى الحق المبين.

ومن دون ذلك يكون عبدا لغيره تعالى! وبلا مواربة في هذا! فإن آحادهم يكاد ينخلع، وحين يأمر من دونه، وتحت سلطته وإمرته بأمر، ثم هو لا يطاع! ولله تعالى المثل الأسنى، وحين قال تعالى ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ [الأعراف:(٥٤)].

ومن عطائه ذلكم الأمن والسكينة، والَّذَينِ عَزَّا، وحين يترك أمره، أو لا يجتنب نهيه تعالى. ودلك على أهمية ذلك ما قاله الله تعالى﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وإذ كان ذلكم الأمن والهدى هما العطاء الأوفى، وحين كان التوحيد قائما، وحين كانت الشرك مزايلا.

ومن كلفته أن هذا الدين جعلت جهود الباذلين فيه وله طاقة دافعة. وكل على وجهه، وكل بما يطيق. شرط نية البذل، وتوافرها، وشرط إحسان ذلك، وصدق النية وتضافرها، وتجديدها من فينة إلى أخرى؛ خشية عوارض الزمان، وألا يفتن أو يحور أو يبور! وأن يتسم بمعالي الأمور من كل فن، ولا يرضى بالدون.

وكان من ذلك الكلفة أنهم سلموا لنا ديننا، ومن بعد بذل مهجهم فيه، فلا تكاد تنتهي غزوة أو سرية إلا ونجد المؤرخين يفردون فصلا كاملا بأعداد وحصر من قتلوا فيها في سبيل الله تعالى.

ولولا هذا البذل لما كان قد جاءنا ديننا هكذا!

غير أنه يجب أن تبذل جهود عالية، وعلى قدر ما بذلوا، كيما نسلمه للأجيال التالية، وكما سلموه لنا! وليس كما قد شوهت صورته، واختزلت مهمته، في مائدة طعام، أو شطيرة من خبز! فإن هذا الدين ما جاء هكذا، ولو كان هكذا ما جاء! وأن قريشا كانت تقوم على الحجيج إطعاما وسقيا وخدمة، وكانت تجد في ذلك نفسها!!! وأنت خبير، ولم أسموا آلهة من آلهتهم ب(اللات)؟، ولأنهم كانوا يلتون السويق، ويقدمونه للحجيج! وما أغنى عنهم من الله شيئا، وحين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا.

إذن لما جاء الدين الذي هو الإسلام نفض كل ذلك ونقضه، وعراهم أمام أنفسهم أولا! ثم وجههم وجهته الصحيحة، وألا معبود بحق إلا الله! وكان من لازم ذلك هدم سلطانهم، وإحلال سلطانه تعالى أولا وأخيرا، ولأجل هذا قالوا: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا!!!

وهذه همسات جادت بها النفس لله!

ولعلها تقابل قلوبا تلقاها، كما قد خرجت من قلوب أحبت لغيرها ما لنفسها قد أحبت!

إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب

وهذا باب واسع، وحين نتلمس هداه، ونتنسم شذاه.

وهذا الذي حدث في شأن الحجاج بن علاط، عهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد خيبر، وإذ كانت له أموال كثيرة في مكة، ولئن أمكنه الخلوص إليها والرجوع بها، فقد كان خيرا، شرط عضه على دينه، وألا يتنازل عن شيء منه! كائنا ما كان ثمن ذلك، وأن الثمن المقابل هو خسارة دينه! ويكون منه صفر اليدين! وإذ لم يكن قد هاجر يوم أن هاجر منها من وطنه وماله وزوجته إلا لله. وبالتالي فليس يدور بخلد أحد، وهو إذ يطالع سيرة عودته إلى مكة، إلا من خلال هذا النور، وهذا الإلف مع هذا الدين.

وخاصة أنهم جميعا وقد ألفوا أنفسهم أغنياء بينهم، ومن بعد هجرتهم التي كانت، ولم تكن إلا لله تعالى.

لكن هذا شيء، ومحاولة استحصال أموالهم من مكة شيء آخر تماما.

ولأنه لزم أن يحتال لذلك، أو على الأقل فيما رآه هو من ذلك، فكان لزاما أن يرجع الى النبي صلى الله عليه وسلم، يستأذنه فيما يقول، ولأنهم يحبون أن يسيروا على هدي من نبيهم صلى الله عليه وسلم. وليأذن له نبينا صلى الله عليه وسلم في ذلك.

والمطالع لسيرة هذه الواقعة يجد أن الرجل تحلى بصدقه مائة بالمائة!

ولم ينب بشيء غير الصدق، الذي كان قد انهمر من بين خلجاته، وغير الكذب الذي ظاهره في حركاته وسكناته!!!

لخص الرجل رحلته في ثلاث، وحين أخلص إلى أبي سفيان أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم:

١- فتح خيبر.

٢- غنم أموال يهود.

٣- تزوج بنت ملكهم.

بيد أنه صدق، وحين أخبر أنه جاء ليأخذ أموالا له بمكة ليشتري بها من غنائم محمد! وهذا كلام صدق تماما، ولا يوجد فيه مجرد اشتباه لغير الصدق، وحين لفه لفا، وحين كساه كسوة!

فعن أنس بن مالك: لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر قال الحجاج بن علاط يا رسول الله إن لي بمكة مالا وإن لي بها أهلا وإني أريد أن آتيهم فأنا في حل إن أنا نلت منك أو قلت شيئا فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول ما شاء فأتى امرأته حين قدم فقال اجمعي لي ما كان عندك فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه فإنهم قد استبيحوا وأصيبت أموالهم قال وفشا ذلك بمكة وانقمع المسلمون وأظهر المشركون فرحا وسرورا قال وبلغ الخبر العباس بن عبد المطلب فعقر وجعل لا يستطيع أن يقوم قال معمر فأخبرني عثمان الجزري عن مقسم قال فأخذ العباس ابنا له يقال له قثم فاستلقى فوضعه على صدره وهو يقول حبي قثم شبيه ذي الأنف الأشم نبي ذي النعم

برغم من رغم – قال ثابت عن أنس ثم أرسل غلاما له إلى الحجاج بن علاط فقال ويلك ماذا جئت به وماذا تقول في وعد الله عز وجل خير مما جئت به قال الحجاج بن علاط لغلامه اقرأ على أبي الفضل السلام وقل له ليخل لي بعض بيوته لآتيه فإن الخبر على ما يسره فجاء غلامه فلما بلغ باب الدار قال أبشر أبا الفضل فوثب العباس فرحا حتى قبل بين عينيه فأخبره ما قال الحجاج فأعتقه قال ثم جاء الحجاج فأخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد افتتح خيبر وغنم أموالهم وجرت سهام الله في أموالهم واصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية بنت حيي فاتخذها لنفسه وخيرها أن يعتقها وتكون زوجته أو تلحق بأهلها فاختارت أن يعتقها وتكون زوجته ولكني جئت لمال كان لي ههنا أردت أن أجمعه فأذهب به فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن لي أن أقول ما شئت فأخف عني ثلاثا ثم اذكر ما بدا لك قال فجمعت امرأته ما كان عندها من حلي أو متاع فدفعته إليه ثم انشمر به فلما كان بعد ذلك أتى العباس امرأة الحجاج فقال ما فعل زوجك فأخبرته أنه ذهب يوم كذا وكذا وقالت لا يخزيك الله يا أبا الفضل لقد شق علينا الذي بلغك قال أجل لا يخزيني الله ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا فتح الله خيبر على رسوله وجرت سهام الله واصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية لنفسه فإن كان لك حاجة في زوجك فالحقي به قالت أظنك والله صادقا قال فإني صادق والأمر على ما أخبرتك ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مر بهم لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل قال لم يصبني إلا خير بحمد الله تبارك وتعالى قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر فتحها الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم وجرت فيها سهام الله واصطفى صفية لنفسه وقد سألني أن أخفي عنه ثلاثا وإنما جاء ليأخذ

ماله وما كان له من شيء ههنا ثم يذهب قال فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين وخرج المسلمون من كان دخل بيته مكتئبا حتى أتوا العباس فأخبرهم الخبر فسر المسلمون ورد ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين[1] .

كان من هديه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ألا تطرقوا النساء بعد صلاة العشاء. وهذا حديث جالت فيه الشروح، وطال به الذكر.

والأصل أن المجتمع المسلم كله قائم على حسن الظن، وكان البيت المسلم أول لبنات هذا الظن الحسن، وإذ لا يعقل أن تأتي الأدلة المتضافرة حول إحسان الظن بالناس، ثم يستثنى من ذلك البيت والعش والمحضن!

وما هذا الذي أحدثه تأويل من ريب، إلا لما أحدثته زيادات في الحديث منكرة بينها أهل هذا الفن سندا ومتنا، وكان خلاصتها ما أنف، وأن هذا يعارض مبدأ حسن الظن، القائم عليه المجتمع المسلم كله، أو هكذا الذي ينبغي أن يكون، وبالتالي لا يعقل أن يأمرنا ديننا بإحسان الظن في الفضاء الواسع، ثم يأتي علينا ليضيق على الناس بيوتاتهم، ليعيش ريبه، ويحيا شكه! وما ذلك إلا هدم للبيوت، وما ذلك إلا تقويض للثقة، وما هذا إلا نفث إبليس اللعين.

والحديثان الصحيحان الواردان في هذه المسألة فصل فيها، ولا ينبغي التفات إلى ما سواهما، لا سيما وقد طال الكلام تضعيفا لبعضها، ووضعا

---

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ١٥٧/٦. خلاصة حكم المحدث: رجاله رجال الصحيح. التخريج: أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٨٦٤٦) مختصرا، وأحمد (١٢٤٠٩) واللفظ له.

لبعضها الآخر. وفي الصحيح غنية، ولله الحمد، علاوة على أنهما يتوافقان مع قاعدة إحسان الظن كما أسلفنا.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة، فلما أقبلنا تعجلت على بعير لي قطوف، فلحقني راكب خلفي، فنخس بعيري بعنزة كانت معه، فانطلق بعيري كأجود ما أنت راء من الإبل، فالتفت، فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ما يعجلك يا جابر؟ قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بعرس، فقال: أبكرا تزوجتها، أم ثيبا؟ قال: قلت: بل ثيبا، قال: هلا جارية تلاعبها وتلاعبك. قال: فلما قدمنا المدينة، ذهبنا لندخل، فقال: أمهلوا حتى ندخل ليلا، أي عشاء، كي تمتشط الشعثة، وتستحد المغيبة. قال: وقال: إذا قدمت فالكيس الكيس[1].

إذن هاتان هما العلتان اللتان بسط الحديث عليهما رداءه! وهما علتان كاشفتان لمدى ما عليه المجتمع المسلم من طهارة، ولما عهد عنه من زكاء، والريب من بعد ذلك ريب!

وحتى تمتشط الشعثة! وتستحد المغيبة!

هاتان حكمتان دالتان على طهارة الزيجات وعفة النساء! وحين كانت شعثة، ولغياب زوجها، ولا حاجة لها أن تتابع زينتها لغيابه! وإذ لو فرض ما فرضه الشكاكون عدم أمان! فما كان من تهيؤ، ولا كانت من امتشاط، ولا كان ما كان من استحداد!

(١) صحيح مسلم: ٧١٥

وعلى فرضه أيضا، فقاعدة إحسان الظن بالناس وخاصة الأسرة مقدمة، وإذ جرت العادة على حب التزين والتنظف والتطهر والتطيب، وهذه أمور فطرية، فطر الله تعالى الناس عليها، نساء ورجالا، لكنني أقول ذلك تماشيا مع قول من قال الله تعالى عنه ﴿ وما ينطق عن الهوىٰ * إن هو إلا وحي يوحىٰ ﴾[النجم:٣و٤]. ولأنه لا يخلون مجتمع من كسولات، ولا يعز مدينة عن غير ممتشطة، أو غير مسستحدة، وهما عاملا نفرة ولاشك، والوقوف عندهما دين، وتعديهما مخالفة لهذا الدين!

وهذان المعنيان اللذان نص عليهما الحديث، هما اللذان كان عليهما مدار حديثنا التالي أيضا، وحين كان من حسن العشرة إحسان الظن، وعدم إشغال البال بما يكون ريبة، تحصد بيتا ولا غرابة، وتهدم ركنا ولا عجب، وتقض عشا ولا كرامة!

فعن جابر رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرق الرجل أهله ليلا يتخونهم، أو يلتمس عثراتهم. [وفي رواية]: عن النبي صلى الله عليه وسلم بكراهة الطروق، ولم يذكر: يتخونهم، أو يلتمس عثراتهم[١].

هذا هو اللطف، وهذا هو العلم، أما العجن في وحل فلا يزيده إلا وحلا مثله، ولا يكاد صاحبه إلا أن تغوص فيه قدماه عاثرتين!!!

هذا، وقد قال ابن العربي رحمه الله تعالى: "وقد سمعت عن بعض أهل الجهالة – غفرها الله لك وسترها عليك - أن معنى نهي النبي صلى الله عليه وسلم لهم لئلا يفتضح النساء، كما جرى لمن خالف النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا

(١) صحيح مسلم: ٧١٥

الذي روي لم يصح بحال، ولو صح لما كان دليلا على أن النبي صلى الله عليه وسلم قصده. فلا يصح لأحد له معرفة بمقاصد الشريعة ومقدار النبي صلى الله عليه وسلم أن يصححه ولا يجيزه" [1].

خلاصة: نهى النبي ﷺ مفاجأة الأهل؛ حتى تمتشط الشعثة، وتستحد المغيبة. وهذان اللذان يقصد بهما(ما يكره)؛ لأنهما باعثتان على ذلك حقا، فطرة ودينا، وألا يتخون شريك حياة وهو الزوج زوجته؛ لأن ذلك يحزنها، ويتعارض مع قاعدة إحسان الظن بالناس، ولا سيما أهله.

وزيادة أن رجلا أو رجلين رأيا مع امرأتيهما رجالا زيادة منكرة، حط عليها الأفذاذ، وينبغي طرحها. وكما أنف عن ابن العبي رجمه الله تعالى، ولأقل قليل من إعمال قاعدة حسن الظن.

إجلاء يهود خيبر ومسألة إسقاط الجزية

وإذ عاهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يهود يوم خيبر، وبعد فتحها على أن يزرعوا الأرض المغنومة منهم، وتشارطا على النصف، وعلى أن يزرعوها من أموالهم. وعلى أن يكون صلى الله عليه وسلم في حلٍّ يوم شاء ذلك، ومن هذا الاتفاق، وعين عليهم عبدالله بن رواحة، يخرصها عليهم كل عام، ولما قتل في مؤتة عين صلى الله عليه وسلم عليهم جبار بن صخر، وهذا برهان حضور صاحب الملك أو من ينوبه عند الحصاد، لا سيما أن يهود لا أمان لهم.

---

(١) عارضة الأحوذي، أبو بكر بن العربي المالكي:٣٦٥/٥

وظل هذا العقد ساريا خلافة أبي بكر، وحتى بعض من خلافة عمر، ولما بان له شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم- واذا شئنا- ولقوله صلى الله عليه وسلم: إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها، وتكون ثمارها بيننا وبينكم فأقركم ما أقركم الله» فقبلوا، وكانوا على ذلك يعملونها[1].

وثم بما عدوا على عبد الله بن عمر وغيره، ثم عمله بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحيث كان: آخر ما تكلم به أن قال: قاتل الله اليهود و النصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقين دينان بأرض العرب[2].

وحينها أعلمهم بهذا، وعلى أن من كان له عهد أو ذمة عند أحد من المسلمين فليتقدم به لينفذه هذا الفاروق! وحيث " أرسل إلى يهود أن الله قد أذن في إجلائكم فقد بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان فمن كان عنده عهد من رسول الله فليأتني به أنفذه له ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله من اليهود فليتجهز للجلاء فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم[3].

بيد أن يهود زعمت وبعد ثلاثمائة سنة من وفاة نبينا صلى الله عليه وسلم أن كان لهم عهد معه صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عنهم. وبشهادة معاوية بن أبي سفيان، ولم يكن قد أسلم بعد! وشهادة سعد بن معاذ، وكان قد قتل يوم خيبر! وأن الجزية لم تكن قد فرضت بعد!!

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ٢٤٩

(٢) صحيح الجامع، الألباني: ٤٦١٧. التخريج: أخرجه أحمد (١٦٩٤)، والدارمي (٢٤٩٨)، وأبو يعلى (٨٧٢) بنحوه.

(٣) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٣٠٧/٢

وإنما فرضت في العام التاسع الهجري، يوم قدوم وفد نصارى نجران، وإذ كانت خيبر في العام السابع!!

وهذا شأن يهود!

وهكذا تدمر أمم، وتزال أخرى، من فوق سطح الأرض، وحين يتركون ما خولهم ربهم وراء ظهورهم: ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ [الأحزاب:٦٢]!!!

الفصل الثاني: سرية أبي بكر إلى بني فزارة

تظن فئام الكفر أن الإسلام يمكن أن تضعف شكيمته، وإذ إنه دين يحمل مشاعل الخير في يد، كما يحمل سلاحه البتار في يده الأخرى! أو أنه وحين جاء من خيبر منتصرا، وإذ يمكن أن ينال منه آثار إرهاق حل، ونتيجة نصب تحقق، من يوم خيبر وعلاجها.

وهذا الذي حدث مرجعه صلى الله عليه وسلم يوم خيبر، وإذ طمعت بنو فزارة أن نيلا منه أمكن! وإذ يواعدهم ويهددهم ويزلزلهم ويرعبهم ويرهبهم؛ لينحاشوا هاربين، وليولوا مدبرين!

ودل على ما أنف ما ذكره الإمام البيهقي رحمه الله تعالى: أن بني فزارة أرادوا أن يقاتلوا رسول الله ﷺ مرجعه من خيبر وتجمعوا لذلك، فبعث إليهم يواعدهم موضعا معينا فلما تحققوا ذلك هربوا كل مهرب؛ وذهبوا من طريقه كل مذهب[١].

وإذ خرج علي بن أبي طالب في مائة رجل إلى فدك إلى حي من بنى سعد بن بكر وذلك أنه بلغ رسول الله أن لهم جمعا يريدون أن يمدوا يهود خيبر فسار إليهم الليل وكمن النهار وأصاب عينا فأقر لهم أنه بعث إلى خيبر يعرض عليهم نصرهم على أن يجعلوا لهم ثمر خيبر[٢].

وفيه كيف كانت عبقرية هذا الدين، وحين قطع خطوط الإمداد عن خيبر، وكيما لا تقوم لهم قائمة بعد هزيمتهم، وليأمن جبهتهم، وليتفرغ لأخرى.

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ٢٤١

(٢) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ٢٨٧

وإذ" أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا أبا بكر فغزونا ناسا من بنى فزارة فلما دنونا من الماء أمرنا أبو بكر فعرسنا فلما صلينا الصبح أمرنا أبو بكر فشننا الغارة عليهم قال فوردنا الماء فقتلنا به من قتلنا قال فأبصرت عنقا من الناس وفيهم النساء والذراري قد كادوا يسبقون إلى الجبل فطرحت سهما بينهم وبين الجبل فلما رأوا السهم وقفوا فجئت بهم أسوقهم إلى أبى بكر وفيهم امرأة من بنى فزارة عليها قشع أدم معها ابنة لها من أحسن العرب قال فنفلني أبو بكر ابنتها قال فقدمت المدينة فلقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسوق فقال يا سلمة لله أبوك هب لي المرأة فقلت يا رسول الله والله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوبا قال فسكت عنى حتى إذا كان من الغد لقيني في السوق فقال يا سلمة لله أبوك هب المرأة فقلت يا رسول الله والله ما كشفت لها ثوبا وهى لك يا رسول الله قال فبعث بها رسول الله إلى مكة ففادي بها أسارى من المسلمين كانوا في أيدي المشركين(١).

وإذ ورد إلى نبينا صلى الله عليه وسلم أن بني فزارة يتجهزون لمعاونة يهود خيبر بعد فتحها. فأرسل إليهم أبابكر، فغاروا عليهم، فقتلوا كل وارد على الماء. فهربوا إلى الجبال، فرماهم سلمة بن الأكوع بنبل قريبا منهم، فاستسلموا. فأنفله أبو بكر امرأة من نسائهم، فطلبها منه رسول الله صلى الله عليه نفلا، وعن رضا نفس؛ لأنها في ملكه كماله تماما. وبعد مداولات نفلها إلى رسول الله صلى الله عليه، فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، وكان في أيديهم أسارى من المسلمين، ففداهم رسول الله ﷺ بتلك المرأة.

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ٢٨٧و٢٨٨

وهذه عبقرية سلمة بن الأكوع، وحين عطل بني فزارة عن الحركة، ليمكن أسرهم واغتنامهم وسبيهم، ولعلهم يرجعون.

وهذه حكمة نبي، أن يطلب المرأة غير مرة، فيظن سلمة أنها له، لكنه يبعث بها فداء لأسرى المسلمين عند قريش! وهذا برهان جواز الافتداء بالأسرى.

وهذه حكمة أبي بكر وحين أنفلها سلمة بن الأكوع؛ جزاء بذله وحكمته وبأسه وشجاعته.

وهذه حكمة نبينا صلى الله عليه وسلم في محاصرة الخصم وخطوط إمداده معا.

ودل على صدق ما أنف ما حكاه لنا سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه حين قال: غزونا فزارة وعلينا أبو بكر، أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا، فلما كان بيننا وبين الماء ساعة، أمرنا أبو بكر فعرسنا، ثم شن الغارة، فورد الماء، فقتل من قتل عليه، وسبى، وأنظر إلى عنق من الناس فيهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، فجئت بهم أسوقهم وفيهم امرأة من بني فزارة عليها قشع من أدم، قال: القشع: النطع، معها ابنة لها من أحسن العرب، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر، فنفلني أبو بكر ابنتها، فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوبا، فلقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم في السوق، فقال: يا سلمة، هب لي المرأة، فقلت: يا رسول الله، والله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوبا، ثم لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد في السوق، فقال لي: يا سلمة، هب لي المرأة لله أبوك، فقلت: هي لك يا رسول

الله، فوالله ما كشفت لها ثوبا، فبعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة، ففدى بها ناسا من المسلمين كانوا أسروا بمكة[1].

الإسلام دين يحفظ الأديان والدماء والأعراض والعقول والأموال

وإنه ليسلك كل سبيل ممكن لحفظ كل من ذلك. وحتى ولو كان بشبهة، ريثما يتم التحقيق في ذلك، والتحقق من صدق امرئ أو كذبه. ولا تأخذه في ذلك عجلة من أمره؛ ولأنه عن ابن مسعود أنه قال: إدرؤا الحدود عن عباد الله ﷻ[2] . وقوله ﷺ: ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة[3] . خلاصة حكم المحدث: فيه يزيد بن زياد الدمشقي ضعيف في الحديث

وليس بعيدا من ذلكم فعل أسامة بن زيد، وحين قتل مرداس بن نهيك اليهودي، وبعد أن قال: لا إله إلا الله! وليوجه إليه الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم لوما شديدا، حتى تمنى أن لم يسلم، إلا بعد فعله ذلك!

صحيح تأول أسامة بن زيد فعله بأن اليهودي قالها تعوذا من قتله. ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يعتد بشرحه ذلك، وأنه ليس يرقى حجة قوية تبرر عمله هذا.

سوى أن هذا التأول أفلت به أسامة من عقاب، ولسنا ندري كنهه، ولأنه ليس يقتل مسلم بكافر. ولقوله صلى الله عليه وسلم: المسلمون تتكافأ دماؤهم.

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٥٥

(٢) كشف الخفاء، العجلوني: ٧٣/١، خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

(٣) سنن الترمذي، الترمذي: ١٤٢٤

ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم ولا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد في عهده[1].

لكنه على الوجه الآخر كان قول: لا إله إلا الله عاصما دم قائله، ومن بعد ذلك يمكن أن يخضع للمراقبة فترة من الدهر، ولعله أن يحسن إسلامه.

ولهذا فإن هذه الواقعة كاشفة عن مدى ما تتسم به أحكام ديننا من عفو وسماحة وتأن.

فكما أن عدم قول لا إله إلا الله مبيح للدم فثم هو، وكذلك فإن قولها يعصم الدم، ولظاهر قوله صلى الله عليه وسلم: **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**[2].

وإلا فلماذا كان في ديننا مصطلحا حدثاء عهد بإسلام، أو حدثاء عهد بكفر؟ وإلا من أجل هذا؛ وكيما لا نتعجل أمرنا فيصاب دم كان حراما.

ودل على صحة مذهبنا هذا قول الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أسامة بن زيد: **بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة من جهينة، قال: فصبحنا القوم فهزمناهم، قال: ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، قال: فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، قال: فكف عنه الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، قال: فقال لي: يا**

(١) تخريج مشكاة المصابيح، الألباني: ٣٤٠٦. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(٢) صحيح البخاري: ٢٥

أسامة، أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟! قال: قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذا، قال: أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟! قال: فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[1].

كما حث الإسلام الناس على الزواج فإنه أيضا حث على عدم التغالي فيه

وهذا عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي يصدق امرأة مائتي درهم! ويذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب عونه لسداده! ونسمع له صلى الله عليه وسلم رده وحين قال أبو حدرد الأسلمي: أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم يستعينه في مهر امرأة قال كم أمهرتها قال مائتي درهم قال لو كنتم تغرفون من بطحان ما زدتم[2] !

وهذا بيان للناس أن يأخذوا على أيدي أنفسهم بعضهم بعضا، عدم التغالي في المهور، وعدم التغالي في التجهيز عامة، ولأن الصداق إنما جعل هديا؛ دلالة على صدق الطلب، وتكريم المرأة، وأنها مطلوبة مرغوبة، بدليل إصداقها ولو خاتما من حديد! والتماس البركة، ويستظل البيت الجديد بظلال الإلف والمودة والرحمة، كغاية قصوى لهذا العهد الجديد. وإذ ليس الناس في مزاد علني! أصبح الجميع منه يئن.

---

(١) صحيح البخاري: ٦٨٧٢

(٢) مجمع الزوائد، الهيثمي: ٢٨٥/٤. خلاصة حكم المحدث: رجاله رجال الصحيح.

فعن سهل بن سعد الساعدي: أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم، فعرضت عليه نفسها، فقال: ما لي اليوم في النساء من حاجة فقال رجل: يا رسول الله زوجنيها، قال: ما عندك؟ قال: ما عندي شيء، قال: أعطها ولو خاتما من حديد قال: ما عندي شيء، قال: فما عندك من القرآن؟ قال: كذا وكذا، قال: فقد ملكتكها بما معك من القرآن[1].

وأن معاني مقصود النكاح قد ذبلت، وأن مقاصد الزواج قد ذهبت! ورجوع إلى المعين لتجديدها أوجب، والتزام بالهدي لتفعيلها أرحب. وكيما يتحقق مقصوده الذي قال الله تعالى عنه: **﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ۚ إن في ذٰلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾** [الروم:٢١].

وأبو حدرد هذا هو الذي(بعثه رسول صلى الله عليه وسلم عينا إلى مالك بن عوف النصري وفي سرية أخرى قتل فيها عامر بن الأضبط. فحياهم بتحية الإسلام، فقتله محلم بن جثامة، فنزلت: {يا أيها الذين ءامنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا}... الآية.

وأنه كان ليهودي عليه أربعة دراهم، فاستعدى عليه فقال: يا محمد، إن لي على هذا أربعة دراهم، وقد غلبني عليها. فقال: "أعطه حقه". قال: والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها! قال: "أعطه حقه". قال: والذي نفسي بيده ما أقدر عليها، قد أخبرته أنك تبعثنا إلى خيبر، فأرجو أن تغنمنا شيئا فأرجع فأقضيه قال: "فأعطه حقه" ـ قال: وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قال ثلاثا لا يراجع ـ فخرج به ابن

(١) صحيح البخاري: ٥١٤١

أبي حدرد إلى السوق وعلى رأسه عصابة، وهو متزر ببردة، فنزع العمامة من رأسه فاتزر بها، ونزع البردة فقال: اشترمني هذه البردة، فباعها منه بأربعة دراهم، فمرت عجوز فقالت: ما لك يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرها فقالت: ها دونك هذا، لبرد عليها، فطرحته عليه

"و أبو حدرد هذا، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تمعددوا واخشوشنوا، وانتضلوا، وامشوا حفاة". وهذا مقابلة أنه أصدق امرأة مائتي درهم! وهذا من حكمته صلى الله عليه وسلم، يعلم، ويهذب، وكل نفس أمامه، وعلى حسبها.

وذكروا أنه صلى الله عليه وسلم بعثه على رأس سرية قتل عنها: فاستقنا إبلا عظيمة، وغنما كثيرة، فجئنا بها إلى رسول الله ﷺ، فأعطاني من تلك الإبل ثلاثة عشر بعيرا في صداقي فجمعت إلي أهلي.

قتل محلم بن جثامة الليثي عامر الأشجعي

قال الله تعالى﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾ [النساء: ٩٤].

عن الزبير بن العوام: أن محلم بن جثامة الليثي قتل رجلا من أشجع في الإسلام، وذلك أول غير قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتكلم عيينة في

قتل الأشجعي لأنه من غطفان، وتكلم الأقرع بن حابس دون محلم لأنه من خندف، فارتفعت الأصوات وكثرت الخصومة واللغط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عيينة، ألا تقبل الغير؟ فقال عيينة: لا، والله حتى أدخل على نسائه من الحرب والحزن ما أدخل على نسائي، قال: ثم ارتفعت الأصوات، وكثرت الخصومة واللغط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عيينة ألا تقبل الغير؟ فقال عيينة: مثل ذلك أيضا، إلى أن قام رجل من بني ليث يقال له: مكيتل عليه شكة، وفي يده درقة، فقال: يا رسول الله، إني لم أجد لما فعل هذا في غرة الإسلام مثلا إلا غنما وردت، فرمي أولها فنفر آخرها، اسنن اليوم وغير غدا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسون في فورنا هذا، وخمسون إذا رجعنا إلى المدينة، وذلك في بعض أسفاره، ومحلم رجل طويل آدم، وهو في طرف الناس، فلم يزالوا حتى تخلص، فجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وعيناه تدمعان، فقال: يا رسول الله، إني قد فعلت الذي بلغك، وإني أتوب إلى الله تبارك وتعالى، فاستغفر الله عز وجل لي يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقتلته بسلاحك في غرة الإسلام، اللهم لا تغفر لمحلم بصوت عال، زاد أبو سلمة: فقام وإنه ليتلقى دموعه بطرف ردائه، قال ابن إسحق: فزعم قومه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر له بعد ذلك[١].

وعن عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه قال: " بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إضم، فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعي، ومحلم بن جثامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر

(١) ضعيف أبي داود، الألباني: ٤٥٠٣

الأشجعي على قعود، له معه متيع ووطب من لبن، فلما مر بنا، سلم علينا، فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلم بن جثامة، فقتله بشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتيعه، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخبرناه الخبر، نزل فينا القرآن: **يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا** [النساء: ٩٤] "[١].

هذا الدين الذي هو الإسلام متفرد أيما تفرد! وحين يربي أبناءه على محبة الفضائل، وكراهية الرذائل.

وهذا الذي نفيده من واقعة قتل محلم بن جثامة المسلم لعامر بن الأضبط المسلم أيضا، وحين خرجوا في سرية، وألقى عامر عليهم السلام، ليقتله محلم، ولشيء كان بينهما!

وهذا الذي يمكن أن يحدث في أي صف. فيشرد أحدهم عما رسم له، من هوى، أو من ضعف نفس، لا يخلو منها تجمع بشري، وكما قلت آنفا، ولئن كان الغالب فيهم أنهم يعملون على نور من ربهم الحق، وكان لفعل كهذا أن يقع، ليجد الإسلام له حلا، ليكون سننا يهتدى، وهديا يقتفى، ومن بعد ذلك.

ولذا فقد نزل في هذه الواقعة قرآن يتلى إلى يوم الدين. ليبين للعالمين كم هي نصفة هذا الدين المتين، وحين أنزل الله تعالى رب العالمين حكما من فوق السماوات السبع، تجلجل منه القلوب، ولتقرأ من خلجاته، عدلا عز، ونصفا ند.

---

(١) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل: ج ١١/٦. وحسنه الألباني في "الضعيفة" (١١٠/٩).

وهـذا نبينـا محمـد صلى الله عليـه وسـلم ينصـف قـوم عـامر بـن الأضـبط، ويتهدهدهم بحقهم في الدية، والتي كانت جبرا سماويا، لكلم أصاب الناس، ولئن طالبوا هم بالقصاص، تأسيسا على أنه قتل عمد. وليحاول صلى الله عليه وسلم بحكمته أن يقلل الدماء بين الأطراف جميعا، وكيما يئد فتنة، كانت عارمة، سببها فعل محلم بن جثامة، لولا لطفه تعالى بتدخله صلى الله عليه وسلم، وخاصة أنهم كانوا في الأصل أعرابا، ولما يتدربوا على مسائل الإيمان في قلوبهم بعد، ولم يصقلوا بشيمه بعد، ولم يتفاعلوا بخطراته وخلجاته بعد أيضا، وإذ كان هذا الوضع مخيما على الموقف، ليكون نبينا صلى الله عليه وسلم معه ذلكم عدلا رؤوفا رحيما، وحين أرضاهم بالدية؛ قطعا لدماء يمكن أن يتواصل هدرها اليوم مرة وغدا مرة، وهكذا دواليك، ليصحو مجتمع في طور تأسيسه كل يوم على ما هو في غنى منه.

هـذا، وحين ألقى عـامر بـن الأضـبط السـلام على سـرية محلـم بـن جثامـة، فكان هذا كافيا لعصمة دمه، ولأن السلام شعيرة كالأذان، تحرم من بعدهما مقاتلة، ولا تجوز من إثرهما مجاهدة. ولئن تبقى في النفوس بقية من تأكد، فهذا مجاله ليس قتلا، وإنما غيره من توقيف أو حبس أو حراسة أو متابعة أمنية، أو ما شابه ذلكم! وكيما لا تتعجل الرعية أمرها من بعد.

والضابط هنا أيضا أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم هو الذي دفع عن محلم بن جثامة دية عامر. وهذا أيضا هو مطلق العدل. ولأنه ولئن كان قد قتل فقد أخطأ، لكنه قتل أثناء العمل. ولم يسعفنا السياق أنه قتل بسبب العمل! ويحسن أن يبذل في هذا جهد لنعرف كيف دفع نبينا محمد صلى الله

عليه وسلم؟ وهل يظل دينا على محلم؟ ولأنه قتل بشيء كان بينهما في الجاهلية، أم أن وجها آخر لعل الله تعالى أن يفتح به؟

بيد أنه قد روي أنه صلى الله عليه وسلم كان قد دعا على محلم، ومن سياق سيرد لاحقا. وتظل في النفس شيء منه، وخاصة أنه قيل: إنه صلى الله عليه وسلم دعا الله ألا يغفر لمحلم! وهذه في الأصل ليست من خلق عنه عرفناه صلى الله عليه وسلم. خاصة وأننا أمام نبي قال الله تعالى عنه: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ [التوبة:١٢٨].

وهل أنه رجع فدعا له كما قيل؟ ومنه جواز ذلك في حق البشر عموما، ومنهم الأنبياء.

وعلى فرض ثبوت أنه صلى الله عليه وسلم قد دعا على محلم بن جثامة، فلا يلزم منه القطع بعدم المغفرة له، وخاصة بعد ندمه وتوبته، فقد يكون استغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك، لاسيما وقد جاء في رواية البيهقي: " فأما نحن فيما بيننا فنقول: إنا لنرجو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استغفر له، ولكن أظهر هذا لينزع الناس بعضهم عن بعض، فأما ما ظهر من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا "[١].

ولا سيما أيضا أنه صلى الله عليه وسلم دعا الله تعالى أن يجعل ما وقع منه من سب لعبد مؤمن كفارة يجد أثرها يوم القيامة، وهذا أيضا من موافقته

(١) السنن الكبرى، البيهقي: ٩ / ١٩٥

صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى ومخاطبا له ﴿ وإنك لعلىٰ خلق عظيم﴾[القلم:٤].

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم فأيما مؤمن سببته، فاجعل ذلك له قربة إليك يوم القيامة[١] .

لكن الذي يحسن تسجيله أن هذا عمل فردي قام به محلم، ولأن البقية من صحبه أمسكوا عنه، ولأنه ألقى السلام، دلالة على فقههم وتجردهم، وبقاء بقية كانت ثملا لمحلم.

بيد أن فعل محلم كان قتلا وسلبا معا! وحين أخذ متاعه أيضا. ولربما كان هذا سببا في دعائه صلى الله عليه وسلم عليه، لكنه أيضا بحاجة إلى توثيق آخر، أعان الله تعالى عليه.

وإذ قال الحسن: فوالله ما مكث محلم إلا سبعا حتى مات فلفظته الأرض، ثم دفنوه فلفظته الأرض، ثم دفنوه فلفظته الأرض، فرضموا عليه من الحجارة حتى واروه، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «إن الأرض لتطابق على من هو شر منه، ولكن الله أراد أن يعظكم في حرم ما بينكم لما أراكم منه»[٢].

---

(١) صحيح البخاري: ٦٣٦١

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/٢٥٧

إنما الطاعة في المعروف. وإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وهذان هما أساسا الطاعة والقيادة في ديننا، وبهما يتفرد هذا الدين كما هو عهدنا به. ولأن الطاعة في المعروف إنما تكون، وحين يكون التلقي الصادق من سلطة الأمر والنهي، لا ما عداهما، وهما الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ولأن غير ذلك سوف يوقع الناس في خبط عشواء، وعنت مقيت من الإنسان لأخيه الإنسان، ولما يستأسد، ولما ينفرد بأمره، ولما يصعد بنهيه! وحينها أيضا نكون قد خرجنا من طور العبودية لله، إلى طور العبودية لغير الله. وإنه ولئن كان أمرا غير مقصود في أحايين كثيرة، إلا أن محصلة القول فيه هذا!

بيد أنه يراعى أن أوامر الله تعالى ورسوله قائمة على الخير والمعروف، وكما أن نواهيهما قائمة على ذلكم أيضا، فليس يأمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم العباد إلا بما فيه خير لهم، وليس ينهيانهم عن شر إلا وكان في فعله شر لهم.

ومن هنا يكون أمان أحدنا، وهو إذ يتلقى عن الله تعالى ورسوله، ولذا ليس يكون محلا، ولو لمجرد اشتباه، ولو قليلا، أن هذه السلطة سوف تأمر بغير خير يوما، وهذا الذي نعض به على النواجذ، نحتمى بحمى النص، الذي يأخذ بأيدينا إلى بر التقوى وصلاح الحال، في الحال وفي المآل، مع ما يصحب ذلكم من طمأنينة وأمن منقطعي النظير.

وأما على الجانب الآخر، فلسوف نرى عنتا، يحسب حكمة، ولسوف نرى هوى يزعم إخلاصا، ولسوف نري جهلا يحسب علما، ولسوف نرى كثير نكد، وحيث ليس يرضى الإنسان، وحين يختل به ميزانه، إلا بتعبيد الغير له! قال وإن

لم يقل، أخفى ذلك أو أظهره، أعلنه أو أسره. وليقع الناس أجمعون في منظومة ظلم، يجنون جميعا ثمارها المرة، ويأكلون جميعا في بطونهم، وكأنما نار تأجج، من نير ما أوقعوا أنفسهم تحت وطأته، وقد كان بينهم كلام الله الذي: ﴿يهدي إلى الحق وإلىٰ طريق مستقيم﴾ [الأحقاف:(٣٠)].

ولذا جاءت النصوص حازمة بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله الخالق. ولذا جاء قول نبينا صلى الله عليه وسلم الحكيم، وأنه: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد غوى.

فعن عدي بن حاتم الطائي أن رجلا خطب عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: من يطع الله ورسوله، فقد رشد، ومن يعصهما، فقد غوى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله. قال ابن نمير: فقد غوي[١].

وأكرر، أنه طالما كان التلقي من الله تعالى ومن رسوله ﷺ، فإن الناس في بحبوحة. وطالما تنكبوا ذلك فلا يلومون إلا أنفسهم، وحين يعضون على أنامل غيظهم، وحين تركوا ما خولهم ربهم وراء ظهورهم.

ودلك على حسن مذهبنا هذا ما جاء في الصحيح عن علي بن أبي طالب قال: **بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية، فاستعمل رجلا من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال: أليس أمركم النبي صلى الله عليه وسلم أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطبا، فجمعوا، فقال: أوقدوا نارا، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهموا وجعل بعضهم يمسك بعضا، ويقولون: فررنا**

---

(١) صحيح مسلم: ٨٧٠

إلى النبي صلى الله عليه وسلم من النار، فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة؛ الطاعة في المعروف[1].

وهذا الذي نقوله: وحين يعنت قائد، وحين يشطط راع، وحين يتقمص قميصا لا على علم وهدى، بل على غير رشد، وعلى غير سداد، فيرعب ويرعد، وعلى لا أساس من دين، ولا على أصل من حق!!!

(١) صحيح البخاري: ٤٣٤٠

الفصل الثالث: عمرة القضاء والقصاص والقضية!

وها نحن نعاود تطوافا حول عمرة القضاء والقصاص والقضية! وإنما كان شرفها من كثرة أسمائها. ولأنها كانت عمل النفس الطويل، الذي هو الحكمة، فضلا من الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وحين وقف وحده في صعيد، مرتكنا على عهد الله به، ولأنه عبده ورسوله، ولن يضيعه يوما، وكان الناس يومهم هذا في صعيد آخر يوم الحديبية، وما كان من هديه صلى الله عليه وسلم فيه يومه ذلك.

وإذ كانت عمرة القضاء؛ ولأنه قضاء ما فات عامه السابق، وعلى بنود الصلح يوم ذاك.

وإنما كانت عمرة القصاص؛ ولأنه تعالى أسماها كذلك وحين قال تعالى: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ۚ فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم ۚ واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ [البقرة:(١٩٤)]. ولأن كل حق يعود لصاحبه فإنما كان ذلك قصاصا ولو من وجه.

وإنما كانت القضية ولأنه كان صلى الله عليه وسلم قاضاهم عليها على أن يرجع عنهم عامه هذا، ثم يأتي في العام القابل، ولا يدخل مكة إلا في جلبان السلاح، وأن لا يقيم أكثر من ثلاثة أيام[١].

غير أن مقاديره تعالى عظيمة، ومن عظمته سبحانه. ولأن توقيت عمرة القضاء كان مواتيا لحصاره المشركين في الطائف أربعين يوما! وحين كثر القتل في

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٢٥٨/٤

أصحابه توجه إلى مكة معتمرا، ليبث همومه هناك، ولينفس عن إخوانه هناك، وما أدراك ما هناك، وإنه للبيت العتيق! وقد تاقت إليه نفوسهم، ومن يوم رجوعهم يوم الحديبية، وهذه أيضا من ألطاف الله تعالى، أن يبدل الحالة التي كانوا عليها إلى حالة أخرى إيجابية، يكونون عليها، فيتلقون الوحي من بعد ذلك بنشاط وهمة، ولا يعتورهما فتور.

وهكذا يكون التوجه إلى عمرة القضاء بعد الحصار، وكحجر يُضرَبُ به عصفوران:

فأما الأول: فهو تجديد العهد والنشاط والميثاق لدى الرعية وكيما يأخذوا متنفسهم.

وأما الثاني: فهو إرهاب قريش، وحين يصر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على أداء عمرته، وفي وقت حسبوا أن بهم هنة وضعفا!

وهذه العمرة هي التي جاء ذكرها في القرآن الحكيم، وحين قال تعالى ﴿**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذٰلك فتحا قريبا**﴾ [الفتح:(٢٧)].

وعلى ألا يمكث في مكة إلا ثلاثة أيام وبغير سلاح! في إمعان شروط، وكأنما لا يعرفون هذا النبي صلى الله عليه وسلم قبل، وحين أسموه هم أنفسهم الصادق الأمين!

وهكذا يدخل نبينا صلى الله عليه وسلم مكة، وإذ تنتظر قريش على أبوابها دخوله، منهكا متعبا من أثر يوم حنين! وليأمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بالإِطِّبَاع والرَّمَل؛ إظهارا لنشاطهم، وانكائهم في عدو الله وعدوهم! ولتكون سنة من بعده أبدا، وتخليدا ليومهم هذا، وليظل عالقا بالأذهان، وما قصة الاطباع؟ وما حكاية الرمل؟ ليحكيها الآباء للأبناء جيلا من بعد جيل آخر.

فعن ابن عباس قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وقد وهنهم حمى يثرب، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم[1].

وعن ابن عباس أيضا: أن قريشا قالت: إن محمدا وأصحابه قد وهنتهم حمى يثرب، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لعامه الذي اعتمر فيه، قال لأصحابه: ارملوا بالبيت ليرى المشركون قوتكم فلما رملوا قالت قريش: ما وهنتهم[2].

وإذ كان من إظهار عزته يومها أن خطب نبينا صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحارث! والتي زوجها إياه زوج أختها العباس رضي الله تعالى عنه، وجواز ذلك، وحين لا يكون ولي، وشرط الولي معا. في إشارة إلى ظهور عهد جديد، وليس كما كان يوم قريش معه في مكة!

---

(١) صحيح البخاري: ١٦٠٢

(٢) فقه السيرة، الألباني: ٣٦٤

وإذ قال صلى الله عليه وسلم: اكشفوا عن المناكب، واسعوا في الطواف، ليرى المشركون جلدهم وقوتهم[1].

وهكذا تنتهي عمرة القضاء، وهكذا تطلب قريش منه صلى الله عليه وسلم مغادرة مكة؛ ولانتهاء الثلاث.

وإذ كانوا لا يعلمون أنهم على موعد معه قريبا؛ ليفتح الله تعالى مكة البلد الحرام!!

﴿قال موسىٰ لقومه استعينوا بالله واصبروا ۖ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ۖ والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف: (١٢٨)].

هذه الآية حاسمة في رسم المنهج. وإن الأيام دول، وكما قال تعالى أيضا **﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ۚ وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ۗ والله لا يحب الظالمين﴾** [آل عمران:(١٤٠)]. كذا في شأن حاسم، وطمأنة لأهل الحق المنصورين أزلا، ولئن طال زمان استضعافهم، فإن ليلا بهيما وإن طال فيتبعه نهار، وهذه مسلمة!

وهذا شعاع خير، ونبأ نور، أن الصبر لله تعالى، وفيه وعلى دينه هو نظام الأنبياء الكرام والصالحين الأولياء، ولطالما كان بين أيديهم دين ربهم الحق، والذي جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم! صافيا من كدر، نقيا من عكر!

---

(١) السلسلة الضعيفة، الألباني: ٧٠٤٣

وهم إذ يصبرون على ذلك، فنور فخرهم يلوح شيئا فشيئا، ومن حواليهم ليستظلوا به يوما قريبا!

ولهذا يطمئن دعاة الخير والتوحيد والعقيدة إلى قرب مجيئ يومهم هذا، وإن عده الناس بعيدا!

وأنت خبير بدعوات طال بها زمانها، وإذ يسلم لها الكفار مفاتيح بلادها!

وأنت خبير أيضا ليوم عمرة القضاء، وبعد عام تام من يوم الحديبية، ليأتي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم معتمرا، وعلى العهد المبرم معه وكفار مكة، وإذ ها هم يطلبون منه أن يخرج من أرضهم بعد ثلاث، حسب ذلكم العقد المبرم بينهما، يوم الحديبية! وليقوم سعد بن عبادة من عرينه ناهضا يقظا؛ ليبين لأعداء الله تعالى أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين!

وإذ ليت يفهم الناس هذا! وحينها لطأطأت رؤوس، وخشعت قلوب!

لكن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم أخذ بحكمته، وتكلم بحلمه، ولطفه النبوي، ولئن رأوا إمهاله ريثما يدخل بميمونة فأبوا! وليخرج صلى الله عليه وسلم، وحسب العقد، وفي فؤاده ذلكم اليقين، الذي يثبت أركانه، ولا يتزحزح شيئا! أنه قادم فاتحا! وفي إشارة ترسم المنهج، وتبين الطريق، وتهدي السبيل!

هذا المنهج الذي جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والذي قال الله تعالى عنه **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ۖ فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ۚ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾** [النحل:(٣٦)]. وليس دغدغة مشاعر الجماهير بوليمة أو

شطيرة أو فطيرة! أو حتى كائنا ما كان، ولأن هذه أفعال خير تالية لتعلم وتعليم الناس دين ربهم المندرس! وكيما لا يسير أخ حبيب عشواء، على غير هدى من ربه! فإن الانتصاب إلى إقامة مشفى أو مدرسة أو حتى مسجد، ولا تقال كلمة الله العليا، التي هي التوحيد، فهذا شأن سبقت إليه قريش من قبل، ولم يغن عنها شيئا! وهذا فضلا عن أن الرعاء يتبعون من يمنحهم أكثر، ومن حيث كان على السوية والرشد والدين والعقيدة.

وليس يهم من بعد ذلك مئات أو ألوف أو حتى واحد فقط! ولأن أبا ذر اختار هكذا سبيلا، وهو في عليين إن شاء الله تعالى!

ثم ليدخل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بميمونة بنت الحارث، وفي مكانها الذي ماتت فيه! ولو علم أهل مكة حكمة الله في أقداره ما أخرجوه صلى الله عليه وسلم! ولأن هذا النبي مبارك أينما حل، ومبارك حيثما ارتحل! وكذا عباد الله المخلصين!

ودلك على صحة مذهبنا هذا وإذ أتاه صلى الله عليه وسلم سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ورسول الله ﷺ في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة، فصاح حويطب بن عبد العزى: نناشدك الله والعقد لما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث. فقال سعد بن عبادة: كذبت لا أم لك ليس بأرضك ولا بأرض آبائك والله لا يخرج. ثم نادى رسول الله ﷺ سهيلا وحويطبا فقال: «إن قد نكصت فيكم امرأة، لا يضركم أن أمكث حتى أدخل بها ونصنع الطعام فنأكل وتأكلون معنا». فقالوا: نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا.

وانظر سيرته صلى الله عليه وسلم فيهم وانظر وفاءه صلى الله عليه وسلم لهم وحلمه بهم.

وانظر حنقهم هم أولاء البعداء وحين لا يطيقون أن يروا نبي الله صلى الله عليه وسلم معتمرا! وهذا الذي يحدث على مر التاريخ وحين حبس الزبير عن العمرة وحين يمكن الله لعبيده جزءا يسيرا من الأرض ولا تطيق فئام ذلك!!!

يا محمد ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر، تدخل بالسلاح في الحرم على قومك، وقد شرطت لهم أن لا تدخل إلا بسلاح المسافر، السيوف في القرب. فقال النبي ﷺ: «إني لا أدخل عليهم السلاح».

فقال مكرز بن حفص: هذا الذي تعرف به البر والوفاء، ثم رجع سريعا بأصحابه إلى مكة، فلما أن جاء مكرز بن حفص بخبر النبي ﷺ خرجت قريش من مكة إلى رؤوس الجبال وخلوا مكة، وقالوا: لا ننظر إليه ولا إلى أصحابه، فأمر رسول الله ﷺ بالهدي أمامه حتى حبس بذي طوى.

وهذه رواية الإمام البيهقي رحمه الله تعالى حيث قال: ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من العام القابل من عام الحديبية معتمرا في ذي القعدة سنة سبع وهو الشهر الذي صده فيه المشركون عن المسجد الحرام، حتى إذا بلغ يأجج، وضع الأداة كلها الحجف والمجان والرماح والنبل، ودخلوا بسلاح الراكب السيوف، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفر بن أبي طالب بين يديه إلى ميمونة بنت الحارث بن حزن العامرية، فخطبها عليه فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب، وكانت تحته أختها أم الفضل بنت الحارث، فزوجها العباس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر

أصحابه فقال: «اكشفوا عن المناكب، واسعوا في الطواف» ليرى المشركون جلدهم وقوتهم وكان يكابدهم بكل ما استطاع فاستكف أهل مكة الرجال والنساء والصبيان ينظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم يطوفون بالبيت، وعبد الله بن رواحة يرتجز بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم متوشحا بالسيف يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله أنا الشهيد أنه رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله في صحف تتلى على رسوله
فاليوم نضربكم على تأويله كما ضربناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

قال: وتغيب رجال من أشراف المشركين أن ينظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم غيظا وحنقا ونفاسة وحسدا، خرجوا إلى الخندمة، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وأقام ثلاث ليال، وكان ذلك آخر القضية يوم الحديبية، فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة، فصاح حويطب: نناشدك الله والعقد لما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث، فقال سعد بن عبادة: كذبت لا أم -[٣١٦]- لك ليس بأرضك ولا أرض آبائك، والله لا يخرج، ثم نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم سهيلا وحويطبا، فقال: «إني قد نكحت فيكم امرأة، فما يضركم أن أمكث حتى أدخل بها، ونصنع ونضع الطعام فنأكل وتأكلون معنا»، قالوا: نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بطن سرف، وأقام المسلمون وخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا رافع

ليحمل ميمونة إليه حين يمسي، فأقام بسرف، حتى قدمت عليه ميمونة، وقد لقيت ميمونة ومن معها عناء وأذى من سفهاء المشركين وصبيانهم، فقدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسرف، فبنى بها، ثم أدلج فسار حتى قدم المدينة وقدر الله أن يكون موت ميمونة بسرف بعد ذلك بحين، فماتت حيث بنى بها، وذكر قصة ابنة حمزة، وذكر أن الله عز وجل أنزل في تلك العمرة: **{الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص}** [البقرة: ١٩٤]، فاعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشهر الحرام الذي صد فيه. هذا لفظ حديث موسى بن عقبة. وفي رواية عروة عند قول سعد بن عبادة: والله لا يخرج منها إلا طائعا راضيا، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك: «لا تؤذ قوما زارونا في رحالنا»[١].

وانظر حنقهم، وما نطقت به ألسنتهم؛ برهانه.

وإذ لما قضى رسول الله ﷺ نسكه في القضاء دخل البيت، فلم يزل فيه حتى أذن بلال الظهر فوق ظهر الكعبة، وكان رسول الله ﷺ أمره بذلك، فقال عكرمة بن أبي جهل: لقد أكرم الله أبا الحكم حين لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول.

فعن سعيد بن المسيب: لما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم طوافه في عمرة القضاء دخل البيت فلم يزل فيه إلى أن أذن بلال بالظهر فوق ظهر الكعبة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بذلك، فقال عكرمة بن أبي جهل- وأسلم بعد ذلك: لقد أكرم الله تعالى أبا الحكم حيث لم يسمع هذا العبد

(١) دلائل النبوة، البيهقي: ٣١٤/٤

يقول ما يقول، وقال صفوان بن أمية- وأسلم بعد ذلك: الحمد لله الذي ذهب أبي قبل أن يرى هذا. وقال ابن أسيد- كأمير- وأسلم بعد ذلك: الحمد لله الذي أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم حين يقوم بلال ينهق فوق الكعبة، وأما سهيل بن عمرو- وأسلم بعد ذلك رجال معه- لما سمعوا ذلك غطوا وجوههم[1].

والخلاف دائر بين أهل العلم في شأن الرمل والاطباع والسعي، وهل كان ذلك لعلة إظهار القوة، وبالتالي فلا مجال لذلك بعد، أم أن الأمر ثبت؟ والجمهور على أنه سنة، ولفعله صلى الله عليه وسلم.

فعن عبدالله بن عباس: **قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وقد وهنهم حمى يثرب، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم**[2].

والخلاف دائر أيضا في مسألة إبدال الهدي: فعن ميمون بن مهران: خرجت معتمرا عام حاصر أهل الشام ابن الزبير بمكة وبعث معي رجال من قومي بهدي فلما انتهينا إلى أهل الشام منعونا أن ندخل الحرم فنحرت الهدي مكاني ثم أحللت ثم رجعت فلما كان من العام المقبل خرجت لأقضي عمرتي فأتيت ابن

---

(١) شرح ثلاثيات المسند، السفاريني الحنبلي: ٥٢٤/٢. خلاصة حكم المحدث: فيه الواقدي، وحاله معلوم، وأيضا فهو مرسل.
(٢) صحيح البخاري: ١٦٠٢

عباس فسألته فقال أبدل الهدي فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يبدلوا الهدي الذي نحروا عام الحديبية في عمرة القضاء[1].

وثمة علاقة بين مسألة إبدال الهدي بغيره؛ ولوجه يراه العبد.

إبدال الهدي الواجب: اختلف الفقهاء في حكم إبدال الهدي الواجب إلى ثلاثة آراء:

الــــرأي الأول: ذهب الجمهور (المالكية والشافعية وأبو الخطاب من الحنابلة) إلى أنه لا يجوز إبداله مطلقا ولو كان بمثله أو بخير منه، لأن ملكه قد زال عنه بالنذر والتعيين وعليه ذبحه بعينه.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أهدى عمر بن الخطاب نجيبا فأعطى بها ثلاث مائة دينار، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله، إني أهديت نجيبا فأعطيت بها ثلاث مائة دينار، أفأبيعها وأشتري بثمنها بدنا»، قال: «لا انحرها إياها»[2].

فلو كان إبدالها أو بيعها جائزا بعد النذر أو التعيين عما في الذمة من دم واجب لأذن فيه لأن البدن أكثر لحما من النجيبة، وهو أنفع للمساكين[3].

الرأي الثاني: ذهب الحنابلة إلى أنه يجوز إبداله بخير منه وبيعه ليشتري بثمنه خيرا منه، ولا يجوز إبداله بمثله أو بدونه لعدم الفائدة في ذلك. وقال ابن

---

(١) ضعيف أبي داود، الألباني: ١٨٦٤

(٢) أخرجه أبو داود (١٧٥٦)، وأحمد (٢/ ١٤٥). والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (٣٨٥)

(٣) الحاوي الكبير ٥ / ٤٨٥ – ٤٧٦، والمجموع ٨ / ٣٦٢ وما بعدها، والمغني ٣ / ٥٣٩، والمدونة ١ / ٣٨٥

قدامة: نص على هذا أحمد، وهو اختيار أكثر الأصحاب، وقالوا: لأن النذور محمولة على أصولها في الفرض وهو الزكاة يجوز فيها الإبدال، كذلك هذا؛ ولأنه لو زال ملكه لما عاد إليه بالهلاك كسائر الأملاك إذا زالت[1].

الرأي الثالث: للحنفية روايتان في جواز إبدال الهدي المعين: رواية أبي سليمان ورواية أبي حفص، ففي رواية أبي سليمان يجوز إبدال الهدي بقيمته أو بخير منه أو بمثله من باب أولى.

وفي رواية أبي حفص لا يجوز إبداله بقيمته، ويجوز إبداله بمثله أو بخير منه بالأولى.

وجه الرواية الأولى: اعتبار البدنة بالأمر، ثم فيما أمر الله تعالى في إخراج الزكاة من النعم: يجوز القيمة فيه وكذا في النذور. ووجه الثانية: إن القربة تعلقت بشيئين: إراقة الدم، والتصدق باللحم لم يوجد أحدهما في القيمة، وهو إراقة الدم فلم يجزئ[2].

زواج نبينا صلى الله عليه وسلم من ميمونة بنت الحارث

الإسلام دين سهل يسير، ويدور مع اليسر، وفي فلكه، وحيث دار، وهو دين يرفع من قيمة المرأة أيما رفعة! وحين تزوج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحارث، وأصدقها أربعمائة درهم، وحيث كان وسعه ذلك، وحين

---

(١) المغني، ابن قدامة: ٣ / ٥٣٩

(٢) بدائع الصنائع ٢ / ٢٢٤ – ٢٢٥، والمبسوط ٤ / ١٤٦ – ١٤٧، وحاشية الطحطاوي على الدر المختار ٢ / ٥٥٥

تزوج صفية بنت حيي، وحين اصطفاها لنفسه من سبي خيبر، وجعله مهرها عتقها، وتزوج عائشة على اثنتي عشرة أوقية، وحين أخبرت أنه صلى الله عليه وسلم ما أصدق امرأة من نسائه أكثر من اثنتي عشرة أوقية.

وسوى أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشي، - رحمه الله - أربعمائة دينار، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية، وحين أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها.

والحاصل أنه صلى الله عليه وسلم أنفق في كل أحواله وما يتلاءم مع إعمال قوله تعالى: **﴿ لينفق ذو سعة من سعته ۖ ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ۚ لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ۚ سيجعل الله بعد عسر يسرا﴾** [الطلاق:٧].

هذا، ومن يسر وبساطة هذا الدين أن يتزوج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ميمونة رضي الله تعالى عنها، وإبان عمرة القضاء، في مكان يسمى سرف، قرب التنعيم وعلى بعد عشرة أميال من مكة تقريبا، والذي تزوجت وماتت فيه، قدرا مقدورا منه تعالى، وحين رفضت قريش أن يضيفوا ابنهم محمدا صلى الله عليه وسلم! ريثما يدخل بابنتهم ميمونة أيضا! وهذا كاشف عن كم هو فعل الكفر في أهله دناءة ودنية، وحين لا يرعوون القيم، ولما يتنكبون الأخلاق الحميدة، والمبادئ العليا، والمثل الحسنى.

والخلاف دائر حول زواجه صلى الله عليه وسلم من ميمونة حلا أو حرما، ومدار هذا الخلاف من رواية الإمام الحبر الترجمان- ابن عباس- رضي الله تعالى عنه، أنه صلى الله عليه وسلم عقد عليها وهو محرم، وهذا الذي أدخل العلماء

مداخل، ومنهم من أوله على أنه تزوجها في ذي الشهر الحرام ذي القعدة. وهذا جائز، ومنهم من حمله على ظاهر رواية الإمام الحبر الترجمان، وأنه كان محرما لعمرة القضاء.

وعبارة الإمام البخاري رحمه الله تعالى فصل في المسألة، وحين روى عن ابن عباس أنه: تزوج النبي صلى الله عليه وسلم ميمونة وهو محرم، وبنى بها وهو حلال، وماتت بسرف. وزاد ابن إسحاق: حدثني ابن أبي نجيح وأبان بن صالح، عن عطاء ومجاهد، عن ابن عباس قال: تزوج النبي صلى الله عليه وسلم ميمونة في عمرة القضاء[١].

والشاهد قوله: تزوج النبي صلى الله عليه وسلم ميمونة وهو محرم، وبنى بها وهو حلال؛ لأنه ولو كان المقصود به هو شهر ذي القعدة الحرام، لكان مقتضى ذلك حرمة عقد النكاح في الأشهر الحرم، وهذا لم يقل به أحد، فدل إذًا على أن المقصود هو عقد النكاح حال إحرامه لعمرة القضاء، وأن الدخول بها رضي الله تعالى عنها كان بعد أن أحل من هذه العمرة. ولأنه أيضا عقد وبنى في هذا الشهر الحرام، فدل على أنه بنى في حل أي من العمرة.

وهذه ميمونة كان اسمها برة، فغيره نبينا صلى الله عليه وسلم إلى ميمونة، وفيه جواز تغيير الاسم لمصلحة. وكما غير صلى الله عليه وسلم زوجه جويرية من برة الى جويرية أيضا.

(١) صحيح البخاري: ٤٢٥٨

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان اسم خالتي ميمونة برة فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة[١].

وكما أنها كانت آخر زوجة تزوجها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

بيد أن هذه ميمونة كانت ميمونة أيضا! وحين كانت كريمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحين أهدته بعيرها وما عليه- تقصد نفسها رضي الله عنها-، يوم أن تزوجها، وحين ينزل قرآن كريم يشيد لهكذا مسلك، قدوة تحتذى، ومثلا أعلى، وحين قال تعالى: ﴿**وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين۝قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج۝وكان الله غفورا رحيما**﴾ [الأحزاب:(٥٠)]. وذكر السهيلي أنه لما انتهت إليها خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لها وهي راكبة بعيرا قالت: الجمل وما عليه لرسول الله ﷺ[٢].

وهذا مثال لامرأة كانت ذات مال فتكرم به زوجها، وهذا أيضا إيثار وهدي حسن، يحسن تمثله، والقرار عليه إيثارا ومحبة وإلفا.

وانظر كيف شهد لها النبي صلى الله عليه وسلم بالإيمان، وهذا من مناقبها وفضلها.

فعن عبدالله بن عباس الأخوات الأربع: ميمونة، وأم الفضل، وسلمى، وأسماء بنت عميس- أختهن لأمهن- مؤمنات[٣].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: (٣٢/٤). وقال: صحيح، ووافقه الذهبي.
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ /٢٦٥
(٣) السلسلة الصحيحة، الألباني: ١٧٦٤.

وكما أن هذه ميمونة كانت قد وكلت أختها أم الفضل تزويجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدل على جواز أن يكون ولي النكاح امرأة، وحين وكلت أختها زوجها العباس في تزويج ميمونة من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفيه جوازوكالة الوكيل، وعلى شرط الوكيل، وهذا أيضا من يسر ديننا عموما، وفي مسألة الزواج منه أمرا حسنا.

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أشار على قريش أن يسمحوا له بالبقاء، وريثما يتم الدخول بميمونة، ثم يعد طعام الوليمة، فيأكل ويأكلون معه، وهذا برهان جواز أن يأكل المسلم والكافر معا، ومن حيث لا تمتهن شرائع الدين، ومن حيث ترتفع راية الحق! وكما أن محاولة تأليف القوم على الخير، ولعلهم يسلمون، وحين يقفون على أدبيات الإسلام، وعن قرب!

لكنها رضي الله تعالى كانت ذات دين وتقوى، وهذا بشهادة ضرتها عائشة! وانظر هذا التجرد، وهذا الصدق، وهذا الإلف، وبشهادة حق من ضرة في حق ضرتها، خلقا حسنا، وأدبا جما.

فعن يزيد بن الأصم ابن أخت ميمونة قال: تلقيت عائشة وهي مقبلة من مكة أنا وابن لطلحة بن عبيد الله وهو ابن أختها وقد كنا وقعنا في حائط من حيطان المدينة فأصبنا منه فبلغها ذلك فأقبلت على ابن أختها تلومه وتعذله، ثم أقبلت علي فوعظتني موعظة بليغة ثم قالت: أما علمت أن الله تبارك وتعالى ساقك حتى جعلك في أهل بيت نبيه؟ ذهبت والله ميمونة ورمى برسنك على غاربك، أما أنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم[١].

(١) رواه الحاكم (٣٤/٤). قال الذهبي في ((التلخيص)): على شرط مسلم.

والله لا أمحوك أبدا!!

هذا الدين الذي هو الإسلام طبع الصحابة الكرام على طابع المحبة التي نقرأ مثالها، حتى عز على التاريخ وأن يكتب -أبدا- مثلها!

وهذا الذي حدث يوم الحديبية، وحين اعترضت قريش، وعلى عبارة: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله.

قالوا: لا نقر بهذا! لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئا، ولكن أنت محمد بن عبد الله.

قال: أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله، ثم قال لعلي بن أبي طالب: «امح رسول الله».

قال: لا والله لا أمحوك أبدا، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب! هكذا في إصرار ينم عن محبة، ويكشف عن ولاء، لم يكن غريبا علي أولهم ولا آخرهم في هذا الاصطفاف العجيب حول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا حين قدر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الأمر قدره، وليعذر عليا حين أقسم عليه! وليبر قسمه أيضا، وليحاول أن يكتب هو، وقد كان أميا.

لكن الرسول النبي الأمي صلى الله عليه وسلم كان رؤوفا بهم رحيما، وقدر واقع الحال، واستعمل روح القانون بدل نظمه!

وهذا الذي يسمونه في القانون الإداري وغيره بالفرق بين الملاءمة والمشروعية، سبقا إسلاميا محضا!!

هذا وإنه لتتبدى مشاعر الرحمة والحنو على وجنات هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وحين تلحق بهم بنية صغيرة أن: يا عم يا عم! وليلحقها بخالتها، ولأن الخالة بمنزلة الأم! فطرة وشرعا حسنا! وبعد أن تجاذبها ثلاثة الصحابة كل يريدها حاضنته! في سباق خير ورحمة، أصبغهم به هذا الدين برحمته وحنوه وعطفه!!

ثم إنك لتذهل من هكذا تطييب نبينا صلى الله عليه وسلم للخواطر الكواسر، ولأولاء الصحب الغر الميامين، وحين أرادها كل منهم، في واقعة تسيل الرحمات من بين خلجاتها كلها!!

فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم» وقال لعلي: «أنت مني وأنا منك» وقال لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي» وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا».

قال علي: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ وليجيبه نبينا صلى الله عليه وسلم قائلا: إنها ابنة أخي من الرضاعة.

ثم إنك بهذا واقف على حكم شرعي، وحين بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حرمة الزواج بسبب الرضاع كحرمة النسب تماما بتمام. وسأشير إلى ذلك بعد قليل إن شاء الله تعالى.

وهكذا تمثل سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم كتابا مفتوحا فقها نجد، وأصولا نقف، وقضاء نعرف، وتفسيرا نغترف! وما سوى ذلك مما تقتضيه حياة امريء، فليس يكاد يبحث إلا وجد، وليس يكاد يرجو إلا جبر!!!

ودلك على صحة قولنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أبي إسحاق، عن البراء ين عازب قال: لما اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة، حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب، كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، قالوا: لا نقر لك بهذا، لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئا، ولكن أنت محمد بن عبد الله، فقال: أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله، ثم قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: امح رسول الله، قال علي: لا والله لا أمحوك أبدا، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب، وليس يحسن يكتب، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يقيم بها. فلما دخلها ومضى الأجل أتوا عليا، فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا؛ فقد مضى الأجل، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم، فتبعته ابنة حمزة، تنادي: يا عم يا عم، فتناولها علي فأخذ بيدها، وقال لفاطمة عليها السلام: دونك ابنة عمك، حملتها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر؛ قال علي: أنا أخذتها، وهي بنت عمي، وقال جعفر: ابنة عمي، وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي. فقضى بها النبي صلى الله عليه وسلم لخالتها، وقال: الخالة بمنزلة الأم، وقال لعلي: أنت مني وأنا منك، وقال لجعفر: أشبهت خلقي وخلقي، وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا، وقال علي: ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال: إنها ابنة أخي من الرضاعة[1].

---

(١) صحيح البخاري: ٤٢٥١

علام تترك ابنة عمنا يتيمة بين ظهراني المشركين؟!

وهذا تعبير تعلوه أمارات الولاء، وهذا تعبير تنساب من حواليه دلالات النسب وروابطها المتينة، وعلى أساس من هذا الدين صحيح! وحين كانت ابنة حمزة عم نبينا صلى الله عليه وسلم رضي الله تعالى عنه بمكة يتيمة، وبعد استشهاد والدها حمزة في غزوة أحد.

وإذ وهذا علي، وهي ابنة عمه، وليحن حنانا تغزر، وليرحم رحمة تندر!

وهذا زيد بن حارثة، وكان وصي حمزة، وكان النبي ﷺ قد آخى بينهما حين آخى بين المهاجرين، فقال: أنا أحق بها ابنة أخي.

فلما سمع بذلك جعفر قال: الخالة والدة، وأنا أحق بها، لمكان خالتها عندي أسماء بنت عميس.

وهكذا في ملحمة كان أقل وصف لها بأنها ملحمة الرحمة باليتامى!!

وهكذا أيضا يقيض ربنا الرحمن الرحيم من عباده من يمسح على رأس يتيم!

وهكذا ينال فضل ذلكم المسح، وإن لم تلحق به هذه البنية، عمارة، رحمها ربها، ورحم الله أباها، شهيد يوم أحد، أسد الله، حمزة بن عبد المطلب.

وهكذا أيضا يطمئن كل عبد سالك، أن الله تعالى سيخلفه في أهله، وحين صدق ما عاهد الله تعالى عليه، وليطمئن قلبا كل ذي كبد رطبة، أن الله تعالى معه، حين حياته، وبعد مماته، ليتسابق الرحماء على كفالة أهله وبنيه وبنياته!!!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما جاء عن الإمام الحبر الترجمان ابن عباس قال: إن عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب وأمها سلمى بنت عميس كانت بمكة فلما قدم رسول الله كلم علي النبي فقال علام تترك ابنة عمنا يتيمة بين ظهري المشركين فلم ينهه النبي صلى الله عليه وسلم عن إخراجها فخرج بها فتكلم زيد بن حارثة وكان وصي حمزة وكان النبي صلى الله عليه وسلم آخى بينهما حين آخى بين المهاجرين فقال أنا أحق بها ابنة أخي فلما سمع بذلك جعفر بن أبي طالب قال الخالة والدة وأنا أحق بها لمكان خالتها عندي أسماء بنت عميس فقال علي ألا أراكم تختصمون في ابنة عمي وأنا أخرجتها من بين أظهر المشركين وليس لكم إليها نسب دوني وأنا أحق بها منكم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أحكم بينكم أما أنت يا زيد فمولى الله ورسوله وأما أنت يا علي فأخي وصاحبي وأما أنت يا جعفر فشبيه خلقي وخلقي وأنت يا جعفر أولى بها تحتك خالتها ولا تنكح المرأة على خالتها ولا على عمتها فقضى بها لجعفر قال محمد بن عمر فقام جعفر فحجل حول رسول الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما هذا يا جعفر فقال يا رسول الله كان النجاشي إذا أرضى أحدا قام فحجل حوله فقيل للنبي تزوجها فقال ابنة أخي من الرضاعة فزوجها رسول الله سلمة بن أبي سلمة فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول هل جزيت سلمة[1].

ولأن سلمة هذا هو الذي كان زوج أمه أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهكذا أيضا فنحن في ملاحم رحمة ووفاء ومقابلة المعروف بمعروف مثله.

---

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج ٨ / ١٦٠

وهكذا أيضا نفيد حجلا لجعفر رآه نبينا صلى الله عليه وسلم، ولم ينهه، بل يكن في إقرار لفعلها فرحا، ومن حيث لم يأت إلا معروفا، لا منكر فيه، وهكذا أيضا ليس يقف ديننا موقفا سلبيا من كل ما يطرأ علينا من غيرنا.

غير أن هذا الحجل هو المعروف رفع رجل وخفض أخرى؛ فرحا لشيء، وليس هو من الرقص المعهود يوم الناس هذا أيضا في شيء!

وهذا الذي دفع أهل العلم بالحديث أن يبينوا ضعف حديث الحجل، ولما قد أخرجه البعض عن معناه، وحادوا به عن فحواه، فحولوه رقصا، وحوروه نغما!

وقال الإمام البيهقي رحمه الله تعالى: باب من رخص في الرقص إذا لم يكن فيه تكسر وتخنث (أخبرنا) أبو الحسين محمد بن علي بن خشيش المقرى بالكوفة أنبأ أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم الشيباني ثنا أحمد بن حازم بن أبي غرزة ثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن هانئ بن هانئ عن علي رضي الله عنه قال أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم انا وجعفر وزيد فقال لزيد أنت أخونا ومولانا فحجل وقال لجعفر اشبهت خلقي وخلقي فحجل وراء حجل زيد ثم قال لي أنت منى وانا منك فحجلت وراء حجل جعفر (قال الشيخ) هانئ بن هانئ ليس بالمعروف جدا وفى هذا إن صح دلالة على جواز الحجل وهو أن يرفع رجلا ويقفز على الأخرى من الفرح فالرقص الذي يكون على مثاله يكون مثله في الجواز والله أعلم [1].

(١) السنن الكبرى، البيهقي: ١٠ /٢٢٦

و"(مكي) بن عبد الله الرعيني، عن سفيان بن عيينة، له مناكير. قال العقيلي حديثه غير محفوظ، ثم ساق حديثه عن سفيان عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه قال لما قدم جعفر من الحبشة تلقاه رسول الله صلى الله عليه وآله فلما نظر جعفر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله حجل قال سفيان يعنى مشى على رجل واحدة اعظاما لرسول الله صلى الله عليه وآله فقبل رسول الله صلى الله عليه وآله بين كتفيه"[1].

على أن عبارة سفيان بن عيينة، وكما في رواية اللسان السالفة، وأنه مشى على رجل واحدة، ما ينفي رقصا، ولا يثبت وجدا!

غير أننا وقفنا أيضا على أصل فقهي آخر ومن قوله صلى الله عليه وسلم: «ابنة أخي من الرضاعة» وحين خرجوا على هذا الحديث قاعدة: يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، وحين قال نبينا صلى الله عليه وسلم عن عمارة بنت عمه حمزة، أسد الله، صاحب الكبد التي لاكتها هند بنت عتبة: «ابنة أخي من الرضاعة».

وإذ كان حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأخا له من الرضاعة أيضا، وحين أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب، وحمزة رضي الله عنه أسن من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بسنتين. وقال صلى الله عليه وسلم: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»، ومنه فإن كل ما ورد تحريمه من النسب فإنه يحرم للرضاع أيضا، وكما أن بنت الأخ يحرم الزواج منها لسبب النسب، فكذلك يحرم الزواج منها لسبب الرضاع.

---

(١) لسان الميزان، ابن حجر: ج ٦ / ٨٧

فعن عائشة أم المؤمنين: **جاء عمي من الرضاعة، فاستأذن علي، فأبيت أن آذن له، حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألته عن ذلك، فقال: إنه عمك، فأذني له، قالت: فقلت: يا رسول الله، إنما أرضعتني المرأة، ولم يرضعني الرجل، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه عمك، فليلج عليك، قالت عائشة: وذلك بعد أن ضرب علينا الحجاب، قالت عائشة: يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة**[١].

(١) صحيح البخاري: ٥٢٣٩

الفصل الرابع: سرية ابن أبي العوجاء إلى بني سليم

مرت سرايا ومرت غزوات، وكان النصر الرباني فيها مؤزرا للجماعة المسلمة، ولم يكن غير إلا يوم أحد، وقد بينت في حينها أنه كان يمكن أن يعد لا هزيمة بل نصرا، ولو من وجه، ولكن وقوفنا مع القرآن الحكيم كان دينا، وما جرى عليه التاريخ، يجعلنا نقول إن يوم أحد كان ابتلاء.

ومنه يوم سرية ابن أبي العوجاء إلى بني سليم، ويوم أن أرسله إليهم نبينا صلى الله عليه وسلم أميرا على خمسين مقاتلا، ليتضح بعد أن القوة لم تكن على تناسب مع هجوم بني سليم، وحين دعاهم ابن أبي العوجاء إلى الإسلام، فأبوا وليرجع تثخنه جراحه، و﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ۚ وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ۗ والله لا يحب الظالمين﴾ [آل عمران:(١٤٠)].

وهذا الذي حدث كان ابتلاء تفيد منه الجماعة المسلمة كل وقت وحين.

وللتأكد من أمرين حاسمين:

الأول: انسيابية حركة الإمداد والتموين؛ لتتلاءم مع الحدث ساعة بساعة، ولا يكتفى بما خطط سلفا، ولأن الحرب مفاجآت.

الثاني: قطع خطوط الإمداد والتموين للقوات المعادية، ولأن هذا ما حدث في سرية ابن أبي العوجاء إلى بني سليم التي بين أيدينا، وحين فتحوا خطوط إمدادهم فحدث الذي حدث.

اتخاذ نبينا صلى الله عليه وسلم منبرا من درجتين

الأثر السلبي للاستحسان العقلي في وجود الدليل القطعي الثبوت القطعي الدلالة

الاستحسان العقلي لا مجال له في هذا الدين، وخاصة في الأمور التعبدية، وفيما جاء به النص بوجه أخص أيضا، وحين كانت هذه الأمة ميمونة، ويوم أن كفيت عناء البحث، وقد لا تصل، وكيف تبحث وأمامها هدي الكتاب ونور السنة؟! وحين قال الله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ [المائدة:٣].

وأقول هذا لمناسبة اتخاذه صلى الله عليه وسلم منبرا، ومن درجتين! وحين نرى منابر من درجات! وكان الأمر ليس بحاجة إلى استحسان حوله، لنرى هذه المنابر الشاهقة ارتفاعا! وإذ كان الأصل علوها درجتين؛ ليتمكن الناس جميعا من رؤية خطيبهم، ودون ارهاق للرقاب وللرؤوس، وحين تشخص عاليا لترقبه ومن عل!!

وهلم جرا تجد استحسانا عقليا في كل ما واجه أمتنا تقريبا، ورغم وجود النص الغير محتمل إلا لوجه واحد هو الذي عليه ظاهره! وفي زمانه المعتاد وكذا وصفه وسببه وعلته.

ولذا، فنحن بحاجة إلى إعادة ترتيب البيت الفقهي، وللوقوف على أمرين هامين هما:

الأول: إعمال النص على ظاهره، وحين لا يحتمل إلا هذا الظاهر.

الثـــــاني: عدم اللجوء إلى الاستحسان العقلي في وجود النص؛ لأن هذا يفرغه من معناه الذي جاء به، ولربما وضع الفاعل لذلك نفسه في دائرة الاستدراك على الله تعالى! وهذا لا شك مسلك معيب وخطير في آن، حسن توجيه العبد نفسه عنده وليقف على حده.

إذ ولا ضرر من ذلكم، بل نفعا محضا.

وحين علم الله تعالى منه المسارعة إلى الاستجابة، وعدم الوقوف مليا أمام الاستحسان العقلي، الذي وكما قلت يظل إبليس وراء صاحبه، إلى أن يفرغ النص من معناه، فلا ظهرا أبقي، ولا أرضا قطع!

وما أجمل أن يكون العبد وقافا؛ لينال الفلاح، وحين قال الله تعالى: ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ۚ وأولٰئك هم المفلحون**﴾[النور: (٥١)]. ولينال الثناء الذي أبرقته هذه الآية الكريمة، ولا يحرمن عبد نفسه من منح السماء، وحين يرزق عملا بما جاء، وليرزق بركته وبركة فقه الذي لا يعلم، وحين عمل بما علم.

الباب الثالث: أحداث السنة الثامنة للهجرة النبوية

الفصل الأول: إسلام عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وسرية شجاع بن وهب الأسدي

وأكرسه في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: إسلام عمرو بن العاص

كان عمرو بن العاص خصما لدودا للدعوة الجديدة في مكة، وأدت به خصومته أن يكابد الطرق الوعرة، ليروح إلى النجاشي، ليحاول قطع خط إمداد رباني لهذه الجماعة المسلمة الناشئة، ولكن جهله هو الذي فعل به تيكم الأفاعيل، ولما استجهل أن ﴿اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج:٣٨]. وحين جهل أن النجاشي ملك عادل!

وما أعظمها سيرة، وأن يكون هناك على ظهر البسيطة من يشهد له الناس أنه ملك عادل!

ولأن الناس يذوقون من الظلمة ما يند وصفا، ويعز شرحا، ولئن أكل الناس في ظلهم من أطباق من فضة، أو بملاعق من ذهب!

فإن العدل، والأمن، والسكينة، والرضا، وحين تخيم ظلالها أمة، فليس يعوزها من بعدُ شيء!

ويبدو أن عمرو بن العاص كان قد جاء من بيئة ظالمة، وأراد أن ينفث سم ظلمها عند هذا الملك- النجاشي- العادل! وحين طلب منه أن يسمح له بقتل عمرو بن أمية الضمري رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم! وحين حسب أن غابة الظلم الذي عشش في قومه قريش، يمكن أن يغير مسلكا للنجاشي، بلغ به صيته، حتى راح إليه عمرو هذا نفسه!

وهذا يدلنا على كم هي قيمة العدل! وحين تستشرف غايات الناس، حتى يذكروا العادلين بإشادة، وحتى كانت بلادهم مثابة للناس، وعلى اختلاف بيئاتهم!

ولذلك حين طلب عمرو بن العاص من النجاشي- الملك العادل- أن يسمح له بقتل عمرو بن أمية الضمري، ليصفعه فيسيل دم أنفه! وحين حسب أن هداياه سوف يشتري بها ذمة النجاشي- الملك العادل-، وحين قال قولا حفظه له التاريخ: ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيع الناس فيه(١)!!!

وهذا مثال للعدل، وهو إذ ينطق عدلا مثله، سجله له التاريخ أيضا، ولأن هذا العدل هو الذي قامت به السماوات والأرض، ولأنه به قوام حياة الناس، واستقامة أحوالهم، وأمنهم، ولأنه به يعم الخير والفضل الناس، وحين يخرج كل واحد وهو إذ يشعر بالأمن، وإذ ليس هناك ما يكدر صفوه، أو أن يعكر دينه، أو رأيه، أو قوله، أو رشده، أو حتى لقمة عيشه!

ثم لينساح عمرو بن العاص؛ خجلا من قوله، ورهبة من ردة فعل ذلكم - الملك العادل- النجاشي!

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ٢٢٦].

وهذا برهان آخر أن المكر السيء إنما لا يحيط، وإذ لا يحيق إلا بأهله! وأنه تعالى يرد كيد كل ظالم إلى نحره، وحين يصلف، وحين يتأبى على الهدى، أو لا يأمر بالتقوى!

ثم إن عمرا هذا كان بين حنايا الهدى! وإذ كان يعيش ليله ونهاره يسمعه ويطن أذنه! وكان أولى أن يعرف ما عرفه النجاشي، ولفارق المكان، وشاسع المسافات! ولأن الرسول الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم كان بين أيديهم، وحين جاءه الناموس الذي جاء به موسى وعيسى، لكنه الكبر! بيد أنه التأبي على الهدى، والخير، والصلاح!

ولكنه؛ ولأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء، وحين قذف الهدى، وتوا على قلب عمرو بن العاص!

وهذه من منح السماء، وحين تفيق القلوب، ومن بعد كبوة، وإن طال بها زمانها!

ليعلن عمرو إسلامه عند النجاشي! ويرضى بالإسلام دينا! وبالله تعالى ربا، وبنبيه محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا!

وحين علم أن مقتضى هذا الإسلام، أن ربه واحد، أحد، فرد، صمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، فيخلع الأنداد، ويعرف حق رب الأرباب، في أنه النافع وحده، وأنه الضار وحده، وأنه الآمر وحده، وأنه الناهي وحده، سبحانه.

ويشـاء الله تعـالى أن يرجـع عمـرو إلى المدينـة، ليقابـل خالـدا بـن الوليـد وعثمان بن أبي طلحة، ليسلم الثلاثة الأصحاب، يومهم هذا، بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى أن: حضرنا عمرو بن العاص، وهو في سياقة الموت، يبكي طويلا، وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه، أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا؟ أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه، فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، إني قد كنت على أطباق ثلاث، لقد رأيتني وما أحد أشد بغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مني، ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه، فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: ما لك يا عمرو؟ قال: قلت: أردت أن أشترط، قال: تشترط بماذا؟ قلت: أن يغفر لي، قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟ وما كان أحد أحب إلي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها، فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة،

ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا علي التراب شنا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي[1].

بساطة دين ويسر عقيدة: إن الإسلام سهل، ويسر، إلا أنه يخلع الأنداد! وهنا مكمن الصعوبة؛ ولأن قوما تعبَّدهم الهوى، وحين يحسبون أنهم يعملون صالحا، فيجوبون الأرض وفيافيها، ويقطعون السبل ونواحيها، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وانظر عمرو بن العاص، وكيف تحمل عناء السفر ومشقته؛ ليسافر إلى النجاشي، ومن وراء البحار! عملا شاقا، مضنيا، مقيما، بعيدا عن الهدى والنور، وليقتل عمرو بن أمية الضمري، رسولَ رسولِ الله ﷺ عنده، وكان يمكنه أن يسلم بلا عناء قطع الفيافي، ولا مشقة سفر، أو كان يمكنه أن يصبر أ او ان يتصبر؛ لحين عودة عمرو بن أمية الضمري من عند النجاشي فيقتله، ولكنه الهوى، وحين يستحكم بامريء، فكساه!!

ومن ههنا ندرك مقابلة بين وجهين: وجه هو: بساطة ديننا، ويسره، وسماحته، ووجه هو: كلفة الكفر، وإثقاله ظهور أهله، وها قد رأينا كيف عنت عمرو على نفسه سفرا، ومن قبله إعدادا له، وإلى ما وراء البحار أيضا! وذلك؛ لسبيل دينه الكفر، يوم ذاك!

وفي وقت كان يمكنه أن يتحلل من ربقته، وبلا كلفة كهذا، وحين أمكنه شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول، وحين آمن بالله وحده ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا!

---

(١) صحيح مسلم: ١٢١

التخلية قبل التحلية: إنه حين جاء الإسلام، فإنما كانت أولى غراسه أن يغتسل الناس من هوى، وأن يزايلوا رأيا، جيء به من شمال أو من جنوب، ولا محط له عند الحق أنملة واحدة، وليحلوا بذلك صدق التلقي عن السماء، دينا قيما، خلع الأنداد، وزايل الشركاء، وأقض مضاجع الطغيان، وحين تلقوا من غير هدي السماء معاشهم، وحين تنكبوا سبيل ربهم الذي خلقهم، بإحلال شرع لا قيما، بل هوى متبعا مضنيا، وشحا مطاعا مفرطا، يلبي مصالحهم، ودون مراعاة لحلال أحله الرحمن، أو حرام حرمه الديان، وانظر عمرو بن العاص قبل إسلامه، وإذ كان يعض على الباطل عضا، ويبذل فيه المهج، وليكسر النجاشي أنف عزته، وحين رآه عبدا لهواه!!

عداوة لا سند لها: أرأيت كيف تجشم عمرو بن العاص قبل إسلامه عداء لا مبررا لدين الحق؟! وحتى تملكه هواه، فراح يبذل غاليا، ونفيسا، هان عليه؛ مقابل ألا يسلم وجهه لله؟! وكان يمكنه أن يجلس جلوس المتعلم النبيل على مائدة الحق، مائدة نبينا محمد ﷺ، ليريح نفسه من هواها، ويخلصها من طغواها! ولأن الحق يصطبغ أهله بوسامة الأخلاق الحسنة، ودماثة الشيم النبيلة، الفضيلة، الشميلة، الأصيلة! وخضوع للخالق العظيم وحده، فيمنحهم العزة في أوسع معانيها، ويهبهم الكرامة في أصدق تفاصيلها، ومبانيها؟! وها هو يشق الأرض، عبابها، ورياحها، وغبارها، وترابها، وهمها، وشركها!! ودين الحق بين يديه!! لا يكلف نفسه إلا يسيرا، ولو بدعاء خالص، أن يلهمه الرحمن رشده، فكان قد ألهمه!! ومن مطلق فيض لطفه، وكرمه، ورحمته، سبحانه، وبدل أن يكسر النجاشي أنف عزته، وحين قال له: قم إلى محمد، وأسلم بين يديه ،ومن حيث جئت فارجع؟!!

يهلكون أنفسهم: وهذا ما حصل مع عمرو بن العاص، وحين بذل كل غال ورخيص، بدل أن يسلم وجهه لله، ولاشك أن إبليسه زين له سوء عمله، حتى ظن نفسه مجاهدا، بطلا، مغوارا!!

وهذا هو ثمن مزايلة الدليل، وهذا هو كلفة مباينة البرهان، وحين يسلم المرء نفسه لا إلى طريق مستقيم؛ لينقذه، ولا الى سبيل الهدي؛ لينجيه، وحين يحسب أنه محسن صنعا، وإذ كان كما قال ربنا ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾[الكهف:١٠٣-١٠٦]؟! وهذا فعل عمرو بن العاص قبل إسلامه، ومن سعى سعيه أو نحا نحوه!!

أسباب هدى دافعة: كان النجاشي رجلا، حكيما، ضبطا، عادلا! ولهذا تجرد من كل هوى ممكن أن يسمى هكذا هوى!! وهنا- وفقط هنا- يضمن المرء لنفسه فلاحا، وحين لم تغره دنياه، محبة باطل، ومزايلة حق، ولئن كان ثمن ذلك أن ينخلع من النياشين أو يرمي بالأوسمة!! أو أن يطرح القلائد! ولأن كل ذلك، وكما قال الله تعالى ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى:(٣٦)]. وكان النجاشي صاحب الدرس الأول لهذا العلم الغزير، ولهذا التجرد العزيز!!! وحين أرجع عمرو بن العاص إلى صوابه؛ ليسلم بين يدي محمد ﷺ، ذلك النبي الذي جاء من عنده كافرا به!! وكان يمكنه أن يكسبه إلى صفه، سنة ضعفاء النفوس، وحين يفرحون بجموع حولهم، ربما كانوا سبب الهلاك المحيق المبين!!!

لا تُستَمالُ ذمم أهل العدل: ظن عمرو بن العاص أن هداياه إلى النجاشي سوف تلوح بوجهه عن حق، أو تثنيه عن عدل! وهذا ما يوقع الجهلاء في شر أعمالهم، وحين يرتكنون إلى جرف هار، يفرحون باجتماع، ويفتنون بالتفاف، وهذا مكمن الخطر الحقيقي، وحين طلقه النجاشي طلاقا بائنا! وليرجع عمرو بن العاص بخفي حنين، بيد أنه رجع، ولينال أجرا عظيما، وحين أسلم وجهه لله، وهو محسن!

الأثر الإيجابي للعلاج بالصدمة: كثيرا ما يكون المرء بحاجة إلى من يوقظه من غفلة، ليعاود التفكير الإيجابي، ومن بعد غرق في غياهب ظلمات، بعضها فوق بعض، كان يحسبها يوما نورا، مبينا، وهدى، أرشد! وهذا الذي حدث يوم كان علاج النجاشي لعمرو بن العاص بالصدمة أو بالصعقة! وحين كان هذا سببا إيجابيا، ليعاود التفكير من جديد، وليأتي على بنيان كفره من أعلاه، ليهده هدا، وأمام صخرة حق، كان عنه غائبا، وإذ كان بتسخير السماء للعبد النجاشي أن يلهمه الرشاد، ويزايل العناد!!!

وكثيرا ما يكون المرء بحاجة إلى من يرد إليه صوابه، وكيما لا يعود عليه وبال شره، ومن بعد حسبانه هكذا أنه محسن صنعا، وإذ به يستيقظ على سراب، كان يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، ووجد الله عنده فوفاه حسابه! وهذا الذي حدث مع عمرو بن العاص، وحين قطع الفيافي إلى النجاشي، ومحال أن يفعل فعله ذلك، إلا وكان يحمل بين جنبيه قناعة- ولو من طرف خفي أو جلي- أنه على حق، وإذ به أصبح باطلا، دكه إيقاظ النجاشي له دكا دكا!!!

قال النجاشي لعمرو بن العاص حين طلب منه أن يسلمه عمرو بن أمية الضمري؛ ليقتله ولأنه رسول رسول الله ﷺ إليه: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى فتقتله[1]؟!. ليرد عمرو بن العاص: أيها الملك أكذاك هو؟ وهذا تأكيد للعلاج بالصدمة، وحين يريد الله تعالى بعبده خيرا، وكعمرو بن العاص!!!

حكمة ذكر موسى دون عيسى -عليهما السلام-! وهذه فطنة النجاشي-بحق- ! إذ ولماذا ذكر موسى عليه السلام، ولم يذكر عيسى عليه السلام، وهو على ملته، وليس على ملة موسى؟!! والجواب: أن يهود كانت تقطن المدينة، وهم على مقربة من عمرو بن العاص، ولئن لم يكن عنده عنهم من ذلكم من خبر، فيمكنه البحث عن ذلك، ولن يحرم الضالة، وحين يصدق ربه فيصدقه تعالى، وليأتيه الحق من بين يديه ومن خلفه، وكما كان الباطل معه كذلك!!

سل به خبيرا: وفيه أن أهل الحكمة والخبرة والعلم لديهم من مكنونات العطاء ما ليس لدى غيرهم، وهذا ما يوجب البحث عنهم جد البحث، وكيما لا يسلم العبد نفسه لمن يضله، كما ضل نفسه أولا عن سواء السبيل!! وانظر كيف كانت عصارة حكمة النجاشي، وحين سكبها على عمرو بن العاص ليفيق، ومن بعد غفلة سادرة؟!

يقظة من بعد غفلة: حين أوقظ عمرو بن العاص من غفلة، أحاطت به إحاطة السوار بالمعصم، طلب من النجاشي أن يبايعه على الإسلام! فبسط يده فبايعه عليه! وفيه جواز مبايعة غير الإمام لمانع كغيبة، وكعمرو، ولأنه، ولا شك

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٣١٤/٢

كان قد صار هذا الخبر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولما لم يأتنا خبر آخر يناقضه، أو يرده.

وفيه أن النجاشي كان مسلما! ولأنه ﷺ صلى عليه يوم نعي إليه. وفيه المسارعة إلى الخير؛ خشية عوارض الزمان، فإنه لو كان عمرو قد أجل بيعته إلى حين عودته، فلربما كان قد حل به أجله، وحينها ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨].

فطنة عمرو: كتم عمرو بن العاص إسلامه عن أصحابه في الحبشة، وهذا تصرف حميد، فلعلهم كانوا قد غالبوه حتى فتنوه، أو لعلهم أغروه حتى قتلوه!

أثر الجليس الصالح: حين عاد عمرو بن العاص إلى المدينة ليسلم على يدي رسول الله ﷺ، قابل خالد بن الوليد، فأشار عليه بالإسلام، ولأنه دين الحق! فتأكد اليقين، وزال الشك، وحل القبول، وأميط أذى الطريق عنه؛ ليتضاعف يقينه مرتين: الأولى على يدي نجاشي الحبشة، والثانية على يدي خالد بن الوليد!

الإسلام يجب ما قبله: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله: هذه هي طمأنته ﷺ لعمرو بن العاص! وفيه بيان أن الإسلام خير، ولأنه يكفر ماضيا، عائقا، عتيقا، من الظلمات، ولأنه يبدل للإنسان سيئاته حسنات؛ ليعود عضوا إيجابيا مسلما، وبعد أن كان فردا، هلاميا، سلبيا، صعلوكا، لا يكاد يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا! وفيه جواز إعلان البيعة مرتين: وحين كانت الأولى أمام النجاشي، والثانية للسلطان الأعظم، وهو هنا نبينا محمد ﷺ، ولتدارك سببها.

أربتوا على صدور أهل المعاصي! وهذا درس تأهيلي، يفيد الناس في معاملة أصحاب المعاصي والآثام، وأن يربتوا على صدورهم؛ من رحمة، وأن يأخذوا على أيديهم؛ من شفقة، ولعل ذلكم يكوم منار هدى للحيارى، وسبيل صلاح للعاصين.

التوحيد أولا: وفيه أن الإسلام أصل، ومقدم على ما سواه، سببا لمغفرة، أو قبولا لتوبة، وأن فروع الشريعة إنما هي تبع لأصل أصولها، وهو الإسلام الذي هو: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

فضل الهجرة في سبيل الله: وفيه فضل الهجرة؛ ولأنها تشي بحمل النفس على الانخلاع من جواذب الأرض والطين والتراب إلى جواذب الحق والإيمان والتقوى، وحين أمرت بالهجرة إلى الله ورسوله، وليس إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها.

فضل الحج في سبيل الله: **وفيه فضل الحج أنه كذلكم يهدم ما قبله، وهذا كما روى أبو هريرة: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: من حج لله فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه**[(١)].

فضل الشهادتين: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله: وهذا هو شأن الشهادتين، أفضل عدة للمسلم، يقابل بها ربا كريما، ولما أيقنها شهادة قول وعمل، وما كانت لشهادة الحق هكذا من فضل ولمجرد قولها معراة عن فعل شاهد لصدق القول بها. ومنه أبضا حديث البطاقة جنبا إلى جنب معه.

(١) صحيح البخاري: ١٥٢١

فعـن عبـدالله بـن عمـرو: إن الله سـيخلص رجـلا مـن أمتي علـى رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا، كل سجل مثل مد البصر ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟يقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عـذر؟ فيقـول: لا يـا رب، فيقـول: بلى، إن لـك عنـدنا حسـنة، وإنـه لا ظلـم عليك اليوم، فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك فيقول يا رب، ما هذه البطاقة ما هذه السجلات؟ فقال: فإنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء[١].

المبحث الثاني: إسلام خالد بن الوليد

ما من ماكر بـدين الله، وبعبـاد الله تعـالى، إلا وتجـد في قلبـه خـورا ووهنـا، يعبر عن ذلك بصلف يدفعه إلى التجني أكثر، وإلى التهور أكبر؛ تعبيرا عن مكنون غيظ، كان سببه ذلكم الشعور الباطني بالانهزام. وأذكر من ذلك أن أحدهم كان معنا في الليمان، وكان الجيل الذي قد عانى من صلفه وكبره وعنته غير جيلنا، إلا أنه كان كلما رأى أحدا ملتزما تكونت في ذهنه صورة هذا الجيل الصامد الثابت أمام جبروته كعبدا! وما كان منه إلا أن يأتي منحنيا أمام أحدنا ومتوسلا قائلا: سامحني يا بني!!!

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٢٦٣٩

إن هذا الشعور بحد ذاته يحدث في النفس انكسارا وخوارا وألما وحسرة وضغطا نفسيا، يلاحق ظالما ليله ونهاره، ولا يكاد يفارقه، بل يظل جاثما بركبتيه على صدره، حاكيا معنى الهزيمة في أصدق معانيها، وكان من معانيها ذلكم الشعور الذي تلبس به ذلكم ال(أحدهم)، من عهد الستينيات الى عهد الثمانينات حين أولجه ظلمه سجنا، وبيد جلادين أمثاله يوما!

وهذا هو شؤم المعصية، الذي يذل صاحبه ويكسره ويخطمه، وإن تبدى في زي من قال ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص٣٨].

ذلكم وإن مثل هذا الشعور، وحين يتعبد صاحبه، لتراه يمعن، ويظل يمعن، ليتشفى ليشفى، وما هو بمشفى؛ وصدق الإمام الحسن البصري رحمه الله حين قال إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

وأنت إذ ترقب، وعن بعد، فعل أسلافهم على مدار التاريخ، وحين يعيشون عيشة التربص والخيبة والخوف المسيطر، ما بين خنادق يحفرونها؛ لتسهيل هروبهم، يوم قدرهم المحتوم، أو طائرات تظل معلقة في الجو، الى حين أن يحل الله بهم أمره، أو سياجات من بعدها سياجات، وهكذا في مشهد ربما لو عرض على عاقل أن يكون مثلهم أو في مكانهم لأبى! ولأن عيشة الأمن لا عدل لها! وكما قال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأنعام: ٨٢].

وهذا الذي سبق كان برهانه العملي أيضا ذلكم الشعور، الذي كان قد سيطر على خالد بن الوليد، رغم ما كان عليه من مضرب المثل الأعلى في

الفروسية والقتال والفتك بالصالحين، في كل من بدر وأحد والخندق، وها هو هو إذ يقول يوما وحين أراد الله تعالى له وبه خيرا: لما أراد الله بي ما أراد من الخير قذف في قلبي الإسلام، وحضرني رشدي، فقلت قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ، فليس في موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمدا سيظهر[1]!

قال خالد: فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية، خرجت في خيل المشركين، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه بعسفان، فأقمت بإزائه وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر أمامنا، فهممنا أن نغير عليه. ثم لم يعزم لنا، وكانت فيه خيرة، فاطلع على ما في أنفسنا من الهموم، فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف. فوقع ذلك منا موقعا، وقلت: الرجل ممنوع!

وليس يمكن ألا تمر على خالد ما مر على غيره من إرهاصات الخير والهدى وأعلام النبوة المختلفة، وطيلة عمر دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبل يقينا قد بلغه شيء من ذلك، وليس الآن وحسب، ولكنها إرادته تعالى، وحين يريد بعبد خيرا، ولأن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن سبحانه وتعالى، ويقلبها حيث يشاء، وكما جاء عن عائشة أن رسول الله كان يكثر أن يقول يامثبت القلوب ثبت قلبي على دينك قلت يا رسول الله، إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء

(١)تاريخ الإسلام، الذهبي: ج ٢/٤٧٤

فهل تخاف؟ قال نعم وما يؤمني أي عائشة وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن [1]؟

وهذا الذي حدث لخالد؛ ليقف بنفسه على كل خطوة يخطوها؛ لتكون له منها عبرة وعظة واهتمام، يؤدي به كل هذا إلى أن تتفتح مغاليق القلوب، ولينهض عبد من كبوة طالت، إلى يقظة يكون فيها يدا لهذا الدين، وبعد أن يدا عليه!

وهذا الذي نفيد منه أن يتوجه العباد إلى الله تعالى ربهم الحق سبحانه، أن يأخذ بأيديهم إلى بر الهدى والتقوى والصلاح والبر والمغفرة والتوبة النصوح. وذلك حين يعزم خالد التعرض لنبينا صلى الله عليه وسلم، وليرده الله تعالى، وليحدث نفسه بكلماته الخالدة: فهممنا أن نغير عليه. ثم لم يعزم لنا، وكانت فيه خيرة، فاطلع على ما في أنفسنا من الهموم، فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف. فوقع ذلك منا موقعا، وقلت الرجل ممنوع!

فافترقنا، وعدل عن سنن خيلنا، وأخذت ذات اليمين.

قال خالد: فلما صالح قريشا قلت أي شيء بقي أين المذهب إلى النجاشي فقد اتبع محمدا، وأصحابه عنده آمنون. فأخرج إلى هرقل، فأخرج من ديني إلى النصرانية واليهودية، فأقيم مع عجم تابعا، مع عنت ذلك، أو أقيم في داري فيمن بقي، فأنا على ذلك، إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمرة القضية، فتغيبت.

---

(١) تخريج كتاب السنة، الألباني ٢٣٣. خلاصة حكم المحدث صحيح.

وهذه مراجعات النفس، وهي تنبض بالحياة الجديدة، وكما نشتم منها قرب مجيء فجر الإيمان لهذا ال(خالد بن الوليد)، وبعد مرور سنين عددا، كان يناصب الدعوة الجديدة فيها عداء مريرا. ولكنه لطفه تعالى، وحين يريد بعبد من عبيده خيرا، وليتوب عليه، وبعد أن تاب وآمن وعمل عملا صالحا، وكما قال تعالى ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما﴾[الفرقان ٧٠].

قال خالد: وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي صلى الله عليه وسلم في عمرة القضية. فطلبني فلم يجدني، فكتب إلي كتابا فإذا فيه أما بعد فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام. وعقلك عقلك، ومثل الإسلام يجهله أحد قد سألني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أين خالد فقلت يأتي الله به. فقال ما مثله جهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين كان خيرا له ولقدمناه على غيره. فاستدرك يا أخي ما قد فاتك. فلما جاءني كتابه، نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام.

وهذه رسائل السماء، تهل على خالد ليصحو، وحين سخر الله تعالى له أخاه الوليد بن الوليد، داعية خير ورشد وبر، وهذا عنوان أهمية الصاحب، وهذا برهان أهمية الجليس الصالح، ليأخذ بيد أخيه إلى مشارف البر والتقوى أيضا، وهذا يفيدنا عظم فائدة عض على أخ في الله يعين، وهذا أيضا يفيدنا نفرة عن جليس السوء، لأرى كلا منهما، إن إيجابا حال كونه جليسا صالحا، وإن سلبا وحين كان جليس سوء، وكما قال نبينا صلى الله عليه وسلم مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب المسك وكير الحداد؛ لا يعدمك من

صاحب المسك إما تشتريه أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بدنك أو ثوبك، أو تجد منه ريحا خبيثة[١].

وقال خالد: وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة جدبة، فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة قلت إن هذه لرؤيا. فلما قدمنا المدينة قلت لأذكرنها لأبي بكر، فذكرتها، فقال هو مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق هو الشرك.

وهذا أيضا شأن الرؤيا الصالحة، إما يراها العبد الصالح، وإما أن ترى له، وهي مما يكون له أثر رباني فعال في سوق العبد إلى مشارف الخير، نائيا بنفسه عن مهاوي الردى، وخاصة حين يقصصها على خبير محب! فعن عبدالله بن عباس، **كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر، فقال أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم، أو ترى له، ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعا، أو ساجدا، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عزوجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم** [٢].

قال خالد: فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت من أصاحب إلى محمد فلقيت صفوان ابن أمية. فقلت يا أبا وهب. أما ترى إلى ما نحن فيه، إنما كنا كأضراس، وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإن شرفه لنا شرف. فأبى أشد الإباء وقال لو لم يبق غيري ما اتبعته أبدا. فافترقنا وقت هذا رجل قتل أخوه ببدر. فلقيت عكرمة بن أبي

---

(١) صحيح البخاري ٢١٠١

(٢)صحيح مسلم ٤٧٩

جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان. قلت فاكتم ذكر ما قلت لك. وذلك قبل أن يسلما!

وهذا أيضا فعل قرناء السوء، وحين ينفضهم العبد عن نفسه. وكصفوان ابن أمية وعكرمة بن أبي جهل. يومهما ذاك!

وهذا أيضا فعل نفر من الناس أبعدهم ربهم عن الخير؛ ولأنهم أصروا على الغوي، وحين استدبروا الرشاد! وما كان الله تعالى ليسمع قوما كان ذا وصفهم، وها هم قد أصموا عنه آذانهم، وأعموا عنه أبصارهم، واستغلقوا عليه قلوبهم! ولهذا جاء قوله تعالى مبينا مثل صنيعه هذا بقوم قال الله تعالى فيهم﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ۚ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا**﴾[النساء١٥٥].

هذا، وقد من الله تعالى على كل من صفوان وعكرمة بالإسلام الحنيف، وحتى قال صفوان يوم حنين: والله لقد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى صار أحب الناس إلي!! وهذا، ولأن فعل العطاء والمنح في تأليف قلوب الناس على الحق، إسلامهم ما أمكن أو تقليل عدائهم ما أمكن أيضا. وحتى أسلم عكرمة بن أبي جهل، ومن بعد شفاعة امرأته له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. وحين كان منه صلى الله عليه وسلم أن قال فرحا بإسلامه، ورغم تاريخه وأبيه! وقد غض نبينا صلى الله عليه وسلم عن ذلك طرفا! رحمة اتصف بها، ورأفة نعت بها أيضا "لا تسألني اليوم شيئا أعطيه أحدا إلا أعطيته لك". فلم يطلب عكرمة بن أبي جهل مالا أو سلطانا أو إمارة، وإنما طلب عكرمة المغفرة، فقال فإني أسألك أن تستغفر لي كل

عداوة عاديتكها، أو مسيرا وضعت فيه، أو مقاما لقيتك فيه، أو كلاما قلته في وجهك، أو أنت غائب عنه، فقال صلى الله عليه وسلم "اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد في هذا المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال مني من عرض في وجهي، أو وأنا غائب عنه". فقال عكرمة رضيت يا رسول الله. ثم قال -وهو صادق- لا أدع نفقة كنت أنفقها في صد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالا كنت أقاتل في صد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله [1].

وعلى كل فإن هذين وقد أصبحا صحابيين، وقد كان كل منهما له طلبه، والحاصل منهما أن يكفر الله تعالى عن كل منهما ما قد سلف، وهذه هي الغاية، والله تعالى هو التواب الرحيم.

قال خالد: وخرجت إلى منزلي، فأمرت براحلتي أن تخرج إلي، فخرجت بها إلى أن ألقى عثمان بن طلحة. فقلت إن هذا لي صديق، فذكرت له، فقال نعم، إني عمدت اليوم، وإني أريد أن أغدو، وهذه راحلتي بفخ مناخة، قال فاتعدت أنا وهو بيأجج، وأدلجنا سحرا، فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة. فنجد عمرو بن العاص بها، فقال مرحبا بالقوم. فقلنا وبك. فذكر الحديث. وقال كان قدومنا في صفر سنة ثمان. فوالله ما كان رسول اله صلى الله عليه وسلم في يوم أسلمت يعدل بي أحدا من أصحابه فيما حزبه [2].

(١) جمع الجوامع، الجامع الكبير في الحديث والجامع الصغير وزوائده، السيوطي ج١٤/٥١٩

(٢) تاريخ الإسلام، الذهبي ج ٢/٤٧٤

وكان من حاصل ذلك أن أراد ربه به خيرا، وكما أراد لعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة ما أراد لهم من خير، ليسوقهم سوقا إلى نبي الرحمة ليفتح لهم آفاق التوبة، وحين جاؤوا حاطين برحال توبتهم عنده!!!

المبحث الثالث: سرية شجاع بن وهب الأسدي إلى هوازن

بين فينة وأخرى ننوه إلى أن الذي حمل جيلنا الفريد التليد الأول على حربه، وأن الذي دعاه إلى سلمه، إن هو إلا شيء واحد، ذلكم هو إسلام العبيد وجوههم لربهم الحق، وذلكم هو هدف هذا الدين الأولى، كما أنه هو هدفه الانتهائي أيضا، وأن يخلعوا عبادة الأنداد، وأن يتوجهوا إلى قبلة واحدة هي قبلة ربهم الحق سبحانه، ولما يعنيه ذلكم من وحدة مصدر السلطان، وهو الله تبارك وتعالى، وبحيث لا يزاحم هذا السلطان أي سلطان أرضي آخر، أو حتى سلطان كان الأصل فيه أنه سماوي، ثم جاء الإسلام من بعد، ولأن الإسلام ناسخ لما قبله، وفي كل ما يتعارض مع ما جاء في القرآن الحكيم أو السنة النبوية. ومنه كان هذا هو الحد الفاصل بين عبودية لله تعالى، وأن ما عداها فالإسلام يقف منه موقفا صلبا، ولأنه ما جاء إلا بالخير، وهدى للناس، وكان من مقتضى هذا الهدى ذلكم التكريم الرباني للإنسان، وحين جعل له قبلة واحدة هي قبلة ربه وشرعه وأمره ونهيه وزجره، وبحيث يطاع ربنا فيما أمر، وبحيث ينتهى عما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله تعالى إلا بما شرع، وأن يصدق فيما أخبر، وكذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا أصل، ودلك على صحته يوم أرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم سرية شجاع بن وهب الأسدي إلى هوازن، وكانوا قد غنموا منهم حلالا كثيرا، حتى بلغ نصيب كل واحد من الأربعة والعشرين الذين ذهبوا ثلاثة عشر بعيرا، دون الخمس الذي هو لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وكذا سبي كثير.

إلا أنه وحين وصل خبر إسلام القوم بعد، ليأمر نبينا صلى الله عليه وسلم برد ما غنم منهم كله! سوى امرأة اختارت صحبة نبينا صلى الله عليه وسلم.

وهذا برهان صدق غاية هذا الدين، وأنه يكف حين إسلام، وأنه يغزو حين كفران.

بيد أن هذا الدين يمنح صلاحيات واسعة للقائد الميداني، وحسب ما يراه ملائما، فيتصرف وفق ما تمليه طبيعة هذا الميدان، فيدور مع المصلحة حيث دارت، ومن إلف أن يقره الإمام الأعظم على قراره، ولهذا سبقت أمة كانت تمنح سلطات تقديرية لقادتها، ولأن الأصل أنهم مختارون بعناية.

ودلك على صحة مذهبنا هذا، ما رواه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى عن ابن عمر، قال " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى نجد فخرجت معها، فأصبنا نعما كثيرا، فنفلنا أميرنا بعيرا بعيرا لكل إنسان، ثم قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسم بيننا غنيمتنا، فأصاب كل رجل منا اثني عشر بعيرا بعد الخمس" وما حاسبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي

أعطانا صاحبنا، ولا عاب عليه بعد ما صنع، فكان لكل رجل منا ثلاثة عشر بعيرا بنفله [١].

وكذا رواه الإمام البخاري عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية -فيها عبد الله بن عمر- قبل نجد، فغنموا إبلا كثيرة، فكانت سهامهم اثني عشر بعيرا -أو أحد عشر بعيرا- ونفلوا بعيرا بعيرا [٢].

وهذا هو الفن العسكري، وحين كانوا يسيرون ليلا، ويكمنون نهارا، كيما لا ينكشفوا، وحين أرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر في أربعة وعشرين رجلا إلى جمع من هوازن، وأمره أن يغير عليهم، فخرج وكان يسير الليل ويكمن النهار، حتى جاءهم وهم غارون، وقد أوعز إلى أصحابه أن لا تمعنوا في الطلب، فأصابوا نعما كثيرا وشاء[٣] .

وهذا هو تشاور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع عبد الله بن عمر، أمير السرية، وحين قال الإمام العماد رحمه الله تعالى وزعم غيره أنهم أصابوا سبيا أيضا، ثم قدم أهلوهم مسلمين، فشاور النبي ﷺ أميرهم في ردهن إليهم. فقال «نعم» [٤].

---

(١) سنن أبي داوود: ٢٤٠٨

(٢) صحيح البخاري: ٣١٣٤

(٣)البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٢٧٤/٤

(٤)المرجع السابق: ج ٢٧٤/٤

الفصل الثاني: غزوة مؤتة

بين يدي الغزوة: الإسلام دين عالمي لا إقليمي، ويريد أن يبسط عرش هداه على العالمين، كل العالمين، وهذه خصيصة تحسب له، وتلك منقبة يذكر بها، ولأن هذه هي الصبغة العالمية لهذا الدين، ويوم جاء، فإنما لأنه دين الله تعالى، وما كان الله تعالى ليذر قوما عن هداه، وما كان الله تعالى ليحرم بقعة عن سناه، وهذا مطلق رحمته وعدله، وهذا نظام رأفته ورشده، ولأن الناس أجمعين بحاجة إلى منظومة واحدة، يستظلون بظلها؛ لتوحيد المشارب، فيسير الكون، حاكيا قصة الإلف والتراحم، ولا يكاد يحدث فصام هنا، أو سواه هناك، ولأن توحيد المصدر للتلقي يجعل من العالم عالما منسجما مؤتلفا نافعا غير ضار.

وكانت هذه هي وجهة هذا الدين، ولأنه ولو لم يكن ذلك، لعاش الناس معيشة ضنكا، جراء حروب ضروس، أو انقلابات هناك! ولأن هنالك من النفوس نفوس تنتوي أن تهيمن، وترتجي أن تبسط جناح طاعتها، بذل ومهانة الآخرين.

ولذا جاء الإسلام عالميا!

وهذا مناسبة غزوة مؤتة، وها نحن نرمق مسيرتها، أرض الشام المباركة. ولينتقل الإسلام من حال الإقليمية إلى حال العالمية، وحين اطمأن إلى تأسيس قواعد تحمي بيضته، وها هي قد بسطت أجنحتها مرفرفة فوق ربوع جزيرة العرب، وإذ لم يتوان في ذلك، وإذ لم يأل جهدا أيضا!

وثمة جانب آخر غاية في الأهمية، ويوم أن لوحظ تطهير لجزيرة العرب من رجس شرك خيم عليها سنين طويلة! وإذ كان يلزم ذلك؛ ولإمكان الانطلاق نحو

تطهير العالم- كل العالم- أيضا، وكما قد بدئ بجزيرة العرب، ويبدو أنه كان مقصودا لتطهير البيئات المواجهة للدعوة الجديدة والمناوئة لها أيضا، وحين رأينا كيف كان جهد نبينا صلى الله عليه وسلم في تطهير بيئة جزيرة العرب، ولأنها قاعدة الانطلاق الأولى، وما بذل في ذلك من جهود جبارة، كانت بمثابة إزالة الألغام من طريق الدعوة، وحتى إذا جاء يوم انطلاقها خارج حدود الجزيرة العربية؛ لتجد أرضا ممهدة، ولأن الجبهة الداخلية- جبهة الانطلاق- قد أصبحت مأمونة!

* * *

سرية زيد بن حارثة يوم مؤتة

وهذه سرية زيد بن حارثة، وعلى رأس ثلاثة آلاف يواجهون مائتي ألف من الشام يوم مؤتة!!!

وأنعم به! أن نسميها باسمه، وأن يقف التاريخ عنده، هكذا في لباس عز إلا على زيد وأمثال زيد! وذلكم هو لباس التواضع والإلف والعرفان لذلكم الخادم القائد!

وأنعم بها غزوة! وإذ كان قائدها ذلكم الخادم القائد، في واقعة تجعل من أولاء القياصرة عجبا، وإذ لم يعهدوا ذلكم في تاريخهم الطويل، وليناوئهم هذا الخادم، وإذ ألفوه أمامهم قائدا! في واقعة دعوية أخرى، تحدث أزيزا لعروش أولاء، وإذ يجابهم ذلكم الخادم القائد!!

وهذا الذي سبق هو ديننا، وحين يعين القائد الأعلى للقوات المسلحة زيدا بـن حارثـة، ذلكـم المولى؛ أي ذلكـم الخـادم!!! وعلى رأس غـزوة فاصـلة في التـاريخ البشري كله، وليس فقط في التاريخ الإسلامي وحده! وذلك لأنه كان بنجاحها تكون حركة الامتداد الطبيعية لهذا الدين قد انطلق أوارها، للباطل دكا وإزهاقا، وللحق نشرا وترياقا!

وإذ كانت الأخرى، فكفى بالإسلام دينا يجعل من الخدم قادة، وأكرر في وقائع لم يحسب لها التاريخ نفسه حسابا من قبل! إلا في عهد هذا الدين، وإذ كان للموالي فيه ذلكم الشأن، الذي تطاولوا به عنان السماء، وفي كل حقل من حقول المعرفة والعلم والتطور والقتال والجهاد، وإذ تربعوا على كراسي المجد، وفي ظل ذلكم الدين، الذي رفع رؤوسا كانت منكسة، وإلا في ظلال هذا الدين، وحين أكرم نفوسا كانت مهمشة، وهم أولاء الموالي، أي الخدم العبيد الرق! وكل ما من شأنه أن يبدي لهم تاريخا سطروه، من مجد رفيع سامق، وتحت مظلة هذا الدين الإسلام!!

ويقولون: الإسلام دين الرق!

وأقـول: وإذ كـان هـذا الإسـلام قـد جعـل مـن الـرق قـادة ميـادين قتالنـا لأعدائنا، فـو الله وتـالله وبـالله لـرق بهذا الوصـف قمـن أن تنـال درجتـه، وحـري أن يتقلد وسامه وتاجه، وحين كان بلال أيضا مؤذنا لنبي الرحمة ونبي الملحمة صلى الله عليه وسلم!!

وهذه رسالة إلى العالم أجمع، وحين يكون قائد معركة بهذا الوزن؛ هو زيد بن حارثة! خادم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم!!!

وهذا أمر خارج التصور لدى كتاب التاريخ!!!

لكنه هذا الدين، وحين كان ميزان التقوى وحسب، هو الفيصل بين الناس، وحين النظر إليهم، وثمة جانب مهم آخر، وحين لا يستقل بقيمة الإنسان، الى درجة امتهانه؛ ولأنه خادم أو سائق أو ما شابه ذلك!!

والواقع أنك يمكن أن تعجب! وحين تسمع أو ترى من أولاء المستقلين خيرا من قادتهم، وأصلح من رؤسائهم، وتجاه فئات، ولربما كان الخير فيهم، ولربما تستمطر رحمات السماء؛ وإكراما لهم، وحين كانوا من الضعفاء، وإنما تنصر أمة بضعفائها، وحين كان النظر إلى أمرين هامين:

الأمر الأول: هو حصول عامل التقوى، وهو ذلكم الذي جاء النص بشأنه حاسما فاصلا، وحين قال الله تعالى﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ۚ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ۚ إن الله عليم خبير** ﴾[الحجرات١٣]. وهذا الذي تحصل من زيد، وبعد خدمته لنبينا صلى الله عليه وسلم عشر سنين، وحين قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته؟ وهذه مدة كافية ولا شك لاختبار قدرات الفرد دينا وصلاحا ومعالجة للأمور وسبرا للحقائق.

الأمر الثاني: هو توافر عامل الخبرة، وهو لا شك أيضا منسجم في حق زيد، وإذ كان يجلس ويسمع ويرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذا جلسات الاستماع والمشاورة بينه وبين قادته الميدانيين، مما أصقله فكان حصيفا!

وهذان العاملان حين توافرا، فالعقل يحيل أن استعماله أو من سواه إلا قرارا إداريا مشروعا وملائما معا!!

مثال أول: وأذكر أن شركة تصنيع منظف فيري للأواني قد عقدت اجتماعا لبحث كيفية زيادة حصة مبيعاتها من ال(فيري)، وأخذت تسمع للقادة المصنعين والميدانيين والتسويقيين، إلا أنهم بهتوا وحين تدخل عامل النظافة (الكناس)!!! وإذ كان ينظف حواليهم ويدور عليهم قائلا عندي الحل!!!

وكان لزاما أن يستمعوا، وبعد أن أعيتهم الحيلة، ليخبرهم أنه ومن واقع عمله الميداني في أصول النظافة وفروعها! قد تبين له أن زيادة ثقب إنزال السائل (فيري) من قارورته، سوف تزيد الدخل بنسبة تساوي اتساع الثقب أو ضيقه!!! وهذا الأمر لن يلفت بال ربة البيت، والسائل إذ يتدفق، وها هي مشغولة بشؤون بيتها! وهكذا في معادلة رياضية بحتة، ربما عز على من سواه حسابها، أو هو نفسه، ولأنه رجل بسيط، لا يحسن دندنة الرياضيين ولا طريقة المحاسبين!!!

وليقوم الناس من اجتماعهم بقرار إجماعي لاعتماد اقتراح العامل الكناس!!!

وأذكر مثالا آخر: وإذ عقدت الصحفية المصرية أمال فهمي لقاء إذاعيا مع عامل البستان في إحدى كليات الزراعة المجيدة، وكانت المفاجأة أنه أخبرها بأن الطلاب يخرجون من محاضراتهم من عند أساتذتهم، ليأخذوا المحاضرة العملية الخلاصة منه! ولتمرسه جيلا من بعد جيل آخر في أعمال البستنة!!!

ومثال ثالث: وأذكر أن أحدهم أجرى اختبارات؛ لمعرفة نسبة الكوليسترول الزائد لديه، وكل مرة يصف له الطبيب دواء ليس كان ناجعا!!!

وإذ كانت لديه بعض أفكار في المعالجة بالأعشاب، وأمام عدم نجاحه في السيطرة على مرضه في اتباع أسلوب العلاج الكيميائي، نهض وأخذ يسف من الأعشاب ما تيسر له!!! وبعد فترة راح يحلل بأمر طبيبه المعالج، وتظهر النتيجة سلبية لجهة زيادة الكوليسترول!!!

وما كان من الطبيب إلا أن بدت على وجنتيه علامات التعجب المتتابعة!! وإذ يلزم أن أمرا خارقا قد طرأ!! ليسأل المراجع عما جرى !! وليخبره أن الذي جرى هو تناول ملاعق عشبية سفا، ما بين فينة وأخرى!! ليطلب منه الطبيب مددا منها، وبالحساب!! لأنه يعاني هو الآخر من زيادة الكوليسترول!!!

وهلم جرا. وأمثلة ذلك لا حصر لها.

وقولنا هذا ليس تقليلا من شأن أحد أبدا، بل رفعا من شأن كل أحد، و من حيث الآدمية التي كرمها ربها، ومن حيث قال الله تعالى **﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم علىٰ كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾** [الإسراء٧٠]. ولكنه بيان لقول الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه **﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾** [يوسف٧٦].

وهذا حق الدفاع والمرافعة عن زيد بن حارثة الخادم القائد! مولى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في اتخاذ قراره التاريخي بإسناد أعمال قيادة معركة مؤتة إلى الخادم زيد بن حارثة!!!

ودلك مزيد دلالة تلكم المؤاخاة التي عقد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لواءها بين عمه حمزة بن عبد المطلب القرشي وذلكم ال(زيد بن حارثة)! وليعلم العالم أجمع ومذ فعل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فعله هذا وإلى أن

يرث الله الأرض ومن عليها أن المسلمين أمة واحدة، وتتكافأ دماؤهم، وأنهم يد على من سواهم، وحين كان من شأن زيد هذا أن يكون هو قائد كل سرية بعث فيها، إلى أن جاءت خاتمة الشهادة والظفر، رحمة ومنة ومنحة من الله تعالى إلى كذلكم رجل قضى نحبه، ولأنه كان من الذين صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه، وحين قال الله تعالى **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليهۦفمنهم من قضىٰ نحبه ومنهم من ينتظرۦوما بدلوا تبديلا﴾** [الأحزاب٢٣].

قرار الانسحاب: عن عبدالله بن عمر أمَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة. قال عبد الله كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين؛ من طعنة ورمية[1].

وإذ قال نبينا صلى الله عليه وسلم يوم مؤتة إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس وهذا قرار نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ وكيما لا تحدث فجوة زمانية، يستطيع الخصم خلالها إحداث نفاذ أو خلة داخل الصف، وما يستتبعه ذلك من إحداث خلخلة ما، تمكنه من نيل ولو من وجه من ذلك، في داخل الصف.

ولذا كان قرار تغيير القادة، وعلى هذا الوضوح، وعلى هذه الصراحة، وهو ما يميز القرار الإداري، وحين كان واضحا، وغير ملتبس، موجزا، غير مسهب.

---

(١) صحيح البخاري ٤٢٦١

ولأن هؤلاء القادة قد قتلوا جميعا! يوم مؤتة! وهذا علم نبوة ضاف آخر، ومن جملة أعلام، تمر بنا، والفينة بعد الفينة، وحين مدارستنا لهذه السيرة المباركة، عنوانا على التحدي، وبرهانا على الإعجاز، في خطين متوازيين، لا يلتقيان أبدا، وإذ كان من حاصلهما تسليم وإيمان، وقبول وإذعان، لرب كريم كان منه ومنحه وكرمه على العالمين، وحين أرسل إليهم ذلكم النبي الأمي الكريم: محمد صلى الله عليه وسلم.

ومرة أخرى ولأن هؤلاء القادة قد قتلوا جميعا! يوم مؤتة!

فعن أنس بن مالك خطب النبي صلى الله عليه وسلم فقال أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير إمرة ففتح له، وقال ما يسرنا أنهم عندنا قال أيوب أو قال ما يسرهم أنهم عندنا وعيناه تذرفان (١).

وحينها تولى خالد بن الوليد قيادة معركة غزوة مؤتة، وليثخن في الخصم إثخانا عرفنا حقيقته من قوله رضي الله تعالى عنه: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف. وحين اتخذ قرار الانسحاب، وأمام جحافل العدو، البالغة مائتي ألف، مواجهة ثلاثة آلاف مسلم! وفي معركة غير متوازنة بكل مقياس.

فعن قيس بن أبي حازم سمعت خالد بن الوليد يقول لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية (٢).

---

(١) صحيح البخاري ٢٧٩٨

(٢) صحيح البخاري ٤٢٦٥

وهذا أيضا من توفيقه تعالى للقائد الجديد، وريثما يعيدون التفكير في جلسات عمل، يبحثون فيها كيفية مواجهة خصم كهذا، كانت أعدادها مائتي ألف مواجهة ثلاثة آلاف مسلم!!!

عمل الإرجاف يوم مؤتة

أبا القاسم إن كنت نبيا فلو سميت من سميت قليلا أو كثيرا أصيبوا جميعا، وإن الأنبياء في بني إسرائيل كانوا إذا سموا الرجل على القوم فقالوا إن أصيب فلان ففلان، فلو سموا مائة أصيبوا جميعا، ثم جعل يقول لزيد اعهد فإنك لا ترجع أبدا إن كان محمد نبيا [1].

هذا قول المرجف النعمان بن فنحص اليهودي!

وهذه هي إدارة الحرب المعنوية، والتي لا شك لم يكن غائبا عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أوارها. وهذا عرف عسكري جار. وهو مثخن، وحين وجه توجيها حسنا.

وهذا الذي حدث، ويوم أن رد عليه الصحابي الكريم، القائد الأول للمعركة.

وحين قال زيد بن حاثة أشهد أنه نبي صادق بار[2]! هكذا في رد موجز بليغ، يجعل الخصم غير متزن! وليخور كخوار تيس، وحين ذبح بسكين!

(١) البداية والنهاية، ابن كثير ج ٤ /٢٧٥

(٢)مغازي الواقدي، الواقدي: ج٢/٧٥٦

وهـذا نـداء لتفعيـل جهـاز الحـرب المعنويـة في سـائر قضـايا أمتنـا الكثيرة، وأمام جحافل الباطل، وإذ أمكن إنكاؤها وبكلام!!! ومن مثل كلام زيد، وحين نطق به، فكان دلالة على إصابة الاختيار، ودقة الاختبار!

﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا﴾ [مريم ٧١].

هذه الآية الكريمة أشغلت سيدنا ومولانا عبدالله بن رواحة!

وهذا جيل كان عجيبا في الانخلاع من الدنيا، حتى أتتهم وهي راغمة، وكلما اسـتدبروها أتـتهم محملـة بأصـناف المتـاع، الـذي وكانوا إليـه ينظـرون أنـه مطيـة لإقامة صلب أحدهم لا أكثر، عونا على الجهاد، وصونا للنفس، وإحياء لها، وكيما لا يـؤدوا بأنفسـهم إلى التهلكة، وتبلغا إلى ذلكم السـبيل، سـبيل الله تعالى الصـراط المسـتقيم، فتراهم عليـه عاضـين بنواجـذهم، وإذ في ذلـك نجـاتهم، وإن بـذلوا في ذلـك مهجهـم وحيـاتهم، وهـذا الـذي دلنـا عليـه سـيدنا ومولانـا عبـد الله بـن رواحـة رضـي الله تعـالى عنـه، وحـين راح النـاس يودعـونهم بحفـاوة يـوم ذهـابهم إلى يـوم مؤتة، ذلك اليوم المشهود في تاريخ الناس من يومه وإلى يوم الناس هذا! ولأنه كان عنوانـا على تقـدم الإسـلام، فـاتحـا غير بـلاد الجزيـرة العربيـة، وحـين اتخـذ اتجـاه فتحـه الجديـد إلى الشـام والعـراق، وإلى حيـث قـلاع الأبـاطرة والأقـاصرة! في خطـوة تاريخية مجيدة، سجلها التاريخ، لهذا الجيل الفريد التليد.

ولنسـمع ما حكاه الإمام عبـد الله بـن رواحـة، ويـوم وداعهـم النـاس، وحـين رأوه باكيا:

عن عروة بن الزبير قال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس يوم مؤتة زيد بن حارثة فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة فإن أصيب عبد الله فليرتض المسلمون رجلا فليجعلوه عليهم فتجهز الناس وتهيأوا للخروج فودع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلموا عليهم فلما ودع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلموا عليهم وودعوا عبد الله بن رواحة بكى قالوا ما يبكيك يا بن رواحة فقال أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة إليها ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا فلست أدرى كيف لي بالصدر بعد الورود فقال المسلمون صحبكم الله وردكم إلينا صالحين ورفع إليكم فقال ابن رواحة لكنني أسأل الرحمن مغفرة * وضربة ذات فرع يقذف الزبدا أو طعنة بيدي حران مجهزة * بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا حتى يقولوا إذا مروا على جدثي * يا أرشد الله من غاز وقد رشدا ثم أتى عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم فودعه ثم خرج القوم حتى نزلوا معان [1].

هكذا في سياق يحكي تجربة الصدق في عنوانها! ويقصص حكاية البذل في برهانها، ويبث ربح بيع النفس في أصدق معانيها وصدقها، ويروم جنات عدن والرضوان خازنها، ويطرح إلف الدنيا وزينتها ومباهجها، ورضوان الله أكبر، من أمام النفس ومن خلفها، ومن فوقها ومن تحتها! وكل ذلك قد قيل: في محفل شهده من قص علينا ما رآه، ومن روى لنا ما سمعته أذناه ! صادقا عن صادق، في سلسلة متواترة يحال على أحدهم إلا صدق القول، وحكاية ما رأى وقد سمع!

(١) أسد الغابة، ابن الأثير: ج ٣ / ١٥٨

إذ وقد كان محفلا للوداع، نتنسم منه طيب المحبة في الله تعالى الحق المبين، وحين كان هذا الجيل أيضا يحكي لنا قصة المحبة في الله تعالى، كأند ما تكون محبة، وكأعز ما كان ولاء. وإذ كان سر ذلك وحده، أنها محبة فيه تعالى، لا يزيدها منح أو عطاء، ولا ينقصها منع أو جفاء!

وهذه محبة إن شئت قل، وكأنما طبعوا عليها، فكانت مطبوعة بخاتم الولاء فيه تعالى لا غير، ولذا فلا تكاد يمسها إبليس اللعين، أو أن يخالجها طرف الشيطان الرجيم! وإذ هي محلقة فوق سماء المودة والرحمة والإلف. ودلك على صدق منهجنا هذا، ذلكم الاحتفاء، وذلكم الاصطفاف، وها هم يلتفون حول إخوانهم مودعين، في رسالة بهيجة، حكاها لنا التاريخ كابرا عن كابر!

وهذا الاحتفاء نرى أنه ضرورة شرعية، ومن حيث فعله الأولون، وهذا هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم، فدل على أنه سنة، يؤخذ بها، ويعض عليها، وإذ وكلما تجهز الجند المقاتلون في سبيل الله تعالى، إذ وتجهز الناس لوداعهم؛ محبة إن شئت فقل، ولاء إن شئت فقل، وداعا إن شئت فقل، رفع معنويات إن شئت فقل! وكلها أبواب خير، وسائرها مفاتيح ولاء وبر.

والواقع أن هذا عرف معهود، ولكنه ليس معهودا على صفته التي حكينا آنفا!!! وإذ قد تبدلت التصورات والنظرات والخلجات والولاءات، ولا تكاد تجدها لله إلا عزيزا!!!!

بيد أن هؤلاء القوم علمونا كيف كانت نار جهنم في ذكرهم أحياء، حتى تمثلوها وهاهم إلى محافل البذل والجهاد سالكين، وهذا محل الظن الحسن بالله تعالى أكثر، وإذ ما راحوا إلا له تعالى! لكنه ذلكم الشعور المسيطر على أفئدتهم،

وحين غرسوا من ورائها غرسا، يقول بقول الله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا﴾. هكذا في صحيفة تحكي حكاية القسم وما هو بقسم! عن قوم تضلعوا العربية كابرا عن كابر! إذ يحكون، وكأنهم يقسمون، وما هم بمقسمين، تأدبا مع الله تعالى ربهم الحق المبين، وحين حكوا قوله تعالى الحق المتين، ذلكم الذي ينبض أيضا بكلام هو كالقسم، وإذ ليس قسما!!!

لغدوة أو روحة خير من الدنيا وما فيها

هذا هو قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لسيدنا الإمام عبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنه، وحين تأخر عن ركب جند يوم مؤتة، وحين سأله عن ذلك فأجاب ومحبة صلاة الجمعة معه صلى الله عليه وسلم! وحين اجتهد فأراد أن يجمع بين الخيرين خير الصلاة مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وخير اللحاق بركب المجاهدين، وإذ كان رده صلى الله عليه وسلم أن عمل الجهاد في سبيل الله تعالى مقدم على كل شيء دونه، لكن الصلاة ولأنها ركن ديننا الثاني، فتجبر إن حضرا، وإن سفرا، وإن تماما، وإن قصرا، مع الرسول؛ وهذا حسن، أو ليس معه وهذا أحسن؛ لمقام الحال الذي بين أيدينا. وفيه تزاحم الفضائل من الأعمال، وحين تزاحمها يقدم الأفضل فالأفضل صفة لا أداء. وإلا فالجميع مطالب به أداء، إما الجهاد أو الصلاة.

للحيوان في الإسلام قيمة عظمى!

وهـذا برهـان رحمـة تميزبهـا هـذا الـدين الحنيـف، ولأنـه ديـن الـرحمن الرحيم، فكان لزاما أن تتجسد فيه معاني الرحمة بسائر من خلق الله تعالى وما خلـق أيضـا. وحتى يـوم جهـاد الخصـوم! فإنـه خيرلهـم، وليضـطروا إلى دخـول الإسـلام، ويحملـوا عليـه، لا كرهـا بـل دعـوة وإلفـا، فينـالوا رحمـة الله تعـالى ربهـم الحق.

فعن شداد بن أوس: **ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قـال إن الله كتـب الإحسـان على كل شـيء، فـإذا قتلـتم فأحسـنوا القتلـة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته**[1].

ولكن مقصدنا هنا هو بيان فعل جعفربن أبي طالب، يـوم مؤتة، وحين عقـر فرسـه، ولما تحامل كفـار هرقـل حواليـه، وغلـب على ظنـه الشـهادة، ففعـل بفرسه ذلكم فعلا؛ كيما لا يفيد منه عدوه.

وقال الأزهري: العقر عند العرب كشف عرقوب البعير، ثم يجعل النحر عقرا لأن ناحر الإبل يعقرها ثم ينحرها[2].

وهو نوع ذكاة اضطرارية أيضا، وحين لا يقدر على الحيوان لذبحه.

وكان هذا الفعل من بعد حلقة، للأخذ والرد، بين أهل العلم جوازا كالإمام أبي حنيفة النعمان رحمه الله تعالى، وحين رأى ذلك في الأغنام إذا لم تتبع السير.

---

(١) صحيح مسلم: ١٩٥٥

(٢) لسان العرب، ابن منظور: ج ٤/ ٥٩٣

ويخشى من لحوق العدو وانتفاعهم بها إنها تذبح وتحرق ليحال بينهم وبين ذلك[١].

أو كما حكى قال الإمام السهيلي رحمه الله تعالى: ولم ينكر أحد على جعفر، فدل على جوازه إلا إذا أمن أخذ العدو له، ولا يدخل ذلك في النهي عن قتل الحيوان عبثا[٢]. وهذا هو ديننا!!

جعفر الطيار!

هكذا راج اسم جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وكأنما أسماه أبوه هكذا!

ولأنه قاتل يوم مؤتة حتى قطعت يمينه، فاحتمل الراية بشماله، فلما قطعت، حملها بين عضديه! ولهذا قال الإمام ابن هشام رحمه الله تعالى: وحدثني من أثق به من أهل العلم أن جعفر أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء[٣].

بيد أننا نشك في رواية حديث تأخر جعفر عن ركب الجهاد، وكما أنف في موضع آخر، وأنه لم يكن قصد تأخره ولتخلفه! وهذا بعيد عن ذلكم صنف، كان من شأنهم محبة رسولهم حتى كانوا على شغفهم من محبتهم الصلاة معه يوم الجمعة، ومن ثم يدركون قوافل البذل والجهاد والقتال، ولهذا فقد كان تأخره

---

(١) الأحكام السلطانية، الفراء:٤٤

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ٢٧٩

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣ / ٨٣٣.

لذلكم السبب، ولمظنة إدراك الفضلين، وحين تزاحما فضيلة صلاة الجمعة مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفضيلة اللحاق بركب المجاهدين، وكان هذا هو اجتهاده رضي الله تعالى عنه يوم ذاك.

وهذا الذي حكم بانقطاع حديث التأخر هذا. إذ وكما هو مشاهد، وكما قال الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى: ولما أصيب القوم قال رسول الله ﷺ - فيما بلغني - «أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيدا، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيدا».

قال ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون.

ثم قال «أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيدا».

ثم قال «لقد رفعوا إلي في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سريري صاحبيه، فقلت عم هذا؟ فقيل: لي مضيا وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد ثم مضى». هكذا ذكر ابن إسحاق هذا منقطعا[١].

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٢٨٠/٤

وأنت في الدنيا؟!

هذا هو قول عبد الله بن رواحة، وحين نزل أرض معركة يوم مؤتة، وأعطاه بن عم له شريحة لحم ليتقوى بها على الجهاد، فتشد صلبه له.

إلا أنه سمع الوطيس من حواليه، فألقى قطعة اللحم من يده، وحدث نفسه بهذا الحديث وأنت في الدنيا؟!!! وإنها لحياة طويلة أن ينتظر لأكل شريحة لحم، وها هم إخوانه يثخنون عدوهم!

وهذا الجيل ضرب، وإذ ما زال يضرب، مثل الفداء والبسالة والبطولة والشجاعة، ورباطة بأس عز نظيرها، وكما أنه جيل ضرب المثل الأعلى في الإيثار وفي المحبة وفي العطاء، وحين منحه أخوه هذا العرق من اللحم، في بادرة لا تنبئ إلا حب، ولا ترسل غير رسالة الولاء، ذلكم الذي عز، وذلكم الذي ند، وإذ كان لله تعالى العلي الأعلى.

علم نبوة ضاف!

عن عبدالله بن عمر **أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة. قال عبد الله كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين: من طعنة ورمية**[1].

---

(١)صحيح البخاري٤٢٦١:

ولربما ذكر عبدالله بن عمر ما رآه مرة، وما سمعه من غيره مرة، وهذا كوجه للجمع، ولاعتبار أن الروايتين عنه رضي الله تعالى عنه.

إنه لا يهم معرفة عدد طعنات أصيب بها جعفر بن أبي طالب يوم مؤتة، ولسنا نريد أن نقف على هذا الحدث كثيرا، ومن حيث عدده، وهل هو بضع وتسعون أم هو خمسون طعنة؟!!! ولأن الذي يحكيه ذلكم الخبر، أن رجلا خلده التاريخ، وقد تحامل عددا من الطعنات، وإذ مازال ينكأ عدوه، ويثخن خصمه!!! والواقع قد جرى أن طعنة واحدة يمكن أن يقعد بها المقاتل عن قتاله!! ليس ذما لذلكم صنيع بل مدحا. وإنما هذا جعفر يتلقى طعنة من إثر طعنة أخرى، وهو إذ مازال يقاوم، وبضراوة حكاها التاريخ أيضا، فهذا الذي يوقف عليه ويدرس للأجيال! ويجعلونه مائدة حوارهم، وزاد تفانيهم!

اللهم إنه سيف من سيوفك، أنت تنصره

«اللهم إنه سيف من سيوفك، أنت تنصره»، فمن يومئذ سمي خالد سيف الله.

عن أبي هريرة نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلا فجعل الناس يمرون فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا يا أبا هريرة فأقول فلان فيقول نعم عبد الله هذا فيقول من هذا فأقول فلان فيقول بئس عبد الله هذا

حتى مر خالد بن الوليد فقال من هذا قلت هذا خالد بن الوليد قال نعم عبد الله خالد بن الوليد سيف من سيوف الله[1].

هذا هو خالد بن الوليد بن المغيرة!

وقد كان أبوه صنديدا عدوا لدودا لهذا الدين الجديد يومه ذلك، وإذ يخرج من هذا البيت سيف من سيوف الله تعالى، في بادرة تعلم الدعاة ألا يقنطوا، وأن يأتي يوم تنصر دعوتهم، ومن داخل بيوت ألد أعدائها، وما عليهم حيال وضع كهذا إلا الصبر، كما صبر نبيهم ﷺ، وهم إذ يحملون لواء دعوتهم، ولا يعيقهم فعل الوليد، أو فعل غير الوليد، لأنه يمكن أن يأتي يوم يخرج فيه من بيت الوليد، أو بيت غير الوليد، من يدك حصنا بناه أبوه!!!

وهذا هو خالد بن الوليد نفسه، وحين طال به كفره، وعداؤه كأبيه!!! وليسلم تائبا، بعد خيبر، ولتكون معركة مؤتة أول منازلة له في ظل الإسلام الحنيف، وليسميه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم سيفا من سيوف الله تعالى!! وفي بادرة هي الأخرى أعظم، وحين طويت صفحة كفر وعداء طالا، وبهكذا إعلان توبة نصوح، برهان رحمة الرحمن، ودليل لطف اللطيف تعالى، وأن أبواب توبة العبيد مشرعة، ومن حيث لم يحشرج عبد!!!

وهذا هو خالد بن الوليد، وحين يتسلم راية يوم مؤتة، وليقرر قرارا ميدانيا، كان حقه أن يدرس في أعرق معاهد وكليات العلوم العسكرية، وهي ما يمكن تسميته ب (نظرية تغيير التكتيك العسكري الميداني الآني)، وبأقل خسائر ممكنة، حتى لا يتأثر جنده، وبأعظم مكاسب ممكنة، وكيما يرفع من قيمة جنده

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٣٨٤٦.

أيضا. وحتى يرى الخصم برهان هزيمته قد حل، وحين تسمع أذناه ما لم يقله بعد، أن نصر المسلمين عليهم، وها هو إذ رأته العيون قادم!!!

ولأنه أصدر قراره العسكري التاريخي، بتغييرات ميدانية سريعة، تتطلبها ساحات الوغى، وحين أعاد ترتيب الصفوف في الجيش، وقد جعل مقدمته ساقته، وساقته مقدمته، وميمنته ميسرته، و ميسرته ميمنته. وعلى مرأى من جنوده، وحتى أعظم ذلك في مخيلة المقاتلين!!!

وإذ كان من قرار خالد آنف الذكر أنه فعل بالخصم فعله، فأنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم، وقال وا قد جاءهم مدد، فرعبوا وانكشفوا منهزمين[1]! وهذه هي العبقرية العسكرية!

وهذا هو خالد بن الوليد، وإذ يتلقى تسعة أسياف في الله تعالى، ولايقعده ذلكم عن قيادة كتائب النضال والجهاد، ولأنه جهاد ونضال وقتال كان لله، ومازلنا نتدارس فعل هذه الأجيال، ونغترف من فنونها، يوما من بعد يوم آخر!!!

وهذا هو خالد بن الوليد، وإذ قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لما أخذ خالد بن الوليد الراية قال رسول الله ﷺ «الآن حمي الوطيس».

قال الواقدي حدثني عبد الله بن الحارث بن الفضل، عن أبيه قال لما أخذ خالد بن الوليد الراية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الآن حمي الوطيس[2].

(١)تاريخ الإسلام، الذهبي: ج ٤٨٦/٢

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٢٨٢/٤

وهذا هو الذي حدث، ويوم أن غير خالد رضي الله تعالى عنه تكتيك العمل القتالي الميداني، وكما سبق بيانه آنفا.

إن الله رفع لي الأرض حتى رأيت معتركهم!

وهذه هي معركة مؤتة، وحين نقلت أحداثها على الهواء مباشرة، ليراها ويقودها ويفرح لنصرها وبذلها القائد الأعلى للقوات المسلحة الإسلامية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وفي إعجاز لا يبارى!!! ولأنهم كانوا منذ أربعة عشر قرنا أو تزيد، ولم يكن النقل على الهواء معهودا يومها، بل ما رآه الناس إلا عصر كتابة هذه السطور المباركة الميمونة، ولأنها في سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قال رسول الله ﷺ «إن الله رفع لي الأرض حتى رأيت معتركهم[1]»

هل انسحب جيش مؤتة؟!

دار كلام تاريخي حول صحة أو بطلان انسحاب جيش المسلمين يوم مؤتة، ولاختلال موازين القوى، وحين كان عدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف يواجهون مائتي ألف مشرك!

وكلمة التاريخ فاصلة هنا! حين دأبت قواتنا المسلحة الأبية تواترا، وألا تضع حسبانا ذا قيمة ما لمسألة العدد. وأمامنا تاريخ بدر وأحد وغيرهما، فقد كان جد حاسم في المسألة.

(١) سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج١٠/٦٤

والـذي تطمـئن لـه الـنفس، أنـه ربمـا حصـل هـذا، وقبـل مجيئ خالـد بـن الوليد، ليدير المعركة، على وجه آخر، فتتعدل خطط المواجهة، لتنقلب إلى صالح المسـلمين، وحين فـر الـروم، وانتصـر المسـلمون . خاصـة وأننا أمام نبي كان يعمل بالوحي، وكان يدير معركته على الهواء مباشرة.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما قال ه الإمام الواقدي رحمه الله تعالى فحدثني العطاف بن خالد قال لما قتل ابن رواحة مساء، بات خالد بن الوليد فلما أصبح غدا، وقد جعل مقدمته ساقته، وساقته مقدمته، وميمنته ميسرته، و ميسرته ميمنته.

قال فأنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم، وقال وا قد جاءهم مدد، فرعبوا وانكشفوا منهزمين. قال فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم[1].

القائد المسلم رؤوف رحيم بمرؤوسيه

وهذا الذي حدث يوم مؤتة، وإذ حاص قوم فيمن حاص، وحين شعروا بذنبهم، وتلك منقبة أن يعترف العبد بالذنب، وهذه بداية طريق التوبة، فإن الاعتراف نوع توبة، وكما قال تعالى ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ۚ إن الله غفور رحيم**﴾ [التوبة(١٠٢)].

وقد كان من أولاء الصحب الكرام أن تجشموا الوقوف بين يدي رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ هم يستشرفون قبول توبتهم، وكما هو عهدهم

(١) تاريخ الإسلام، الذهبي: ج ٤٨٦/٢

مع القرآن الحكيم، وعلى ما سلف ذكره من آية التوبة، وكذا وحين أنزل الله تعالى توبة الثلاثة الذين خلفوا، وكما قال تعالى أيضا﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتىٰ إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ۚ إن الله هو التواب الرحيم** ﴾ [التوبة(١١٨)].

وكل هذه المعاني، وحين استحضروها، فقد كانت سائقهم إلى المثول بين يدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد قدموا بين يديه توبة من بعد اعتراف. وقد سبقه اقتراف، وحين عبروا عن مكنون نفوسهم، وحين قدموا بين يديه صلى الله عليه وسلم أنهم هم الفرار! وليربت على قلوبهم، وبسرعة تدور منها الرؤوس من الحلم! وتسكن معها القلوب من الرحمة! وتقر بها العيون من البهجة! وإذ تقاطرت دموع الفرحة ممزوج بدالات الرضا، عن الله تعالى ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا.

وليقول لهم لهم نبيهم صلى الله عليه وسلم بل أنتم الكرار!

وهكذا يكون القائد المسلم في منعطفات حركته الدائبة ليلا ونهارا، ومما يكون عاملا مساعدا آخر أن يمثل الناس بين يديه معترفين بما قد ضعفت نفوسهم بشأنه، ومن ثم يجدون الله تعالى توابا رحيما، وكما قد وجدوا نبيهم صلى الله عليه وسلم بهم رؤوفا رحيما، وعلى حد وصف القرآن المجيد له، وكما قال تعالى ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم**﴾ [التوبة١٢٨].

وهذا مجتمع إيجابي، لا تقعده المعصية عن محاولة كشف النقاب عن سبب محوها من صحائفهم! ولأنهم علموا أن عملا كهذا هذا وفوق أنه لا يليق

بمسلم أسلم وجهه لله، فإنه أيضا ليس يليق بمروءة قوم يؤمنون بالله تعالى ربهم الحق أيضا.

وبهذا التفاعل المجتمعي الإيجابي يمكن القول وبكل اطمئنان أنه ومن واقع ما حدث آنفا أن ينشئ مجتمعا طاهرا، وحين تذكر إذا غفل أو نسي، وفي الحالين فإنه يستغفر الله تعالى؛ ليجده تعالى غفورا رحيما، وكما قال تعالى ﴿ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما﴾ [النساء ١١٠]. وكما قال تعالى أيضا ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا علىٰ أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ۚ إن الله يغفر الذنوب جميعا ۚ إنه هو الغفور الرحيم﴾ [الزمر ٥٣].

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان في سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال فحاص الناس حيصة، فكنت فيمن حاص، قال فلما برزنا قلنا كيف نصنع، وقد فررنا من الزحف، وبؤنا بالغضب؟ فقلنا ندخل المدينة، فنثبت فيها، لنذهب، ولا يرانا أحد، قال فدخلنا، فقلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كانت لنا توبة أقمنا، وإن كان غير ذلك ذهبنا، قال فجلسنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر، فلما خرج قمنا إليه، فقلنا نحن الفرارون! فأقبل إلينا، فقال لا، بل أنتم العكارون، قال فدنونا فقبلنا يده، فقال أنا فئة المسلمين(١).

(١) ضعيف أبي داود، الألباني: ٢٦٤٧

استغفروا لأخيكم فقد دخل الجنة وهو شهيد

هذا الحديث ذكره نبينا محمد صلى الله عليه ثلاث مرات في وقت واحد، لكل من زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رواحة، رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وحين نقل معتركهم على الهواء مباشرة، وهو صلى الله عليه وسلم إذ يرقب سير معركة مؤتة!

وهذا الحديث ذو دلالات

الأول: هذا الأمر العقدي: الذي كان من سببه عقد لواء هذه المعارك التي وقف أمامها التاريخ طويلا، وما هو كان ذا سببها، وإذ أسلم الناس وجوههم لله، وعلى هذا النحو الفريد الأعز، حتى ساقهم هذا إلى محبة لقاء عدو الله وعدوهم، بل ويسارعون في ذلك مسارعة عجيبة، وليعجب أمامها كل عاد وغاد، وحتى كان الصبية يتبارون في ذلك، وقد مر علينا شيء من ذلك يوم أحد، وهذا عبد الله بن عمر الفاروق رضي الله تعالى عنهما يقول عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيش وأنا ابن أربع عشرة فلم يقبلني فعرضت عليه من قابل في جيش وأنا ابن خمس عشرة فقبلني قال نافع وحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز فقال هذا حد ما بين الصغير والكبير ثم كتب أن يفرض لمن يبلغ الخمس عشرة عشرة[١].

وهذا هو حمل الراية في نظر الناس يومئذ!!!

---

(١)صحيح الترمذي، الألباني: ١٣٦١

وإذ يأخذ المرء عجب آخر، وحين تتبدل معاني حمل الراية في يوم الناس هذا، حتى اختلط الحابل بالنابل، والله المستعان.

فالأمثال العربية وحين تنقل، تنقل وفي ذات مناسباتها!

أما ما نراه اليوم فإن الناس قمن بها أن تعاود الكرة بعد الكرة؛ لتقف على معاني حمل الراية عند أسلافهم الذين خلوا من قبل!!! وإذ كان مقصود حمل الراية هو ذلكم المعنى العالي الرفيع للجهاد ومقاتلة أعداء الله تعالى ربنا الحق وشرعه.

وهذا هو القول الفصل لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم بيانا لمعاني الراية إن قتل زيد فجعفر وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة. قال عبد الله كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية[1].

الثاني: ذلكم، وهو عقد الإخاء السامق العالي: وفي نظر هذا الدين، وحين يكون الأخ لأخيه، ومعه في رابطة إسلامية فريدة عزيزة أيضا! وفي تطبيق عملي لمواثيق السنة وعهود القرآن الحكيم. وحين حصر وقصر وبت، وحين جاء القرآن الحكيم في قول فصل ﴿**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ۚ واتقوا الله لعلكم ترحمون**﴾ [الحجرات ١٠].

الثالث: هو ذلكم الاستغفار! وما أجمله عقدا فريدا، وقلادة مجيدة، وحين يكون نظاما للمؤمنين، يستغفرون ربهم، آناء الليل وأطراف النهار، وفي

---

(١)رواه البخاري: (٤٢٦١).

علاقة شاهدة على هذا الاتصال التعبدي بالله تعالى العلي الأعلى أبدا، ووجه العجب في موقعنا هذا، هو سر الاستغفار للشهيد، ومن حيث مات شهيدا! ومعلوم أن الشهداء يصبحون في جوف طير خضر في الجنة! وهذا هو قوله تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ [آل عمران ١٦]. وقد سأل مسروق عبد الله بن مسعود عن هذه الآية، فقال إنا قد سألنا عن ذلك، فقال " أرواحهم في أجواف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل[١]. فلم كان الاستغفار لهم إذن؟! سوى أنها علاقة تعبدية بين العبيد ورب العبيد سبحانه، ومن جانب آخر لأثر هذا الاستغفار في النفس، وحين يكون علامة فاصلة على مدى اللجأ واليقين معا! وإذ كان من سره أن العبد في كل أحواله يركن إلى مولاه، ويتعبد خالقه الذي فطره وآواه، وكذا ولعمل الاستغفار في النفوس، وحين تشعر معها بلازم الحاجة إلى الخالق العظيم سبحانه. ومنضافا الى ذلكم هذا اليقين، وبأنه تعالى يغفر وحين يستغفر! وما أجمل وقوفا على عتبة هذه الآية لتدلنا على هذا المعنى الندي الحاني، وحين قال الله تعالى على لسان سيدنا ونبينا نوح عليه السلام ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ﴾ [نوح١٠]. وإذ لم يستدرك عليها ربنا الرحمن، فدل على أنه تعالى يغفر وحين يستغفر، ولا تأجيل!!! وفي توكيد للمعنى دلك عليه نظم الآية التي ما انفك عنها أيضا!!!

---

(١) صحيح مسلم ١٨٨٧

نصر أم هزيمة؟!

اختلف الناس حول الهزيمة أو النصر المسلمين يوم مؤتة.

وكان اختلافهم هذا نابعا من فرار ذكر يومها.

ونميل إلى أن نصرا كان قد تحقق، وذلك من عدة شواهد:

الأول: عدم وجود دليل يفصل في الهزيمة، مع وجود دليل فاصل في النصر.

١- ودلك عليه حكاية المددي مع الرومي، وحين قتله وسلبه، وعلى مشهد ومحضر من كل من المددي وخالد بن الوليد رضي الله تعالى عنهما، وحين احتكما في ذلك إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في مسألة السلب.

٢- ودلك عليها ما رواه الصحابي عوف بن مالك الأشجعي قال خرجت مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة فرافقني مدد من أهل اليمن ليس معه غير سيفه فنحر رجل من المسلمين جزورا فسأله المددي طائفة من جلده فأعطاه إياه فاتخذه كهيئة الدرق ومضينا فلقينا جموع الروم وفيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهب وسلاح مذهب فجعل الرومي يغري بالمسلمين فقعد له المددي خلف صخرة فمر به الرومي فعرقب فرسه فخر وعلاه فقتله وحاز فرسه وسلاحه فلما فتح الله عز وجل للمسلمين بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ من السلب قال عوف فأتيته فقلت يا خالد أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالسلب للقاتل قال بلى ولكني استكثرته قلت لتردنه عليه أو لأعرفنكها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يرد عليه قال عوف فاجتمعنا عند رسول الله

صلى الله عليه وسلم فقصصت عليه قصة المددي وما فعل خالد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا خالد ما حملك على ما صنعت قال يا رسول الله لقد استكثرته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا خالد رد عليه ما أخذت منه قال عوف فقلت له دونك يا خالد ألم أقل لك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ذلك فأخبرته قال فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا خالد لا ترد عليه هل أنتم تاركون لي أمرائي لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره[(١)].

الثاني: ما استفاضت به الأخبار أن خالدا قاتل يومها حتى انقضى عليه تسعة أسياف! وهذا برهان إثخان في العدو، وهذا الذي رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في حديثه عن قيس بن أبي حازم قال سمعت خالد بن الوليد يقول لعد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية[(٢)]. وهذا يقتضي أنهم أثخنوا فيهم قتلا، ولو لم يكن كذلك لما قدروا على التخلص منهم، وهذا وحده دليل مستقل كاف واف في المسألة، والله أعلم.

الثالث: وردا على ما أشيع من فرار يومها، فلعله قبل مجيئ خالد بن الوليد، وحين استشهد القادة الثلاثة الذين عينهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. أما وبعد مجيء خالد، وإعادة هيكلة الجيش، حتى فر الروم، فهذا شأن الانتصار.

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٢٧١٩

(٢) صحيح البخاري٤٢٦٦

الرابع: قال الإمام البيهقي رحمه الله اختلف أهل المغازي في فرارهم وانحيازهم، فمنهم من ذهب إلى ذلك، ومنهم من زعم أن المسلمين ظهروا على المشركين، وأن المشركين انهزموا.

قال: وحديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ «ثم أخذها خالد ففتح الله عليه» يدل على ظهورهم عليهم، والله أعلم[١].

الخامس: أن قطبة بن قتادة العذري - وكان رأس ميمنة المسلمين - حمل على مالك بن زافلة، ويقال رافلة وهو أمير أعراب النصارى فقتله، وقال يفتخر بذلك

طعنت ابن رافلة بن الأراش   برمح مضى فيه ثم انحطم
ضربت على جيده ضربة   فمال كما مال غصن السلم
وسقنا نساء بني عمة   غداة رقوقين سوق النعم

وهذا يؤيد ما نحن فيه لأن من عادة أمير الجيش إذا قتل أن يفر أصحابه، ثم إنه صرح في شعره بأنهم سبوا من نسائه[٢].

السادس: كان من رأي الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى أن المسلمين؛ ولكثرة عدد الروم، وقلة عددهم- المسلمين- وأنه لم يكن إلا المخاشاة والتخلص من أيدي الروم، وسمى هذا نصرا وفتحا، أي باعتبار ما كانوا فيه من إحاطة العدو بهم، وتراكمهم وتكاثرهم وتكاثفهم عليهم، فكان مقتضى العادات أن

(١) البداية والنهاية، ابن كثير ج ٤ /٢٨٥

(٢)البداية والنهاية، ابن كثير ج ٤/٢٧٥

يصطلحوا بالكلية، فلما تخلصوا منهم وانحازوا عنهم، كان هذا غاية المرام في هذا المقام[(١)].

السابع: قال ابن هشام وأما الزهري فقال - فيما بلغنا عنه - أمر المسلمون عليهم خالد بن الوليد، ففتح الله عليهم، وكان عليهم حتى رجع إلى المدينة[(٢)].

وأقول إنه ولو لم يكن في الباب إلا قوله ففتح الله عليهم. لكفى!

على أن أخذ خالد للراية، ومن غير إمرة، وإن هو إلا اجتهاد الفرد المسلم، ويكأن خالدا وغير خالد، ومن أولاء الصحب الكرام قد سدوا؛ ومن اجتهادهم هذا ثغورا، وإن أخطأوا مرة وإنما لهم أجر! ولئن أصابوا مرة، وإنما لهم أجران! ويكأن ساحة القتال والمعركة، وما سواهما ومن مسائل الأمة العظام، وإنما يتجشمها أولاء الأصحاب الغر البررة الميامين.

وها نحن قد مر بنا صنيعه صلى الله عليه وسلم، ويوم قوله اللهم إني أبرا إليك مما فعله خالد! وقد مر بنا أيضا أنه صلى الله عليه وسلم، وإنما لم يعنفه، ولم يوبخه، ولم يوقع عليه عقابا يومها، وهذه من المسائل الإدارية، ومنم فقه ديننا؛ وليقف عليها الناس استلهاما من ظلالها، واستشرافا ومن فضلها ومعانيها ومآلاتها!

فعن عبدالله بن عمر بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى

(١)البداية والنهاية، ابن كثير ج ٤ / ٢٨٦

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير ج ٤ / ٢٨٦

إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم فذكرناه، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يده فقال اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد، مرتين[1].

علم نبوة ضاف!

فعن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى زيدا، وجعفرا، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم[2].

لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاما فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم

هذا هو قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين زف خبر استشهاد جعفر إلى أهله!

وهذا الدين هو دين المواساة في أوسع أبوابها. وهو دين جبر الخواطر المنكسرة. وبه يفعل العبد فعل المواساة راجيا عقبى ربه تعالى ومرضاته. وهذا باب

(١)صحيح البخاري ٤٣٣٩

(٢)صحيح البخاري: ٤٢٦٢

واسع، وبحر عميق. وإذ كان عنوانا على البر، ودليلا على المشاطرة، وكيما يعلم العباد المحزونين أنهم بين إخوانهم، لا يدعونهم، وأنهم وسط ذويهم، فيخففون عنهم مصابهم، وحين أعدوا لهم طعامهم، وإذ قد حل بهم ما يشغلهم، وإذ قد حفت ملائكة السماء باب بينهم، ولأن في هذا الدين من باع نفسه لله! في إشارة أخرى إلى فضل الشهيد وآله معه، بل وبيته كله مواساة إن شئت فقل. ولما كان ذلك كذلك، وحين يشعر بيت مسلم هكذا مواساة تتلطف بها الأجواء حول بيته، وتخفف بليته، وبعد إذ كادت تئن نفسه من عظم مصيبته!

وإذ كان أمره صلى الله عليه وسلم إعداد طعام! وهو أمر هين، وخاصة أنه صلى الله عليه وسلم ذكر طعاما نكرة! وحينها هان أمر الإعداد، ولو كان كمثل حبات من فول أو أقراص من طعمية! ولأن الأصل في الطعام ما يقيم صلبا، وما يسد رمقا، وليس شرطا، بل شرط ألا يكون سرف أو ترف، ولاسيما في وقت كهذا الذي يشهد فيه آل جعفر مصابهم، وإذ بالكاد ولو أكلوا ما يسد رمقا، وما يذهب جوعا. ولئن كان الإسلام ليس يحرم ما لذ وطاب من مأكل، أو ما ساغ أو راق من مشرب! ولطالما لم يخرج إلى ما فيه سرف أو ترف أو مخيلة.

والزوجة راعية في بيت زوجها

هذا، وقد دل الأثر الذي ساقه الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى أن زوجة جعفر وقبل وصول خبر استشهاده إليها كانت قد عجنت عجينها، وهيأت أبناءها، وهو مثال الزوجة الصالحة الماهرة، وحين قامت على بيتها رعاية

واهتماما، والحال أن بعلها في مهمات الجهاد والبذل، أو أنه في طلائع القتال واستشراف اللقاء! أو كأنه في مهام أعمال كسبه وعيشه وآله وولده.

فأتيته بهم فشمهم وذرفت عيناه.

وإذ طلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أبناء جعفر ليمسح على رؤوسهم، وليربت على صدورهم، ويهون ويشارك، وعلى حد قول زوجته فأتيته بهم فشمهم وذرفت عيناه.

وهذه رحمة نبي، كان التعبير الفطري عنها، بما قد نقلته لنا زوج جعفر من عبارة، ولما تضمنته من إشارة. وهذا النبي، وإذ كان يقود معركة مؤتة على الهواء مباشرة، وإلا أنه صلى الله عليه وسلم لم ينس المواساة، ولا أن يكون أول مواس!

لا تبكوا على أخي بعد اليوم

هذا نهي صريح من نبينا صلى الله عليه وسلم، وألا يبكى ميت بعد ثلاث.

ولأن هذا الدين، وإذ يعيش الحدث، وأن نعم، وإذ يقدر المشاعر، وأن نعم، ولكنه ليس يريد أن يمثل خيمة عزاء دائم في البيت المسلم؛ وكيما تذهب وحشة الفراق، أو يقل أوارها، وكيما لا يستيقظ أهل بيت الميت على حزنهم صباحهم، ليظل عالقا بأذهانهم إلى مسائهم.

وإن الإسلام دين الحركة والإيجابية، وليس يقف على الحدث الواحد إلا بما يستحقه، ولينهض الناس إلى نشاطهم من جديد، فتدب الحركة في المجتمع المسلم، ليبدع في تنشئته، وليسهم في تربيته.

وكان من صنيعه صلى الله عليه وسلم أن نهى نساء أهل بيت جعفر عن النوح، برهان عدم جوازه، ولأن فيه مسحة الاعتراض على القدر! ولا سيما إن تسربل بزي النوح والدعاء بدعوى الجاهلية. ولأنه وهنا يكون قد وصل الى درجة يخشى على فاعله، ولذا أمر صلى الله عليه وسلم أن يحثى في وجوههن التراب؛ كناية عن شدة النكير عليهن، ولعظيم فعلهن!

وإذ كان منه صلى الله عليه وسلم أن دعا الله تعالى أن يخلف على آل جعفر خيرا. ولأنه صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رؤوف رحيم.

كافل اليتيم له، أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة وأشار مالك بالسبابة والوسطى[١].

وإذ جاءت زوج جعفر بأبنائها إلى نبينا صلى الله عليه وسلم ليربت عليها ويطمئنها، أنه كفيلهم ووليهم في الدنيا وفي الآخرة! وفي رسالة للعالمين أن هذا هو ديننا، وحين يكفل قوما أصيبوا في عائلهم في الدنيا وفي الآخرة أيضا، وكإشارة أن عطاء هذا الدين ممتد ودائم أبدا!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه عبدالله بن جعفر بن أبي طالب قال أمهل رسول الله صلى الله عليه وسلم آل جعفر ثلاثة أن يأتيهم ثم أتاهم فقال لا

---

(١)صحيح مسلم: ٢٩٨٣

تبكوا على أخي بعد اليوم. ثم قال ادعوا إلي بني أخي. فجيء بنا كأنا أفرخ، فقال ادعوا إلي الحلاق. فأمر بحلق رؤوسنا[1].

وعن عبد الله بن جعفر أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم بعدما أخبرهم بقتل جعفر بن أبي طالب بعد ثلاثة، فقال لا تبكوا أخي بعد اليوم. ثم قال ائتوني ببني أخي، فجيء بنا كأننا أفرخ، فقال ادعوا لي الحلاق، فأمره، فحلق رؤوسنا، ثم قال أما محمد فشبه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبه خلقي وخلقي،، ثم أخذ بيدي فأشالها وقال اللهم اخلف جعفرا في أهله وبارك لعبد الله في صفقته، قال فجاءت أمنا فذكرت يتمنا، فقال العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة حديث صحيح[2].

"لا تحدي بعد يومك هذا

تسلبي ثلاثا ثم اصنعي ما شئت»، تسلي ثلاثا»، "لا تحدي بعد يومك هذا"

هذه روايات ثلاث في مسألة الإحداد. وقد أوقع ذلك خلافا بين أهل العلم رحمهم الله تعالى. ومنشأ هذا الخلاف من احتمالات اللغة لكل من الألفاظ الثلاثة الواردة.

ولأن معنى تسلبي أي بالغي في الإحداد. وليس كما قيل: أي بالغي في النوح وشق الثياب! وأن هذا مناف لأحاديث أخرى صحيحة، وردت في النهي عن النوح

---

(١) صحيح النسائي: الألباني ٥٢٤٢

(٢)تاريخ الإسلام، الذهبي٥:/٤٣٠. حكم المحدث صحيح.

وشق الثياب، ولأن فيه امتعاضا لأقدار الله تعالى المؤلمة، ولأنه ينافي الصبر والتصبر خلقين رفيعين، وخاصة من بيت النبوة، فإن جعفرا كان ابن عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. ويحال على امرأته أن تشق، ويحال على زوجه أن تنوح، وكما يبدو من ظاهر الكلام!

وهذا حديث الإمام البخاري رحمه الله تعالى بين أيدينا، وهو فصل في المسألة.

فعن عبدالله بن مسعود **ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**[1].

ومنه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم تسلبي أي تصبري ثلاثا، وهو المبالغة في الإحداد ثلاثة أيام، وكذا قوله صلى الله عليه وسلم تسلي ثلاثا» أي تصبري ثلاثا.

على أن السلب كمعنى لغوي يدركنا، وهو فصل في المسألة، وحين لم يرد أمامنا شرح لما نحن بصدده من كتاب أوسنة.

قال في اللسان سلب سلبه الشئ يسلبه سلبا وسلبا، واستلبه إياه. وسلبوت، فعلوت منه. وقال اللحياني رجل سلبوت، وامرأة سلبوت كالرجل، وكذلك رجل سلابة، بالهاء، والأنثى سلابة أيضا. والاستلاب الاختلاس. والسلب ما يسلب، وفي التهذيب ما يسلب به، والجمع أسلاب.

(١)صحيح البخاري:١٢٩٤

وكل شئ على الإنسان من اللباس فهو سلب، والفعل سلبته أسلبه سلبا إذا أخذت سلبه، وسلب الرجل ثيابه، قال رؤبة يراع سير كاليراع للأسلاب. قوله يراع سير إلخ، هو هكذا في الأصل.) اليراع القصب. والأسلاب التي قد قشرت، وواحد الأسلاب سلب. وفي الحديث من قتل قتيلا، فله سلبه. وقد تكرر ذكر السلب، وهو ما يأخذه أحد القرنين في الحرب من قرنه، مما يكون عليه ومعه من ثياب وسلاح ودابة، وهو فعل بمعنى مفعول أي مسلوب. والسلب، بالتحريك المسلوب، وكذلك السليب. ورجل سليب مستلب العقل، والجمع سلبى[(١)].

وهكذا يمكن الجمع بين هذه الروايات جميعها، وبلا تعارض والحمد لله. وكذا حديث الصحيحين «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميتها أكثر من ثلاثة أيام، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرة». وكذا رواية لا تحدي بعد يومك هذا».

والحاصل أن البكاء بغير نوح ولا شق جائز. وهذا نوع إحداد أيضا. وهذا بجامع الجمع بين الألفاظ الثلاثة الواردة كما أسلفنا.

وأما الإحداد بمعنى أربعة أشهر وعشرا، فإنه خاص بالزوجة وإظهارا لميثاق بينها وزوجها كان غليظا، وقد حق ديننا على إظهاره لحق الله تعالى، ثم لحق الرحم. وقد أثبت العلم الحديث أن الرحم مطبوع بطابع الزوج مدة قوامها أربعة أشهر وعشرا، وبعدها يزول هذا الطابع!

قال الله تعالى **﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا﴾** [البقرة ٢٣٤]؛ هذا، والآية السابقة ناسخة لقوله تعالى ﴿

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ج ١ / ٤٧١

والـذين يتوفـون مـنكم ويـذرون أزواجـا وصـية لأزواجهـم متاعـا إلى الحـول غير إخراج﴾ [البقرة ٢٤٠].

فعن أم حبيبة أم المؤمنين دخلت على أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر، تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا. ثم دخلت على زينب بنت جحش حين توفي أخوها، فدعت بطيب، فمست به، ثم قالت ما لي بالطيب من حاجة، غير أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر، تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا[١].

بيد أن المتوفي عنها زوجها إذا كانت حاملا فعدتها تنقضي بوضع حملها ولقوله تعالى ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ [الطلاق ٤]، وما ورد في الصحيحين عن أم سلمة قالت إن سبيعة الأسلمية نفست بعد وفاة زوجها بليال، وإنها ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرها أن تتزوج[٢].

ويختلف الإحداد عن العدة فإن الاحداد هو ترك التزين؛ لحق زوج، كانت تتزين، وتترغب له، في حين تغض عن هذا التزين طرفا؛ وحتى لا تتهم أنها تريد خاطبا، ولما لا تزال في العدة.

وأما العدة فهي تلك الفترة الزمنية التي يجب أن تنقضي حتى يأذن الشرع للمرأة أن تتزوج مرة أخرى، وهي المقدرة بأربعة أشهر وعشرا.

---

(١) صحيح البخاري ١٢٨١

(٢)صحيح مسلم ١٤٨٥، صحيح البخاري ٣٩٩١

وتعتـد المـرأة- عمـوم المـرأة- هـذه الفترة سـواء أكان مـدخولا بهـا أم لـيس كذلك.

عودة إلى الحجاب

حين انقضت عدة أسماء بنت عميس من جعفر بن أبي طالب فخطبها أبو بكر الصديق رضي الله عنه فتزوجها، فأولم وجاء الناس للوليمة، فكان فيهم علي بن أبي طالب، فلما ذهب الناس استأذن علي أبا بكر رضي الله عنهما في أن يكلم أسماء من وراء الستر، فأذن له[١].

وفيه جواز خطبة النساء بعد مرور فترة العدة.

وفيه أن الوليمة سنة مؤكدة كما عند الجمهور.

وفيه دعوة الناس إلى الوليمة.

وفيـه أن الحجـاب كان شـرعا عنـدهم، وبمعنى السـتر، كمـا اسـتأذن علي رضي الله تعـالى عنـه أن يكلـم أسـماء مـن وراء السـتر. ولـو لـم يكـن الحجـاب كان معروفا عندهم بهذا المعنى فما كان هناك من داع الى فعل علي هذا.

وفيـه إظهـار تعجـب علي من زواج أسـماء زوجـة أخيـه جعفـر، وحين علـم عنها قولها يـوم استشـهاد جعفر فآليـت لا تنفك نفسي حزينـة * عليـك ولا ينفك جلدي أغبرا!

(١) البداية والنهاية، ابن كثير ٤ / ٢٥٣

وداع ذَرِفٌ، واستقبال حَفِلٌ!

جرت العادة أن يودع أهل المدينة المجاهدين يوم خروجهم لجهاد عدو الله وعدوهم. وكما جرت العادة أيضا أن يخرجوا لاستقبالهم يوم عودتهم: تهنئة لنصرهم وفوزهم وفرحا بعملهم، أو مشاطرة وتخفيفا لكلمهم، وإذا كانت الأخرى، وكان يتقدمهم في ذلكم المشهد المهيب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا الذي حدث يوم رجوعهم من غزوة مؤتة، والظاهر فيه ثلاثة أمور

الأول: هو اهتمام الأمة، بشأن الجهاد، وبشأن المجاهدين، ويتقدمهم نبيهم صلى الله عليه وسلم، وذلكم لما تمثله هذه الفريضة من كونها عاملا حاسما في إحقاق الحق وإبطال الباطل. وأنه يلزم لكل حق من قوة تذود عنه؛ وكيما تهاب شوكة أولياء الله تعالى، وإذ يحسب لها عدو الله تعالى وعدوها حسابا، يليق بكونها أمة عزيزة، تحمل الخير للناس في إحدى يديها، وإذ تحمل الأخرى سلاحها ذودا ودفاعا عن بيضة هذا الحق الذي تحمله، وتدعو الأغيار إليه، وكما قلت ليهابها أعداؤها، ولا يحسبونها إلا صخرة تتهشم عليها جماجمهم، ويوم أن يرفعوها كيدا للمسلمين.

الثاني: هو ذلكم الذي روي غير مرة أنهم قابلوا المجاهدين يوم مؤتة، وكالوا لهم قولهم يا فرار! فيقول رسول الله ﷺ ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله»، وهذا الحديث مرسل.

وقال الألباني رحمه الله تعالى فلما سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادمين تلقوهم بالجرف فجعل الناس يحثون في وجوههم التراب ويقولون يا فرار أفررتم

في سبيل الله فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسوا بفرار ولكنهم كرار إن شاء الله[1].

وسبق أن بينا أن مسألة الفرار، وعلى ما أنف، وعلى فرض وجودها، فلربما كانت قبل مجيء خالد بن الوليد.

الثالث: وهو ذلكم الاهتمام النبوي الكريم بالصبيان، وحين يتلقاهم صلى الله عليه وسلم ربتا على صدورهم، ومسحا على رؤوسهم، وهذه كنايات الرحمة في أوسع أبوابها، وحين تكون على جدول نبي يقاتل، ويجاهد، ويرص الصفوف، ويراسل القياصرة، ويكاتب الأباطرة، ويخاطب الأكاسرة. وهذا عنوان شمولية هذا الدين، وحين يكون على جدول أعماله ذلكم بالنشء، وإذ هم عماد أمتهم، وصنوان مجدها، وقوام جهادها، وأذانها، وصلاتها، وهديها، وسائر شؤونها.

وغير أن اهتمامه صلى الله عليه وسلم بصبيان أهل رحمه كان بارزا، وهذا شأن فطري، وإذ كانوا ما بين من جرح أبوه كعبدالله بن جعفر.

ولكن ورود روايات في هذا الشأن تبدو متقابلة، وإذ ليست متقابلة، بل متعاضدة، والجامع بينها أنه حصل الاستقبال، ولعل من تزاحم الصبيان، يمكن أن يردف هذا خلفه، أو يترك هذا، والأمر جد واسع هنا على كل حال.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى قال ابن الزبير لابن جعفر رضي الله عنهم أتذكر إذ تلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأنت وابن عباس؟ قال نعم، فحملنا وتركك[2].

---

(١) دفاع عن الحديث، الألباني٣١. حكم المحدث منكر بل باطل.

(٢)صحيح البخاري: ٣٠٨٢

وعن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب لو رأيتني وقثم وعبيد الله نلعب إذ مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على دابة فقال احملوا هذا إلي ، فجعلني أمامه ، ثم قال لقثم احملوا هذا إلي ، فجعله وراءه ما استحيا من عمه العباس أن حمل قثم، و نزل عبيد الله ثم مسح برأسي ثلاثا، كلما مسح قال اللهم اخلف جعفرا في ولده . قلت لعبد الله بن جعفر ما فعل قثم؟ قال استشهد ، قلت لعبد الله ورسوله كان أعلم بالخيرة؟ قال أجل[١].

إبطال التبني في الإسلام

فقد كان زيد بن حارثة عبدا يباع ويشترى في سوق الرقيق! وبعد أن أغير على أسرته، يوم راحت أمه لزيارة أهلها، ومن بعدها صاروا يتناقلونه من بعدها سلعة تباع وتشترى، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد.

أو أنه اشتراه رسول الله ﷺ لها، فوهبته من رسول الله، ويوم أن اختار المقام بين يدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين خيره وحين طلبه أبوه! وإذ كان يدعى من بعدها زيدا بن محمد! وهذه شهادة التاريخ، ويوم أن أعلن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه ابنه يرثه ويرثه! حتى نزل قوله تعالى ﴿**وما جعل أدعياءكم أبناءكم**﴾ [الأحزاب ٤]. وقوله تعالى ﴿**ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله**﴾ [الأحزاب ٥]. وقوله تعالى ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم** ﴾ [الأحزاب ٤٠]. وبه أبطل التبني في الإسلام.

(١) المهذب في اختصار السنن، الذهبي: ١٤٠٤/٣. خلاصة حكم المحدث إسناده صالح.

وإذ زوجه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من مولاته أم أيمن، وكان اسمها بركة، فولدت له أسامة بن زيد، فكان يقال له الحب ابن الحب. ثم زوجه صلى الله عليه وسلم من ابنة عمته زينب بنت جحش، ثم حدث بينهما ما يمكن أن يحدث بين زوجين، وليشكو أمره إلى نبينا صلى الله عليه وسلم، فيوصيه صبرا وصلحا، ثم لم يكن بد من طلاقه لها، وهذا الذي نزل فيه قوله تعالى ﴿ **وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها** ﴾ [الأحزاب ٣٧] .

وقد أنف تناول ذلك في مقام آخر من هذه السيرة النبوية المباركة.

وقلنا يومها، ونعيد القول إن نبينا صلى الله عليه وسلم قد آخى بين مولاه زيد بن حارثة وبين عمه حمزة بن عبد المطلب! في واقعة يذكرها التاريخ أن هذه أمة ذابت معها الفوارق، وحين كانت التقوى- والتقوى وحسب- هي الميزان الفاضل الفاصل بين الناس.

وذكرنا- وكما أنف الذكر أيضا- أنه صلى الله عليه وسلم قدم زيدا هذا على ابن عمه جعفر بن أبي طالب يوم قيادة مؤتة، بل وجعله أول حاملي الراية، راية الجهاد والمقاتلة في سبيل الله تعالى مولانا الحق المبين سبحانه. وليختم له بخاتمة الخير، وهي الشهادة في سبيل الله تعالى أيضا، في رسم صورة متمثلة لهذا الطراز الفريد من هذا الجيل، وعلى انسياب لا حظته قارئنا الكريم، وفي محطات يسلم بعضها بعضا، وصدق الله تعالى حين وصف أولاء الناس العظام بقوله

تعالى{من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليهۦفمنهم من قضىٰ نحبه ومنهم من ينتظرۦوما بدلوا تبديلا }[الأحزاب(٢٣)].

وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يبعث سراياه ويؤمر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة! قائدا كأبيه، ومن بعد استشهاد والده زيد في مؤتة، وفي واقعة شهادة للتاريخ أيضا أن بيت الرقيق زيد أنتج قائدا هو زيد، وأثمر ولدا له قائدا أيضا هو أسامة بن زيد، وهذه شهادة التاريخ- وكما قلنا آنفا- أن المقياس هو التقوى والعلم والخبرة والتجربة والقدرة والبذل والعطاء والتفاني والولاء لهذه القيادة التي قادت البشرية إلى خيري دنياها وأخراها معا!

فعن ابن عمر رضي الله عنه بعث النبي صلى الله عليه وسلم بعثا، وأمر عليهم أسامة بن زيد، فطعن بعض الناس في إمارته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم أن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله، إن كان لخليقا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده[١].

جعفر أبو المساكين!

وهذا جعفر بن أبي طالب، يحكي لنا التاريخ قصته فريدة أيضا، وحين هاجر أول إلى الحبشة، في واقعة هي الأخرى تشهد علو القوم على جواذب الطين والتراب، وفي نظرة عقدية باهرة، وكما قال تعالى ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء

(١) صحيح البخاري: ٣٧٣٠

من عباده والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف١٢٨]. وحين كانت الحدود مفتوحة بين الناس، يعملون ويجاهدون وسائر أعمالهم، دونما قيود شائكة صنعت، وغير ما موانع وسواتر وأسوار حجبت، وكأنما الناس يقولون بلسان حالهم إن الأرض ملك لنا!!

وذكرنا مسيرتنا في هذه السيرة النبوية المباركة كيف بعثت قريش بعثها، ولقتل أولاء الصحب المهاجرين، وحين رجع عمرو بن العاص مسلما، بوجه غير الذي راح به، وتأثرا بفعل وقول النجاشي، ذلكم الملك العادل الذي لا يظلم عنده أحدا!

ثم ليعود جعفر من مهاجره، بعد وقت طويل، ويوم خيبر، يوم نصر الله تعالى المؤمنين، في واقعة شهدت على يهود بالذلة والخسار، وأنهم ليست ترفع لهم راية، ومن حيث كان للإسلام وجوده المسيطر الحاكم الفاصل الفاضل على أرض الميدان!!!

وحين قدم جعفر بن أبي طالب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أرض الحبشة، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين عينيه، وقال ما أدري أنا بقدوم جعفر أسر أم بفتح خيبر[1]؟ وإذ قام صلى الله عليه وسلم إليه واعتنقه وقبل بين عينيه.

وقد مر بنا ما حكاه البراء بن عازب اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب، كتبوا هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال

---

(١) تخريج زاد المعاد، شعيب الأرناؤوط٢: /٤١٤ حكم المحدث: إسناده ضعيف.

وا لا نقر بها؛ فلو نعلم أنك رسول الله ما منعناك، لكن أنت محمد بن عبد الله، قال أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله، ثم قال لعلي امح «رسول الله»، قال لا والله، لا أمحوك أبدا، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب، فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، لا يدخل مكة سلاح إلا في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع أحدا من أصحابه أراد أن يقيم بها، فلما دخلها ومضى الأجل، أتوا عليا فقال وا قل لصاحبك اخرج عنا؛ فقد مضى الأجل، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم، فتبعتهم ابنة حمزة يا عم، يا عم، فتناولها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأخذ بيدها، وقال لفاطمة عليها السلام دونك ابنة عمك، حملتها، فاختصم فيها علي، وزيد، وجعفر؛ فقال علي أنا أحق بها، وهي ابنة عمي، وقال جعفر ابنة عمي، وخالتها تحتي، وقال زيد ابنة أخي، فقضى بها النبي صلى الله عليه وسلم لخالتها، وقال الخالة بمنزلة الأم، وقال لعلي أنت مني وأنا منك، وقال لجعفر أشبهت خلقي وخلقي، وقال لزيد أنت أخونا ومولانا[1].

وإذ قال له صلى الله عليه وسلم ذلك يوم خرجوا من عمرة القضية، وحيث قد قيل: يومها إنه حجل عند ذلك فرحا، وكنا قد تناولناه في حينه أيضا.

ثم يأتي يوم مؤتة، وليكون نائبا لزيد بن حارثة! بهكذا شأن يصنع التاريخ منه مائدة تربية وولاء ووفاء، ودونما نظر لصارف أو فارق، ودونما اعتبار لفاضل أو فاصل بين البشر، إلا فاصلا واحدا هو التقوى والعمل الصالح.

(١) صحيح البخاري: ٢٦٩٩

فإن هذا زيد الرقيق يعين قائدا أولا! ليكون نائبه جعفر ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم!! وهاتوا لنا من التاريخ صنيعا كهذا!!

ثم ليبذل جعفر بذلا حسنا، وحين لقي ربه ببضع وتسعين طعنة سيف ورمح ونبل! وكأنما كان لسع بعوضة! وإلا لنحاش من أول طعنة، في وقائع تاريخية مجيدة تسطر أن الجهاد في سبيل الله ظاهره الرحمة وباطنه الرأفة! وحين لا يكاد يشعر المجاهد إلا كوخز إبرة، وحين يطعن في سبيل الله تعالى.

وها هو جعفر يمسك رايته بشماله، وحين قطعت يمينه، ثم يحملها بين عضديه، وحين قطعت شماله، في واقعة اعتزاز بالراية، ولأنها راية المجد والخير للبشرية، وحين جاءت تحمل خيرها وهداها للناس وأن أبوا!

ولأجل ذلك عوضه الله تعالى بيديه جناحين يسبح بهما في الجنة. وكما روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى **أن ابن عمر رضي الله عنهما كان إذا سلم على ابن جعفر، قال السلام عليك يا ابن ذي الجناحين**[1].

وإذ كان جعفر يدعى (أبو المساكين)؛ ولشدة جوده، وكرمه، وسخائه.

فعن أبي هريرة قال ما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا وطئ التراب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جعفر بن أبي طالب[2].

وهذا لا شك فضل له، ومن حيث بذله وجوده، لكن أبا بكر الصديق كان أسبق، ولكن عمر الفاروق كان أفضل أيضا، وهذا باتفاق أهل العلم قاطبة.

---

(١) صحيح البخاري: ٣٧٠٩

(٢)الأنوار الكاشفة، المعلمي ١٤٩. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

وعلى كل حال نريد أن نفسح مجالا لإمامنا أبي هريرة وصفا لجعفر، وحين قال: كنت ألزم النبي صلى الله عليه وسلم لشبع بطني، حين لا آكل الخمير ولا ألبس الحرير، ولا يخدمني فلان ولا فلانة، وألصق بطني بالحصباء، وأستقرئ الرجل الآية، وهي معي، كي ينقلب بي فيطعمني، وخير الناس للمساكين جعفر بن أبي طالب، ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته، حتى إن كان ليخرج إلينا العكة ليس فيها شيء، فنشتقها فنلعق ما فيها[1].

شهادة حسن السير والسلوك: التقوى والعمل الصالح

هذه هي شهادة حسن السير والسلوك في الإسلام.

وهذان الأمران الحاسمان هما أساس الاختيار في هذا الدين لتولي القيادة، وبقطع النظر عن أي شيء آخر، كان لازما أيضا، ومن خبرة، ودربة، وخفة حركة، وحزم، وسرعة من تأن في اتخاذ القرار.

وعمليا كان هذا هو أساس اختيار قاعدة حمل لواء معركة مؤتة وغيرها.

فهذا زيد بن حارثة، وكان قد تربى في بيت النبوة رقيقا، ولم تمنعه هذه الصفة أن يكون قائدا لغزوة هي من أهم غزوات التاريخ الإسلامي. ولأنها كانت مناسبة مهاجمة القياصرة، وفي بادرة كانت لانتقال جولات الفتح المبين إلى خارج الجزيرة العربية.

---

(١)صحيح البخاري ٥٤٣٢

وهذا جعفر الطيار ذو الجناحين، وبلاؤه في هجرة الحبشة معروف، وقد هاجر في ربه تعالى أكثر من عقد كامل! في رسالة إلى العالم أن هجرة عقد كامل في الله تعالى أو أكثر منه أو أقل يمكن أن يكون نصيبا لهذا الداعية أو ذاك! ولأنه لا يستكثر شيء أمام دعوة الحق، وهي الإسلام، ولو كانت حياة امرئ مسلم كاملة، ولأن الأصل أيضا أن الأرض لله تعالى وحده، وحيثما أمكن للعبد إقامة دينه فثم هو.

وقد مر بنا في هذه السيرة النبوية المباركة، كيف أن جعفرا وتوا أتى يوم خيبر. من رحلة هجرته، بل من هجرته في ربه تعالى، وإذ لم تكن فسحة، أو تغيير أجواء، مما يعن للآحاد يوم الناس هذا! أو أنها لم تكن لتحصيل عيش رغد، وكما يفعل الناس يومهم هذا أيضا، وليتسلم من بعدها قيادة لواء يوم مؤتة، ولينال شرف الشهادة في ربه. وفي حساب بسيط لمدة إقامته في المدينة نجدها لا تتعدى سنة واحدة، وهي دار هجرة أيضا، ولأن مولده كان في مكة! وهكذا يسجل التاريخ أن جعفرا قضى حياته الإسلامية كلها تقريبا مهاجرا!!

وهذا عبدالله بن رواحة، أسلم قديما، وشهد العقبة، وكان أحد النقباء ليلتئذ لبني الحارث بن الخزرج، وشهد بدرا، وأحدا، والخندق، والحديبية، وخيبر، وكان ﷺ يبعثه على خرصها، وحين اصطلح على ذلك مع يهود خيبر، وكما قدمنا ذلك في حينه.

وشهد عمرة القضاء، ودخل يومئذ وهو ممسك بزمام ناقة رسول الله ﷺ، وقيل: بغرزها - يعني الركاب - وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ...

فعن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء، وعبد الله بن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول خلوا بني الكفار عن سبيله . . . اليوم نضربكم على تنزيله ضربا يزيل الهام عن مقيله . . . ويذهل الخليل عن خليله . فقال له عمر يا ابن رواحة، بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي حرم الله عز وجل تقول الشعر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم خل عنه، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل[١].

وها هو يحمل لواء يوم مؤتة أيضا ليسلم نفسه لله، وكما وقد أسلم وجهه لله من قبل- وهو محسن-!

ويكأن عبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنه أتى رسول الله ﷺ وهو يخطب فسمعه يقول «اجلسوا» فجلس مكانه خارجا من المسجد حتى فرغ الناس من خطبته، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال زادك الله حرصا على طواعية الله وطواعية رسوله.

فعن عائشة أم المؤمنين أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر يوم الجمعة فلما جلس قال اجلسوا فسمع عبد الله بن رواحة قول النبي صلى الله عليه وسلم اجلسوا فجلس في بني غنم فقيل: يا رسول الله ذاك ابن رواحة جالس في بني غنم سمعك وأنت تقول اجلسوا فجلس في مكانه[٢].

وهذه هي الطاعة للنبي صلى الله عليه وسلم التي كان من ثمرتها ذلكم الفضل الذي ناله، وهو إذ يتقلد وسام الفضل والسعادة في الدنيا، وكأعظم

---

(١) صحيح النسائي، الألباني: ٢٨٧٣

(٢) در السحابة، الشوكاني: ٣٣٧ حكم المحدث إسناده فيه إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع وهو ضعيف.

قلادة يقابل عبد بها ربه تعالى يوم القيامة، خالى اليدين من دنيا، كنز اليدين مليئهما من فناء وبلاء في الله تعالى، قد كان حسنا.

وحتى كان من شأنه حين يقابل صاحبا كريما ليقول له اجلس بنا نؤمن ساعة!

فعن الأسود بن هلال قال معاذ بن جبل اجلس بنا نؤمن ساعة[1].

وإذ كان تفسيره لحكايته تلك أن يزداد إيمانا وحكمة، تقربانه من الله تعالى، وفي فقه يدلنا على الإيمان يزيد بالطاعات وكما أنه ينقص بالمعاصي، ودل على هذا الأصل أن عبد الله بن رواحة قال لصاحب له تعال حتى نؤمن ساعة. قال أولسنا بمؤمنين؟ قال بلى، ولكنا نذكر الله فنزداد إيمانا[2].

وهذا هو عبدالله بن رواحة، وحين كان قد توسم وسام تقواه لمولاه، وبشهادة صحبه الكرام أيضا.

فعن أبي الدرداء قال **خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره في يوم حار حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلا ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم، وابن رواحة**[3].

وهذا هو عبد الله بن رواحة، وحين أسلم وجهه لله تعالى، وإذ قال النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه: **أغمي على عبد الله بن رواحة، فجعلت**

---

(١) تغليق التعليق، ابن حجر العسقلاني: ٢/٢١ حكم المحدث موقوف صحيح.

(٢) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ٢١/٣١٠ حكم المحدث إسناده ضعيف!

(٣) صحيح البخاري: ١٩٤٥

أخته عمرة تبكي واجبلاه، واكذا، واكذا! تعدد عليه، فقال حين أفاق ما قلت شيئا إلا قيل: لي آنت كذلك[1]؟

وفي شهادة إنكار لدعوى الجاهلية، دلنا عليها قوله هذا رضي الله تعالى عنه. فإن الموتى إذا عمل عندهم المعاصي فإنهم يتألمون بها، كما جاءت بذلك الآثار، فتعذبهم بعمل المعاصي عند قبورهم كتعذيبهم بنياحة من ينوح عليهم، ثم النياحة سبب العذاب[2].

وهكذا نقدم مما قدمه التاريخ شهادة حسن السير والسلوك في الإسلام. طريقا يهتدى، وسنة تقتدى.

نتائج غزوة مؤتة

كانت نتائج غزوة مؤتة باهرة على الصعيد العسكري، وبكل المقاييس! وذلك بسبب أبسط من البساطة في ثوبها، وحين يقتل اثنا عشر صحابيا وحسب! من جملة ثلاثة آلاف يواجهون مائتي ألف من جنود الروم والنصارى، وعلى النصف من هؤلاء ونصف آخر من أولئك! وذلك على قتل كثير من جنود الكفر يوم ذاك! وصحيح أنه لم ترد إحصاءات دقيقة لعدد قتلى جيش الكفر يوم ذاك، وذلك فيما يبدو لنا من باب تكتمهم على فضيحة قد ألمت، وجراء كفرهم هذا، لكن خالدا بن الوليد ذكر لنا قولا حسنا.

(١) صحيح البخاري: ٤٢٦٧

(٢) الموسوعة العقدية، الدرر السنية، الكتاب السادس: ٤/١٦٢

فعن قيس بن أبي حازم سمعت خالد بن الوليد يقول لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية[1]. وهذا مقتضاه أنه قد أثخن عدوا، وهذا معناها أنه قد أنكى خصما!

ومهما يكن من أمر، فقد نزل القول الشافي، والبرهان الكافي؛ معالجة لهكذا مواجهة، لم يذكر التاريخ مثلها، وعلى طوله وعرضه، أن ثلاثة آلاف واجهوا مائتي ألف! وهذا في الفكر العسكري التاريخي ربما كان محالا، إلا عند هذا الطراز المتميز الفريد! ولكنه يمكن القول بأنه لو كانت هزيمة الثلاثة الآلاف، وها هم يجابهون مائتي ألف! ولربما ساغ ذلك فكرا عسكريا أيضا، بل ربما احتسب نصرا مؤزرا! وحين وجد هؤلاء الثلاثة الآلاف من قوتهم وبأسهم وشجاعتهم وتفانيهم أن ينازلوا ميدانا قوامه مائتا ألف!!!

وأقول: إنه قد نزل قرآن يتلى إلى يوم الدين في شأن هذه المنازلة قاطعا؛ لنصرهم- هم- وهزيمة عدو الله وعدوهم- هم-! وحين قال الله تعالى **﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾** [آل عمران ١٣].

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه أبو أمامة الباهلي، رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول بينا أنا نائم أتاني رجلان، فأخذا بضبعي فأتيا بي جبلا وعرا، فقال ا اصعد. فقلت إني لا أطيقه. فقال إنا سنسهله لك. فصعدت، حتى إذا كنت في سواء الجبل إذا بأصوات شديدة. قلت ما هذه الأصوات؟ قال وا هذا عواء أهل النار ثم انطلق بي فإذا أنا بقوم معلقين

(١)صحيح البخاري: ٤٢٦٥

بعراقيهم، مشققة أشداقهم، تسيل أشداقهم دما. قال قلت من هؤلاء؟ قال الذين يفطرون قبل تحلة صومهم. فقال خابت اليهود والنصارى فقال سليم ما أدري أسمعه أبو أمامة من رسول الله أم شيء من رأيه ثم انطلق بي، فإذا أنا بقوم أشد شيء انتفاخا، وأنتنه ريحا، وأسوأه منظرا. فقلت من هؤلاء؟ فقالهؤلاء قتلى الكفار. ثم انطلق بي فإذا أنا بقوم أشد شيء انتفاخا، وأنتنه ريحا، كأن ريحهم المراحيض. قلت من هؤلاء؟ قال هؤلاء الزانون والزواني. ثم انطلق بي فإذا أنا بنساء تنهش ثديهن الحيات. قلت ما بال هؤلاء؟ قيل: هؤلاء يمنعن أولادهن ألبانهن. ثم انطلق بي فإذا أنا بغلمان يلعبون بين نهرين. قلت من هؤلاء؟ قيل: هؤلاء ذراري المؤمنين. ثم شرف بي شرفا، فإذا أنا بثلاثة يشربون من خمر لهم . قلت من هؤلاء؟ قال هؤلاء جعفر، وزيد، وابن رواحة. ثم شرف بي شرفا آخر، فإذا أنا بنفر ثلاثة. قلت من هؤلاء؟ قال هذا إبراهيم، وموسى، وعيسى، وهم ينتظرونك[1].

وفيه شدة العذاب لمن أفطر في رمضان قبل الغروب، وبغير عذر شرعي.

وفيه شدة النكير على اليهود والنصارى؛ ولفعل هؤلاء وهؤلاء.

وفيه عظيم شأن الكفر، وكيف كانت رائحة قتلى الكفار، ومن بعد قتلهم!

وفيه خطورة الزنا والزناة، ولعظيم فعلهم، وشؤم عملهم.

(١) صحيح الترغيب، الألباني: ٢٣٩٣.

وفيه شدة النكير على من حرمت أطفالها من رضاعة حليبها، حقا للأطفال، سبقا للإسلام حول حقوق الطفل.

وفيه فضيلة أبناء المسلمين ولما نشأوا على ما نشأ عليه آباؤهم من إسلام وحين قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: يصلى على كل مولود متوفى، وإن كان لغية، من أجل أنه ولد على فطرة الإسلام، يدعي أبواه الإسلام، أو أبوه خاصة، وإن كانت أمه على غير الإسلام، إذا استهل صارخا صلي عليه، ولا يصلى على من لا يستهل من أجل أنه سَقْطٌ فإن أبا هريرة رضي الله عنه، كان يحدث، قال النبي صلى الله عليه وسلم ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه **{فطرت الله التي فطر الناس عليها}**[الروم ٣٠][1].

وفيه فضيلة قادة اللواء يوم مؤتة وهم جعفر، وزيد، وابن رواحة.

وفيه فضيلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

علم نبوة ضاف!

إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر!

كان يوم الحديبية فتحا، وكما قال الله تعالى **﴿وأثابهم فتحا قريبا﴾** [الفتح١٨]. وكما بيناه في حينه.

(١) صحيح البخاري: ١٣٥٨

وذلك أنه كان بداية مكاتبة أهل الكفر والعناد في سائر الأوطان والبلاد، وكان من ذلك الأقاصرة والأباطرة والأكاسرة والنجاشي، لا النجاشي أصحمة الذي أسلم وصلى عليه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا بيان عملي لشهادة أبي سفيان، وحين سأله هرقل هل يغدر ولتكون إجابته أن لا!

وفي هذا رد عما يمكن أن يثار من مقاتلة جنود هرقل يوم مؤتة دون إعلام.

بيد أن هرقل ذكر خصيصة الغدر، ومن بين خصائص كثر لأهل الباطل، أو مما يلم بآحاد الناس، ولأن أعظم ما يخرم مروءة هو ذلكم الغدر، صفة مذمومة! ولهذا اجتاز نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هذا الاختبار، وعن بعد!!! وفي مساجلات نقاش دار بين هرقل ومن تعاملوا مع هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وليقف هرقل بنفسه أمام صدقه صلى الله عليه وسلم ومروءته ووفائه.

ولأن هرقل كان عالما بأخبار الرسل وصفاتهم قال: وهكذا الرسل لا تغدر!

ولكن فتنة الرئاسة، وغير أن مرض حبها، وبيد أن آفة الصلف والكبر، وكل هذا يعمي عاقلا عن رشد، ويصم سامعا عن خير، ويعمي مبصرا عن هدى! ويجعل الحليم حيران، وهذا الذي جرى مع هرقل وغيره على مدار الزمان وكل زمان! ولذا كانت منه مواجهة يوم مؤتة، وحين بلغ، وحين أبي، ورغم علمه أنه صلى الله عليه وسلم لا يغدر!

فعن أنس بن مالك **أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جباريدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم. وفي رواية حدثنا أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم، بمثله. ولم يقل وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم**[1].

ولكن أبا سفيان جرت بينه وبين هرقل تساؤلات، كانت كلها لصالح هذا النبي- صلى الله عليه وسلم- الذي لا يغدر! وهذا الذي عمل عمله وزلزل أبا سفيان، فأسلم بعد، وأما هرقل فصلفه قد سبقه! وحين تأكد هرقل أنه صلى الله عليه وسلم:

١- يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف.

٢- من وسط قومه نسبا.

٣- وأن أتباعه يختتنون.

٤- وأن أتباعه يزيدون ولا ينقصون، ولا يرتدون.

٥- وأن اتباعه من الضعفة والفقراء و المساكين.

٦- وأنه لم يكن يطلب ملكا منعوه إياه قبل أمره هذا.

٧- وأنه تبعه قوم وخالفه آخرون.

٨- وأنه لا يغدر.

(١) صحيح مسلم: ١٧٧٤

٩- وأنه لم يتهم بكذب قط قبل أمره هذا! فقد كان الصادق الأمين!

١٠- وأن الحرب بينه وبينه قومه قريش سجال.

نتيجة المباحثات: قال هرقل فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه.

وقد كان هرقل داهية، وعلى حد وصف أبي سفيان، الداهية أيضا له!

وغير أن ما يحسب لجانب أبي سفيان هو صدقه، ولم يكذب، وحين جعل ذلك من خوارم مروءته، وأنه لا يتأتى له ذلك!

ولنترك أبا سفيان يحكي لنا حكايته، ويقصص علينا روايته:

فعن أبي سفيان بن حرب قال أخبرني أبو سفيان، **أن هرقل قال له سألتك ماذا يأمركم؟ فزعمت أنه أمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، قال وهذه صفة نبي**[(١)].

عن عبد الله بن عباس، حدثني أبو سفيان من فيه إلى في، قال أن أبا سفيان بن حرب أخبره **أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارا بالشأم في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان فقلت أنا أقربهم نسبا، فقال أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند**

(١) صحيح البخاري: ٢٦٨١

ظهره، ثم قال لترجمانه قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه. فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبا لكذبت عنه. ثم كان أول ما سألني عنه أن قال كيف نسبه فيكم؟ قلتهو فينا ذو نسب، قال فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلتلا. قال فهل كان من آبائه من ملك؟ قلتلا قال فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت بل ضعفاؤهم. قال أيزيدون أم ينقصون؟ قلت بل يزيدون. قال فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت لا. قال فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت لا. قال فهل يغدر؟ قلت لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة، قال فهل قاتلتموه؟ قلت نعم. قال فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال ماذا يأمركم؟ قلت يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتسي بقول قيل: قبله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، قلت فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك، هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا،

وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه. ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و{يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} قال أبو سفيان فلما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر. فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام. وكان ابن الناظور، صاحب إيلياء وهرقل، سقفا على نصارى الشأم يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء، أصبح يوما خبيث النفس، فقال بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك، قال ابن الناظور وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمة؟ قال وا ليس يختتن إلا اليهود، فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مداين ملكك، فيقتلوا من فيهم من اليهود. فبينما هم على أمرهم، أتي هرقل برجل أرسل به

ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما استخبره هرقل قال اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا، فنظروا إليه، فحدثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب، فقال هم يختتنون، فقال هرقل هذا ملك هذه الأمة قد ظهر. ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص، فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم، فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال ردوهم علي، وقال إني قلت مقالتي آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل[1].

(١) صحيح البخاري: ٧

الفصل الثالث: مكاتبته صلى الله عليه وسلم القياصرة والملوك

وأتناوله في أربعة مباحث:

المبحث الأول: قصة هرقل

إني أعلم أن صاحبكم نبي مرسل

وأما قيصر الروم هرقل، فسأل أبا سفيان عما سأل، ثم قرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم خلا بدحية الكلبي وقال إني أعلم أن صاحبكم نبي مرسل، وأنه الذي كنا ننتظره، ونجده في كتابنا، ولكن أخاف الروم على نفسي، ولولا ذاك لا تبعته، ولكن اذهب إلى ضغاطر الأسقف، فاذكر له أمر صاحبكم، وانظر ماذا يقول، فجاء دحية وأخبره مما جاء به من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل وبما يدعو إليه، فقال ضغاطر صاحبك والله نبي مرسل نعرفه بصفته، ونجده في كتابنا باسمه، ثم دخل فألقى ثيابا كانت عليه سوداء، ولبس ثيابا بيضاء، ثم أخذ عصاه، وخرج على الروم، وهم في الكنيسة، فقال للروم إنه قد أتانا كتاب من أحمد، يدعو فيه إلى الله، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وضربوه حتى قتلوه، فرجع دحية إلى هرقل وأخبره الخبر، قال قلت لك إنا نخافهم على أنفسنا(١).

وإذ قال أسقف الروم ضغاطر لدحية بن خليفة الكلبي والله صاحبك نبي مرسل، نعرفه بصفته، ونجده في كتابنا باسمه! وذلك حين عرض على هرقل، فقال كذلك، بيد أنه خاف قومه، فأرسله يعرض الإسلام على كبير أساقفتهم

---

(١) الثقات، ابن حبان: ج ٢ /٧

ضغاطر! وليقول قول الحق الذي فيه يعمهون ويمترون! فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فضربوه حتى قتلوه!

وهذا الذي يعرفه القاصي والداني من فعل هؤلاء! وحين يقفون في وجه كل من تسول له نفسه الانخلاع من باطل، كان قد عشش، وإلى حق في قلوبهم قد أصبح أثبت! فتقام قائمتهم، إلا أن يُرْدُوه أو يَرُدُّوه أو يقتلوه! وهم واضعو مبادئ حقوق الإنسان!!

والواقع أنه لا يتسنى لنا المرور دون إثبات أمور ههنا:

الأول: أن هذا الأسقف ضغاطر، وحين أعلن إسلامه، وإلا أنه قتلوه قومه.

الثاني: أن هذا الأسقف ضغاطر هو بابا الكنيسة الرومانية في عصره، وقد كان يطلق عليه اسم(هونوريوس)، إلا أنهم أخفوا هذا الحدث، حتى قيل: إن هرقل لم يعتمد أسقفا بعده إلا بعد مرور تسعة عشر شهرا!

الثالث: أن كلمة ضغاطر كانت وصفا لهذا الأسقف(هونوريوس)، والتي تعني الحكيم أو الدكتور أو صاحب العقيدة! وهذا الوصف كان سائدا ولازال في إطلاق اسم الحكيم على الطبيب.

الرابع: هذا، وقد قيل: إن نهاية كلمة ضغاطر المكونة من حرفين هما(طر) قد جاءت إما من كلمة دكتور أو من كلمة إمبراطور أو كليهما، وهما تعنيان صاحب الحكمة كما أسلفنا[١].

---

(١) معضلة الصحابي ضغاطر الأسقف – مجلة البيان د. إيهاب عويص: ٢٨/٠٤/٢٠٢٠

أسلم تسلم!

كان نبينا صلى الله عليه وسلم عزيزا حين عرضه الحق، وأيما عزة، ولأنه يقدم للناس خيرهم وهداهم وصلاحهم. فإن هموا أبوا **﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾** [الرعد٤٠].

وإن هم قبلوا الحق، فإنما قد كان لهم أجره، ولهم فلاحه وصلاحه وثمره. وبالتالي فإن داعية الحق يسلك مسلك نبيه، بلاغا في عزة، ومصاحبا لأدبه الجم الحسن الرفيع الحميد. ولا يذهب نفسه عليهم حسرات!

وهذا هو الذي نشتم رائحته، وعند الاطلاع الأولي من رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، والتي كانت على نحو إباء وعزة مشمولين بمحبة الخير للناس، ولكنها في قامة إباء عالية سامقة رفيعة!

وهذا نص رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم إلى هرقل بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الإريسيين **﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلىٰ كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ۚ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾** [آل عمران٦٤].

موقف هرقل من الدعوة الجديدة.

وردت روايات عدة، شأن موقف هرقل من الدعوة الجديدة.

والجامع بينها هو ذلكم الإيمان بأنها دعوة الحق، ولأن هذا النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي جاءت به بشرى كل من نبي الله تعالى موسى، ونبي الله تعالى عيسى، عليهما الصلاة والسلام.

ولكن الفارق بين هذه الروايات، هو الموقف الأخير. أو إذا جاز التعبير القرار التاريخي لهرقل أمام هذا الدين الجديد.

ففي حين ذكروا أنه عرض عليهم أن يسلموا، فأبوا عليه وهددوه، ثم رجع وتزيا بزي المختبر لهم؛ وليعرف صلابة دينهم! أو أنه كان قد أسلم فعلا؟

والذي أميل إليه أن ذلك رجوعه تحت التهديد قد حدث أول الأمر! لكنه ومع ذلكم التفاعل الطبعي الذي يتركه هذا الدين في قلوب من شاء الله تعالى هداهم، فلا يكاد يخليهم إلا إذا آمنوا، ولا يكاد يتركهم إلا إذا أسلموا، وعن طواعية ذاتية! وعن اختيار فطري طبعي أيضا! وهذا الذي حدث مع هرقل، ويوم أن ساومهم أن يعطوه- نبينا صلى الله عليه وسلم- الجزية فرفضوا، أو على أن يعطوه جزء الأرض فرفضوا، ثم لم يجد إلا أن انحاش وهرب بدينه فارا منهم، ولتستوي لديه عيشة السلطان، أو عيشة أهل الإيمان! ولطالما كان الأصل هو إسلام الوجه لله، وحين فر منهم ومن سلطانهم إلى أرض القسطنطينية، والعبرة بهذا الموقف الرشيد السديد!

وفي رسالة إلى أهل الزمان أن لهم سلفا كان يدعى هرقل! أبى إلا أن يكون مسلما! ولئن كلفه ذلك محو اسمه من دفاتر السلاطين! وطمس هويته من مضابط الحاكمين! وحتى ولئن عاش في مهبط أبي أيوب الأنصاري هناك، وعند أسوار القسطنطينية، وكأنما كان على موعد وذلكم الثلاثي الرشيد هرقل وأبو أيوب وثالثهما الفاتح محمد الفاتح!

المبحث الثاني: إرساله صلى الله عليه وسلم إلى ملك العرب من النصارى بالشام

ومن ينتزع ملكي؟!

هذا هو قول المنذر ابن الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق النصراني!

وإنه لينفذ روائح الجهل الزاكمة بالمقدورات الحاكمة لهذا الرب القادر العظيم الجبار المتكبر! وحين لا يستصحب هؤلاء الجبابرة العتاة معهم سنن التاريخ، وإذ كان منها أنه تعالى فعل الأفاعيل بمن تجهم، وقدر المقادير بمن تهجم!

وإذ كان الأصل أنه تعالى يأخذ من تنكب، ويستأصل من استنكف، في لمح البصر أو هو أقرب! ودون سرد كثير لما ملئت به كتب التاريخ، وحين أغرق سلفهم فرعون وبفاء العاقبة! وكما قال تعالى ﴿**فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا**﴾ [الإسراء: ١٠٣]. وحين خيل إليه من شيطانه أنه كان من إمكانه أن يخلي الأرض من دعاة الصلاح والخير والهدى، ولتكون من بعد مرتعا

لضلاله، ولتصبح من بعد مأوى لغيه وفساده! وإذ كانت فاء العاقبة مجيبة عن سؤاله{أليس لي ملك مصر وهٰذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون} [الزخرف(٥١)]! وليحصل له مصير محتوم، وقدر معلوم، وحين كبت، وحين لجم، وكما قال تعالى مرة اخرى ﴿فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا﴾!

وبيد أن جهل الجاهلين بحلمه، وغير أن إطباق إبليس عليهم بخيله ورجله ورجفه، أنساهم سنة الإمهال، ولعل اقلاعا عن إهمال، ولعلهم يرجعون!

وحتى إذا جاءت القاضية قال ومن معه ﴿يا ليتها كانت القاضية • ما أغنى عني ماليه • هلك عني سلطانيه﴾ [الحاقة(٢٧-٢٩)].

أي لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه، بل خلص الأمر إلي وحدي، فلا معين لي ولا مجير. وقال الضحاك يعني موتة لا حياة بعدها . وكذا قال محمد بن كعب والربيع والسدي. وقال قتادة تمنى الموت، ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه[1].

وأنت ناظر كيف تحول الحال! وإلى تمنى ذلكم المآل، من سلطان إلى تمني موت لا حياة بعده! وإذ كانت هذه الحياة هي التي قال فيها قوله، وإذ كانت هذه الدنيا هي التي بغى فيها بغيه، ليتحول حب حياة إلى حب موت! ولا حول ولا قوة إلا بالله. وهذا في فطر التوابين بعيد، وعند الأوابين أبعد، إلا الشهداء! وقد ندر أيضا!

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير الدمشقي:ج٤/٣٥٩

فعن جابر بن عبدالله، ولما قتل والده عبد الله بن عمرو بن حرام يوم أحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جابر ما لي أراك منكسرا؟ قلت: يا رسول الله استشهد أبي قتل يوم أحد، وترك عيالا ودينا، قال: (أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك ؟) قلت: بلى يا رسول الله قال: ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجابه وأحيا أباك فكلمه كفاحا فقال: يا عبدي تمن علي أعطك قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية قال الرب تبارك وتعالى: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون قال: وأنزلت هذه الآية: **(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا)** الآية [1].

وإذ كان هؤلاء على علم أن العبودية لله تعالى معناها سلب سلطانهم، وجعله كل السلطان لله تعالى العلي الأعلى! وإن علموا وإن فهموا فكان خيرا لهم، ولأنهم سينالون من بعدها نصيبين فأما أولاهما فهو شرف العبودية لخالقهم، وهذا رجوع بهم إلى الجادة، وهو نأي بهم عن المحادة، وأما ثانيهما فهو بقاء سلطانهم، ومع تبديل في شرف الانتساب، وحين كانوا خلفاء الله تعالى في أرضه!

ولأنه كانت طاقة كل إنسي محدودة، وبالتالي فإدراكاته أيضا محدودة، وليس يكاد يرى حتى ما عند قدميه! وهذه حقيقة أزلية أبدية! ومنه فكان خيرا لأولاء العبيد أن يكونوا لله تعالى وحده عبيدا، وليكون من بعدها ما يكون! وأولاء يبدو أنه لم يصلهم خبر زميلهم هرقل! وحين أنعم الله تعالى عليه بالرشاد، ولينخلع من ملكه، وليملك مما ليس له حد هناك! وما أدراك ما هناك! وإلي حيثما قال الله تعالى الحق المبين **﴿ وسارعوا إلىٰ مغفرة من ربكم وجنة عرضها**

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٣٠١٠

السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾ [آل عمران (١٣٣)]. وحتى ولئن دفن عند أسوار القسطنطينية، جوار أخيه وسلفه أبي أيوب رهطا كريما، وصحبا أبيا!

وإذ كان من مثله النجاشي، ذلكم الملك العادل، الذي لا يظلم عنده أحدا! ولينال كرسيه وتاجه، وليفوز بالسؤدد ووسامه، وأيضا في عليين، وما أدراك ما عليون! وكما قال تعالى **﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين • وما أدراك ما عليون • كتاب مرقوم • يشهده المقربون • إن الأبرار لفي نعيم • على الأرائك ينظرون • تعرف في وجوههم نضرة النعيم • يسقون من رحيق مختوم • ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون • ومزاجه من تسنيم • عينا يشرب بها المقربون﴾** [المطففين (١٨-٢٨)].

ثم إن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم كان قد أبقى له ملكه! وحسبه فقط أن يسلم، فينال ملكي الدنيا والآخرة! وذلك حين قال صلى الله عليه وسلم في رسالته سلام على من اتبع الهدى، وآمن به، وأدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك[١].

وليرد الجاهل، وحين قدم شجاع بن وهب رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأه عليه، فقال فقال من ينزع منى ملكي؟! أنا سائر[٢]!

وليحلل به ما حل بطغاة سبقوه، أو ما سوف يحل بظلمة تبعوه! وحين قال النبي صلى الله عليه وسلم باد ملكه[٣]!

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري ٢/٢٩٤

(٢) المرجع السابق: ٢/٢٩٤

(٣) المرجع السابق: ٢/٢٩٤

هذا عنوان لافت، ولأنه قد أثيرت على مخاطبة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنه تعدى العمل الدبلوماسي، وحين مخاطبة الملوك في عصره.

ولدى مطالعة أولية لخطابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى سنلحظ أنه صلى الله عليه وسلم لم يخرج شيئا عن أعراف العمل الدبلوماسي، والتي كان معمولا بها في حينها، وإلى الآن، وهو مبدأ المعاملة بالمثل. وكذا أصول مخاطبات الرؤساء والملوك.

فإن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم وحين خاطب صلى الله عليه وسلم كسرى خاطبه كملك لقومه، وكما أنه أيضا خاطبه ومن موقع أنه صلى الله عليه وسلم زعيم قومه هو الآخر! فذكر اسمه- محمدا- أولا ثم صفته- رسول الله-، وذكر على الجانب الآخر اسم كسرى أولا ثم اتبعها بصفته- عظيم الفرس- وهذا أمر بدهي، وليس بحاجة إلى الوقوف عنده مليا!

بيد أنه صلى الله عليه وسلم وحين اعترض عليه حاشية كسرى؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم ذكر اسمه أولا! فهذا أيضا خروج منهم على قواعد القانون الدولي الابتدائية وقتهم هذا، ووقت الناس هذا أيضا!

فإن الناس مطبقون على ذكر المرسل أولا ثم يتلوه ذكر المرسل إليه تاليا.

ولكن الخارجين هكذا نظامهم! فإنه صلى الله عليه وسلم لو كان قد ذكر اسم كسرى كمرسل إليه أولا لكان قد خالف قواعد المخاطبات المتعارف عليها

والمعمول بها وإلى وقت الناس هذا! ولكانوا قد شنوا حملة شعواء ضد مخالفة قواعد القانون الدولي العام!

وبل إن كسرى ولكبره وصلفه اللذين أوديا به مهالكه هو الذي خالف القوانين والأعراف الدولية في احترام رسائل وبعث الموك والزعماء الآخرين! وحين مزق رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وليمزقه الله تعالى وملكه معا!

ثم إننا نلحظ يسر العبارة، وبساطة الأسلوب، ووضوح المقصود، في إيجاز غير مخل، ولا إسهاب ممل! ولضيق وقت الملوك عن أن يقرؤوا طويلا!

واللافت أنه صلى الله عليه وسلم قد عامل كسرى بالندية! وهذا أيضا عمل دبلوماسي صرف.

ولعل إشارة إلى هديه صلى الله عليه وسلم في ابتداء أمره كله قولا أو فعلا بالبسملة، ولأنها بركة فيتبرك بها أيضا.

ثم بتحية الإسلام كشعيرة! وإن صدرت على وجه يلائم مقتضى الحال! وحين لم يكن كسرى مسلما. لكن ذكر السلام بحد ذاته موجب راحة وأمنا وطمأنينة، وهذا على النفوس الخيرة! أو على الأقل ما بقيت فيها مسحة من فطرة! ولا شأن للإسلام بعتو جواظ مستكبر زنيم مهين ككسرى!!!

فإن الإسلام دين السلام والأمن. وإنما جاء ليبسط هداه وسناه على الناس؛ رحمة من الله تعالى خالق ورب الناس سبحانه! وهذا أمر لا شك كان جديدا طارئا على أمثال كسرى، ولكنه الحق الذي لا مرية فيه!

لكن عبارة الجزم، ولكن صيغة الحزم، اللتين بانتا منها عبارته صلى الله عليه وسلم هي اللافتة! وحين كانت على وجه يزلزل أركان الطغاة! وبأمره صلى الله عليه وسلم: أسلم تسلم!

وهذه دلالة على أن سلطانا جديدا ساعيا حثيثا في الطريق، وأنه سيزيل سلطان كسرى! وإن هملجت به خيله!

وهذا هو الجديد في طريقة المخاطبة، وهذا هو الطارئ في شكل وعنوان المراسلة!

وهذا الذي نفيده وحين يعرض المسلم أمر ربه سبحانه، فإنما يعرضه كاملا غير منقوص! عزيزا به أستاذا يمليه! وبكل حلم وتواضع! ولا منافاة، ثم من بعد ذلك لا يهمه شاء من شاء وأبى من أبى!

بيد أنه يلاحظ أن قضية الإسلام الأولى هي التوحيد. أي نزع كل سلطان غير سلطان الله تعالى، وإحلال سلطان واحد محله هو سلطان الله تعالى وحده، بحكمه وأمره ونهيه وشرعه. وهذه هي قضية الإسلام الابتدائية، وكما وأنها مسألته الانتهائية أيضا! وقد جاءت حاسمة بينة واضحة كاملة غير منقوصة. ولا مماحلات فيها، ولا مجاملات فيها، ولا مماحكات فيها!

فيدخل الناس دين ربهم، وهم على بينة من أمرهم أن الأمر كله لله! وهم ما عليهم إلا أن يتعبدوا ربهم الذي خلقهم، وعلى أساس صحيح من هذا!

ولا مجال ههنا لتأجيل أو مساومة؛ لأنه مخالف لطريقته صلى الله عليه وسلم، وكما وضحت وضوح شمس الضحى، من اطلاع أولي على رسائله إلى ملوك عصره!

وهذا النظام هو الواجب اتباعه من أتباعه! يدعون ملوك ورؤساء عصرهم إلى ما دعا إليه نبيهم صلى الله عليه وسلم! وحينها يتملكون أواصر العزة، ويمسكون زمام المبادرة! وليس كما مشاهد أن يروا لحقوق الإنسان مدخلا! كان أولى أن نعلمهم نحن إياها! ولأننا ذووا رصيد إيجابي هائل في هذا! وسائلوا التاريخ عنا!

لكن الكبر والصلف هما اللذان قادا كسرى الى مصيره المحتوم، مصير كل متكبر جبار! وحين مزق رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وليدعو صلى الله عليه وسلم عليه أن يمزق الله ملكه، وليتمزق ملكه من توها! وعلى يد ابنه! ومن داخل النظام نفسه! في علم نبوة كاشف، وأننا أمام نظام دولي جديد، سوف تتحطم أغلاله وسوف تهشم رؤوسه قبل جماجمه! وعلى صخرة الحق الذي لاريب فيه هدى للمتقين!

بيد أنه حسن الإشارة إلى ضرورة التحلي بمعاملة المبعوث الدبلوماسي معاملة حسنة، تشي بأن النظام العالمي الإسلامي الجديد رحمة، وحسن خلق وصلة، مع كونه توحيدا وعقيدة في الله تعالى، واضحة لا تقبل فيها أنصاف الحلول، ولا أنصاف الطرق! لا طريقا واحدا!

وهذا الذي حدث يوم أرسل كسرى مندوبيه الاطلاع ليرجعا برسالة مفادها أن هذا النبي الأمي العربي سيملك قصور كسرى!

وجنبا الى جنب وفي خطين متوازيين، يكون الهدي الظاهر مصاحبا لدعوة الحق والتوحيد والنور والعقيدة، وحين أوضح نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لرسل كسرى أن ربه تعالى أمره أن يعفي لحيته، وأن يقص شاربه، في بسط منهج يتساوى فيه أصله مع فرعه، إن وجد فيه فرع من أساس!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بكتابه رجلا وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه فحسبت أن ابن المسيب قال فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمزقوا كل ممزق(١).

لا يفلح قوم تملكهم امرأة

هذا عنوان لافت!

ولأن خروج المرأة من محضنها فتنة واسعة، افتتن بها الناس يومهم هذا، وحتى طالت فتنتها أهل الإسلام، وتأثرًا بدعوات خروجها عن إلف ما شبت عليه أختها الأولى!

---

(١) صحيح البخاري: ٦٤، وقال ابن سعد في " الطبقات الكبرى " (١/ ٣٤٧) أخبرنا سعيد بن منصور، أخبرنا سفيان عن عبد المجيد بن سهل عن عبيد الله ابن عبد الله قال" جاء مجوسي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعفى شاربه وأحفى لحيته فقال(من أمرك بهذا؟)، قال ربي، قال(لكن ربي أمرني أن أحفي شاربي وأعفي لحيتي) . وهذا إسناد مرسل صحيح . ". وقد حسنه الشيخ الألباني رحمه الله في " تخريج فقه السيرة " (ص٣٥٩).

ولسنا نريد أن نقعد كثيرا في ذكر نتائج إخراجها، ومن حنوها، وعن عفافها، ومن فراغ بيتها، ومن خراب عشها! وحين زاحمت أخاها وأباها أعمالهم، فاشتكى القوم البطالة، وخسر الناس العمالة في آن!

ولأن طبيعة المرأة جياشة، ولأن عاطفتها أكثر هياما ببيتها، وإلفا ومحبة وإيثارا لمنزلها، فقد باءت مجتمعات إخراجها بحرمانها نفسها من حقيقتها، مربية راعية، ضاربة أعلى المثل في التربية، واحتضان عش هو أساسها وأصلها وفصلها.

واسألوا من قد خرجت نساؤهم يزاحمن أعمال الرجال، وكم قد خسر المجتمع أضعاف ما اكتسب من خروجها! وإن حسب أنه اكتسب! ولأنه في الواقع قد خسر خسرانا مبينا!

وإن رجوعا إلى مصادرنا الأولى ليشي بوقفة صادقة، وليأمرنا برجعة مشفقة، وحين كانت المرأة الأولى راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيتها، في نص موح أن هذا هو بيت المرأة، وأن هذا هو معين عطائها أكثر، وأن هذا هو مصدر إبائها أوفر.

فعن عبدالله بن عمر أنه **سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كلكم راع ومسؤول عن رعيته؛ فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته. قال فسمعت هؤلاء من رسول**

الله صلى الله عليه وسلم، وأحسب النبي صلى الله عليه وسلم قال والرجل في مال أبيه راع وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته[1].

ولسنا نريد أن نقف على أعداد لا تكاد تبلغ في عدادها أصابع اليدين، وحين وقفوا عندها، وكأنها القاعدة، وحين مالوا إلى ظاهرها، ويكأنها الأصل! وحين استأذنَّ نبيهنَّ وجد الجهاد، وإذ كانت ساحته مبلغ القمم، في طلب جنة عرضها السماوات والأرض، وكما قلت في أعداد قليلة، ومن خلف الصفوف، ولا يزاحمن الصفوف، وإذ نراها الآن رأي أعيننا!

وحين رجوع إلى المصادر دلك عليه حديث بابنا الأول، وإذ وقفنا على القرون الثلاثة المفضلة الأولى، فقد كان عهدهم بالنساء بيوتهن، وما نذر لا قاعدة بل خروج عنها، وهذا النادر كان منه المحدثات، وأخرج لنا كهكذا مثالا، إذا قلنا بفرعه وليس أصله، فأعطونا وكمثله، وعلى قدره وشرطه؛ لنقول لكم: نعم!

ولست أقول بفارق بين ولاية عظمى وأخرى صغرى. بقدر ما أقول: إن عطاء المرأة في بيتها أولى، وإن رجوعها إلى عشها أدعى!

وهذا تكريم لها أي تكريم! وبغير ذلك تكون إهانتها، وبأيدي ذوي رحمها وعشرتها! ودلك على صحة مذهبنا هذا ما جاء عن أبي بكرة رضي الله عنه قال لقد نفعني الله بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الجمل، بعدما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم؛ قال لما بلغ رسول الله صلى

---

(١) صحيح البخاري: ٢٤٠٩

الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى، قال لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة[1].

المبحث الثالث: مكاتبته كسرى!

علم نبوة ضاف: إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، فو الذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله!

هذا علم على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه. ولأنه حصر أمرين:

الأول: هو إيذان بهلاك كسرى، وقد هلك! ولم يذكر التاريخ سميا بهذا الاسم بقي ملكه مذ أن أهلك الله تعالى كسرى هذا!!

الثاني: أن ما تركه هذا ال(كسرى) غنيمة للمسلمين! وتنفق في سبيل الله تعالى. وليست وقفا على أحد بعينه، سوى أنها تنفق، وفي سبيل الله تعالى.

والواقع أن كل غنيمة هذا هو حالها، تنفق في سبيل الله تعالى، وعلى وجهها المشروع قسمة، وعلى قسمته تعالى لها، لكن الإشارة إلى كنوز كسرى، ولربما كان لعظمها، ولربما كان إظهارا لعلم النبوة هذا!! فيقف عنده المرجفون! ولعلهم يسلمون، وحين رأوا بأم أعينهم رأي العينين، لا عين واحدة، أن هكذا كان كسرى، في خبر كان، من الزمان الماضي! وإعلانا آخر، أن كل كسرى يشمخ بأنفه فمصير أنفه هذا مصير أنف سلفه الأول!

(١) صحيح البخاري ٤٤٢٥. ورواه النسائي في " السنن " (٨/٢٢٧) وبوب عليه النسائي بقوله "النهي عن استعمال النساء في الحكم.

والواقع أن هلاك كسرى هذا كان متوقعا!

ولسنا نريد أن نحكي وأمامنا حديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم آنف الذكر، وكذا ما حكاه التاريخ أنه كان يعرض لكسرى كل عام رجل يراه هو ولا يراه غيره وإذ كان يقول له يا كسرى هل لك في الإسلام قبل أن أكسر هذه العصا؟ فقال كسرى نعم، لا تكسرها!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البيهقي رحمه الله تعالى من غير وجه، عن الزهري أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أنه بلغه أن كسرى بينما هو في دسكرة ملكه بعث له - أو قيض له - عارض يعرض عليه الحق فلم يفجأ كسرى إلا برجل يمشي وفي يده عصا. فقال يا كسرى هل لك في الإسلام قبل أن أكسر هذه العصا؟ فقال كسرى نعم، لا تكسرها. فولى الرجل. فلما ذهب أرسل كسرى إلى حجابه، فقال من أذن لهذا الرجل علي؟ فقال وا ما دخل عليك أحد. فقال كذبتم. فولى الرجل. فلما ذهب أرسل كسرى إلى حجابه، فقال من أذن لهذا الرجل علي؟ فقال وا ما دخل عليك أحد. فقال كذبتم. قال فغضب عليهم وتهددهم، ثم تركهم. قال فلما كان رأس الحول أتى ذلك الرجل ومعه العصا، قال يا كسرى هل لك في الإسلام قبل أن أكسر هذه العصا؟ قال نعم لا تكسرها.

فلما انصرف عند دعا حجابه قال لهم كالمرة الأولى، فلما كان العام المستقبل أتاه ذلك الرجل معه العصا، فقال له هل لك يا كسرى في الإسلام قبل أن أكسر هذه العصا؟ فقال لا تكسرها لا تكسرها فكسرها، فأهلك الله كسرى عند ذلك[1].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ٣٠٩

مفارقة تاريخية

فارق عظيم بين فعل قيصر الروم، وحين حفظ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسك! وليقول صلى الله عليه وسلم يومها ثبت الله ملكه! وليثبت لهم ملك في بعض الأحيان ولبركة دعائه صلى الله عليه وسلم!

وقد رأينا كيف كان موقف هرقل القيصر، وحين اختلف حول إسلامه من عدمه، ولموقفه الإيجابي للإسلام، وحين حفظه له التاريخ أيضا!

وعلى الجانب الآخر، رأينا كيف مزق كسرى رسالة النبي ﷺ، وإذ كان من إثرها تمزيق ملكه أشتاتا أشتاتا، وإربا إربا! ولأنه تعدى أدنى حدود الأدب، ولم يسعفه ملكه أن يكون بعض أديب!!!

وإذ إن هناك حكاما، وإن مالوا عن الإسلام، إلا أن ملكهم عادل، وإلا أن سيرتهم مروءة.

وأمامنا نجاشي الحبشة أصحمة، وإذ كان ملكا عادلا، لا يظلم عنده أحد!

لكن هذا ال(كسرى) كان صلفا جبارا جواظا عتلا زنيما، فأعماه كبره عن حق، وأماله صلفه عن هدى! وصرفه الله عن هدى من غوي!

وهذه وقفة عند الهوى، وحين يركب صاحبا له، وهذا مثال عن الغوي، وحين يمتطي قرينا به!

المبحث الرابع: مخاطبته ﷺ المقوقس عظيم القبط في مصر

أرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حاطبا بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط في مصر يدعوه إلى الإسلام، وكان مركز كنيسته في مدينة الإسكندرية.

والواقع أن الرجل أكرم وفادة رسول الله ﷺ ، وقبَّل رسالته صلى الله عليه وسلم. وأنزل حاطبا بيته، وأرسل معه هدايا وجواري إلى نبينا صلى الله عليه وسلم، وكانت منهن أم إبراهيم مارية القبطية.

لكن اللافت أن المقوقس يبدو أنه كان عالما بخبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، أو أنه عرف من خلال المحادثات التي تمت بينهما في مدينة الإسكندرية أنه صلى الله عليه وسلم لم يدع على قومه، ورغم إعلان عداوتهم له صلى الله عليه وسلم، حتى بلغ زكامها الآفاق! وحين سأله عن سر ذلك وسببه، وقد كان حاطب ألمعيا! وحين رد السؤال بسؤال مثله، موضوعا واحدا، أنه ولماذا لم يدع نبي الله عيسى عليه السلام على قومه، وحين اشتد عليه أذاهم، حتى كان من سببه أن رفعه الله تعالى إليه! وفي إشارة إلى أن هذا هو القاسم المشترك بين الأنبياء، خلقا حسنا وأدبا جما، وخاصة حين عرض الملك جبريل عليه السلام على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يطبق عليهم الأخشبين فأبي ولعل الله تعالى أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله!

فعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا

بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال يا محمد، فقال ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا[1].

واللافت أيضا هو ذلكم القاسم المشترك بين عظيم القبط الرومي هرقل، وبين عظيم القبط في مصر المقوقس، وكذا نجاشي الحبشة، وهو إكرام رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولعل هذه إشارة إلى قوله تعالى**{لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركواۖولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارىٰۚ ذٰلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون}** [المائدة: ٨٢]. وذلك يتبدى واضحا، وحين مزق كسرى رسالة نبينا محمد ﷺ!

وهو أيضا ما يجعل القرآن الحكيم حقا ومعجزا، وحين حكى عن قاسم مشترك بين النصارى، وإن تباعدت بهم الأوطان، وإن تناءت بهم البلدان!

لكن لفتا آخر أهم، وحين كان كل من المقوقس وحاطب عالمين بسيرة الأنبياء وبالتاريخ. ولأن دراسة التاريخ فهم للماضي، وتفاعل مع الحاضر، لاستشراف آفاق المستقبل. وهذا الذي يكون منه قاعدة دعوية قائمة على الدرس واستخلاص العبر منه.

---

(١) صحيح البخاري ٣٢٣١

ودلك على صحة مذهبنا هذا أن حاطب بن أبي بلتعة قال بعثني رسول الله ﷺ إلى المقوقس ملك الإسكندرية، قال فجئته بكتاب رسول الله ﷺ، فأنزلني في منزله، وأقمت عنده. ثم بعث إلي وقد جمع بطارقته، وقال إني سائلك عن كلام فأحب أن تفهم عني. قال قلت هلم. قال أخبرني عن صاحبك أليس هو نبي؟ قلت بلى هو رسول الله. قال فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟ قال فقلت عيسى ابن مريم أليس تشهد أنه رسول الله؟ قال بلى. قلت فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه، إلا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إلى السماء الدنيا؟ فقال لي أنت حكيم قد جاء من عند حكيم، هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد، وأرسل معك ببذرقة يبذرقونك إلى مأمنك. قال فأهدى إلى رسول الله ﷺ ثلاث جوار منهم أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وواحدة وهبها رسول الله ﷺ لأبي جهم ابن حذيفة العدوي، وواحدة وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت الأنصاري، وأرسل إليه بطرف من طرفهم[١].

وعن عبدالرحمن بن عبد القاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية بكتاب فقبل الكتاب وأكرم حاطبا وأحسن نزله وسرحه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأهدى له مع حاطب كسوة وبغلة مسروجة وخادمتين إحداهما أم إبراهيم وأما الأخرى فوهبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لجهم بن قيس العبدي وهي أم زكريا بن جهم الذي كان خليفة عمرو بن العاص على مصر[٢].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير ج ٤/٣١٠

(٢) نصب الراية، الزيلعي ٢٩/٤ . حكم المحدث مرسل.

وكان في جملة هدايا المقوقس إلى نبينا صلى الله عليه وسلم غلام أسود اسمه مأبور، وكان خصيا، وكان يدخل على مارية، وعلى عادات المصريين يوم ذاك، وإلى يوم الناس هذا!، فجعل الناس يتكلمون، وحين لم يعلموا أنه خصي! حتى قال بعضهم إنه الذي أمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب بقتله فوجده خصيا فتركه.

الفصل الرابع: غزوة ذات السلاسل وسرية سيف البحر

وأعالجه في مبحثين اثنين:

المبحث الأول: غزوة ذات السلاسل

إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا!

هذا قول يكتب بمداد غير مداد الذهب! وإذ كان الذهب أرخص، وإذ كان مداد مثل ذلكم قولٍ عزيزا!

ولأنه يرسم طريق المعاونة والمشاركة، لا سبيل الخذلان والمغالبة! وحين يكون صف هذا وصفه، فيحال إحداث خلال فيه، أو حتى خلة واحدة؛ ولأنه ملتئم، وحين التأمت قلوب أوليائه، وحين كانت وحدة صفهم منهجا، ولما أصبحت كلمتهم سواءً!

ولقد كان هذا قول سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لأبي عبيدة عامر بن الجراح- رضي الله تعالى عنه-، ويوم أن أرسله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في مدد لسيدنا عمرو بن العاص- رضي الله تعالى عنه -، يوم ذات السُّلاسِل هناك! وما أدراك ما هناك! إلى ذات السلاسل من مشارف الشام في بلي، ومن يليهم من قضاعة! وهذا هو الإسلام راح يبسط عليهم نوره، ومن بعد ظلام حالك أرخى على الناس سدوله، فليسوا كانوا يعرفون معروفا، أو ينكرون منكرا، بل ولربما صار المعروف في عرفهم منكرا! والمنكر في عقدهم قد تحول معروفا، في انتكاسة للفطرة، وفي انقلاب على السنن التي قامت عليها السماوات والأرض! وفي لافتة جديدة أن هذا الدين ليس دينا محليا ولا إقليميا، بل عالميًا، وحين جاء

ليخرج الناس- كل الناس- من ظلمات الهوى والغوى، إلى نور التوحيد الخالص والعقيدة الصافية في الله تعالى الحق المبين سبحانه.

وإذ كان ذلك ليس ذلك وحده سببا، وإنما لينضاف إليه علم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بتجهز قبيلة قضاعة للنيل من هذا الدين الجديد، والذي كانوا هم على علم به، أنه ما كان ليسكت إلا أن يحول أرضهم ثكنات لجيش الفتح المبين، وحين يلوون ألسنتهم بالسوء، أو يقفون حجر عثرة أمام امتداده الطبيعي؛ لنشر الخير والهدى والصلاح والفلاح والنور؛ ولينير للناس طريقهم، ويعبد أمامهم دربهم، وهم إذ يسلكون سبيل ربهم، وهم إذ يسابقون إلى مغفرة من ربهم ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد:٢١].

وكان أن: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جمعا من قضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص، فعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعه ثلاثون فرسًا، وأمره أن يستعين بمن يمر به من بلي وعذرة وبلقين، فسار الليل وكمن النهار فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعًا كثيرًا، فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين وعقد له لواء وبعث معه سراة المهاجرين والأنصار، وفيهم أبو بكر وعمر، وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعًا ولا يختلفا، فلحق بعمرو، فأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قدمت على مددًا، وأنا الأمير فأطاع له بذلك أبو عبيدة، وكان

عمرو يصلي بالناس وسار حتى وطئ بلاد بلي ودوخها حتى أتى إلى أقصى بلادهم وبلاد عذرة وبلقين، ولقي في آخر ذلك جمعًا، فحمل عليهم المسلمون، فهربوا في البلاد وتفرقوا، ثم قفل وبعث عوف بن مالك الأشجعي بريدًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره بقولهم وسلامتهم وما كان في غزاتهم[1].

وبيد أن اللافت في هذا أيضًا، تيكم حكمة تحلى بها عمرو بن العاص، يوم ذات السُّلَاسِلِ، وحين شعر أن جيشه أقل ما كان يمكنه به مواجهة خصومه يومه ذلك، والذي كان منه طلبه مددا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وليرسل إليه صلى الله عليه وسلم مددًا مكونًا من عز المهاجرين دينا وصلاحا وتقوى، وحين كان منهم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله تعالى عنهما!

لكن اللافت أكثر ما يلفت، هو ذلكم القرار الذي أصدره القائد الأعلى للقوات المسلحة الإسلامية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أصدر قرار الإمداد، وبحيث يكون كل من أبي بكر وعمر جنديين، وتحت إمرة أبي عبيدة، وفي إشارة إلى أن هذا الدين يستوي فيه أن يكون العبد في المقدمة أو يكون في الساقة، أو على ميمنة الجيش أو ميسرته، ومن حيث كان للإسلام الخالد كلمته، وكفى بها نعمة أن يسدل على ظلمات الهوى والشرك ستاره! وحين ذلكم فثمة العبودية لله تعالى الحق المبين!

وبيد أن اللافت أكثر، وحين حدث بين كل من أبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص ما ظاهره الاختلاف على القيادة العامة للجيش يوم ذات

---

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج ١٣١/٢

السلاسِل، وهل يعتبر إصدار قرار تعيين أبي عبيدة أميرًا ناسخًا لقرار تعيين عمرو بن العاص، أم أن استشكالًا حدث، وكان منه أن قرار إمارة أبي عبيدة كان مقصورًا على مسافة الطريق، وحفاظًا على وحدة الصف، وأهمية الإمارة، وحتى ولو للطريق، ومن ثم وحين وصولهم يسلمون لعمرو بن العاص طاعتهم، وليسلسوا أمامه ولايتهم؟!

وهذا استشكال إداري، يقع في أية صفوف، وهو بحاجة فقط إلى كياسة وفطنة وتجرد وفناء! وحين رأى أبو عبيدة أنه من الأفضل إلا أن يكون تحت إمرة عمرو، وحتى قال قولَ رسولِ الله محمد صلى الله عليه وسلم الرشيد آنف الذكر: إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا!

وهذا قرار ميداني يخضع لسلطات قائد الميدان- التقديرية- وشركائه مشاركة لا مغالبة!

ما سبب اختيار عمرو بن العاص أميرا على جيش غزوة ذات السُّلَاسِلِ؟

إن سبب الاختيار أن أم العاص بن وائل- جدة عمرو بن العاص لأبيه- كانت امرأة من بلى فبعثه رسول الله إليهم يستألفهم بذلك[1]. في إشارة إلى أن هذا

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج ٢/١٣١

الدين يريد حقن الدماء، ما استطاع إلى ذلك سبيلا. ولعل الناس أن يسلموا، ويعلنوا إسلاس قيادهم لله تعالى الحق المبين.

وينضاف إلى ذلك مهارة كان معهودا بها عمرو، وينضاف إليه أيضا خبرته وحنكته، وإذ كان الزمان قد طال به عمرا، وحين قد بلغ سبعا وخمسين عامًا؛ مما يؤهله أن يكون قائدا فذا حكيما، وثم إنه كان توا حديث عهد بإسلام، وتوا قد عاد بوجه غير الذي كان قد راح به! ومن عند النجاشي هاديه- بإذن الله- ومن لدن أصحمة حاديه.

وبيد أن لافتا منضافا إلى ما أنف، وحين سار عمرو الليل وكمن النهار، في برهان خبرة بمقاليد الحرب، وأسرار الغزو، وحين جعل الله تعالى الليل سكنًا صالحًا للمسير خفية، وألا ينكشف ظهر المجاهدين، وكيما لا يكونوا لقمة سائغة في أفواه عدو الله تعالى وعدوهم، وهذه مهارة قتالية، وحنكة جهادية!

واختيار نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لعمرو بن العاص، وعلى هذا النحو، ليعد من كفاءات القائد، وبعد نظره، يصدر قراراته لصيقة الصلة بالواقع، ليحدث التلاؤم، ويحل القبول، ويبسط الإلف، وذلك عكس ما لو كان القائد مغبونًا، وعلى غير صفة مما أنف!

سر اختيار أبي عبيدة- أمين هذه الأمةِ- أمير هيئة الإمداد والتموين يوم ذات السُّلَاسِلِ

وبيد أن اللافت أيضًا، هو ذلكم التدين الذي اشتهر به أبو عبيدة بن الجراح، وحين كان رجلًا لينًا سهلًا هينًا عليه أمر الدنيا، وكان رجلًا حسن الخلق لين الشيمة، سعى لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وعهده[1]. وهذا الذي فعل به فعله، وحين سلم لعمرو بن العاص الولاية، وخاصة أنه كان قد أعلن وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يختلفا، وهذا وقوف بهم عند النص طاعة وقولا معروفا! ولهذا كتب الله تعالى لهم النصر المؤزر، والفوز المظفر، على عدو الله تعالى وعدوهم، وحتى ساحوا في البلاد، وحين انتشروا في البوادي، فلا تكاد تجد لهم أثرا، أو تسمع لهم همسا! وحين عسكرت قوات عمرو، وينحرون من إبلهم فيأكلون، وبيد أن ذا هو نصيبهم، وإذ لم يحرزوا عند القوم غنيمتهم، وكما العهد في الحروب!

وإذ كان لافتًا اجتماع الثلاثي الممدوح، ومن ذلكم الرهط الميمون، وحسنٌ قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: **أرْأَف أمتي بأمتي أبو بكرٍ، وأشدُّهم في دينِ اللهِ عمرَ، وأصدقُهم حياءً عثمانُ، وأقضاهم عليٌّ، وأفرضُهم زيدُ بنُ ثابتٍ، وأقرؤهم أُبَيٌّ، وأعلمُهم بالحلالِ والحرامِ معاذُ بنُ جبلٍ، ألا وإنَّ لكلِّ أمةٍ أمينًا، وأمينُ هذه الأمةِ أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاحِ**[2].

---

(١) تاريخ الإسلام، الذهبي: ج ٢ / ٥١٤

(٢) صحيح الجامع، الألباني: ٨٦٨

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩].

هذا هو شأن الإسلام رحمة ورأفة. وهذا هو شأن الإسلام يسرًا لا عسرًا، وهذا هو شأن الإسلام رخصة وعزيمة.

وكل ذلك مما أفادنا به فقها لعمرو بن العاص، يوم ذات السُّلَاسِلِ. وحين احتلم، وجاء وقت الفجر، وإذ كان الجو باردًا، وعلى حد حكايته: أنه لو اغتسل بالماء لمات، وكان منه اجتهاده بالتيمم للصلاة فصلى، وحين علم النبي صلى الله عليه وسلم منه فعله ضحك، ولم يقل شيئًا، ولعله إقرار منه صلى الله عليه وسلم بفعله رضي الله تعالى عنه.

وهذا تأويل لآي الذكر الحكيم القرآن العظيم، وحين قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦].

وهذا برهان جواز الاجتهاد عند عدم وجود النص، وبإعمال نص آخر في المسألة، أو في وجوده وحين تأول عمرو بن العاص قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِن اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩]، ولأنه هذا هو ديننا شامل كامل، ولأنه كتاب عام حوى ذكر الحلال والحرام، ذكر ائتلاف ووئام، لا اختلاف وشقاق، وهذه من رحمته تعالى بهذه الأمة، أن أنزل عليهم كتابًا فيه نبأ ما قبلهم، وحكم ما بينهم، وبحيث جنبهم به الزلل، وبحيث أغناهم به عن خطل!

ولأن العبد حين يكون متصلًا بالله تعالى مولاه الحق المبين، تراه مبدعًا في إعمال النصوص، واستنباط كنوزها، واستنطاق جذورها، عملًا بالكتاب أيضًا، وحين كان هذا الاستدلال الألمعي من عمرو بن العاص، يوم تيمم صعيدًا طيبًا، وحين شق عليه استعمال الماء غسلًا من جنابة الاحتلام.

وهذا مرة أخرى برهان كفاء القرآن الحكيم والذكر المبين، في بيان أحكام ديننا، وذلكم جنبًا إلى جنب مع ما تضمنه حديث نبينا محمد صلى الله عليه من إعمال لسنته، ومن دلالة فقه طريقته، وحين قال صلى الله عليه وسلم: ألا إنِّي أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ، ألا يُوشِكُ رجُلٌ شبعانٌ على أريكتِهِ يقولُ عليكُم بِهذَا القُرآنِ فما وجدتُم فيهِ مِن حَلالٍ فأحلُّوه وما وَجدتُم فيهِ مِن حرامٍ فحرِّمُوه، ألا لا يحلُّ لكُم لحمُ الحِمارِ الأهليِّ، ولا كلِّ ذي نابٍ من السَّبُعِ، ولا لُقَطةِ معاهَدٍ، إلَّا أن يستَغني عَنها صاحبُها، ومَن نزل بقومٍ فعليهِم أن يُقْرُوه، فإن لَم يُقْرُوه فله أن يُعْقِبَهُمْ بمثلِ قِرَاه[1].

(١) صحيح أبي داود، الألباني:٤٦٠٤

والشاهد قوله صلى الله عليه وسلم: ألا إنّي أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ، في إشارة إلى وجوب العمل بالسنة المطهرة، كوجوب العمل بالقرآن الحكيم تماما بتمام.

ودلك على صحة مذهبنا هذا، ما رواه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى عن عبد الرحمن بن جبير، عن عمرو بن العاص قال احتَلمتُ في ليلةٍ باردةٍ في غزوةِ ذاتِ السُّلاسلِ فأشفَقتُ إنِ اغتَسَلتُ أن أَهْلِكَ فتيمَّمتُ، ثمَّ صلَّيتُ بأصحابي الصُّبحَ فذَكَروا ذلِكَ للنَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فقال يا عَمرو صلَّيتَ بأصحابِكَ وأنتَ جنُبٌ؟ فأخبرتُهُ بالَّذي مَنعَني منَ الاغتِسالِ وقلت إنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يقولُ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾، فضحِكَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ولم يَقُلْ شيئًا[١].

يا رسول الله من أحب الناس إليك؟

هذا سؤال عمرو بن العاص يوم ذات السُّلاسِل لنبينا صلى الله عليه وسلم. وإذ حدثته نفسه أن منزلة له عنده صلى الله عليه وسلم، قد بلغت مبلغها. وحين قدمه في إمارة يوم ذات السُّلاسِل، ومقدما إياه عن كل من صاحبه في الغار ثاني اثنين، وعلى حد قول الله تعالى ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) المرجع السابق، الألباني: ٣٣٤

﴿ السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٤٠]. وهذه وقفة أبي بكر، يوم بدر جواره صلى الله عليه وسلم، وإذ قد بلغ قوله الآفاق، وحين نادى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قائلا: يا نَبِيَّ اللهِ، كَفاكَ مُناشَدَتُكَ ربَّكَ؛ فإنَّهُ سيُنْجِزُ لكَ ما وَعَدَكَ[١].

وكذا الفاروق عمر، الذي كانت له صولاته وجولاته وموافقاته مع القرآن الحكيم، وحين قال له صلى الله عليه وسلم: إنَّ الشَّيطانَ ليخافُ منكَ يا عمرُ[٢]!

وليس غائبا عن عمرو ذلكم النبأ العظيم، في كل من الأخوين أبي بكر وعمر! ولكنه ذلكم حديث النفس، والذي سيطر على عمرو! ليس تقدمة له على أحد الصاحبين، وإنما من باب الفأل الحسن، أن يلقى كثيرا، وكما قد بشرا بالجنة! وههنا نقف وحسبنا، وإلا كان هذا الجيل الفريد بالغا مبلغا في المحبة والتفاني والولاء والإيثار، ما لم يحدثنا التاريخ عن شيء، ولو قريبًا منه!

لكن الطريف اللافت أنه صلى الله عليه وسلم عدد نفرًا كثيرًا، ولم يأت بعدُ دورُ عمرو، حتى حدث في نفسه حديثًا أن يسكت، مخافة أن يذكره صلى الله عليه وسلم آخر القوم!

وهذا الذي نقف عنده قليلًا، وإذ قد سبق في كلامنا، حول هذه الغزوة المباركة - غزوة ذات السُّلاسِل - أن من حِكَمِ اختيار عمرو أميرًا لها، كفاءته لذلك ولا شك، ثم ما كان بين والدته - جدته لأبيه - وبني بلي من قضاعة من رحم،

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٦٣

(٢) صحيح الترمذي، الألباني: ٣٦٩٠

ولعلهم يسلمون، وهذه براعة نبينا صلى الله عليه وسلم، ودلالة أن يكون القائد عالِمًا بالتاريخ والواقع المحيط؛ ليضع الأمور نصابَها، ويبلغ بالقرارات صوابَها!

ودلك على صحة مذهبنا هذا: **أَنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَعَثَ عَمْرَو بنَ العَاصِ علَى جَيْشِ ذَاتِ السُّلَاسِلِ، قال فأتَيْتُهُ فَقلت أيُّ النَّاسِ أحَبُّ إلَيْكَ؟ قال عَائِشَةُ قلت مِنَ الرِّجَالِ؟ قال أبُوهَا قلت ثُمَّ مَنْ؟ قال عُمَرُ فَعَدَّ رِجَالًا، فَسَكَتُّ مَخَافَةَ أنْ يَجْعَلَنِي في آخِرِهِمْ**[1].

عود على بدء

لا يمكننا الانتهاء من غزوة ذات السُّلَاسِلِ إلا أن نقف، ونعيد التأكيد مرة أخرى، على ألمعية قرار القائد الأعلى للقوات المسلحة الإسلامية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكيف أدرج أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما جنديين، وتحت إمرة عمرو بن العاص، ويبدو أن هذا القرار كان فريدا من نوعه، وعند استحضار صورة أبي بكر يوم بدر، وقد كان في عريش مركز القيادة والسيطرة، جنبًا إلى جنب مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يطمئنه، ويبعث الهدوء في نفسه، ويبث الأمن في خلده، وينشر الرجاء في قلبه، وينفث في روعه، استشرافًا لوعده تعالى له بالنصر المبين، على أعداء رب العالمين.

وانتقال أبي بكر من مركز القيادة والسيطرة إلى مصاف الجنود، يوم ذات السُّلَاسِلِ عمل ألمعي، وكما أنه تصرف نبوي عبقري، ينبئ عن مدى علمه صلى

(١) صحيح البخاري: ٤٣٥٨

الله عليه وسلم بمن هم تحت إمرته، من رعية استوى لدى أحدهم وكأبي بكر أن يكون بمثابة وزير الدفاع والحرب، أو يكون جنديا من جملة جنود الميدان، يأمره ويوجهه عمرو بن العاص! في إلماحة تبين وعن مدى عبودية الناس يومهم هذا لربهم الحق المبين، وأيًّا ما كان موقعهم في هذه الدنيا: في المقدمة أو في الساقة، أو ميمنة جيشهم أو ميسرته، أو حتى كانوا في مركز القيادة والسيطرة!

كما وأننا لا يمكن أن نغادر غزوة ذات السُّلَاسِلِ وإلا ونبين ونقف مندهشين مشدوهين أيضًا من عمل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه يوم ذاك، وكيف هو الآخر وحين سلم القيادة لعمرو بن العاص، وليكون جنديًّا تحت إمرته، وكأبي بكر وعمر تمامًا، بل كان وضع أبي عبيدة أظهر، وغير أن فعله قد كان أبهر! وحين عين أميرًا على كتيبة الإمداد يومه ذلك، ولينتقل جنديًّا مميزًا، بالسمع والطاعة والانضباط، ولذا كان حريًّا، وله أن ينال دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قال صلى الله عليه وسلم: يرحم الله أبا عبيدة[1]، في إشارة إلى بذل هذا الجيل وفنائه وتجرده وعطائه، حتى استوى لديه أن يكون أميرًا أو قائدًا أو فردًا من أفراد القوات المسلحة الإسلامية يومه ذلك! ويوم أن امتثل، ويوم أن أخضع نفسه للطاعة، ويوم أن أخلد طاقاته للبر والبأس والشجاعة!

وهذا هو أبو عبيدة عامر بن الجراح، وهذه أم المؤمنين عائشة عنه تنبئنا خبرًا، وهذه هي الصديقة بنت الصديق عنه تروي لنا عنه ذكرا، وتحكي لنا عنه عبرا، أنه: مَن كانَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ مُسْتَخْلِفًا لَوِ اسْتَخْلَفَهُ؟ قالَتْ:

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج / ٣١٣

أَبُو بَكْرٍ، فقِيلَ لَهَا: ثُمَّ مَنْ؟ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ قالَتْ: عُمَرُ، ثُمَّ قيلَ لَهَا مَنْ؟ بَعْدَ عُمَرَ، قالَتْ: أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ ثُمَّ انْتَهَتْ إلى هذا[(١)].

وليس يمكننا أن نمر على غزوة ذات السُّلَاسِلِ، وهي إذ مازالت ماثلة أمام أعيننا بأحداثها وعطائها وتفاني أفرادها وأمرائها، وذلكم الحكم في أصول الطهارة من جنابة، وحين اجتهد عمرو بن العاص في التيمم بدلا عن الاغتسال بالماء، وحينما احتلم ليلتئذ، وخشية ضرره، وفي إشارة إلى يسر هذا الدين، وكيف أنه رفع الحرج عن العباد، وحين توجههم مخلصين إلى رب العباد، ليجدوا من كل ضيق مخرجا، ومن كل كرب فرجا، ولكل عارضة حلًّا سهلًا لينًا!

وبيد أن عمل عمرو هذا يدل على جواز الاجتهاد، وعند عدم النص في المسألة، أو في وجوده مع تأويل سائغ لغيره، وجمعا وآية التيمم، وحين تعذر استعمال الماء لضرر محقق متوقع، وقياسا على أصول الملة وقواعد الشريعة، وحين كانت يسرًا لا عسرًا، وهذا هو الأصل، وتلكم هي القاعدة، وبغير خروج على نص آخر، في إعمال الدين كله، جنبا إلى جنبه، ولأن ديننا كل متفاعل، ولأن إسلامنا جميع متناغم.

وتاريخنا غني ببيان كيف اجتهد الأصحاب عصر نبي ربه الوهاب التواب، وإذ كان إقرارًا، وكما واقعتنا محل البيان، وحين بعث معاذًا إلى اليمن، وحين لم يجد نظمًا يعمله، أو نصًّا يسعفه.

وأخرج الإمام أبو داود في "سُننه" قال حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي عَوْنٍ، عَنِ الْحَارِثِ بْنِ عَمْرِو ابن أَخِي الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، عَنْ أُنَاسٍ مِنْ أَهْلِ

(١) صحيح مسلم:٢٣٨٥

حِمْصَ، مِنْ أَصْحَابِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ، قال "كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟، قال أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ، قال فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟، قال فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قال فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَلَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟، قال أَجْتَهِدُ رَايِي وَلَا آلُو، فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صَدْرَهُ، وَقال الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وفَّق رسولَ رسولِ الله لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ"، حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ شُعْبَةَ، حَدَّثَنِي أَبُو عَوْنٍ، عَنْ الْحَارِثِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ نَاسٍ، مِنْ أَصْحَابِ مُعَاذٍ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ، فَذَكَرَ مَعْنَاهُ[1].

وحيث لا يوجد دليل من كتاب ولا سنة فإنه يجتهد في إلحاق النظير بالنظير، يعني: بالقياس أو بلفظ عام، أو قاعدة عامة من قواعد الشريعة، والمقصود من ذلك أنه يجتهد بالرأي بأن يقيس، أو يعتبره ضمن قاعدة من قواعد الشريعة، أو ضمن عموم من عمومات الكتاب والسنة التي يندرج تحتها ذلك الشيء أو تلك النازلة أو تلك الواقعة التي حصلت فيها الخصومة، وليس المقصود من ذلك أنه يعمل بالرأي المجرد دون أن يكون هناك سعي واجتهاد ووصول إلى الحكم بشيء بني عليه الاجتهاد إما قياس أو غير ذلك[2].

(١) سنن أبي داود، كتاب الأقضية، باب: اجتهاد الرأي في القضاء. قال اشوكاني رحمه الله تعالى: وهو حديثٌ مشهور، له طرق متعددة، ينتهض مجموعها للحجية، كما أوضحنا ذلك في مجموع مستقل. [إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، الشوكاني: ج٢ /٣١٠].

(٢) كتاب شرح سنن أبي داود، عبد المحسن العباد: ج٢٥٥/ ١٣

وكما أنه ليس يفوتنا إشارة إلى عمل هيئة الإمداد والتموين للقوات المسلحة الإسلامية يوم ذات السُّلَاسِلِ، وكيف أنها كانت مستعدة لتلبية حاجات الميدان دواليك، وعلى عجلة من صفة لصيقة بعمل القوات المسلحة الإسلامية، وكيما تنجز أعمالها المنوطة بها في انسيابية وحركة دائبة، هما من أخص خصائص العمل العسكري!

وكما أنه ليس يفوتنا إشارة إلى أن عمل عمرو بن العاص يوم ذات السُّلَاسِلِ، وحين سأل نبينا محمدا صلى الله عليه: من أحب الناس إليك يا رسول الله؟! وتوجيهه التوجيه الحسن، وكونه صدر من أفراد جيل أثنى عليهم قرآنهم، وأمجد صنيعهم نبيهم صلى الله عليه وسلم، وخلد التاريخ أيضًا ذكرهم، محبة وتآلفا وإيثارا، جاء في القرآن ذكره، ونزل في التنزيل شأوه، وحين يوجه سؤال عمرو بن العاص هذا على أنه يريد استشرافا لرضا الرحمن عنه، أو بشارة من العدنان له، تُطَمْئِنُ له قلبه، وتُؤْمِّنُ به لبه، وحين يغادر أرض الميدان، بل وحين يقابل ربه الرحمن، ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

وكما أنه ليس يفوتنا إشارة إلى عمل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم ذات السُّلَاسِلِ، حكمة كاشفة عن مدى توفيق الله تعالى له، وحين كان اختيار عمرو بن العاص أميرا عليها، ولأنه من ذوي قربى أهل ذات السُّلَاسِلِ، ولعلهم أن يسلموا، وقبيل المبارزة، وفي إشارة كاشفة أيضا عن نبل هذا الدين، وكيف أنه يسلك كل سبيل ممكن لحقن الدماء، وقبل المواجهة! وإذ كانت مهمته الأولى هي انتقال سلس بالعباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وكل ما يتخذ من

عمل في ذلك، فإنما هو عامل مساعد، وكل ما يفعل أو يقال ههنا، فإنما هو فعل مساند!

المبحث الثاني: جيش الخبط!

سرية سيف البحر

هذا عنوان لافت!

وهو جيش سيف البحر أيضا.

وكان بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله تعالى عنه، وللمرة الثانية تباعا، وإذ كان منه يوم ذات السلاسل.

ولسنا نريد أن نقول في تاريخ هذه الغزوة، وإلا على قول الإمام البيهقي، وكذا تبعه الإمام العماد الحافظ ابن كثير رحمهما الله تعالى من أنها كانت قبل يوم الحديبية، ولدليل أنها كانت موجهة إلى عير قريش، ولأنه كان من بنود يوم صلح الحديبية، وقف الحرب بينهم وبين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عشر سنين، وبه دل على أن هذه الغزوة كانت قبل يوم الحديبية، وهو كلام رشيد رحم الله تعالى قائله.

وبيد أن ما يلفت في هذه الغزوة هو:

الأول: إمارة أبي عبيدة لها وقد كان أهلا لها. وقد أنف بيان ذلك يوم ذات السلاسل، وإذ عهدناه بارعا، وإذ ألفيناه باهرا.

الثاني: كان الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه من جند أبي عبيدة وتحت إمرته!

الثالث: ذلكم الجوع الذي سيطر عليهم، وألم بهم، وحتى أكلوا الخبط، وهو ورق الشجر، ومن بعد خبطهم له! في بيان لمدى صبر أولاء وفنائهم وبذلهم مهجهم لله.

وحتى بلغ من صبرهم على جوعهم إلى أن أكلوا أوراق الشجر!

وحتى ورد أن أبا عبيدة كان يوزع على كل واحد منهم ثلاث تمرات في اليوم! ثم أخذ يتناقص إلى أن وصل إلى تمرة واحدة في اليوم؛ ليقنع نفسه أنه يأكل فيمص بها مص الطفل لثدي أمه! في إشارة أيضا أن المص يمكن أن يسد جائحة الجوع! وفي ابتكار غذائي ألمعي! لكنك لا تروح بعيدا والشأن أنها تمرة واحدة! وفي اليوم كاملا !!! ولكنه هكذا قد ذكر التاريخ صنيع هؤلاء، وليعلم الله تعالى أن عبادا له هكذا كان بذلهم فيه تعالى، وفيه أنهم أكلوا ورق الخبط! وأنهم عاشوا يومهم كاملا، وعلى تمرة واحدة أيضا! وإذ كان الشأن في نبيهم صلى الله عليه وسلم أنه جعل السبع تمرات نصيبا للشخص المعتاد في اليوم المعتاد أيضا، وليتقلب العبد بين هذه مرة، وبين هذه مرة أخرى، وليهون عليه أمر دنياه، ويرخص أمامه كل شيء كان قد فعله، وإذ لم يفعله إلا لله تعالى الحق المبين سبحانه.

وهكذا ولما صبروا، وكان جزاء صبرهم رزقهم! وحين بعث عليهم ربهم الحق سبحانه حوتا عنبرا ميتا ضخما مستعرضا أمامهم، وليأكلوا منه لحما طريا نصف شهر كامل! وثم إذا عادوا طلب منهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤاكلوه

منه، فأطعموه؛ ودلالة على أن ميتة البحر جائزة، وكما قال صلى الله عليه وسلم عن البحر: هو الطهور ماؤه الحل ميتته.

فعن أبي هريرة سأل رجل رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال يا رسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا أفنتوضأ من ماء البحر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم هو الطهور ماؤه، الحل ميتته[1].

وكذا قوله صلى الله عليه وسلم أحل لنا دمان وميتتان فأما الميتتان فهما السمك والجراد، وأما الدمان فهما الكبد والطحال، والحوت نوع سمك، والعنبر منه نوع حوت.

فعن عبدالله بن عمر أحلت لكم ميتتان ودمان، فأما الميتتان، فالحوت والجراد، وأما الدمان، فالكبد والطحال[2].

وهكذا تكون ثمرة الصبر إغداق! لكن العبد ينال ذلكم، وحين ليس يكون على عجلة من أمره، وحين ليس يكون إلا عاملا مخلصا ومتجردا، ولا يحسبن في مخيلته الجزاء، وحين أسلم وجهه لله!

وبين أيدينا حديث يقطر صدقا ويبرق ذهبا، وحين روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن جابر بن عبدالله: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مئة راكب أميرنا أبو عبيدة بن الجراح، نرصد عير قريش، فأقمنا بالساحل نصف شهر، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط، فسمي ذلك الجيش جيش الخبط،

---

(١)صحيح الترمذي، الألباني: ٦٩

(٢) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٢٦٩٥

فألقى لنا البحر دابة يقال لها: العنبر، فأكلنا منه نصف شهر، وادهنا من ودكه حتى ثابت إلينا أجسامنا، فأخذ أبو عبيدة ضلعا من أضلاعه، فنصبه، فعمد إلى أطول رجل معه [وفي رواية]: ضلعا من أضلاعه فنصبه، وأخذ رجلا وبعيرا- فمر تحته. قال جابر: وكان رجل من القوم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه. وكان عمرو يقول: أخبرنا أبو صالح، أن قيس بن سعد قال لأبيه: كنت في الجيش فجاعوا، قال: انحر، قال: نحرت، قال: ثم جاعوا، قال: انحر، قال: نحرت، قال: ثم جاعوا، قال: انحر، قال: نحرت، ثم جاعوا، قال: انحر، قال: نهيت.

سلمة بن الأكوع يغزو ست عشرة غزوة!

عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال **غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم سبع غزوات، وخرجت فيما يبعث من البعوث تسع غزوات، مرة علينا أبو بكر، ومرة علينا أسامة. وقال عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبي، عن يزيد بن أبي عبيد، قال سمعت سلمة يقول غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم سبع غزوات، وخرجت فيما يبعث من البعث تسع غزوات، علينا مرة أبو بكر، ومرة أسامة**[1].

هذه ست عشرة مرة، يخرج فيها الصحابي الكريم سلمة بن الأكوع، مجاهدا مقاتلا في سبيل الله تعالى مولاه الحق المبين.

(١) صحيح البخاري: ٤٢٧٠

ولنا قبل أن نتصور هذا العدد أن نتصور من قبله أن الخروج للقتال، ولو مرة واحدة آية ودلالة على صدق هذا الجيل، وإذ وكما هو معروف يمكن أن يخرج ولا يعود، وإنما إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله. وعلى حد ما قال الله تعالى **﴿سابقوا إلىٰ مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ۚ ذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء ۚ والله ذو الفضل العظيم﴾** [الحديد٢١].

وهذا ينضاف إلى رصيد القوم، وكما قد رصده التاريخ لهم، باذلين المهج، التي هي ملك لخالقها، وهي لخالقها أيضا، ولكنه تعالى وحين الجهاد قد تفضل بشرائها منهم، ولعل حياءنا أن نقول واشتراها منا! لأننا وحسبنا نسطر تاريخ الأمجاد، وها نحن على أريكتنا متكؤون!

بيد أنها محاولات لتسجيل عملهم، كما سجله التاريخ لهم، وكيما يبقى التواتر قائما، ومن جيل إلى جيل آخر، إحياء لذلكم القتال الذي عز، وتمجيدا لذلكم الجهاد الذي ند!

وبيد أن حسابا بسيطا، وخصوصا لحق سلمة بن الأكوع، وحين حضر ست عشرة عملية قتالية، وخلال عمر الجهاد النبوي، والبالغ عشر سنين ليكون المعدل (١,٦) غزوة شهريا!

ولهذا كان قمنا له قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في حقه كان خير فرسائنا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة[١].

(١) صحيح مسلم: ١٨٠٧

وهـذا ثنـاء على سـلمة بـن الأكـوع، وبأنـه كان ذا سـبق في سـلاح المشـاة الإسـلامي، وكمـا كان أخـوه أبـو قتـادة صـاحب سـلاح الفرسـان! وتلـك أمـة ولادة، وتلك أمة خيرة، تنجب الأبطال التي تهتز أمام صهيلها الجبال الرواسي!

والـذي تجـدر الإشـارة إليـه أن سـلمة بـن الأكـوع صـاحب هـذا التـاريخ المجيـد حكى عـن نفسـه أن قيادة الغزوات التي حضرها أو السرايا كان فيها جنديا، وإنما كانت تحت إمارة أبي بكر مرة، أو تحت قيادة أسامة بن زيد مرة أخرى! وإذ نسـجل له أنه لم تشرئب نفسـه للإمارة يوما، وحين كان عمله لله تعالى الحق المبين، ولأنه يسـتوي أن يكون في المقدمة أو في السـاقة، أو ميمنـة جيشـه أو ميسـرته، وكل ذلـك في الله تعالى، فاستوى الطرفان إذن!

وإذ كـان سـلمة بـن الأكـوع هـذا جـديرا بـه أن ينـال هـذا الفضـل، فضـل المسـابقة الى سـاحات البـذل، ولأنه كان قـد تـوافر عليـه صـدقه، ومع أنـه قـد تـواتر عنـه إخلاصـه، وإذ كان رضـي الله تعـالى عنـه، وكمـا قـال عنـه يزيـد كنـت آتـي مـع سلمة بن الأكوع فيصلي عند الأسـطوانة التي عند المصحف، فقلت يا أبا مسلم، أراك تتحـرى الصـلاة عنـد هـذه الأسـطوانة، قـال فـإني رأيـت النبـي صـلى الله عليـه وسلم يتحرى الصلاة عندها[1].

والأسـطوانة المـذكورة حقـق لنـا بعـض مشـايخنا أنهـا المتوسـطة في الروضـة المكرمة، وأنها تعرف بأسـطوانة المهاجرين، قـال وروي عـن عائشـة أنهـا كانت تقـول: لـو عرفهـا النـاس لاضـطربوا عليهـا بالسـهام، وأنهـا أسـرتها إلى ابـن الزبير فكـان يكثر

(١) صحيح البخاري: ٥٠٢

الصلاة عندها، قال ثم وجدت ذلك في تاريخ المدينة لابن النجار وزاد: أن المهاجرين من قريش كانوا يجتمعون عندها[1].

ولم يذكر التاريخ منه تأففا نزل، ولم يسجل التاريخ عنه تمعضا وقع، وإنما بذلا قد سجل، وجهادا قد كتب، وتفانيا قد حدث وكل ذلك كان لله.

ولا شك أن تاريخ الرجل كان مليئا بذكريات بذله، وقد مر بنا شيء من ذلك، وحين تناولنا غزوة ذي قرد، في بعض الحديث عنها أنه كان أول من نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع غدا، يريد الغابة، متوشحا قوسه ونبله، ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله، معه فرس له يقوده، حتى إذا علا ثنية الوداع، نظر إلى بعض خيولهم، فأشرف إلى ناحية سلع، ثم صرخ وا صباحاه! ثم خرج يشتد في آثار القوم، وكان مثل السبع، حتى لحق القوم، فجعل يردهم بالنبل، وكان إذا وجهت الخيل نحوه انطلق هاربا ثم عارضهم فإذا أمكنه الرمي رمى ثم قال: خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع[2]!

وبيد أن سرية سيف البحر، أو جيش الخبط، كان من مناسبتها، وقوع حدث موت النجاشي، ذلكم الملك الذي كان لا يظلم عنده أحد! وليأمر نبينا صلى الله عليه وسلم بالصلاة عليه؛ إعلاما بإسلامه، وإشهارا بإيمانه، وقد كان ملكا، ولم يمنعه ملكه أن يكون عبدا لمولاه تعالى الحق المبين، فينال أرفع الدرجات في الدنيا، وليتوسم أسمى المقامات في الآخرة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) نيل الأوطار، الشوكاني: ج ٣ / ٢٤١

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣ / ٧٥٢

ولكنه قد حدث يوم جيش الخبط، ما يعتبر تربية إسلامية، وعلى مائدة ما يقع من أحداث، وكيما يكون لها صداها، وحتى يبرز من فحواها معناها، فتكون أوعى حفظا، وتلقي أقوى أثرا، والتعليم التربوي هكذا يكون نجاحه عمليا فعليا، لا قوليا نظريا!

ونترك أسامة بن زيد يحكي لنا الواقعة، ويقصص علينا الحادثة، وإذ قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة من جهينة، قال فصبحنا القوم فهزمناهم، قال ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، قال فلما غشيناه قال لا إله إلا الله، قال فكف عنه الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، قال فلما قدمنا بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، قال فقال لي يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟! قال قلت يا رسول الله، إنما كان متعوذا، قال أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟! قال فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[(١)].

وهذا الذي فعله أسامة قد كان متأولا فيه، ومن مقتضى قوله تعالى ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ۖ سنت الله التي قد خلت في عباده ۖ وخسر هنالك الكافرون﴾ [غافر ٨٥]. وأنه ما قال كلمة التوحيد إلا تقية من عذاب، وإلا تظاهرا من عقاب! ولكن كلمة التوحيد جليلة، ولعظمها كان شرعنا الإمساك عمن قالها، وريثما يتبين أمره، ولعله يحسن إسلامه من بعد، ولذا كان موقفه صلى الله عليه وسلم آنف الذكر.

---

(١) صحيح البخاري: ٦٨٧٢

الفصل الخامس: فتح الله المبين لمكة البلد الأمين

إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب.

هذا هو قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وإذ كان تزكية للفتح المبين، فتح مكة البلد الحرام، وإذ يوقع الكفار أنفسهم في شر أعمالهم، ولينقضوا عهد الحديبية بأنفسهم، ولحكمة يعلمها الله تعالى، وليكون منها ذلكم الفتح المبين، وحين قال الله تعالى مولانا الحق المبين **﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى﴾** [الحديد ١٠].

وقال تعالى **﴿إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾** [النصر ١-٣].

وكان أن دخلت خزاعة في حلف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكما قد دخلت بنو بكر في حلف قريش، وبناء على ميثاق يوم الحديبية، أنه من شاء دخل في حلف محمد- صلى الله عليه وسلم-، ومن شاء دخل في حلف قريش.

وكان قد حدث أن أغارت بنو بكر على خزاعة، ظنا منهم أن الله تعالى لن يكشف أمرهم لرسوله صلى الله عليه وسلم، وزعما خائبا منهم أنه تعالى لن يهتك سرهم هذا.

وأيضا ليصل الخبر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعن طريق عمرو بن سالم، فقال رسول الله ﷺ «نصرت يا عمرو بن سالم» فما برح حتى مرت بنا عنانة في السماء فقال رسول الله ﷺ «إن هذه السحابة لتستهل بنصر

بني كعب» أي خزاعة. وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز وكتمهم مخرجه، وسأل الله أن يعمي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم[1].

وهذا علم نبوة ضاف، ولأنه كان بعده الفتح المبين، لتصبح مكة البلد الحرام في حمى المسلمين، وإذ كانوا هم أولياءها على الحقيقة لا قريش!

وكما أنه أيضا استشراف الخير من تخييم غمامة! وسبحان من ذكر الغمام غير مرة في كتابه، وحين يذكره بخير مرة، ومن قوله تعالى﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾[البقرة : ٢١٠]. وحين كان علما على اهوال يوم القيامة مرة اخرى ومن قوله تعالى أيضا ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا﴾ [الفرقان:٢٥].

فعن عبدالله بن عمر كانت خزاعة حلفاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت بنو بكر - رهط من بني كنانة - حلفاء لأبي سفيان قال وكانت بينهم موادعة أيام الحديبية فأغارت بنو بكر على خزاعة في تلك المدة فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمدونه فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ممدا لهم في شهر رمضان فصام حتى بلغ قديدا ثم أفطر قال (ليصم الناس في السفر ويفطروا فمن صام أجزأ عنه صومه ومن أفطر وجب عليه القضاء) ففتح الله مكة فلما دخلها أسند ظهره إلى الكعبة فقال (كفوا السلاح إلا خزاعة عن بكر) حتى جاءه رجل فقال يا رسول الله إنه قتل رجل بالمزدلفة فقال (إن هذا الحرم حرام عن أمر الله لم يحل لمن كان قبلي ولا يحل لمن بعدي وإنه لم يحل لي إلا ساعة واحدة وإنه لا يحل لمسلم أن يشهر فيه سلاحا وإنه لا يختلى خلاه ولا

---

(١) سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي: ٢٠٣/٥

يعضد شجره ولا ينفر صيده) فقال رجل يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لبيوتنا وقبورنا فقال صلى الله عليه وسلم (إلا الإذخر وإن أعتى الناس على الله ثلاثة من قتل في حرم الله أو قتل غير قاتله أو قتل لذحل الجاهلية) فقام رجل فقال يا نبي الله إني وقعت على جارية بني فلان وإنها ولدت لي فأمر بولدي فليرد إلي فقال صلى الله عليه وسلم (ليس بولدك لا يجوز هذا في الإسلام والمدعى عليه أولى باليمين إلا أن تقوم بينة، الولد لصاحب الفراش وبفي العاهر الأثلب) فقال رجل يا نبي الله وما الأثلب؟ قال الحجر فمن عهر بامرأة لا يملكها أو بامرأة قوم آخرين فولدت فليس بولده لا يرث ولا يورث والمؤمنون يد على من سواهم تتكافأ دماؤهم يجير عليهم أولهم ويرد عليهم أقصاهم ولا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده ولا يتوارث أهل ملتين ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا تسافر ثلاثا مع غير ذي محرم ولا تصلوا بعد الفجر حتى تطلع الشمس ولا تصلوا بعد العصر حتى تغرب الشمس [(١)].

هذا وفاء نبي!

ربما حسبت بنو بكر أنها كان يمكنها إخفاء اعتدائها على خزاعة، مما سيؤلب عليها قيامة النبي ﷺ؛ فزعة مع خزاعة ضدها، أو أنها حسبت أنه يمكن ألا يقوم نبينا صلى الله عليه وسلم ناهضا فزعا ناصرا خزاعة، ويتركهم وحدهم، ودون تفعيل لإعمال عقد الحديبية، ولئن كانوا قد حسبوا حسابهم هذا، فذلكم هو عملهم، ينضاف إلى رصيد غدر الناس يومهم هذا!

(١) تخريج صحيح ابن حبان، شعيب الأرناؤوط: ٥٩٩٦. خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن.

وكل يوم تنداس فيه القيم، وتؤخر فيه الموازين! ولترتدي عباءات البوار، وتتلبس بالناس أزياء الخسار والعوار!

ولهذا السبب أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الناس بالتجهز لملاقاة بني بكر، ونصرة خزاعة، ولكنه وكعهده كان قد أسر أمره، وأمر ألا يفشى سره، ولكنه صلى الله عليه وسلم كان قد أحاط نفسه بدرع الدعاء، وحين توجه إلى رب الأرض والسماء، متضرعا، أن ينصره، وداعيا ربه ألا يخذله.

وحين علمت بنو بكر بتحركات غلب على ظنها أنها للنيل منها، وأخذت بمعاونة قريش، أن تحتال على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بإطالة عقد الحديبية، وريثما يرتبون أوضاعهم، وراح أبو سفيان يدور حول بيوتات النبي صلى الله عليه وسلم مرة، وعمر الفاروق مرة، وأبي الحسن علي مرة ثالثة، وفي محاولة لإجهاض نصرة النبي بني خزاعة! ولما لم يحسبوا لذلك حسابهم!

ولكن اللافت هنا، هو ذلكم الحديث الذي دار بين أم حبيبة زوج نبينا صلى الله عليه وسلم ووالدها أبي سفيان، وحين دخل عليها، وأراد أن يجلس على فراشه صلى الله عليه وسلم، ولتنهض مسرعة؛ لتؤخره ألا يجلس على فراش النبي ﷺ! ولأنه مشرك نجس! وفي تحقيق عملي لعقيدة الولاء والبراء، فيما لا تصنعه كتب، ومما لا تفعله خطب! وليس ينسى أنه عمل ابنة مواجهة والدها! ولكنه الإسلام، وحين يكون به الفصال، ويكأنه الإيمان، وحين يكون به الاعتزال!

ودلك على صحة مذهبنا هذا أنه لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة جاء إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يريد غزو مكة فكلمه أن يزيد في هدنة الحديبية فلم يقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام فدخل على ابنته

أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي صلى الله عليه وسلم طوته دونه فقال يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه، فقالت بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت امرؤ نجس مشرك فقال يا بنية أصابك بعدي شر[1].

قريش تحرج نفسها!

كانت قريش في غنى عن اتخاذها موقفا يحرجها هكذا وسط جزيرة العرب! وإذ كان هذا هو ديدن المناوئين أبدا! يحرجون أنفسهم وغيرهم معهم، وحين تستدبر القيم، وحين توطأ موروثات الخير والهدى والصلاح والقسطاس المستقيم!

وإذ كان يمكنها ألا تقف مع بني بكر ضد خزاعة، وعلى الأقل من باب الاحتياط، وعلى الأقل منه من باب المحافظة على سمعتها في جزيرة العرب! وإذ كان يمكنها اتخاذ موقف وسط، كهكذا أن تحافظ على ماء وجهها الذي سال، وهي إذ تجول البيوتات؛ التماسا لرضا نبي، كانوا يحسبونه لقمة سائغة، تباع ذممه وتشترى في سوق نخاستهم، وتناسوا أنهم يعرفونه، كما يعرفون أبناءهم!

بيد أن هذا الحدث، ولعله من حكمته تعالى أن قد حدث! وليعلم الناس كل الناس أن ههنا مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم الجديدة، والتي تخرج أجيالا، لا يقبلون ضيما، ولا يرضون دنية! وأن ههنا مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم تزأر، وحين تستنصر، وتصهل وحين تستنفر! في بيان جديد، لم تعهده جزيرة العرب من قبل!

---

(١) رواه ابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (٨/٩٩-١٠٠)، وأورده الذهبي في ((سير أعلام النبلاء)) (٢/٢٢٣) وضعفه الألباني في ((فقه السيرة)) (٣٧٣).

لكن علم الإجارة كان معروفا، ولكن بابه كان معهودا. وإنما جاء الإسلام ليبرز جانبه المضئ، وحين يكون بحق لا باطل؛ ليزهقه، معدلا من فقهه الذي أرم، وممحيا من ظلمه الذي سئم!

فالإجارة نعم، ولكنها للحق دون للباطل، وللحق على الباطل! هكذا في مفهوم جديد، يرسي قواعد نصفة جديدة متينة صالحة، تقوم عليها العلاقات الدولية؛ نصرة للمظلومين، ووقوفا مع المكلومين!

ولكننا أيضا نقف على أن الإجارة عمل فردي، نابع من قناعات الناس الخيرة، ولذا كان من غير الصواب قض مضاجع المجيرين، والذين فيهم بقية خير ونصرة، وكيما تتبقى في المجتمعات أصول الإجارة، وأعمال النصرة، وكيما لا تندرس أسباب التراحم، وكيما لا تتصرم بقايا التواصل، ولتأتي على بقايا الخير في الناس، فيفرغ المجتمع من قيمه وأخلاقه وآدابه! فيخاف الآمنون، ويرعد المجيرون!

لكن أم هانئ، وكانت امرأة، قد أجارت، وعملا فرديا، لكنه صلى الله عليه وسلم ولإبراز أهمية شأن الإجارة أجار نبينا صلى الله عليه وسلم من أجارت أم هانئ!

فعن فاختة بنت أبي طالب أم هانئ أن أبا مرة مولى أم هانئ بنت أبي طالب، أخبره أنه سمع أم هانئ بنت أبي طالب، تقول ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح، فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره، قالت فسلمت عليه، فقال من هذه، فقلت أنا أم هانئ بنت أبي طالب فقال مرحبا بأم هانئ، فلما فرغ من غسله، قام فصلى ثماني ركعات ملتحفا في ثوب واحد، فلما

انصرف، قلت يا رسول الله، زعم ابن أمي أنه قاتل رجلا قد أجرته، فلان ابن هبيرة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ قالت أم هانئ وذاك ضحى[1].

ولست أقول ما قال الأغيار، من أن إجارة المرأة موقوفة على إجازة الإمام أم لا؟! ولأنه صلى الله عليه وسلم أجار من أجارت أم هانئ، وقضي الأمر، إشاعة للفضيلة، ونشرا القيم النبيلة، وحيثما توافرت لذلك حسان الوسيلة!

وإذ لا ننسى أنه صلى الله عليه وسلم كان قد أقر ابنته زينب رضي الله تعالى عنها، وحين أجارت زوجها العاص بن الربيع! وفي لفتة جميلة أن النصرة خلق كريم!

إنما أنا امرأة، وإنما ذلك إلى رسول الله!

هذا قول فاطمة الزهراء، أم الحسن والحسين، بنت نبينا محمد صلى الله عليه وسلم!

وهو قول ينطق حكمة، وينثر عظة، وينشر قدوة، ويقطر أسوة!

وإذ لا عيب في أن ترجع النساء إلى ذوي رحمها، فليولوا هم أمرها، ويدفعون عنها الأشرار، ويذودون عنها الفجار، ويمنحونها ثقة قول الأبرار!

ولأنها وحين طاف أبو سفيان ملتمسا إجارة أحد، ولما لم يجد عند أبي بكر ولا عمر ولا علي، لجأ الى نوع النساء ورقتهن، وغلبة عواطفهن! ولكنهم جميعا

(١) صحيح البخاري: ٣٥٧

قالوا وكأنما كانوا على قلب رجل واحد: جواري في جوار رسول الله ﷺ!!! إلا تحلة القسم، وحين أشار عليه علي أن يرجع إلى حرم الله تعالى البيت الحرام، ويعلن الإجارة لمن شاء، ولا شرط لها! وفي غير تغيير أو تنازل، لما كان عليه أصحابه، وحين اجتمعوا على وقف الإجارة على بيان من رسول الله صلى الله عليه وسلم! وإذ هم يعلمون أن نبيهم ما كان ليقبل عرض أبي سفيان؛ ذودا عن حق، وازهاقا لباطل!

وهكذا يكون صنع المواقف!

حكم إجارة المشرك

قيل كلام كثير شأن حكم جواز إجارة المشرك من عدم ذلك، وما بين مطلق لذلكم جواز، وما بين جوازه شرط إجازة الإمام، وما بين جوازه شرط إجازة الإمام للمرأة والعبد.

والواقع أن النص حاكم ههنا، وبقطع النظر عن إجازة الإمام أم لا، وذلك ليس افتئاتا على الإمام، بقدر ما هو إعمال للنص القرآني، ولكننا أمام جمع بين الأدلة، ومنه فإذا رأى الإمام مصلحة، ولربما غابت عن آحاد الناس، فله إلا يجير، أو يحيز إجارة أحد المسلمين لغير المسلمين من الكفار والمشركين أو غيرهم.

ونحن أمامنا نصوص حاكمة، وعليها يكون الدوران، منها:

الأول: عموم قوله تعالى ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتىٰ يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ۚ ذٰلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ [التوبة: (٦)].

الثاني: إجارة زينب بنت نبينا صلى الله عليه وسلم لزوجها العاص بن الربيع، فإن أبا العاص بن الربيع كان فيمن شهد بدرا مع المشركين فأسره عبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري. فلما بعث أهل مكة في فداء أسراهم قدم في فداء أبي العاص أخوه عمر بن الربيع وبعثت معه زينب بنت رسول الله، وهي يومئذ بمكة، بقلادة لها كانت لخديجة بنت خويلد من جزع ظفار، وظفار جبل باليمن وكانت خديجة بنت خويلد أدخلتها بتلك القلادة على أبي العاص بن الربيع حين بنى بها، فبعثت بها في فداء زوجها أبي العاص، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، القلادة عرفها ورق لها وذكر خديجة وترحم عليها وقال إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا إليها متاعها فعلتم. قال وا نعم يا رسول الله، فأطلقوا أبا العاص بن الربيع، وردوا على زينب قلادتها، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم على أبي العاص أن يخلي سبيلها إليه، فوعده ذلك ففعل[1].

الثالث: أن زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إليها أبو العاص بن الربيع أن خذي لي أمانا من أبيك، فخرجت فأطلعت رأسها من باب حجرتها والنبي صلى الله عليه وسلم في الصبح يصلي بالناس فقالت أيها الناس إني زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وإني أجرت أبا العاص، فلما فرغ النبي

(١) رواه ابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (٣١/٨)، والحاكم (٣٦٦/٣). وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

صلى الله عليه وسلم من الصلاة قال أيها الناس إنه لا علم لي بهذا حتى سمعتموه ألا وإنه يجير المسلمين أدناهم[1].

الرابع: حديث الإمام البخاري الآنف في مسألة إجارة أم هانئ رضي الله تعالى عنها.

والزوجة راعية في بيت زوجها

عالجنا كثيرا من المسائل، ومن خلال عرضنا لهذه السيرة النبوية المباركة.

وكان من جملة ذلك، رعاية المرأة لبيتها. وأن الأصل هو ذلك، ولأن البيت هو جامعة تخريج أبناء بررة لأمتهم، ومنهم الوالدان بالطبع. لكن هذا التخريج يكون على أقوم حال، وحين يكون على يدي أم حانية، تسكب حنانها مع كل نظرة، وتتقاطر رحماتها لدى كل لمحة، ولا يترك ذلكم لتكلُّف خادمة، ولا يوعز ذلك لتصنُّع عاملة! ويكأن الأم هي حاضنة الأجيال، وإنما الوالدة هي راعية الأنجال.

وبيتها وزوجها وأولادها هي أميرة بيتهم كله، تصنع للناس الأمجاد، وحين خرجت جيلا، كان الله تعالى هو إلهه وحده الحق المبين. ورعاية المرأة بيتها وأولادها وزوجها حصن حصين، يوجب التماسك، وكان قمنا به التآزر. وليس في

(١) رواه الحاكم (٤/٤٩)، ورواه الطبراني (٢٢/٤٢٥) (١٨٨٩٩). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٥/٣٣٣) رواه الطبراني في ((الأوسط)) و((الكبير)) باختصار، وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات، وصححه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٦/٧٧٠).

هذا إلا أعظم تكريم، وحين توجه كل من راعيي الأسرة وجهته الصحيحة، في تواؤم لا تزاحم، وفي تعاضد لا تنافر. وتعاون لا تجاذب، ولكل وجهة هو موليها.

ودلك على صحة مذهبنا هذا مكث رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يمكث بعد ما خرج من عنده أبو سفيان، يوم الفتح الأعظم، ثم أخذ في الجهاز، وأمر عائشة أن تجهزه وتخفي ذلك.

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد أو إلى بعض حاجاته، فدخل أبو بكر على عائشة، فوجد عندها حنطة تنسف وتنقي، فقال لها يا بنية لم تصنعين هذا الطعام؟ فسكتت. فقال أيريد رسول الله ﷺ أن يغزو؟ فصمتت[1].

وهذه عائشة أم المؤمنين تجهز زوجها نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، الخروج يوم الفتح المبين، وتنسف وتدق وتعد الطعام. وفي هذا إكبارها، وفي هذا إعظامها.

وغير عائشة مثلها تماما في أداء الرسالة.

اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها

هذا هو دعاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يوم الفتح المبين فتح مكة البلد الأمين.

وفيه كل معاني اللجأ إلى تعالى الحق المبين، وأن العبد ليس له من الأمر من شيء، وأن أعنة الأمور كلها بيد الله تعالى، وأن العباد لهم آلة تنفيذ المقادير

(١) البداية والنهاية، ابن كثير ج ٤/٣٢٢

التي قدرها الله تعالى وقضاها ابتداء وانتهاء، وأن ليس لأحد سواه فيها من بذرة، وأن ليس لغيره فيها من بادرة!

وبحيث يخرج العبد، وحين يخرج لقضاء ما قدره الله وقضاه سلفا، فإنما هو يعلم توكله على الله تعالى حق توكله، وكيما يرزقه الله تعالى أيضا، وكما يرزق الطير تغدو خماصا وتعود بطانا.

فعن عمر بن الخطاب لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا[١].

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم ۙ أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي ۚ تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ۚ ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ [الممتحنة١].

وعن علي بن أبي طالب بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا، والزبير، والمقداد، فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ؛ فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوا منها. قال فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها أخرجي الكتاب، قالت ما معي كتاب، فقلنا لتخرجن الكتاب، أو لنلقين الثياب، قال فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم،

(١) صحيح الترمذي، الألباني ٢٣٤٤

فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة، إلى ناس بمكة من المشركين، يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا حاطب، ما هذا؟! قال يا رسول الله، لا تعجل علي؛ إني كنت امرأ ملصقا في قريش -يقول كنت حليفا، ولم أكن من أنفسها- وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت -إذ فاتني ذلك من النسب فيهم- أن أتخذ عندهم يدا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادا عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما إنه قد صدقكم، فقال عمر يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا، فقال اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم. فأنزل الله السورة **{يأأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق}** إلى قوله **{فقد ضل سواء السبيل}** **[الممتحنة ١]**[١].

هذا هو شأن إسلامنا، ليس يترك مناسبة تتعرض فيها الدولة الإسلامية إلى ما يهدد كيانها أو أن يطل فيها من يكون عمله غير صالح إلا وتعرض، وإلا وواجه، وإلا وزأر! وذلك لأن المعيار الذي تقوم عليه شهادة التوحيد هو ذلكم الولاء والبراء في الله، واللذان يحكيان حكاية الصدق في قولها، ويرويان رواية الإخلاص في صحتها.

إن شهادة التوحيد ليست صكا يمنح ودون تبعة، ومنها هو هذا الولاء والبراء في الله تعالى الحق المبين سبحانه. وتعريتها عن هذا الولاء والبراء يجعلها

(١) صحيح البخاري: ٤٢٧٤

عدما تماما! وهذا الذي حمل عمر الفاروق على استحصال إذنه صلى الله عليه وسلم لقتل حاطب بن أبي بلتعة، ويوم أن تأول إعلام قريش بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح الأعظم، وفي عبارات تحكي معاني الصدق، وأنه صلى الله عليه وسلم قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده، لنصره الله عليكم، فإنه منجز له ما وعده[(١)]!

فهذا قول يحمل ظاهره التنديد والوعيد لقريش مقدم نبينا صلى الله عليه وسلم! ولكنه أيضا يحمل في ثناياه ما يخالف عقد الولاء والبراء في الله تعالى، ولذا قامت القائمة على إثره، ولا هوادة هنا! لأن الأمر متعلق وكما أسلفنا بحكاية الولاء والبراء، والتي لا يسكت عنها، وإن سكت عنها ساكت!

إن عقيدة الولاء والبراء في الله تعالى هي التي نصب لها الأنبياء لواءها، وكيما تكون عقدا فريدا، لا يزدان إيمان العبد إلا معها! ولا يقيم صلب إسلام المرء سواها، وجنبا إلى جنب مع أخواتها من الأصول، وعملا بها وكذا الفروع! ولئن جاز القول بفروع!

وليس يكون أعظم مما نحن فيه، وحين واجه المجتمع المسلم كله حاطب بن أبي بلتعة؛ ولأنه لو لم يكن في فعله ما ينقض الإسلام حجرا حجرا! ما فعلوا ذلك، ويتقدمهم نبيهم صلى الله عليه وسلم!

وهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام، وحين واجه أباه قائلا ﴿**وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسىٰ ألا أكون بدعاء ربي شقيا**﴾ [مريم: ٤٨].

(١) البداية والنهاية، ابن كثير ج ٤ / ٣٢٤

وهذه العقيدة الإسلامية ناصعة كبياض النهار، عبر عنها كل من نبينا صلى الله عليه وسلم ومع حاطب، وكما وعبر عنها أبوه إبراهيم عليه السلام ومع والده، في حكاية دين لا يقبل من الطريق أنصافه، وفي رواية نظام عالمي جديد لا يقبل من السبيل أبعاضه!

إن فتح مكة عمل فتحوي هام! كان بداية عصر جديد لمحو الأصنام من القلوب، ولدك هاماتها أسفل سافلين! وليس ينظر في ذلك أن قريشا كانت سدنة البيت الحرام، وليس يغني من ذلك كونها كانت تلت السويق وتوزعه على الناس يوم حجيجهم! فالدين دين، وأوله رسما هو التوحيد، وآخره نظما هو الولاء والبراء في الله تعالى! وإن كل ما يفسر على أنه انقضاض على هذا المعنى، أو كان مغايرا له، فيكون منعدما انعداما مطلقا، لا يلحقه تصحيح، وأمام أية درجة من درجات التقاضي! وإلا من إزالة ركام الجاهلية الهابط، وإلا من محو آثاره، وتطهير سبله، ومما ماثل شركا، أو ولاء لغيره تعالى.

وإذ لست مقعدا، وإذ لست أريد بحثا عن تكييف مسألة الولاء والبراء، وهل هي من لوازم التوحيد، أم أنها من معناها، ولأن مثل ذلكم بحث وعلى أهميته، وإنما سيدخلنا فيما لسنا نحمد نتيجته، من إضعاف معناها في القلوب، وإذ كفى بنا قول عمر الفاروق، وإذ حمل على حاطب، وكما قيل: من ثلاث جهات أولها النفاق، وثانيها الكفر، وثالثها البراء من الدين، ولولا أنه كان من أهل بدر، أو كان منه تأولا.

إن عقيدة الولاء والبراء في الله تعالى هي المحرك وهي المحك! وفيها النظر، وعليها المعتبر!

ولا شأن لتدافع الناس على أبواب المساجد، أو نصب خيام إطعامهم، أو مما سواهما! وأن عاقلا عالما لا يغرنه التدافع على أبواب المساجد، ودون عرضهم على الولاء والبراء!

إنه لو لم يكن من حاطب إلا أنه كان من أهل بدر لفعلت معه الأفاعيل!

ولكن هذا هو الفاروق عمر يبين لنا عظم فعل حاطب، ولما قال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق.

فقال صلى الله عليه وسلم «إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على من شهد بدرا، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». ولينزل الله تعالى فيها قرآنا يتلى، وإلى يوم الدين، وحين قال تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم ۙ أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي ۚ تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ۚ ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل**﴾!

ولهذا جاء ختم الآية بمثل ذلك، وحين قال الله تعالى ﴿**ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل**﴾. في إشارة إلى خصوصية حاطب- ومن تأوله- لا خصوصية فعله!

فلما رأت الجد منه قالت أَعرِضْ، فأَعرَضَ!

فلما رأت الجد منه قالت أعرض، فأعرض، فحلت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليه[(١)]!

هذا فعل امرأة تحصنت، وهذا عمل نسوة تحجبت! وإذ كانت مشركة!

قال ابن إسحاق: ثم أعطاه امرأة يزعم محمد بن جعفر أنها من مزينة وزعم غيره أنها سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب[(٢)].

قال فكتب حاطب كتابا وأرسله مع أم سارة كنود المزني.

هذا هو الحجاب

والمثير عجبا أنها وحين عملت عملها، وهو ذهابها سفير شر إلى قريش، إلا أنك تراها متمسكة بحجابها، معتزة بسترها، وعلى كفرها! وحين أبت أن تكشف عن رأسها؛ حتى لا يرى فريق البحث والتتبع- علي والزبير بن العوام والمقداد- شعر رأسها! وهي إذ تكشف عنه لتبرز رسالة حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش! وفي سلوك مهيب حقا، وفي عمل حشمة ناطق بالفطرة وحقها معا!

وفيه دليل جواز التهديد لإرغام المتهم على الاعتراف، ولقول علي بن أبي

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ٣٢٨

(٢) كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، التقي الفاسي:١/٤٠٦

طالب إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك[1].

وفيه جواز الحلف لتأكيد صدق فريق البحث الجنائي. ولحمل المتهم على الاعتراف أيضا، ولأن فيه إيهاته، ويكأن فيه استنطاقه.

وفيه جواز التفتيش لاستخراج ما أحرزه المتهم، برهان عمل علي والزبير بن العوام والمقداد، وحين استنزلوها، فالتمسوه في رحلها، فلم يجدوا فيه شيئا.

وكما أن فيه إرسال أكثر من واحد في فريق البحث الجنائي، بحثا عن الأدلة تعاونا وكشفا، وضمان شبهة عدم الاتفاق مع المتهم، وحين كان البحث الجنائي مؤلفا من واحد وحسب، وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم أرسل عليا والزبير والمقداد؛ لأداء مهمة استحصال رسالة حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش.

علم نبوة ضاف

وفيه علم نبوة ضاف لنبينا صلى الله عليه وسلم، وحين أتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء، بما صنع حاطب!

وكما أن فيه دفعه تعالى عن عباده، وحين علم منهم صدقهم، وحين تواتر منهم إخلاصهم، وهذه معيته تعالى للمتقين، وحين كانت لهم رداء، ويكأنها أصبحت لهم كساء، وصدق الله تعالى حين قال ﴿**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾ [النحل ١٢٨].

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٤ / ٨٥٨

يا حاطب ما حملك على هذا؟

هذا سؤال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبي بلتعة، يوم أرسل الى قريش أنه صلى الله عليه وسلم يريد فتح مكة، وأنه لا راد له، ولئن عزم!

بيد أن فيه مشروعية التحقيق مع المتهم، ولأن النفوس يكتنفها من الضعف أحيانا ما يحملها على المخالفة، ليس قصدا جنائيا لها، وبقدر ما كان ديوانا، لا يعبأ الله تعالى به، أو كان ديوانا لا يغفره الله، أو كان ديوانا بين العبد وربه، وكما روى الإمام أحمد والحاكم عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة ديوان لا يعبأ الله به شيئا، وديوان لا يترك الله منه شيئا، وديوان لا يغفره الله.

فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله، قال الله عز وجل ﴿**إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة**﴾ [المائدة ٧٢].

وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئا، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من صوم يوم تركه أو صلاة تركها، فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء.

وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئا فظلم العباد بعضهم بعضا، القصاص لا محالة[١].

---

(١) رواه أحمد (٢٤٠/٦) (٢٦٠٧٣)، والحاكم (٦١٩/٤). وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه. وقال الـذهبي في ((التلخيص)): صدقة ضعفوه، وابن بابنوس فيه جهالة. وقال أحمد شاكر في ((المسند)) (٥٢٠/١) إسناده صحيح. وقال الألباني في ((ضعيف الجامع)) (٣٠٢٢): ضعيف.

وإنما جعل التحقيق حقا للمتهم، وحقا للمجتمع أيضا، وحفظا للنظام العام والآداب، وهو من سلطان ولي الأمر وسلطاته، وليس يقوم به إلا هو أو نائبه، ولفعله صلى الله عليه وسلم مع حاطب بنفسه، وحين تولى بنفسه عملية التحقيق مع حاطب بن أبي بلتعة.

وكذا تحثيثا لمبدأ الأسباب المخففة للعقوبة، وإنما جاء محلها ههنا، وحين أدلى حاطب بحجته، وحين قال: يا رسول الله، لا تعجل علي؛ إني كنت امرأ ملصقا في قريش -يقول كنت حليفا، ولم أكن من أنفسها- وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت -إذ فاتني ذلك من النسب فيهم- أن أتخذ عندهم يدا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادا عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام.

وحينها قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا، فقال اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم. وحين قال عمر الفاروق: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق.

وهذا الذي حمل بعضهم إلى التساؤل هل هذا خاص بحاطب، ولأنه كان من أهل بدر، أم ينسحب على كل نظير؟!

والذي تطمئن له النفس أنه خاص بحاطب أو من كان كمثله مناطا لحكمه. ولا سيما النص الحاكم أمامنا، ومن قول حاطب تأولا: قال يا رسول الله، لا تعجل علي؛ إني كنت امرأ ملصقا في قريش -يقول كنت حليفا، ولم أكن من أنفسها- وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم،

فأحببت -إذ فاتني ذلك من النسب فيهم- أن أتخذ عندهم يدا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادا عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام.

ولكن وأنى حكم كحكمه، ولا بدر لدينا؟!

فتحان في رمضان!

فأما الفتح الأول فقد كان غزوة بدر الكبرى، ولأنها كانت فتحا، فتح الله تعالى به على الإسلام، وحين بدت شوكته، وقويت شكيمته، وبسطت كلمته، وظهرت قوته.

وأما الفتح الثاني وكذا فتح مكة الفتح الأعظم، وحين أسماه الله تعالى الفتح المبين، وكما قال تعالى ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ [الفتح١]، ولأنه كان ختما لعمل من جملة أعمال هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وعلى مدار العهدين المكي والمدني تقريبا، وليتوج بهذا الفتح المبين! وإهداء للعالمين، أن كان ها هنا نبي! وإذ ها هو قد أرسى قواعد العدل، وإذ ها هو قد قعد علائق التوحيد، وإذ ها هو قد أصل نبذ الشرك، وإذ ها هو قد ابتنى أعمدة إحقاق رب العالمين بما هو أهله، ربا وإلها ذا السلطان الأعظم، وذا الحكم والشرع الأقوم، وإذ ها هي دولة أرساها، وإذ يأتي يوم عليها، وإذ ليس بها فقير واحد! وبعد أن أكلوا الخبط يوما! وحين أسموا إحدى سراياهم سرية الخبط! عنوانا على بذلهم، وبرهانا على كم كان من الجهاد والصبر في ربهم نصيبهم! وإذ ها هي دولة بناها تعمها سحائب

الغمام، وليقول هارون الرشيد خليفة خلفائه الأمجاد أمطري حيث شئت فسوف يأتيني خراجك!!

لكنك تدهش وأية دهشة! وحين عقد مقارنة بسيطة بين أعداد صف يوم بدر، وإذ بلغ ثلاث مائة وأربعة عشر مقاتلا، وإذ دكت أنوف الكفر يومها دكا! وإذ أردتهم طرحاء باطن الأرض! ومن بعد نصر بهيج توجه المسلمون يومهم ذلك.

لكن يوم الفتح الأعظم، وحين دخل نبينا صلى الله عليه وسلم مكة مطأطأ وخشوعا، ومتواضعا وخضوعا، وإذ كان مصطحبا ما بين عشرة آلاف إلى اثني عشر مجاهدا، وهذه حصيلة عمله الدائب دعوة، وعلى مدار إحدى وعشرين سنة ونصف تقريبا، وليكون المعدل هو إعداد خمسمائة باذل في العام! وهذا يشي باهتمام الإسلام النوعي لا الكمي، في تربية قاعدة إيمانية صلبة، تكون أساسا لقلب موازين القوى في جزيرة العرب، وفي غير جزيرة العرب أيضا!

وما بين بدر، وإذ كان من خبرها وقصدها وهدفها ومعناها ومرماها، أنه سيبسط وسينشر وسيعم الإسلام سناه، وما بين الفتح المبين وإذ ها هو الإسلام قد بسط ونشر وعم هداه!

ويكأننا أمام فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، وبإذن الله تعالى، وهذا ما قد تحصل في يومي بدر والفتح المبين فتح مكة البلد الحرام الأمين، وقياسا على موازين القوى، والتي كانت ماثلة أمام العيون، في مكة، وهرقل الروم، وكسرى بلاد فارس، وإذ كانت لصالحهم راجحة الكفة، وإذ أضحت يومها للمؤمنين نائية الدفة!

وإذ كانت غزوة بدر من أوائل الظهور العسكري الحاسم للمسلمين، وما اكتنفه يومه ذلك من مخاطر، ولتفاوت ميزان القوى بين الفريقين، وكما أنف، وما قد صاحبه من مآثر، ورغم ذلكم، حتى أضحت مثل السائرين، وحكاية المؤرخين!

بيد أن يوم بدر كان يوما حافلا، وحين كان يقين هذا الصحب الكريم في ربهم، وأنه تعالى ناصرهم، ولئن كانوا أقل عددا، وهذه ثقة عظيمة، كانت ثمرة فطرية ليقينهم في ربهم الحق المبين، وحين مكن الله تعالى لفئة قليلة أن تغلب فئة كثيرة، وبإذن الله تعالى، وكيما تتعلق القلوب بربها أكثر، وكيما يكون اعتمادها عليه وتوكلها أوفر! وحين اتخذت من الأسباب ما يصدق عليهم إخلاصهم في توكلهم على ربهم الحق المبين، في منظومة توكل عمادها التفويض، وركنها أخذ بالسبب الموجب.

وإذ كان فتح مكة مؤذنا بميلاد عهد جديد، أتى على قريش سلطانها، وحين استلبت من ربها حكمه، وحين اشترعت من لدنها ظلما، وأسمته عدلا! في تعد مكشوفة ستائره، وفي تغيير للحقائق، وفي تبديل للوقائع، وما كان ظلم أوقعت نفسها في وحاله أعظم من ذلكم شرك، وحين اتخذت الأصنام أندادا، وحين حكمت الأهواء، وحين قضت بأقوال رجال، وإذ كان من نعتهم وأنهم لا يكادون يرون ما تحت أقدامهم! وليقضوا في المسائل العظام، بجرة قلم واحدة من ظلم، وبتوقيع حسبوه حكما من إفك! وليجيء الإسلام لذلكم ناقضا، وليأتي الإسلام على ذلكم مبطلا، ويوم كان فتح مكة البلد الحرام، وليعود إلى الدين

الحق الإسلام مجده، وليرجع إليه إرثه وعهده! ومن بعد عمل البطولات، لذلكم جيل لم يتمالك التاريخ نفسه، وإذ أرسى وسجل لهم فرائد الموروثات الخالدات!

وإذ لسنا ننسى ذلكم الأثر الجميل، ولا نغض طرفا عن ذلكم العمل الجليل، وحين دخل الناس في دين الله أفواجا، ومن بعد فك الأغلال، ومن بعد وضع الأكبال!

وإذ كان فتح مكة بلد الله تعالى الحرام الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده، وبيته الذي جعله هدى للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجا[(١)].

وست سنوات فارق بين العهدين، وليس بفارق! ومن حيث عمر الزمان! ولكنه ذلكم الفارق في القوى الهائلة التي تمتع بها المسلمون فضلا منه تعالى، وها هم وقد أصبحوا عنوان عزة وإباء، ومنه فلا يستعجلن أصحاب الدعوات من أمرهم عن فتحهم، وإذ إنه لقريب، وإذ لا تقنط لهم شعرة واحدة! وإن نصرهم غير بعيد! وإذ إنه لمن أسفل قدم أحدهم، لو نظر إليه لرآه!

وكما أن فيه اختزالا لعامل الزمان؛ إذ لم يحدثنا التاريخ أن دولا أسست أركانها، وثبتت أقدامها، في مثل ذلكم زمن قصير كهذا، وفى غضون ست سنوات! كانت هي ذلكم الفارق الزمني بين بدر والفتح المبين، غير دولة كان نبينا قد أقامها،

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزية: ج٢ /١٦٠

وغير حضارة كان رسولنا صلى الله عليه وسلم قد أعلى بنيانها! وأقام للناس دولة راج سوقها، ووحين أخلص لله جنود الدعوة وأتباعها! وحين استوى في عقدهم ونظرهم تراب البسيطة ومدرها!

وإذ لم ينس نبينا صلى الله عليه وسلم محادة المشركين، ويوم أن أرجعوه وصحبه مكسوري الخواطر، وها هو يوم الحديبية خير شاهد وماثل! وليأذن الله تعالى بميلاد يوم حلول الأنوار الجوابر، وحين يشرق نور فجر الدعوة الجديدة، وليبسط سنا وسنن وهدى الملة التليدة، وها هم قد عات إليهم مكة المجيدة، وليعلم أعداؤها أن موعدهم الصبح، ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ [هود٨١]؟! وحين عاد إليهم نبينا صلى الله عليه وسلم، وليريهم حميد الأخلاق، ودماثة المناقب، وشيم المثل، وإذ ها هم كانوا قد أذاقوه وصحبه مر العذاب، وفي تاريخ طويل مرير، امتد ثلاثة عشر عاما كاملة!

لكنه وهذا هو الفضل الرباني العظيم، وحين رجع نبينا صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية صحبة ألف وخمسمائة، وليعود ومن بعدها بعامين اثنين ومصطحبا معه عشرة آلاف مجاهد، وكحد أدنى، أو اثني عشر فاتحا، وكحد أعلى! وليبسط سناه، وينشر هداه في مكة المكرمة، بلد الله الحرام!

ولعل قاسما مشتركا آخر بين فتحي بدر العظمى ومكة الفتح الأعظم، وحين كان وقوع كل من الحدثين في شهر رمضان! في إشارة إلى أهمية هذا الشهر، حاملا بين جنباته أحداث الإسلام العظام!

ثم إننا أيضا أمام تشريع الإفطار في رمضان، وحين أفطر صلى الله عليه وسلم يوم الفتح الأعظم فتح مكة البلد الحرام، وفي توقيع ممهور بيسر ديننا،

ورفعه العنت، وحين مكابدة أعمال السفر، لجهاد يوم الفتح المبين، فتح مكة البلد الأمين، ويبدو هذا التيسير واضحا حين تبدى به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، قدوة تقتدى، وأسوة تحتذى، وهو إذ يتولى تفعيلا لقول ربنا الرحمن الرحيم سبحانه ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون** ﴾ [البقرة ١٨٥].

غير أن ما يلفت النظر أن قوما أفطروا، وكما نبيهم صلى الله عليه وسلم يومهم ذلك، وأن قوما صاموا! وذلك ليس قصد المخالفة، بقدر ما نعده التماس عذر، ولعله لم يصل إليهم الخبر يومهم ذلك، أو لعلها نفوس لم تطق الإفطار يوما واحدا من رمضان! ولقيمة شهر رمضان في القلوب، وحين أرسلت رسائلها إلى جوارح طيعة، وحين استقبلتها تيكم أبدان خاشعة قانتة! يتأبى عليها ضميرها ألا تفوز بعوائد وبركات شهرها، أو ألا تكون من عداد من كانوا ينتظرون صيحة التأذين؛ انتظارا لفرحة الصائم يوم فطره! وكما إخوانهم ونساؤهم وشيوخهم، وحين قد كان ذا هو عذرهم المانع من لحاقهم بهم، ويوم خرجوا يوم الفتح المبين! أو لعلهم حسبوا ذلك رخصة لا عزيمة، فقدموا العزيمة على الرخصة، ولأنه تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، ومعه يستوي الطرفان، أو هكذا كان حسابهم الميمون، أو هكذا كان من عقدهم المبرور في رب رحيم رؤوف غفور!

لكن ربا رحيما، وإذ كان من رحمته تعالى، ألا يجمع على عبيده مشقتي السفر والصيام معا، وإذ كان من هديه صلى الله عليه وسلم بيان هذه الرحمة،

واستشراف هذه الرأفة، وكيما يعلم الناس عن ربهم بعضا مما علمه هو صلى الله عليه وسلم عنه تعالى، ربا رحيما كريما عفوا حسن التجاوز سبحانه! وإذ كان صلى الله عليه وسلم أعلم به مما سواه، وإذ كان أدرك وأوعى لربه عمن هو غيره صلى الله عليه وسلم، وإذ قال صلى الله عليه وسلم. . . أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني[1].

أقول ومرة أخرى إن فضلا من ربنا علينا كان عظيما، وحين كتب سبحانه لأولاء عبيد كانوا يقومون ليلا، أو يصومون نهارا، وإذ كانوا حضرا، وإذ أصبحوا سفرا، وليظل الكتبة الكرام عنهم يكتبون! ولهم يسجلون! في استمطار دائم للرحمات، واستدعاء دائب للمنن والمنح والنعمات! وإذ حدث أبو موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه عن هذا النبي صلى الله عليه وسلم فقال سمعت أبا بردة، واصطحب هو ويزيد بن أبي كبشة في سفر، فكان يزيد يصوم في السفر، فقال له أبو بردة سمعت أبا موسى مرارا يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مرض العبد، أو سافر، كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا[2].

وإذ لا نغادر موقعنا هذا، إلا وحين نسجل لنبينا صلى الله عليه وسلم أنه كان قد استخلف كلثوم بن حصين الغفاري على المدينة. وفي تنويع إداري، وفي سبق تربوي؛ لإعداد قاعدة نقباء مهرة، ولتقويم سادة أكفاء بررة.

---

(١) صحيح البخاري ٥٠٦٣

(٢) صحيح البخاري ٢٩٩٦

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن ابن عباس قال سافر رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان، فصام حتى بلغ عسفان، ثم دعا بإناء من ماء، فشرب نهارا ليريه الناس، فأفطر حتى قدم مكة قال وكان ابن عباس يقول صام رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر، وأفطر فمن شاء صام ومن شاء أفطر[1].

وكذا ما رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن جابر بن عبدالله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عام الفتح إلى مكة في رمضان فصام حتى بلغ كراع الغميم، فصام الناس، ثم دعا بقدح من ماء فرفعه، حتى نظر الناس إليه، ثم شرب، فقيل: له بعد ذلك إن بعض الناس قد صام، فقال أولئك العصاة، أولئك العصاة، [وفي رواية] وزاد فقيل: له إن الناس قد شق عليهم الصيام، وإنما ينظرون فيما فعلت، فدعا بقدح من ماء بعد العصر[2].

إسلام العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي

وقد كان العباس بن عبد المطلب أتى رسول الله صلى الله عليه و سلم ببعض الطريق

وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله صلى الله عليه و سلم [أيضا] فيما بين مكة والمدينة

(١) صحيح البخاري ٤٢٧٩

(٢) صحيح مسلم: ١١١٤

فالتمسا الدخول عليه فكلمته أم سلمة فيهما فقالت : يا رسول الله بن عمك وابن عمتك وصهرك قال : لا حاجة لي بهما أما ابن عمي فهتك عرضي وأما بن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال.

فلما أخرج إليهما بذلك - ومع أبي سفيان بني له - فقال : والله ليأذنن لي أو لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشا وجوعا فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم رق لهما ثم أذن لهما فدخلا وأسلما[١].

كان في إسلام العباس بن عبد المطلب، عم نبينا محمد ﷺ، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي أخي أم سلمة أم المؤمنين، وهجرتهم إلى رسول الله ﷺ، أثناء طريقه إلى فتح مكة، آية أخرى!

وذلك لأن هؤلاء كانت لهم مواقف عداء مع الدعوة الجديدة، ما كان منه أن يصعب تصور مجيء يوم، نشهد فيه نقلتهم النوعية تلك، من كفر إلى إسلام، ومن عداء إلى سلام! وفي برهان آخر، أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء! وفي بيان ثان أن العبد العامل الداعية، يجب تحليه بالصبر، وحين يواجه أمما معادية لدعوته، ولربما جاء يوم يكون فيه ألد أعداء دعوته من يكونون ذراعها اليمنى، وبعد أن من الله تعالى عليهم أن هداهم للإسلام، وحين علم تعالى صدق توجههم هذا.

ويكأننا أيضا أمام آية عظمى!

---

(١)السلسلة الصحيحة، الألباني: حديث رقم: ٣٣٤١

ذلك وأننا ولنظرة أولية، لعقد مقارنة بين تبكير الإجهاز على صناديد الكفر يومهم الأول، وحين قامت أول ما قامت للإسلام قوته، ويوم بدر، وإذ رأينا كيف عاجل الله تعالى أبا جهل وأمية بن خلف والوليد بن عتبة مصيرهم، وبقتلهم يوم بدر، وفي حين يمهل هؤلاء الثلاثة، ليوم إسلامهم هذا، وليعلم أن الله تعالى له الحكمة البالغة، وأنه تعالى أيضا له الحجة الدامغة.

وإذ رأينا آية أخرى! ذلك وأن يوم إسلام العباس بن عبد المطلب، عم نبينا ﷺ، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي، ويوم الفتح المبين، وكما أسماه الله تعالى، عنوان عزة وإباء هذا الدين! ولأن مجيئهم يوم ذلك، وأثناء محفل الفتح المبين لهذه مكة، بلد الله الحرام، برهان إعزاز لهذا الدين، وإظهاره معه.

وإذ نكرر وجوب اصطبار الدعاة، وتجلد العاملين السعاة، وحين يأذن الله تعالى لعبد أن ينعتق من سهاده، وأن يمن على عبيد أن يفيق من سباته، وأن ينهض من رقاده!

حين جاء العباس بن عبد المطلب، عم النبي ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي أخو أم سلمة أم المؤمنين، وطلبوا الدخول على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فأبى! وبعد شفاعة أم سلمة!

وهذا برهان أن النفس البشرية مجبولة على التأثر، ولو من وجه، بالأحداث العظام! ولأن النفس البشرية غير ملومة أحيانا، وعلى تصرف قد يبدو من ظاهره عنت ما أو شبه عنت!

لكننا وحين ننظر إلى شفاعة أم سلمة، وكيف أدارت الحوار بما يشبه الحكمة، بل بالحكمة ذاتها! وحين تلطفت، وحين التمست عذرا لزوجها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولأنه صلى الله عليه وسلم كان قد عاني المر من هؤلاء، وإذ لم يبقوا باب إيلام له إلا ولجوه، ولم يتركوا ثقبا إيذاء به إلا دخلوه!

لكن أبا سفيان أبى وبكى، وإن لم يأذن له النبي ﷺ ليسيحن في البلاد طولها وعرضها، وإذ وقف على باب بيت نبينا صلى الله عليه وسلم ويلتمس معتذرا، وإذ يرق له صلى الله عليه وسلم، ولما عهد عنه من شفقة، وكما عرف عنه من رحمة!

عليكم بالأسود منه فإنه أطيب

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أخبره صحبه الكرام اجتناءهم الكباث، وهو ثمر شجرة الأراك المعروفة، والتي نأخذ منها السواك المعروف أيضا، والذي قال عنه صلى الله عليه وسلم السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب[(١)].

بيد أنه صلى الله عليه وسلم كان عالم طب الأبدان، وكما أنه صلى الله عليه وسلم كان حكيم طب القلوب والأرواح والجنان.

وذلك إشارة إلى أمره صلى الله عليه وسلم باجتناء والتزام الأسود من الكباث! وفي إشارة أيضا إلى ضرورة أن يكون الدعاة العاملون ذوي فقه حياتي شامل علوم دنياهم ومعاشهم، وجنبا إلى جنب مع علوم أخراهم ومعادهم.

---

(١) صحيح النسائي، الألباني: ٥

وشجرة الأراك هي التي في سيقانها السطحية والأرضية أيضا والتي تستخدم في صنع سواك الفم؛ عدا عن الفوائد الأخرى لثمارها التي ينتفع بها الإنسان والحيوان والطير، وتعتبر ثمار شجرة الأراك والمعروفة قديما بالكباث ذات فائدة طبية إضافة لفوائدها الغذائية المختلفة، فهي تستعمل بوصفات الطب البديل لعلاج عدد من الأمراض مثل المعدة، وآلام الظهر، وآلام البواسير، وأمراض، المسالك البولية حيث يتم أكله مطبوخا ليساعد على إدرار البول، والتخلص من غازات البطن، وفوائد أوراق شجرة الأراك أنه يعتبر مغلي أوراقه من المسهلات الجيدة للأمعاء؛ وذلك للتخفيف من حدة الإمساك، والتقليل من آلام المفاصل والروماتيزم.

كما وأنه صلى الله عليه وسلم كان راعيا للغنم، وقد عالجنا هذا الجانب وقته، أول تشرفنا بتناول هذه السيرة النبوية المباركة، بما أغنى عن إعادته هنا.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، عن جابر بن عبدالله **قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نجني الكباث، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عليكم بالأسود منه؛ فإنه أطيبه. قال وا أكنت ترعى الغنم؟ قال وهل من نبي إلا وقد رعاها**[(١)]؟!

---

(١) صحيح البخاري: ٣٤٠٦

تعجبون من دقة ساقيه فو الذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد!

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، حق سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، وهو قول وحي! وهو قول صدق! وهذا ثناء مني لا إثباتا!

وهذا تصوير عملي لقوله صلى الله عليه وسلم إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم[1].

ومن جانب آخر فهذا فعل الصحابة! وإذ لسنا نتصور أنهم كانوا ملائكة! ولسنا نتخيل أنهم كانوا إلا بشرا مثلنا! ولكنهم لسنا كمثلهم!

وهذا هو فرد واحد من أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كان ميزان ساقيه في الميزان أثقل من جبل أحد! وأحد خاصة! لأنه جبل عظيم يعرفونه، وكما يعرفون أنفسهم وأبناءهم! وإلا فلو أن جبلا آخر كان أعظم منه معروفا لديهم، فلربما كان أثقل منه أيضا!

وهذا بيان قيمة الفرد المسلم الواحد، وحين يكون معمورا قلبه بالإيمان، وحين يكون ممهورا لبه بمحبة الرحمن!

ويكأنها صورة كان لابد أن تحدث في مثل مجتمع الخير الفاضل، وكيما يبرز لنا قيمة عبد واحد، من عليه الله تعالى، وحين كان هذا وصفه، شحذا لهمم

(١) صحيح مسلم: ٢٥٦٤

الأخيـار، أن يترسـموا هديـه، وأن يقتفـوا أثـره! وحـين كانـت دقـة سـاقيه أثقـل في الميزان عند الرحمن من جبل أحد! إذ وما بالك به كله؟!

وبيد أن عبـد الله بـن مسـعود كان طريفـا، وغير أنـه كان ظريفـا! وحـين كان يتسلق شجرة الأراك ليقطف ثمرها كباثها، وإذ كان يقول:

هذا جناي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه.

أي أنه جعل إذا أصاب حبة طيبة قذفها في فيه!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى عـن ابن مسـعود، أنـه كان يجتني سـواكا من الأراك، وكان دقيـق السـاقين، فجعلـت الـريح تكفـؤه، فضـحك القـوم منـه، فقـال رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم "مـم تضحكون؟ " قال وا يا نبي الله، من دقة ساقيه، فقال " والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد "[١].

البراعة النبوية في تأمين الجبهة الداخلية

من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن.

هـذا أمـان الإسـلام، وهـذا شـرع الـرحمن، رحمـة بالأنـام، ورأفـة بالرجـال والولـدان، والصـبية والنسـوان، والـرق والمـوالي، والعبيـد والجـواري! وهـذه عـزة

(١) مسند أحمد ابن حنبل، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، حديث رقم: ٣٨٨٢

الإسلام وأنفته، متفاعلة مع إبائه وقوته، ورسوخ شكيمته! وحين كان دينا، لا يبغي إسالة الدماء، بل ولا فكرة واحدة! وإنما يستشرف كل مناسبة، يمكنه من خلالها بث أمنه وسلمه وعفوه ولينه ورحمته! وليس لأنك أصبحت قويا تعربد، وليس لأنك أضحيت عفيا تزبد! بل وكلما زاد الحليم قوة زاد إلفا وحنوا وعطفا ورحمة!

وهذا مناسبة أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أكرمه مولاه، أن يأتي على مشارف مكة، وصحبة عشرة آلاف، وفي وقت كانت قريش ترعب، وفي آن أصبحت قريش ترهب! ومن بعد واحد وعشرين عاما مطاردة ومواجهة ومقاتلة، وليأتي يوم الفصل المبين، وليصحوا على أزيز عمل المجاهدين، وإذ أصبحت لهم قوتهم ومنعتهم!

ولكن الإسلام يريد ما يبدو منه طرف خير، وشعاع نور! يشيعه في الناس، وليعلم الناس أن دين ربهم رحمة وعطف سلام ووئام، ويريد أن يحفظ على الناس كراماتهم وأموالهم وديارهم، بل يريد منهم شيئا واحدا، وهو إسلام وجوههم لله تعالى الحق المبين سبحانه. وحين ذلك يأمنون جميع الأمن، كل الأمر، وسائر الدهر، على أنفسهم وديارهم وأموالهم.

وما أنف، وزيادة عما أنف، بيان عقد الإسلام، وعقيدة الإيمان، وحين استشرفت قريش أمنها، ومن بعد خوفها، ومن إثر ذعرها، من هكذا جيش مغوار، أحاط بمكة البلد الحرام، إحاطة السوار بالمعصم، وألا نجاة إلا لمن آمن وعمل صالحا، وقال إنني من المسلمين، وكما قال الله تعالى **﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين﴾** [الزخرف٣٣]. وحين ذلك يأتي

بديل بن ورقاء والعباس بن عبد المطلب وسفيان بن حرب وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي وحكيم بن حزام، معلنين الإسلام، وكبادرة جعلت احتمالات إسلام البقية واردا، وإذ أسلم قادتهم!

ولكن أبا سفيان؛ ولأنه كان يحب الفخر، والناس يطلبون أن يجعل له نبينا محمد صلى الله عليه وسلم شيئا، فأذاع، وقال من دخل دار أبي سفيان فهو آمن - وكانت بأعلى مكة - ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن - وكانت بأسفل مكة - ومن أغلق بابه فهو آمن»[1]! وفي سياسة شرعية تبقى خالدة في سجلات التاريخ أن هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم كان قائدا حكيما ملهما، وحين بث الأمن في ربوع مكة كلها، ومن أعلاها، وممثلا في دار أبي سفيان، ومن أدناها، وممثلا في دار حكيم بن حزام! وهكذا يضمن عدم الإثارة، وهكذا يبسط أمن دينه الجديد على مكة، وبسلاسة وأمن داخلي، يجعل الناس- بحق- يدخلون في دين الله أفواجا، وبعد أن هدأت نفوسهم، وحين علموا أن الإسلام هو ذلكم القادم لا محالة، قد أصبح واقعا، ولأنهم استشرفوا أمنه وسلمه، وبصيحة أضاء شفقها ديار مكة كلها، وحين قال صلى الله عليه وسلم: فهو آمن!!!

وهذا أيضا عمل قيادي باهر! ولأن القائد الماهر هو ذلك الذي يفيد من الحدث، ويطوعه لمصلحة فكرته، ويوائمه مع أصول دعوته، وبمعنى أنه وحين كان أبو سفيان رجلا يحب الفخر، فلا مانع من إعطائه شيئا، واستثمار هذا الشيء لصالح الدعوة، بثا لأمن الناس، فيقبلون مسلمين غير وجلين ولا خائفين، ويكتفي القائد الماهر شر المواجهة، وبكل عمل صالح ممكن، إذ ولطالما تحقق أمن

(١) السيرة الحلبية، الحلبي: ج ٣ / ٢١

النـاس في ربـوع بلادهـم، فيسـلمون مفاتيحهـا القائـد الجديـد، ودون مواجهـة، وخاصة أن هذا القائد الجديد كان يحمل منارات الهدى والنور للعالمين. وليجتمع هذان كلا واحدا مجتمعا مؤتلفا منسجما، ليخرج منه كل مؤتلف أيضا، وإذ كان عنوانه بسط السلام على ربوع مكة البلد الحرام!

وهكذا تفضي مقدمات سليمة إلى نتائج سليمة أيضا.

ودلـك على صحة مذهبنا هـذا أن رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم مضى لسـفرة وخـرج لعشـر مضـين مـن رمضـان فصـام وصـام النـاس معـه حتى إذا كـان بالكديد أفطر ثم مضى رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم حتى نـزل مر الظهـران في عشـرة آلاف مـن المسـلمين فسـمعت سـليم ومزينـة فلمـا نـزل رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم مر الظهـران وقـد عميت الأخبـار على قـريش فـلا يـأتيهم خبر رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم ولا يـدرون مـا هـو فـاعـل وخـرج في تلـك الليلـة أبـو سـفيان بـن حـرب وحكـيم بـن حـزام وبـديل بـن ورقـاء ينظـرون هـل يجـدون خبرا أو يسـمعونه فلما نزل رسـول الله صلى الله عليه وسلم مر الظهران قال العبـاس بن عبد المطلب رضي الله عنه قلت واصباح قريش لئن دخل رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قـريش إلى آخر الدهر قال فجلسـت على بغلـة رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم البيضـاء فخرجـت عليهـا حتى دخلـت الأراك فلقي بعض الحطابة أو صـاحب لبن أو ذا حاجة يأتيهم يخبرهم بمكان رسـول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجوا إليه قـال فإني لأشير عليه وألتمس ما خرجت لـه إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا قال بديل هذه والله خزاعة حمشتها الحرب فقال أبو سفيان

خزاعة والله أذل من أن يكون هذه نيرانهم فعرفت صوت أبي سفيان فقلت يا أبا حنظلة قال فعرف صوتي فقال أبو الفضل قال قلت نعم قال مالك فداك أبي وأمي قال قلت ويلك هذا والله رسول الله في الناس واصباح قريش والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر قال فما الحيلة فداك أبي وأمي قال قلت لا والله إلا أن تركب في عجز هذه الدابة فآتي بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك قال فركب في عجز البغلة ورجع صاحباه قال وكلما مررت بنار من نيران المسلمين قال وا من هذا فإذا نظروا قال وا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال من هذا وقام إلي فلما رآه على عجز الدابة عرفه وقال أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذي أمكن منك وخرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وركضت البغلة فسبقته كما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء ثم اقتحمت عن البغلة ودخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء عمر رضي الله عنه فدخل فقال يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بلا عقد ولا عهد فدعني فأضرب عنقه قال قلت يا رسول الله إني قد أجرته قال ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت برأسه فقلت والله لا يناجيه رجل دوني قال فلما أكثر عمر رضي الله عنه في شأنه فقلت مهلا يا عمر والله لو كان رجلا من بني عدي بن كعب ما قلت هذا ولكن قد عرفت أنه رجل من بني عبد مناف قال فقال مهلا يا عباس لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب ومالي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب به إلى رحلك فإذا

أصبحت فأتنا به قال فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله قال بأبي أنت وأمي فما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما والله لقد كاد يقع في نفسي أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى شيئا بعد وقال ويلك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تشهد أني رسول الله قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما والله هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئا قال العباس رضي الله عنه قلت ويلك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن يضرب عنقك قال فشهد شهادة الحق وأسلم قال العباس رضي الله عنه فقلت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئا قال نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن فلما ذهبت لأنصرف قال يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند حطيم الجند حتى يمر به جنود الله فيراها قال فحبسته حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ومرت به القبائل على راياتها بها فكلما مرت قبيلة قال من هذه قلت بنو سليم قال يقول مالي ولبني سليم ثم تمر به قبيلة فيقول من هذه فأقول مزينة فقال مالي ولمزينة حتى نفدت القبائل لا تمر به قبيلة إلا سألني عنها فأخبره إلا قال مالي ولبني فلان حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخضراء كتيبة فيها المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم لا يرى منهم إلا الحدق في الحديد فقال سبحان الله من هؤلاء يا عباس قلت هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم فقال ما لأحد بهؤلاء قبل والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما قال قلت ويلك يا أبا سفيان إنها النبوة قال فنعم قال قلت التجأ إلى قومك اخرج إليهم حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم

به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن فقامت إليه هند بنت عتبة بن ربيعة فأخذت شاربه فقالت اقتلوا الحميت الدسم فبئس طليعة قوم قال ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم وإنه قد جاء ما لا قبل لكم به من دخل دار أبي سفيان فهو آمن قال وا قاتلك الله وما يغني غناء دارك قال ومن أغلق عليه بابه فهو آمن[1].

حل أكل لحم الأرانب

وهذا الذي حدث يوم الفتح الأعظم، فتح مكة البلد الحرام، وحين رأى الصحب الكرام طريقهم إليها أرنبا، فتبعوه، فذبحوه، وأعطوا منه نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فقبله.

وإذ يحل أكل لحم الأرانب عند العلماء كافة. إلا ما حكي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن أبي ليلى . رضي الله عنهم . أنهما كرها أكلها.

ودليل حل أكل لحم الأرنب، ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك أنفجنا أرنبا بمر الظهران، فسعى القوم، فلغبوا، فأدركتها، فأخذتها، فأتيت بها أبا طلحة، فذبحها وبعث بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بوركها أو فخذيها -قال فخذيها، لا شك فيه- فقبله، قلت وأكل منه؟ قال وأكل منه، ثم قال بعد قبله[2].

(١) شرح معاني الآثار، الطحاوي: ٣/٣٢٠. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(٢) صحيح البخاري: ٢٥٧٢

وعن أنس بن مالك أيضا كنت غلاما حزورا فصدت أرنبا، فشويتها، فبعث معي أبو طلحة بعجزها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأتيته بها فقبلها[١].

وعن خالد بن الحويرث إن عبد الله بن عمرو كان بالصفاح -قال محمد مكان بمكة- وإن رجلا جاء بأرنب قد صادها، فقال يا عبد الله بن عمرو، ما تقول؟ قال قد جيء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جالس، فلم يأكلها، ولم ينه عن أكلها، وزعم أنها تحيض[٢].

وذكر الدميري "الأرنب البحري" وهو كما قال القزويني حيوان رأسه كرأس الأرنب وبدنه كبدن السمك.

وقال الرئيس ابن سينا إنه حيوان صغير صدفي، وهو من ذوات السموم إذا شرب منه قتل[٣].

وقال الدميري يحرم أكله لسميته، ويستثنى هذا من قولهم ما أكل شبهه في البر، أكل شبهه في البحر، لأنه ليس يشبهه في الشكل، وإنما هو موافق له في الإسم[٤].

وعلى كل حال، وعلى طريقتنا في هذه السيرة النبوية المباركة، نفيد أنها كانت بمثابة رحلة خلوية، وإن ارتدوا فيها لباس الحرب! فإن هذا الترويح وما بين الفينة والفينة الأخرى، يريح النفوس ويهدئها.

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٧٩١

(٢) سنن أبي داود: ٣٧٩٢. وخلاصة حكم المحدث سكت عنه، وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح.

(٣) تاج العروس، الزبيدي: ج ٢ / ٤٠

(٤) حياة الحيوان الكبرى، الدميري: ج١/٤١

فمرة يقطفون كباشا من أراك، ومرة يتبعون أرنبا، ويذبحونه، ويأكلونه، وهذا جو معتدل مزاجه، يذهب السقم، ويقض مضاجع السأم!

وما أجمل أن توضع برامج ترفيه شرعي، ليست تشوبه شائبة من حرام، التماس الطاعة والعبودية والبركة للمجاهدين؛ ولحثهم والترويح عنهم، وإذهاب السأم من نفوسهم، فيقبلون باذلين، على أي وجه حسن كان، تراه واقعا فيهم.

* * *

عن عروة بن الزبير لما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح، فبلغ ذلك قريشا، خرج أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء؛ يلتمسون الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال أبو سفيان ما هذه؟ لكأنها نيران عرفة؟ فقال بديل بن ورقاء نيران بني عمرو، فقال أبو سفيان عمرو أقل من ذلك، فرآهم ناس من حرس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأدركوهم فأخذوهم، فأتوا بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلم أبو سفيان، فلما سار قال للعباس احبس أبا سفيان عند حطم الخيل؛ حتى ينظر إلى المسلمين. فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمر مع النبي صلى الله عليه وسلم، تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان، فمرت كتيبة، قال يا عباس، من هذه؟ قال هذه غفار، قال ما لي ولغفار؟! ثم مرت جهينة، قال مثل ذلك، ثم مرت سعد بن هذيم فقال مثل ذلك، ومرت سليم، فقال مثل ذلك، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، قال من هذه؟ قال هؤلاء الأنصار، عليهم سعد بن عبادة معه الراية، فقال سعد بن عبادة يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال أبو سفيان

يا عباس، حبذا يوم الذمار، ثم جاءت كتيبة -وهي أقل الكتائب- فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وراية النبي صلى الله عليه وسلم مع الزبير بن العوام، فلما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان، قال ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال ما قال ؟ قال كذا وكذا، فقال كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة. قال وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تركز رايته بالحجون. قال عروة وأخبرني نافع بن جبير بن مطعم، قال سمعت العباس يقول للزبير بن العوام يا أبا عبد الله، ها هنا أمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تركز الراية. قال وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كداء، ودخل النبي صلى الله عليه وسلم من كدا، فقتل من خيل خالد بن الوليد رضي الله عنه يومئذ رجلان حبيش بن الأشعر، وكرز بن جابر الفهري[1].

ويحك أسلم، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك!

هذا قول العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ؛ وحَثًّا لأبي سفيان أن يسلم!

وفيه جواز التهديد بالقتل؛ لحمل امرئ على الإسلام، وكخطاب أولي، ولعله أن يحسن إسلامه بعد يوما.

---

(١) صحيح البخاري: ٤٢٨٠

وهـذا الـذي حـدث، وبعـد محادثـات ومسـاجلات حتى أعلنهـا أبـو سـفيان، وكان قد أسلم وجهه لله.

غير أنك خبير لما كان عليه العرب من معرفة تبعة هذه الشهادة، وقد كانوا يجادلون ويناقشـون ويحـادون، بـل ويحـاربون! وماكان ذلك كـذلك إلا لعلمهـم بهـا، وكما يعلمون أنفسهم التي بين جنوبهم.

وحين أسـلم أبـو سـفيان، وكانوا يعلمـون عنـه حبـه للفخـر، وتألفـا طـالبوا رسـول الله ﷺ أن يجعـل لـه شـيئا، فـروى أبـو هشـام أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم قال يوم الفتح من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حـزام فهـو آمـن، ومـن دخـل دار بـديل بـن ورقـاء فهـو آمـن، ومـن أغلـق بابـه فهـو آمن[1].

وهذا من السياسة الشرعية، ولتأمين الجبهة الداخلية؛ كيما يكون الناس آمنين، فيدخلون في هذا الدين، وبكل سكينة وأمن ومطمئنين، وفضلا عن حرمة البلد الحرام، مكة المكرمة البلد الأمين، وإذ إن ما جاز أن يقع في غيرها، لا يجوز أن يقـع فيهـا! ومـن وجـه. وهـذا فقـه نبـوي كـريم، وهـذه سياسـة شـرعية في قيـادة الراعي والرعية، كانت أساسا، ويعتد به؛ لاختلاف السياسات باختلاف البيئات!

(١) تخريج سير أعلام النبلاء، شعيب الأرناؤوط: ٤٨/٣. حكم المحدث: رجاله ثقات، لكنه مرسل.

يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها!

وهذا أيضا من تمام إكمال المهمة، وبعد أن أسلم أبو سفيان بن حرب، وكيما يثبت فلا يرجع، وكيما تهدأ سريرته فلا يثور، وكيما يخضع فلا يؤلب! وحتى وإن كان قد أسلم! فلابد أن يرى ما يسكنه، ولزم أن يبصر ما يصرفه، وأن لو كان منه بقية من ردة! وهذه جنود الله البواسل، وها هو إذ يراهم بعيني رأسه، وألا يطل بها من جديد! وحين ذلك فتأخذه نفسه إلى الركون، وتطمئن نفسه أن هؤلاء المجاهدين ولاشك وراءهم أضعافهم من ملائكة السماء، وكما قد رأوا يوم بدر العظمى!

وهذه أيضا من تفردات هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، قائدا حكيما ماهرا، عسكريا خبيرا باهرا.

وكما أن فيه حسن القوة ولزومها لحق، تحمي به حقا تحمله؛ وكيما لا تكون مشاعا أمام المناوئين، فتحملهم على التفكير بالمواجهة؛ خيرا للجميع، وأمنا للكافة، وهذا الذي كانت منه القوات المسلحة الإسلامية الغفيرة، يوم الفتح الأعظم، فتح مكة البلد الحرام، قوات ردع، قبل أن تكون قوات مهاجمة مثخنة!

وهذه أيضا سياسة شرعية، وفطنة نبوية! وصدق الله تعالى ربنا الرحمن الرحيم، وحين قال ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ۚ وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ [الأنفال٦٠].

اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة!

هذا قول سعد بن معاذ يوم الفتح الأعظم، فتح مكة البلد الحرام!، وحين قالها شكاه أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ، ولأنه قول مثير، ولئن كان حقا، ومن وجه أنه كان يوم الملحمة، ولأنه صلى الله عليه وسلم كان قد أعد العدة القتالية ولا شك، ولكنها ربما كانت تحمل وجه الردع أكثر، ولحرمة البلد الحرام مكة البلد الأمين! وهذا جانب، ومن جانب آخر، وهؤلاء هم القوم، راحت تتساقط قياداتهم أمام ضحى الإسلام الجديد، وما بقي من أتباعهم إلا أن يروهم، وقد أسلموا فيسلمون، وهذا الذي حدث، وبالتالي كانت قولة سعد بن معاذ هذه مثيرة أكثر منها مهدئة! ولذا أصدر القائد الأعلى للقوات المسلحة الإسلامية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قرارا بعزله، وتعيين الزبير بن العوام بدلا عنه، حاملا راية الأنصار طمأنة لأبي سفيان، وضمانا للحركة أن تتم، وعلى وجهها، وكما هو مخطط لها سلفا، وأن يدخل الناس في دين الله أفواجا، وبلا إسالة قطرة دم واحدة.

وليس هذا ينسينا رد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على قولة سعد بن معاذ، وحين قال صلى الله عليه وسلم: كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة!!

وهذه أيضا سياسة شرعية باهرة، وحين تقدمت الأنصار بلوائها يوم الفتح الأعظم، فتح مكة البلد الحرام، بكة البلد الأمين، وأمام قريش، وليعلموا أنه هكذا نصر الله دينه، وبغيركم! لأنه هكذا ليعمل فيهم عمل الخير من جانب، ومن جانب آخر ولعلهم يعودون لحفظ ماء الوجه فيسلمون! وأنت خبير بمهارة نبوية

باهرة، وكما وأنك أيضا بصير بدربة عسكرية محمدية ماهرة، ترعد قبل أن تثخن، وترعب قبل أن تنكئ!

ودلك على صحة مذهبنا هذا رواية الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، قال من هذه؟ قال هؤلاء الأنصار، عليهم سعد بن عبادة معه الراية!

بسط كلمة جيش الفتح على كل الجهات!

عن الزهري فدخل بها- أي الراية- من أعلى مكة، وغرزها بالحجون، ودخل خالد من أسفل مكة فلقيه بنو بكر وهذيل، فقتل من بني بكر عشرين، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة، وانهزموا فقتلوا بالحزورة، حتى بلغ قتلهم باب المسجد.

وهذا تكتيك عسكري باهر! وهذا تخطيط ميداني ماهر!

وحين كان دخول مكة من جوانبها كلها، ومن أعلاها ومن أسفلها. ولإحكام نجاح العملية العسكرية بأقصى فوز ممكن، وبأقل خسارة ممكنة أيضا، وهذه من أبجديات العمل العسكري بخاصة، ولا سيما عمل كان موجها نحو مكة البلد الحرام.

والواقع أن هذا كان هو المستخلص من العبقرية العسكرية المسؤولة لنبينا صلى الله عليه وسلم، وحين أربك خطط الخصم، وحين باغته من جميع جهاته، وإذ كان ذلك كذلك في خطط الهجوم، فإنه وبلا شك أيضا يكون من أبجديات عمل الدفاع! ولأنه لا فصل في العمل العسكري بين كون هذه خطط

هجوم أو أن هذه خطط دفاع، ومن حيث طبيعة الانتشار والسيطرة على أرض المعركة، والواقع أن كل البلد سماءها وأرضها هي ميدان للمعركة، وقول بغير يجعل الاختراق أمرا ميسورا!

إن هكذا عمل عسكري مجيد، وإذ كان منه تشتيت أذهان العدو، وخوار قواه، وإحباط مغزاه، وكسر كبره وصلفه، ودك أنفه وحصنه، وحين يكون هكذا عمل عسكري ألمعي، يفقده السيطرة، وإذ يبقي جهوده مخلخلة مبعثرة، فلست تراه قائمة له من قائمة، وإذ تراه قد صارت موازينه شتاتا مفرقة مبعزقة!

نحن بحاجة إلى إعادة رسم خططنا، وعلى أساس من ديننا، وتخطيط من سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لنحكم الهجوم، وكما نحكم الدفاع، ومن سائر جهاتنا، لا جهة واحدة!

وهذا الذي يوجب ذهولا ويملي اقشعرارا، وحين طلع علينا قائد عسكري يوما، وأنبأ أن أسباب هزيمته لم تكن من سوء تخطيط، وإنما ولأن العدو جابهنا من جهة، ولم نكن نحسب لها حسابها!

قال الله تعالى ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ [فصلت٣٤].

إن الإسلام يربت على صدور الناس، كيما يدخلوا في دين الله أفواجا، لا فوجا واحدا!

وإن الإسلام لذو يد طولى، ومن طولى قامته أنه يصبر ويحلم ويعفو ويصفح، ويمد يديه كلتيهما؛ ليسلم الناس وجوههم لله تعالى رب العالمين، وحين يخلعون الأنداد، ولما يرمون النظراء وراء ظهورهم، وحين يفردون ربهم بسلطانه، وإذ لا سلطان لأحد على أحد إلا سلطانا واحدا، هو سلطان الله تعالى وحده بلا شريك، وكيما تنتظم مسألة العبودية لله تعالى الحق المبين، ولا يداخلها دخن، ولا يعكرها صفوها شرك بالله، وإذ كان من الشرك بالله تعالى منازعته أمره، ومشاركته نهيه، عملا أو قولا. ولا اعتبار بالأسماء، ولأن الاعتبار بالمسميات!!

وهذا الذي حدث مع كل من أبي سفيان بن حرب والعباس بن عبد المطلب وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام، ولما أبقاهم الله تعالى أحياء، فيفلتون من أيام الله تترى، وقد أحاقت بقريش، ومن بدر العظمى وإلى يوم الفتح الأعظم، فتح مكة البلد الحرام! ولشيء عظيم كان في غيبه تعالى، ولشيء هائل وكان في ملكوته غير المنظور سبحانه! وطيلة إحدى وعشرين سنة ونصف كاملة!! وأولاء يناصبون دين الله العداء، وهم أولاء يناوؤون ابنهم محمدا صلى الله عليه وسلم مر الأيام، والعذاب ألوانا !

وليأتي يوم حاسم، ويهل هلال ليل قد كان بهيما مظلما مدلهما، وليأذن الله تعالى بنصر كان غائبا، وليفتح الله تعالى قلوبا كانت غلفا، ولتبصر أعين كانت عميا، ولتسمع آذان كانت صما!

وحين أذن الله تعالى الملك الحق المبين سبحانه، بأمر كان غائبا مستورا، وحين روى الإمام الزهري أن عيون رسول الله ﷺ أخذوهم بأزمة جمالهم، فقالوا من أنتم؟

قالوا وفد رسول الله ﷺ، فلقيهم العباس فدخل بهم على رسول الله ﷺ فحادثهم عامة الليل، ثم دعاهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله فشهدوا، وأن محمدا رسول الله فشهد حكيم وبديل!

وهكذا يصبح عدو أمس ولي اليوم، وبقدرة من ﴿**بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون**﴾ [المؤمنون ٨٨].

أقول إن حدثا كهذا، وحين تخيله يجعل العبد ساكنا مطمئنا إلى قدره تعالى وأمره وإذنه وإرادته ومشيئته سبحانه، وحين كانت القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء سبحانه، وحين يستسلم أحدنا مادا رجليه وساقيه مستيئسا! وحين كان في علم ربه تعالى أن أعداء الأمس وها هم قد أصبحوا يدا يمنى للدعوة.

وثمة حكمة إذن أن يفلت هؤلاء الأربعة من مصير لقيه أبو جهل أول مواجهة عظمى، في يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، والله على كل شيء قدير، ولعلمه تعالى أن مصرعه يومه ذلك كان، ولعله سبحانه أن قد طبع على قلبه وأمثاله، فهم لا يؤمنون! وحين كانت أمامهم الآيات والنذر فهم لا يؤمنون!!!

وأما هؤلاء الأربعة ومن شاكلهم كخالد بن الوليد وعكرمة وعمرو بن العاص وجعفر فقد كانوا آية أخرى!!! وليمهلهم ربهم ولعل حكمة بالغة لربنا، وكما عهدنا به سبحانه، وكما أنه تعالى أهل الثناء والمجد وكلنا له عبد.

والله على كل شيء قدير!

ما لأحد بهؤلاء قبل، أي ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة.

وذكر عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لما مر بأبي سفيان قال له إني لأرى وجوها كثيرة لا أعرفها، لقد كثرت هذه الوجوه علي.

هذان قولان قالهما أبو سفيان بن حرب، ويوم الفتح الأعظم، فتح مكة البلد الحرام، وحين رأى الجمع الغفير، ولما أبصر ذلكم النفير، وقد كانت فيه الوجوه التى أنعم الله تعالى عليها بنوره وهديه وفلاحه، ولأنه تعالى ناصر دينه، وإن تولى آخرون، ولأنه سبحانه متول أمره، وإن نكص الأولون والآخرون، وحين قال تعالى ﴿ها أنتم هٰؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ۖ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ۚ والله الغني وأنتم الفقراء ۚ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [محمد٣٨]. وكذا قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ۚ ذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء ۚ والله واسع عليم ﴾ [المائدة٥٤].

ولهذا كان الرد النبوي الكريم على أبي سفيان، وحين قال قوله الآنف، ولما قال له رسول الله ﷺ «أنت فعلت هذا وقومك، إن هؤلاء صدقوني إذ كذبتموني، ونصروني إذ أخرجتموني».

وهذه إشارة أخرى! ويوم يفضل ويحسن ويجمل أن ينال القوم شرف نصرة أمر ربهم، فيكون لهم السؤدد ويكتب لهم أجرهم ومثوبتهم وسبقهم الحسن الجميل! ولأن السابقين للخير لهم أجرهم ونورهم، وأما الذين جاؤوا من بعدهم فلهم أجرهم ونورهم أيضا، ولكنه ليس كأجرهم، وكما أنه ليس نورا كنورهم!

ولقد جاء القرآن الحكيم بالثناء على من سبق، ولقد تواتر الذكر العظيم بالإشادة بمن سارع للخيرات، وهم لها سابقون.

وكما قال تعالى **﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ۚ ذٰلك الفوز العظيم﴾** [التوبة: ١٠٠].

وكذا قوله تعالى **﴿وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض ۚ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ۚ أولٰئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ۚ وكلا وعد الله الحسنىٰ ۚ والله بما تعملون خبير﴾** [الحديد١٠].

وكذا قوله تعالى **﴿أولٰئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾** [المؤمنون٦١].

ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب فيهم رسول الله ﷺ!

هذا إجراء أمني باهر!

وحين اتخذ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كتيبة صغيرة تمويها، ولما كان هذا عملا استخباراتيا ماهرا، ولأنه جرت العادة أن يكون القادة في مواكب جرارة، ويجوبون الناس في كتائب عدها يند وعتادها يعز، غير أن العيون تكون عليهم فيها؛ لاصطيادهم، وحين كانوا هدفا مرادا.

ولذا كان تفويت الفرصة ههنا عملا أمنيا مجيدا، وحين كان على صورة غير ملفتة!

دخل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مكة البلد الحرام متخشعا متواضعا مطأطأ عليه عمامة سوداء بغير إحرام

وهذه حكمة الله تعالى، أن يهاجر صلى الله عليه وسلم من مكة البلد الحرام، ومنذ ثمان سنين عددا ونيف، وليعود إليها، ومرة أخرى، في برهان على كم يجب أن يكون عليه صبر أهل الدعوات، وإن هاجروا من ديارهم وأوطانهم وأموالهم في سبيل الله تعالى مولاهم الحق المبين، وهذه من موجبات صدق الانتماء لهذا الدين، ولأن كل شيء يهون لله وفيه تعالى، وحين كانت المفاصلة في دين الله تعالى حتمية، وحين لم يمكن الالتقاء مع الباطل في نصف طريق، أو جزء منه، وحين كانت العبودية لله تعالى تعني الإيمان بالله تعالى ربا وحده، ومنه الكفر بما يعبد من دونه تعالى.

ودخوله صلى الله عليه وسلم مكة البلد الحرام متخشعا متواضعا مطأطأ رأسه، برهان ما حملته هذه المفردات من معان ضافيات، وهذا هو الشأن، وحين أنعم الله تعالى على عبد بنعمة، فإنما كان من حق ذلكم هو الشكر، وإذ كان من برهانه هذه الصورة الماثلة أمام أعيننا، وكأنما نراها رأي العينين لا عين واحدة! في برهان آخر مضاء، أن الأمر كله لله تعالى العلي الأعلى سبحانه.

وأما عن لبس العمامة: فإن هذا على ما يبدو كان خاصا بيوم الفتح الأعظم، فتح مكة البلد الحرام، ولأننا في مشوارنا الطويل، والممتد واحدا وعشرين عاما كاملا ونيفا، صحبة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، لم نعهد نقلا للبسه العمامة، إلا يومنا هذا، يوم الفتح المبين، فتح مكة البلد الأمين. ولكن الأمر واسع في هذا، وعلى كل حال، ولله الحمد أيضا.

وأما كونه صلى الله عليه وسلم دخل مكة يوم الفتح الأعظم بغير إحرام، فهذا كان شيئا بدهيا، ولأنه إجراء أمني، كان متمتعا به صلى الله عليه وسلم، وكيما يخلي عن نفسه شغلا معيقا لفتحه، وكيما لا يدع خلة لقريش يدخلون منها إلى صفه، فيمعنون فيهم، وإذ ها هم يطوفون، أو يسعون، وإذ هم بموجبات الإحرام منشغلون.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن جابر بن عبدالله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مكة، وقال قتيبة دخل يوم فتح مكة، وعليه عمامة سوداء بغير إحرام[1].

(١) صحيح مسلم: ١٣٥٨

إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل، فكلمه، فجعل ترعد فرائصه، فقال له هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد[1].

وهذا تعبير لغوي بلاغي باهر؛ ولما جاء هكذا بصيغة المضارعة، وحكاية عن ماض قد سلف! وبرهان هذه الصورة الماثلة لأحداث، كان قد مر بها هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم!

وهذا هو تواضع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين دخل مكة البلد الحرام، متخشعا متواضعا مطأطأ رأسه، وإذ ها هو رجل يكلمه، وإذ كان تصويره على ما أنف، ولعادة الناس يومهم ذلك، وكل يوم مع سلاطينهم، وإذ تأخذهم رعدة! إلا ههنا؛ في بحبوحة ديننا، وحين يهدئ صلى الله عليه وسلم من روعه، وحين يسكب في فؤاده قطرات الإلف والرحمة والحنو، وليستحضر الناس هذه الصورة من أمامهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، وليروا وليسمعوا أن كان ههنا نبي على وجه هذه البسيطة وإذ كان متواضعا، حتى قال عن نفسه يوما هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد!

وهذا الذي يجب، وهذا الذي ينبغي.

(١)صحيح ابن ماجه، الألباني: ٢٦٩٣

وإذ كانت الملوك على غير صفته صلى الله عليه وسلم وحين قال صلى الله عليه وسلم أيضا فإني لست بملك! في برهان أنه يمكن أن يكون الملوك على رعدة؛ تملك على الناس أفئدتهم!

ادخلوها من حيث قال حسان!

عن عبدالله ابن عمر قال لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر، فتبسم إلى أبي بكر فقال: يا أبا بكر كيف قال حسان؟ فأنشده قوله:

عدمت بنيتي إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأسنة مسرجات يلطمهن بالخمر النساء .

فقال: ادخلوها من حيث قال حسان[1].

وهذا وقوف نبينا على مثل ما وقف عليه حسان، وحين أشار بالدخول من كداء، فألا حسنا، وتشجيعا للرعية أن يدلوا بآرائهم، ولعل رأيا سديدا يصدر من أحدهم، وتاريخنا غدق بمثله وأضعافه معه!

(١) فتح الباري لابن حجر: ٦٠٣/٧. خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن.

رفقا بالقوارير

وهذا هو تصرف النبي الأمي الكريم ﷺ، ومواجهة نساء! وإذ كانت غايات أفعالهن هو ما رأينا من لطمهن وجوه الخيل، وكنساء! ومن تخمير الخيول بخمرهن أيضا! وهؤلاء هن النساء الضعيفات، وإن قلن أو فعلن! إشارة لطيفة حانية إلى الإحسان إليهن، وبرهان إعراضه صلى الله عليه وسلم، وكأنما لم يقلن شيئا! وإذ كانت القوة في الميادين، مواجهة الرجال المقاتلين بالرجال المقاتلين مثلهم، لا نسوة رقيقات حانيات، كان حظهن من الدنيا لسان!

والرجال وفضلا عن نبي يقابلون فعلا نسائيا كهذا، وبمثل تبسمه صلى الله عليه وسلم! وحسبنا هنا! ولأن من وقائع الزمان عجيبة! ولأن من أحداثها أعجب! وحين كان الاستقواء على الضعيفات مذهبا وسبيلا!

هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟!

هذا قول التواضع، وهذا حديث لين الجانب، وحين أتى أبو بكر بوالده إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح المبين، فتح مكة البلد الأمين، وإذ فتح الله على هذا الرجل الشيخ المسن أبي قحافة بالإسلام. وحين مسح صلى الله عليه وسلم صدره، ثم قال: «أسلم فأسلم». وهذه بادرة طيبة، وحين لم يتلعثم، وكما لم يتلعثم ولده أبوبكر رضي الله تعالى عنهما من قبل.

عن الزهري عن القاسم بن محمد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له منه عنده كبوة إلا ابن أبي قحافة فإنه لم يتلعثم[1].

والحديث، وإن كان فيه كلام، إلا أن له شاهدا، كما عند الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

فعن أبي الدرداء كانت بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضبا، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبو الدرداء ونحن عنده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما صاحبكم هذا فقد غامر قال وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقص على رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر، قال أبو الدرداء وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعل أبو بكر يقول والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أنتم تاركون لي صاحبي، هل أنتم تاركون لي صاحبي، إني قلت يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعا، فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدقت قال أبو عبد الله غامر سبق بالخير[2].

---

(١) الإبانة الكبرى، ابن بطة: ج٩/٤٥٢

(٢) صحيح البخاري: ٤٦٤٠

وعن جابر بن عبدالله قال أتي بأبي قحافة يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالثغامة بياضا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غيروا هذا بشيء، واجتنبوا السواد[1].

وفيه دليل الأمر بتغيير بياض الشيب، وذلك بالصبغ واجتناب السواد.

وعن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه[2].

وفيه جواز التهنئة بالإسلام. وفيه دلالة بجواز التهنئة لأمر شرعي سار.

ويوم أن ضاع طوق أخت بكر، وإذ لم يجبه أحد، وحين أنشد ضالته! وإذ لا ضمان، وهذه حالة حرب بين أيدينا.

وفيه حث الآخر على الاحتساب، وحين فوات شيء له عنه، وهذا من لطفه تعالى أن يحتسب العبد عند ربه في مصابه، وإذ يخلف ربه تعالى عليه خيرا باحتسابه.

ودلك على صحة مذهبنا هذا أن أسماء بنت أبي بكر قالت لما وقف رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بذي طوى، قال أبو قحافة لابنة له من أصغر ولده -وقد كف بصره- أي بنية، اظهري بي على أبي قبيس. قالت فأشرفت به عليه، فقال يا بنية، ماذا ترين؟ قالت أرى سوادا مجتمعا. قال تلك الخيل. قالت وأرى رجلا يسعى بين ذلك السواد مقبلا ومدبرا. قال يا بنية، ذلك الوازع. يعني الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها. ثم قالت قد والله انتشر السواد. فقال قد والله إذا دفعت الخيل، فأسرعي بي إلى بيتي. فانحطت به، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى

(١) صحيح مسلم: ٢١٠٢

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ٣٣٧

بيته، وفي عنق الجارية طوق لها من ورق، فتلقاها رجل، فاقتلعه من عنقها. قالت فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مكة ودخل المسجد أتاه أبو بكر بأبيه يعوده، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟ قال أبو بكر يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه. قال فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له أسلم. فأسلم، ودخل به أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ورأسه كأنه ثغامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم غيروا هذا من شعره. ثم قام أبو بكر، فأخذ بيد أخته، فقال أنشد بالله وبالإسلام طوق أختي. فلم يجبه أحد. فقال يا أخية احتسبي طوقك[(١)].

مفارقات

هذا الدين الذي هو الإسلام متميز أيما تميز، وحين اصطبغ حاملوه- بحق- بصبغته، وحين تطبع معتنقوه- بحق- بطبيعته، إلفا وحنوا وعطفا ورحمة وأدبا وخلقا حسنا، وهذا الذي تبدى لنا يوم دخول نبينا صلى الله عليه وسلم مكة البلد الحرام فاتحا، ومتخشعا متواضعا مطأطأ رأسه، وفي وقت كانت فيه القياصرة تعج الأرض منهم فسادا وكبرا وتطاولا، وكذا الأكاسرة.

وأما يهود فحدث ولا حرج، وحين دخول بيت المقدس مبتدعين هيئة أقرب إلى الهوان، وأدنى إلى الامتهان، وحين نقل القرآن الحكيم لنا صورة وصفهم، وبقوله تعالى ﴿وإذ قلنا ادخلوا هٰذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا

(١) الصحيح المسند، الوادعي: ١٥٤٣. خلاصة حكم المحدث: حسن.

الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ۚ وسنزيد المحسنين﴾ [البقرة٥٨].
وسجدا أي شكرا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، ورد بلدهم إليهم وإنقاذهم من التيه والضلال(١).

ولكنهم خالفوا وامتعضوا، وحتى دخلوا على إستاهم! في مشهد لا ينبئ عن تدين زعموه، ولا يدل على تواضع حرموه، بل عكس ذلك تماما، وحين كانت ضعة لا يريدها الله تعالى لعبد من عبيده، وهذا الذي حدث من نبينا صلى الله عليه وسلم، وحين دخل مكة مطأطأ رأسه نعم، ولكن في غير احتقار ابتذال، ولكن دونما انتهاك أو امتهان.

ودلك عليه أنه صلى الله عليه وسلم، وحين دخل مكة البلد الحرام، البلد الأمين، يوم الفتح المبين، وإذ صلى نبينا صلى الله عليه وسلم عند البيت ثمان ركعات؛ شكرا لله تعالى إن شئت فقل، ضحى إن شئت فقل، فتحا إن شئت فقل، ولأن الغاية هي ذلكم الإخبات والخشعان والخضعان لله تعالى العلي الأعلى سبحانه.

وهذا الذي جعل بعضهم مختارا صلاة سنة الفتح، وحين يفتح الله تعالى على ولي أرضا!

---

(١) تفسير ابن كثير، مع أحكام الالباني: ج١/١٥٥

أي أخية احتسبي طوقك، فو الله إن الأمانة في الناس اليوم لقليل!

هذا قول أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه لأخته، يوم ضاع طوقها، يوم الفتح المبين، فتح مكة البلد الأمين.

وكان توجيه الإمام العماد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى حسنا عندها. وحين تأوله على ذلك اليوم وحسب.

وأقول إن تأويله على كل يوم أحسن. ولجواز حصول ذلك تأولا، وعلى أنه من أموال الكفار فيكون غنيمة. أو لعله كان خفيفا، لا تهتم به النفوس فلا تتبعه، وإلا فنحن أمام جيل سريرته تخبر عن ظاهره، وباطنه ينبئ عما يختلج فيه من إيمان. ولا سيما أنهم جاؤوا إلى مكة فاتحين، ولا سيما أنهم داخل مكة البلد الحرام، والذنب فيها مضاعف، وكما العمل الصالح أيضا. أو لعل يد مشرك قد راحت إليه، وهذا أقرب.

لكنه- وعلى كل حال- قول يقطر حقا، وحديث ينبئ عجبا، أن كانت الأمة يومهم عزيزة! وما بالنا بيوم الناس هذا؟! وما بالنا بيوم الناس غدا؟!

ودخل رسول الله ﷺ من أذاخر حتى نزل بأعلى مكة، فضربت له هنالك قبته[١].

هذا هو مركز القيادة والسيطرة، داخل ميدان العمليات، وليرقبها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعن قرب، فيوجه اللحظة باللحظة، ولأن طبيعة الأعمال العسكرية ذات خفة وسرعة وكر وفر دائب، ولا يحتملها بعد قيادة الميدان عن أرض الميدان.

وهذا الذي حدث يومها، وحين قال سعد بن عبادة قولة أثارت المجاهدين وأبا سفيان ونساء قريش، فكان صدور قرار إقالته توا، وكما كان صدور قرار تعيين بدلا عنه توا أيضا، وعلى خلاف بين الزبير أو علي أو ما سواهما.

وهل ترك لنا عقيل: من رباع؟!

عن أسامة بن زيد يا رسول الله، أين تنزل في دارك بمكة؟ فقال وهل ترك عقيل: من رباع أو دور؟ وكان عقيل: ورث أبا طالب هو وطالب، ولم يرثه جعفر ولا علي رضي الله عنهما شيئا؛ لأنهما كانا مسلمين، وكان عقيل: وطالب كافرين، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لا يرث المؤمن الكافر. قال ابن شهاب وكانوا يتأولون قول الله تعالى ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ [الأنفال ٧٢][٢].

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ٣٣٤

(٢) صحيح البخاري: ١٥٨٨

وذلك أن أبا طالب توفي على الشرك، وخلف أربعة أبناء: طالبا وعقيلا وجعفرا وعليا. فجعفر وعلي أسلما قبل وفاته، فلم يرثاه، وطالب وعقيل: بقيا على دين قومهما فورثاه، ففقد طالب في غزوة بدر، فرجعت الدور كلها لعقيل: فباعها!

وهذا بيان لحال هذا الجيل وقته هذا! وإذ لم يكن لهم مأوى من ديارهم التي تركوها، وإذ لم يجدوا لهم مسكنا من بيوتهم التي غادروها، يوم هجرتهم، وأن هاجروا لله تعالى وفيه سبحانه، وليس يهم من بعد أن يخلفوا وراءهم ما بدده قومهم، أو أن مانعا حال دونه، وكمثل اختلاف الدين، ولأن العاقبة أبدا للتقوى.

بيد أن ههنا حكما جديدا، ونحن الآن بصدده، وحين كان اختلاف الدين مانعا من موانع الإرث! في قطع لوشائج المودة، وحين كان كفر وإسلام، ذلك، وأن هذا الإرث حكم به إظهار- ولو وجه من وجوه- هذه المودة. وهذه قد نهى الشارع عنها، وكما قال تعالى ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ۚ أولٰئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ۖ ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ۚ رضي الله عنهم ورضوا عنه ۚ أولٰئك حزب الله ۚ ألا إن حزب الله هم المفلحون**﴾ [المجادلة٢٢].

منزلنا غدا إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم الفتح المبين فتح مكة البلد الأمين. وحين سأله أصحابه الغر الميامين عن منزلهم غدا، وهذا بيان بالبدء بمن هو شر من غيره، وهو برهان البداية بمن هو أخطر ممن سواه، وحين يقض مضجع، وهكذا يكون الأقل شرا أيسر مواجهة، وأدنى كلفة، ولعله أن يسلم، وحين أقسم هؤلاء أهل الخيف أنهم مصرون على كفرهم، وأنهم هكذا يناوؤون نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم. وهذا أيضا من السياسات الشرعية الحميدة لنبينا صلى الله عليه وسلم. وأن تكون البداية بالأشد كفر، ثم الذي يليه وهكذا دواليك، حتى يؤتى عليه كله، أسلم من أسلم ففدى نفسه، وكفر من كفر فلا يلومن إلا نفسه!

ولكن العجب وحين تجتمع بنو كنانة وقريش على بني هاشم وبني عبد المطلب، وعلى أن يسلموهم محمدا، وإلا المقاطعة المقاطعة!!! وهم إذ لم يكن لهم في الموضوع ناقة ولا جمل، بل كانوا إذن مثلهم، يناوؤون الدعوة الجديدة، وما حظهم إلا أنه صلى الله عليه وسلم من صلبهم!

فعن أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم من الغد يوم النحر وهو بمنى نحن نازلون غدا بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر. يعني ذلك المحصب، وذلك أن قريشا وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب -أو

بني المطلب- أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم، حتى يسلموا إليهم النبي صلى الله عليه وسلم[1]. وهذا مناسبة منطقة الخيف، وإلى يومنا هذا في مكة المكرمة!

أغلقي علي بابي!!

هذا قول حماس بن قيس بن خالد أخو بني بكر، وإذ كان يعد سلاحا قبل قدوم رسول الله ﷺ ويصلح منه. وإذ كانت امرأته تستخبره عن فعله ليخبرها أنه لملاقاة محمد وصحبه، ولتخبره امرأته ألا طاقة له بهم! وليرد الاستكبار والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم[2]!

وحين حمي الوطيس كان فارا! وحين زأرا المسلمون، ولى مدبرا مستخفيا ليقول لامرأته: أغلقي علي بابي!!

وحتى لم يجد لنفسه برهة أن يغلق هو بنفسه بابه!

ولأنه حدث كان عظيما، ولما قد أعز الله تعالى فيه جنده، فظل عالقا بأذهان التاريخ، حتى سجل هذا اليوم ب (يوم الخندمة)!

والخندمة أحد جبال مكة المكرمة، يقع في الجهة الجنوبية الشرقية من الحرم المكي الشريف.

عن عبد الله بن مغفل-رضي الله تعالى عنه- قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح على ناقة له يقرأ سورة الفتح - أو من سورة الفتح - قال

---

(١) صحيح البخاري: ١٥٩٠

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣٣٩/٤

فرجع فيها، قال ثم قرأ معاوية يحكي قراءة ابن مغفل، وقال لولا أن يجتمع الناس عليكم لرجعت كما رجع ابن مغفل، يحكي النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت لمعاوية كيف كان ترجيعه؟ قال آآآثلاث مرات[1].

والترجيع هو ترديد الصوت بالقراءة في الحلق، والجهر به مكررا بعد إخفائه.

والترجيع هو تقارب ضروب الحركات في القراءة، وأصله الترديد، وترجيع الصوت ترديده في الحلق[2].

والترجيع من باب إشباع الحرف لا زيادته، وهو من باب استمالة القارئ والمستمع، وإذ يجمع النفوس إلى الإصغاء والتفهم، وإذ لا تكاد تصبر عن استماع المشوب بلذة الحكمة المفهومة منه.

نعم، ينبغي قراءة القرآن الحكيم وتلاوته وترجيعه. ولأن هذا القرآن قد ثبت نفعه، وقد تواتر هداه وبشراه.

ولأن هذا القرآن قد ثبت به الشفاء، وقد توارد به أسباب دفع البلاء، وموجبات استنزال المنح والعطاء، وفيه صلاح وفلاح، وفوز وظفر، ونصر وتمكين، وتضمنه غيبا وواقعا، قد لاح، وماض قد أدبر وراح. ونبأ من قبلنا، وحكم ما بيننا، وخبر ما بعدنا، وعلى وجه أعجز الحكماء، وأسكت العقلاء، فلا ينطقون معه ببنت شفة واحدة، فضلا عن الشفاه كلها وأجمعها. وقد تنزل فيه فصل الخطاب، وفحوى الكتاب، ومعنى اللباب. وقد علمنا أنه ﴿لوأنزلنا هٰذا القرآن

(١) صحيح البخاري: ٧٥٤٠

(٢) فتح الباري، ابن حجر: ج ٩/ ٨٠

على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ۚ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ [الحشر٢١].

وقد أيقنا أنه **﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ۗ بل لله الأمر جميعا ۗ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ۗ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله ۚ إن الله لا يخلف الميعاد﴾** [الرعد٣١].

ولقد تأكد لدينا حقيقته، وقد أسبرنا معيته، وإذ كان حقا كما قال منزله تعالى **﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ﴾** [الإسراء٤٥].

ولهذا السبب كان منه ترجيعه صلى الله عليه وسلم يوم الفتح الأعظم، فتح مكة المكرمة البلد الحرام. ولأنه رأي بعيني رأسه صلى الله عليه وسلم، وقد صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وإذ تحقق الفتح المبين، وعلى ما قال الله تعالى رب العالمين **﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾** [الفتح١]. وليراه رأي عينه **﴿ويزداد الذين آمنوا إيمانا﴾** [المدثر ٣١].

شعار يوم الفتح المبين فتح مكة البلد الأمين

وكان شعار المهاجرين يوم الفتح وحنين والطائف يا بني عبد الرحمن، وشعار الخزرج يا بني عبد الله، وشعار الأوس يا بني عبيد الله[1].

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٤/٨٦٧

إن تعدد هذه الشعارات شأن تنظيمي، وموجب اجتماعي، ولأن الإسلام يعير للعادات اهتماما، ولأنه يقيم للأعراف سوقها، وحين كانت كل محلة ولاشك لها تقاليدها الموروثة كابرا عن كابر، وحين لا تتصادم مع الدين الإسلام، فلا غرو أن إعمالها وإعطاءها نصيبها دين أيضا، ضمانا للإلف، وتحقيقا للانسجام، ولئن كان في عقد هؤلاء وهؤلاء أنهم أمة واحدة، ومعينهم واحد، وهو القرآن الحكيم، ودينهم واحد وهو الإسلام العظيم، وربهم واحد وهو الله تعالى رب العالمين، ونبيهم واحد وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم النبي الأمي العربي الكريم صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى ﴿إن هٰذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ [الأنبياء ٩٢]

هذا، وإن دوران هذا الشعار وإن تعدد رسمه، إلا أنه واحد في وصفه، ومن جامع الألوهية لله تعالى الحق المبين سبحانه.

وهذا كان لزاما كونه، وكيما ترجع الأمة كل أمرها لله تعالى، وأن ليس لها من الأمر من شيء، وكما قال تعالى ﴿قل إن الأمر كله لله﴾ [آل عمران١٥٤]. وقوله تعالى ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ [النحل٥٣].

هذا، وإن وجود مثل هذا الشعار، وكما ويبدو أنه شعار واحد حقيقة ووصفا، وإن تعدد صورة ورسما، وإن ذلك لإشعار العبيد أنهم لله عبيد! وكيما يخذل الشيطان، وأن ليس في أحدهم إلا من يعلمه ولاء لله تعالى العلي الأعلى، وأنه تعالى نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده.

هـذا، وإن دوران هـذا الشـعار، وعلـى الألوهيـة عقـدا، وعلـى الرحمـة استدعاء وإلفا!

حرمة مكة البلد الحرام البلد الأمين

وهذه الحرمة من الله تعالى. ونحن كمسلمين نحرم ما حرم ربنا علينا، ولا نحل إلا ما أحله الله لنا. ومنه الأرض وسائر أحوالنا.

إلا أنه وإن تعددت أحوالنا، ولتعدد حالاتنا وأمزجتنا، فإن الأمر مختلف عند مكة البلد الحرام!

ولأنها بقعة وكباقي البقع من حيث الجغرافيا وحسب!!! ولأنها تختلف عما سواها، ومن كل شيء، وحتى الجغرافيا ومن وجوه عديدة!!

وهذه الحرمة نابعة؛ ولما لها أوجه إعجازية عديدة.

ومن حيث قد حرمها الله تعالى يوم أن خلق السماوات والأرض، ويوم أن خلق الشمس والقمر، وأنه لم يحرم مثلها أي بقعة من قبلها، ولا من بعدها! وإلا يثرب التي حرمها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا الأمر وحده لدى تأمله، كفيل أن يكون سبب مراجعة، وقمن أن يضحى موجب إسلام الوجه لله تعالى العلي الأعلى سبحانه!

وبيد أن هذا التحريم يبلغ مدى أوسع، وحين تمتد حرمة مكة البلد الحرام وإلى ما يحاذيها من سمائها! وإلى ما لا نهاية! في عنوان على القيومية الربانية، وفي برهان على القدرة الإلهية!

ولأجل هذه الحرمة فقد أحلها الله تعالى يوما واحدا للنبي صلى الله عليه وسلم! ومن ثم لتعود حراما، وكما كانت حراما من قبل!

وإذ كان من حرمتها حرمة نزول غير المسلمين بها!

وإذ كان من حرمتها اختيار الله تعالى أن محلا لبيته الحرام ذلكم البيت الذي هو محاذاة الكرسي! وإذ كان بهذا البيت مقام إبراهيم وإذ جعل الله تعالى من دخله كان آمنا! وهذا محفل حجنا فيها وهذا اجتماع حجيجنا بها! وإذ كان أول بيت وضع للناس؛ ليعبد الله تعالى فيه، ويطاف به، وكما قال تعالى **﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾** [آل عمران٩٦، ٩٧].

وإذ كان من شأنه وكما قال تعالى **﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾** [البقرة١٢٥].

ولسنا ندري هل حرمت مكة من سبب تحريم البيت الحرام، أو أن البيت الحرام حرم لحرمتها، أم حرم كل منهما استقلالا عن الآخر؟

ولأننا وقافون، أو هكذا ينبغي ويجب، فإن قوله ﷺ فهو حرام بحرمة الله، يعني أنه أمر تعبدي توقيفي، وها نحن نتوقف!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ قال « قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم افتتح

مكة لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرم الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها. قال العباس يا رسول الله، إلا الإذخر؛ فإنه لقينهم ولبيوتهم، قال قال إلا الإذخر[1].

حرمة مكة من تحريمه تعالى لها

حين أخبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى حرم مكة، ولم يحلها إلا ساعة من نهار، يوم الفتح الأعظم فتح مكة البلد الحرام، ومن ثم أرسل رسوله إلى خالد بن الوليد؛ وليكف عن القتل.

وهنا نقف مشدوهين أمام رواية ذكرها أهل السير في كتبهم، وهو كما بينا حديث غريب، ومن غرابته أنه كان محالا أن يواجه الصحب الكرام نبيهم صلى الله عليه وسلم بمثل ذلكم قول! ومن غرابته وشأنهم أن الله تعالى لن يحل مكة إلا ساعة من نهار، ثم يجترؤون على الله!! ومن غرابته أنهم كانوا وقافين عند قول نبيهم صلى الله عليه وسلم في حضوره وفي غيابه تماما، وكيف يمكن تصديق معصيتهم له صلى الله عليه وسلم وبهذا الرد الفج؟!

(١) صحيح البخاري: ١٨٣٤

ودلك على صحة مذهبنا هذا أن رواية قم يا فلان فأت خالد بن الوليد فقل له فليرفع يديه من القتل» فأتاه الرجل فقال إن النبي ﷺ يقول اقتل من قدرت عليه، فقتل سبعين إنسانا، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فأرسل إلى خالد فقال «ألم أنهك عن القتل؟». فقال جاءني فلان يأمرني أن أقتل من قدرت عليه، فأرسل إليه «ألم آمرك؟». قال أردت أمرا، وأراد الله أمرا فكان أمر الله فوق أمرك، وما استطعت إلا الذي كان، فسكت عنه النبي ﷺ فما رد عليه شيئا[1].

إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قد أهدر دم عبدالله بن أبي السرح، يوم فتح مكة، الفتح المبين، ولأنه كان قد أسلم، وكان من كتبة الوحي، ثم ارتد، ولذلك أهدر نبينا صلى الله عليه وسلم دمه، هو ونفرا معه، ولو وجد أحدهم متعلقا بأستار الكعبة، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم وحين رآه قال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني قد صمت فيقتله؟ فقال: وا يا رسول الله هلا أومأت إلينا؟ فقال: إن النبي لا يقتل بالإشارة. وفي رواية إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين.

وهذا خلق نبينا صلى الله عليه وسلم، وحين كان الإيماء بالإشارة أو خائنة الأعين خلقا تتأباه النفوس العالية، وكان منه ذلك، وهو ما وقع منه صلى الله عليه وسلم. منهجا لنا وسبيلا.

(١) حلية الأولياء، أبو نعيم: ٢١/٤ . حكم المحدث غريب من حديث طاوس وعطاء تفرد به عنه شعيب بن صفوان.

إهدار دم عبد الله بن خطل: وكان من خبر عبد الله بن خطل هذا، وكان اسمه عبد العزى، ولكنه تغير اسمه الى عبدالله بعد أن أسلم، من أولئك الذين أهدر نبينا صلى الله عليه وسلم دم كل منهم، ولو وجد متعلقا بأستار الكعبة! وإذ كان مسلما إلا أنه صلى الله عليه وسلم كان قد بعثه في مهمة مع أحد الأنصار، فغضب عليه غضبة ثم قتله، ثم عاد مرتدا، وأمر قينتيه بهجائه صلى الله عليه وسلم، ولذا قتل، وهو متعلق بأستار الكعبة، وكذا وقتلت إحدى قينتيه، واستؤمن للأخرى.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه سعد بن أبي وقاص قال لما كان يوم فتح مكة اختبأ عبدالله بن سعد بن أبي السرح عند عثمان بن عفان فجاء به حتى أوقفه على النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله بايع عبدالله فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى فبايعه بعد ثلاث ثم أقبل على أصحابه فقال أما كان فيكم رجل رشيد، يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟ فقال وا ما ندري يا رسول الله ما في نفسك ألا أومأت إلينا بعينك! قال إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين(١).

إهدار دم الحويرث بن نقيذ: وأهدر نبينا صلى الله عليه وسلم يوم الفتح الأعظم دم الحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد قصي، وكان قد آذى رسول الله ﷺ في مكة، وحين تحمل العباس إرسال فاطمة وأختها أم كلثوم إلى والدهما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالمدينة، قام هذا الحويرث، ونخس الجمل بهما، حتى سقطتا، وكان من هذين السببين الاثنين إهدار دمه.

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٤٣٥٩

إهدار دم مقيس بن صبابة: وأهدر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم الفتح الأعظم دم مقيس بن صبابة، لأنه قتل قاتل أخيه خطأ بعد ما أخذ الدية، ثم ارتد مشركا، وإذ قتله رجل من قومه، يقال له نميلة بن عبد الله.

إهدار دم سارة مولاة بني عبد المطلب: وكذا سارة مولاة لبني عبد المطلب، ولعكرمة بن أبي جهل، لأنها كانت تؤذي رسول الله ﷺ، وهي بمكة، وهي التي قد تقدم عن بعضهم أنها هي التي حملت كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش، وكأنها عفى عنها أو هربت، ثم أهدر دمها، والله أعلم فهربت حتى استؤمن لها من رسول الله ﷺ فأمنها، وأما سارة فاستؤمن لها فآمنها ثم بقيت حتى أوطأها رجل من الناس فرسا له في زمن عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها.

فعن سعد بن أبي وقاص لما كان يوم فتح مكة، أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس، إلا أربعة نفر وامرأتين وقال اقتلوهم، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، عكرمة ابن أبي جهل وعبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة وعبد الله بن سعد ابن أبي السرح فقال أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله فقال وا وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك، هلا أومات إلينا بعينك؟ قال إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين[1].

(١) صحيح النسائي، الألباني: ٤٠٧٨

قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لابنة عمه أخت علي بن أبي طالب، وحين راحت إليه تشكوه أن عليا يريد قتل اثنين من أحمائها من بني مخزوم، كانت قد أجارتهما يوم فتح مكة البلد الحرام.

وهذا برهان أن هذا الدين يفتح أبوابا تصل بالناس إلى سلمهم وأمنهم، ويتشوف الفرص المواتية لذلك، ولو كان قد سبق إهدار دم أحدهم يوما، ولعظيم جرمه يوما أيضا.

وهذا شأن المرأة في الإسلام، وحين اتخذت قرارها بالإرادة المنفردة، ويقرها على ذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفي إشارة إلى دور المرأة وقيمتها في المجتمع المسلم.

هذا، وقد نقلت أم هانئ يومها أنه صلى الله عليه وسلم كان قد صلى ثماني ركعات، كانت سببا في الكلام ومحلا للبحث، وهل هي للفتح أم كانت صلاة الضحى، والذي أوقع هذا اللبس هو وقوع هذه الصلاة ضحى، فظنها قوم أنها سنة للضحى لذلك، وظنها قوم أنها سنة الفتح، وقد وافق أداؤها وقت الضحى.

وغير أنها كانت ثماني ركعات، وعلى خلاف أيضا بتسليمة واحدة، أم كانت مثنى مثنى؟

ولنا عودة حول هذه المسألة عن قريب إن شاء الله تعالى.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى من حديث فاختة بنت أبي طالب أم هانئ أن أبا مرة مولى أم هانئ بنت أبي طالب،

أخبره أنه سمع أم هانئ بنت أبي طالب، تقول ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح، فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره، قالت فسلمت عليه، فقال من هذه، فقلت أنا أم هانئ بنت أبي طالب فقال مرحبا بأم هانئ، فلما فرغ من غسله، قام فصلى ثماني ركعات ملتحفا في ثوب واحد، فلما انصرف، قلت يا رسول الله، زعم ابن أمي أنه قاتل رجلا قد أجرته، فلان ابن هبيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ قالت أم هانئ وذاك ضحى[١].

هذا، وقد سبق علاج مسألة وقف هذه الإجارة على موافقة الإمام أم لا، وإذ هي كما نرى كانت غير موقوفة، وإنما أقرها صلى الله عليه وسلم، ومن بعد عقدها.

* * *

من أعمال يوم الفتح المبين فتح مكة البلد الأمين

دخل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم البيت الحرام، يوم الفتح الأعظم، فتح مكة المكرمة، البلد الحرام، وكان من أعمال ذلكم اليوم الكثير مما يعد هديا وسننا حسنا. وحين أخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن أبي طلحة، ففتحها ثم رد إليه المفاتيح، وهو يقول: اليوم يوم بر ووفاء. في إعلاء لذلكم الخلق السامي العالي الرفيع.

---

(١) صحيح البخاري: ٣٥٧

ورأى الأصنام الثلاثمائة والستين! وهو إذ يتلو قول الله تعالى **﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل ۚ إن الباطل كان زهوقا﴾** [الإسراء٨١]. وإذ كان من شأنه أن هشمها جميعا، وفي إشارة إلى زوال عهد الشرك من هذا البلد الأمين، وكذا الشركاء والنظراء والأنداد والمثلاء، وإذ كان إيذانا بإقامة صرح التوحيد، وإرجاع الحق إلى نصابه، وحين اتخذ الله تعالى وحده إلها، وإذ كان الأمر أمره وحده، ولما كان النهي نهيه وحده أيضا، وفي سابقة لم تعهدها العرب من قبل، وإذ دكت قلاع الطواغيت، معلنة ألا حكم إلا لله، وألا شرع إلا لله تعالى العلي الأعلى سبحانه.

وإذ كان من أعمال ذلكم اليوم وحين رأى صلى الله عليه وسلم صورة نبي الله تعالى إبراهيم، وكذا صورة ولده إسماعيل عليهما السلام، وهو إذ يستسقي بالأزلام! في كذب مفضوح، وتقوُّل مكذوب، وحين قال صلى الله عليه وسلم عندها: قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط. وكما عن ابن عباس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت، فأخرجوا صورة إبراهيم، وإسماعيل في أيديهما الأزلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلهم الله، أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط. فدخل البيت، فكبر في نواحيه، ولم يصل فيه[١].

وعن عبدالله بن عباس دخل النبي صلى الله عليه وسلم البيت، فوجد فيه صورة إبراهيم، وصورة مريم، فقال أما لهم! فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة، هذا إبراهيم مصور، فما له يستقسم[٢]!

---

(١) صحيح البخاري: ١٦٠١

(٢) صحيح البخاري: ٣٣٥١

وفيه بيان حرمة التصوير، وبرهان حنيفية نبي الله تعالى إبراهيم، وبراءته مما فعل هؤلاء!

وإذ كان من أعمال ذلكم اليوم قول رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، وهو على درج الكعبة: «الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، إلا إن قتيل العمد الخطأ بالسوط أو العصا فيه مائة من الإبل».

فعن عبدالله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوم الفتح بمكة، فكبر ثلاثا، ثم قاللا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية تذكروتدعى من دم، أو مال، تحت قدمي، إلا ما كان من سقاية الحاج، وسدانة البيت . ثم قالألا إن دية الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا؛ مائة من الإبل منها أربعون في بطونها أولادها[1].

وإذ كان من أعمال ذلك اليوم ما يعد علما على نبوته صلى الله عليه وسلم، وإذ كان كلما أشار بيده نحو صنم خر هاويا، ودون أن يلمسه صلى الله عليه وسلم!

وإذ كان من أعمال ذلكم اليوم طوافه صلى الله عليه وسلم حول البيت سبعا، وهو راكب بغلته، وكان كلما مر على الحجر لمسه بمحجن في يده، وهو على راحلته، ثم انتهى الى السعي بادئا بالصفا ومنتهيا بالمروة، وإذ كان يذكر الله تعالى ويدعوه على كل منهما.

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٤٥٤٧

واذ كان من قوله صلى الله عليه وسلم يومها ما أخرجه الإمام الطبري رحمه الله تعالى عن قتادة السدوسي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام قائما حين وقف على باب الكعبة ثم قال لا إله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبد ه وهزم الأحزاب وحده ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ألا وقتيل الخطأ مثل العمد السوط والعصا فيهما الدية مغلظة منها أربعون في بطونها أولادها يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم خلق من تراب ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم **(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)** الآية يا معشر قريش ويا أهل مكة ما ترون انى فاعل بكم قال وا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ثم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة وكانوا له فيأ فبذلك يسمى أهل مكة الطلقاء[(١)].

ونذكر ذهابه إلى زمزم وكذا صحبه معه، ريا وشربا ووضوءا.

ونذكر صلاته ركعتين عند باب الكعبة ومن أمامه صلى الله عليه وسلم.

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٣٣٧/٢. وقال فيه إرسال، الآحاد والمثاني، أحمد بن عمرو الشيباني ج ٣ / ١٨٦

ولم أره صلى صلاة أخف منها، غير أنه يتم الركوع والسجود.

هذا قول أم هانئ فاختة بنت أبي طالب ابنة عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأخت علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما.

وهو قول يوقفنا على كم هو يسر هذا الدين! وحين جاز تخفيف الصلوات عن المصلين، ولطالما اكتملت أركانها، وكما حكت أم هانئ أنه صلى الله عليه وسلم كان يتم الركوع والسجود كركنين من أركان الصلاة، ولعل هذا خاصة؛ ولتساهل الكثيرين في هذين الركنين خاصة، وأدائهما أحيانا وعلى غير ذات صفة من هيئة الصلاة، وإن المتتبع لأحوال المصلين يجد من ذلكم عجبا.

هذا وعن ابن أبي ليلى قال ما أخبرني أحد أنه رأى النبي ﷺ يصلي الضحى إلا أم هانئ. فإنها حدثت؛ أن النبي ﷺ دخل بيتها يوم فتح مكة. فصلى ثماني ركعات. ما رأيته صلى صلاة قط أخف منها. غير أنه كان يتم الركوع والسجود. ولم يذكر ابن بشار، في حديثه، قوله قط[(١)].

وفيها بيان سنة الضحى، وأن أكثرها ثمان ركعات، وأن أقلها ركعتان.

والخلاف قائم من ناحيتين:

الأولى: هل هذه كانت صلاة الضحى حقا أم أنها كانت سنة الفتح فتح مكة المكرمة البلد الحرام وغاية الأمر أنها وافقت وقت الضحى؟!

---

(١) صحيح مسلم: ٣٣٦

الثاني: وهل يمكن اعتبارها هكذا نيابة عن الضحى والفتح معا بجامع جواز فعل ذلك في الصلوات النوافل؟ هذا وقد ورد أحاديث أخر في بيان صلاة الضحى، ولم يكن هذا وحده دليلا عليها، كما هو بين من عبارة ابن أبي ليلى.

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر[1].

ولهذا فإن حديث ابن أبي ليلى يمكن حمله على عدم علمه، أو لعل حديث أبي هريرة جاء متأخرا. والله تعالى أعلم.

قد علمت الذي قلتم!

هذا هو قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يوم الفتح الأعظم، فتح مكة المكرمة، البلد الحرام! وحين كان قد دخل الكعبة وثلاثة النفر من قريش جلوس بفناء الكعبة، وكانوا قد أخذوا يتبادلون كلاما أنبأهم صلى الله عليه وسلم عنه ، ولما قد أنبأه الله تعالى به! وهذا معلم نبوة ضاف، تعودناه أبدا، ونحن في شرف سياقات هذه السيرة النبوية المباركة.

وحين دار هذا الحديث بينهم على هذا النحو:

قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح، ومعه بلال فأمره أن يؤذن، وأبو سفيان بن حرب، وعتاب بن أسيد، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة. فقال عتاب لقد أكرم الله أسيدا أن لا

---

(١) صحيح البخاري: ١١٧٨

يكون سمع هذا، فسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث بن هشام أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته. فقال أبو سفيان لا أقول شيئا، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصا. فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال «قد علمت الذي قلتم» ثم ذكر ذلك لهم فقال الحارث وعتاب نشهد أنك رسول الله ما اطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول أخبرك! لقد أكرم الله سعيدا إذ قبضه قبل أن يسمع هذا الأسود على ظهر الكعبة[1]!

هذه هي النظرة الدونية بين بني البشر، وحين يتخلون عن صحيح الدين، وحين يستدبرون حقيقة امرئ منهم، وأنه قد خلق من نطفة من ماء مهين! وإذ لا تمثل فارقا بين أبيض ولا أسود ولا بين أحمر على أبيض إلا بمقياس واحد هو مقياس التقوى ذلك خير. وكما قال ﷺ لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب[2].

وهذا قول بني سعيد بن العاص، وحين سمعوا بلالا يؤذن للصلاة من فوق ظهر الكعبة، إيذانا بميلاد عهد جديد، هو عهد الإسلام الخالد، دين الله الحق، وحين جمع الناس على كلمة سواء، هي كلمة التوحيد، وليستظل الناس جميعهم بظلها الوارف الهني اللطيف، وحين تساوت القيم والموازين أمام هذا الدين، وفي نظرته لهذا الإنسان خليفة لله تعالى، يقيم شرعه، ويعمل دينه، ويدين الناس بنظامه وحكمه، وليطرح من وراء ظهره كل حكم ناوأ حكمه تعالى، وليبقي كل قضاء أبرم على شرع من الله تعالى وبرهان منه.

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣ / ٥٧٥

(٢) شرح الطحاوية، الألباني: ٣٦١ . خلاصة حكم المحدث: صحيح.

وهذه في نفس الوقت نظرة الإسلام الحنيف إلى البشر- عموم البشر-، وحين تكون النظرة الى آحادهم وحسب، وبناء على ما تحلى به من قيم وآداب وأخلاق، وتأسيسا على ما انضوى تحته من إسلام.

وأما النظرة الوعرة الفجة لبني الانسان، وعلى غير أساس من دينه، فشأنها إلى زوال، ومهرها لا يتقوم بمال!

وهذا بلال عبد حبشي، ولكن الإسلام يرفعه، ولطالما كان متميزا عما سواه دينا وصلاحا واتباعا، ولا غرو إذن أن يرقى فوق ظهر الكعبة؛ لينادي بالصلاة فيها، وتحنق قريش أو ترعد أو تزبد، فإن ذلك كله ليس بمغن عنها شيئا!

علم نبوة ضاف!

ما أيقنت أنك نبي حتى الساعة

هذا قول أبي سفيان بن حرب، وقبل إسلامه، ومخاطبا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، وحين حدث نفسه أن يجمع لحربه صلى الله عليه وسلم وإذ هو الآن بين أيديهم في مكة المكرمة البلد الحرام! وحين كانوا يتغنون بحرمتها، وهذا هو الآن يدوس هذه الحرمة بفج قوله، ومن حديث نفسه! ولا يعلم أن الله تعالى مانعه، وليس يدري أنه سبحانه مخزيه.

وهذا علم نبوة ضاف آخر لنبينا صلى الله عليه وسلم، وحين تتواتر هذه الأعلام، ولتؤتي أكلها تأثيرا إيجابيا، وليؤمن قوم، ويزداد الذين آمنوا إيمانا.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى وحيث أخبر أن أبا سفيان بن حرب بعد فتح مكة كان جالسا فقال في نفسه لو جمعت لمحمد جمعا؟ فإنه ليحدث نفسه بذلك، إذ ضرب رسول الله ﷺ بين كتفيه وقال «إذا يخزيك الله». قال فرفع رأسه فإذا رسول الله ﷺ قائم على رأسه فقال ما أيقنت أنك نبي حتى الساعة[1].

عن أبي اسحاق السبيعي أن أبا سفيان بن حرب بعد فتح مكة كان جالسا فقال في نفسه: لو جمعت لمحمد جمعا أنه ليحدث نفسه بذلك إذ ضرب النبي {صلى الله عليه وسلم} بين كفيه وقال: إذن يخزيك الله فرفع رأسه فإذا النبي {صلى الله عليه وسلم} قائم على رأسه فقال: ما أيقنت أنك نبي حتى الساعة إن كنت لأحدث نفسي بذلك!

وأخرج البيهقي وابن عساكر من طريق أبي السفر عن ابن عباس قال رأى أبو سفيان رسول الله {صلى الله عليه وسلم} يمشي والناس يطئون عقبة فقال بينه وبين نفسه لو عاودت هذا الرجل القتال فجاء رسول الله {صلى الله عليه وسلم} حتى ضرب بيده في صدره فقال: إذن يخزيك الله، قال: أتوب إلى الله وأستغفر الله مما تفوهت به، وأخرجه ابن سعد عن أبي السفر مرسلا[2].

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣٤٨/٤

(٢) الخصائص الكبرى، السيوطي: ٤٤٥/١

إلا الأذخر فإنه حلال

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم الفتح الأعظم، فتح مكة المكرمة البلد الحرام، وحين أعلن حرمة مكة البلد الأمين، وبتحريم رب العالمين، وإنها لم تحل لأحد من قبله ولو كان نبيا، كما وأنها لا تحل لأحد من بعده أيضا، وسوى أنه تعالى أحلها ساعة من نهار، يوم الفتح الأعظم فتح مكة المكرمة البلد الحرام، وحسب ذلك، ولاعتبارات ألا يكون هذا التحريم فرصة لقريش للانقضاض أو ذريعة للقتل، وهذا ديننا يقدر لكل مناسبة قدرها.

وحين حرم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أشياء عددها، وإلا أن عمه العباس طلب استثناء الأذخر، ولضرورته في الدفن والبيوت، فاستثناه صلى الله عليه وسلم لذلك، وفي بيان آخر أن هذا الدين يدور مع المصلحة حيث دارت.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن مجاهد **أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يوم الفتح فقال إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة، لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي، ولم تحلل لي قط إلا ساعة من الدهر، لا ينفر صيدها، ولا يعضد شوكها، ولا يختلى خلاها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد. فقال العباس بن عبد المطلب إلا الإذخر يا رسول الله، فإنه لا بد منه للقين والبيوت، فسكت ثم قال إلا الإذخر فإنه حلال وعن ابن جريج، أخبرني عبد الكريم، عن عكرمة، عن**

ابن عباس، بمثل هذا أو نحو هذا، رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم[1].

وكما أن نبي االله تعالى إبراهيم عليه السلام كان قد حرم مكة أيضا.

وعن عبدالله بن زيد **أن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة**[2].

ولم تحلل لي قط إلا ساعة من الدهر

استدل جمهور أهل العلم بهذا الجزء من حديث الإمام البخاري رحمه الله تعالى أن مكة البلد الحرام قد فتحت عنوة لا صلحا. وكذا واقعة يوم الخندمة، وحين قضى خالد بن الوليد على جيب مقاومة، وحين قتل من المشركين عشرين يومها.

وكذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أبي شريح، **أنه قال لعمرو بن سعيد - وهو يبعث البعوث إلى مكة - ائذن لي أيها الأمير، أحدثك قولا قام به النبي صلى الله عليه وسلم الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به حمد الله وأثنى عليه، ثم قال إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها، فقولوا إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار،**

---

(١) صحيح البخاري: ٤٣١٣

(٢) صحيح البخاري: ٢١٢٩

ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب. فقيل: لأبي شريح ما قال عمرو؟ قال أنا أعلم منك يا أبا شريح، لا يعيذ عاصيا، ولا فارا بدم، ولا فارا بخربة[1].

وكذا قوله صلى الله عليه وسلم وفدنا إلى معاوية بن أبي سفيان، وفينا أبو هريرة، فكان كل رجل منا يصنع طعاما يوما لأصحابه، فكانت نوبتي، فقلت يا أبا هريرة، اليوم نوبتي، فجاؤوا إلى المنزل ولم يدرك طعامنا، فقلت يا أبا هريرة، لو حدثتنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يدرك طعامنا، فقال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح، فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى، وجعل أبا عبيدة على البياذقة، وبطن الوادي، فقال يا أبا هريرة، ادع لي الأنصار، فدعوتهم، فجاؤوا يهرولون، فقال يا معشر الأنصار، هل ترون أوباش قريش؟ قال وا نعم، قال انظروا، إذا لقيتموهم غدا أن تحصدوهم حصدا، وأخفى بيده ووضع يمينه على شماله، وقال موعدكم الصفا، قال فما أشرف يومئذ لهم أحد إلا أناموه، قال وصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا، وجاءت الأنصار فأطافوا بالصفا، فجاء أبو سفيان، فقال يا رسول الله، أبيدت خضراء قريش لا قريش بعد اليوم، قال أبو سفيان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، فقالت الأنصار أما الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته، ورغبة في قريته، ونزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال قلتم أما الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته، ورغبة في قريته، ألا فما اسمي

(١) صحيح البخاري: ١٠٤

إذا؟ ثلاث مرات، أنا محمد عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم قال وا والله، ما قلنا إلا ضنا بالله ورسوله، قال فإن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم[1].

وأما حديث ماذا تظنون أني فاعل بكم. . . ، فإنه ضعيف ومقابلة بهذه الأحاديث الثلاثة وهي صحيحة.

وذهب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى إلى أن مكة قد فتحت صلحا، واستدل بقوله ﷺ ليلة الفتح «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل الحرم فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن». ولأنها لم تقسم على باب الغنائم، وكما هو الحال في البلاد المفتوحة.

والتحقيق: أنها فتحت عنوة، ولكنه فتح خاص، ولاعتبار حرمتها فلم تقسم، ولم تكن قريش بتاريخها المرير لتسلم مكة هكذا للمسلمين بغير قوة قاهرة رأوها، وإن كانت هذه القوات قد أعدت للإرهاب والتخويف والإرعاد، مع أخذ كل حيطة واجبة؛ لمواجهة أي طارئ، وكما حدث يوم الخندمة، وإذ كانت هذه القوات، وإذ كان حديث من دخل المسجد فهو آمن، وإن كان غير ذلك فإنما هو من باب حرصه صلى الله عليه وسلم أن يدخل مكة فاتحا، وبأقل مواجهة ممكنة، وبأقل خسائر ممكنة أيضا، وحين دخل مكة من جهاتها الأربع إمعانا في إحكام السيطرة فنا عسكريا باهرا!

يوم الخندمة كان رجل- حماس بن قيس بن خالد أخو بني بكر- من مشركي قريش يحد حربة يوم فتح مكة، فقالت له امرأته ما تصنع بهذه؟ قال

(١) صحيح مسلم: ١٧٨٠

أعددتها لمحمد وأصحابه! فقالت له ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شيء فقال والله إني لأرجو أن أخدمك بعض نسائهم، وأنشأ يقول

إن يقبلوا اليوم فما لي علة
هــذا ســلاح كامــل والــه
وذو غــرارين ســريع الســله

فلما لقيهم خالد بن الوليد يوم الخندمة انهزم الرجل لا يلوي على شيء فلامته امرأته في ذلك، فقال:

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فــر صــفوان وفــر عكرمــة
لقيتنــا بالســيوف المســلمة ... يفلقــن كــل ســاعد وجمجمــة
ضـربا فـلا تسـمع إلا غمغمـه ... لـم تنطقي في اللـوم أدنى كلمـه[1].

أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته

هـذا قـول الأنصـار يـوم فـتح مكـة المكرمـة البلـد الحـرام، وإذ رأوا النبي ﷺ يدعو ربه ويذكره ويثني عليه عند الصفا، ولا ندري ما سر قولهم هذا، ولا ندري أيضا دافعا أو مبررا له، سوى أنه حديث نفس أخرجوه، واستدلال بلا استدلال اعتبروه!

وإلا فإن النبي ﷺ هو ذا معهم، وبين أيديهم ثمانية أعوام ونصف كاملة، ومن المؤكد أنهم سبروه معرفة، وأنه هو هذا معلم الوفاء، وأنه هو هذا معين

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري: ٤/٢٠٧

الإخلاص، وأنه أستاذ القيم، وكلية المعروف، وجامعة الزكاء النفسي، والمناقب الرفيعة العالية السامقة، وبالتالي ليس يكون متوقعا منه سوى كل ما أنف، والذي يجعل منه أن الأنصار منه جزء، وأنه هو منهم جزء أيضا!

علم نبوة ضاف!

لكن أعلام النبوة تلاحقنا كل مرة، وتسعفنا كل مرة أيضا، وحين نزل الوحي على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وليخبره بقولهم هذا، علم نبوة ضاف أولا، وبيانا للحق في المسألة ثانيا، وأن هذا النبي ولا زال يحن للأنصار، وقد كان شريط أحداث ثمانية أعوام ونصف كاملة ماثلا بين عينيه صلى الله عليه وسلم، والذي كان منه قوله لهم صدقا فما اسمي إذا، كلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم؟. ومن حديث سبق آنفا.

وليبكي الأنصار وكنحيب؛ ولما رأوا من لغة تقطر تطييب الخواطر الكواسر، كانت مرتسمة على شفتي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وحين قال وا والله، ما قلنا إلا ضنا بالله ورسوله، أي شحا وبخلا أن يظفر بالمقام بين ظهرانيهم غيرنا!

وهذه أيضا سياسة شرعية تبقى خالدة خلود الزمان في التاريخ، وإذ رد عليهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحين قال: فإن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم.

وقوله: فالمحيا محياكم، والممات مماتكم، أي لا أحيا إلا عندكم ولا أموت إلا عندكم.

أشهد أنك عبد الله ورسوله، والذي يحلف به ما سمع قولي هذا أحد من الناس غير هند!

هذا قول أبي سفيان لهند بنت عتبة، وقد كانا عدوين لدودين لدعوة الحق والتوحيد والنور المؤشجة بوشائج التقوى والنظام والانضباط والصلاح والهدى والنور والعقيدة الصافية في الله تعالى ربنا الرحمن الرحيم الحق المبين سبحانه.

وحين قد أغاظهما مشهد الفاتحين، وهم إذ يطوفون بالبيت العتيق بيت الله تعالى المحرم وليقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة منيبين إليه تعالى، وبعد عمر ناهز العشر السنوات خلا يوم الحديبية.

وإذ كان أبو سفيان قد رأي ذلكم الاحتفاء وذلكم الاحتفال، وحين رجع البيت العتيق إلى سبيله القويم، وحين رد البيت الحرام إلى طريقه المستقيم، وإذ تجلى قوم يقولون تكبيرا ويهللون تهليلا لربهم الحق العلي الأعلى، فرحين بما آتاهم ربهم، وإذ قد أرجعوا الفضل لله تعالى، والله ذو الفضل العظيم. وفي حكاية جديدة لم تألفها أسماعهم من قبل توحيدا وإفرادا، وحين كانوا هم يشركون، ولزاما من شياطينهم، وحين كانوا يقولون عند تلبيتهم لبيك لا شريك لك، قال

فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلكم، قد قد فيقولون إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت[1].

وهذا إيذان رباني عملي باندحار يوم الشرك، ورجوع الحق إلى نصابه، توحيدا لله تعالى، وإفرادا له بألوهيته وحكمه وسلطانه القويم.

وإذ كان حقا أن يثير أمثال أبي سفيان وهند معه!

لكن الذي أقف عنده، ومنضافا إلى ما أنف، هو ذلكم الاحتفال الموزون بميزان الشرع الحنيف، دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، وكان احتفاء مضبوطا بضوابط الدين وتعاليم الملة، وهو إذ ما قد قرأنا، وكأنما نسمع ترانيم التهليل وصيحات التكبير، وإذ تروح بها أصقاع مكة كلها، لا صحن المطاف للبيت العتيق وحده!

وإذ هم أولاء قوم يهللون فلا يغنون! وإذ هم أولاء أناس جدد يكبرون ولا يمزكون! وهذا هو عنوان العبودية، وذلكم هو برهان المحبة لحميد الأخلاق، والدينونة بها لله تعالى العلي الأعلى سبحانه.

علم نبوة ضاف!

وبيد أن هذا كان علما آخر، منضافا إلى أعلام نبوة ضافية، تواتر عليها التاريخ يوما من بعد يوم آخر، وإعلانا أن السماء تقف ومن وراء هذا النبي ﷺ الأمي الكريم، تأييدا ورعاية وعصمة، وفي مشهد أطر أبا سفيان وهندا أطرا،

---

(١) صحيح مسلم: ١١٨٥

وحين دار الحديث بينهما، وألا ترين هذا من الله يا هند؟! فتقول أن نعم! في إعجاز رباني لمشهد يأخذ القلوب أخذا، ويشدها شدا، ويعصرها عصرا، ويخشعها خشوعا وخضوعا لهذا الرب الكريم المتعال سبحانه، وإذ نطقت هند بقدرته، وإذ فاءت هند الى ربوبيته، ومن بعد أن لاكت كبد حمزة أسد الله عم رسول الله ﷺ يوم أحد، يوم التقى الجمعان، والله على كل شيء قديرا!

ولكن هندا لم تسلم، وإذ رأت الحق بيانا عيانا!

ويضرب الإعجاز جذوره، وحين يأتي الوحي من السماء، بنقل حديث أبي سفيان وهند لا على الهواء مباشرة، بل على أسماع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مباشرة، وكيما لا تسترق الشياطين السمع، ومنبئا عما دار بينهما، وليخبر نبينا صلى الله عليه وسلم أبا سفيان أن قلت لهند أترين هذا من الله؟ قالت نعم هذا من الله!

ودلك على صحة مذهبنا هذا، ما رواه الإمام البيهقي رحمه الله تعالى عن سعيد بن المسيب قال لما كان ليلة دخل الناس مكة ليلة الفتح، لم يزالوا في تكبير، وتهليل، وطواف بالبيت حتى أصبحوا. فقال أبو سفيان لهند أترين هذا من الله؟ قالت نعم، هذا من الله. قال ثم أصبح أبو سفيان فغدا إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ «قلت لهند أترين هذا من الله؟ قالت نعم هذا من الله». فقال

أبو سفيان أشهد أنك عبد الله ورسوله، والذي يحلف به ما سمع قولي هذا أحد من الناس غير هند[1]!

هل يجوز حل مكة بعد تحريم رسول الله ﷺ لها؟

هذا سؤال أدخله الناس في بحثهم كثيرا، ومن منطلق القياس.

وذلك أنه صلى الله عليه وسلم قد حرمها، وبحرمة الله تعالى لها، وإلى يوم القيامة، وعلى ما سبق بيانه، ولم يحلها إلا ساعة، يوم الفتح الأعظم، فتح مكة المكرمة البلد الحرام، ولاعتبارات الأمن العام، للحرم نفسه ثم لجماعة المسلمين، وحتى إرهابا للكافرين، فتكون عاصمة لدماء الناس أجمعين، وهذا هو سلاح الردع والمعمول به أبدا.

بيد أن التساؤل قد ثار وما العمل إذا حدثت حادثة مثلها، فقام ناس بانتهاك حرمة الحرم، أيجوز عندها حل مكة لمجابهته، وقياسا على تحليلها يوم الفتح الأعظم فتح مكة المكرمة البلد الحرام ساعة، أم أن هذا التحليل كان خاصا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم الفتح المبين فتح مكة البلد الأمين وحسب؟

وإذ قلنا بجواز القياس عليها فهذا الذي جرى ومن عهده صلى الله عليه وسلم، ومن يوم قتال أبناء الزبير عمرو وعبدالله بعضهما بعضا، وللقياس، وكان

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣ / ٥٧٦

منه واقعة جهيمان في عصر الناس الحديث هذا، وحين صدرت فتوى مجابهته في الحرم، وللقياس، ولقاعدة الضرورات تبيح المحظورات.

وإذا قلنا بأنه كان وضعا خاصا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا الذي استشهد به أبو شريح الخزاعي لما قدم عمرو بن الزبير مكة لقتال أخيه عبد الله بن الزبير، فقال جئته إني كنت شاهدا، وكنت غائبا، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن يبلغ شاهدنا غائبنا، وقد أبلغتك فأنت وشأنك. وهذا بلا ريب عمل الصحابي وقوله، وأمام قول النبي ﷺ وفعله أيضا.

وهذه مسألة أصولية، كثر الكلام فيها أيضا، بين من يرى أن قول الصحابي ليس بحجة، وهذا قال به الشافعي، وهو الراجح لدى أتباعه، وهو رواية عن أحمد، وقال به من غير المذاهب الفقهية الأشاعرة والمعتزلة والرافضة، وقال به من الحنفية متأخروهم، ومن المالكية أيضا، وبين من يرى أنه حجة إذا خالف القياس وهو قول يعتقد أن الذي قال به بعض الحنفية.

وإذ إن قولهم هذا مؤسس من قوله تعالى **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾**[آل عمران١١٠]. ومنه قوله ﷺ خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم - قال عمران لا أدري ذكر ثنتين أو ثلاثا بعد قرنه - ثم يجيء قوم، ينذرون ولا يوفون، ويخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، ويظهر فيهم السمن[١].

(١) صحيح البخاري: ٦٦٩٥

هل سبق أن حرم مكة أحد قبل نبينا صلى الله عليه وسلم؟

عن أنس بن مالك أن نبينا صلى الله عليه وسلم قال اللهم إني أحرم ما بين لابتيها بمثل ما حرم إبراهيم مكة، اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم[(١)].

وعن جابر بن عبدالله أنه صلى الله عليه وسلم قال أيضا إن إبراهيم حرم بيت الله و أمنه، و إني حرمت المدينة ما بين لابتيها، لا يقلع عضاهها، و لا يصاد صيدها[(٢)].

ولربما كان جمعا بين تحريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبين ما دل عليه الدليل من تحريم نبي الله تعالى إبراهيم عليه السلام لمكة المكرمة- أنه تجديد لذلكم عهد التحريم، وبما أنف ذكره.

أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس

هذا قول عمير بن وهب، وصفا لنبينا صلى الله عليه وسلم، وهو وصف صدق، يحمل من معاني الصدق ما ضاق الصدق عن معناه! ولأن المفردة لها جرسها وحدها، ولها جرسها بغيرها، ولها جرسها من سياقها، ولها جرسها من مبدعها وواضعها مكانها، وبحيث تفيض من معانيها انسيابا، ما تعجز العبارات عنه، وما تنبهر الكلمات منه!

وهذا الذي حدث يوم قال عمير بن وهب قوله هذا!

---

(١) صحيح البخاري: ٢٨٩٣

(٢) صحيح الجامع، الألباني: ١٥٢١

ولسنا نريد أن نخوض فضولا فنفسد، ولسنا نريد أن نشرح مشروحا فنشرد، وحين كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مغايرا للناس كل الناس! وفي كل صفات الجمال، وعند جميع نعوت الكمال، مما يمكن أن يطلق على نبي لا بشر وحسب، أو ممكن أن يفرد به رسول لا آدمي فقط، ولأنه تحلى من شيم الفضل نصيبها، ونصيبه الأوفى، ولأنه اتصف بنعوت البر والخير والحلم، ما قد سعد به الناس، طول الأرض وعرضها، وسموق السماء وارتفاعها، فليست ممكنة المضاهاة، ويحال أمام واحدة من نعوته المحاكاة! وليس ذلك إلا لشيء واحد فقط هو ذلكم الوسم القرآني، وهو ذلكم الوصف الرباني، وحين قال الله تعالى **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾** [القلم٤].

وإذ كان وصف عمير بن وهب هكذا لهذا النبي ﷺ، ونابعا من صدق التجربة، ومقابلة بصدق تجربة آخر، ناسبها الصدق ههنا! وكما قد ناسبها الصدق هناك أيضا، وحين فر صفوان بن أمية؛ قاصدا السياحة في أرض الله تعالى، وبعيدا بعيدا، وحين قد أهدر النبي ﷺ دمه، ولو وجد معلقا بأستار الكعبة، ولأنه كان قد حاد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. وحين هرب صفوان، وقد عزم أمره أن يغادر أرضا، خان الله ورسوله فيها! وإذ كان به استحقاق اهدار دمه وقتله وسلبه!

لكن هذا ال(عمير بن وهب) قد كان فطنا وحاذقا وماهرا وباهرا، وحين تلطفت بسببه الأجواء الحارة! ولما اعتدلت من قوله الطقوس الملتهبة! وحين نادى أخاه، وقد استأمن من عند خير الورى ﷺ، وأبر الورى ﷺ، وأرحم الورى ﷺ، وأفضل الورى ﷺ، وأحن الورى ﷺ، وإذ جاء من بعدها صفوان مسلما تائبا.

علم نبوة ضافـ!: لا تغزى هذه بعد اليوم إلى يوم القيامة!

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم الفتح الأعظم، فتح مكة المكرمة البلد الحرام.

وهو علم نبوة ضاف، وكما قد عودناه هذا النبي الأمي العربي الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفيه فيض ذاخر، وفيه هام وافر.

فأما الهام الأول: فهو ذلكم العلم النبوي الكريم، وأن مكة البلد الأمين لا تغزى من بعد يوم الفتح المبين أبدا!

وهذه هي مكة أمامنا، ولم يرصد التاريخ وقتا من زمان، قل أو كثر، قد تعرضت فيه مكة المكرمة البلد الحرام إلى غزو ومن بعده يوما غيره! وهذا في حد ذاته برهان نبوة! ألا فليقرأ الناس التاريخ، وإلا فأنا أدعوهم بدعاية الإسلام، وحين ولو لم يتبق أمامنا من دليل واحد سوى هذا البرهان! ولأن التاريخ حاكم ضابط، وحين كان الحديث صحيحا صحيحا!

وقد تأيد برواية الإمام مسلم رحمه الله تعالى، وحين قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، رواية مطيع بن الأسود القرشي سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول يوم فتح مكة لا يقتل قرشي صبرا بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة[(١)].

وأما الهام الثاني: فهو إثبات أن مكة المكرمة البلد الحرام قد فتحت غزوا، وإنما قد فتحت عنوة، وبدلالة هذين النصين.

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٨٢

وقد أنف تناول هذا الأمر، وفي مكانه من هذه السيرة النبوية المباركة، وحين بينا عندها أنه فتح، وأنه غزو من نوع كان خاصا، ولخصوصية هذا المكان من أرض الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه.

وأما الهام الثالث: فهو ذلكم الإطباق على أن قريشا أسلمت، وأن إسلامها هذا كان خالدا في أذهان التاريخ، فليس ينسى، وأن مكة المكرمة البلد الأمين، وكذا أهلها في حفظ ربهم ورعايته وإكلائه وسلمه وأمنه إلى يوم الدين! وهم من بعد إسلامهم ليس يكفرون!

وهذا الذي تراه الأعين، وهو الذي وعته الأفئدة، وقد رصدته وكالات الأنباء كابرا وعن كابر! وحين رأينا صيحات التهليل ترتج من جنباتها أم القرى- مكة- ومن حولها! وحين رأينا أمنا لا كأمن يرفرف، وحين رأينا البيت مثابة للناس وأمنا، وحين رأينا الناس يتخذون من مقام ابراهيم مصلى، وإذ رأينا الطائر الحمام يروح ويغدو، ويرتفع ويهبط، ويعلو وينزل، ويرفرف سلما، ويهدل أمنا، في أنشودة الإعجاز بمعانيه، وبمعانيها أيضا وأيضا! مشهدا تخر من نبضاته الجباه، ولربنا كان هو ذا الإله، ألا وقد تنسمنا ربنا هداه، ألا وقد سعدت قريش، ومن بعد نكدها، وفي ظلال زمان الإسلام الحنيف تهنأ، ومن إثر شقائها، وإذ ها هي الآن ترغد يومها، ليلها ونهارها، ومن إلف شذاه، ذلكم الدين القيم، وفطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها، ومن بعد تناحر أيسوه، ومن إثر تقاتل سئموه، وعلى مرأى من التاريخ الذي ليس إلا يصدق، وإن لم يصدق الناس!

وأما الهام الرابع: فهو ذلكم الرباط الوثيق بين مكة، وإذ ولن تغزى كمكان شرفت به البشرية كلها، وحين عم ظلال وارف، وحين خيم سكون هاديء شارف،

أو كان رفعا للأذان خمس مرات يوما، ومن بعد يوم آخر، وفي سلسلة غير متناهية يعلوها التكبير، وفي إعلان عام أن الله تعالى واحد أحد فرد صمد ﴿لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد﴾ [الإخلاص٣و٤]! وليس له ند ولا مثل ولا نظير، لا في أمره، ولا في نهيه، ولا في حكمه، ولا في شرعه.

استفهام وجواب

وإن قيل: وما قول وحين غزا الحجاج مكة، وبفعل منه قد نبا؟! وإن قيل: وما رد ولما أن غزا القرامطة بكة، وبتعد قد نأى؟!

وموجز القول: إن غزو مكة إبان عهد النبوة قد كان إخراجا لها من عهود الظلام وعصور الكفران، إلى نور الإسلام وسنا الإيمان.

وأما غزو مما أنف لا حقا فإنه من معنى المحاربة والمقاتلة بين أهل القبلتين- أو مما سواهما- تأويلا مشروعا أو سائغا أو حقا أو باطلا، ناهضا أو ناقضا، وذلك ليس محله ههنا، ولأن محل الكلام هو تيكم المفارقة بين تأصيل لأسباب غزوين

وإذ كان الأول -ومرة أخرى- هدا لكفر، وابتناء لإسلام. وهذا عهد نبوة النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

قال سفيان (يعني ابن عيينة) تفسيره أنهم لا يكفرون أبدا، ولا يغزون على الكفر [1].

وإذ كان الثاني ومن باب قوله تعالى ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ [الحجرات٩].

وأما القرامطة وحين عاث أبو طاهر القرمطي في الأرض فسادا، وكانت مكة البلد الحرام لم تفته، فإن ذلك منضاف أيضا إلى نحو مما أنف، وبقطع النظر عن باطل فعلوه، أو تجاوز عن حق قد ارتكبوه، إلا أنك وحين تسألهم يقولون لك نحن أدعى بالإسلام منكم يا أهل الحرمين الشريفين في سائر البقاع! ويا قاطني بلاد القبلة، بلاد الإسلام الواسعة، ومواطن أهل التوحيد الشاسعة! ولأن لدينا قبلة نرضاها- ولئن كان الإسلام قد تأباها-! ألا وهو قبر الحسين المزعوم، وألا هو ضريح الحسين الموهوم!

قلت: ومنه قوله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه لا تنتهي البعوث عن غزو هذا البيت، حتى يخسف بجيش منهم[2].

وقلت أيضا: ومنه عن أبي شريح، أنه قال لعمرو بن سعيد - وهو يبعث البعوث إلى مكة - ائذن لي أيها الأمير، أحدثك قولا قام به النبي صلى الله عليه وسلم الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به حمد الله وأثنى عليه، ثم قال إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد

---

(١) شرح مشكل الآثار، الطحاوي: ٤ / ١٦٢

(٢) صحيح النسائي الألباني: ٢٨٧٨

تـرخص لقتـال رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم فيهـا، فقولـوا إن الله قـد أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب. فقيل: لأبي شريح ما قال عمرو؟ قال أنا أعلم منك يا أبا شريح، لا يعيذ عاصيا، ولا فارا بدم، ولا فارا بخربة[1].

والشاهد قول عمرو بن سعيد أنا أعلم منك يا أبا شريح، لا يعيذ عاصيا، ولا فارا بدم، ولا فارا بخربة.

وقد أثار هذا القول عملا بالقياس من عدمه على فعله صلى الله عليه وسلم، وهذه مسألة سبق بيانها أيضا، وحين كان وقتها، وإبان تناولنا لهذا الجزء من السيرة النبوية المباركة.

مقتضى(لا) في حديثي الباب

على أن قـولا قيـل: ومقتضـاه أن (لا) الـواردة في نـص حـديثي بابنـا، وقـد وردت من معنى النهي لا النفي.

ومحصله أنه خبر بمعنى النهي، بخلاف قوله فلم تحل لأحد قبلي، فإنه خبر محض، أو معنى قوله ولا تحل لأحد بعدي، أي لا يحلها الله بعدي؛ لأن النسخ ينقطع بعده؛ لكونه -صلى الله عليه وسلم- خاتم النبيين[2].

---

(١) صحيح البخاري: ١٠٤

(٢) فتح الباري، ابن حجر: ج ٤ / ٤٦

المجاز المركب

وأقول إن استبراء رحم مكة المكرمة البلد الحرام من غزو، وإن علوها ورفعتها وسكونها وهدوءها وأمنها وسلمها، وعلى ذلكم نحو يرونه ونراه، وليعم معه قريشا في انسجام تام بين مكة كمهبط وحي علي كريم، وبين أهلها وهم أولاء القرشيون، برهان تعانق المجاز المرسل وعلاقته المحلية من قوله (هذه) وكإشارة إلى مكة البلد الحرام؛ ولأنها محل القوم وناديهم، ولأنها موطن القوم وموئلهم، وبين مجاز مرسل آخر، وبعلاقته الحالية، وحين قال صلى الله عليه وسلم(قريشا)؛ وإذ هي التي حلت موطنها مكة المكرمة البلد الحرام! في أسلوب بلاغي معجز مبهر ،عز وصفه، وند نعته، إلا من هذا النبي الأمي العربي الكريم صلى الله عليه وسلم، وإذ حقا كان محالا على بلاغي رسم كهذا البيان، وإذ كان محالا على أديب أريب نظم كهذا الإعجاز في الكلام، وإن من البيان لسحرا! وقد تبوأ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عرشه السامق، وقد طوعت له الألفاظ طوعها الفائق، وكأنما هدير ماء كان منسابا أبدا، وكأنما قطرات الأمطار كانت سحا غدقا مجللا أبدا أيضا!

وهذا أيضا من تواتر الأنباء، ومن صدق الأخبار، أن هذا النبي علم على الإعجاز، وإذ كان الإعجاز طرفا من بيانه، وإلا فإن بيانه هو الإعجاز كل الإعجاز، وحين لم يتبق من إعجاز، ومن بعد قوله، سوى كلام ربنا الكريم العزيز الوهاب التواب!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما جاء عن الحارث بن مالك بن البرصاء أنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة يقول لا تغزى هذه بعد اليوم إلى يوم القيامة[1].

اللهم إني ابرأ إليك مما صنع خالد

هذا خالد بن الوليد بن المغيرة، وكيف كان من صلب رجل عادى الله ورسوله، ولعل ذلك من بركة دعاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين جاءه جبريل الملك عليه السلام، وليطبق عليهم الأخشبين ولو شاء لفعل! ويكأنه صلى الله عليه وسلم كان رؤوفا رحيما، وبالناس كل الناس؛ وكيما يهتدوا، وإن نكصوا! فلعل الله تعالى أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئا! وهذه- بحق- رحمة نبي، وهذه- بحق أيضا- رأفة رسول.

فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أنها **قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال يا محمد، فقال ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم**

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ١٦١١

الأخشبين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا[1].

وهذا ابنه خالد بن الوليد نفسه، وإذ كان يوما عدوا مبارزا، وإذ جاء يوما مسلما تائبا آيبا! وسبحان ﴿**من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون**﴾ [المؤمنون ٨٨]. وتبارك من كانت القلوب بين إصبعين من أصابعه، وجل وعز من يقلبها كيف شاء ويشاء، وحاضرا ومستقبلا؛ من قدرته ومآثره، وعلى حد قول نبيه وعبده ورسوله ومجتباه ومصطفاه، من حديث عبدالله بن عمرو **إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**[2].

وهذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويوم أرسل خالدا بن الوليد الى بني جذيمة؛ يدعوهم بدعاية الإسلام، وإذ كان ذلك بعد فتح مكة المكرمة البلد الحرام، وكيما يبسط الإسلام سناه على مكة ضواحيها وأجوارها، وكما قد انبسط هداه على مكة دورها وزقاقها وأرجاءها، وكما قد أنيرت مكة البلد الأمين؛ ببعث محمد صلى الله عليه وسلم النبي الصادق الأمين، هاديا ومبشرا، وداعيا إلى الله وسراجا منيرا، وكما قد استظل البيت الحرام بقوافل التوحيد والصلاح والفلاح، وحين صعد بلال الحبشي ظهر الكعبة المشرفة المكرمة، وفي أول بادرة، ومذ كان بعث الإسلام الخالد.

---

(١) صحيح البخاري ٣٢٣١

(٢) صحيح مسلم: ٢٦٥٤

وإذ كان من شأن إرساله صلى الله عليه وسلم خالدا داعيا، وبدعاية الإسلام الخالدة ﴿ أن تؤمنوا بالله ربكم﴾ ولم يبعثه مقاتلا، بل مسالما.

وغير أنه رضي الله تعالى عنه، وحين دعاهم إلى الإسلام، ولم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، وقال وا صبأنا صبأنا، أي رجعنا رجعنا! ولعله كان رجوعا عن كفرهم إلى إيمانهم! وإذ فهم خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه أنهم قد أبوا، وأن من أسلم منهم قد ارتد! فأخذ فيهم قتلا قتلا! بأيدي جنوده، وعدة أفراده، وقوة عتاده! إلا عبد الله بن عمر وسالم مولي بني حذيفة رضي الله تعالى عنهما، وإذ زايلوا المقاتلة، وحين تبدى لهما ألا سند لخالد يسنده، وإن تأول! وما عليهما! وقد ذهب مذهبه! ولأنهما كانا يعرفان عرفا، ولأنهما كان يعلمان علما، أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وعلى حد ما روى علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه **أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث جيشا، وأمر عليهم رجلا فأوقد نارا وقال ادخلوها، فأرادوا أن يدخلوها، وقال آخرون إنما فررنا منها، فذكروا للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها لو دخلوها لم يزالوا فيها إلى يوم القيامة، وقال للآخرين لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف**(١).

وفي هذا برهانان:

فأما البرهان الأول: فهو إجراء خالد بن الوليد عمل القتل- الخطأ- في بني جذيمة تأولا، وليس يمكننا اتهامه بالعمد، بل تأويل خاطئ؛ ودلالة براءته صلى الله عليه وسلم من ذلكم فعل، كان عنوانه رأسا لباب كلامنا أعلاه، ولأن التاريخ نقل أن القوم قال وا صبأنا صبأنا، وبمعنى العودة والرجوع والنكوص والإدبار

(١) صحيح البخاري: ٧٢٥٧

والممانعة، وهذا الذي تأوله خالد، وإلا فنحن أمام جيل لا يعمد مخالفة لنبيه صلى الله عليه وسلم، وإذ نحن أيضا أمام جيل كان محبا للناس أن يسلموا وجوههم لله. وهذا الذي قد كان خالد خرج من أجله وسببه وموجبه.

وهذا الذي يسميه الناس في أدبياتهم ب(إشكاليات التنفيذ). وحين خرج داعيا، واستشكل فصار مقاتلا!

وأما البرهان الثاني: فهو وجود قاعدة عريضة من المجتمع المسلم، ولتقول لأميرها قولا معروفا، وحين يأخذ بعض المؤمنين على يد بعضهم بعضا، وحين تجشم لذلك كل من عبدالله بن عمر وسالم مولي بني حذيفة رضي الله تعالى عنهما، وفي إشارة أن هذه الأمة تنهض قولا بالحق وبه يعدلون، وفي مشهد يأخذ فيه الأخ على يد أخيه، وهذا من مطلق معنى قوله تعالى **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ۚ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ۚ أولٰئك سيرحمهم الله ۗ إن الله عزيز حكيم﴾** [التوبة٧١]. وكذا قوله تعالى **﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل علىٰ لسان داوود وعيسى ابن مريم ۚ ذٰلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ۚ لبئس ما كانوا يفعلون﴾** [التوبة ٧٨و٧٩].

ثناء وتحميد ومدح وتمجيد!

ولأن هذه الأمة آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، وإذ كان هذا من سبب ثناء ربها عليها، وإذ كان ذلكم من موجب إشادة قرآنها بها أيضا، وحين قال الله تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ۗ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ۚ منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ [آل عمران:١١٠].

وهذا من سر بقائها، وهذا من سبب خلودها، وهذا من موجب إلف قلوب أبنائها، وإلا فإن قوما آخرين، ولما تداعوا إلى منكرهم، وليضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض، ومن بعد لعنه تعالى لهم أيضا، وكما سبق نظم القرآن الحكيم آنفا.

فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونماذج مضيئة

هذا وإذ كان موقف الصحابيين عبدالله بن عمر وسالم مولى بني حذيفة رضي الله تعالى عنهما، وعلى صحيح الدليل منسجما، وعلى إيجاب الأمر والنهي منتظما، وعلى حد قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لا يمنعن أحدكم مخافة الناس أن يقول بالحق إذا شهده أو علمه[١].

(١) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ١١٧٩٣. خلاصة حكم المحدث صحيح.

وإلا فإن أمما تقاد على غير ما أنف، فبوار تاريخها، وكنس لمجدها، وإتيان على بنيانها، وهد لجبالها، ولو كانت صما رواسيا!!

وهذا الذي أنبأنا عنه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحين ضرب مثلا خالدا فقال مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا[1].

ولذا فإن القائد الأبهر، وإن السلطان الأمهر، الفذ الحكيم الأقدر، ليصنع من أمته جيلا ليقول له ﴿قولا لينا لعله يتذكر أو يخشىٰ﴾ [طه٤٤]. حقا لسلطانه، وموجبا لحكمه السديد، ونظامه الرشيد.

ولذا أيضا فإن الراعي الأشم هو ذاك الذي يأمر رعيته أن تقول له أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ ولأنه حق من حقوقه له عليهم! ولأنه فضلا أن يكون من أوجب واجباتهم نحو سلطانهم.

وهذا الذي حدث يوم تولى أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وحين قال فإني وليت أمركم، ولست بخيركم، ولكن نزل القرآن، وبين النبي صلى الله عليه وسلم، وعلمنا، فعلمنا أن أكيس الكيس التقى، وإن أحمق الحمق الفجور، وإن أقواكم عندي الضعيف، حتى آخذ له بحقه، وإن أضعفكم عندي القوي،

(١) صحيح البخاري: ٢٤٩٣

حتى آخذ منه الحق، أيها الناس إنما أنا متبع، ولست بمبتدع، فإن أحسنت فاتبعوني، وإن زغت فقوموني[(١)].

وهذا هو نداء عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه، ومن فوق منبره؛ ليسمع العالم كله؛ وليسمع التاريخ، وحين سجله له موقفا خالدا أيها الناس من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه، فقام له رجل وقال والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا، فقال عمر الحمد لله الذي يقوم اعوجاج عمر بالسيف[(٢)]!

وهذا كناية عن المبالغة في الأخذ على يد الأمير، وإلا فإنه ليس كل اعوجاج يقوم بالسيف، وإلا اختل الأمن، وفقد الأمان، وانشل النظام.

ويكأنه برهان أمة عز أفرادها، وحين أخذوا على أيدي بعضهم بعضا، فنجوا، ونجوا جميعا، لا أن يغرقوا، ويغرقوا جميعا أيضا!

وهذا الذي حدث، يوم أن وقف كل من عبد الله بن عمر وسالم مولي بني حذيفة موقفا مخالفا لعهد خالد، ولفعله في بني خذيمة، ولو كان تأولا، وحين وضح لهم الحق!

(١) تاريخ دمشق، ابن عساكر: ج٣ /٣٠١

(٢) أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، علي محمد الصلابي: ١٤٢/١

كلفة تجاوز الموظف العام!

وغير أن قولة الحق، يحسن إعمالها، وحين يحسب لها حسابها، حكمة وموعظة حسنة، وإلفا ومعروفا، ورفقا، ولأن الرفق يزين، ولأن نزعه يشين! ولأن إهمالها- كلمة الحق- يكلف الأمة!

وهذا الذي حدث يوم أن أعمل خالد قتلا في بني خذيمة، وحين بعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عليا بن أبي طالب؛ ليوديهم جميعا! أي يدفع دية من قتل، واعتبار أنه قتل خطأ لا عمد، ولتأويل أنف ذكره، ويجبر خاطر من كسر! حتى أودى ميلغة كلب، وكأنما قد قتله خالدا! وحتى وزع عليهم جميعا ما قد بقي من مال، جبرا للخواطر الكواسر! ومما فعله خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه متأولا. وفي مشهد سيظل عالقا بأذهان التاريخ، فلا ينسى ذلكم المجد العالي الرفيع السامق!! ويكأن نبيا قد كان ههنا، في مصاف رجال خلدهم التاريخ، وحين جبر خواطر قد انكسرت، وحين رفع رؤوسا قد انحنت!- صلى الله عليه وسلم- .

وهذا نداء حان وأَلّاْ فيحسن كل فيما نصب عليه، وألا فليتقن كل فما وكل إليه.

ودلك على صحة مذهبنا هذا أنه وحين انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء ثم قال اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ثم دعا علي بن أبي طالب عليه السلام فقال يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك فخرج حتى جاءهم ومعه مال قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم به فودى لهم الدماء وما أصيب من الأموال حتى إنه ليدى ميلغة الكلب حتى إذا لم يبق شئ من دم ولا مال إلا وداه

بقيت معه بقية من المال فقال لهم علي عليه السلام حين فرغ منهم هل بقى لكم دم أو مال لم يود إليكم قال وا لا قال فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يعلم ولا تعلمون ففعل ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر فقال أصبت وأحسنت ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبل القبلة قائما شاهرا يديه حتى إنه ليرى بياض ما تحت منكبيه وهو يقول اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ثلاث مرات [١].

والميلغ والميلغة الإناء الذي يلغ فيه الكلب[٢].

سؤال وجواب!

بيد أننا لا نقف كثيرا أمام استفهام كان نصه ولم لم يعاقب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خالدا بن الوليد على فعله هذا؟

ولأن خالدا تأول، وحين سمعهم يقولون صبأنا صبأنا.

وهذا تأول. وإن عد خطأ.

بل إن خالدا لم يعزل، وغير أنه لم يبعد! وفي بادرة أخرى؛ دلالة على رفق هذا النبي صلى الله عليه وسلم حين ترأف برعيته، وكيما تتفتق في أذهانهم

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ /٤١

(٢) لسان العرب، ابن منظور: ج ٨ / ٤٦٠

طاقات البذل، وكيما تتفلق من طاقاتهم آيات العطاء، ودونما خوف أو وجل، مما يمكن أن يقعوا من خطأ، أو أن يزلوا فيه من قدم!

وهذه مدرسة تربوية سديدة، وهذه طريقة محمدية رشيدة!

المسؤولية التقصيرية للدولة عن أفعال موظفيها!

لكنه، وعلى ما أنف، كلف خزانة الدولة كثيرا، وإذ كان الخلف من الله تعالى. وإذ كانت الدولة ضامنة لعمل آحاد رعيتها، ولأنه أثناء العمل وبسببه.

وليس يرجع فيه على المخالف من الرعية؛ ضمانا لانسياب أعمال الأمة، وإلا نكص الأفراد وتباطؤا وتخاذلوا وتخوفوا وتراجعوا، فيقف دولاب العمل، وهذه كلفة أعظم!

وهكذا وحين تطلق أعنة الإبداع، فإنك تراهم وقد تجشموا وإن أخطأوا، وتبصرهم وقد تجلدوا وإن تأولوا، وتلقاهم مقبلين غير مدبرين وقد تجاسروا وتسابقوا وتنافسوا؛ وليصلح الله بهم دولاب العمل أيضا، ومن ثم معه تهون الكلفة أيضا.

وغنم الدولة عملهم، نظيره تحمل غرمهم، إلا من تعسف في استعمال السلطات المخولة له، وإلا من تجرأ من سبب الصلاحيات المنوطة به.

وهذه تحكمها القوانين والأنظمة الشرعية، وإذ توضحها وتفسرها وتفصلها لوائحها التنفيذية، وإذ كان من شأنها الإبانة والإبداء والتوضيح، وإذ

كان من عملها الإفصاح والإنشاء والتصريح، وكيما تتحدد المخالفات وضوابطها، وكيما لا تتبدد المسؤوليات ومعالمها.

وهذا أيضا كفاء أن يكون المكلف عالما بمدلولات اللغات، ومختلف اللهجات، لقوم حل بهم؛ دعوة، أو حربا، أو سلما، أو مفاعلة، وكأي مجال مما تقتضيه اجتماعيات الناس، وتعاملاتهم البينية. ولأن العادة حاكمة.

إذا رأيتم مسجدا أو سمعتم مؤذنا فلا تقتلوا أحدا

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ولأن المساجد من شعائر الله تعالى، ولأن الأذان من شعائر الله تعالى أيضا؛ ومنه قوله تعالى ﴿ذٰلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ [الحج٣٢].

وحين يقاس عليهما كل شعيرة من شعائره تعالى أيضا، وليس مقصورا على هاتين الشعيرتين وحسب، ولأن الإسلام شعائره سحا غدقا!

لكن المساجد ومآذنها لها شأن فائق، ولكن الأذان ولاشتماله على التوحيد له شأن عظيم شاهق، وإذ ليس اختبارا وحسب، بل وكفا أيضا؛ ولقدسية الشعائر، وإذ ليس يعرف مئذنة إلا قوم مؤمنون، وإذ لا يرفع أذانا إلا قوم مسلمون، وذلك وما لم يتبين بعد أنها مساجد الضرار، وحين يسعفنا القرآن الحكيم أيضا، وبنظمه العظيم أيضا أيضا، وحين قال الله تعالى ﴿والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ۚ وليحلفن إن أردنا إلا الحسنىٰ ۖ والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ [التوبة(١٠٧)].

ودلك على صحة مذهبنا هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث سرية قال إذا رأيتم مسجدا، أو سمعتم أذانا، فلا تقتلن أحدا[1].

«أما كان فيكم رجل رحيم»؟!

هـذا حـديث النبي- ﷺ- الأمـي العربـي الكـريم، صـاحب الرحمـة، ونبي المرحمة، ورسول الملحمة، وإذ لا تثنيه ملحمته، وعن رحمته، وإذ كانت به لصيقة لصوق الجلد والفؤاد بصاحبه، ويكأن الله تعالى قال فيه ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ [التوبة ١٢٨].

ولـيس يثنيـه خلـق عظـيم، نعتـه الله تعـالى بـه عـن شيء مـن رحمـة، كانـت صفة لـه صلى الله عليـه وسلم، وإذ جـرت في عروقـه، وكجريان دمه تماما بتمام، صلى الله عليه وسلم. وحين قتل أصحابه الكرام رجلا عاشقا! وكان أن يبدأ فيه بتخلية قلبه لله تعالى أولا، وهدهدته للإسلام الخالد، ثم ليعزل عن هواه، وريثما يعود إليه رشده، وحين قد تخلى عن ذلكم الركام، وحين ينجلي فؤاده عن صدأ، تكلسـت بـه أجـزاؤه وأبعاضـه، وليترك فترة للنقاهـة، وإعـادة التـوازن العـاطفي إمهالا، ثـم ينـذر ثـم ينـذر ثـم ينـذرا! خاصـة وأن الرجـل أعلـن أنـه لـيس مـن أولاء الـرهط المقصـودين يـوم سـريتهم تلـك!!! وإنمـا هـو لـه شـأن آخـر بعيـدا بعيـدا عـن اهتمامـات هـؤلاء وهـؤلاء!!! غارقـا في بليتـه!!! غاصـا في مصيبته!!!سـائحا في عشيقته!!! وإذ أرخى الهيام البطال عليه سدوله، وإذ خيم وهواه على قلبه، فليس يكـاد يعـرف معروفـا، ولا يـنهض ينكـر منكـرا، وإذ كـان مثلـه أحـق بـه أن يـودع

---

(١) شرح السنة، البغوي: ٥/٥٨٢. خلاصة حكم المحدث: غريب.

مستشفيات الصحة النفسية أولا؛ ولإعادة تأهيله، ولأن مثله مرفوع عنه القلم وريثما يفيق!!! ولقوله صلى الله عليه وسلم رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل[1].

ولرب نائم قد كان منه أيقظَ! ولرب صبي قد كان منه أميز! ولرب مجنون قد كان منه أعقلَ!

خاصة وأن الرجل أعلن هيامه، وشاكل غرامه، ونعى إليهم نفسه وحاله!!! وحتى يمهلوه، وريثما ينذروه، وحتى يلقي عليها نظرة الوداع البطالة، أو يلقى منها نظرة ترياق ضلاله وسفهه وغوايته وغرقه، في وحل ما لا يغني عنه من الله تعالى شيئا!!!

ولهذا حين أقدم الأصحاب الكرام على قتله قال عندها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قولته «أما كان فيكم رجل رحيم»؟!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام الحبر الترجمان عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية فغنموا وفيهم رجل فقال لهم إني لست منهم عشقت امرأة فلحقتها فدعوني أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا بي ما بدا لكم فنظروا فإذا امرأة طويلة أدماء فقال لها أسلمي حبيش قبل نفاذ العيش أرأيت لو تبعتكم فلحقتكم بحلية أو أدركتكم بالخوانق أما كان حق أن ينول عاشق تكلف إدلاج السرى والودائق قالت نعم فديتك فقدموه فضربوا عنقه فجاءت المرأة فوقفت عليه فشهقت شهقة ثم ماتت فلما

(١) صحيح سنن أبي داود، الألباني: ٤٤٠٣

قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال أما كان فيكم رجل رحيم[1].

ارجع فإنك لم تصنع شيئا!

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، وحين أرسله لقتل العزى، تطهيرا لمكة المكرمة البلد الحرام من رجس، كان قد تبقى، وكيما تكون كلمة التوحيد عالية خفاقة سامقة، ومن علوها ألا تبقى بقية من أذناب الشرك تطل برأسها من مواجهتها. وهذا هو التوحيد الخالص لله، وبغير هذا الدك لفلول الشرك رؤوسها، فإن التوحيد لا يمكن أن يقال بأنه ثبتت أركانه بعدا! وقد بقيت له من بقية!

وبقيته ويوم راح خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، وهدم بيت العزى! ومن ثم رجع، وكأنما قد محا بقايا الشرك وفلوله من جزيرة العرب!

وليخبره نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله الآنف الذكر

ارجع فإنك لم تصنع شيئا! ولأن جذر الشرك لا زال موجودا، ولأن أصل الباطل لازال جرحا نازفا، وثلما جارحا!

وهذا الذي عليه التعويل، وهذا الذي منه العمل جز أصول الشرك من جذورها وفروعها معا، وكيما لا يطل برأسه يوما! ولأن هذا الدين تتأبى طبيعته أنصاف الحلول، وتستعصي أنفته أبعاض السبيل!

---

(١) السلسلة الصحيحة، الألباني ١٨٤/٦

وهذا هو الذي حكاه القرآن الحكيم، وحين نزلت سورة بلغ من قصرها مبلغه، وفي حين بلغ من معناها أيضا ما بلغ مبلغه، وحين قال تعالى **﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين ﴾** [سورة الكافرون١-٦].

وفي رسالة إلى دعاة الخير والتوحيد والعقيدة الصافية في الله تعالى، إلا أن يكونوا هكذا شوامخ، وإلا أن يكونوا هكذا رواسخ! فليس يقبلون ضيما في دينهم، ويحال قبولهم دنية من إسلامهم، وبالغا ما بلغت بهم الخطوب، ومن ذوي العيوب والذنوب، وبالغا ما مستهم أو أرهقتهم أو أثقلتهم الآلهة المدعاة، وفي أي ثوب تلبست، أو في أي رداء قد ارتدت! ولأن أوجه التلبيس عظيمة، وحيث إن زقاق التموية أليمة، وإذ لا تنطوي على لبيب، وإذ لا تخفى على أريب، وحين رجع خالد بن الوليد الى بيت العزى، وإذ كان قد هدمه، لتخرج امرأة عارية شعثاء، متبذلة شمطاء، ناشزة بمنظرها، شاذة بعريها، وليأتي عليها خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، وعلى أم رأسها هاويا، مقبلا لا مدبرا، كرا لا فرا، لتخور خور البعير، يعلوها ويمتطيها شهيق عال وزفير، ومن صراخ وأنين، وقد ذبحت بغير سكين!!

وبيد أنها لم تدفع عن نفسها، وقد كانت إلها يعبده طوال الشوارب! وبيد أنها خارت، وقد كانت معبودا تقصده ذوات النوائب!

وهذا برهان خواء الشرك والمشركين ولا يغرن عبيد خيولهم ولا يرهب من صلفهم وغيهم وإنما كانوا وعلى نعته ربنا لهم وربهم، وكما قال تعالى **﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ۚ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا**

ولو اجتمعوا لهوإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منهضعف الطالب والمطلوب﴾ [الحج٧٣].

وشاهدنا قوله تعالى ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾، وإشارة إلى توهين الكفر؛ ومن وهنه، وعقدا من تضعفيه؛ ومن ضعفه، وإن هملجت به خيله!

وليرجع خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، قاصا عليه فعله، ورايا إليه خبره نبأه، وليخبره صلى الله عليه وسلم أنها العزى!

وفي برهان آخر علما على نبوته صلى الله عليه وسلم، وحين قال لخالد قولته الرشيدة آنفة الذكر والبيان ارجع فإنك لم تصنع شيئا! وليعلم كل، ونحن من ذلكم جمع، أن العبرة هي اجتثاث أصول الشرك ونابتته أولا!!

ومن ثم لنقف حائرين! وأمام هذا العفن التعبدي، والذي كانت عليه أمم، وقد كان لها صيت وضجيجه، وإعلام وصياحه، وأعلام ورايات وخنادق، وأصول ثابتة، وأخرى متحركة، وكراسي حكم، وتاج ملك، ومراسم ومواكب. . . !!! وبه يفرحون! وعليه يتكؤون! وليس يدرون ما هم عليه من خيبة وفشل، وما هم فيه من هزيمة وانقطاع أمل. ولئن هملجت بهم الخيول! ولأن الله تعالى أبى إلا أن يذل من عصاه، أبصر من أبصره وقلاه، أو رآه من رآه وجفاه!

ويكأنك تذهل! وحين ترى الناس؛ ولفعلهم هذا، ويكأنهم سكارى! وما هم بسكارى!

وهـذا الـذي حـدث، ويـوم رأى عبـاد العـزى خطـرا داهمـا، وليخرجـوا أعـالي جبالهم مناديها وبقولهم

أيا عز شدي شدة لا شوى لها	على خالد ألقي القناع وشمري
أيا عز إن لم تقتلي المرء خالدا	فبوئي بإثم عاجل أو تنصري!!

وهذا الذي لا يعيره الإسلام اعتبارا!! وليس يوليه الدين الحق اهتماما! وإذ لـو كانـت منهم بقيـة من أنفـة، لوقفـوا لخالـد، وبالمرصـاد؛ ليـذودوه، أو لعلهـم عنهـا يبعـدوه، ويكانـه إعجـاز الـرحمن، وحـين انخلعـت عـنهم قلـوبهم، ولتقـول لهـم فطـرة الله التي فطر الناس ﴿وما ظلمناهم ولٰكن ظلموا أنفسهم ۖ فما أغنت عنهم آلهتهم التي يـدعون مـن دون الله مـن شيء لما جـاء أمـر ربك ۖ وما زادوهـم غير تتبيـب﴾ [هود١٠١].

وهذا فعل خالد بن الوليد رضي الله تعالى، ومن بعد فعله في بني جذيمة قتلا قتلا! ولعله هذا الصنف من الرجال تذوب بوائقه في بحر مناقبه، وحين كان سيفا سله الله تعالى على المشركين.

ولعـل هـذا كـان بعـدا آخـر، مـن أبعـاد نبـوة نبينـا محمـد صـلى الله عليـه وسلم، وحين لم يعزله يومها، وكما أنه كان بعدا آخر، ويوم لم يعزله الصديق، يوم حرب المرتدين، وحين قتل مالك بن نويرة، وليتزوج امرأته، نكاية!! وإذ يدعوه الفاروق لعزله، ولأنه في عقده قد تعدى، وليقول الصديق قولا لازال محفورا في ذاكرة التاريخ لا أعزل سيفا سله الله على المشركين!!

فنحن نقصر ما بقينا بين تسع عشرة فإذا زدنا أتممنا[1].

هذا قول الإمام الحبر الترجمان عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، يوم فتح مكة المكرمة البلد الحرام.

وفيه مشروعية قصر الصلاة للمسافر.

وهذا الذي رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى أيضا من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال أقام النبي صلى الله عليه وسلم تسعة عشر يقصر، فنحن إذا سافرنا تسعة عشر قصرنا، وإن زدنا أتممنا[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، قال خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، قلت أقمتم بمكة شيئا؟ قال أقمنا بها عشرا[3].

وقد وردت روايات أخر عن الأئمة رحمهم الله تعالى، وهي مختلفة العدد، وما بين عشرة الى تسعة عشر يوما، وإذ كان يقصر فيها صلى الله عليه وسلم الصلاة، ركعتين ركعتين.

وهذا بيان أنه لا اختلاف بين الروايات، روحا ومعنى، وإن اختلفت نظما ونصا ومبنى، وإذ حدث كل منهم على ما رأى، وإن تبدى أن الإمام الحبر الترجمان قد قال قوله المعنون به أعلاه، فيبدو أنه مكث التسعة عشر يوما كلها، برهان تحديده المدة، وعلى ما أنف.

---

(١) البداية والنهاية – ط احياء التراث، ابن كثير: ٣٦٣/٤

(٢) صحيح البخاري: ١٠٨٠

(٣) صحيح البخاري: ١٠٨١

ويبدو أنه رضي الله تعالى عنه قد أراد الاتباع، وبقوله هذا، وهذا منهج حسن، يبين أن الناس كم كانوا متبعين، غير مستحسنين ولا مستدركين على نبيهم صلى الله عليه وسلم.

وتلك هي مناقبهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وهذا الذي بينه صديق هذه الأمة، ويوم أن استخلفته الأمة، يوم وفاة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولما بويع بالخلافة بعد بيعة السقيفة، فتكلم رضي الله تعالى عنه، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: "أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف منكم قوي عندي حتى أزيح علته إن شاء الله والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا يشيع قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[١]".

لكن الإمام الحبر الترجمان عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه قد فاته أنه بانتهاء التسعة عشر يوما، وقد كان قد انتهت مهمة يوم الفتح المبين، فتح مكة المكرمة البلد الأمين، وبالتالي فإنه لقائل أن يقول بعدم حصر مدة القصر تسعة عشر يوما.

وهذا الذي ذهب إليه كثير من أهل العلم رحمهم الله تعالى.

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ٢١٨/٥. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

وقد نحا هذا المنحى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وإذ لم يجعل لذلك حدا، وقال يجوز قصر الصلاة في كل ما يسمي سفرة سواء قل أو كثر ولا يتقدر عده وهو مذهب الظاهرية ونصره صاحب المغني فيه وسواء كان مباحة أو محرمة، ونصره ابن عقيل: في موضع[1].

فهذا وجه اختياره رحمه الله تعالى، وهو وجه حسن.

قال ابن قدامة رحمه الله تعالى: ولا أرى لما صار إليه الأئمة حجة؛ لأن أقوال الصحابة متعارضة مختلفة، ولا حجة فيها مع الاختلاف، وقد روي عن ابن عباس وابن عمر خلاف ما احتج به أصحابنا، ثم لو لم يوجد ذلك، لم يكن في قولهم حجة مع قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله، وإذا لم تثبت أقوالهم امتنع المصير إلى التقدير الذي ذكروه لوجهين:

أحدهما: أنه مخالف لسنة النبي صلى الله عليه وسلم التي رويناها، ولظاهر القرآن، لأن ظاهره إباحة القصر لمن ضرب في الأرض؛ لقوله (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة)، وقد سقط شرط الخوف بالخبر المذكور عن يعلى بن أمية، فبقي ظاهر الآية متناولا كل ضرب في الأرض، وقول النبي صلى الله عليه وسلم (يمسح المسافر ثلاثة أيام)، جاء لبيان أكثر مدة المسح، فلا يصح الاحتجاج به هاهنا، وعلى أنه يمكنه قطع المسافة القصيرة في ثلاثة أيام، وقد سماه النبي صلى الله عليه وسلم سفرا، فقال لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم الا مع ذي محرم.

(١) الفتاوي الكبرى، ابن تيمية: ٥/١

والثاني: أن التقدير بابه التوقيف، فلا يجوز المصير إليه برأي مجرد، سيما وليس له أصل يرد إليه، ولا نظير يقاس عليه، والحجة مع من أباح القصر لكل مسافر، الا أن ينعقد الاجماع على خلافه[1].

و"كان يقصر الرباعية، فيصليها ركعتين من حين يخرج مسافرا إلى أن يرجع إلى المدينة، ولم يثبت عنه أنه أتم الرباعية في سفره البتة، وأما حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقصر في السفر ويتم، ويفطر ويصوم، فلا يصح. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول هو كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى، وقد روي كان يقصر وتتم، الأول بالياء آخر الحروف، والثاني بالتاء المثناة من فوق، وكذلك يفطر ويصوم، أي تأخذ هي بالعزيمة في الموضعين، قال شيخنا ابن تيمية وهذا باطل ما كانت أم المؤمنين لتخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم وجميع أصحابه، فتصلي خلاف صلاتهم، كيف والصحيح عنها أنها قالت إن الله فرض الصلاة ركعتين ركعتين، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، زيد في صلاة الحضر، وأقرت صلاة السفر فكيف يظن بها مع ذلك أن تصلي بخلاف صلاة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه.

قلت وقد أتمت عائشة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، قال ابن عباس وغيره إنها تأولت كما تأول عثمان وإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقصر دائما، فركب بعض الرواة من الحديثين حديثا، وقال فكان رسول صلى

---

(١) المغني، عبد الله بن قدامه: ج ٩٤/٢

الله عليه وسلم يقصر وتتم هي، فغلط بعض الرواة، فقال كان يقصر ويتم، أي هو[1]".

وبيد أنه أيضا أفطر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأفطر معه أصحابه الكرام، في رمضان، وبنفس سبب القصر، وهو السفر يوم الفتح الأعظم، فتح مكة المكرمة، البلد الحرام.

ولأن هذا إعمال لقول الله تعالى﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدىٰ والفرقان ۚ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ۖ ومن كان مريضا أو علىٰ سفر فعدة من أيام أخر ۗ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله علىٰ ما هداكم ولعلكم تشكرون** ﴾ [البقرة١٨٥].

وهكذا رفع الإسلام الحرج عن المسلمين، وحين لم يجمع عليهم مشقتي السفر والاتمام للصلاة.

وحين لم يجمع عليهم مشقتي السفر والصيام في رمضان أيضا.

وصدق الله تعالى ربنا الرحمن الرحيم الحق المبين سبحانه وحين قال ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾.

وإلا أن المسافر، وحين يكون إماما للمصلين، فإنه يقصر، وإنهم يتمون.

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم الجوزية: ١/٤٤٤

وهذا لما رواه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى عن عمران بن حصين قال غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدت معه الفتح فأقام بمكة ثماني عشرة ليلة لا يصلي إلا ركعتين ويقول يا أهل البلد صلوا أربعا فإنا قوم سفر[١].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه لما صلى بمكة قال يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر[٢].

الولد للفراش وللعاهر الحجر

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم الفتح الأعظم فتح مكة المكرمة البلد الحرام.

وهذا بيان أحكام الملة فيما ينشأ من أحوال، وكما قال أبو ذر رضي الله عنه تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علما. قال وكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا بين لكم[٣].

ومناسبة حديث بابنا أن عائشة قالت **كان عتبة بن أبي وقاص عهد إلى أخيه سعد بن أبي وقاص أن ابن وليدة زمعة مني، فاقبضه إليك، فلما كان عام الفتح أخذه سعد، فقال ابن أخي، قد كان عهد إلي فيه، فقام إليه عبد بن زمعة**

(١) ضعيف أبي داود، الألباني: ١٢٢٩

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل: ابن تيمية٢/٣٠٦. حكم المحدث صحيح.

(٣) رواه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (٢/١٥٥). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/٢٦٦) رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة. وقال الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (١٨٠٣): إسناده صحيح، رجاله ثقات.

فقال أخي وابن وليدة أبي، ولد على فراشه، فتساوقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال سعد يا رسول الله، ابن أخي كان عهد إلي فيه، وقال عبد بن زمعة أخي وابن وليدة أبي، ولد على فراشه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو لك يا عبد بن زمعة، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الولد للفراش، وللعاهر الحجر، ثم قال لسودة بنت زمعة احتجبي منه؛ لما رأى من شبهه بعتبة، فما رآها حتى لقي الله تعالى(١).

وبه يثبت الولد للفراش، ولأن هذا حق الفراش. وللعاهر الحجر، وهذا مثل كان يقال عند هذه المناسبة، عند العرب، أي ليس للعاهر أي الزاني حق في نسبة ولد الزنا إليه، وبه فلا يتوارثان.

وفي هذا الحديث برهان آخر على وجوب الحجاب، ولقوله صلى الله عليه وسلم لزوجه سودة بنت زمعة احتجبي منه يا سودة، ولأنه صار بحكم النبي ﷺ أخا لها، ولكنه لشبهه كان أشبه بعتبة ابن أبي وقاص، ومنه فلحقه بفراش زمعة.

وقد قضى رسول الله ﷺ بالولد للفراش؛ لأنها كانت سرية زمعة وجاريته. ووطؤه لها كان من موجب الفراش، وكما ساريا عهدهم هذا.

---

(١) صحيح البخاري: ٧١٨٢

أتكلمني في حد من حدود الله؟!

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بعد الفتح الأعظم فتح مكة المكرمة البلد الحرام، وهذا القول كاشف أيما كشف عن طبيعة هذا الدين، وحين لم يقف صامتا، بل صامدا، أمام حادثة سرقة واحدة! وقعت في عهد الابتداء الأولي للإسلام الخالد، وفي أول بسط له على مكة المكرمة البلد الأمين، ومن بعد الفتح المبين. ولأن السكوت أمام جريمة كمثل هذه الجناية، ليمثل إسقاطا ما مقتضاه هوان هذا الدين في عيون العالم أجمع! وحين يعلم الناس أن به خلة ولو واحدة، يمكن منها النفاذ إلى تعطيل أحكامه، ولو حكما واحدا، ولو مرة واحدة أيضا!!

وذلك لأن هذا الدين كانت الإيجابية من أوائل خصائصه، وبحيث لا يمكنه الوقوف سلبا أمام حوادث الزمان ووقائعه، بل يقابلها إيجابا تفاعلا وحركة دائبة، إعلاء ومضاءً، وحين كانت نافعة، وازدراء، ومقتا، وسفها، وإبطالا، ومحوا، وحتا، ولما كانت تحدث ثلما، ولو ثقبا واحدا، يؤثر سلبا في هذا البنيان، الشامخ، السامق، الرفيع، الأبي!

ويكأن هذا الدين يقوم قومته، وحين تظهر بادرة ولو واحدة يمكن منها انفراط عقده، وحين يسكت، وإذ إن النار من مستصغر الشرر.

وهذا الذي نراه الآن في واقع الناس المعاصر، وإذ تحوط بهم الابتلاءات، ومن كل جانب وصوب وحدب، ولما وقفوا سلبا أمام هذا الخروج السافر على القيم والمبادئ والمثل العليا، وتراهم يمرون عليها، وهم خزايا؛ من الذل، والخيبة،

والدمار، والخسار، المحيق، المحيط! ويوم أن سكتوا أول مرة، ويوم أن أغمضوا طرفها يوم السقطة الأولى!

ولهذا السبب كان هذا الجيل الأول، ومتمثلا في شخصية، وكمثل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، قائدا، فذا، حكيما، وحين لم يغض طرفه عن حادثة، ولو واحدة، وإذ كان يمكن أن يجرف طوفانها الأمة بأسرها، وبحيث لا تقوم لها قائمة أبدا، ومصداق ذلكم هو قول الشاعر الكريم:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

لكن الذي حدث يوم وقعت الواقعة، أن الناس دخلوا مدخلهم إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد اجتماع مرر، ومن إثر تشاور كدر! وأخذ ورد، ومن خلال حبه وابن حبه أسامة بن زيد! وفي واقعة أخرى تتكرر كل زمان، وتكشر عن أنياب السقوط إلى الهاوية أنيابها، وكل حين! لكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت وقفته ماثلة، وأمام جحافل الباطل، والخزي، والتأخر، والسلبية، وقصر النظر، وحين حسبوا أن عملهم هذا مقصور على امرأة سرقت وحسب! ولم يرح بهم تفكيرهم الذي راح إليه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن هكذا لذلكم فعل يسقط الدين كله! وسقطة واحدة! فلا يكاد ينهض مرة أخرى أبدا أبدا !

وبيد أن العلاقة بين الفعل، وبين استحضار هيبة الدين، وما يجب أن يكون عليه قلب العبد المسلم، هو ذاك الذي أوقفنا عليه قول رسول الله ﷺ آنف الذكر، وحين ربطه بالله تعالى، وبمثل هذه الدينونة العظمى، وكمثل هذه النظرة الكبرى، ولحدود الله تعالى، ولو كانت حدا واحدا!

وهذا الذي أوقفنا عليه النص أيضا، وحين دوى في الوجود كله قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

أتشفع في حد من حدود الله؟! يا أسامة!

وإذ وكأني به ﷺ يقول: وقد فتشوا! فلم يجدوا سواك يا أسامة! يا حب بن حب رسول الله ﷺ ؟!

وذلك أن الاختبار الأولي ليكون عند حد واحد! ومن بعدها تسقط الحدود، في تتابع، لا يمكن وقفه، وفي تهاو للدين، ليس يمكن صده، ولا إمكان من رد زحفه! ولو بكل قوة ممكنة، وإذ لا قوة عندها، ولأن القيم قد انهارت، ولأن العقيدة قد خارت، وسقطت، ووقعت، وهوت من عل!

بيد أن الربط النبوي الكريم، وبين كونه حدا من حدود الله تعالى، قد كان أمعن في البيان، وقد كان أسمى في النكران!! وذلك لأن القائد الحكيم، هو ذلك الذي يسند أمور المجتمع المسلم كله، وعلى أساس من تعظيم شعائر الله تعالى، ولأنه قال تعالى ﴿ذٰلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ [الحج: ٣٢]. وليس يمكن أن أُعَظِّمَ شعائر الله تعالى، وإلا حين يكون الربط وبينها وبين السلطة العليا، التي أصدرت الحكم والقانون! وليس يمكن أن ينال القانون قداسته، وإلا حين تكون العلاقة قائمة متينة حصينة بينه وبين السلطة التي أصدرته، وليس يمكن تخيل، ولو من ثقب، ولو كان خفيا أيضا، أن يرعب الناس، ولا أن يحملوا على تنفيذ القانون، إلا باستحضارهم لهذه السلطة العليا! وليس ثمت سلطة عليا يمكن أن تعمل في القلوب عملها، وبمثل، أو قريبا من سلطان الله تعالى الحق المبين سبحانه!

ولذا؛ كانت هذه الألمعية النبوية في البيان، ومرة أخرى، وحين ربط الناس بوشائج التقوى، وبينهم وبين الله تعالى الخالق العظيم سبحانه، وهنا -وفقط هنا- يؤتي القول أكله، ويثمر الحديث ثمره وينعه!!

وأما حين يكون الربط بين النظام العام والآداب! وهكذا في ضعة، ودغدغة للمشاعر، وأي نظام عام؟! وهذا الرب القدير المتعال، رافع السماء وسمكها، وباسط الأرض وطولها وعرضها، وإذ كان يمكن الربط بسلطانه أقوم، وبتحديد دقيق لسلطانه في القلوب، وإذ كان أدعى، وأقرب، وأحكم، وحينها حدثونا عن واقعة واحدة! ويمكن من خلالها أن نقف ولو على استهتار واحد بحدوده تعالى، وعلى مثل هذا الوجه الذي تتفطر أمامه القلوب، وعلى شاكلة هذا الوضع الذي تدمع من هوله الأبصار والمقل والعيون!

هذا النظام العام! إن هو إلا عمل هلامي! لا يسمن ولا يغني من جوع! وأمام سلطان الله تعالى العلي الأعلى سبحانه!!

هذا النظام الهلامي العام! هو الذي أفرز مجتمعا هلاميا مثله! وهو الذي أنتج جميعا غفيرا، وازدحاما مريرا، أمام ساحات المحاكم والقضاء، القائم على هزال القانون، الذي أفرزه هذا النظام العام!! وإذ لا يكاد يحكم القاضي بحكمه، من بابه، إلا وليعود المحكوم عليه يومه التالي ومن شباكه! ومرة أخرى، ومرات، في استهتار أليم، وفي عود مريب، وفي تعد معيب، ولو في نفس الصورة، ولو في صورة! بل صور أخرى! ولو في نفس الشخص، أو في أشخاص كثر، كثر هذه المجتمعات الغفيرة، وقد تراها وقد تركت ما خولها ربها ومن وراء ظهورها!!! وفي تنكب كان

عارا وفي استهتارا كان نتاجه دمارا خسارا، ومجتمعا هزالا هزالا، وإذ ليس يكاد إلا منحنيا، وأمام رياح النسيم العليلة، وإذ فما بالك يوم قصفت ريح أليمة؟!

وهذا هو مطلق العدل الرباني، وهذا هو عموم القسطاس المستقيم، الإلهي، وحين وقف رأس الأمة، وقائد عدلها، وأمير قسطاسها- المستقيم- وجه محاولات النيل من قدسية عدله وقضائه، اللذين عليهما قامت السماوات والأرض، وإذ كان يعلم ﷺ أن النيل من هذا العدل، ولو من كسم الخياط، إن هو إلا إسقاط لمعالم التوحيد، الذي جاء به، ولأنه من ألف بائه، ولأنه من أول سطر في ابتدائه! هو ذلكم المجد في عدله، وهو ذلكم العدل في حكمه، منارة توحيد الرحمن، والعقيدة الصافية في ربه الديان سبحانه وتعالى، وأن الله تعالى قد أمر، وبأمر ليس يقبل تأويلا، بل وليس يحمل من ذلكم التأويل غير الحق، ولو بصيصا من وكسم الخياط أيضا، وحين قال الله تعالى﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربىٰ وينهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي ۚ يعظكم لعلكم تذكرون**﴾[النحل٩٠].

ويوم كان الربط بين ذلكم العدل وبين مكارم الأخلاق، ومن لدن رجل كان منصفا، وحين سمع التنزيل الحكيم، والذكر المبين، آنف الذكر، وإذ لم يجد إلا أن يقول أكثم بن صيفي إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها، ثم قال لقومه كونوا في هذا الأمر رؤوسا ولا تكونوا فيه أذنابا، وكونوا فيه أولا ولا تكونوا فيه آخرا[1] !

---

(١) فتح القدير، الشوكاني: ج ١٨٩/٣

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير **أن امرأة سرقت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه، قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها، تلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أتكلمني في حد من حدود الله؟! قال أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله خطيبا، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد؛ فإنما أهلك الناس قبلكم: أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها. ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك المرأة، فقطعت يدها، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت. قالت عائشة: فكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم**[1].

ألا إنها- نكاح المتعة- حرام من يومكم هذا إلى يوم القيامة

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، شأن نكاح المتعة.

وقد سبق تناول هذا الحكم في أثناء معالجتنا لغزوة خيبر، ومن هذه السيرة النبوية المباركة.

وذلك لاختلاف أهل السير، والعلم بالحديث، حول تاريخ هذا النكاح، وهل كانت بدايته يوم خيبر، أو يوم الفتح الأعظم، فتح مكة المكرمة البلد

(١) صحيح البخاري: ٤٣٠٤

الحرام، وهو ما سمي أيضا بيوم أوطاس، وعلى خلاف أيضا حول المقصود به، وهل هو يوم الفتح الأعظم، فتح مكة البلد الأمين، أم أنه هو يوم حنين، وإذ قال الله تعالى ﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ۙ ويوم حنين ۙ إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾ [التوبة٢٥].

وأقول إن هذا الخلاف مرتفع.

وسبب ارتفاعه، فيما نتأوله، أن حكم نكاح المتعة جاء حراما، وبنص حديث الإمام مسلم رحمه الله تعالى آنف الذكر، ولأنه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المتعة، وقال ألا إنها حرام من يومكم هذا إلى يوم القيامة، ومن كان أعطى شيئا فلا يأخذه[1].

ومنه فإن الشأن عندنا، أن بحث التاريخ، وإن كان مفيدا، وللتاريخ أيضا، وإلا أن ذلك مرتفع، ولأنه جاء بعده، وكلنا له بعد! وبالتالي يكون الحديث دالا دلالة ثبوتية قطعية، ودالا دلالة حكمية قطعية أيضا، وعلى تحريم هذا النكاح.

وإن قيل: وما حكمة؟!

قلت:

١- ومن حيث حكم النص، وبحكمه القطعي الثبوت، وبحكمه القطعي الدلالة، فليس من شأننا أن نعمل عقولنا كثيرا أو قليلا، ومن وراء ذلكم! ولأننا

(١) صحيح مسلم: ١٤٠٦

بهذا سنفتح مجالا واسعا؛ لأخذ ورد، ولسوف ينسينا أصل ما بدأ الكلام بشأنه. ولربما أوقع بنا الوقائع!

٢- ومن حيث كان التفويض لله تعالى ولرسوله محمد ﷺ، وفي كل مرة، وكذلك يكون هذا التفويض أولى، وعند بادرة اختلاف.

٣- إن الزواج المعروف بين الناس اليوم، هو ما شرعت به الناس، ومن شرع ربها سبحانه، وارتضته زواجا بينها. وبالتالي يكون الحديث لفترة، أو ضرورة، أو غيرها، ومن وراء النص، ومن خلف المعروف عرفا، وإذ كان المعروف عرفا وكالمشروط شرطا، قولا مردودا، وعملا مبتدعا، ومخالفا للنص أيضا.

وهذا الزواج الذي بيننا هو من المعروف عرفا، وبالتالي يكون من المشروط شرطا. وما عداه ليس يكون على أي من هاتيك الصفتين.

٤- إن هذا الزواج المعروف بيننا الآن، هو ما يتفق وأصول التعامل، وطبائع القرائح السوية، والتعاملات المستقيمة، ولتحديده حدود المسؤوليات وأطرها، ولتبيينه آفاق الحقوق والواجبات ونطاقها، وهو ما يتفق ومع كونه عقدا فريدا، ومن بين سائر العقود أيضا، وإذ كان الوفاء به ألزم وأوجب، وكذا غيره من سائر العقود، وكما قال تعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ۚ أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلىٰ عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم ۗ إن الله يحكم ما يريد﴾** [المائدة١].

٥- ومن حيث قلنا- وبقول الشرع الحنيف- بأن الزواج عقد، وكان من طبيعة هذا العقد وتميزه باثنتين وناتجتين- ومن طبيعته أيضا-، وهما

أ- أنه ينضوي تحت ما يسمى بعقود المعاوضات، وبمعنى أن كل طرف من طرفيه له حقوق وعليه واجبات، وتجاه الطرف الثاني، وهذه الحقوق وهذه الواجبات المحددة، والنابعة من طبيعته، لتتأبى أن توجد في نكاح المتعة، ولأنه من اسمه معنى فضفاض، لا تشتم منه رائحة الالتزامات، وبشقيها، فلا الواجبات قعدت، ولا الحقوق ألزمت! فكان عقدا هلاميا في الفضاء الواسع ،وفي أذهان اللا واقع!

ب- ولئن كان من أخص خصائص عقود زواج الناس المعروفة يومهم هذا، وأنها الأصل فيها قيامها على التأبيد، وليست تنفك عراها إلا وبميثاق غليظ، وكما بدأت، وبمثل هذا الميثاق الغليظ أيضا، فإنك تقضي ولأول مرة أن نكاح المتعة مفرغ من هذا التأبيد، وحين كان التأقيت ومن أولى خصائصه!

٦- أسمى الله تعالى عقد الزواج المعروف بين الناس يومهم هذا، وبأنه ميثاق غليظ، وهو ما خالف نكاح المتعة، وللنظرة الأولى، ومن حيث كان نكاح المتعة ليس ميثاقا وليس غليظا! ولأنه في مهب الريح، وحين قام على يوم، أو الثلاثة الأيام، أو قل أو كثر، فكان شبيها باستئجار البغايا، وباسم يخلع عنه هذه الصفة الغير لائقة!! وكيما يخدع طرفاه نفسيهما، وبأنهما يعملان الحلال!

٧- دلت الوقائع، وحكمت القرائن أن القائلين به- وهم الشيعة- يعملونه في نطاقه الضيق، بل ويعملون على إجهاضه، ولعلمهم بمثالبه، وحين كانت أولى مثالبه التفكك، وحين أفرزت نتائجه التحلل من الحقوق والواجبات، فأنتجت

مجتمعا هكذا، يقوم لا على الوحدة والوئام، بل كانت في مهب الريح والنكد والخلاف والخصام[1]!

٨- إن نكاح المتعة مناف لقيام أسرة، ومنه عدمت معه المجتمعات التآلف، وحرمت به الأمم الاجتماع، حول مائدة أسرة جامعة، كانت نواة لأمة ذات شأن وهيبة وشكيمة. وهذه فلسفة زواجنا وتلكم قيم نكاحنا- أهل السنة-!

فعن سبرة بن معبد الجهني **أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المتعة، وقال ألا إنها حرام من يومكم هذا إلى يوم القيامة، ومن كان أعطى شيئا فلا يأخذه**[2].

وعن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يونس بن محمد، عن عبد الواحد بن زياد، عن أبي العميس، عن إياس بن سلمة بن الأكوع، عن أبيه أنه قال **رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم عام أوطاس، في المتعة ثلاثا، ثم نهى عنها**[3].

قال الإمام البيهقي رحمه الله تعالى: وعام أوطاس هو عام الفتح، فهو وحديث سبرة سواء[4].

---

(١) حكم زواج المتعة، دار الإفتاء، الأردن، رقم الفتوى: ٤٢٠

(٢) صحيح مسلم١٤٠٦. وفي رواية في مسند أحمد والسنن أن ذلك كان في حجة الوداع، فالله أعلم.

(٣) صحيح مسلم: ١٤٠٥

(٤) زاد المعاد، ابن القيم الجوزية: ٤٠٨/٣

لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط

هذا حديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، عن عائشة أم المؤمنين، رضي الله تعالى عنها.

وهو يبين، كم كانت يد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكأبعد عن مس النساء؛ وكيما يقطع الطريق على الاستحسان العقلي في هذا الصدد، ولأنه ليس فعل أحد فوق فعل رسول الله ﷺ، وعند هذا الحد لا كلام، ولأنه لا اجتهاد مع النص. وما بعد النص من قول، وإلا كان استدراكا على النص، وهذان أمران من الخطورة بمكان.

وبيد أن دلالة النص على حرمة مس يد الرجل يد امرأة أجنبية جاءت من وجهين:

الوجه الأول: أن النص جاء قطعي الثبوت، ولأنه جاء من رواية رجل إمام، كان- ولازال- كتابه أصح كتاب على وجه الأرض، بعد كتاب الله تعالى القرآن العظيم، وهو ذلكم الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

الوجه الثاني: أن النص جاء قطعي الدلالة، وبحيث إنه ليس يحتمل سوى وجه واحد، وهو حرمة مس يد امرأة أجنبية.

والمرأة الأجنبية هي تلك التي تحل للرجل الأجنبي عنها أن يتزوجها أيضا، وبه ينقطع الاستحسان العقلي، ولأنه والحال كذلك ليس يمكننا التسليم بأنه استحسان عقلي، بل إبليسي! وحين كان تطبيقا لعهده مع الله تعالى العلي القهار! وبصلف وعتو واستكبار، وتعد على مقام الألوهية الجبار، وحين نقل الذكر

الحكيم عنه قوله، وليكون شهادة عليه، ومن فيه هو، وليس نقلا عن أحد عنه، وليقال من إثرها فهم التصريح على غير سياقه!!

ولأن الاستحسان العقلي المتجرد، وحين كان على هذه الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها، لتجدنه عند ذلك وقافا، مطيعا، مُسَلِّمًا، مستسلما، منقادا.

قال الله تعالى عن إبليس اللعين الشيطان الرجيم ﴿ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ۚ ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا﴾ [النساء١١٩].

وقال تعالى أيضا **﴿قال رب بمآ أغويتنى لأزينن لهم فى آلأرض ولأغوينهم أجمعين﴾** [الحجر٣٩].

وقد كان هذا الحديث، مناسبة بيعة رسول الله ﷺ للناس يوم فتح مكة المكرمة البلد الحرام، وحين بايع الناس رجالا ونساء على الإسلام والشهادة.

وغير أنه صلى الله عليه وسلم، كان قد زاد على النساء بما قالته هند بنت عتبة بن ربيعة زوجة أبي سفيان، وحين أصبح مسلما.

وقد كان صدقا قولها رضي الله تعالى عنها، وحين قالت لنبينا صلى الله عليه وسلم: والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه من الرجال؟

وعلى كل حال، هذا الذي رواه أهل السير، وإذ نقف عنده، مسلمين، طائعين، مستسلمين، واهتماما بشأن النساء، وخشية أن تكون النساء ناسيات،

وكما عهدهن، فأراد صلى الله عليه وسلم تقريرهن إقرارا، ومن بعد إقرار آخر، وهذه فطنة نبي، وهذه حكمة رسول الله ﷺ.

وغير أنه صلى الله عليه وسلم ما كان ينتقل من بند إلى بند آخر، إلا ومن بعد إقرارها، هذه ال(هند)!

وإذ كانت وعلى ما يبدو هي المتحدثة الاعلامية عن النساء، يوم بيعتهن هذا، يوم الفتح المبين، فتح مكة المكرمة البلد الأمين.

ومن الملفت أن يتنزل القرآن الحكيم، حاكيا نفس الحوار الذي حدث، وحين قال الله **تعالى ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك علىٰ أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف ۙ فبايعهن واستغفر لهن الله ۖ إن الله غفور رحيم﴾** [الممتحنة١٢].

ولكن الذي نقف عنده مليا هو قوله تعالى **﴿ولا يعصينك فى معروفۙ﴾**. ومن ثلاثة جوانب

الجانب الأول: أن ذلك كان قول هند بنت عتبة! وقد خلده لها التاريخ، وحين كان صدقا وحقا وعدلا، وليتوافق مع قوله صلى الله عليه وسلم: إنما الطاعة في المعروف.

وذلك لما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث جيشا، وأمر عليهم رجلا فأوقد نارا وقال ادخلوها، فأرادوا أن يدخلوها، وقال آخرون إنما فررنا منها، فذكروا للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال

للذين أرادوا أن يدخلوها لو دخلوها لم يزالوا فيها إلى يوم القيامة، وقال للآخرين لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف[1].

وهذا بيان اهتمام الإسلام الخالد بالمرأة، وحين سجل القرآن العظيم قولها، وفي قرآن يتلى إلى يوم الدين! وفي رسالة للناس يومهم هذا، وفي غير يومهم هذا، وحتى يوم أن قال عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه: أصابت إمرأة وأخطأ عمر!

الجانب الثاني: هو ذلكم العموم الذي جاء بعد ذكر الخاص، وعلى طريقة القرآن الكريم، وألا يدع شيئا إلا كاملا، وألا يترك خلة إلا عالجها، وقطعا لكلام بشر مخالف، أو استدراك متأول، وحين كان تأويلا غير سائغ!

الجانب الثالث: هو هذه الرحمة، وهو هذا الحلم، وهو هذا العفو، وحين جاءت هذه ال(هند)، تلك التي لاكت كبد حمزة، عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يوم أحد، وإذ كان الإسلام يجب ما قبله، وإذ جاءت تائبة معلنة إسلامها، وفي بادرة إسلامية عزت، وفي سابقة محمدية ندت، وأن الإسلام يجب ما قبله، ومرة أخرى!

وبيد أن رواية الإمام أحمد رحمه الله تعالى قد فصلت معنى الشهادة، وأنها وكما نتركه يروي، وعن محمد بن الأسود بن خلف أخبره أن أباه الأسود رأى النبي صلى الله عليه وسلم يبايع الناس يوم الفتح قال جلس عند قرن مستقلة فبايع الناس على الاسلام والشهادة قال قلت وما الشهادة قال أخبرني محمد بن

(١) صحيح البخاري: ٧٢٥٧

الأسود بن خلف انه بايعهم على الايمان بالله وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم[1].

ومنه فكان تفسير الشهادة بأنها شهادة التوحيد الفاصلة، وكلمة الحق الفاضلة، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله.

وقلت أيضا: ويوضحه رواية المصنف عن محمد بن الأسود بن خلف أخبره أن أباه الأسود رأى النبي صلى الله عليه وسلم يبايع الناس يوم الفتح، قال جلس عند قرن مسقلة، وقرن مسقلة التي تهريق إليه بيوت ابن أبي أمامة، وهي دار ابن سمرة وما حولها، والذي يهريق ما أدبر منه على دار ابن عامر، وما أقبل منه على دار ابن سمرة وما حولها، قال الأسود فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم جلس إليه، فجاءه الناس، الصغار، والكبار، والنساء، فبايعوه على الاسلام والشهادة، قلت وما الشهادة؟ قال أخبرني محمد بن الأسود أنه بايعهم على الايمان بالله، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله[2].

وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام، فجلس لهم - فيما بلغني - على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل من مجلسه، فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا. قال فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة لحدثها، لما كان من صنيعها بحمزة فهي تخاف أن يأخذها رسول الله ﷺ بحدثها ذلك، فلما دنين من رسول الله ﷺ ليبايعهن قال

---

(١) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل: ج ٣ / ٤١٥

(٢) المصنف، عبد الرزاق الصنعاني: ج ٦ /٥

«بايعنني على أن لا تشركن بالله شيئا». فقالت هند والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه من الرجال؟ «ولا تسرقن» فقالت والله إني كنت أصبت من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة، وما كنت أدري أكان ذلك علينا حلالا أم لا؟ فقال أبو سفيان - وكان شاهدا لما تقول - أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل. فقال رسول الله ﷺ «وإنك لهند بنت عتبة؟». قالت: نعم، فاعف عما سلف عفا الله عنك. ثم قال «ولا يزنين». فقالت: يا رسول الله وهل تزني الحرة؟ ثم قال «ولا تقتلن أولادكن». قالت: قد ربيناهم صغارا حتى قتلتهم أنت وأصحابك ببدر كبارا، فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرق. ثم قال «ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن» فقالت والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل. ثم قال «ولا يعصينني». فقالت في معروف. فقال رسول الله ﷺ لعمر «بايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم». فبايعهن عمر، وكان رسول الله ﷺ لا يصافح النساء، ولا يمس إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه(١).

بايعنني على أن ألا تشركن بالله شيئا

هذه بيعة النبي ﷺ للنساء، ويوم الفتح الأعظم، فتح مكة المكرمة البلد الحرام، وأنت راء وكيف بدأ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بيعته على ألا يشرك الناس بربهم شيئا، وكلمة شيء هكذا جاءت، وهكذا قالها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يأت في الكلام ما أتى به الناس من بعده، حتى وكأن التوحيد قد ذبلت معانيها، وحتى وكأنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم تماحيك قوم أتوا

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣ / ٦٠٣

من بعد، أو تمحل قوم آخرين، وبما لم يأذن به الله تعالى. وليغطى على هذا التوحيد لله تعالى العلي الأعلى سبحانه، ومن جيل إلى جيل آخر، وحتى وكأنما اندرست أسسه، وحتى وكأنما قد تغايمت أصوله، أو قد تضاببت معالمه، وحتى أصبحت ترى الداعين إلى التوحيد، وكأنما هم الغرباء، ومن بين أقوامهم، وكغربة بلال وصهيب وسلمان أو أشد غربة! ما بين جهالة مرة، وما بين إكراه مرة، وما بين تأويل مرة، وحتى وصلنا بهذا التوحيد في القلوب الى نقطة هي أشبه بالجاهلية الأولى!

وإذ أقول هذا، وإنما تجديدا لمعالم هذا الدين، وأصول التوحيد الذي اندرس أو كاد! وهذا حق هذا الدين علينا، إحياء عقيدته صافية، في قلوب العباد، الحاضر منهم والباد، ودونما كدر، وثم هو حق للأجيال، وهي إذ تتمرغ في موروثات بريء منها دينهم! هذا الدين الذي قضى في بيانه النبي ﷺ عمرا مديدا، بلغ ثلاثة وعشرين سنة، وبالتالي فمحال أن يكون هذا الدين وبهذه الصورة الباهتة!

وإن دينا جاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم به، وبخلع الأنداد، وإزاحة النظراء، واماطة الأمثال، في دعاء أو خوف أو نذر أو طواف أو أمر أو نهي أو حكم أو فتيا أو قضاء أو ما شاكله أو ما شابهه أو ما كان نحوا غاب عنا أو سهونا عنه!

هذا الدين وبشقيه الأساسين، هو الذي كان من قوله صلى الله عليه وسلم آنف الذكر لهند بنت عتبة، وقد أضناها وأرهقها كفرها، حتى جاءت مسلمة مستسلمة، ومن بعد قهر وعناء ومبارزة ومقاتلة، وهذا قولها الذي كان يوم أحد:

نحن بنات طارق　　نمشي على النمارق
والدر في المخانق　　والمسك في المناطق
إن تقبلوا نعانق　　ونفــرش النمــارق
أو تـدبروا نفـارق　　فـراق غيـر وامـق!!

وفي برهـان آخـر أن يوما مجيـدا عليها قـد حـل، وأن استشـرافا لأمثالهـا، أو أعنـت منها قـد أذن، ويـأذن بـه الله تعـالى أبـدا! وفي بـادرة استشـراف أخـرى للخير، وأن داعيـا إليـه لـن يعدمه، ومن ثم فلا يقنط ومن موجبه ألا ييأس، ومن شـرط معرفته الطريق تماما، وكما سلكه، وحين بينه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذان الأساسان هما:

الأول: عبادة الله وحده وبلا شريك.

الثاني: الكفر بما يعبد من دون الله.

ويكأنـه صلى الله عليـه وسـلم، وحين بـدأ بقولـه: بـايعنني على أن لا تشـركن بالله شيئا.

ثم يتبع بقوله الآخر، معددا شرائع الملة، ومن عدم سرقة، واجتنـاب زنـا، وألا يقـتلن أولادهـن، وألا يـأتين ببهتـان يفترينـه بـين أيـديهن وأرجلهـن، وغيره ممـا سـيأتي، فقـد كـان كـل هـذا برهـان المطالبـة بهـذه الشـرائع، ومـن بعـد اسـتقرار

التوحيد في القلوب، أو موازاة، ومن ثم عدم الشرك بالله تعالى العلي الأعلى سبحانه.

وإذ لم تكن هذه هي مناسبة البدء بالتوحيد الأولى، بل كل مناسبة .

وانظر يوم أرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم معاذا إلى اليمن، وكما من حديث الإمام البخاري رحمه الله تعالى، **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: إنك ستأتي قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم، فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**[1].

لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وبعد فتح مكة المكرمة البلد الحرام. وهو مؤذن بحلول يوم مجيد، وحين استظلت مكة المكرمة البلد الأمين برضوان من الله تعالى، وحين جاءها هذا النبي الأمي العربي الكريم صلى الله عليه وسلم، وهي إذ ترفل من بعدها في نعيم الإسلام الحنيف الخالد، ومن بعد عهد طويل وكان قد ادلهم ليله، ومن بعد أن كانت ملة أبينا إبراهيم الحنيفية هي

(١)صحيح البخاري: ١٤٩٦

الباسطة أجنحتها مرفرفة على مكة وأرجائها، وهذا برهان أن ليلا طويلا وإن خيم، وإذ يأذن الله تعالى بميلاد فجر جديد، مستل من هكذا كان ليلا بعيدا بهيما مدلهما، وحين عشعش الشرك، وضرب أطنابه في مكة وأوصالها، ومن إثر ضلال عتيق، سرى في عروقها ودمائها، وإذ كان من سببه أن قوما عبدوا الأحجار، وإذ كان من موجبه أن قوما استقسموا بالأزلام، أو يوم أن حكموا الأساطير والأقوال والآراء بينهم بينا، وحين لم تكن آلة أحدهم إلا وأن عساه أن يعرف شيئا غير هذا! وإذ كان هذا في خارج الإمكانات العقلية، وفوق قدرة التخيلات البشرية، ولذا كان ظلما فعل من فعله، ولذا كان شركا قول من تقوله! في عربدة شركية، وإذ كان أولى لهم أن يحافظوا على إرثهم المجيد، والذي خلفه لهم أبوهم إبراهيم عليه السلام، وإذ كان الحفاظ عليه من موجبات المروءات، وإذ إن عضا عليه بالنواجذ كان من أوليات المهمات، إرثا كريما أبيض ناصعا.

وأقول: إن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قد قال قوله الكريم لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، ولأن عهدا بنيره قد تصرم، وأن زمنا بشركه قد تفكك وتحلل واندرس وانضوت ظلماته، وطويت صحائفه، ومحيت بوائقه، وإذ كان زمنا ناظروا فيه المولى الإله في تحليله، وإذ كان دهرا عارضوا فيه الكريم المتعالي في تحريمه، وإذ حل محله النظر والنور والسرور والصلاح والحبور، وهو ذلك الدين القيم، وحين آبت الفكرة الى ثكناتها، ويكأن القلوب قد عادت الى رشدها، ولما اعتصمت بحبل ربها، وكما قال تعالى **﴿قل إنني هداني ربي إلىٰ صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا ۚ وما كان من المشركين﴾** [الأنعام١٦١].

وحين قال صلى الله عليه وسلم قوله الكريم هذا، وبعد الفتح الأعظم فتح مكة المكرمة البلد الحرام، وإذ لم يعد سبب للهجرة قائما، وهو ذلك الاضطهاد من أبي لهب وأعوانه، وهو ذلك التشريد والتعذيب من الوليد بن المغيرة وأنصاره، وحين دكت حصونهم دكا، ويوم حل عليهم عباد الله تعالى بالتوحيد والحق المبين، وإعلانا عاما بزوال مملكة الشرك والشر، وإيذانا عاما أيضا بميلاد دين الله تعالى الحق، ويوم أن دخل الناس في دين الله أفواجا منيبين إليه واتقَوْه، وأقاموا الصلام، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور.

ومنه فإن سبب الهجرة قد انقطع، وإذ قطعت موجباتها، وإذ نشر الله تعالى هداه على مكة المكرمة البلد الحرام، وكما أختها يثرب النبوية الأبية الأنصارية الكريمة أيضا، ويوم أن ساندوا نبينا صلى الله عليه وسلم، وفي محفل تاريخي، لم يحك التاريخ مثله، أو قريبا منه.

وإذ وكان منه تفرغ الناس لجهادهم عدو الله وعدوهم، وهذا هو محك الإيمان ههنا وصدقه، وهذا هو برهان فعله وعمله، وإذ قد طويت صفحات الألم، وإذ قد نشرت صحائف الأمل، ومن بعد غلبهم أنهم غلبوا، ومن بعد صبرهم وأنهم ظفروا، ومن إثر احتسابهم، وانهم قد نصروا، وإذ وها هي السماء بعونها قد أظلتهم، وإذ وها هي الأرض بعدها قد أقلتهم، وإذ ها هم وإذ يتنقلون ومن مرحلة نصر إلى نصر آخر مظفرا، ويوم أن جاهدوا في الله تعالى ربهم الحق المبين، وكان وكما قال تعالى **﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾** [الروم٤٧]. وكما

قال تعالى أيضا ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ۚ وإن الله لمع المحسنين﴾ [العنكبوت٦٩].

وانتقال الحنفاء من حيز الهزيمة وآلامها، ومن نقلتهم إلى حظيرة النصر وظلالها، هو ذلكم الذي كان منه إشارة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى إحداث نقلة نوعية جديدة، وأخرى في تاريخ هذا الدين، ولما كانت الحركة والإيجابية من أولى خصائصه، فلا يقعد، وإذ كانت المبادرة ومن أولياته وأبجدياته فلا يرقد! وحين سطر هذا النبي حقبة مجيدة جديدة من حلقات تاريخ هذا الدين، والمتصلة وفيما بينها برباط الاتصال، ووشائج العطاء والبذل، وعلى أي وجه كان في الله تعالى عطاؤهم وجهادهم وبذلهم وتفانيهم واخلاصهم وصدقهم وعملهم البر الكريم. وإذ ها هم ينفضون عنهم دعة، ربما كانت مبررة، ولو ومن وجه، ومن بعد جهاد وكفاح، استمر ثلاثة وعشرين سنة كاملة، ولم يضعفوا ولم يستكينوا، وحين علموا أن الحق لله!

والذي كان منه ذلكم البذل الكريم، واستصحاب نية الخير، نية العمل لله، وهو الذي أشار إليه نبينا صلى الله عليه وسلم وفي قوله ولكن جهاد ونية، وفي بيان عالمي، وفي إعلان نبوي، أن اللحظة الفارقة هي النية، وفي اصرار محمدي أن هذه العقيدة، وحين كانت لله تعالى وحده، صافية من كدر، وإذ لم يتلبسها ولو هنة من عكر، فكانت به مميزة، وإذ ألفيناها به مؤطرة، وإذ لم يتبق في النفس ولو شيئا، وما يمكن إطلاق اسم الشيء عليه، وحين لم يكن لله!

ولأن الله تعالى ليس يقبل من العباد أعمالهم، وإلا ما كان منها صوابا وعلى الشريعة، وإلا ما ألفاه منهم مخلصين له فيه الدين، ولو كره المشركون، حنفاء لله

غير مشركين به شيئا. وإذ كان الله تعالى رب البرية وما برأ، وخالق النسمة وما أبدع، وهذان هما اللذان منهما مدار الفتح المبين، واللذان عليهما مدار القبول والصلاح والفوز والتمكين، ولأن الله تعالى، وحين يعلم صدق الناس في بذلهم، وإذ لازال مهيمنا على أفئدتهم وقلوبهم، وإذ قد خلت من غيره تعالى، ولو شيئا من عملهم وبرهم، وإذ كان لسواه، وإذ ههنا ترتطم سفينتهم بصخرة تحطمها، وإذ ومن إثره يكون الغرق، ومنه الهلاك المحقق، ولكنه تعالى وإذ أراد بهم خيرا، ويوم أن خرجوا لله تعالى، فكان من ذلكم له عونهم، وإذ لم يكلهم إلى أنفسهم، ولو طرفة عين واحدة، وههنا- وههنا فقط- يتلبسون بالرضوان، ويتنعمون بالفوز والنعيم الخالد في الجنان، وإذ هذان صنوان لا يتحققان، وإلا يوم أن قال الله تعالى ربنا الحق المبين﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضىٰ لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناۚ يعبدونني لا يشركون بي شيئاۚ ومن كفر بعد ذٰلك فأولٰئك هم الفاسقون**﴾[النور٥٥].

وأقول أن مدار الجهاد وصولاته وجولاته قائم على النية، ولأن هذا الدين كان من ميزته النية، وإذ كانت من تفرده الوجهة لله تعالى العلي الأعلى سبحانه، وحده لا شريك له.

ولأن هذا الدين، وكما قلت ومن طبيعته الحركة والإيجابية، وإذ كان منه قوله صلى الله عليه وسلم وإذا استنفرتم ألا فانفروا. وفي برهان آخر على الحق على النفرة، وفي سبيله تعالى الحق المبين سبحانه. وفي إشارة أخرى على استشراف هذا الاستنفار، ولله تعالى أيضا، وليس هذا فحسب، ولكن لأنه ولابد

من تسليم الراية، وكما استلموها من رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم، فلا يعرفون كسلا ولا يعرفهم، ولا يعتريهم وهن ولا يتداركهم، ولا تخالهم إلا دعاة بالحق وبه يعدلون، من نهارهم أن وجد، ومن ليلهم أن حدث، وفي عمل دؤوب منظم كريم، وحين يسلمون هذه الراية، وعلى هذا الوجه، وإذ كان قمن أن يسلمها، ومن أخذها، وعلى وصفها، ومن نعتها، وعلى مقاسها ووزنها ووسمها وشكلها ولونها! وإذ لا يغيرون، ولا يبدلون، وفي إشارة إيجابية أخرى، وأنهم على العهد سالكون، وعلى الطريق والسبيل ماضون.

هكذا في تسلسل متتابع، ليس يقبل إلا اتصالا، وهكذا في تواتر، ليس يعيبه انقطاع. ولما كان هذا موجب تمسك الأجيال، وحين قد ورثوها كابرا عن كابر.

لكن السؤال ما زال مطروحا: وهل إذا وجد سبب الهجرة من بعد ذلك فيتحقق معه القياس عليها ولاتحاد العلة؟

والجواب: أن أدلة الشريعة تبيح ذلك، ولتضمنها معا، وحين كانت مزايلة الكفر شرعا، ولما كانت مفاصلة الشرك دينا، ولقوله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية إلى خثعم فاعتصم ناس بالسجود فأسرع فيهم القتل فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأمر لهم بنصف العقل وقال أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين. قال وا يا رسول الله ولم قال لا تراءى ناراهما[١].

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ١٦٠٤. خلاصة حكم المحدث: صحيح دون الأمر بنصف العقل.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن عائشة أم المؤمنين قالت **قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الهجرة، فقال لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**[(١)].

والبراءة إما من دمه وغرامة ديته، وإما منه في الدين والإيمان، وجهة تعظيما وإنكارا لمقامه بينهم، وعلى حد قوله صلى الله عليه وسلم: من حمل علينا السلاح فليس منا[(٢)].

و" الله تعالى جبل بني آدم، بل سائر المخلوقات، على التفاعل بين الشيئين المتشابهين، وكلما كانت المشابهة أكثر؛ كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم، حتى يؤول الأمر إلى أن لا يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعين فقط .

ولما كان بين الإنسان وبين الإنسان مشاركة في الجنس الخاص، كان التفاعل فيه أشد.

ولأجل هذا الأصل وقع التأثر والتأثير في بني آدم، واكتساب بعضهم أخلاق بعض بالمعاشرة والمشاكلة والمجانسة والمجالسة.

كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى، هم أقل إيمانا من غيرهم ممن تجرد لهذا الإسلام.

وكل ما كان سببا إلى مثل هذا الفساد فإن الشارع يحرمه، كما دلت عليه الأصول المقررة[(١)]

---

(١) صحيح مسلم: ١٨٦٤

(٢) صحيح ابن ماجه، الألباني ٢١٠٤. وأخرجه مسلم (١٠١) مطولا.

وقال " حديث (من جامع المشرك أو سكن معه فهو مثله) وحديث (أنا بريء من مسلم بات بين ظهراني المشركين) هذان الحديثان هما من الوعيد الشديد المفيد غلظ تحريم مساكنة المشركين ومجامعتهم، كما هما من أدلة وجوب الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وهذا في حق من لم يقدر على إظهار دينه . وأما من قدر على إظهار دينه فلا تجب عليه الهجرة، بل هي مستحبة في حقه . وقد لا تستحب إذا كان في بقائه بين أظهرهم مصلحة دينية من دعوة إلى التوحيد والسنة وتحذير من الشرك والبدعة علاوة على إظهاره دينه[٢].

لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة فمن كان في بلاد الشرك واستطاع أن يهاجر فعليه أن يهاجر كما قال الله سبحانه ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا * إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا﴾ [النساء٩٨-٩٩].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية: إن الآية تدل على وجوب الهجرة قال وذلك مجمع عليه بين أهل العلم أن الهجرة واجبة على كل من كان في بلاد الشرك وهو لا يستطيع إظهار دينه فإنه يلزمه أن يهاجر إلى بلاد إسلامية أو إلى بلاد يستطيع فيها إظهار دينه، إلا من عجز كما قال تعالى ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة [النساء٩٨] يعني بالنفقة، ولا يهتدون سبيلا﴾ [النساء٩٨] يعني لا يدرون الطريق لا يعرفون الطريق حتى

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية: ١ / ٤٨٧ – ٤٨٨

(٢) كتاب فتاوى ورسائل، محمد بن إبراهيم آل الشيخ: ١/٩١ – ٩٢

يذهبوا. ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم﴾ [النساء٩٩]. وإذ إن (عسى) من الله واجبة.

...

قال الله تعالى ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى﴾ الآية [الحديد: ١٠].

وهذه هي الآية العاشرة من سورة الحديد. ولما ناسب اسمها، ومن حيث ذكر الحديد فيها، ولأن فيه بأسا شديدا، ومنافع للناس، ولا يخفى.

بيد أن مناسبة ذكر هذه الآية، وعلاقة متينة رسوخ الجبال الرواسي الشوامخ، وبين الفتح المبين، فتح مكة المكرمة البلد الأمين، ليشي بأن هذا القرآن الحكيم، هو من عند الله تعالى العزيز الحكيم، وذلك مناسبة أن الحديد مما منه تصنع الآليات المدمرة، والمجنزرات الهائلة، والتي يرعب بها الأعداء، والتي منها يفر الخصوم، والتي منها يذعن المناوؤن، والتي منها يرهب ويخاف المشركون، ولعلهم من بعد كفرهم يسلمون، ويؤمنون ويذعنون، وبلا قطرة دم واحدة تهراق، ولأن هذا الدين كان، وإذ لا يزال بلسما، وهو من ثم لأدواء القلوب شفاء وترياق.

وهذا الذي حدث يوم الفتح الأعظم، فتح مكة المكرمة البلد الحرام، وإذ كان عداد القتلى، ومن يومه قليلا، ومن طرفي النزاع، وقياسا على عظم ذلكم اليوم، واعتبارا من كبر يومهم هذا، وإذ كان يوم فرقان جديد، في تاريخ هذا الدين، بل وفي تاريخ هذا الوجود كله، ولحسمه مادة الكفر، عن مكة المكرمة

انقشاعا، ولحسمه مادة الإسلام، ومن يومها انتشارا وانبلاجا واتساعا، وكأنما فجر قد لاحت أنواره، وحين حل نهار الهدى، وقد انتشرت وفاحت نسائمه وأضواؤه، ومن بعد ليل بهيم مدلهم أرخى على مكة سدوله عمرا مديدا، وزمنا تليدا!

وأقول إن هذا الحديد شأنه أبو الصناعات، ولأجل له كان طويلا مديدا أيضا، وانظر صناعة من غيره، وكاللدائن ومصيرها، وحين تعتريها عوامل الاضمحلال الذاتي، فتصير هلامية ذائبة منتهية متحللة، ومن تلقاء نفسها آية أخرى!

لكن هذا الحديد يبقى ولا يفنى، وكفناء غيره من الفلزات، أو ما غايره، ومن دونه من أشباهها، أو تلك التي يدعونها اللافلزات، في إعجاز ممهور بتواقيع الإسلام الخالد، وحين أنزل الله تعالى الحديد إنزالا من لدنه! وفي إعجاز آخر ممهور بالتزام الخرور والسجود والخضعان، وحين كان إنزاله، وعلى ذلكم وجه!

هذا، ولهذا أيضا، ومن غيره معه، مما علموا، ومما لم يعلموا، وما سوف يكشف عنه العلم يوما ،ومن بعد يوم آخر! وليعلم الناس طلاقة خلق ربهم الحق المبين، وحين كان اختيار الحديد، ومن دون ما سواه، ولهذا البأس الشديد، والبالغ في قوة بأسه، والضارب في شدة بطشه، وحين كان منه آليات وعوامل وصناعات، وإذ صنعت منه الذخائر والمتفجرات، وحين كان منه هياكل القنابل النووية، أو مجسمات أخواتها الهيدروجينية،، ومن أحسن من الله صنعا، وكما قال تعالى **﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء ۚ إنه خبير بما تفعلون﴾** [النمل٨٨].

هذا الحديد المختار ومن بين مائة وثلاثة عناصر، هي مكونات الجدول الدوري للعناصر، وكما أسماه مبتكره العالم مندليف، ولسنا ندري، ولعل الله

تعالى يفتح على غيره آية أخرى، وبجداول أخر، ومن ضمنها عناصر أخر!! ومن يدري ؟!

ولأن الحديد قد تنزل، ومما يعتقدونه الناس يومهم هذا، ومن النجوم العماليق من السماء!! ومنه فقد تفتق ومن أمامنا، ومن خلفنا، وعن أيماننا، وعن شمائلنا، وفي حسنا، ذلكم الإعجاز في قوله تعالى ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ۖ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ۚ إن الله قوي عزيز**﴾ [الحديد٢٥]!!

وإن ذلكم آية عظمى، وقيمة قصوى، وحين نظرك أن مكث المخلوقات على الأرض وبقائها فيها، وعليها ودون غيرها، من الكواكب الأخرى، وهنا ندرك عظمة الخالق، وخلقه، وكيف كانت مادة الحديد ومن سببها كانت الجاذبية الأرضية المغناطيسية وبسببه!! وهنا ندرك مرة أخرى، ولم كان الحديد مختارا، ومن دون غيره حدسا قرآنيا معجزا فريدا مبهرا مجيدا !!

ويتأكد هذا الإعجاز ويزدار تأثيره، ويتضاعف أثره، وحين قالوا إن مادة الحديد والتي يبلغ نسبة كتلته في الأرض، ومن بعد سقوطه أو إنزاله، وقد بلغت في تقديراتهم، والمرشحة أن تزداد، وعما قيل: بأن كتلتها الآن هي ما يعادل اثنين وأمامها واحد وعشرون صفرا!!!!

والحديد عنصر فلزي شديد البأس، وهو أكثر العناصر ثباتا؛ وذلك لشدة تماسك مكونات النواة في ذرته، التي تتكون من ستة وعشرين بروتونا، وثلاثين نيوترونا، وستة وعشرين إليكترونا؛ ولذلك تمتلك نواة ذرة الحديد أعلى قدر من

طاقة التماسك بين جميع نوى العناصر الأخرى؛ ولذا فهي تحتاج إلى كميات هائلة من الطاقة لتفتيتها، أو للإضافة إليها. ويتميز الحديد من بين جميع العناصر المعروفة بأعلى قدر من الخصائص المغناطيسية، والمرونة -القابلية للطرق والسحب والتشكل- والمقاومة للحرارة، ولعوامل التعرية الجوية، فالحديد لا ينصهر قبل (١٥٣٦) درجة مئوية، ويغلي عند (٣٠٢٣) درجة مئوية تحت الضغط الجوي العادي عند سطح البحر، وتبلغ كثافة الحديد (٧. ٨٧٤) جرام للسنتيمتر المكعب!

والحديد لازمة من لوازم بناء الخلية الحية في كل من النبات والحيوان والانسان؛ إذ تدخل مركبات الحديد في تكوين المادة الخضراء في النباتات (الكلوروفيل) وهو المكون الأساسي للبلاستيدات الخضراء، التي تقوم بعملية التمثيل الضوئي اللازمة لنمو النباتات، ولإنتاج الأنسجة النباتية المختلفة من مثل الأوراق والأزهار، والبذور والثمار، والتي عن طريقها يدخل الحديد إلى أنسجة ودماء كل من الإنسان والحيوان.

والحديد يدخل في تركيب بروتينات نواة الخلية الحية الموجودة في المادة الحاملة للشفرة الوراثية للخلية -الصبغيات- كما يوجد في سوائل الجسم المختلفة، وهو أحد مكونات الهيموجلوبين، وهي المادة الأساسية في كريات الدم الحمراء، ويقوم الحديد بدور مهم في عملية الاحتراق الداخلي للأنسجة والتمثيل الحيوي بها[(١)].

---

(١) بغية السائل من أوابد المسائل، وليد المهدي: ١٩٩٤و١٩٩٥

وعود على بدء، فإن اختيار مادة الحديد كان مناسبا ليوم الفتح الأعظم، فتح مكة المكرمة البلد الحرام، وكما أنف بيانه، وقد كان أولا.

وأما ثانيا: فهو ذلكم التفاضل بين رعيل كان أولا، وحين كان فتح مكة المكرمة البلد الحرام، وعلى أيديهم، وحين كانت يد الله تعالى فوق أيديهم، ولما أنفقوا من أموالهم، بل جلها، بل كلها، في سبيل ربهم الله تعالى الحق المبين سبحانه، وهذا، وفي وقت يتساوى معهم فيه، ومن جاء من بعد الفتح، فأنفق ماله كله، أو جله، أو بعضه، وقاتل في سبيل الله تعالى أيضا!!

لكننا وما زلنا وأمام هذا الإعجاز، وفي عدم مساواة من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومع من أنفق من بعد الفتح وقاتل!!

وكما هو بين، فإن الناس الذي أسلموا لنا مفاتيح الكعبة المشرفة، وشرفها الله تعالى، زمنا، ومن بعد ركام هائل، كان قد غطى عليها، ومن إثر زمن ضارب في أعماق التاريخ كله، ومما كان معه يمكن أن يحال تصور يوم، يمكن أن تندك فيه أصنام الكفار، وقد كان صعبا تخيل مجيء يوم يمكن منه أن تنهد فيه أوثان الفجار، وبمثل هذا الانهيار، وأمام هذا الانبهار، مما حدث يوم الفتح الأعظم فتح مكة المكرمة البلد الحرام!

وهنا ندرك لم كانت المفاضلة، وهنا نعي لم كانت المفارقة!

وكما وأن فيه آية للدعاة، وأن فيه سبيلا للعاملين، أن تتفتح ومن أمامهم طاقات البذل، تفاؤلا بميلاد يوم نصرهم، وإن يوم نصرهم لقريب، وفي استبشار آخر، مما حمله القرآن الحكيم، ويوم جاءت كلمة النصر، وكلما جاءت مفردته

في القرآن الكريم، وإن كان من وصفه وإنه لقريب، وكما قال تعالى ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ [البقرة٢١٤].

وبيد أننا نقف قليلا، وأمام هذا الأدب النبوي الكريم، وحين جاء حديثه وخبره بالخيرية لكل من أنفق من قبل الفتح وقاتل، وكذا من أنفق من بعد وقاتل وكلا وعد الله الحسنى، وعلى نظم القرآن الحكيم أيضا.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالي عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال لما نزلت هذه السورة { إذا جاء نصر الله والفتح. . } قرأها رسول الله حتى ختمها، وقال «الناس خيروأنا وأصحابي خير[1].

لا أعلم منها إلا ما يقول!

هذا قول سيدنا الإمام الأمير عمر الفاروق. وموافقا فيه مذهب الإمام الحبر الترجمان عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وهذا مناسبة نزول قوله تعالى ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح • ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا • فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ [سورة النصر١-٣].

وهذا برهان أن هذه الأمة ميمونة بأفرادها، وحين يكونون ذوي قلوب متصلة بالله تعالى العلي الأعلى سبحانه. فتراهم يستنبطون دررا، وهذا في وقت

(١) الدر المنثور، السيوطي: ٦/٤٠٦

وصم أخرون بأن قلوبهم شتى، وإن حسبتهم، ولأول وهلة جميعا! وإلا أن قلوبهم متفرقة، ومتشعبة، ومختلفة، ومتنافرة، ومتباغضة، وعلى حد ما قال الله تعالى ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]. وإلا أنك تحسب عباد الله تعالى إخوانا متحابين متآلفين، وإذ هم من تفرداتهم أنهم وكأنما كانوا على قلب رجل واحد! وهذا الذي نتنسم شذاه من قول عمر الفاروق، آنف الذكر، وموافقا فيه قول الإمام الحبر الترجمان عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ولكنك تلفاهم أمة متاضمة، متحابة، مؤتلفة، غير مختلفة، وحين كانت قلوبهم غامرة عامرة بمحبة ربهم سبحانه، ولما كانت هذه المحبة مقدمة على محبة ما سواه، وإذ كان مصداق هذه المحبة هو الاتباع لا الابتداع. ولأن عقول الناس تشطط بعيدا بعيدا، وحين تترك لنفسها هذا العنان الخائب الخاسر! ولكن قوله تعالى فصل في المسائل، وحق في المعضلات، وكذا رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وحين يلف أحدهم حولها ويدور، ولما أعياه طريق الاستحسان العقلي، وبدل أن يؤوب ويعود ويرجع وليستسلم لله تعالى الحق المبين، وإذ وكأنك تراه يروغ ويروغ، وإلا يبتدع! وإلا يستحسن! وليس يدري المسكين أن هذا اسمه (استدراك على الله)! وتحت سقف هاو فارغ مفرغ، إلا من جعل وبين مقصلتي البدعة والجهل البينين، وإذ كان يمكن حل المسألة في إسلاس وقياد، كانا هما عنوان العبودية لله، وحين علموا أن الحق لله، وليس لآحادهم فيه من شيء.

إن ما جعل علومنا فضفاضة، هو ذلكم الاستحسان العقلي، والذي ليس من ورائه إلا جرف هار، ينهار به من حفره أول مرة، وليكون أول الساقطين فيه، وكما قد أسقط نفسه في براثن غواها، وأتبع نفسه هواها؛ ليردى!

إن شبهة عارمة سقط الناس في حفرتها العميقة، وإن تأولا بعيدا أهوى الناس أنفسهم في هوته السحيقة، وحين اخترعت لهم آلات الاستحسان العقلي، وما هو بعقلي، وحين خدرهم بالعمل في مظلة المتاح! وإلى أن يحين - وإن حان- وقت الغير متاح!

وهكذا في ابتداع آخر، يتلوه ابتداع، حتى يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى!

وإذ نحن أمام توحيد قد اندرس، أو كاد، وإذ نحن أمام عقيدة في الله تعالى ربنا قد أطبق عليها، أو كاد! وكان الأصل هو تجديد البيعة لله تعالى عليها أولا، وجعل هذا هو السنن، ولأنه هو السنن، وأما غيره فهو الغبن المطبق، وهو الشأن المختلف المطلق.

وانظر وكيف كانت بيعته صلى الله عليه وسلم يوم الفتح الأعظم، فتح مكة المكرمة البلد الحرام، وفي غير يوم الفتح المبين، فتح مكة المكرمة البلد الأمين، وأنه كان مركبا تركيبا يشي بأهمية التوحيد وإعماله، أولا وثانيا وثالثا، وليس يتزحزح داع عن ذلك شيئا، وإن قيل: وإن قيل: ، ولأن البيت لا يدخل إلا من بابه، وإذ يعد الداخل من شباكه لصا يقام عليه الحد!!

وسبق حديث الإمام أحمد أن محمد بن الأسود بن خلف أخبره أن أباه الأسود رأى رسول الله ﷺ يبايع الناس يوم الفتح، قال جلس عند قرن مستقبله

فبايع الناس على الإسلام والشهادة. قلت وما الشهادة؟ قال أخبرني محمد بن الأسود بن خلف أنه بايعهم على الإيمان بالله، وشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله[1].

أعود فأقول إن علما للفاروق كان مساويا لعلم الإمام الحبر الترجمان عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهم أجمعين، يجعلناه واقفين مبهورين، ولأسباب، منها:

السبب الأول: هو ذلكم التوافق العقدي والانسجام القلبي بين هذين القلبين، والذي منه كان مصداق قول الله تعالى **﴿إن هٰذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾** [الأنبياء ٩٢].

السبب الثاني: هو ذلكم الفارق الزمني في العمر بين هذين الرجلين الصحابيين الكريمين الألمعيين العبقريين، واللذين أفرزت أمة وكمثليهما، وعلى قلب رجل واحد، عز في الوجود مثله، وإلا من طراز هذه الأمة الميمونة.

السبب الثالث: وهذا الذي كان منه اعتراض بعض من قوافل الصحب الكريم، وعلى وجود الإمام الحبر الترجمان، ومن حلقة أشياخ بدر! وحين رأى الفاروق بعض امتعاضا من بعضهم، وإذ قد لمح اعتراضا من قولهم، ولم يجلس هذا ابن عباس مع من قال فيهم نبيهم صلى الله عليه وسلم لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم[2]؟! وهذه كانت لوثة، أراد الله تعالى وبسبب الفاروق أن تمحى من قاموس أولاء الناس، وقد أعدوا

---

(١) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل: ج ٣ / ٤١٥

(٢) صحيح البخاري: ٤٨٩٠

إعدادا لقيادة البشرية، وليس يمكن السكوت على هكذا لوثة، ليستشري سمها في عروق أمة قد خلت، وأنها هي الأمة المرشحة لقيادة العالم، ولما كان هذا شأنها، فوجب تطهيرها أولا بأول، ومما يمكن أن يحصل عادة في أي ائتلاف اجتماعي، وإذ وقف له الفاروق موقفا مهذبا موفقا، في تربية عملية، كان السبب والفضل فيها راجعين لهذا الدين، وحين قدم بين لديهم مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم، والتي خرجت هذا الإمام الحبر الترجمان، وليكون قوله قولا مسودا سديدا، وليكون علمه علما حكيما مجيدا، وها هو قد فاق أشياخ بدر! وحين سألهم الفاروق، وإلا ليريهم - فقال ما تقولون في قول الله عز وجل { إذا جاء نصر الله والفتح }؟ ولربما أطبقوا على أن المراد منها هو التسبيح بحمده تعالى واستغفاره والتوبة إليه، ولأن الناس قد دخلوا في دين الله أفواجا!!! وحين قال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وإذ سكت بعضهم فلم يقل شيئا.

وهذا لاشك أمر ميسور، ولدى كل مطلع على السورة، وللوهلة الأولى، وبالتالي فقد قال وا قولا حقا، ومنه فقد أدلوا علما صدقا!!

بيد أن القرآن الحكيم حمال، وهذا من سبب جماله، وحميد أسراره!

وحين كان استنباط الإمام الحبر الترجمان، ما خلا عنه أشياخ بدر!

وحين قال قولا، وأسرد فهما، وأدار استنباطا، كان منه فهمه أن هذا هو قرب أجل رسول الله ﷺ!! ومن ثم ليوافقه الفاروق، وأنه يعلم منها ما علمه ابن عباس، ثم ليسأله الفاروق نفسه، وكيف حصلت على هكذا استنباط، وكيف تميزت عن هؤلاء أشياخ بدر؟!!وليقول رضي الله تعالى عنه بلسان سؤول وقلب

عقول، وحتى كان من الفاروق وكلما جاء ذكر الإمام الحبر الترجمان يقول عنه عنه ذلك فتى الكهول، له لسان سؤول، وقلب عقول !

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن ابن عباس قال كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟! فقال عمر إنه من قد علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رئيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، قال ما تقولون في قول الله تعالى **{إذا جاء نصر الله والفتح}**؟ فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال لي أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت لا، قال فما تقول؟ قلت هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له، قال **{إذا جاء نصر الله والفتح}**، وذلك علامة أجلك، **{فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا}**، فقال عمر ما أعلم منها إلا ما تقول[١].

ألا تغطون عنا است قارئكم؟

هذا قول امرأة مسلمة، صلت خلف الرجال، وإذ إن هذه هي سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ودرء للفتنة، واحتراما للقيم، وتنزيها للشيم، ورفعا للرؤوس، وحين تكون مقبولة بقلوب غامرة عامرة برفع قيمة التستر، والتحجب، والاحتشام، برهانا على العفة ودليلا على التعبد لله تعالى العلى الحق المبين سبحانه، وحين كانت القلوب متصلة بالله تعالى وليها ومولاها، وهذا الاستتار عن

---

(١) صحيح البخاري: ٤٩٧

أعين الرجال هو الفضيلة، لا جزؤها بل كلها، وحين كانت المرأة في مقاييس هذا الدين جوهرة، مصونة، مكرمة، معززة، محترمة، مرفوعة فوق الأكف والرؤوس والهامات، ولأنها سكن رجال الأمة، بنتا وأما وأختا وزوجة وخالة وعمة، وفي هذا الدين وحسبك، تجد هذه المكانة العالية الرفيعة السامقة الأبية للمرأة، وحين كانت في غيره إسفافا وإهانة وتوهينا، ولما كانت حرية، ولا حرية! وحين كان هذا الشعار المستعار هو بين في وضوحه، وحين كان لاستلابها كرامتها وعزتها، وعدم القيام على مؤنتها، حتى ضاقت بها مجتمعاتها، ولم تحن عليها، يوم أن كانت سكنا ولباسا وإعفافا، ومصدر الوالد والولد والبنت والأم والأخت والأخ والعم والخال!

وأقول وهذه امرأة صلت فرضها، ومن حيث كانت قد آمنت بالله تعالى ربها ربا خالقا ورازقا ومحييا ومميتا، وبيده تعالى وحده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وكما قال تعالى **﴿قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون﴾** [المؤمنون٨٨]. ومنه فقد أفردته بألوهيته آمرا وحده، وناهيا وحده، وحين حددت مصدر تلقيها، وإذ كان من هذا الرب الكريم القوي العزيز القادر الحكيم الخبير، الذي به قد آمنت، وله قد خضعت، وله استكانت، وتضرعت، وخشعت، وأنابت.

وهذه المرأة كانت مثالا للتوحيد، وكانت قدوة للعبيد وحين أفردت ربها ومن معها يومها هذا ربها بالربوبية والألوهية، وكما كانت مثالا للعفة. وحين نادت صوتا، وإذ كان يكاد خافتا، ليس يعلو؛ قيمة للصلاة، وهيبة للمسجد، ووقارا أمام الرجال، يومها هذا، وغير يومها هذا، أن: ألا تغطون عنا است قارئكم؟ وفي نداء العفة بأصولها وفروعها، وفي صوت الحكمة من قيعانها، وحين علمت بفطرتها، أن هكذا يكون هذا الدين، مصدرا لستر العورات، وموئلا للعفاف

والإحصان، والآداب الحميدة والمروءات، وكريم النعوت، وجميل الصفات، دينا قيما كله، وحين أعلى للمرأة من قيمتها، ولما أضحى لها راعيا، وحين أصبح لها متوجا تاج وقارها، وملبسها رداء سترها، وعفافها، وسترها، محبة للرحمن، وطاعة للديان، ورغبة في التوبة والغفران، وتوقا للجنان، وهروبا من السعير والنيران.

وبيد أن هذا المشهد أخالني مستحضرا إياه، وحينه كان ملفوفا بلفاف الهدى، وموشحا بلباس التقوى، وحين أقام الناس صلاتهم، وحين أدوها وعلى وقتها، قلوبا خاشعة، وصفوفا راكعة، ساجدة قانتة لربها العلي الأعلى سبحانه.

ولأنها وقفت عند النص، وحين قال الله تعالى ربها وربنا ﴿فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾ [النساء١٠٣].

وقيمة النص هكذا، عاملة في قلوب القوم عملها، وحين لبوا نداء ربهم الحق المبين، خاشعين متدبرين طائعين راضين، وإذا وجدوا في صلاتهم الراحة والطمأنينة والأمن والسكينة، وحين تنزلت عليهم من عل، وما أدراك ما عل؟ إنه من حيث كانت القدرة المطلقة، ومن حيث كانت وإذ تكون الربوبية النافذة، حين الناس هذا، وكل حين آخر، من يومهم أو غدهم، أو مستقبلهم القريب المستور، أو من آخر كان بعيدا غير منظور! وحين كانت من الله تعالى العلي الأعلى سبحانه وتقدس وجل وعز وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره. وإذ لم ينسوا حديث رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم وحين قال يا بلال أقم الصلاة، أرحنا بها[١].

وإذ هم في طريقهم وأنها فرض ربهم، وأنه تعالى الغني، فلا تزيده طاعة مطيع مقبل، ولا تنقصه معصية عاص مدبر. ومصداقه في حديثة تعالى الى العباد، الحاضر منهم والباد، وحين قال النبي صلى الله عليه وسلم، فيما روى عن الله

(١) صحيح أبي داود، الألباني ٤٩٨٥

تبارك وتعالى أنه قال يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع، إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار، إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي، فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا، فليحمد الله ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه. وفي رواية إني حرمت على نفسي الظلم وعلى عبادي، فلا تظالموا[١]

ولأنها أعمال العباد، وخيرها إليهم راجع، وشرها عليهم، ووبالها إليهم.

وإلا أن الصلاة، وعلى نحو سبق ذكره، ولأنها وعلى وقتها، وهذا كاشف عن معنى الالتزام، وكما أنه كم كان مبينا عن مضامين الطاعة والانقياد والانضباط والانخراط في منظومة تدريبية على النظام، ويكأن كل الكون خلق منظما ومرتبا، وكان منه شأن الصلاة، تخريجا لأمة عماد أمرها النظام، وأساس عملها الانضباط.

---

(١) صحيح مسلم ٢٥٧٧

ولكننا لسنا نغادر هذا الموضع إلا ببيان شأن القرآن الحكيم، وحين كان وساما على رؤوس أهله، وحتى تبوأوا به أرفع المقامات، وحين جعلوا به أئمة، وحين كانوا به يقرأون، ويرتلون، وبه يحكمون، ويعملون، ويعدلون.

وإذ ليس كانت ترانيم، لا تعدو حنجرة، وإذ لم يكن صوتا مرتفعا مرة، وأخرى منخفضة، في بدع من الأمر، أخرج القرآن عن رسمه، وتعداه عن إلفه، وتحول به عن غير ما أنزل لشأنه تدبرا، وحين أنزل للحكم والعمل والاتباع، لا سوقة في المآتم والحفلات، فأولاء مرجعهم إلى الله تعالي مولاهم الحق المبين، وليحكم فيهم حكمه، وكذا من استأجرهم، ونصب لهم الصيوان!!!

وإذ ليس ههنا يقبل قول محض عقلي، وإذ كان بعيدا عن أنوار النصوص القرآنية، وإذ كان مناوئا للأحاديث النبوية.

وليس يغرنك قول قائل إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله! (١) .

ولأن هذا مجاله رقية أو تعليم أو نحوه، مما كان للأمة مفيدا، راجعا بخيري دنياهم وأخراهم، وعلى دليل وبرهان، لا استحسان عقلي، وهو ذاك الذي أورد الناس الموارد!

فعن أبي سعيد الخدري **انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء، فقال بعضهم لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا؛ لعله أن يكون عند بعضهم**

(١) صحيح الجامع، الألباني ١٥٤٨

شيء، فأتوهم، فقال وا يا أيها الرهط، إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء، لا ينفعه؛ فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم نعم، والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلا، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه، ويقرأ (الحمد لله رب العالمين)، فكأنما نشط من عقال ، فانطلق يمشي وما به قلبة، قال فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم اقسموا، فقال الذي رقى لا تفعلوا حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له، فقال وما يدريك أنها رقية؟ ثم قال قد أصبتم، اقسموا، واضربوا لي معكم سهما. فضحك رسول الله ﷺ(١)

وإذ ما كان هذا البدع معروفا، وإذ ولربما لم يكن في عقد الأولين الأفضلين متصورا حدوثه، أو ممكنا ورده! ولأن الناس قد أحدثوا من بعد نبيهم محدثات مبتدعات، ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ [الجن٢٣].

ولكننا أيضا نقف، وبكل إكبار لهذا الدين، وحين قدم صبيا عمره ما تجاوز ستا أو سبع سنين؛ ليؤم أمة محمد صلى الله عليه وسلم يومه ذلك!!! وفي برهان آخر أن قيمة العبد ليست في سنه ولا عمره، وإنما فيما قدمه لهذا الدين، وفيم انتصب له، وحاله أنه عرف أن الله تعالى هو الرب الإله القادر العزيز الجبار المتكبر سبحانه.

---

(١) صحيح البخاري ٢٢٧٦

وكما أنه تجوز إمامة الصبي وحكما، وكما أنه تجوز صلاة النساء في المساجد، وإنما خلف صفوف الرجال. وإنما كانت رؤيتهن است صبيهن، ولربما كان من فرجة، أو أن العدد كان قليلا.

وكما أن فيه شرط ستر العورة في الصلاة.

وكما أن فيه فقه نساء الأولين بأمور دينهن، قدوة تحتذى، وأسوة تقتدى.

وكما أن فيه قيمة الأذان، وحين كان أمر به من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وفيه جواز مخاطبة النساء الرجال، وكما جمعا بينه وبين دلالة القرآن الحكيم، وحين جاز به سؤالهن متاعا، وعلى شرطه، وجمعا بين الدلائل أيضا، وكما قال تعالى ﴿ **وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ۚ ذٰلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن**﴾[الأحزاب٥٣].

وفيه إعانة الفقير، وكما اشتروا لصبيهم إمامهم قميصا، وهذه أخلاق أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وتلك مأثر المسلمين، يغيثون ملهوفا، ويعينون محتاجا، ويساعدون معدما، وينتشلون غريقا، ويضمدون مجروحا، ويداوون مكلوما.

لكنك ناظر بعيني رأسك، وكيف أن صبيا كهذا رأينا كم قد كان هذا لباسه! وفي إشارة إلى رضا القوم بقيمة منحة ربهم وعطائه يومهم هذا، ويوم الناس هذا أيضا، ولأن من خير الناس من رزق الرضا بمعطيات مولاه، وأن من أتقاهم من علم أن الآخرة هي خير وأبقى.

وانظر مصداق قولنا ما كان من شأن الصبي وحين اشتروا له قميصا -قميصا واحدا!!- وكيف كان به فرحه، وكيف كان به رضاه!!! سترا لعورته، وفرحا بقميص كان واحدا! وهو فرحة صبي، وغير صبي، وحين يلبس جديدا.

ولينظر أحدنا كم في دولابه من قمصان!! وماذا هو فاعل وأمام فعل صبي؟! وماذا هو قائل ومن وراء قول صبي تراوح عمره بين السادسة والسابعة؟!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى **عن أيوب، عن أبي قلابة، عن عمرو بن سلمة، قال قال لي أبو قلابة ألا تلقاه فتسأله؟ قال فلقيته فسألته، فقال كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم ما للناس؟ ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون يزعم أن الله أرسله، أوحى إليه -أو أوحى الله بكذا- فكنت أحفظ ذلك الكلام، وكأنما يغرى في صدري، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح، فيقولون اتركوه وقومه؛ فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح، بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلما قدم قال جئتكم والله من عند النبي صلى الله عليه وسلم حقا، فقال صلوا صلاة كذا في حين كذا، وصلوا صلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، وليؤمكم أكثركم قرآنا. فنظروا فلم يكن أحد أكثر قرآنا مني؛ لما كنت أتلقى من الركبان، فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين، وكانت علي بردة، كنت إذا سجدت تقلصت عني، فقالت امرأة من الحي ألا تغطوا عنا است قارئكم؟ فاشتروا فقطعوا لي قميصا، فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص**[١].

---

(١) صحيح البخاري ٤٣٠٢

الفصل السادس: غزوة هوازن يوم حنين

لن نغلب اليوم من قلة!

هذا قول سيدنا الإمام الأمير الصديق، والذي كان بمثابة اليد اليمنى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو صاحب اليد العليا، والسبق الأعلى، والأفق المديد، والعون الرشيد، والقول السديد، ويوم أن رافق صاحبه النبي محمدا ﷺ، وفي كل حركة، وإذ لم يبطئه عن ملازمته من شيئ، وإذ لم يقعده عن مناصرته من هنة، ولأنه استجمع موجبات الهمة، وإذ كان الصديق، وبحق، ويوم أن أكذب الناس نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، وإن كان في بعث الإسلام الخالد، ولئن كان في شأن الإسراء والمعراج، ذلكم الحدث الجليل القدر، وذلكم اليوم العظيم الشأن، في تاريخ الإسلام الحنيف، بل في تاريخ البشرية كلها، وكابرا عن كابر، وذلكم الذي كان علامة فارقة من مراحل هذا الدين، وحين سما هناك وارتقى، ولما طاول العنان إلى هناك وعلا، وهو ذلكم النبي المصطفى، وهو هذا الرسول المجتبى، وليسمع التاريخ، ويبلغ قولا ممهورا بالصدق، بل هو الصدق كله، وقد تقاطرت منه معانيه، حتى وقد انبلج من صدقه عبق المحبة والنصرة والتأييد والأخذ الرشيد، على يدي هذا النبي صلى الله عليه وسلم، ويوم أن وقف دونه مناصرا ومؤيدا ومعينا، هو ذاك العبد الأشم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، صاحب الحكمة، وفي مظانها، وذو الرشد والسداد والحزم والقوة وفي محالها، وهذا يوم عريش يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، والله على كل شيء قدير، وإذ كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مثبتا، وبتثبيت المولى الكريم لهما، وحين أنطق الله تعالى الحق وعباراته، وعلى أنه مجد للمؤيدين، وتاريخ

للمناصرين، وذخر للأتباع، وعملا متقبلا لأولاء المتقين الأخيار، وإذ كل وباختيار المولى العليم القهار، وإذ كل ومن نصر الرحيم الغفار، رب السماوات والأرض وما بينهما، ومقلب النهار على الليل، ومقلب الليل على النهار.

وهذه منظومة هذا الدين وحلواه وجماله، وتفرده وتميزه وتاجه ووسامه، وحين أفرز أبا بكر، وحين كان ما أنف بعضا من شأنه، وسطرا من فعله، ولأن أفعاله كانت سطورا، ولأن مواقفه كانت إلفا ومحبة وسرورا، ولهذا النبي ﷺ الأمي العربي الكريم، ويوم أن عز الناصر، ويوم أن قل المؤازر، ومن جنس البشر المساكين، وإذ كان الله تعالى مؤيدا له ونصيرا، وإن عز الناس كل الناس.

وإلا أن من زينة إسلامنا، ألا يقف صامتا ساكتا، وأمام وقفة، وإنْ هنة، ولو كانت من نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة الإسلامية، يوم حنين، ومن قبل يوم حنين أيضا، وفي بيان عام للعالمين، أن ههنا دين، يحاسب القمة، وكما وأنه يعاقب القاعدة، وفي منظومة عمادها النظام، وأساسها الانضباط، بضابط المعروف، ولازم الحزم، وموجب الجزم، وإذ كان المعروف ههنا، هو طأطأة الرؤوس للخالق البارئ العظيم، ربنا الرحمن وتوا كان نصره المجيد، يوم فتح مكة المكرمة البلد الحرام، وهو ذا الفتح الذي أسماه الله تعالى مبينا، ونصرا كان منه تعالى أيضا، وإذ أسماه تعالى نصرا عزيزا، وهو كما قال الله تعالى ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا**﴾[الفتح:١-٣].

وإذ كان من إلفه الشكر والثناء، وإذ كان من موجبه حمد وتمجيد لله تعالى خالق الأرض ورافع السماء، وهذا ولا شك حاصل، ومثله، ومثله، وأضعافه

كائن وقائم وحاصل، وإلا أنه بقيت في النفوس بعض حظوظها، وإلا أنه سبق في اللوح المحفوظ، وأن وحيا قد كان صدقا، وحين قال صلى الله عليه وسلم: كلُّكُم خطَّاؤون وخيرُ الخطَّائينَ التَّوَّابونَ(١) .

وهذا علم آخر ضاف من أعلام نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وحين لم يخرج أحد عن الخطأ، ومن موجب أنه من بني آدم!! وهذا وحده علم موجب دخول العالمين- كل العالمين- في الإسلام؛ ولما دلت التجارب، ولما حكمت القرائن، أنكم: كلُّكُم خطَّاؤون وخيرُ الخطَّائينَ التَّوَّابونَ!!!

وهذا أبو بكر يوم حنين، وحين رأى ما يسعد، وإذ نظر ما يفرح، وإذ تأول ما يبهر، وكأنه ومن سبيله؛ ومن موجبه، أنهم ليسوا يغلبون؛ ومن قلة!!!

ولتقف السماء حائلا، دون نصرهم، أول أمرهم، وحتى نادى فيهم العباس بن عبد المطلب، عم نبيهم، والمتحدث باسم نبيهم، وحين قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: أَيْ عَبَّاسُ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ، وما كان الله إلا أن يصدق وعده، وبنصره المبين، وإلا أن يعود ويرجع، وعن كل، وعلى مثل ولو هنة، ومما كان من طبائع بني آدم، وما عليه قد جبلوا!! ولو كان من أبي بكر، نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة الإسلامية!!

فإن هذا الدين يأخذ على أيدي كل أتباعه أخذا، وليس يسكت، ولو على من مثل الهنة، أو قاربها، ولأن سكوتا عن قليل، أمكن رده أول مرة، موجب أن يتنامى؛ ليصبح كثيرا، صعب علاجه، آخر مرة!!!

(١) تصحيح العقائد، الألباني: ٢٧ . خلاصة حكم المحدث: بلفظ: "كل بني آدم خطاء، وخير..". وسنده حسن.

وأكــرر: ولــو كــان مــن أبــي بكــر، نائــب القائــد الأعلــى للقــوات المســلحة الإســلامية! بــل ولــو كان مــن القائــد الأعلــى للقــوات المســلحة الإســلامية! وانظــر أول التحـريم، وحين قـال الله تعـالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التحريم: ١]. واستبصـر أول عبس، وحين قـال تعـالى﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾[عبس:١]. وليحكي لـك صدق القـول، ودقـة التصـوير، وبلاغـة البيـان، وتفـرد الـدين، وحين عـالج كل موقـف، وفي حينـه، وكيمـا لا يتقـادم الزمـان، فيعـز الإصلاح، وإذ أصبح في غير محلـه، وعلى حـد قـول الأصـوليين: تـأخير البيـان عـن وقـت الحاجـة، وإذ لـيس لـه مـن حاجـة! وإذ كان تـأخير البيـان عـن وقـت الخطاب مبررا، ولما يأت وقت تنزيله، وحين أوان إعماله.

ولــيس يقــول قائــل: ومــا ذنــب أمــة بطولهــا وعرضــها، وأن تؤاخــذ بفعــل آحادها؟!

وأقــول: ولأنــه كــان مـنهم وعلــى مســمع مـنهم أجمعــين، فليأخــذوا الــدرس كذلكم أجمعون!

وهذا، وقد حصل من أعلى قمة الهرم، فخص لـه مـن أدناهـا وأوجـب، ولـذا كان درسـا قاسـيا عمليـا مبهـرا باهـرا، وكيمـا تخضـع الـرؤوس للبـاريء القهـار، وكيمـا تذل الرقاب للعزيز الجبار.

وأقــول أيضــا: إن قولــة أبــي بكــر ســالفة الــذكر، ولــئن عــدت خطــأ بشــريا محضـا، وهـو كمـا قلـت برهـان صـدق نبينـا محمـد صلى الله عليـه وسلم. وعلـم على نبوتـه، وبرهـان على صدق رسالتـه، وكمـا أنـه كـان في موقـف جـد، وليكـون الأخـذ على يـد أمـة بأسـرها، وليكتـب التـاريخ منهجـا، كـان ذا شـأنه، وأن تحـبط الملمـة، وفي

مهدها، وقبل إشرافها، وتمددها، وإيغالها، واستشرائها، ولو كان فاعل الفعل من هو! ولو كان قائل القول من هو!

وبيد أني أقول أيضا: وإن قولة أبي بكر، هذه سالفة البيان، وعلى رغم أن الله تعالى قد أخذ على الأمة كلها بقوله؛ ولأنه رأس؛ ولأنه سبب موجب، ألا يرفع أحد رأسا مع الله تعالى! وإلا أن شرحا آخر وافيا، قد كان أرحب وأقوم.

وذلكم يبينه، وعلى حد ما أنه ومن شدة فرحه أخطأ البيان، ومن لازم فجأته بعزة جند الإسلام، الغر الميامين، وخاصة وأننا أمام حدث مازال ماثلا في العيون ومبهرا، وإذ كان يوم الفتح الأعظم، فتح مكة المكرمة البلد الحرام. وكان هذا الفرح سببا من خطأ العبارة، وإن عد من مجاز الإشارة، وإن قولنا لتحتمله لغة الضاد، والناطقين بالحقيقة والمجاز، وإذ كان هذا النصر استشرافا لمثله يوم حنين.

وأمامنا حديث شريف، وعندنا موقف مساند، ولدينا عامل مساعد، وسند معاضد.

وانظر حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى الله تعالى عنه، وحين قال صلى الله عليه وسلم: لَلَّهُ أشَدُّ فرَحًا بِتوبةِ عبدِهِ حِينَ يَتوبُ إليه ؛ من أحدِكمْ كان على راحلَتِه، بأرضِ فلاةٍ ، فانْفلَتَتْ مِنهُ ، وعليْها طعامُهُ وشَرابُهُ، فأيِسَ مِنْها، فأتَى شجرَةً ، فاضْطجعَ في ظِلِّها، قدْ أيِسَ من راحلَتِه، فبيْنما هوَ كذلِكَ، إذْ هوَ بِها

قائمةٌ عِندَهُ، فأخَذَ بِخطامِها، ثمَّ قال- من شِدَّةِ الفرَحِ- : اللهُمَّ أنتَ عبدِي، وأنا ربُّكَ! أخطَأَ من شِدَّةِ الفرَحِ[١].

وأقول أيضا: ولعل أبابكر- وهو الأغلب- قد استصحب ظل قوله صلى الله عليه وسلم: خيرُ الصحابةِ أربعةٌ وخيرُ السرايا أربعمائةٍ وخيرُ الجيوشِ أربعةُ آلافٍ ولا يُغْلَبُ اثنا عشرَ ألفًا من قِلَّةٍ[٢].

وأقول أيضا: ورغمه قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥/٢٧].

راعي ضأن والله، هل يرد المنهزم شيء؟

هذا قول دريد بن الصمة، لمالك بن عوف، يوم هوازن، يوم غزوة حنين.

وهذا رجل أجمع التاريخ على حكمته. ونبل رأيه، وحكمة قوله، وسداد فاهه.

وقد كان قوله هذا، وحين رأي وسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء؟ وليسأل مالك بن عوف عن سر فعله، ومدى خبره،

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٥٠٣٠

(٢) مسند أحمد، أحمد شاكر: ٢٣٧/٤. خلاصة حكم المحدث : إسناده صحيح.

وليجيبه مالك أن: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم.

قال: فانقض به، ثم قال: راعي ضأن والله، هل يرد المنهزم شيء؟!

وبلية كل زمان هذا الذي تَسَمَّعَ به التاريخ، ويوم عدم تقدير الأمور حق قدرها؛ لطيش فكرة، كانت فطيرا، وبئس الرأي الفطير، والرأي الدبير، ونعم الرأي الخمير.

وليس يحاط بها علما، وإنما تكلف الأمم ثمنا باهظا، وحين تقاد- الأمم- بهكذا رأي فطير، وليس مساويا شيئا، ولو من قطمير! وحين كان على عجلة من قائله ولما كان من عدم حنكة أو خبرة منه أيضا، وحين عده قائله، أو وضعه فاعله، وفي عداد قول الأمجاد النجباء، وحين ألبسه رداء العقلاء، أو كساه قول الحكماء، وليس يخرجه ذلكم أو بعضه وعن كونه كان رأيا فطيرا!

وإنما يسبر القول، ومن أمثال دريد بن الصمة، ولو كان كافرا، وإنما يكشف رينه الحكماء، ومن أمثال زهير بن أبي سلمى، وحين كان مشركا أيضا: وحين قال :

سَئِمتُ تَكاليفَ الحَياةِ وَمَن يَعِش ثَمانينَ حَولاً لا أَبا لَكَ يَسأَمِ.

وأمام ناظرينا ورقة بن نوفل، وإذ قال في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قولا فصلا، أراح خديجة وسلاها، وطمأن فؤادها، واهدأ روعها، وأسكن لبها، وأماط عنها حزنها وبلواها، وبقوله الحكيم، ومن خبره العميق، تجربة، وخبرة، وعلما بتكاليف الحياة، وأخبار الزمان، ومعتركات الأيام، ومنه وأيام الله تعالى، وفي الذين خلوا من قبل، وحين: **انْطَلَقَتْ به- صلى الله عليه وسلم- خَدِيجَةُ حتَّى أتَتْ**

به ورَقَةَ بنَ نَوْفَلِ بنِ أسَدِ بنِ عبدِ العُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وكانَ امْرَأً تَنَصَّرَ في الجاهِلِيَّةِ، وكانَ يَكْتُبُ الكِتابَ العِبْرانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإنْجِيلِ بالعِبْرانِيَّةِ ما شاءَ اللَّهُ أنْ يَكْتُبَ، وكانَ شيخًا كَبِيرًا قدْ عَمِيَ، فقالَتْ له خَدِيجَةُ: يا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أخِيكَ، فقالَ له ورَقَةُ: يا ابْنَ أخِي ماذا تَرَى؟ فأخْبَرَهُ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَبَرَ ما رَأَى، فقالَ له ورَقَةُ: هذا النَّامُوسُ الذي نَزَّلَ اللَّهُ علَى مُوسَى، يا لَيْتَنِي فيها جَذَعًا، لَيْتَنِي أكُونُ حَيًّا إذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ، قالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بمِثْلِ ما جِئْتَ به إلَّا عُودِيَ، وإنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ ورَقَةُ أنْ تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوَحْيُ[١].

وكان منه وجوب سمع الفتيان لأشياخ أزمانهم! وكيما لا تدفع الأمة بأسرها لججا فعلوه، أو شبه رأي قالوه، وقد حسبوه حكمة دامغة، وقد زعموه حجة بالغة، وحين كان أحدهم، ولربما لم يحسن أن يرى من تحت قدميه شيئا!

وهذا التاريخ شاهد على فعل قد كان رأيا من فطير، وكيف كلف هوازن هزيمة نكراء، ومن تحجر مالك بن عوف شبيبة يومه هذا! ومقابلة دريد بن الصمة، حكيم قومه في زمانه!

وفي إصرار معيب يواجه مالك قومه، ولرأي دريد الحكيم مسفها! ولقوله الفطير ممجدا!! وحين قال: والله لا أفعل إنك قد كبرت، وكبر عقلك، ثم قال

---

(١) صحيح البخاري: ٣

مالك: والله لتطيعنني يا معشر هوازن، أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو رأي[١].

ولترد العامة، وإذ كان زعاق مالك، وكأنه الحق، لا ريب فيه! وحتى غطي عليهم أجمعين، وهذه بلية أخرى، وحين حكى التاريخ من مثلها أيضا، وحين قال الله تعالى عن فرعون وملائه ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف:٥٤].

وذلك حين قالوا: أطعناك.

وليثبت دريد على رأيه السديد، وقوله الرشيد، حكمة، وخبرة، وسبرا للأمور، وحين قال: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني:

يا ليتني فيها جذع أخب فيها وأضع
أقود وطفاء الزمع كأنها شاة صدع

ولحكمة يعلمها الله تعالى، وحين أصر مالك بن عوف على مخالفة حكمة دريد بن الصمة، وإمعانا آخر في سفاهته، وقوله معا، وحين أرسل عينا له على جند الله تعالى، يوم هوازن يوم حنين يوم أوطاس، وحين رأوا من آيات الله تعالى الكبرى، وحين قالوا هم قولا سجله التاريخ أيضا: رأينا رجالا بيضا على خيل بلق، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى[٢].

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/٣٧٠
(٢) إمتاع الأسماع، المقريزي: ج ٣/٣٣١

وليت قد عاد إلى رشد أو بقية منه! ولكنه؛ وهكذا العناد، وحين يلقي بصاحبه حتفه، وبنفسه التي بين جنبيه، وحين كان من وصفه قولهم أيضا: فوالله ما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد! [١].

وحين يبعث النبي الأمي العربي الكريم صلى الله عليه وسلم يوم حنين عيونه أيضا، وعلى مالك بن عوف وملائه، وحين بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن أبي حدرد فدخل فيهم، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ، وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر[٢].

وحينها أجمع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على مواجهة القوم ومنابذتهم ومقاتلتهم، وكيما تكون كلمة التوحيد عالية خفاقة سامقة، وحين يزهق باطل واجهه، أو يدفع شر جابهه.

وإذ كان من أمره صلى الله عليه وسلم أن عرض على صفوان بن أمية أن يعيره سلاحه لمواجهة هوازن، ويكأن صفوان قد راح إليه ذهنه أن نبينا صلى الله عليه وسلم يريد أخذ سلاحه غصبا، وإنما كان هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وليس إلا يستعير عارية مؤداة، أن أعير، وأن يضمن، أن وجد ثمة وجه لضمان، خلقا إسلاميا دمثا، وعملا إيمانيا صرفا.

---

(١) المرجع السابق: ج ٣٣١/٣

(٢) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ٣٤٦

ولنسمع هكذا حديثا جرى بين نبينا صلى الله عليه وسلم، وصفوان بن أمية، ولنقف على هكذا حلم، وعلى هكذا حكمة، في مداواة الأمور:

ويكأنه: ولما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعا له سلاحا فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال: «يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غدا». فقال صفوان: أغصبا يا محمد؟ قال: «بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك». قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيهم حملها ففعل[١].

قد فقدنا من أدراعك أدراعا فهل نغرم لك؟

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لصفوان بن أمية، يوم حنين يوم هوازن، وحين استعار منه بعض سلاح وأدراع، وإذ كان فقد منها بعضها.

فعن صفوان بن أمية: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم استعار منه أدراعًا يومَ حُنَيْنٍ، فقال: أغَصْبٌ يا مُحمَّدُ؟ فقال: لا، بل عاريَّةٌ مَضمونةٌ[٢].

وليس يهمنا الكلام في أعدادها، وكما قد اختلف فيه، وجريا وراء حديث بابنا، والمعنون به أعلاه، وبقدر ما يهمنا أمور، منها:

الأمر الأول: هو جواز ائتمان المشرك: وحين كان كذلكم أمينا، وهذا شأن جد مفيد للعاملين في الحقل الإسلامي، وأن يفيدوا من تشابك العلاقات الدولية

---

(١) المرجع السابق: ج ٢ / ٣٤٦

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٥٦٢

المتباينة، وحين يكون ثمت مشرك مؤتمنا، أو يمكن أن يكون وقوفه في صف الدعوة وأهلها مفيدا، أو العمل على تحييده من ظلم، أو تقييده من نصرة على عبيد الله تعالى المسلمين، أو منع بطشه، أو تقليل شره هو نفسه! ومع استصحاب أصول الدعوة وقواعدها، ودونما ولاء أو حواليه، ويمكن أن ينال من دين العبد، ولو شيئا منه.

الأمر الثاني: جواز الاستعارة من المشرك: ولحاجة القوات المسلحة الإسلامية، وكل يوم جاءت الحاجة إلى ذلك، وسواء كانت الإعارة مؤداة، أي بغير عوض، وهو ما يسمى في يوم الناس هذا بالمنح، أو كانت مضمونة، وبعوض عن إتلافها أو ضياعها. وحسبما تنص عليه قواعد العقود الشرعية في هذا الشأن، وبمنظور إسلامي بحت، وإذ ليس فيها غرر أو تدليس أو إكراه أو غبن أو استغلال، أوغيره، مما أسمي في العقود بعيوب الرضا. وكذا ما خلا منها عن ربا، وإذ: لعنَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم آكلَ الرِّبا وموكلَهُ وشاهديْهِ وَكاتبَه[1].

وإذ: تجوز معاملة الكفار فيما لم يتحقق تحريم على المتعامَل فيه، وعدم الاعتبار بفساد معتقدهم ومعاملاتهم فيما بينهم[2].

الأمر الثالث: ضمان العارية: وهذا هو الدين، ويوم كان ذلكم عاملا محفزا للمعير، وأن يعير، وهذا هو الدين أيضا، ولاستتباب العلاقات، وحين يكون إعمال المعاوضات في المعاملات، وليطمئن معير على ملكه، وحين أفاد المستعير مما

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ١٢٠٦

(٢) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني:٥/ ١٤١

استعار، وفيه حركة المجتمعات، وأن كان ماء جاريا فيصلح، وألا تقف ماء راكدا فيفسد.

الأمر الرابع: إظهار المروءة والأخلاق الحسنة في التعاملات الإنسانية: ولربما كان ذلكم له أثره في الطرف الآخر، ولعله أن يسلم، ومتأثرا بخلق الإسلام الحميد.

وهذا هو الذي حدث، يوم استعار نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أسلحة وأدراعا، ومن صفوان بن أمية، ومن قبل أن يسلم وجهه لله، وهو محسن، واتخذ ملة إبراهيم حنيفا، وكما قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]. ولما أن عرض عليه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ضمان ما لم يوجد من أدراعه، والحال أنه فقد، ولاعتبار الظرف المواتي، ظرف الغزو والحرب والمكيدة، ولثقيف؛ وحين وقفت وجه دعوة الحق والقسطاس المستقيم، وإذ قال له صفوان بن أمية قولا حسنا، ويفهم منه أفول نجم كفره، وقرب إشراق يوم إسلامه، وحين قال: لا يا رسول الله إن في قلبي اليوم ما لم يكن فيه!

فعن أناس من آل عبدالله بن صفوان أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قال: يا صَفْوَانُ، هل عندَكَ مِن سلاحٍ؟ قال: عاريَّةً أم غَصْبًا؟ قال: لا، بل عاريَّةً، فأعاره ما بَيْنَ الثَّلاثينَ إلى الأربعينَ دِرْعًا، وغزا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حُنَيْنًا، فلمَّا هُزِمَ المُشرِكونَ، جُمِعَتْ دُروعُ صَفْوانَ، ففقَد منها أدراعًا، فقال

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لصَفْوَانَ: إنَّا قد فقَدْنا مِن أدراعِكَ أدراعًا، فهل نغرَمُ لكَ؟ قال: لا يا رسولَ اللهِ؛ لأنَّ في قلبي اليومَ ما لم يكُنْ يومَئذٍ[1] .

الأمر الخامس: في بيان المقصود بالعارية: والعارية لغة هي: مشتقة من العري، وهو: التجرد ، وسميت بذلك؛ لتجردها عن العوض[2] .

والعارية اصطلاحا هي: إباحة نفع عين تبقى بعد استيفائه [3]

وهي مشروعة للمعير إيجابا أو قبولا؛ ومن المستعير إيجابا أو قبولا أيضا.

وأساسها قول الله تعالى ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾[المائدة:٢]. وكذا، قوله تعالى﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[المؤمنون: ٨، والمعارج: ٣٢].

الأمر السادس: وهذه عارية مضمونة: وضمانها على المستعير، وحين تلفت أو بعضها، وهذا من قوله صلى الله عليه وسلم لصفوان: بل عارية مضمونة.

وهذه بخلاف العارية المؤداة، وينظر فيها، وحين فقدت، أو عطلت، أو فسدت، وكذا، ومن مثل التفريط، فيضمن، وعلى عمل الرجل المعتاد. وكما هو معروف في مظانه.

الأمر السابع: وهي أمانة، ولها أحكامها: وإذ يجب ردها، وحين حل أوانها، وانتهي أجلها، وإلا خالف الناقض، وإلا أذنب المخالف. وهذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: **أَرْبَعٌ مَن كُنَّ فيه كانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، ومَن كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ**

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٥٦٣

(٢) كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي الحنبلي: ج٤/٧٧

(٣) كتاب شرح زاد المستقنع، أحمد الخليل: ج٤/٣٠٧

منهنَّ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حتَّى يَدَعَهَا: إذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وإذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وإذَا خَاصَمَ فَجَرَ[1].

وكذا قوله صلى الله عليه وسلم أيضا: **أدِّ الأمانةَ إلى منِ ائتمنكَ، ولا تخنْ من خانكَ.**[2]

الله أكبر قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة» قال: «إنكم قوم تجهلون، إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم.

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يوم حنين يوم هوازن، وحين رأى بعضٌ من أصحابه، شجرةً للمشركين، وإذ يأتون إليها ويعلقون عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوما! وقد كانوا حديثي عهد بالإسلام!

وهذا فيه أمور:

الأمر الأول: ورود أن يقع ذلك، وبخاصة من حديثي عهد بالإسلام، ولو كان العمل شركيا، وليس يكون به العبد مشركا؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم قد أنكر، وتضمن الإنكار نهيا، ولكنه صلى الله عليه وسلم ولم يرم أحدهم بالكفر، وحين قالوا قولهم هذا!

---

(١) صحيح البخاري : ٣٤

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٥٣٤

الأمر الثاني: شدة النكير ولشدة المنكر، وهذا نفهمه من عباراته- صلى الله عليه وسلم- والتي أنبأت عن قسماته- صلى الله عليه وسلم- يوم الناس هذا، وحين وقع منهم قول الشرك.

الأمر الثالث: لا فرق بين قول الشرك وفعل الشرك، ولأن قوما ذهبوا إلى أنهم لم يرتكبوا شركا، وإلا كان صلى الله عليه وسلم قد وصمهم به.

وهذا استدلال غير صالح. فإن قول الشرك، وكفعله سواء بسواء، في هذا الدين.

ولنقف عند قول الأصحاب يومهم هذا: وكنا حدثاء عهد بالإسلام.

وهذا الذي عليه مدار الكلام: وهل تكون حداثة العهد بالإسلام سببا مانعا من العقوبة أم لا، وهذا هو التساؤل الإيجابي، وأما إخراجه عن إلفه؛ لأنه قول كفر أو فعله، فإن هذا ما لم يسعف النص قائليه.

وثمة قول آخر، ولعله يحسم بعضا مما أنف، وهو درس السؤال التالي: هل الهم بالكفر قولا أو فعلا، يأخذ حكم القول به، أو فعله، كذلكم؟

وهذه مسألة يحسمها النص أيضا، وحين قال صلى الله عليه وسلم: **إن اللَّهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذلكَ، فمَن هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبَها اللَّهُ له عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، فإنْ هو هَمَّ بها فَعَمِلَها، كَتَبَها اللَّهُ له عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَناتٍ، إلى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، إلى أضْعافٍ كَثِيرَةٍ، ومَن هَمَّ بسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها،**

كَتَبَها اللَّهُ له عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، فإنْ هو هَمَّ بها فَعَمِلَها، كَتَبَها اللَّهُ له سَيِّئَةً واحِدَةً. [١] .

وبه يرتفع الإشكال رفعا. ولأن الحديث عام، فيشمل عموم السيئات، وكما تضمن سائر الحسنات.

وبيد أنه ليس يخرجنا عن هكذا تمحل عقدي، وحين تلبس قوما، وإذ كانت لهم أسواقهم ونواديهم، وإن هذا ليس فاصلا، في غض طرف، عن حكم الإسلام النافذ، وحين يرتكب الشرك، وكائنا من كان!

وفيه مزايلة الشرك والمشركين؛ وكيما لا يكون مظنة مؤانسة بفعلهم، وحين كانت مجالستهم، ويكأننا ننقل قول الأولين وكأنه: من جالس جانس، والصاحب ساحبٌ! وكذا قولهم: لا تصحب إلا من ينهضك حاله، ويدلك على الله مقاله. غير من كان ذا علم صحيح، وذوق صريح، وهمة عالية، وحالة مُرْضِيَةٍ.

بيد أن سؤالا قد فرض بساط بحثه، وإذ إن مقتضاه: وهل يجوز وقف عقوبة فعل الشرك أو قوله لتأويل؟

وبتوجيه السؤال على صيغة أخرى: وهل يمكن عدم إطلاق لفظ الشرك على معين؛ لقوله قول الشرك، أو لفعله فعل الشرك، وحاله أنه كان متأولا، ليس يقصد؟

والجواب: أن واقعة ذات أنواط أمامنا، وهي التي كان مستند منها، أنه ليس يجوز إطلاق لفظ الشرك على من فعل فعلا، هو في معنى الشرك، أو قال

---

(١) صحيح البخاري: ٦٤٩١

ذلك أيضا، وليس ذلك إبطالا للنصوص، وبقدر ما هو إعمال لها تماما، وبدلالة حديث الباب أعلاه، وإذ خاطب نبينا صلى الله عليه وسلم الناس قائلي ذلكم قولا، وعلى أنهم المسلمون، ودلالة أنه صلى الله عليه وسلم لم يحكم على أحدهم بردة، وبرهان أنه لم يقتل أحدا منهم حدا.

وقد مر بنا أثناء تناول غزوة الفتح الأعظم، فتح مكة المكرمة البلد الحرام، وإذ كان منها حديث حاطب بن أبي بلتعة رضي الله تعالى عنه، وقد عالجناه حينها، وبما كفى، ومناسبة مقامه هناك، ويكأنه وثيق الصلة بموضوع بابنا الآن، ومنه كانت الإحالة؛ ضبطا، وربطا بين أحداث هذه السيرة النبوية المباركة، وإذ كان فعل حاطب كفرا، لا أن يقال إن حاطبا به كفر! وما ذلك إلا على وجه تأول سائغ، وإذ قبله منه نبينا صلى الله عليه وسلم، وإلا فإن أفعال الكفر أو أقواله، وإن تحققت شروطها، ولما توافرت موانعها، وثَمَّ هي. وسواء حضر حاطب بدرا، أو لم يحضر، وإنما كان مساغ أنه مؤمن، هو ذلكم التأول، وإن عد خطأ، وكان منه قوله صلى الله عليه وسلم: لَعَلَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ اطَّلَعَ علَى أهْلِ بَدْرٍ فَقالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ. وهو الذي نشتم منه رائحة الإنكار الخفي الحني الرضي النبوي، ومن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وإذ ليس هذا حكما عاما ولغيره ، وإلا لنساحت عقائدنا، وإلا لفرغت موالاتنا من معانيها، وإن كنا نستطلع كل فعل، أو قول، ونسأل سؤال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ما حملك على هذا يا فلان؟!

فعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: **بَعَثَنِي رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَا والزُّبَيْرَ والمِقْدَادَ، فَقالَ: انْطَلِقُوا حتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فإنَّ بهَا**

ظَعِينَةٌ معهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ منها فَذَهَبْنَا تَعَادَى بنَا خَيْلُنَا حتَّى أتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإِذَا نَحْنُ بالظَّعِينَةِ، فَقُلْنَا: أخْرِجِي الكِتَابَ، فَقالَتْ: ما مَعِي مِن كِتَابٍ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فأخْرَجَتْهُ مِن عِقَاصِهَا، فأتَيْنَا به النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَإِذَا فيه مِن حَاطِبِ بنِ أبِي بَلْتَعَةَ إلى أُنَاسٍ مِنَ المُشْرِكِينَ مِمَّنْ بمَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ ببَعْضِ أمْرِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما هذا يا حَاطِبُ؟ قالَ: لا تَعْجَلْ عَلَيَّ يا رَسولَ اللَّهِ، إنِّي كُنْتُ امْرَأً مِن قُرَيْشٍ، ولَمْ أكُنْ مِن أنْفُسِهِمْ، وكانَ مَن معكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ لهمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بهَا أهْلِيهِمْ وأَمْوَالَهُمْ بمَكَّةَ، فأحْبَبْتُ إذْ فَاتَنِي مِنَ النَّسَبِ فيهم، أنْ أصْطَنِعَ إليهِم يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وما فَعَلْتُ ذلكَ كُفْرًا، ولَا ارْتِدَادًا عن دِينِي، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّه قدْ صَدَقَكُمْ فَقالَ عُمَرُ: دَعْنِي يا رَسولَ اللَّهِ فأضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقالَ: إنَّه شَهِدَ بَدْرًا وما يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ اطَّلَعَ علَى أهْلِ بَدْرٍ فَقالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ قالَ عَمْرٌو: ونَزَلَتْ فيهِ: {يَا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُمْ أوْلِيَاءَ} قالَ: لا أدْرِي الآيَةَ في الحَدِيثِ أوْ قَوْلُ عَمْرٍو[(١)].

هذا، وإن رواية للإمام أحمد رحمه الله تعالى تكشف وتميط وتنشيء وتذيع حكما استقر وإن تأولا وقع من حاطب، وإن نبينا لأجل ذلك قد قبله، وإن عد خطأ، وكما سبق آنفا؛ ولأنه من وقع في مثل ذلكم موقف، فأخذ عليه، وشد به، وإذ كان غير ذلكم مضرة واقعة على العباد؛ ولذا كانت أحكام العقائد ثابتة، وليس تتغير لا بتغير الأزمان ولا بتغير المكان، وإن وجد ثمة أحوال ينظر العلماء الربانيون فيها، وتحقيقا لمآرب الشريعة، ووضعا لقواعد الشرعة.

(١) صحيح البخاري: ٤٨٩٠

فعن عن جابر بن عبد الله، أن حاطب بن أبي بلتعة، كتب إلى أهل مكة يذكر أن رسول الله ﷺ أراد غزوهم فدل رسول الله ﷺ على المرأة التي معها الكتاب فأرسل إليها فأخذ كتابها من رأسها وقال يا حاطب أفعلت قال نعم أما إني لم أفعله غشا لرسول الله ﷺ وقال يونس غشا يا رسول الله ولا نفاقا قد علمت أن الله مظهر رسوله ومتم له أمره غير أني كنت عزيزا بين ظهريهم وكانت والدتي منهم فأردت أن أتخذ هذا عندهم فقال له عمر ألا أضرب رأس هذا قال أتقتل رجلا من أهل بدر ما يدريك لعل الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم[١].

قال الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى: وهذه القصة غلط فيها حاطبٌ رضي الله عنه ورحمه، والنبي ﷺ قبل عذره؛ لأنه جهل الأمر، وظنَّ أنَّ هذا يُسوغ له مصانعة المشركين بهذه الكتابة؛ ولأنه من أهل بدرٍ، وقد قال الله فيهم: اعملوا ما شئتُم فقد غفرتُ لكم، فكان هذا خاصًّا به، أما اليوم مَن ساعد الكفَّار على المسلمين وأبدى عوراتهم فإنه يُقتل، يكون ردةً؛ لأنَّ الله أنزل في هذا، بيَّن الحكم فقال: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ**.

فتقرر عند أهل العلم أنَّ مظاهرة المسلم للكفار ومُعاونتهم على المسلمين ردَّة: **وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** [المائدة:٥١]، فإذا عزم المسلمون على حربٍ ضد العدو، ثم ذهب أو كتب إنسانٌ يُنذرهم ويقول: ترى توجه إليكم الجيش وكذا، يكون هذا ردةً، يكون هذا تولٍّ ونصرًا لهم على المسلمين؛ ولهذا يقول جلَّ وعلا: **لَا**

(١) مسند أحمد بن حنبل:١٤٢٤٧

تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ، ويقول جلّ وعلا: وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ.

استخلاف عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس الأموي على أهل مكة

استخلف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم حنين يوم هوازن على أهل مكة عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس الأموي. وكان عمره إذ ذاك قريبا من عشرين سنة. وهذا برهان أن هذه الأمة رجالها صبيانها وشيوخها فئات عاملون، ولا يضنون، وفي ساحات البذل تجدهم متفانين وسباقين، وهذه أيضا تربية مدرسة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين تعمل على تخريج دفعات ذواتي دربة إدارية، وكما الحال تماما، وإذ هي تعمل في خط متواز آخر، على تخريج كتائب عسكرية ماهرة، تعرف كيف تدير معركة مع عدو الله تعالى وعدوهم أيضا، ولأن من كان لله عدوا فإنه لعبيده عدو بتمام، وحين لم يسلم وجهه لله وهو محسن، وها هو يناصب الدعوة والدعاة عداءه المرير، والذي لا ينفك عنه طبيعة معاندة، أو سلطانا جائرا.

وحين تكون مدرسة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا النحو تامة أركانها، وعلى الجبهة المدنية، وتماما بتمام مع الجبهة العسكرية، فقد آن أوان القول بأن يوم بسط قيم الحق والعدل قد حل أوانه، ولتبسط أجنحة الخير والسلام والأمن ربوع الجزيرة العربية، ومن ثم تكون هذه الأمة الجديدة الميمونة قد أخذت وتبوأت وتمكنت وبسطت عدلها على البسيطة، وعلى الأقل

المجاور منها، ومن ثم شيئا فشيئا تنبسط أنوارها على ما تلاها، ويوما ويوما ليبسط الله تعالى نوره وهداه ودينه على الدين كله، ولو كره المشركون، وكما قال تعالى﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف:٩].

تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يوم حنين يوم هوازن.

وحين جاءه أحد عيونهم بخبر خروج هوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم وبنعمهم وشائهم، وقد اجتمعوا إلى حنين، وحينها تبسم رسول الله ﷺ وقال: تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله.

وهذا قول يحمل أمورا عدة، ومنها:

الأمر الأول: ذلكم الظن الحسن بالله تعالى العلي الأعلى سبحانه. وأن الله تعالى مع المؤمنين، وهذا هو الظن الحسن الجميل بالله تعالى، وهو حق لله تعالى على عبيده، ولاستشراف الخير منه أبدا، وإذ كان من ذلكم الخير هو التفاؤل؛ لتحقيق نصر قريب كاسح مؤزر، وعلى هوازن يومها هذا، وغيره في أيام أخر.

الأمر الثاني: وهو ما يجب أن يكون عليه القائد، من رباطة جأش، تسري في عروق أفراده، ولتجعل من جنده محبة اللقاء والمنازلة والمقاتلة والمجاهدة، وليثخنوا في عدو الله تعالى وعدوهم أيضا.

وهذا البث له آثاره الإيجابية، في دفع الجنود دفعا، وإلى ساحات القتال. وحين يعلمون أن أمامهم غنائم حربهم وأموال عدوهم، ومن قبله ومن بعده أنهم يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

الأمر الثالث: هو ذلكم الأدب مع الله تعالى، وحين قدم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم المشيئة الإلهية أولا وآخرا بينه يدي عمله، وكسبب لا أكثر من ذلك ولا أقل، ويكانه يعلم قوله تعالى﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣]. ولأنه ذو خبر ويقين عن قول ربه تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال:١٧]. وكذا قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران:١٢٦].

الأمر الرابع: وهو ذلكم العلم النبوي الكريم، وعنه صلى الله عليه وسلم، ولأن نصرا قد تحقق، وإن فجرا جديدا قد انبلج، وعن فتح مبين آخر، منضافا إلى ما سبقه منه، ومن فتوحات تُوِّجُهَا هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وعلى مدار عمر دعوته الطويل.

الأمر الخامس: ولعلها كانت حكمة ربانية، وأن يخالف مالك بن عوف الشبيبة، رأي دريد بن الصمة الشيخ الحكيم الشيبة، ولينساق غنم المسلمين، وإلى عندهم! آية كبرى، وقيمة عظمى. و﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الجمعة: ٤].

مفردات وردت

والظعينة: المرأة في الهودج، سميت به على حد تسمية الشئ باسم الشئ لقربه منه، وقيل: سميت المرأة ظعينة لأنها تظعن مع زوجها وتقيم بإقامته كالجليسة، ولا تسمى ظعينة إلا وهي في هودج. وعن ابن السكيت: كل امرأة ظعينة في هودج أو غيره[١].

والنعم: واحد الأنعام، وهي المال الراعية. وقال الأزهري: دخل في النعم ههنا الإبل والبقر والغنم[٢].

والشاء: والشاةُ: الواحد من الغنم، يكون للذكر والأُنثى، فإذا كَثَّرْتَ قلت هذه شاءٌ كثيرة[٣]. وقوله: بظعنهم، يعني: معهم نساؤهم، وقوله: وشائهم، هي الغنم، وقوله: ونعمهم، هي الإبل؛ فمعهم النساء والإبل والغنم[٤].

من يحرسنا الليلة؟

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم حنين يوم هوازن.

وهو قول تربوي، وهو درس تعليمي، وهو شحذ همم، واستدعاء قمم، واستشراف قيم، وهو توجه ألمعي، وإنه لسنن عبقري!

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ٢٧١/١٣

(٢) المرجع السابق: ج ١٢ / ٥٨٥

(٣) المرجع السابق: ج ١٣ / ٥٠٩ و ٥١٠

(٤) شرح سنن أبي داود، العباد: ٦/٢٩٣

ولأنه صلى الله عليه وسلم كان يمكنه أن يختار أحدهم، ومن ثم لا طريق أمامه إلا الطاعة، وكما حدث يوم الأحزاب، وفي مثل هذا الموقف تماما، وحين استنفر نبينا صلى الله عليه وسلم أحدهم، ليأتي بخبر القوم، وإذ به صلى الله عليه وسلم يأمر معاذا بن جبل للقيام بالمهمة، وحين لم يقم أحدا!

وإلا أن هذا الأسلوب التربوي المجيد كان أدعى. وحين يصدر القائد قرارات المعركة، وعن قرب ومشاركة الجميع أيضا، وحين يطرح عليهم مثل هذا السؤال.

وفيه شحذ الهمم، واستدعاء روح البذل والمشاركة.

وحتى قام أنس بن أبي مرثد، ملبيا النداء، وليقوم بمهمة حراستهم، وعلى وجه كان منه قوله صلى الله عليه وسلم: عَينانِ لا تمَسَّهما النَّارُ: عينٌ بكت من خشيةِ اللهِ، وعينٌ باتت تحرسُ في سبيل اللهِ[1] .

وهذا شأن الحراسة في سبيل الله تعالى، وحين جاء أمرها من السماء، قيمة وأجرا حسنا، وعملا فاضلا نبيلا، وبذلا وتفانيا كريما، وكما قال الله تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ومنه ما جاء من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله تعالى عنه أنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: **رِبَاطُ يَومٍ في سَبيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما**

---

(١) سنن الترمذي: ١٦٣٩

عَلَيْهَا، ومَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما عَلَيْهَا، والرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا العَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوِ الغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما عَلَيْهَا(١).

وتأيد أيضا بقوله صلى الله عليه وسلم لأنس بن أبي مرثد: قد أوجبت فلا عليك ألا تعمل بعدها.

وهذا أثر المبادرة إلى الطاعة، وكيما يكون أجر بها أجرا حسنا، وحين يكون الجزاء وهو النجاة من النار، وعفو عن عمل النوافل، وكما قد قيل، وغير أن نفوسا بذلت هكذا بذلا، وإذ تراهم، وكما أثنى عليهم قرآنهم، وكما أمجد ربهم صنيعهم، وبقوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنين:٦١].

ولأن هذا الصحابي الكريم، أنس بن أبي مرثد، قد بادر، ولأنه كان قد سارع. وإذ كانت عينه صلى الله عليه وسلم عليه، فردا ممتازا وعبقريا فرى فريا، كان منه انشغاله صلى الله عليه وسلم عليه، وحق له صلى الله عليه وسلم، قائدا فذا كريما حانيا، وكما قد حق لأنس بن أبي مرثد، عبدا باذلا أبيا جوادا، وحتى وكان من سببه التفاته صلى الله عليه وسلم في صلاته، وتحسبا لمجيئه، واستعجالا لقدومه! نبيا كان رؤوفا، ورسولا كان رحيما- صلى الله عليه وسلم-؛ ولأن هذا موجب المحبة، ولأن هذا مطلق الولاء لله تعالى البر الرحيم، وكذا لعباده الصالحين، وكما قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: إِنَّ المُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا. وشَبَّكَ أصَابِعَهُ(٢).

---

(١) صحيح البخاري: ٢٨٩٢

(٢) المرجع السابق: ٤٨١

وبيد أن القائد يتابع جنده، والحراس منهم على وجه أخص، وكيما يؤدوا أعمالهم جميعا، وفي منظومة كلها بذل، وكلها فناء وعطاء، وحين سأل صلى الله عليه وسلم أنس بن أبي مرثد: هل نزلت الليلة؟

وليكون هكذا رده: لا، إلا مصليا أو قاضي حاجة. ولأنها ضرورات جائزة، ومن حق الفطرة والجبلة الناجزة.

ولهذا السبب كان جزاؤه فضلا عظيما، وحين طمأنه صلى الله عليه وسلم، وعن نفسه كثيرا، عملا حسنا، وجزاء حسنا أيضا، وحين كان منه صلى الله عليه وسلم أن غرس فيه أمنا وسلاما، وإذ طبعه بطابع الأمن والسلامة والسكينة البالغة مبلغا في فؤاده، والعاملة عملها في قلبه، راحة ورضا وانشراحا، وإذ وما بالك بنبي كان قوله بلسما، وإذ وما شأنك برسول كان كلامه على السرور باعثا، وعلى الفرح والأمن والسكينة موجبا؟!- ﷺ- وحين قال له رسول الله ﷺ: قد أوجبت فلا عليك ألا تعمل بعدها.

مسألة الالتفات في الصلاة

وأما الالتفات في الصلاة، فدل حديث الباب، وعلى جوازه، ولحاجة، وكان منها انشغاله صلى الله عليه وسلم على حارس جيش المسلمين يوم حنين يوم هوازن.

وأما إذا كان لغير حاجة، فيكون اختلاسا شيطانيا من صلاة العبد.

فعن عائشة أم المؤمنين: **سَأَلْتُ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَنِ الِالْتِفَاتِ في الصَّلَاةِ؟ فَقالَ: هو اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِن صَلَاةِ العَبْدِ**(١).

وقوله: فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصلي ويلتفت إلى الشعب، يعني: فكان يصلي ويلتفت، وهذا يدلنا على أن الالتفات في الصلاة إذا كان لحاجة تقتضي ذلك كالخوف فقد فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما الالتفات المحذور ما كان لغير حاجة(٢).

والالتفات في الصلاة للتعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الوسوسة لا حرج فيه، بل هو مستحب عند شدة الحاجة إليه بالرأس فقط. (٣). وهذا يدل على كراهة الالتفات، نقص في الصلاة، إلا من حاجة، كما بيّن النبي صلى الله عليه وسلم إذ سبّحوا به (٤).

ثم الالتفات إنما يكون بإدارة الرأس وليس بإدارة الجسم، لأنه إذا أدار الجسم أخل باستقبال القبلة(٥).

والالْتِفاتُ هو تَحويلُ الوجهِ وتحريكُهُ يمينًا ويَسارًا في الصَّلاةِ (٦).

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام أبو داود من حديث سهل بن الحنظلية الأنصاري: **أنَّهم ساروا معَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ يومَ حُنَيْنٍ**

---

(١) صحيح البخاري: ٧٥١
(٢) شرح سنن أبي داود، العباد: ٦/٢٩٣
(٣) مجموع فتاوى ابن باز: ١ /١٣٠
(٤) مجموع فتاوى ابن باز: موقع الشيخ على الشبكة العنكبوتية
(٥) شرح سنن أبي داود، العباد: ٦/٢٩٣].
(٦) موقع الدرر السنية على الشبكة العنكبوتية

فأطنَبوا السَّيرَ حتَّى كانت عشيَّةً فحضرتُ الصَّلاةَ عندَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ فجاءَ رجلٌ فارسٌ فقالَ يا رسولَ اللَّهِ إنِّي انطلقتُ بينَ أيديكم حتَّى طلعتُ جبلَ كذا وَكَذا فإذا أنا بِهَوازنَ علَى بَكْرةِ آبائِهِم بظَعنِهِم ونعَمِهِم وشائِهِم اجتَمعوا إلى حُنَيْنٍ فتبسَّمَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ وقالَ تلكَ غَنيمةُ المسلِمينَ غدًا إن شاءَ اللَّهُ ثمَّ قالَ مَن يحرسُنا اللَّيلةَ قالَ أنَسُ بنُ أبي مرثدٍ الغَنويُّ أنا يا رسولَ اللَّهِ قالَ فاركَب فرَكِبَ فرسًا لَهُ فجاءَ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ فقالَ لَهُ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ استقبل هذا الشِّعبَ حتَّى تَكونَ في أعلاهُ ولا نغرَّنَّ من قبلِكَ اللَّيلة فلمَّا أصبَحنا خرجَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ إلى مصلَّاهُ فرَكَعَ رَكْعتينِ ثمَّ قالَ هل أحسَستُمْ فارسَكُم قالوا يا رسولَ اللَّهِ ما أحسَسناهُ فثوِّبَ بالصَّلاةِ فجعلَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ يصلِّي وَهوَ يلتَفتُ إلى الشِّعبِ حتَّى إذا قضى صلاتَهُ وسلَّمَ قالَ أبشِروا فقد جاءَكُم فارسُكُم فجَعلنا ننظرُ إلى خلالِ الشَّجرِ في الشِّعبِ فإذا هوَ قد جاءَ حتَّى وقفَ علَى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ فَسلَّمَ فقالَ إنِّي انطلقتُ حتَّى كنتُ في أعلى هذا الشِّعبِ حيثُ أمرَني رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ فلمَّا أصبحتُ اطَّلعتُ الشِّعبينِ كِلَيهما فنظرتُ فلم أرَ أحدًا فقالَ لَهُ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ هل نزلتَ اللَّيلةَ قالَ لا إلَّا مصلِّيًا أو قاضيًا حاجةً فقالَ لَهُ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ قد أوجَبتَ فلا عليكَ أن لا تَعملَ بعدَها(١).

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٢٥٠١

إن الله قد كفى وأحسن يا أم سليم

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم حنين لأم سليم، وحين رآها تحمل خنجرا؛ ولتبعج به بطون الكفار! وحين قالت قولها هذا، ضحك صلى الله عليه وسلم من فعلها، ومن قولها معا؛ ولأنه هكذا كانت صنوف هذه الأمة، باذلة لا تألوا جهدا، ولا تضن بجهاد أعدائها، ومع دعاة الحق والعدل والقسطاس المستقيم، ولا سيما حين تكون امرأة، وقد أفسح لها هذا الدين من فسحته الواسعة، وأن تشارك، وعلى قدره، وبشرطه معا.

لكن قول نبينا صلى الله عليه وسلم يوم حنين الآنف الذكر، هو من عبقريته صلى الله عليه وسلم أيضا، وحين استثمار ما أمكن استثماره من وقائع وأحداث، ولصالح قلوب العباد، وحين يربطها هذا النبي بربها تعالى أبدا، ولأنه وحين تكون القلوب بالله تعالى خالقها متصلة، فأمن تحقق نعم، وسلم تأكد نعم. راحة وقعت أن نعم أيضا، ولهذا كان حرصه صلى الله عليه وسلم أن يؤكد على هذا المعنى العظيم الكريم كل حين، وبتحديد آصرة التقوى، وحين كان من أثرها تلكم القلوب الماثلة بالطاعة لله تعالى ربها، فتتقدم وتتأخر، وترضى وتغضب، وتحتوي وتفرج، وتلين وتشد، وتعف وتكف، وتبذل وتدول.

من قتل كافرا فله سلبه.

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم حنين يوم، هوازن، وحين حمي وطيس يومها، وكانت شدة وطأته على المسلمين عظيمة، ويوم أن نادى نبينا

محمد صلى الله عليه وسلم على أتباعه، ومن بايعوه، وألا يسلموه، وحين قال صلى الله عليه وسلم: يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله.

ثم قال: يا معشر الأنصار أنا عبد الله ورسوله. وحين جاء مالك بن عوف بظعائنه ونعمه وشائه؛ ليحارب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وإذ لم يكن في خلد أحد أن محادة الله تعالى ورسوله سوف تمر هكذا، ودون أن يدفع الكفار أثمان تعديهم وكفرهم معا، ولأن كافرا يمكن أن يكون مسالما، فيكفيناه الله تعالى شره، وأما كافر معاد، فهذا له حكمه في شرعة الرحمن، وحين قال الله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠].

وإذ كان قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم آنف الذكر؛ تحفيزا للقتال، وحين اشتد، وكان من شدته أن انحاش نفر غير قليل من أرض الميدان! ولهذا يكون هذا القول بمثابة فن عسكري باهر؛ لاستدعاء كل ما في النفوس من طاقة، ولتصبح المعركة من بعدها راجحة الدفة، ولصالح المسلمين، وهذا الذي حدث يوم حنين، وبعد قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قوله هذا، اشتد بأس المسلمين، وحتى أثخنوا في عدو الله تعالى وعدوهم، وحين قتل أبو طلحة وحده يومئذ عشرين رجلا، وأخذ أسلابهم. ولأنَّ الرسولَ قال يومَ حُنَينٍ: من قتل رجلًا فله سلَبُه. فقتل أبو طلحةَ يومئذٍ عشرين رجلًا وأخذ أسلابَهم. [إرواء الغليل، الألباني: ١٢٢١]. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

وقال أبو قتادة: يا رسول الله إني ضربت رجلا على حبل العاتق وعليه درع له، فأجهضت عنه فانظر من أخذها. فقام رجل فقال: أنا أخذتها فأرضه منها وأعطنيها.

ولأنَّ هَوازِنَ جاءتْ يومَ حُنَيْنٍ بالصِّبْيانِ والنِّساءِ والإبِلِ والنَّعَمِ، فجَعَلوهُم صُفوفًا يُكْثِرون على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلمَّا التَقَوْا ولَّى المسلِمونَ مُدبِرينَ، كما قال اللهُ عزَّ وجَلَّ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: يا عبادَ اللهِ، أنا عبدُ اللهِ ورسولُه، يا مَعشرَ الأنصارِ، أنا عبدُ اللهِ ورسولُه، فهَزَمَ اللهُ المُشرِكينَ -قال عفَّانُ: ولم يَضرِبوا بسَيفٍ ولم يَطعَنوا برُمْحٍ- وقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَومَئذٍ: مَن قَتَلَ كافِرًا فلَه سَلَبُه. فقَتَلَ أبو طَلْحةَ يَومَئذٍ عِشرينَ رَجُلًا وأخَذَ أسلابَهُم، قال: وقال أبو قَتادةَ: يا رسولَ اللهِ، ضَربتُ رَجُلًا على حَبْلِ العاتِقِ، وعليه دِرْعٌ، فأجْهَضْتُ عنه، فانظُرْ مَن أخَذَها، فقام رَجُلٌ فقال: أنا أخَذْتُها، فأَرْضِهِ منها، وأعْطِنيها، قال: وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لا يُسألُ شيئًا إلَّا أَعطاه أو سَكَتَ، فسَكَتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال عُمَرُ: لا واللهِ لا يُفيئُها اللهُ على أسَدٍ مِن أُسْدِه ويُعطيكَها، فضَحِكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وقال: صَدَقَ عُمَرُ. قال: وكانتْ أُمُّ سُلَيْمٍ معها خِنجَرٌ، فقال أبو طَلْحةَ: ما هذا معكِ؟ قالتْ: اتَّخَذتُه إنْ دَنا منِّي بعضُ المُشرِكينَ أنْ أَبْعَجَ به بَطنَه، فقال أبو طَلْحةَ: يا رسولَ اللهِ، ألَا تَسمَعُ ما تقولُ أُمُّ سُلَيْمٍ؟ قالتْ: يا رسولَ اللهِ، اقتُلْ مَن بَعْدَنا مِن الطُّلَقاءِ انهَزَموا بكَ، قال: إنَّ اللهَ قد كَفانا وأحْسَنَ يا أُمَّ سُلَيْمٍ (١).

---

(١) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ١٢٩٧٧. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح على شرط مسلم.

وكون أن رسول الله ﷺ كان لا يُسألُ شيئا إلا أعطاه أو سكت. فهذا أيضا فن عسكري آخر، وحين كان الناس يموجون، وفي مثل هذا الموقف يتهيأ القائد الأعلى للقوات المسلحة الإسلامية؛ ولمجابهته، وليس بسيف قوته، وليس ببطش فعله، ولكن مهدهدا وإيجابيا، وإذ كان من فعله ذلك أن الإيجابية وقد حلت بسائر معانيها؛ لتنتج أثرها الواقع، ولتثمر ترياقها الناقع، وعن رضا ومحبة، وإذ كان من أمرهم أنهم يسلمون تسليما، وكما قال الله تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

إن المدرسة العسكرية المسؤولة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ فعلت ذلك، وإنما نريدها مدرسة لكل الأجيال، وحتى يمكننا استدعاء طاقات البذل الكامنة لدى الأفراد، فيجودون، ويذودون، تلقاء أنفسهم، لا أن يطلبوا أجازات يوما ومن بعد يوم آخر؛ هروبا من كبت النفوس، وضيق الصدور، وحين استشعروا أنهم مقادون عنوة وسخريا وسخرة!!!

لا تنتهي هزيمتهم دون البحر

هذا قول أبي سفيان صخر بن حرب، زعيم مكة، ومن قبل الفتح المبين، فتح مكة البلد الأمين، وإذ قال الشماتة بعينها، ويوم أن رأى انكشاف المسلمين أول مرة، أمام ثقيف يوم هوازن يوم حنين!

والعجب هنا أنه كان قد أسلم! ولكنه يبدو أن كلمة التوحيد العالية السامقة، ولما لم تكن كافية، ودون دربة القلوب على الاتصال بعلام الغيوب،

وحين يستقر القلب بها، وحين يكون عاملا بنور الله تعالى الحق المبين سبحانه. ولهذا كانت قوافل الدعاة لازمة أبدا، لتذكير الناس وربطهم بدينهم، لينشأ مجتمع الخير الفاضل العالي الرفيع السامق. إذ كان من أمره أنه يحمل مشاعل الخير والهدى والصلاح للناس، وعدم الارتكان أن فردا نطق الشهادتين، ولأن الأمر له ما بعده، من إماطة ركام الجهل والجاهلية، واللذان خيما على قلوب، فأضحت مظلمة، وإن كان نور الهدى قد لاح ومن أمامها.

وإذ كان منه تخول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الناس بالموعظة، وكما قال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: **كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتَخَوَّلُنا بالمَوْعِظَةِ في الأيَّامِ، كَراهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنا** [1].

ومنه أيضًا قوله تعالى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

ومصداق قولنا هذا هو قول أبي سفيان سالف الذكر! وأن الرجل وإن كان قد أسلم، وإلا أن ركام الجاهلية ما زال معششا فيه، ولو من وجه، أو من وجوه!! ولما يدخل الإيمان في قلوبهم بعد! ولهذا السبب كان قوله تعالى فاصلا هھنا، وحين قال سبحانه ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات:١٤].

وإن من مصداق قولنا هذا أيضا وما ذكر التاريخ، وكما حكى الإمام العماد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: أن أبا سفيان وإذ كان إسلامه بَعْدُ مدخولا! وكانت الأزلام بعد معه يومئذ!

---

(١) صحيح البخاري: ٦٨

قلت: ولهذا كان يسر تقبل أن يقول قوله هذا: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر!

وهذا أمر جد مشاهد!! فإنك واجد جمعا غفيرا، ولربما كان إمام قوم ويسوسهم ويسودهم، ولربما كان مغبونا، ولربما كان سيدا أو زعيما، وإذ كان مفرغا من قيم، وإذ ألفيته محروما من آداب، وإذ هو يقول للناس: قال رسول الله ﷺ: إنَّ أحبَّكم إليَّ وأقربَكم منِّي في الآخرةِ محاسنُكم أخلاقًا وإنَّ أبغضَكم إليَّ وأبعدَكم منِّي في الآخرةِ أساوِئُكم أخلاقًا الثَّرثارونَ المُتَفَيهِقونَ المُتشدِّقونَ!! (١).

لكن الذي حدث، ومن أبي سفيان، يوم حنين، ومن غيره، موجب حذرا، وموجب تحرزا، ولاسيما إذا كان في الصف غيره، ومن أمثاله، وعلى شاكلته، ولربما أوضعوا خلال الصف! ولا سيما أيضا أنه كان من مثله ما أفرز الحدث عن وجود ذلكم المثل، طبيعة واحدة، لكنها وكعملة ذات وجهين، أحدهما مكتوبا عليه الشعار، وأما الوجه الآخر فمكتوب عليه كتابا!

وحين انهزم الناس أول مرة، تكلم رجال من جفاة الأعراب بما في أنفسهم من الضغن! وهذا صراخ كلدة بن الحنبل، وهو مع أخيه صفوان بن أمية - يعني لأمه - وهو مشرك في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ: ألا بطل السحر اليوم (٢).

وأعود فأقول: إن حكمة تلبسها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يوم حنين!!! وحين فتح المجال أمام أولاء قصار النظر، وإذ قالوا الشماتة بعينها، وأظهروا النفاق من لبه!! ولكنه صلى الله عليه وسلم أراد أن:

---

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ٨/٢٤. خلاصة حكم المحدث: رجاله رجال الصحيح.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٤ / ٨٩٤

أولا: يخالط هؤلاء حديثو العهد بالإسلام قومهم، ولعلهم- وهذا حق- أن تتغير مشاربهم، وأن يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم، ومن بعد رين الجاهلية وركامها ودخنها!

ثانيا: علمه صلى الله عليه وسلم المسبق عن ربه بنصره! ومنه فيتحمل أراجيف قوم بعد، ومنه ليريهم الآيات، ومن بعد شماتتهم، ولعل هذا يقذف في قلوبهم يقينا مركبا، فيحبون الإسلام، الذي هو الهدى والنور والسرور والحبور، ويوقنون ومن بعد شكهم أيضا، وينقادون ومن بعد ريبهم وأفولهم أيضا، وحين علموا ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾! [القصص:٧٥].

وهذا الذي حدث يوم قلبت موازين القوى، وفاء المسلمون جميعا بنصره تعالى المظفر، وبعونه تعالى المقدر!

ثالثا: إن تكثير الجند في بعض مواقع القتال كان أمرا عبقريا، وإذ كان قرارا نبويا ألمعيا، وحين خرجت هوازن برجالها وظعنها وشائها وخيلها، ليحاربوا الله ورسوله، وإذ كان لزوم الإرهاب واجبا، وإذ كان موجب الإرعاب لازما!

وهو من لوازم قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٦٠].

وهذا فن عسكري باهر!

إنه ليس لنبي أن يومي

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو قول منبئ عن كم كان خلقه صلى الله عليه وسلم. وحين أنزل الله تعالى فيه قرآنا يتلى، وإلى يوم الدين والحساب والجزاء والحشر والنشور، وحين قال الله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

لكن هذا القول خاصة له قيمته، وحين ابتلي قوم كثر بإيماءة عيونهم، وحين كانت إشارة إلى أنهم يلمزون ويهمزون، وإذ كان هذا وذلك خلقا غير صالح، وفيه أنزل الله تعالى قرآنا يتلى إلى يوم الدين أيضا، وحين كانت سورة كاملة، وما ذلك إلا لشناعة هذا الخلق ووضاعته وسفله وذمه، وحين قال الله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة:١-٩].

وقال ابن عباس: همزة لمزة طعان معياب. وقال الربيع بن أنس الهمزة يهمزه في وجهه واللمزة من خلفه. وقال قتادة الهمزة واللمزة لسانه وعينه ويأكل لحوم الناس ويطعن عليهم. وقال مجاهد الهمزة باليد والعين واللمزة باللسان [١].

وأنت راء كم ألوى القرآن الحكيم على هاتين صفتين؛ ولأنهما ينمان عن خلق غير صالح، ولمن ابتلي بهما أحدهما أو كليهما.

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج ٤ /٥٨٦

وهذا هو الذي قال عنه صلى الله عليه وسلم، وفي موضع آخر: إنه لا ينبغي لنبيٍّ أن تكونَ له خائنةُ الأعينِ.

فعن سعدِ بنِ أبي وقاصٍ قال: لمَّا كانَ يومُ فتحِ مَكَّةَ، أمَّنَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ النَّاسَ، إلَّا أربعَةَ نفَرٍ وامرأتينِ وقالَ: اقتُلوهم، وإن وجَدتُموهم متَعلِّقينَ بأَستارِ الكَعبةِ، عِكْرمةُ ابنُ أبي جَهْلٍ وعبدُ اللَّهِ بنُ خطلٍ ومقيسُ بنُ صبابةَ وعبدُ اللَّهِ بنُ سعدِ ابنِ أبي السَّرحِ فقالَ : أما كانَ فيكُم رجلٌ رشيدٌ يقومُ إلى هذا حيثُ رآني كفَفتُ يدي عن بيعتِهِ فيقتلُهُ فقالوا : وما يُدرينا يا رسولَ اللَّهِ ما في نَفسِكَ، هلَّا أوأمات إلينا بعينِكَ؟ قالَ: إنَّهُ لا ينبَغي لنبيٍّ أن يَكونَ لَهُ خائنةُ أعينٍ[1].

وإذ كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا، وليس له خائنة الأعين، ولا يليق بمقامه صلى الله عليه وسلم أن يشير بعينه إشارة خفية ولو إلى شيء مباح؛ مثل قتل شخص مهدور الدم.

ومعنى خائنة الأعين: أن يخفي في قلبه غير الذي يظهره للناس، أو يظهر للناس أو بسبب بعض الناس أمانا ثم يلتفت إلى غيره ويومئ له بعينه أو بأي إشارة فيها الغدر بمن أمنه النبي صلى الله عليه وسلم فيكون ذلك خيانة، والنبي صلى الله عليه وسلم منزه عن الخيانة مطلقا[2].

وهذا هو الذي حدث يوم حنين، ويوم أن أحدث رجل من هوازن قتلا في المسلمين، وقد نذر أحدهم أن يقتله، وإلا أنه جاء مسلما وأعرض النبي ﷺ عن

(١) صحيح النسائي، الألباني: ٤٠٧٨

(٢) الموسوعة الحديثية - الدرر السنية

بيعته وريثما يوفي الناذر بنذره، وإلا أنه لن يتلقى الأمر مباشرة وإلا لأنهم كانوا وقافين عند النص ولا يقدمون بين يدي الله ورسوله شيئا. وحينها قال الرجل: يا رسول الله ألا أومأت إلي؟

وعندها قال صلى الله عليه وسلم: «إنه ليس لنبي أن يومي».

والإيمَاءةٌ: حَرَكَةٌ، إشَارَةٌ، لَفْتَةٌ بِوَاسِطَةِ عُضْوٍ مِنْ أعْضَاءِ الجِسْمِ أَوْ مَلاَمِحِ الوَجْهِ.

وأومأ إليه/ أومأ له: أشار إليه بيده أو بعينه أو بحاجبه أو برأسه أو غيرها، كدلالة على الموافقة أو المعرفة. ترى النَّاسَ إن سرنا يسيرونَ خلفنا وإن نحن أومأنا إلى النَّاس وقّفوا.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه: شَهِدَ أنسَ بنَ مالكٍ قال: فقال العلاءُ بنُ زيادٍ العَدَويُّ: يا أبا حَمزةَ، بِسِنِّ أيِّ الرِّجالِ كان نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إذْ بُعِثَ؟ قال: ابنُ أربعينَ سَنةً، قال: ثم كان ماذا؟ قال: كان بمكَّةَ عَشْرَ سنينَ، وبالمدينةِ عَشْرَ سِنينَ، فتَمَّتْ له ستُّونَ سَنةً، ثم قبَضَه اللهُ إليه. قال: سِنُّ أيِّ الرِّجالِ هو يَومَئذٍ؟ قال: كأشَبِّ الرِّجالِ، وأحسَنِه، وأجمَلِه، وألحَمِه. قال: يا أبا حَمزةَ، هل غَزَوتَ مع نبيِّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ قال: نَعَمْ، غَزَوتُ معه يومَ حُنَيْنٍ، فخرَجَ المُشرِكونَ بكَثرةٍ، فحَمَلوا علينا حتى رَأيْنا خَيْلَنا وراءَ ظُهورِنا، وفي المُشرِكينَ رَجُلٌ يَحمِلُ علينا، فيدُقُّنا، ويَحطِمُنا؛ فلمَّا رأى ذلك نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نزَل فهزَمَهمُ اللهُ فولَّوْا؛ فقام نبيُّ اللهِ حينَ رَأى الفَتْحَ، فجَعَلَ يُجاءُ بهم أُسارَى رَجُلًا رَجُلًا، فيُبايعونَه على الإسلامِ، فقال رجلٌ من أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ عليَّ نَذْرًا لَئِنْ

جيءَ بالرَّجُلِ الذي كان منذُ اليومِ يَحطِمُنا، لَأضرِبَنَّ عُنُقَه، قال: فسكَتَ نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وَجيءَ بالرَّجُلِ، فلمَّا رأى نبيَّ اللهِ قال: يا نبيَّ اللهِ، تُبتُ إلى اللهِ، يا نبيَّ اللهِ، تُبتُ إلى اللهِ، قال: فأمسَكَ نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلم يُبايِعْه؛ لِيوفيَ الآخَرُ نَذرَه. قال: فجَعَلَ يَنظُرُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليَأمُرَه بقَتلِه، وجعَلَ يَهابُ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَقتُلَه، فلمَّا رَأى نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه لا يَصنَعُ شيئًا بايَعَه، فقال: يا نبيَّ اللهِ، نَذْري، قال: لم أُمسِكْ عنه مُنذُ اليَومِ؛ إلَّا لِتوفيَ نَذرَكَ. فقال: يا نبيَّ اللهِ، ألَا أومَضْتَ إليَّ؟ فقال: إنَّه ليس لنَبيٍّ أنْ يومِضَ [(١)].

أنَا النبيُّ لا كَذِبْ، أنَا ابنُ عبدِ المُطَّلِبْ

عن أبي إسحاق، **سمع البراء بن عازب - وسأله رجل من قيس أَكُنْتُمْ فَرَرْتُمْ يا أبَا عُمَارَةَ يَومَ حُنَيْنٍ؟ قالَ: لا واللَّهِ، ما ولَّى رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ولَكِنَّهُ خَرَجَ شُبَّانُ أصْحَابِهِ، وأَخِفَّاؤُهُمْ حُسَّرًا ليسَ بسِلَاحٍ، فأتَوْا قَوْمًا رُمَاةً، جَمْعَ هَوَازِنَ، وبَنِي نَصْرٍ، ما يَكَادُ يَسْقُطُ لهمْ سَهْمٌ، فَرَشَقُوهُمْ رَشْقًا ما يَكَادُونَ يُخْطِئُونَ، فأقْبَلُوا هُنَالِكَ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو علَى بَغْلَتِهِ البَيْضَاءِ، وابنُ عَمِّهِ أبو سُفْيَانَ بنُ الحَارِثِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ يَقُودُ به، فَنَزَلَ واسْتَنْصَرَ، ثُمَّ قالَ: أنَا النبيُّ لا كَذِبْ، أنَا ابنُ عبدِ المُطَّلِبْ، ثُمَّ صَفَّ أصْحَابَهُ**[(٢)].

وهكذا يعيد التاريخ نفسه، وإذ مازال يوم أحد ماثلا بين أعيننا.

---

(١) تخريج المسند شعيب الأرناؤوط: ١٢٥٢٩. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

(٢) صحيح البخاري: ٢٩٣٠

لكننا وحين نسجل هذا، وكما سجله التاريخ؛ وكيما تقف الأمة على أسباب هزيمتها؛ ولتعدل وتوفق؛ وتضع خططها لإزالة مثل هكذا من تاريخها، وألا يتكرر سوؤه من جديد!

ولعلها منه تفيد، وحين تكون الأوبة مرة أخرى، ولأرض الميدان؛ ولأن هذه الأمة في رباط إلى يوم القيامة، ومنه فكان حريا بها أن تكون السباقة في رسم خططها العسكرية المجيدة، وبإتقان وتفان وترشيح وتقطير، وبحيث لا ينفذ منها نافذ، ومن بعد، وكيما به تتبوأ مكانتها وصدارتها، ومن علٍ! ولأنها أمة أستاذة؛ علمت التاريخ، وكيف يكون مجيدا، وحين تركت إرثا عز على غيرها أن تورث منه، ولو بصيصه، أو قريبا منه، أو بعيدا! وهذا ما يتواءم مع كونها الأمة الوسط، وكما وصفها ربها الباريء تعالى، وكما في قوله سبحانه **﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾**[البقرة:١٤٣].

وهذا ما يتلاءم مع كونها الأمة الخيرة، وحين أضحت آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، وكما نعتها ربها الكبير المتعال سبحانه، وكما قال تعالى **﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾**[آل عمران:١١٠]. وكيما تترسم من أمجادها آفاق التوحيد، وأصول الاعتقاد السليم في ربها الرحمن سبحانه، ولتبسط قيمتها وهيبتها وسط عالم، هائج، مارد ومتمرد على أحكام السماء، وإذ ما تنزلت إلا لتكريم ذلكم الإنسان! وجعله بحق قائما بمقتضى ما يليق به من خلافته ربه تعالى في أرضه! فليس يحل إلا ما أحل، وليس يحرم إلا ما حرم، وليس يرفع قدما عن قدم إلا بهدى، وليس ينطق ببنت شفة إلا من سنن

واتباع! وإذ كان قاصرا أن يعرف وكيف يأكل؟! أو كيف يشرب؟! أو كيف يلبس وإلا بهدى! وما بالك وحين قد تقمص قميص الألوهية! فأصبح يعيث فسادا، ومن بعده فساد آخر، وحين نصب نفسه مشرعا وحاكما وآمرا وناهيا، لا من هدى، وأنَّى له؟! وإنما من ضلال، ولا من تواضع! وإنما من كبر! وليس من صلاحيته! بل من عدم صلاحيته! وإذ ليس داخلا كل ذلك وسواه في قدرته، وإن كانت قدرته، وإن وجدت، فعلى قدر ما أمكنه منه ربه من خلع ملابسه وارتدائها ودخوله الحمام وتطهره؛ وبهدي السماء أيضا!

وناهيك عما بدل، وغير، ونفر، وأدبر، واستكبر! وفي المسائل العظام! وحين ترك إرثا لأجيال قادمة، ولسوف تئن، وكما أَنَّتْ أسلافها من رين رِبَاه، وكما صرخت واستغاثت أخلافها من شين زِنَاه!! وكما ضجت أبناؤها من زكم ريحه، وفيحه، وسهاده، ورقاده! والله المستعان!

وهذا هو الذي حدث يوم حنين، وحين وعى المسلمون الدرس، وهبوا هبتهم، وعلى عدو الله تعالى وعدوهم، ولتكون آية للمؤمنين، وحين تقلب لصالحهم موازين القوى، ويتقلبوا في فرحة نصرهم، ومن بعد خذلانهم.

ولكنك أيضا قد وقفت على كم كان ثبات هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يوم حنين، وحين وقف وحده في ميدان الوغى والبذل، وليعود إليه جنده، وليبدل الله تعالى عليهم خوفهم أمنا.

وهذا هو عمل القائد، يثبت ولا يفر، يصبر ولا يجزع، يطمئن ولا يخاف، ويهدأ ولا يروع، ويوقن بنصر ربه، وليس يساوره غيره، ولو من قطمير! ولأنه بثباته

يثبت الميدان كله، ولأنه بفراره ينخذل الميدان كله، ولربما لم تقم لهم من بعده قائمة أبدا!

وبيد أنك واقف على هذا التعبير الحاني العالي الرفيع الشأن، وحين ملأ الحياء الناس، وحين اكتسوا بظلاله، وحين ارتسمت به ملامحهم، ولما أن تزينت به وجناتهم، وحين سئلوا: أفررتم؟! وليقولوا: لكن رسول الله ﷺ لم يفر!! في حياء وانكسار، وفي ندم واستغفار، عما زلوا به من قدم، وحين اضطروا ولأنهم قالوا: لن نغلب اليوم من قلة! وعلى ترك نبيهم وحده في الميدان، وإذ ها هو يطاول عنان السماء؛ يقينا بربه، وأنه تعالى عاصمه، وكما أنه تعالى وعما قريب، ولسوف يصير هو مخز عدوه وقاصمه، وعاصفه، وكاسرا عتوه وكبره، ومخطما أنفه، وملقيا به حتفه، ولما أبى، واستكبر، وحين قال وزبانيته معه ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٤و٢٥].

وألفاني مستحضرا صورة الصحب الكرام، وهم إذ يعضون أنامل ذات أصابعهم، وهم إذ يقولون: أنحن كنا في فكرة أم كنا في سكرة؟! وإذ تركنا من بايعناه على منشطنا ومكرهنا، ويسرنا وعسرنا، ونصره وولائه، وذودا عنه وجهادا معه، وسمعا له وطاعة، وأنحن أولاء؟! أم تصور بنا إبليس اللعين؟!

وهذه صورة إيجابية أخرى، وحين يرجع العبد، وإلى ذات الحق والصراط والقسطاس المستقيم، لا أن يعض بنواجذه على استهتاره، ولا أن يمسك عن أوبته وتوبته واستغفاره، وها هو شأنه، والذي قد رسم صورته نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم وحين قال: **إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخافُ أَنْ يَقَعَ عليه، وإِنَّ الفاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبابٍ مَرَّ علَى أَنْفِهِ فقالَ به هَكَذا، قالَ أبو**

شِهابٍ: بيَدِهِ فَوْقَ أنْفِهِ. ثُمَّ قالَ: لَلَّهُ أفْرَحُ بتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِن رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وبِهِ مَهْلَكَةٌ، ومعهُ راحِلَتُهُ، عليها طَعامُهُ وشَرابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنامَ نَوْمَةً، فاسْتَيْقَظَ وقدْ ذَهَبَتْ راحِلَتُهُ، حتَّى إذا اشْتَدَّ عليه الحَرُّ والعَطَشُ أوْ ما شاءَ اللَّهُ، قالَ: أرْجِعُ إلى مَكانِي، فَرَجَعَ فَنامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فإذا راحِلَتُهُ عِنْدَهُ (١) .

وكأنما تتشقق الأرض من تحتهم، وإذ ها هم ولدى مجيئهم، وكأنما من حيائهم عنده يَحْبَون، وهم منكسرون، مطأطؤون رؤوسهم ولا يرفعون! وإن قيل: وكيف فهمت وصفك ونعتك وسمتك هذا؟!

وقلت: وكما قال الله تعالى ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف:٩٤].

وكما أن فيه الإيحاء بالتعريض، وخروجا من كذب، وحياء من حقيقة!!!

وهذه بلاغة القوم، وحين كان نبيهم صلى الله عليه وسلم أبلغ، وحين وقف بشرا وحيدا في الميدان! مستمطرا سحائب الرحمة، ومستدعيا سخائم التأييد، ومستنزلا أسباب نصره تعالى، وفتحه المبين يوم حنين! و﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥].

(١) صحيح البخاري: ٦٣٠٨

صدق عمر

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يوم حنين يوم هوازن، ويوم أن قتل أبو قتادة مشركا، ولكنه لم يجد سلبه، وكان صلى الله عليه وسلم قد قال صلى الله عليه وسلم: من قتل كافرا فله سلبه.

وإنما كان قوله هذا صلى الله عليه وسلم؛ تحفيزا وتنشيطا لعمل البذل والجهاد والمقاتلة، وقد أنف أن هذه عبقرية عسكرية نبوية، وبها تستدعى طاقات البذل الكامنة، وما أعظمها في نفوس المجاهدين! وبدل أن يشعر الفرد بأنه فرد، وما عداه بأنهم غير أفراد! في تمييز معيب أثقل كاهل القوات المسلحة، وحين كان تبرم منها مشاهدا وملحوظا، وحسن مراعاة ذلك.

وهذا نداء حان لإصلاحها، واهتماما بالجندي المسلم؛ لأنه عماد حركتها وأساس قوتها، ونافذة نهضتها، ولا هضم لحقوق سواه في هذه المنظومة المتضامة، أو هكذا يجب أن تكون، ولتقوم بعملها المنوط بها، وعلى أحسن وجه ممكن، دفاعا عن المقدسات، ولا أقدس من ديننا، ولا أعظم من مقدراتنا.

وإنما قال الفاروق عمر قوله هذا، وعلى خلاف أهو أم أبو بكر؟ وكلاهما ليس بفارق، وإنما التعويل على ما ضمنه ذلكم قول ذهبي، وحين قال رجل من المسلمين: أنا أخذتها يا رسول! وفي إشارة إلى الصدق، وهو ذلكم الوصف الحسن الجميل، وحين كان لباسا للمؤمنين، ولما أضحى رداء للمسلمين، ولكنه كان اجتهادا في غير محله، وإذ كيف يتجرأ هكذا من لا عمل له أن يأخذ ثمرة من كان ذا عمله؟! وها هم أولاء الكفار يطيشون في العباد، ويحصدونهم يوم حنين، وكان الأولى أن يعمل، وكعمل أبي قتادة ومن ثم يظفر كظفره! وهذه عبقرية عمرية أو

صديقية معا، وحين قال قوله هذا: والله لا يفئها الله على أسد من أسد الله ويعطيكها! وفي وجود نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أقر عمر الفاروق- أو أبا بكر- على قوله، ومنه فإن هذه أمة تستحضر قيم العدل، وفي مسيرتها نحو آفاق المجد والعلا، وهي إذ تتفيأ مراقي الصعود، وإلى القمة السامقة، وبعدلها الذي قامت عليه السماوات والأرض، وإذ لا حيف معه أبدا، وإذ كان ذلك من معاني توحيدها، وحين شهدت شهادة الحق والتوحيد والعدل، وكان أن تعمله فيما بينها أدعى وأولى وأقوم قيلا.

ولو لم يكن هذا قد حدث، لتوالد متواكلون، ولكثر الانتهازيون! وحين تكون الأمة وبأسرها في خبر كان التاريخي! وليست تكون! أو سوف؛ ولأنها بكَّرَتْ باضمحلالها، وحتى أذنت بزوالها: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:٢٣].

وهذه السنن التي لا يعتورها محاباة، وهذه الأصول التي لا تشوبها مباهاة، وإذ ألفيتها تقض مضاجع أمم، وتزيل وتهين وتسقط من علٍ مراقي قمم!

ودلك على صحة مذهبنا هذا، ما رواه أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: أنَّ هوازنَ جاءت يومَ حُنينٍ بالنِّساءِ والصِّبيانِ والإبلِ والغنمِ فصفُّوهم صفًّا ليكثُروا على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فالتقى المسلمون والمشركون فولى المسلمون مُدبِرينَ كما قال اللهُ تعالى فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنا عبدُ اللهِ ورسولُه وقال يا معشرَ الأنصارِ أنا عبدُ اللهِ ورسولُه فهزم اللهُ المشركين ولم يطعَن برُمحٍ ولم يضربْ بسيفٍ فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يومئذٍ من قُتل كافرًا فله سلَبُه فقتل أبو قَتادةَ يومئذ عشرين رجلًا وأخذ أسلابَهم فقال أبو

قَتادةَ يا رسولَ اللهِ ضربتُ رجلًا على حبلِ العاتقِ وعليه دِرعٌ له فأَعجلتُ عنه أن آخذَ سلَبَهُ فانظر من هو يا رسولَ اللهِ فقال رجلٌ يا رسولَ اللهِ أنا أخذتُها فأَرضِهِ منها فأعطِنيها فسكت النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكان لا يُسألُ شيئًا إلا أعطاهُ أو سكت فقال عمرُ لا واللهِ لا يفيءُ اللهُ على أسدٍ من أُسْدِهِ ويعطيكَها فضحكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1].

اللهم نزل نصرك

هذا دعاء رسول الله ﷺ يوم حنين يوم هوازن. وحين كان شأنه صلى الله عليه وسلم كله أن يلجأ إلى مولاه الله تعالى الحق المبين سبحانه.

ولكن هذا اللجأ ههنا خاصة، وإذ كان له وجه آخر، وعلاوة على وجوه أخر! وعلاوة على أصل اللجأ إليه تعالي، وفي كل مرة، وإذ وما أكثرها مرات أن يضطر العبد إلى عون مولاه ونصرته ومؤازرته، وإذ كان ذلك تعبدا له تعالى، وبقطع النظر عن حاجة، وها قد آن أوانها، أو غير حاجة، وهذا هو مطلق التعبد، وكما أنف. وإنما لشأن فريق كان قد قال: لن نغلب اليوم من قلة! وليجيء قول نبينا صلى الله عليه وسلم هذا، وليعيد الأمور إلى نصابها، أمة لا حول لها ولا قوة، إلا بالله تعالى العلي الأعلى سبحانه.

ثم إن دعاءه تعالى، وأن يكون أدعى في مواطنه وموجباته، ولا أدعى منها من حالة الاستنفار، والتي فرضت نفسها يوم حنين، وحين جاءت ثقيف ومن كل

---

(١) السلسلة الصحيحة، الألباني ١٤٣/٥

حدب ينسلون! وأيضا وحين ادلهم الجو، والوسط المحيط، وحين كان وصفه تعالى لما حدث وحين قال ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾! [التوبة:٢٥]. وفي تأديب قرآني لامح، أن العلاج كان ناجعا ناجزا، وفي أرض معركة قالوا عنها يومها: لن نغلب اليوم من قلة! وما أشد بلاء من قول كهذا! ولأن القوة لله جميعا، ولأن العون منه تعالى جميعا أيضا، ولأن النصر من عند الله العزيز الحكيم أيضا أيضا، ولأنه ليس لأحد من الأمر من شيء وأيضا أيضا أيضا! وحتى النبي ﷺ، وحتى الناس أجمعون، وإنما الأمر كله لله تعالى وحده سبحانه. ولهذا كان قمن أن تعطى الدرس ناجزا ومن جانبين:

الجانب الأول: وهو ذلك الحصار الرباني؛ تأديبا؛ ولأنه قال فريق أو أحد منها: لن نغلب اليوم من قلة! ولترجع من وهنها الى عافيتها، وحين أرجعت كل أمرها لله تعالى الحق المبين.

الجانب الثاني: هو إصلاح ما أفسد، وعن طريق هذا النبي الكريم ﷺ، وحين تضرع إلى ربه، ومما فعل أفراد في جيشه المغوار، ومن المهم جميعا أن يرد كل الى نصابه، وحين كان استنزال النصر منه تعالى، وما كل العبيد إلا سبب، ولتحقيق هذا النصر الرباني، وكيما يكون لهم تكريم، وحين كانوا سببا لا أكثر ولا أقل، وهذه معادلة جد فاصلة، والانتباه إليها أقوم فصلا، وأوجب عملا.

الآن حمي الوطيس!

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم حنين يوم هوازن!

وأنا لا أعجب من قول رسول كريم!

بل أعجب لهذا الفأل الحسن الجميل، ومن هذا الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وحين يبعث أمل النصر، وبعد مرارة الهزيمة، وحين يلتف حوله مائة فردا! ومن جملة اثني عشر ألفا! وحين قال قائل منهم يومها: لن نغلب اليوم من قلة!

وها هو الآن رسول الله ﷺ يقول: الآن حمي الوطيس! وإذ كان حوله مائة من جملة هذا الجيش الجرار! والذي كان مكونا من اثني عشر ألفا!!

بل ويزداد عجبنا، وحين ينازل مائة جندي مسلم ثلاثين ألفا من هوازن وثقيف يوم حنين يوم هوازن!

وسائلوا التاريخ! وهل وجد مثل ذلكم فصيل، وحين يجابه مائةٌ ثلاثين ألفا!!

وإن كل ذلك إلا لإرجاع الحق إلى نصابه، وأن القوة لله جميعاً، وأن النصر من عند الله العزيز الحكيم.

ولكنك تعجب أيما عجب! وحين يقول قائل الصحب الكرام يومها، وهو ذلكم جابر بن عبد الله، - صاحب الجمل، وصاحب دعوة النبي وثلاثة معه يوم الخندق وعلى صاع من شعير وعناق! وثم يفاجئه نبي الله ﷺ بألف، أو يزيد، في برهان آخر خارج حسابات البشر، وإلا عند رب البشر، سبحانه سبحانه سبحانه!

وصاحب الأخوات السبع، وصاحب وصية والده لهن، ويوم أن تزوج ثيبا؛ لتحنو عليهن، وليست بكرا، يلاعبها وتلاعبه، وفي تنازل عن بعض ملذاته، وأجل أخواته- السبع- ولعلهن يصحبنه يوم اللقاء، إلى جنات عرضها السماوات والأرض، أعدت الذين آمنوا بالله ورسله- : فوالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ﷺ مكتفون، فقتل الله منهم من قتل، وانهزم منهم من انهزم، وأفاء الله على رسوله ﷺ أموالهم ونساءهم وأبناءهم.

ولكنك لتعجب أيضا! وحين يقول قائل الصحب الكرام البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه: ولقد كنا إذا حمي البأس نتقي برسول الله ﷺ، وإن الشجاع الذي يحاذى به.

قلت: ومعه مائة!

وقلت أيضا: ولو لم تكن معه مائة، ولا أقل من ذلك، ولا أكثر؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم مانعه ربه، ولأنه أيضا قال يومه هذا: أنا ابن العواتك! وأنا النبي لا كذب أنا بن عبد المطلب!

وهكذا جَلَدُ القائد، وهكذا يقينه بربه، وهكذا قدوته الحسنة، وهكذا أسوته الحميدة.

يا عباس ناد يا معشر الأنصار، يا أصحاب الشجرة

هذا نداء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لعمه العباس يوم حنين يوم هوازن.

وهذا نداء باستدعاء تاريخ كان أبيض ناصعا.

وهو نداء حان، وكأنما هو الحنو نفسه، لا من معناه فحسب، ولأن استدعاء التاريخي النير في حياة الفرد المسلم يجعله متفاعلا مع هذا التاريخ، وحين زلت قدمه يوما، أو حين غلب عن هواه الهنة.

وهذا فن إداري باهر. وبدل أن يحول الفرد إلى محاكم التأديب، وأفضل من أن يتحول المقاتل إلى جلسات التأنيب، وليخرج منهما ناقما، وليذعن إليها مكسورا خاطره، وحتى إذا عاد إلى أرض الميدان فلربما عاد إليها وهو إذ تراه يقدم قدما ومؤخرا أخرى؛ جراء الانهزام الداخلي، ومن سبب الاعتمال النفسي، ومن موجب الاعتلال الجسدي، وقد ألم به كل ذلكم، وأحاطه، ولف به، وأداره، حتى ألفيناه حبيس النفس، وكأنما ضم ضمة هي إلى موته كانت أقرب، وحين أريد تأديبه، فرجع مهلهلا وعاد منكسرا خاطره، منكسا هامته! ومثل ذلكم فرد تطوى صفحة بلائه أولى، ويغلق ملف عطائه أدعى!

ولهذا السبب نحن ننادي بقيمة الفرد، أو هكذا يسمونه فردا؛ ضعة!! بل إننا ندعو إلى تغيير مسماه إلى المقاتل، الباذل، المجاهد، البائع نفسه لله! وليضحى كل شيء فيه مقاتلا، إعزاز نفس ترونها في الميادين، وتحسبونه ملكا، قد تنزل من

السماء، جنبا إلى جنب مع الملائكة الكرام البررة، وحين نازلوا المشركين غيرة مرة، وما يوم بدر ببعيد، وحين أقسم مشرك أن مسلما لم يقتله، بل قتله نوع آخر!!!

وكان عند التحقيق، أمام النبي ﷺ، إن هو إلا ملك كريم!!

وهذا الذي رأيناه نفسه، في يوم حنين يوم هوازن، وحين شهدت به ألسنتهم، ولما رأته عيونهم، لا نقلا عن مسلم، كان الصدق رداءه، وأضحى الكذب ليس من شيمته، ولا جزؤه، أو بعضه، وإن أميط من دفتره كله، فترى الصدق مرسوما على محياه، وحين ألفيته، وقد كساه وعلاه!

وأعود لأقول: إن استدعاء نبينا صلى الله عليه وسلم لصحبه الكرام، لا على وجه الأمر الحاسم فحسب، وإنما على قيمة تاريخهم، الحسن الجميل كان أدعى وأولى وأقوم وأحسن وأفضل، من سيف الملامة البتار، وكما أنف، وإذ يعد كونه إفرازا لصنف قل ولاؤه، وسهل منه شراؤه!

وهذا درس في التنمية البشرية، وهذا يغني عن محاضرات في التربية الاجتماعية الإنسانية!

ولذا كان من هذا الاستدعاء ما نراه من هذه الصورة، وقد عز وصفها إلا من نقل، ولربما خيمت بظلالها على كل قارئ كريم؛ لتتفتح ومن أمامه ينابيعها، ولتتدلى من قدامه قناديلها، وليرى ولربما ما ليس يراه غيره؛ لتتضام فتصبح كلا هنيئا مريئا! وكما أنقلها أمامك، وكما قد حكاها التاريخ، وليس كما يخطها قلم، فتزل به آلته، أو يرسمها راسم فيوغل في التصوير، ويبالغ في التأويل، وحين أمر الرسول ﷺ العباس بمناداة الصحب الكريم، وإذ قال المحققون: فأجابوه: لبيك لبيك، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك، فيقذف درعه عن

عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ثم يؤم الصوت، حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مائة، فاستعرض الناس فاقتتلوا!

وكانت الدعوة أول ما كانت للأنصار، ثم جعلت آخرا للخزرج وكانوا صبرا عند الحرب، وأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه فنظر إلى مجتلد القوم فقال: «الآن حمي الوطيس».

قال: فوالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ﷺ مكتفون، فقتل الله منهم من قتل، وانهزم منهم من انهزم، وأفاء الله على رسوله ﷺ أموالهم ونساءهم وأبناءهم.

فوالله لربٌّ من قريش أحب إلي من ربٍّ من الأعراب

هذا درس في التربية الاجتماعية، أملاه علينا صفوان بن أمية، وقد كان بعد مشركا.

وفيه بعد نظر، تراه الأعين، وتحسه الأفئدة، وحين كان سكان الحواضر غالباً أروح، ولما كان أهل البادية الى الباطل أقرب! ولما توافر لأهل الحاضرة ما لم يتوافر لأهل البادية، من صنوف التعليم، ومن بواعث الحركة والنشاط والتلاحم والتجانس والدراية، ولأن أهل البادية غالبا حبيسو مراعيهم وتابعو أنعامهم، ولأن دربتهم من ذلك كانت على غير نصيب وكما لأهل الحاضرة.

وهذا مثال للعبقرية الاجتماعية، وحين دار في فلكها العلامة الاجتماعي ابن خلدون رحمه الله تعالى، ورشح لنا مصادر الاجتماع، وكيف أن الحاضرة، وكانت عن البادية فارقة فرقها الشاسع، وكيف أننا ألفيناها وبحق بائنة بونها الواسع!

فإنك ترى البادية بقراها، وإذ تحكمهم عصبية مقيتة، ولو كانت في أمعن معاني الباطل، وأنك تجد الحاضرة، وقد تصرمت هذه المعاني من قاموسها، لتلفاها إلى تلقي الحق أقرب، وعن مباعدة الباطل وإذ هي منه أبعد، وكما بعدت سماء عن أرض، أو وكما بعدت سماء عن سماء أيضا!

وأن الحاضرة تحكمها أصول وفروع في كثير منها ضابطة، وأن البادية تحكمها أعراف وتقاليد في جل منها هابطة!

وانظر كيف كان تشنيع القرآن الحكيم على الأعراب! وكيف أنك وتشمئز من شدة كفرهم ونفاقهم، وعما عداهم من سكان الحاضرة، وحتى وإن تساووا في مسمى كفرهم ونفاقهم، إلا أنه تبقي بقية الدرجات، وإلا أنه تبقي بقية الدركات، وإذ كانت بجانب الأعراب راجحة الكفة، مائلة الدفة!

قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٩٠].

وقال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة:٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ [التوبة:٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة:٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ ﴿١٠١ التوبة﴾

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ﴿١٢٠ التوبة﴾

وغيره كثير مما حفل به القرآن المجيد.

إن البادية تحكمها أعراف ند تنازلهم عنها، وإن الحاضرة تضبطها أصول، أمكن صرفهم عنها، وبدرجة أعلى من البادية درجات، وليست درجة واحدة!!

اللهم إنك إن تشأ لا تعبد بعد هذا اليوم

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يوم حنين يوم هوازن، ولقد سبق قول هذه العبارة نفسها، وفي مناسبات أخر، وما يوم بدر عنا ببعيد.

وحاصل هذا القول الكريم، وأنه كاشف عن غاية هذا الجهاد الإسلامي أبيض الصفحة، كريم الوجهة، وحين كان لإعلاء كلمة التوحيد في ربوع البلاد، شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، وبحيث يبلغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار بعز عزيز، أو بذل ذليل، ولأن هذا الدين من طبيعته الإمتداد، وأن هذا الدين من أمره التوسع والانتشار، ولأنه يحمل مشاعل الخير للناس أبيضهم وأسودهم وأحمرهم وعربهم وعجمهم معا، وكما وأنه وحينما يفعل ذلكم، فإنه ليس يفعله وإلا لشيء واحد فقط، وهو تكريم هذا الإنسان، وحين يخرجه من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد وحده لا شريك له، وبحيث يكون العبد، وبذلك وفقط به، آمنا مطمئنا لا تقاذفه آلهة أخرى، وكيما تستعبده وتسخره وتذيقه من ويلات ضنك المعيشة وسأم الحياة ما شهد به التاريخ، وحين أحاطته هذه الآلهة المدعاة.

وكل على شأنه، وكل على نصيبه منه! ولينال خاصة عذابه، ويوم أن كان معه شركاء متشاكسون، ينهشه هذا مرة، ويتلاعبه ذلكم مرة، ويتقاذفه ذلك أخرى، وهكذا، وحتى ألفيناه ومن عملهم خاملا، ليس يقوى على إنتاج، وحين وجدناه هامدا، ليست به نهمة المبادرة، وحين وجدناه صريع الهوى والشح، وهذا الذي حكى القرآن الحكيم عنه، وحين قال الله تعالى: **﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [الزمر:٢٩] وفي وقت آخر وجدنا الموحدين هم أسعد الناس، وأروح الناس، وأن الناس وحين استدبروا كل وحل الجهالة، ولما استنكفوا سائر عقل الغواية، وأسرها واعتقالها وهمها وغمها، وهذا شيء مشاهد، وإذ يشهد به واقع أليم، وإذ يقول به ذو عقل سليم.

وأعود فأقول: إن الجهاد في هذا الدين له علة عالية، وله غاية سامية، وحين كان لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وعند هذه المحطة وحدها يقف علم الجهاد مرفرفا، وهنا كانت قيمته القصوى، وهنا كانت غايتها العظمى، ولاغاية واحدة بجوارها، ولا هدف واحدا يناقضها، ولهذا جعل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة وذكر منهم المقاتل! والسبب أنه خالطته نيته مدحا، وأنه شابها رياء، ولو من قطمير! لأن الله تعالى ليس يقبل من العمل إلا ما كان خاصا له، صوابا على هديه، وهدي نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ورسمه ووحيه. وفي إعلان نبوي أن جهاد هذا الدين له وجهة واحدة، لا أكثر منها ولا أقل عنها، وهي كونه في سبيل الله تعالى.

وهذا نداء حان: إن استعادة مجد هذا الأمة بحاجة إلى سلوك مناهج أسلافها الأولين، وحين قاتلوا لا لأرض ولا بقعة وإنما لتطهير كل الأرض وكل بقعة فيها من شرك، وما خالطه وحينها ملكوها، وحين كان الغمام يسح عليهم غدقا، وحين لم يجدوا يوما فقيرا يكون مستحقا زكاة أموالهم، وصدق الله تعالى ربنا وحين قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

وقال تعالى أيضا: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦].

فما زلت أرى حدهم كليلا، وأمرهم مدبرا

هذا قول العباس، عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يوم حنين يوم هوازن. وحين اجتمعت هوازن على مقاتلة النبي ﷺ، وحين أدبر الصحب الكرام، وحين اختل ميزان القوى، وبحيث أصبح لصالح المشركين راجحة كفته، وكان منه أن تضرع النبي صلى الله عليه وسلم لربه تعالى، وقبل أن تكون هجمة الكفار، ولربما كانت قاسية.

وإلا أنه صلى الله عليه وسلم وحين رجع أصحابه، وما كان لنبي أن يفر؛ ولأن القائد إذا أدبر فماذا هو قائل، وأمام جنده، وأمام التاريخ، ومن قبل ومن بعد وماذا هو قائل لربه سبحانه؟ ولا سيما أنه كان محاطا بقيمة يقينه إيمانه، وإذ كان متسربلا بعزة نفسه واطمئنانه وإسلامه.

ولأن القائد إذا فر فماذا نحن قائلون لمقاتل وإن فر، وحين قد سبقه إلى الفرار قائده؟!

صحيح أن النبي ﷺ بشر، ولكنه ليس كسائر البشر، ولكن نبينا ﷺ أيضا ليس كمثل مناصب معاند.

وإلا أنه صلى الله عليه وسلم أيضا، ولاعتبار نبوته، ووعد ربه له، وكذا ولاعتبار أنه قائد، فقد تأيد بكلام، وقد تأيد بفعل، وذلك عندما حصب حصبات من تراب، ورمى بها في وجوه القوم، وحتى أصابتهم جميعا، وحين قال صلى الله عليه وسلم: شاهت الوجوه.

وهذا تعبير ندي عظيم. وإذ كان من أثره ما حكاه الإمام الطبري رحمه الله تعالى عن العباس من قوله: فما زلت أرى حدهم كليلا، وأمرهم مدبرا.

وفي حكاية للإذلال، وفي رواية للانهزام، وإذ كلَّ بأسهم، وإذ وهنت حدتهم، وإذ خذلت سيوفهم، وإذ همدت وضعفت وخارت شدتهم، وإذ أضحى أمرهم مُدبِرا، وحالهم ذليلا، ومآلهم حتفا مهينا.

وهذه آيات القدرة، وهذه دلائل الإعجاز، وإذ تشرفت هذه السيرة النبوية المباركة، وفي غير موضع منها، وبمثل قوله صلى الله عليه وسلم: شاهت الوجوه! وليسطر التاريخ لنا مجدا، كهكذا الذي قاله النبي ﷺ، وفي مناسبات عدة، ولتبدو قيمة العون الرباني، وأمام العالمين، كل العالمين، وليعلم الناس أن القوة لله جميعاً، وأنه تعالى إذا أخذ القرى وهي ظالمة، فإن أخذه أليم شديد. وكما قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه العباس بن عبدالمطلب رضي الله تعالى عنه وحين قال: **شَهِدْتُ مع رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ يَومَ حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بنُ الحَارِثِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ فَلَمْ نُفَارِقْهُ، وَرَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ علَى بَغْلَةٍ له بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا له فَرْوَةُ بنُ نُفَاثَةَ الجُذَامِيُّ، فَلَمَّا التَقَى المُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى المُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الكُفَّارِ، قالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بلِجَامِ بَغْلَةِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ أَكُفُّهَا إرَادَةَ أَنْ لا تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بركَابِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: أَيْ عَبَّاسُ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ، فَقالَ عَبَّاسٌ: وَكانَ رَجُلًا صَيِّتًا، فَقُلتُ بأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ قالَ: فَوَاللَّهِ، لَكَأنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتي عَطْفَةُ البَقَرِ علَى أَوْلَادِهَا، فَقالوا: يا لَبَّيْكَ، يا لَبَّيْكَ، قالَ: فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ، وَالدَّعْوَةُ في الأنْصَارِ يقولونَ: يا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، يا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، قالَ: ثُمَّ قُصِرَتِ الدَّعْوَةُ علَى بَنِي الحَارِثِ بنِ الخَزْرَجِ، فَقالوا: يا بَنِي الحَارِثِ بنِ الخَزْرَجِ، يا بَنِي الحَارِثِ بنِ الخَزْرَجِ، فَنَظَرَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ وَهو علَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إلى قِتَالِهِمْ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ هذا حِينَ حَمِيَ الوَطِيسُ قالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بهِنَّ وُجُوهَ الكُفَّارِ، ثُمَّ قالَ: انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ قالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا القِتَالُ علَى هَيْئَتِهِ فِيما أَرَى، قالَ: فَوَاللَّهِ، ما هو إلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بحَصَيَاتِهِ فَما زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا، وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا. وفي رواية: بهذا الإسْنَادِ نَحْوَهُ. غَيْرَ أنَّهُ قالَ: فَرْوَةُ بنُ نُعَامَةَ الجُذَامِيُّ، وَقالَ: انْهَزَمُوا وَرَبِّ الكَعْبَةِ، انْهَزَمُوا وَرَبِّ الكَعْبَةِ، وَزَادَ في**

الحَديثِ حتَّى هَزَمَهُمُ اللَّهُ. قالَ: وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ يَرْكُضُ خَلْفَهُمْ علَى بَغْلَتِهِ [1].

ورواه الإمام مسلم مختصرا من حديث سلمة بن الأكوع، وحين قال: **غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنيناً، فولّى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما غشوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل عن البغلة، ثمَّ قبض قبضة من تراب الأرض، ثمَّ استقبل به وجوههم، فقال: شاهت الوجوه، فما خلق الله منهم إنساناً إلاّ ملأ الله عينيه تراباً بتلك القبضة، فولوا مدبرين، فهزمهم الله، وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائمهم بين المسلمين** [2].

ويكأنك ترى المشهد!

عن أبي عبدالرحمن الفهري: كنا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حُنينٍ، فسِرْنا في يومٍ قائظٍ، شديدِ الحرّ، فنزَلْنا تحتَ ظلالِ الشجرِ، فلما زالَتِ الشمسُ لبِستُ لَأمَتي، وركِبتُ فرَسي، فأتيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو في فسطاطِه فقلتُ: السلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ ورحمةُ اللهِ، قد حان الرواحُ يا رسولَ ؟ قال: أجَل، ثم قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا بلالُ، فثار مِن تحتِ سمرةٍ كأن ظلَّه ظلُّ طائرٍ، فقال: لبَّيكَ وسعدَيكَ، وأنا فِداؤكَ، قال: اسرُجْ لي فرَسي، فأتاه بدفتينِ مِن ليفٍ ليس فيهما أشرٌ، ولا بطرٌ، قال: فركِب فرسَه، ثم سِرْنا يومَنا، فلَقينا العدوَّ وتشامَتِ الخيلانِ، فقاتَلناهم، فولَّى المسلمونَ مُدبِرينَ

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٧٥

(٢) صحيح مسلم: ١٧٧٧

كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ فجعَل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: يا عبادَ اللهِ، أنا عبدُ اللهِ ورسولُه، يا أيُّها الناسُ، أنا عبدُ اللهِ ورسولُه، فانقَحَم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن فرسِه، وحدَّثني مَن كان أقربَ إليه مِني أنه أخَذ حِفنةً مِن ترابٍ فحَثا بها في وجوهِ القومِ، وقال: شاهَتِ الوجوهُ قال يَعلى بنُ عطاءٍ: فأخبرنا أبناؤهم، عن آبائِهم أنَّهم قالوا: ما بقي منا أحَدٌ إلا امتلَأَتْ عيناه وفمُه منَ الترابِ، وسمِعْنا صلصلةً منَ السماءِ كسرَ الحديدِ على الطستِ الحديدِ، فهزمهم اللهُ تبارَك وتعالى[1].

هذا وصف لمعركة يوم حنين يوم هوازن. وهو وإذ نرى وصفا دقيقاً مبسطا سهلا يسيرا.

وإذ كان تصويرا لنبأين اثنين:

النبأ الأول: هو ذلكم التبارك بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين يحثو حفنة من تراب!!! ثم يرمي بها القوم، ومن ثم فلا يبقى أحد منهم إلا ملئ فمه وعينه من هذا التراب، وإذ كان حفنة!! وهذا الذي وقف عنده التاريخ مليا، بل وقفتُ معه، وكوقفة التاريخ مليا مليا!! وكيف أن:

١- حفنة تراب واحدة تنال مشركي حنين جميعا، وكانوا أربى عددا من عداد المسلمين يوم حنين، وإذ حدثنا التاريخ أنهم كانوا أربى من ثلاثين ألفا!! وحين كان المسلمون اثني عشر ألفا! ونحن نحيل هذا المشهد على ذوي الاختصاص العسكري، والعمل القتالي والتجهيز الجهوي، ليروا كيف كان مجد مثل مجد هذا النبي الأمي العربي الكريم صلى الله عليه وسلم، وكيف كان نبأه مع مولاه، وحين

(١) إتحاف الخيرة المهرة، البوصيري:٢٥٠/٥. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

تضاعفت حفنة تراب واحدة أضعافا كثيرة، حتى نالت كل واحد من قوم حنين، يومهم هذا؟! وغير يوم حنين، وأمامك يوم الهجرة، وحين فعل بهم عن آخرهم، وما فعل بأشياعهم من قبل، ومن بعد، وكما حدث يوم بدر العظمى، يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، والله على كل شيء قدير، وليروا وكيف يكون الإمداد الرباني العسكري، ولهذا المشهد الملفت والموحي بدلالات العظمة، وبراهين التأييد الإلهي، ل ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦]. وإلا أن ذلك كان موجبا للإمداد، وحين علم الله تعالى فيهم خيرا، وأنهم وقد خرجوا، فما خرجوا إلا لله تعالى، فبارك الله سبحانه وتعالى أعمالهم، ولن يترهم أعمالهم أيضا.

وهذا درس في التربية العسكرية، موغل عميق، وبعده سحيق سحيق! وحين يكون الجيش المسلم، وعلى بقية من أمرهم، أن هيئة الإمداد والتموين للقوات المسلحة الإسلامية لها فرعها الرباني الحاسم في أرض المعركة، وحين نزل الناس بلأمة القتال، ودرع النزال، ولما استشرف الجند نصر الله تعالى ربهم الكبير المتعال.

٢- رؤية هذا المشهد، وعن قرب، وليست كروايته، وعن قرب أو بعد، وبمعنى أن القوم الذين رماهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بحفنة من تراب، وقد أعمى الله تعالى عيونهم جميعا، وبدقة تصوير رباني كريم، يجب أن يدرس في معاهد التربية العسكرية؛ ليعيش الناس كل الناس، مجد هذا الدين، وكيف أن الله تعالى كان مؤيدا له ونصيرا، وعلى مدار التاريخ كله؟!

وأقـول: إن النـاس قـد رأوا بـأم أعيـنهم، ولـيس نقـلا، ومـا أصـابهم هـم أنفسهم، ومن حفنة تراب حثاها هذا النبي الأمي العربي الكريم ﷺ! وكيف أنهم لم يحرك لهم ساكن، وكيف أن قلوبهم كانت قاسية، كالحجارة أو أشد قسوة، وكما قال الله تعالى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٧٤]. وأنت خبير بقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]!

النبأ الثاني: عمل هيئة الإمداد والتموين: وما سبق ذكره وما أنف حرفه وكلمه، هو تماما بتمام ما يمكن قوله أيضًا بإعداد هيئة الإمداد والتموين للقوات المسلحة الإسلامية، وحين كانت ساهرة، وإذ ترقب المعركة، ومن مركز القيادة والسيطرة، لا النبوية وحسب، بل ورب النبي رب الجند المخلصين سبحانه، وحين تنزل الملائكة الكرام البررة، وتأييدا وعونا لأولاء الجند المغاوير المخلصين، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١]. أن هكذا يكون عون ربهم، وأن هكذا يكون نصر ربهم، وحين كان أخذا بالسبب، لا أن يجلس الناس على الأرائك، ومنتظرين مدد السماء، ومن قبل أن يعلم الله منهم بذلا، ومنازلة ومجاهدة وبلاء حسنا، ولأن أطباق مائدة السماء جرى سننها على الأخذ بالسبب؛ قيمة للتوكل، لا مشفوعة بتواكل! ولما يأت الله بنصره المبين! وفي رين غريب أن الله تعالى ناصر دينه، وفي غض أبصار عن الأسباب الموجبة لتنزل هذا النصر ولا

شك، وهو أقوم قيلا من حفظ المتون، وهو أهدى سبيلا من شرح الأسانيد! وحين كان الأمر تنسيقا وتوزيعا للأدوار وكل بحسبه، وكيما لا يفتتن الناس، وحين إذاعة أحوال، ونشر أقوال، وبذل أموال، ودون مراعاة لقول الله تعالى العزيز الحكيم المتعال: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢]! وله وبه دل على أن تلقي العلوم، وإنما هو تجهيز، وترتيب وتدريب القلوب، وعلى بذل المهج في سبيل الرحمن، لا أن تكون سطورا طي الفم واللسان، وليست تكاد تبلغ القلوب والأفئدة والجنان! وإن بلغت!

وهذا درس حان نوجهه إلى كل منصف أريب، وهذا قول لطيف نصوبه إلى كل حصيف أديب.

مشاركة الملائكة الكرام في القتال يوم حنين

عن عوف بن عبد الرحمن، مولى أم برثن، عمن شهد حنينا كافرا قال: لَمَّا التقَينا والمسلمونَ لم يقوموا لنا حَلبَ شاةٍ فجِئنا نَهشُّ سيوفَنا بين يدي رسول اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ حتَّى إذا غشيناهُ إذا بينَنا وبينَهُ رجالٌ حِسانُ الوجوهِ فقالوا: شاهتِ الوجوهُ فارجِعوا. فهُزِمنا من ذلكَ الكلام [(١)].

وعلى أننا، ومن بدء أن نقول قولهم، ولما كان اندحارهم، ومن مجرد قول الملائكة الكرام البررة الغر الميامين!: شاهتِ الوجوهُ! وما بالك ولو كان فعلا، وإذ

---

(١) تاريخ الإسلام، الذهبي: ٥٨٣/٢. خلاصة حكم المحدث: إسناده جيد.

كان من زيادة اندحارهم، وإلا كان مركبا أيضا!

وهذا قول مشرك يوم حنين يوم هوازن، ودلالة مشاركة الملائكة الكرام في القتال يوم حنين هذا.

وسياقه عن مشرك له معناه، وبه الحجة الدامغة، لا لأن الصحب الكرام في نقلهم ريب، وإنما وكما يقولون: الحق ما شهدت به الأعداء. وإلا فإن صحابة نبينا وقد نقلوا إلينا الدين كله قرآنا وسنة، قصصا وعبرا وسننا وهديا، وانظر طريقة أهل الجرح والتعديل، وليدلك على هكذا مسلك حسن قويم، وحين ذكروا أن الإمام البخاري رحمه الله تعالى كان قد اختص كتابه صحيح البخاري بثمانية آلاف حديث، وكان قد اصطفاها من ما جملته ستمائة ألف حديث!!

وهذا برهان أن الله تعالى ما كان ليذر المؤمنين، ولتلعب بهم ثقيف الطائف لعبتهم! وهذا من إلف عودناه الله تعالى أبدا.

وهذا الإمداد له أصوله، وحين نزل هؤلاء الملائكة الكرام أرض الميدان، ومتوسطين بين الفريقين، فيمنعون عدوا من اختراق، ويحولون بين المؤمنين، وبين نصر الله تعالى رب العالمين، آية ودلالة وبرهانا.

وهذا فن عسكري أخر، منضافا إلى فنون أخر، مرت بنا، وإبان تشرفنا بالكلام حول هذه السيرة النبوية المباركة.

وإذ كان الإمداد حالا أولا، وناجزا ثانيا، وإذ كان موقعه بين الفريقين، وكبتا للأعداء، وتنشيطا للحنفاء. وهذا عمل ميمون.

وبيد أن كلمة الرجل المشرك ذات شأو سامق، وحين قال قولا ممهورا بالصدق، ومغلفا بالحسرة أيضا، وحين أرجع فضل انهزامهم؛ ولعونه تعالى لعباده المؤمنين، بنصره عبيده، ولو تطلب ذلكم بعث رسل السماء؛ آية، وبرهانا، ودليلا أولا، وثانيا؛ ولأنه الرب الرحيم، وحينه ألجأ الكافرين الثلاثين ألفا، فولوا مدبرين متقهقرين.

هذا وقد جاء الشهداء بتنزل الملائكة الكرام أرض الميدان، ومن مسلمين عاينوه، وكفلق الصباح إذا انفلق، وكشعاع الشمس إذا انبلق.

وبيد أنه لا تعارض، وبين قول الملائكة الكرام: شاهت الوجوه، وبين قوله صلى الله عليه وسلم ذلكم القول أيضًا- شاهت الوجوه- وهذا من تطابق الأقوال، وهذا من توارد الأفكار.

ولأن المؤمنين أبدا، وعلى قلب رجل واحد!

وإلا أنه يبقى القول، وإنه لإعجاز، وحين كان مثل هذا التوارد واقعا، وحين كان ذلكم القول الفصل ماثلا، من ملك، ومن رسول معا!

وأخرج البخاري في التاريخ والبيهقي في الدلائل عن عمرو بن سفيان الثقفي رضي الله عنه قال قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قبضة من الحصى فرمى بها في وجوهنا فانهزمنا فما خيل إلينا إلا أن كل حجر أو شجر فارس يطلبنا (١).

---

(١) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج ٣ / ٢٢٦

قلت: وله شاهد، وكما في حديث الإمام مسلم رحمه الله تعالى، وفيه قالَ العباسُ: وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ يَرْكُضُ خَلْفَهُمْ على بَغْلَتِهِ[(١)].

وهذا إثخان آخر. ووقع سنن آخر، من هزيمة ومن اندحار، وقد حلت بهم ومن كل صوب، ومن كل حدب أيضا.

والتاريخ ليس بحاجة إلى تسجيله، ولأننا ننقل عنه الآن قوله هذا، ومن سجلاته.

ولكن القوم مدعوون بدعاية الحق والعدل، مؤمنهم؛ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، وكافرهم؛ ولربما أعاد الحسابات؛ ليسلم طائعا، وقبل أن يولوا مدبرين. وكما وقع من أسلافهم من قبل، وتوا لم يجف حبر خبر التاريخ، وحينا من بعد حين آخر، وبأيدي عباد علموا أن الله تعالى هو الحق المبين سبحانه.

وبيد أننا وحين ننقل هذا الحق والصدق والعدل، فقد نقلنا أيضا أن يوم حنين كان حاسما، وحين أدبر المؤمنون، أول أمرهم، وحين لم يتبق مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلا مائة وعلى أكثر تقدير ذكر، وإلا ثمانين، وإلا اثنين، أو واحدا، وعلى خلاف بين المؤرخين، ومن جملة اثني عشر ألفا! وإلا أنهم وحين عادوا إلى رابطة إيمانهم، وحين تجدد فيهم يقينهم، وأن الغلبة لله تعالى، توكلا عليه، وإسناد الأمر إليه، ويكأنه كان أمرا حاسما، وحين قالوا: لن نغلب اليوم من قلة! وليدبروا، وعن آخرهم، وهم أولاء الذين قالوا قولهم هذا، اختبارا وابتلاء؛ وليعلم الذين من بعدهم درسا، وألا يقولوا قولهم هذا، أو من أتى بعدهم، يوما آخر، ولأن السنن موجب، وبحلول سببه، والله المستعان.

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٧٥

يا شيبة إنه لا يراها إلا كافر!

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأبي مصعب شيبة بن جبير بن شيبة، وحين خرج يوم حنين يوم هوازن، حمية ونصرة للنبي على هوازن! وليس حبا في النبي ﷺ، وإذ لم يكن يعرف عن الإسلام شيئا، وبقوله هو، وحين قال: والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به، ولكن أبيت أن تظهر هوازن على قريش! وإنما كي ينتصر لقريش على ثقيف!

وهذه الحمية أحيانا تكون مطلوبة، ومن عوامل النصرة، وإذا ما أحسن استثمارها لصالح القضية العامة للدولة الإسلامية، وإنما يحسن استثمارها، ولتشابك العلاقات، وكثرة تقاطعاتها، فإنك واجد ولا شك منها مدخلا لصالح دعوتك، وإنما أنت مكتشف منها ثقوبا لرجحان كفتك، وإقامة حجتك، ونصرة مهمتك، وهذا سبيل دقيق، والموفق من وفقه الله تعالى له.

وإذ دخل شيبة في صف المسلمين، مناصرا قريشا! وإذ يرى خيلا بلقا، وهذه مراكب الملائكة الكرام البررة!! وإذ بها أشكال لا عهد له بها! وإذ به يخبر نبينا صلى الله عليه وسلم بما رأى! وليجيبه صلى الله عليه وسلم أن هذا الصنف من الدواب ليس يراه إلا كافر!!! ولإلقاء الرعب في قلوب الخصوم والمعاندين!

وحين ذلك عرف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن شيبة هذا كافر! وإذ يضرب على صدره ثلاث مرات داعيا مولاه أن يهدي شيبة، وإذ يتقبل منه الرحمن الدعاء، وليتقلب شيبة، ومن هنا في نعيم الإسلام الحنيف الخالد، ولما كان إمعة، ويوم خرج حمية! فإذا هو يتنقل من حال بغض للنبي، إلى وضع المحبة والإيثار، وكأن لم يكن أحد أحب إلى شيبة من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وسبحان

من يقلب القلوب والأبصار والليل والنهار، وحين راح شيبة بوجه غير الذي جاء به، وجه النور والحبور والسرور والبساطة والجمال والمحبة واللطف والأبصار، وكل ما شابهه من خلق كريم، وسائر ما ماثله، ومن عمل مستقيم.

ودلك على صحة مذهبنا ما رواه شيبة بن جبير بن شيبة قال: خرَجتُ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَومَ حُنَينٍ، واللهِ ما أخرَجَني الإسلامُ، ولا معرفةٌ به، ولكنِّي أنِفتُ أنْ تظهَرَ هَوازِنُ على قُرَيشٍ. فقلتُ وأنا واقفٌ معه: يا رسولَ اللهِ، إنِّي أرى خَيلًا بُلْقًا. قال: يا شَيْبةُ، إنَّه لا يراها إلَّا كافرٌ. فضرَبَ بيَدِه على صَدْري، ثمَّ قال: اللهم اهْدِ شَيْبةَ. ثمَّ ضرَبَها الثانيةَ، ثمَّ قال: اللهم اهْدِ شَيْبةَ. فواللهِ ما رفَعَ يَدَه مِن الثالثةِ مِن صَدْري حتى ما كان أحَدٌ مِن خَلْقِ اللهِ أحَبَّ إليَّ منه. قال: فالْتَقى الناسُ والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ناقةٍ أو بَغْلةٍ، وعُمرُ آخِذٌ بلِجامِها، والعبَّاسُ بنُ عبدِ المطَّلِبِ آخِذٌ بثَغْرِ دابَّتِه، فانهزَمَ المسلمونَ، فنادى العبَّاسُ بصَوتٍ له جَهرٌ، فقال: أينَ المهاجرونَ الأوَّلونَ؟ أينَ أصحابُ سورةِ البقَرةِ؟ والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: قُدُمًا، أنا النبيُّ لا كَذِبْ، أنا ابنُ عبدِ المطَّلِبْ. فعطَفَ المسلمونَ فاصْطَلَموا بالسُّيوفِ. فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: الآنَ حمِيَ الوَطيسُ. قال: وهزَمَ اللهُ المشركينَ [1].

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ١٨٦/٦. خلاصة حكم المحدث: فيه أيوب بن جابر وهو ضعيف.

قفوا حتى تجوز ضعفاؤكم وتلحق أخراكم

هذا قول مالك بن النضر، يوم هزيمته، يوم حنين يوم هوازن، وإذ جر أذيال خيبته، وإذ تجرع كأس هزيمته، وعلى يد الجنود المدججين بلأمة التقوى، ودرع التوحيد، وسلاح العقيدة الصافية في الله تعالى مولاهم الحق المبين، ويوم أن اتخذوه إلها وحده لا شريك له، وإذ لا تتقاذفهم الآلهة المدعاة شرقا، والأخرى غربا، وإنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد! ولهذا كانت وجهتهم واحدة، ولهذا قد تأيدوا بأمرين اثنين:

الأمر الأول: هو ذلكم الإخلاص لله تعالى، ويوم حنين، ومن بعد توبتهم من قولهم: لن نغلب اليوم من قلة! ولما أفاؤوا؛ شرح الله تعالى صدورهم للتقوى.

الأمر الثاني: هم ذلكم الجند، الذين رأوهم كفار هوازن ثقيف، وهم إذ يركبون خيلا، بلقا، بيضا وجوههم، وعلى شاكلة القمر، يوم بدره، بل فاقوه نورا، ووسامة، وقسامة، ومن قوة، وبأس، ولا تقل كخيلهم! بل على شاكلة محصلة قوة خيلهم أجمع! أو أشد بأسا! وأقوم قيلا! وهذا غاية ما تسمح به تعابيرنا المتقاصرة، أن نبلغ وصفا لقوة أحدهم، أو نصيفها، أو ربعا، أو أقل من ذلك ولا أكثر، وما بالك وحين كانوا جمعا، كثيرا، غفيرا وفيرا! وإلا فكيف نصف مَلَكًا- واحدا- ، له جناحان، وإذ يبسطهما فيسد بهما الأفق؟!

هذا، وعود الى مالك النضري، وهو إذ يحاول رفع هامة قد حنيت، أو نظر عين قد عميت، أو طل رأس قد كسرت، أو بسط عنق قد لويت! وهو إذ يعثر من خذلانه، وهو إذ لا يفيق من كبوته، ومن حسار، ومن خسار، ومن بوار، ويوم هدد وتوعد، وأرعد وأرغى وأزبد، وإذ قد كان قوله، ومن سفاهته وخوره، ومن

حنقه وصلفه، ومن جهالته وكبره: إن لم تطيعوني لوضعت الرمح ينفذ من صدري!! وهكذا كان صلفه، ويكأنه قد تملك الجهالة، لا وقد تملكته العماية، بل وقد تلبسته الغواية، وحين أدار ظهره من صلف، وحين لوى عنقه من كبر، وحين أدبر واستكبر، وحين أوصد باب حكمة، لدريد بن الصمة، ويوم أن قال له قولا مشهورا: وماذا تغني عنك النساء وخلاخلها، وخيلها، ورجلها، ورجلكم، ومن نعم، وإذا أصابكم هم الانهزام، وإذا أحاطكم بؤس التولي والإدبار والانكسار والخذلان والهوان؟!

وهذا الذي تشهده الوقائع، وحين يبطل السحر، ولما تبدو الحقيقة في زيها الناصع، وحين تتفلق عن شقها! وإذ تظهر الكاشفة، ومن عليها، وأن كبرا ليس ينفع، وأن صلفا ليس يمنع، وأن عنتا ليس يشفع، ومن هزيمة نكراء، وحين يدير القائد ظهره لخبرة الخبراء، وحين يستدبر من وراء ظهره خلاصة وعصارة وحكمة الحكماء، ومن أمثال دريد بن الصمة- ولو كان كافرا، ولأن قد روي عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: الكَلِمةُ الحِكمةُ ضالَّةُ المؤمِنِ فحيثُ وجدَها فَهوَ أحقُّ بِها [1].

---

(١) ضعيف الترمذي، الألباني :٢٦٨٧

أدرك خالدا فقل له: إن رسول الله ﷺ ينهاك أن تقتل وليدا أو امرأة أو عسيفا.

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويوم حنين، ويوم أن نصر الله تعالى عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

وهذا خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، وإذ كان سيفا سله الله تعالى على المشركين، وإذ لأجل هذا كان يحنو عليه نبينا صلى الله عليه وسلم، ولأن مثل هؤلاء الشجعان غالبا ما يسبقهم سيفهم إلى الذود، ومن تنكيل بعدو الله تعالى وعدوهم، وتراهم يسابقون سيوفهم، بل إن رماحهم أيضا تسابقهم، إثخانا في الكافرين، وإنكاء في المشركين.

وهذا بيان لخلق هذا الدين، وحين لا يستقوي على النساء العوازل؛ ولأن القوة والبأس، وإنما تكون أمام الرجال، وللرجال، ولأن المرأة مسكينة، وإذ ليست تملك غالبا من قوة، وإذ ليست مغبونة إلا من حيلة! وإذ ليست تتشوف وغالبا الى شملة دفع وقتال، وإذ ليست تهفو دائما إلى لأمة حرب ونزال، وبالتالي وحين توجد في الصف فينبغي تحويل دفتها، وبرفق الإسلام المعروف، ولعلها تبلغ قومها، أن دينا أكرم النساء؛ لقمن اتباعه، وههنا يكون مكسب ولائها أعظم، ومن ضربة سيف أو من طعنة سيف أو غمده، ومن رجل مقاتل، كان خسارا، أن يضرب به امرأة! ولما لم تنازله، وحين لم تقاتله، وخاصة أنه صلى الله عليه وسلم بين أنها لم تكن تقاتل، وهذا نبي يعمل بوحي، وقوله ومن ثم وحي، وهي إذ لم تقاتل، أو لعل عين مخابراته الساهرة قد أبلغته، أو لعل عيون الملائكة الكرام البررة قد أعلمته، أو كليهما، والله أعلم.

وكذا العسيف وهو الأجير، وكذا الذرية وهم النساء والأطفال والشيوخ، وسائر من لم يرتكب قتالا، وكل من لم تدل وقائع الميدان أن قد لطخ بدم مسلم بريء.

وكذا نهى هذا النبي الكريم عن قتل الأطفال، وأنى لهم من ذنب؟! وإذ كيف لهم من إكرام، ومن حنو، ولأنهم زهور بيوتهم، ولأنهم ثمار أفئدة آبائهم وأمهاتهم، وإذ كان من خلق هذا النبي ﷺ الرحمة، وحين أنكر، ونهى واستنكر، وزجر؛ وأن تفزع طير بولدها، وإذ قال عبدالله بن مسعود، ذي الساقين الدقيقتين وإذ هما تزنان جبل أحد! بل وإذ رجحت ساقاه أحدا!: كنا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في سفرٍ فانطلق لحاجته فرأينا حمَّرةً معها فرخان فأخذْنا فرخَيها فجاءت الحُمَّرةُ فجعلت تفرشُ فجاء النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقال من فجع هذه بولدِها؟ رُدُّوا ولدَها إليها. ورأى قريةَ نملٍ قد حرقناها، فقال: من حرقَ هذه؟ قلنا: نحن، قال: إنه لا ينبغي أن يعذِّبَ بالنارِ إلا ربُّ النارِ [1].

وإذ وما بالنا وحين تفجع امرأة آدمية إنسانة، وهي الأخرى بوليدها، ولو كانت كافرة! وهذا خلق هذا الدين، رحيما، رؤوفا، كريما، حانيا، عطوفا لينا، سهلا، يسيرا! وصدق الله تعالى، وحين وصف هذا النبي ﷺ، وبقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]. وكذا قوله ﷺ: إنَّما أنا رحمةٌ مُهداةٌ [2].

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض بنى سعد بن بكر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يومئذ: إن قدرتم على بجاد، رجل من بنى سعد بن بكر، فلا

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٥٢٦٨

(٢) بداية السول، الألباني: ٧٣. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

يفلتنكم، وكان قد أحدث حدثا، فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهله، وساقوا معه الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرضاعة؟ فعنفوا عليها في السياق، فقالت للمسلمين: تعلموا والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتوا بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن عبيد السعدي، قال: فلما انتهى بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: يا رسول الله، إني أختك من الرضاعة، قال: وما علامة ذلك؟ قالت: عضة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك، قال: فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم العلامة، فبسط لها رداءه، فأجلسها عليه، وخيرها، وقال: إن أحببت فعندي محبة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت، فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي، فمتعها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وردها إلى قومها. فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاما يقال له مكحول، وجارية، فزوجت أحدهما الأخرى، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية.[١].

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه حنظلة الكاتب، وحيث قال: كنتُ معَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فمرَّ بامرأةٍ لَها خُلقٌ، وقدِ اجتَمعوا علَيها فلمَّا جاءَ أفرَجوا فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ما كانَت هذِهِ تُقاتلُ ثمَّ أتبَعَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ خالدًا أن لا تُقتَلَ امرأةً، ولا عَسيفًا[٢].

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج: ٤ / ٩٠٥و٩٠٦

(٢) نخب الافكار، العيني: ٢٢٥/١٢. حكم المحدث: له طريقان صحيحان.

جمع الغنائم يوم حنين

ثم جمعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا حنين وأموالها، وكان على المغانم مسعود بن عمرو الغفاري، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبايا والأموال إلى الجعرانة، فحبست بها [(١)].

وهذا يوقفنا على حقائق:

الحقيقة الأولى: هو ذلكم البذل في الله تعالى، وأنهم كانوا يخرجون قتالا في سبيله تعالى ابتداء، وليس ينقضه أن توزع عليهم غنائمهم، ومن بعد بذلهم، ولأنهم خرجوا جياعا، أو ذوو حاجة، وإن بذلوا لله تعالى العلي الأعلى سبحانه. وإن من ورائهم أبناءهم ونساءهم، وكفايتهم حق لهم، ومؤنتهم واجب على راعيهم، هو هنا الرجل الراعي في أهل بيته، وهو مسؤول عن رعيته، وبالتالي فليس من العدل إضاعتهم، بل من ظلمه لهم، وحين وقع ذلكم، وبالتالي فإن الإسلام وضع لذلك حسابه، وكيما تتمخض القمم، وحين تسربلت ببالغ الشيم، ويكأنك ترقبها، وإذ هي تترقى مراقى الصعود الى آفاق العلا والعلو، لا المنجذب بجاذبية الأرض، بل المنطلق متحررا من قيد ولو واحدا من جواذب المغناطيس الأرضي، ولا الحديد المتسم بسمات قانون الجذب العام أيضا! وإذ ها هي تبلغ مدارج القيم، ومسالك ذوي الهمم، ولأن الإسلام بهذا يكون له السبق الابتدائي، وهو إذ يملك زمام المبادرة، على كفاية جنده، لا حد الكفاف وحسب، بل قسطاسا مستقيما، وحين وضع قانونا تفصيليا لتوزيع غنائم حربه، ونوافل سلمه! وإذ لم يسابقه غيره، أو

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج: ٤ / ٩٠٦

يوازيه، أو يلتقي معه في نقطة واحدة متقاطعة وعلى طول من طريق! وفي هذا السمو الأخلاقي البعيد السحيق!

وبه يبادر المقاتلون وليسوا يحتاجون نداء ولا نفيرا ولأنهم على أهبة استعدادهم؛ لسبيل رباني دقيق، يحفظ عليهم أمنهم المعيشي، ورغدهم الاقتصادي، وحيثما وجد لذلكم طريق، وأينما سلك من أجله سبيل!

وبل إنهم حين خرجوا، وقد خرجوا ابتداء؛ مرضاة ربهم، وما كان ربهم ليذرهم جائزتهم مكافأتهم؛ نظير بذل، لا بذل بذلوه وحسب، ولا طريقا في جهادهم قطعوه. لا طريقا قطعوه وحسب، بل تسابقهم نواياهم، وحين كانت لله تعالى ربهم الحق المبين، وإذ ها هم يرقبون، ومن قريب! جنات عدن، والرحمن باريها، والفردوس والنبي ﷺ، وإذ ها هو ساكن فيها! علا لا يعدله سمو، ورقي لا يساومه مجد أو نهوض آخر! وإذ لا يتقاطع معه سموق ولا صعود ولا ارتفاع آخر أيضا!

ومنه نحسب أن هذا العطاء، ويكأنه وقد سيق إليهم سوقا، وإنما جاءهم، ومن حيث لم تستشرفه نفوسهم، ابتداء، ولا انتهاء؛ ولذا فجبر خواطرهم على ربهم!

وهنا تعبق المشاعر، وتستجمع الخلجات، وتتشابك الخواطر، وحين تتناغم الأحاسيس، ويكأنهم الضيوف، وعلى ربهم حلوا، وإنما كان حقا على المزور أن يكرم زائره! والملاحة كلها هنا، وجزؤها أيضا، وبعضها أيضا، وباسم ربهم قعدوا، وإلى ربهم فروا، لا باسم غنيمة، ولا نافلة، واذ لم يخرجوا لأجلها ابتداء، وانما وقد سيقت لهم سوقا، وكما أنف.

الحقيقة الثانية: وهو جعل أمير على الغنائم؛ وكيما تحفظ من كمغير، وكيما تصان من كمتسلل، وهذا شأن المال عموما، خاصه، وعامه، وإذ لابد أن يُحَرَّزَ، ولا يترك هكذا مشاعا، دون حفظه، ورعايته، فتغير عليه الغوائر، وليس من شك في أن هذا دليل دين، وبرهان رعاية، وآية حماية، وكل مال عُلِمَ أن ليس محرزا، فبلا شك لسوف يكون عرضة لإهلاكه وتدميره، أو النيل منه أو تقليله، أو احتساب ألا صاحب له، ومنه كان زعم أهل الحقوق منه كُثُرٌ!

الحقيقة الثالثة: أن حرمان الكفار من أموالهم حكمة نافذة، وهذه براعة قطع لخطوط الإمداد عنهم تاليا، وكيما لا يقدروا رفع رؤوسهم، من بعد، وعلى الأقل في يومهم القريب المنشود، أو في ذلكم غدهم المنظور، وهو عنوان إذلال لهم ثانيا، وحين يرجعون بخفي حنين، وريثما يستعيدون قوتهم، التي أزيل عليها التراب، وإلى أن يقول التاريخ فيهم كلمته. أو أن يؤوبوا، ومن بعد غلبهم، وحين علموا ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٥].

الحقيقة الرابعة: هذا درس خزي لمالك بن عوف النصري، وحين أخذت أموالهم غنائم، وكما هزموا في الميدان، وكلاهما سبيل عض على الأنامل: من غيظهم، ومن هزيمتهم؛ ومن بؤسهم؛ حتى انهالت عليهم الهزائم، من كل صوب، وحين تراكمت عليهم الخزايا، ومن كل حدب!

وهذا درس لكل متكبر، عتو، زنيم، جبار، جواظ، متكبر! وحين يركب رأسه من هواه، أو حين يغمض طرفه عن الحق والعدل، وحين يصم أذنيه عن حكمة المجربين، وإذ لا يسمع من خبرة المحنكين، ولو كانوا كفارا، وكمثل دريد بن الصمة، ويوم أن ناصحه بعلمه، فقال: راعي ضأن والله، هل يرد المنهزم شيء؟ إنها

إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك![1].

وحين قال دريد لمالك بن عوف أيضا: ارفعهم إلى متمنع بلادهم وعليا قومهم، ثم ألق الصبا على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من ورائك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك[2].

ويوم أن ناطحه عامر بجهله! فقال جهلا، وتصبب غرورا، وتعرق حنقا برأي، وتترس استئثارا بكيد، لا عن بصيص من علم، بل على ظلام من مركب الجهل، وبسيطه معه: والله لا أفعل، إنك قد كبرت، وكبر عقلك، ثم قال مالك: والله لتطيعنني يا معشر هوازن، أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري!

ومثل هذه النفوس إذا وضعت على كراسي القيادة، فسرعان ما أذن وقت غرقها، ومن فيها، ويكأنه نذير زف الهزيمة النكراء، والنازلة الشعواء، وحينما لم يأخذ جنده على يده أيضا، ويوم أن هددهم بقوله المشين، وزبده اللئيم، وحين أرعد، وأرغد، وأزبد، وهدد، وأوعد، وكما أنف.

وهذا هدي نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، أسوقه هدية لحيارى الزمان، وأزفه نورا لمن غاب عنه النور، وإذ قد حل به الظلام، وحين لم يستشر، ولما لم يسترشد، ولأن قولا واحدا، ربما أغرق، ولأن رأيا فاسدا، ربما أوحل!

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج ٢ / ٢٦١

(٢) المرجع السابق: ج ٢ / ٢٦١و٢٦٢

إن النـاس بحاجـة إلى رأي ومكيـدة، وإذ كـان رائـدهم في ذلـك، مشـورة الحباب بن المنذر رضي الله عنه، وإذ كان سابقهم في تنفيذه، وإعماله وتوكيده، وتقريره هذا النبي الأمي العربي الكريم صلوات ربي عليه وسلامه عليه سحا غدقا مجللا.

فعن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قال: مَثَلُ القائِمِ علَى حُدُودِ اللَّهِ والواقِعِ فيها، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا علَى سَفِينَةٍ، فأصابَ بَعْضُهُمْ أعْلاها وبَعْضُهُمْ أسْفَلَها، فَكانَ الَّذِينَ في أسْفَلِها إذا اسْتَقَوْا مِنَ الماءِ مَرُّوا علَى مَن فَوْقَهُمْ، فقالوا: لو أنَّا خَرَقْنا في نَصِيبِنا خَرْقًا ولَمْ نُؤْذِ مَن فَوْقَنا، فإنْ يَتْرُكُوهُمْ وما أرادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وإنْ أخَذُوا علَى أيْدِيهِمْ نَجَوْا، ونَجَوْا جَمِيعًا[1].

(١) صحيح البخاري: ٢٤٩٣

الفصل السابع: غزوة أوطاس

كانت غزوة أوطاس بعد غزوة حنين، وسببها محاولة هوازن من ثقيف أن تثأر لهزيمتها على أيدي المؤمنين يوم حنين.

لكن هذا لم يحدث، وإذ تكبدوا هزيمة نكراءَ أخرى، ولتنضاف إلى هزيمة يوم حنين، وليكون الاندحار مركبًا، فيعمل فيهم عمله؛ من خزيهم، ومن حمقهم، ومن سفههم، وحين أخذتهم جرأتهم، بل رعونتهم، ولما لم يحسبوا حساباتهم العسكرية بدقة، ومن خلال واقعهم المهزوم، وما زال جرحهم نازفًا!

وهذا درس حاسم للمنهزم، ألا يطل برأسه من جديد، ولربما كان رأسًا أينعت، فحان قطافها!

أو على الأقل إن شئت فقل، وريثما يعيد ترتيب أوراقه من خطط جديدة، ولتتلاءم مع وضع جديد، وإذ كان نتاج رعونته خزيه، وإذ كان من حمقه شينه واندحاره وانهزامه، وحين ناصب الله تعالى العداء، وعلى الحقيقة وإن ظن سوءًا أنه يحارب نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم وحزبه! وهذه آفة كل جواظ عتو متكبر جبار.

لكن هذا وفي معزل عن جندنا، ولأنهم يتكيفون مع كل واقع جديد، ولأنهم يعملون بنور ربهم، وعن عون منه وسند سبحانه.

فالتأمل التأملَ! والتأني التأني! والتهور التهور!

هذا شريد أبي عامر

وهذا هو قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويوم أوطاس، يوم أن راحت فلول هوازن ثقيف تجر أذيال خيبتها، وبعد هزيمة ثلاثين ألفًا، وأمام جند الله تعالى البواسل، وإذ كان عدادهم اثني عشر ألفًا، ولتعلم هوازن ثقيف وغير هوازن ثقيف، وعلى مدار الزمان والمكان كليهما - أن القوة لله جميعًا، وأن الله شديد العقاب، وإذ كانت هذه هي سننه الجارية التي لا تتغير ولا تتبدل، وحين تدك حصون الكفر، وأمام جند الله تعالى المخلصين، وحين أوحى الله تعالى ربنا إلى الملائكة الكرام البررة المنزلين، وليقوموا بواجب نصرتهم، لعبيد الله تعالى وأوليائه، وعلى أرض الميدان، وإذ ها هو جبريل أحدهم، وإذ إن له ستمائة جناح، لو بسط اثنين منهما لملأ الأفق! بل سد الأفق!! وبينهما فارق عظيم، وكما بين جناحيه عليه السلام وجناح طائر من طيور أرضنا الممهدة المنبسطة لنا! نعمة من ربنا! وكما قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

وإذ ها هم فلول يتتبعون أعالي جبال الطائف، وفي محاولة بائسة يائسة، وأن يلملموا بعض أوراقهم المبعثرة، وبدل أن يكون من أخذهم الدرس إسلامهم، وإذ ها هم أولاء يتعرضون بأنفسهم، وأمام أبي عامر الأشعري، وحين لوى على عشرة إخوة ليحصدهم حصدًا، واحدًا ومن بعد أخيه الآخر، وفي كل مرة يقول: اللهم اشهد عليه، وحتى أتى عاشرهم فانفلت، وثم عاد مسلمًا، ومن بين يدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أسلم بعدُ، وحسن إسلامه، وكان النبي

صلى الله عليه وسلم إذا رآه قال: هذا شريد أبي عامر! وفي واقعة تشهد لأبي عامر يوم فعله هذا؛ لأنه ما قدم على فعل ما فعل إلا لله تعالى العلي الأعلى سبحانه.

وهذا دريد بن الصمة، وكان قد بلغ عمرًا طويلًا، ويكأن الله تعالى لم يمنن عليه بإسلامه، ولحكمة يعلمها الله تعالى، وإذ كان يعد حكيمًا في قومه، ومثل هذه الحكمة أن تتشرب الحق تشربا، وأن تتفاعل معه، وله، فتغترف من هديه، وتتنشق من رحيقه، وتتنسم من عليله، وتتعبق ظلاله، وإذ بها تعلو مرفرفة آفاق المجد والعلا، وحين ختمت حياتها بميلاد يوم النشأة الجديد، ويوم أن أسلمت وجهها لله، وهي محسنة.

لكنك تعجب! وأيما عجب! وحين يدغدغ دريد بن الصمة هذا مشاعر ذات نفسه، وهو إذ يشرح لربيعة بن رافع السلمي، وحين ضربه بسيفه، فلم يغن شيئًا.

وليقول له دريد: بئس ما سلحتك أمك! خذ سيفي هذا من مؤخر رحلي في الشجار، ثم اضرب به، وارفع عن العظام، واخفض عن الدماغ، فإني كذلك كنت أضرب الرجال!

ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة، فرب والله يوم منعت فيه نساءك، فزعم بنو سليم أن ربيعة قال: لما ضربته فوقع تكشف، فإذا عجانه وبطون فخذيه مثل القراطيس، من ركوب الخيل أعراء.

فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه، فقالت: أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثًا[1].

وفيه أن أعمال البر ليست تغني عن العبد شيئًا، وحين لا يكون موسومًا بالعلم والتقوى والصلاح ومنابذة الأعداء، ومن بعد إسلام وجهه لله تعالى وهو محسن، ولأنه الله تعالى ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

وغير أن هذا صلف وكبر، وحين يموت هذا الرجل، وعلى سنه ذلك، وإذ كان أولى له أن يشهد شهادة الحق! ولكن هكذا الشيطان، وحين يمثل للكبار، ولما يشخص للصغار، وكما من شأنه يوم دريد هذا، وكما أن يوم أبي طالب عنا ليس بعيدًا!!

وأقول: إن يوم أوطاس هذا كان هزيمة، ولا كهزيمة جيش جرار، وأمام نده، ومن قول، وإنما هي هزيمة! ومن نوع آخر تمامًا! ومن بعد هزيمة يوم حنين، وإذ وكما أنف، وكيف حسب هذا الأحمق عامر بن مالك النصري، وأنه يمكنه أن يستعيد مجدا قد كان؟! وهو إذ يواجهه قوم لا قبل له بهم؟! أو بأحدهم! ومن أمثال أبي عامر الأشجعي! واحدًا من هؤلاء الجبال الرواسي، بل أشد بأسًا من تيكم الجبال الرواسي، وحين دكت معادنهم الاثنا عشر ألفًا الثلاثين ألفًا! وفي عقر دارهم! يوم حنين، وها هم يطلون برؤوسهم، ومن قرب مكة البلد الحرام، ومن وراء الطائف، ولحكمة يعلمها الله تعالى، أنهم جاؤوا إلى حيث هنا، وليعمل أهل

---

(١) الاستيعاب، ابن عبد البر: ج ٢ / ٤٩١، وتاريخ الطبري، الطبري: ج: ٢ / ٣٥١

الطائف ذعرًا، وحين يدفن أهل أوطاس في جبالها، ومن أمامهم، وأن يومهم ومن كمثلهم لقريب!

وهذه مهارة عسكرية، وحين يخوف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الخصم بخصم آخر، ويبدو أن هذا نظام عسكري نبوي حميد، وخاصة لأننا لمسناه في غير هذا الموضع، ومن هذه السيرة النبوية المباركة، وإذ ليست عنا دومة الجندل ببعيدة، وحين أخاف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بها بني تميم، وإذ أخاف أيضًا بها قيصر الروم، وحين دب الذعر من فرائصه، وحين قد سمع صراخ بني تميم، ومن صراخ دومة الجندل أيضًا! وإذ ويكأنك تراه ليس يكاد يمشي أو يسير، وليعثر هنا مرة، ولينكفئ هناك الكرة! وحين غلبه بوله! ومن رعدته وخوفه وذعره!

وهذا لعمري هو الإعجاز، وبعينيه لا عين واحدة! ولأن يوم الفنون العسكرية، ولأن يوم الجهبذة التعبوية لم يزل خالدا أبدًا، وماثلًا أبدًا أيضًا؛ ليرهبوا عدو الله وعدوهم، وبأيديهم هم، لا بأيدي المؤمنين وحسب.

ولسنا ننسى أيضًا يوم بني النضير، وإذ ما زال حاضرًا، وكأنما هو عمل اليوم! وحين خربوا بيوتهم بأيديهم، وأيدي المؤمنين، وحين قال الله تعالى ﴿ **هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** ﴾ [الحشر:٢].

يا بن أخي أقرئ رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام، وقل له: استغفر لي، واستخلفني أبو عامر على الناس

وهذا قول أبي عامر الأشجعي، يوم أوطاس، ويوم أن أبلى في الله تعالى البلاء الحسن، وكما أنه أوجب، وحين باع نفسه كريمة لله تعالى العلي الأعلى سبحانه، وحين كان هذا الجيل، وكل جيل مسلم آخر، يرى الجنة، تحت ظلال السيوف، وكما أنها أيضًا في محاريب العلم، وحين تنفر كل طائفة على وجهها، فهذه تقاتل في سبيل الله، وهذه تتلقى علما في سبيل الله تعالى أيضا، وكل على ثغر، وفي ترتيب أمة ماهرة، وفي ضبط قيادة ساهرة، وإذ كل ينهض بما تمثل له من دوره وعمله، وهذا مصداق قول الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٢]، ومن جانب آخر يقول الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال:٦٠]، وإذ وحين لزوم الأمر، يتعانق السيف مع الكتاب، وحين يتبادلان معا أعنة رماحهم، وأغماد سيوفهم؛ قضًّا لمضاجع الكفران، ورفعًا لأعلام الهدى والإسلام والفرقان والإيمان!

وإذ كان بالعلم تعرف الأمة طريقها، ولتفعل هذا، وعن علم، ولتترك هذا، وعن فقه، ولتجاهد هذا، وعن بينة، ولتقاتل هذا، وعن حجة ودليل وبرهان، والعلم والجهاد هما عمادا ماضي الأمم وحاضرها ومستقبلها، وهما موجبا التقدم

لا التقهقر، وهما سببا السعادة لا الشقاء، وهما ذراعا الحضارة لا التأخر، وشرط أن يكون كل ذلك لله تعالى، وخشية أن يكون صاحب هذا، أو ولي ذلك من أول من تسعر بهم النيران!! وعلى حديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفي هذا الشأن.

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه **أنَّ اللَّهَ تبارَك وتعالى إذا كانَ يومُ القيامةِ ينزلُ إلى العبادِ ليقضيَ بينَهم وَكلُّ أمَّةٍ جاثيةٌ فأوَّلُ من يدعو بِه رجلٌ جمعَ القرآنَ، ورجلٌ يقتَتِلُ في سبيلِ اللهِ، ورجلٌ كثيرُ المالِ، فيقولُ اللَّهُ للقارئِ: ألم أعلِّمْكَ ما أنزلتُ على رسولي، قالَ بلى يا ربِّ، قالَ فماذا عملتَ فيما عُلِّمتَ، قالَ كنتُ أقومُ بِه آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ، فيقولُ اللَّهُ لَه كذَبتَ، وتقولُ الملائِكةُ كذَبتَ، ويقولُ له اللَّهُ بل أردتَ أن يقالَ فلانٌ قارئٌ، فقد قيلَ، ذلكَ ويؤتى بصاحبِ المالِ، فيقولُ اللَّهُ ألم أوسِّعْ عليكَ حتَّى لم أدعْكَ تحتاجُ إلى أحدٍ، قالَ بلى يا ربِّ، قالَ فماذا عمِلتَ فيما آتيتُك، قالَ كنتُ أصلُ الرَّحمَ وأتصدَّقُ، فيقولُ اللَّهُ لَه كذَبتَ، وتقولُ الملائِكةُ لَه كذَبتَ، ويقولُ اللَّهُ بل أردتَ أن يقالَ فلانٌ جَوادٌ وقد قيلَ ذلكَ، ويُؤتى بالَّذي قُتلَ في سبيلِ اللهِ، فيقولُ اللَّهُ لَه في ماذا قُتلتَ، فيقولُ أُمِرتُ بالجِهادِ في سبيلِك، فقاتلتُ حتَّى قُتلتُ، فيقولُ اللَّهُ لَه كذبتَ، وتقولُ لَه الملائِكةُ كذبتَ، ويقولُ اللَّهُ بل أردتَ أن يقالَ فلانٌ جريءٌ، فقد قيلَ ذلكَ، ثمَّ ضربَ رسولُ اللهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ على رُكبتي، فقالَ يا أبا هريرةَ أولئِك الثَّلاثةُ أوَّلُ خلقِ اللهِ تُسعَّرُ بِهمُ النَّارُ يومَ القيامة**[١].

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٢٣٨٢

وعود على خبر أبي عامر الأشجعي، وحين قدمت نفسه طريحًا بين يدي صاحبه، وإذ يرمق من رمقه الأخير، وبعد أن كان نصر يوم أوطاس من سببه، ويوم أن كان فوز يومه ذلك من بذله، وإلا أنه يودع دنياه، ويطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يستغفر له، وهذه المغفرة هي ذلكم الهدف الذي يصبو إليه كل عبد قانت، وهذه المغفرة هي التي حولها يدندن كل منيب تائب.

وبيد أننا نقرأ ملامح الإخبات والخضعان والخشعان، وحين تبدى من قول أبي عامر الأشجعي رضي الله تعالى عنه، وإذ كان له شرف التكليف، من القائد الأعلى للقوات المسلحة الإسلامية، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يوم أوطاس هذا.

بيد أننا نندهش، وحق لنا ذلك! ويوم أن قتل التسعة الإخوة، وما بقي منهم إلا واحد، وليكون له شرف نيل الشهادة ومن سببه!

وإلا أننا نزداد دهشة، وحين يطلب أبو عامر من النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر له وأمامه عمله هذا، وإذ مات شهيدًا! وإذ كان جزاء الشهداء عند ربهم عظيمًا، وأنهم لأحياء عند ربهم يرزقون، وكما قال تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩].

وإلا أننا أيضًا نجيب على ذلكم، وحين يسعفنا الرد، أن هؤلاء قوم، كان عملهم لله.

ودل على قيام أبي عامر بمهمته، لا أننا وهكذا نراه مسجى بين يدي الله تعالى وحسب، وإلا أننا أيضًا نشهد ومع الملائكة الكرام الكتبة البررة، أنه قدم لنا مرحلة من مراحل الفوز العظيم، وحين كان نصرًا، يوم أوطاس، ومن سببه

وقيادته وبلائه وعمله في الله تعالى العمل العسكري الحاسم، والنبل القتالي الفائق!

وإلا أن هذا ليس يصرفنا عن بيان حال هذا القائد الأعلى للقوات المسلحة الإسلامية، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويوم أن راح إليه عبدالله بن قيس رضي الله تعالى عنه، وليخبره وصية أخيه في الله تعالى أبي عامر الأشجعي، وأن يستغفر له نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه وهذا حاله، وقد قام بواجب القتال، وحين رأته ملائكة السماء الكرام الكتبة البررة، وهكذا مسجى، من ضربة سيف، أو من طعنة رمح.

وإذ لا زال الاندهاش قائمًا مقامه!

وأي استغفار طلب أبو عامر الأشجعي؟! وها هو إذ تحمله ملائكة الرحمة حملًا، وإلى جنات عرضها السماوات والأرض، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم؟!

وإذ ليس أمامنا إلا ذلكم الاستغفار، الذي كان ديدنًا لهم ونظامًا يعيشون عليه، وكأنما كان طعامهم الذي يقتاتون به، أو كأنه كان شرابهم الذي به يرتوون أيضًا، عملًا خالصًا متقبلًا، وحين قد تعلموا ذلكم من نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ كان يمكن أن يكون زيادة طهر، وحين أقبلوا على رب كريم رؤوف رحيم عفو حسن التجاوز سبحانه.

السريرُ المُرَمَّلُ!

وأقول: إن وصفًا لسرير كان ينام عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا تنقله لنا أوصافه، ومن فِي عبدالله بن قيس رضي الله تعالى عنه؛ ليوقفنا على أنه صلى الله عليه وسلم نعم قد نام على سريرا! وأن نعم ومرمل برمال صحراء الجزيرة العربية! وأن نعم سرير، ولكنه لا على شيء من وصف سرر الناس يومنا هذا!! والله المستعان!

وإنما نترك عبدالله بن قيس ليصفه، ولأنه الذي رأى، ولأن وصفًا لنا من بعده، ربما ضبب الصورة، وأعتمها، فلا تبدو وكما قالها عبدالله بن قيس، آخذة للقلوب، آسرة للأفئدة، وحين قال رضي الله تعالى عنه: فرجعت فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته على سرير مرمل، وعليه فراش، قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه!!!

وهكذا كانت حياة هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وحين قاد أمة فتح الله تعالى بها الأرض مشارقها ومغاربها!

ويكأننا نقدم هذا النبي الأمي العربي الكريم، ابن صحراء مكة راعي غنمها! ومرة أخرى هدية للعالمين، سننه، وهديه، وقيامه، وقعوده، وسلمه، وحربه، ووفاءه، وإخلاصه، وزواجه، وطلاقه، وبيعه، وشراءه، ورحمته، ورأفته، وعلمه، وتواضعه، وشدة بأسه، وقوة شكيمته، وعزة نفسه، وبذله، وتفانيه، وعدله، ومودته، وعفوه، وحلمه؛ وصفحه، وسائر ما يمكن أن يكون موجودًا بين دفتي قواميس العالم - كلها وكله - من أصول الشيم، وقواعد القيم، النبيلة، الرفيعة، العالية، السامقة، الجليلة القدر، العظيمة الشأن.

بأبي هو وأمي ونفسي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

وهكذا دعا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأخيه أبي عامر الأشجعي، وهكذا دعا صلى الله عليه وسلم أيضا لأخيه عبد الله بن قيس، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أبي موسى الأشعري أنه: **لَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن حُنَيْنٍ، بَعَثَ أبَا عَامِرٍ علَى جَيْشٍ إلى أوْطَاسٍ، فَلَقِيَ دُرَيْدَ بنَ الصِّمَّةِ، فَقُتِلَ دُرَيْدٌ، وهَزَمَ اللَّهُ أصْحَابَهُ. قالَ أبو مُوسَى: وبَعَثَنِي مع أبِي عَامِرٍ، فَرُمِيَ أبو عَامِرٍ في رُكْبَتِهِ؛ رَمَاهُ جُشَمِيٌّ بسَهْمٍ فأثْبَتَهُ في رُكْبَتِهِ، فَانْتَهَيْتُ إلَيْهِ، فَقُلتُ: يا عَمِّ، مَن رَمَاكَ؟ فأشَارَ إلى أبِي مُوسَى فَقالَ: ذَاكَ قَاتِلِي الذي رَمَانِي، فَقَصَدْتُ له فَلَحِقْتُهُ، فَلَمَّا رَآنِي ولَّى، فَاتَّبَعْتُهُ وجَعَلْتُ أقُولُ له: ألَا تَسْتَحْيِي! ألَا تَثْبُتُ! فَكَفَّ، فَاخْتَلَفْنَا ضَرْبَتَيْنِ بالسَّيْفِ فَقَتَلْتُهُ، ثُمَّ قُلتُ لأبِي عَامِرٍ: قَتَلَ اللَّهُ صَاحِبَكَ، قالَ: فَانْزِعْ هذا السَّهْمَ، فَنَزَعْتُهُ فَنَزَا منه المَاءُ، قالَ: يا ابْنَ أخِي، أقْرِئِ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ السَّلَامَ، وقُلْ له: اسْتَغْفِرْ لِي. واسْتَخْلَفَنِي أبو عَامِرٍ علَى النَّاسِ، فَمَكُثَ يَسِيرًا ثُمَّ مَاتَ، فَرَجَعْتُ فَدَخَلْتُ علَى النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في بَيْتِهِ علَى سَرِيرٍ مُرْمَلٍ وعليه فِرَاشٌ، قدْ أثَّرَ رِمَالُ السَّرِيرِ بظَهْرِهِ وجَنْبَيْهِ، فأخْبَرْتُهُ بخَبَرِنَا وخَبَرِ أبِي عَامِرٍ، وقالَ: قُلْ له: اسْتَغْفِرْ لِي، فَدَعَا بمَاءٍ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أبِي عَامِرٍ. ورَأَيْتُ بَيَاضَ إبْطَيْهِ، ثُمَّ قالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَومَ القِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِن خَلْقِكَ مِنَ النَّاسِ، فَقُلتُ: ولِي فَاسْتَغْفِرْ، فَقالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللَّهِ بنِ قَيْسٍ**

ذَنْبَهُ، وأَدْخِلْهُ يَومَ القِيَامَةِ مُدْخَلًا كَرِيمًا. قالَ أبو بُرْدَةَ: إحْدَاهُما لأبِي عَامِرٍ، والأُخْرَى لأبِي مُوسَى[1].

مسألة السبايا مناسبة يوم أوطاس

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يَومَ حُنَيْنٍ بَعَثَ جَيْشًا إلى أَوْطَاسٍ، فَلَقُوا عَدُوًّا، فَقَاتَلُوهُمْ فَظَهَرُوا عليهم، وَأَصَابُوا لهمْ سَبَايَا، فَكَأنَّ نَاسًا مِن أَصْحَابِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ تَحَرَّجُوا مِن غِشْيَانِهِنَّ مِن أَجْلِ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ، فأنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في ذلكَ: ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ﴾ [النساء:٢٤]، أَيْ: فَهُنَّ لَكُمْ حَلَالٌ إذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ[2].

وهذا فقه من سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولذا تعد دراسة السيرة النبوية المباركة حقلا واسعا، وميدانا عمليا رحبا، لمعرفة فقه العبادات، وعلى الحقيقة، وكما لو كان العبد وقد حدث فيه، أو من أمامه، والفرض أنه قصد به غيره، فهو ومن ثم حكمه حكمهم، ولقاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإلا ما دل دليل على خصوصه، وهو كذلكم كتاب مفتوح، لتعلم فقه المعاملات، وكما لو كنت تراها رأي العينين، لا عين واحدة.

وهؤلاء هم الصحب الكرام، رضي الله تعالى عنهم، وقد سبوا نساء يوم أوطاس، ومن بعد نصرهم على عدو الله تعالى وعدوهم، وكما أنف، وفي مواضع

---

(١) صحيح البخاري: ٤٣٢٣

(٢) صحيح مسلم: ١٤٥٦

أخر من هذه السيرة النبوية المباركة، فإن هذا عملا ليس جديدًا، ولا بدعًا من الأمر وزورًا، وحتى أقاموا له سوقًا كاسدة، لا رائجة! وإنما كان معمولًا به، وفي التاريخ شواهده، فإن أول من ملك من ولد قحطان بن هود النبي: ابن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح سبا بن يعرب بن قحطان، وكان اسم سبا عبدشمس؛ لأنه كان أول من ملك من ملوك العرب، وسار في الأرض، وسبى السبايا[1].

وكما هو أيضًا باب من أبواب حمل الناس على الديانة المجيدة، ولما يعلمون ثمن كفرهم وعنتهم، وحين تسبى نساؤهم، ولما تغتنم أموالهم، فيكونون صفرًا، ومن ثم وحين يحسبون لهذا حسابه، ولما يحسن إسلامهم من بعد.

وعلى أية حال، فإن الحكم في ذلك ما قاله ربنا تعالى، وحين أنزل في التنزيل الكريم، والذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٤]، ودلالة على جواز استحلالهن فروجهن، ومن بعد عددهن.

وملك اليمين هن: السبايا اللواتي فرق بينهن وبين أزواجهن السباء، فحللن لمن صرن له بملك اليمين من غير طلاق كان من زوجها الحربي لها[2].

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كل امرأة لها زوجٌ فهي عليك حرام، إلا أمةٌ ملكتها ولها زوجٌ بأرض الحربِ، فهي لك حلال إذا استبرأتَها[3].

---

(١) تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: ج ١/ ١٩٥

(٢) تفسير الطبري، الطبري: ج ٨ / ١٥١

(٣) المرجع السابق: ج ٨ / ١٥٢

وقد بوب الإمام البخاري رحمه الله تعالى لذلكم بابًا قال فيه: باب: لا يكون بيع الأمة طلاقها، فدل على إمكان استبراء رحم من كانت ذات زوج، ودون إيقاع الطلاق بها، ومن مثله البيع، والسبي، وعلى شرط الاستبراء، وهو حيضة واحدة.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: لا توطأُ حاملٌ حتَّى تضعَ، ولا غيرُ ذاتِ حملٍ حتَّى تحيضَ حيضةً[1].

وهذا الحديث مناسبة سبايا يوم أوطاس أيضًا.

وإن السباء يحلهن لمن سباهن بعد الاستبراء، وبعد اخراج حق الله تبارك وتعالى الذي جعله لأهل الخمس منهن[2].

والآية خاصة بالمسبيات، فإن المسبية إذا سبيت حل وطؤها لسابيها، بعد الاستبراء، وإن كانت مزوجة، وهذا قول الشافعي، وأحد الوجهين لأصحاب أحمد، وهو الصحيح[3].

وأما عن عقد نكاحها بزوجها الأول، وقبل السبي، فإنه منفسخ؛ وبسبب السبي، "فتضمن هذا الحكم إباحة وطء المسبية، وإن كان لها زوج من الكفار، وهذا يدل على انفساخ نكاحه، وزوال عصمة بضع امرأته، وهذا هو الصواب؛ لأنه قد استولى على محل حقه، وعلى رقبة زوجته، وصار سابيها أحق بها منه، فكيف يحرم بضعها عليه، فهذا القول لا يعارضه نص ولا قياس"[4].

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٢١٥٧

(٢) تفسير الطبري، الطبري: ج ٥ / ١٢

(٣) زاد المعاد، ابن القيم الجوزية: ٥ /١١٨

(٤) زاد المعاد، ابن القيم الجوزية: ٥ /١١٨

واستحلال فروج المسبيات شرع، ومن بعد وضعهن حملهن، أو انقضاء عدتهن.

واستحلالهن بغير عقد زواج، ولأن السبي سبب منعقد للحل.

فعن العرباض بن سارية أن النبيَّ- صلى الله عليه وسلم- حرَّمَ وَطْءَ السَّبَايَا حتى يَضَعْنَ ما في بُطُونِهِنَّ[١].

ولأن الحديث نص في شرط وضعهن حملهن، ولم يشر إلى عقد النكاح، ولو كان لازمًا لنص عليه، بل هو أولى.

ومنه قول نبينا صلى الله عليه وسلم: مَن كان يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ، فلا يَنكِحَنَّ شَيئًا منَ السبايا حتى تَحيضَ[٢].

وشاهده أنه صلى الله عليه وسلم وضع شرط الحيض؛ لاستبراء المسبية، ولو كان النكاح لبينه، بل هو أولى أيضًا.

فائدة

فالطلاق ثلاث حيضات إذا كانت تحيض، أو ثلاثة أشهر إن كانت يائسة لا تحيض أو صغيرة، والوفاة أربع أشهر وعشر إن لم تكن حاملًا. فإن كانت حاملًا فبوضع الحمل، والخلع مثل المطلقة ثلاث حيض، ويجوز أن تعتد بحيضة واحدة على الصحيح، لكن إذا اعتدت بثلاث حيض يكون أحوط، والخلع هو أن يطلقها

---

(١) نيل الأوطار الشوكاني: ٦ /٣٠٨
(٢) تخريج زاد المعاد، شعيب الأرناؤوط: ٥ /١٢١، خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

على مال، تعطيه مالًا حتى يطلقها أو يخالعها، يقال لها: مخلوعة، إذا طلقها على مال دفعته إليه، فإن طلقها بلفظ الطلاق طلقة واحدة مثل المطلقة تعتد ثلاث حيض، وإن اعتدت بحيضة أجزأت عند جمع من أهل العلم، لكن الأفضل والأحوط ثلاث حيض؛ لأنها اشترت نفسها فأشبهت الجارية تعتد بحيضة، تشبيه المسبية أو المشتراة تستبرأ بحيضة، فالمخلوعة تشبهها، ولهذا جاء في حديث امرأة ثابت بن قيس أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرها أن تعتد بحيضة لما اختلعت منه وأعطته ماله، ولكن كونها تعتد بثلاث حيض أولى وأحوط خروجًا من الخلاف وحرصًا على براءة الرحم[١].

الشهداء أربعة!

يكاد الاندهاش ملازمًا، وبسرعة العجاب مصاحبًا!

وذلك حين نعلم أن عدد من استشهد في كل من غزوتي حنين وأوطاس كان أربعة، وهم: أيمن بن أم أيمن مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أيمن بن عبيد، وزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، جمح به فرسه الذي يقال له الجناح فمات، وسراقة بن مالك بن الحارث بن عدي الأنصاري من بني العجلان، وأبو عامر الأشعري أمير سرية أوطاس[٢].

وهذا في الشؤون العسكرية شبه محال! وخاصة وحين نعلم أن جيش هوازن كان عداده ثلاثين ألفًا، وفي مقابلة جيش نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ كان عداده اثني عشر ألفًا!!

---

(١) موقع الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى على الشبكة العنكبوتية
(٢) السيرة النبوية، ابن كثير: ج: ٣ / ٦٤٤

وبحسبة بسيطة غير مركبة، كان جيش هوازن يوم حنين هذا على ضعفين ونصف الضعف من جيش المسلمين!!

وأكرر أن استشهاد أربعة وحسب من هؤلاء الاثني عشر نزر يسير!!

وأكرر أيضًا أن هذه الحصيلة، وليست تكاد تذكر، وحين كانت محصلة عقد اجتماعات، وإصدار قرارات، وخذ وهات، واعتراضات، جرت بين دريد بن الصمة، ومالك بن عوف النصري!

صحيح إن استشهاد ولو واحدًا من جند الإسلام الغر الميامين ليعد خسارة، ولأن الجندي المسلم له قيمة في موازين هذا الدين ولا شك، وإنما نحن نتحدث عن موازين القوى، وشأنها في مثل هذا الوضع الذي نخرج منه رافعي رؤوسنا، وخاشعة قلوبنا، وحين نرى هذا الإعجاز، ليس من موازيننا نحن معاشر البشر المساكين، وإنما من حسابات السماء، وكيف أقلقت الكافرين، وشتت شملهم، وخيبت ظنَّهم، وحين انهزموا أولًا، وحين كان عداد قتلهم هم هؤلاء الأربعة رضي الله عنهم أجمعين، وكذلك من حسابات هيئة التعبئة والإحصاء للقوات المسلحة، سواء الإسلامية، أو حتى هذه تلك التابعة لهوازن!

وسلوا التاريخ! هل سجلت من دفاترك أن قومًا عدادهم ثلاثون ألفًا واجهوا قومًا عدادهم اثنا عشر ألفًا، ويخرجون بذلكم خزي عسكري، وحين قتلوا أربعة منهم فقط؟!

ومما لا شك فيه ولا مرية أن جوابه لسوف يكون حاسمًا، وحين أحسبه قال: نعم، وليس ذلكم إلا يوم حنين وأوطاس!

وتالله، وبالله، ووالله، لو لم ينتصر المسلمون يومهم هذا، لعددناه نصرًا مجيدًا!

وسبب ذلك وكما سبق أن أربعة قُتلوا من اثني عشر ألفًا مواجهين ثلاثين ألفًا!

ويكون قولنا إذًا ممهورًا بتواقيع الصدق، وحين أيده الخبراء العسكريون من المشارق ومن المغارب أيضًا.

وقلت أيضًا: ولا شك أن منهم منصفين، وسوف يقولون قول الحق الذي كانوا فيه يمترون!

الفصل الثامن: غزوة الطائف

لطائف من غزوة الطائف

-١-

تمثل غزوة الطائف فصلا جديدا من فصول هذا البذل المبارك، ولهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه من أولاء الصحب الكرام رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وكما وأنها تمثل حلقات من حلقات يوم حنين ويوم أوطاس معا، وإذ شكل هذا الثلاثي وفي عقدنا سلسلة متصلة، ولربما جاز التعبير، ولنفرة واحدة، وإن كان لكل منها سمتها، إأن تميزت كل مرحلة من مراحلها، وبما تتميز به كل غزوة، وعلى انفرادها، وهذا ما منح كلا زخما مركبا، وحين التأم بأخرى معه، فكان مركبا مضاعفا، وحين كان كلا من ثلاثة أجزاء، فأصبح جمعا مؤلفا من أضعاف مضاعفة أخر، وإن كل ذلكم ولما منحه زخم آخر، كان وكما ألفيناه، ويراه قارئ كريم، وكم هو زخمه، ولما أضحى زخما مركبا، من أضعاف كثيرة!

وقد تسنى لنا أن نصاحب فيها نبينا محمدا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، معينا غدقا للتربية، وكتابا مفتوحا للتدريب والتعليم والبذل والتفاني.

وها نحن قد اخترنا نماذج مرتنا هذه، ولنطوف حولها، مستلهمين الرشد من الله تعالى، ومستشرفين الصواب، من العليم الخبير القدير، ربنا الرحمن سبحانه، وعلى نحو مؤلف من مشاهدة عدة، وقد كان الاختيار هذه المرة لمشاهد ثلاث هي:

المشهد الأول: من بلغ بسهم فله درجة في الجنة.

المشهد الثاني: لا يَدْخُلَنَّ هَؤُلَاءِ عَلَيْكُنَّ.

المشهد الثالث: إنَّا قَافِلُونَ غَدًا إنْ شَاءَ اللَّهُ.

المشهد الأول: من بلغ بسهم فله درجة في الجنة

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم، يوم غزوة الطائف، وهذا بيان فضل منزلة الرمي في سبيل الله تعالى، وحرص كل مسلم على أن يرمي، وألا يرمي إلا في سبيل الله تعالى. وهذان الأمران العظيمان عليهما المدار في عمل العبد عموما، وفي الجهاد منه بوجه أخص، ولأنه ولئن لم تبذل النفوس رخيصة لله تعالى، فإن صدق الإيمان يكون محلا لنظر، وإن بيضة هذا الدين تكون محلا لخطر، وحين تتقاذفها أمواج عالية عاتية، من تغيير دفة إخلاصها، ومن تمييع موجة جهادها.

وهذان أمران اثنان، ولكنهما عظيمان. وليس ذلكم فحسب، وإنما لما فيهما من استدعاء طاقات البذل، ولما فيهما من مجاهدة النفس، وألا يحملها حامل على العمل، إلا ذلكم البر والاخلاص لله تعالى رب العالمين.

وإذ كان منه استدعاء هذه الطاقات أيضا، والذي قال عنه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم آنفا: من بلغ بسهم فله درجة في الجنة، وإذ كان المؤمل هو عمل تحفيزي، يجعل من ولائهم لله تعالى، فعلا مبرورا، ثم لهذا الثغر عملا ميسورا.

ولهذا السبب كان من عمرو بن عنبسة، رضي الله تعالى عنه، وحين روى هذا الحديث، أنه رمي ستة عشر سهما، وكلها في سبيل الله! ومن كلمة حنو واستلهام، واستدعاء نبوي كريم.

وإذ كانت من مناسبات الجهاد، وغيرها مناسبة أخرى ضافية مواتية، لاستدعاء طاقات الخير، ومحبة فعله، وكيما يتنشأ مجتمع البر والتقوى. والسلام والإسلام والبذل، وإذ ليس من مناط الجهاد، ومن محله وحسب، وإنما في كل شعيرة من شعائر ديننا، وحين كان هذا الدين كله مشاعل خير، ومشاعر فلاح، وهدى للعالمين، يستضيؤن بنوره، ويهتدون بهديه، آناء الليل، وأطراف النهار، فيجدون به راحتهم، ويتلمسون منه هديهم، وأمنهم، وصوابهم وعدلهم.

وإذ ما كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليدع فرصة أو مناسبة مواتية إلا ويقول لنا فيها قولا جميلا رشدا، وإلا ويحرك في نفوسنا عملا جليلا سدادا.

وهذا الذي حدث يوم حصار الطائف، وكما عن أبي نجيح عن عمرو بن عبسة السُّلَمِي رضي الله تعالى عنهما قال: حاصرنَا مع النبي صلى الله عليه وسلم الطائفَ، فسمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **من بلغَ بسهمٍ في سبيلِ اللهِ، فهو لهُ درجةٌ في الجنةِ. قال: فبلغتُ يومئذٍ ستةَ عشرَ سهما، وسمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: من رمَى بسهمٍ في سبيلِ اللهِ ، فهو عدلُ محرّرٌ، ومن شابَ شيبةً في سبيلِ اللهِ، كانت له نورا يوم القيامةِ، وأيّما رجلٌ أعتقَ رجلا مسلمًا، فإنَّ اللهَ عزوجلَ جاعلٌ وِقاءَ مكانَ كل عظْمٍ من عظامِ محررهِ عظما من**

عظامهِ من النار، وأيّما امرأةٍ مسلمةٍ أعتقتْ امرأةً مسلمةً، فإنّ اللهَ عزوجلَ جاعلٌ وِقاءَ مكانَ كلِّ عظمٍ من عظامِ محررتها عظما من عظامها من النارِ[١]

ورواه الإمام أوبو داود أيضا عن عمرو بن عبسة بلفظ: من بلغَ بسَهمٍ في سبيلِ اللَّهِ عزَّوجلَّ فلَهُ درجةٌ، وساقَ الحديثَ، وسمعتُ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ: أيُّما رجلٍ مسلمٍ أعتقَ رجلاً مسلمًا فإنَّ اللَّهَ عزَّوجلَّ جاعلٌ وقاءَ كلِّ عظمٍ من عظامِهِ عظمًا من عظامِ محرَّرِهِ منَ النَّارِوأيُّما امرأةٍ أعتقتِ امرأةً مسلمةً فإنَّ اللَّهَ جاعلٌ وقاءَ كلِّ عظمٍ من عظامِها عظمًا من عظامِ محرَّرِها منَ النَّارِيومَ القيامةِ[٢].

من حقوق الإنسان في الإسلام

وهذه أربعة أخر منضافة إلى ما قبلها، وفي مناسبة يوم حصار الطائف، رغبة في إسلامهم، وتناسيا ليوم حصارهم هم لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويوم أدموه، ورميا بحجارة محلتهم، وجرحا لنبي، جاءهم بالهدى ودين الحق؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

وأقول: إن بين أيدينا الآن قولا نبويا، زكيا، كريما، مركبا من وجوه خير عديدة، وإذ كان منها:

الوجه الأول: جعل الرمي بسهم واحد عِدْلَ محررٍ واحدٍ!

(١) شرح السنة، البغوي: ٥/٥٢٩. خلاصة حكم المحدث: حسن.

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٩٦٥

وهذا وكما قلت استدعاء، وحين جعل الرمي بالسهم الواحد له فضلان، وجمعا بين الدليلين:

الفضل الأول: جعل الرمي بسهم واحد بدرجة واحدة في الجنة.

الفضل الثاني: جعل الرمي بسهم واحد، وعدل أن يعتق المسلم رقبة واحدة أيضا، وهذا مصداق لدعوة الإسلام إلى التحرر من الرق والعبودية، وحين كانت ولو من وجه، وكونه إذلالا للرقاب، ولما جاء الإسلام الحنيف الخالد، وليكرم هذا الإنسان، وجعل رأسه مرفوعة عالية، تطاول السماء، تكرمة وعلوا، ومن تواضع، ومن هوينى، وحين قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٠].

الوجه الثاني: وأن من شاب شيبة في الإسلام فكانت له نورا يوم القيامة، وهذا الحديث على ظاهره، وفألا حسن بباطنه، ولما كانت شيبة العبد في الإسلام، ذلكم الدين الذي كرم هذا الانسان، ومن يوم كان نطفة من مني يمنى، والى كل درجة من درجات عمره، وفي كل مرحلة من مراحل حياته، ولدى كل طور من أطوار سنيه وأجله، وإلا وهذا الدين يرقبه ويكرمه، ويعلي من شأنه، وحتى بلغ هذا العمر الطويل، وحين أمهل هذا الاجل المديد، وحين حلت صبيحة يوم شيبته، وإذ كان فضلا من الله تعالى أن يجعلها له نورا في الآخرة، وبرهانا على الرضا، وعلامة على التعلية والقبول، ومن شأن من شاب في الإسلام شيبته، وبرهانا على التتويج والوقار والتجاوز. وهذا من حسن ظن العبيد بربهم الرحمن الرحيم سبحانه، وبل هو من المن العميم لهذا الرب الرؤوف الكريم سبحانه،

وحين يظلل حياة عبده بذلكم ظلال العفو والتجاوز الحسن الجميل، وحينها يقبل عبد على ربه حسنا ظنه به، وإذ يستشرف رضاه، وحين ينظر من باب واسع عفوه وتجاوزه سبحانه، فيقبل مطمئنا آمنا راضيا مرضيه وحين يستحضر، وهو يرمق من رمقه الأخير قول ربه الرحمن الرحيم ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٩].

وهذا العبد الصالح الذي شاب في الإسلام شيبته، وليعض على ذات حواسه، وأن تسمو، وليأخذ على ذات نفسه أن تخشع، وليربت على ذات صدره أن يخضع، لهذا الرب الكريم الكبير المتعال سبحانه، عملا آخر متقبلا، ولينضاف الى شيبته، والتي كانت تتويجا لأعمال صالحة سبقت، والتي كانت توسيما لتاريخ حافل بالهدى والاستقامة والرشد والسلام والفلاح والصلاح، قد أنف، وما مرت لحظة من عمره، وإلا كان فيها عبدا لله تعالى مولاه الحق المبين، وهو إذ يستحضر أيضا ما قال ربه تعالى، ونصب عينين، لا عين واحدة، يضعه، ويترسمه، ويعمله، ويفعله، ويحققه، وكل حين أيضا، ولما قال الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢].

وحتى وحين يعثر مرة، وإنما كان ذلك، ولما كان لكل جواد من كبوة، ولكنه سرعان ما يستيقظ، وتستيقظ معه أمارات الأوبة، وحين تعانقت معها مشارف التوبة، وحين كان الاستغفار له سبيلا، ونظاما، ودينا، وطريقا مستقيما، وحين علم أنه له ربا يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم سبحانه، وحين قال الله تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]

الوجه الثالث: وأيما رجل أعتق رجلا مسلما، فإن الله جاعل كل عظم من عظامه وقاء كل عظم بعظم، وهذا ينضاف الى الوجه الأول، وحين تضافرا على فتح الأبواب، وأمام هذا التحرر من رق، وعند هذا التحلل من عبودية، إلا لله تعالى ربنا الحق المبين سبحانه.

وإذ نقدم هذا البيان بين أيدينا جميعا، ولعل غيرا يراه، أو يسمع به، أو أن يتسمع له، وحين علم الناس عن ديننا أنه هكذا يفتح أبواب الحرية، ويصون الكرامة الإنسانية، ويحفظ الأنفة البشرية، وبحدها الواسع الفضفاض، وهذه هي مظلة حقوق الإنسان في ديننا أيضا.

الوجه الرابع: وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة فإن الله جاعل كل عظم من عظامها وقاء كل عظم من عظامها من النار.

وهذا ليشمل النساء، وجنبا إلى جانب مع الرجال، في توجيه دفة المجتمع المسلم كله، نحو غاية واحدة، وهدف واحد، وحين كانت العبودية، وليست تكون إلا لله تعالى الحق المبين، ومنه فان هذا الرقيق، وكما قلت، ولو من وجه فان فيه عبودية، وكفى به اسمه، وكما دل عليه رسمه، ولينفر الناس جميعهم عنه نفرة واحدة، عاجلة لا آجلة، نساؤهم ورجالهم، على أن يتساعدوا، ويتعاونوا، ويتكاتفوا، ويأخذ أحدهم بيد أخيه، ونحو فضل هذه العبودية لله تعالى وحده، وجعل الناس كل الناس أرقاء لربهم الرحمن وحده، وحين كان منها جعله لهم مكرِّما، وأيما تكريم.

المشهد الثاني: لا يَدْخُلَنَّ هَؤُلَاءِ عَلَيْكُنَّ

وعن أم سلمة أم المؤمنين: دَخَلَ عَلَيَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وعِندِي مُخَنَّثٌ، فَسَمِعْتُهُ يقولُ لِعَبْدِ اللَّهِ بنِ أبِي أُمَيَّةَ: **يا عَبْدَ اللَّهِ، أرَأَيْتَ إنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الطَّائِفَ غَدًا، فَعَلَيْكَ بابْنَةِ غَيْلَانَ؛ فإنَّهَا تُقْبِلُ بأَرْبَعٍ، وتُدْبِرُ بثَمَانٍ، وقالَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لا يَدْخُلَنَّ هَؤُلَاءِ عَلَيْكُنَّ. وفي رِوايةٍ: وهو محاصر الطائف يومئذٍ**[1].

وهذا حديث صحيح، رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، وهو يبين شأن المخنث، وهو ذاك الرجل الذي يحمل من صفات الأنثى ما لا يجعله يومي إلى النساء ميلا، وإما طبعا وجبلة، وإما تطبعا. وهذا مشاهد.

والشأن في هؤلاء أنهم يدخلون على النساء، ولما أنف، وإلا أن هذا المخنث، ومن كان على شاكلته يراعى التحجب منه، وحين وصف امرأة، وكأنما لا يستطيع وصفها، وبهذا النعت الممعن في الدقة، والجامع لذكر ما منه تروح إليهن الرجال، وما ليس يمكن لرجل صحيح وصفه!

وإذ ليس يهمنا من كان ذلك المخنث اسما، وسواء كان هو هيتٌ، أو ماتعٌ، وبقدر ما يهمنا هذا الحكم الشرعي، وحين أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ألا يدخل على النساء، من كان ذا وصفه، ولو كان معروفا بأنه مخنث.

ولكن الأمرَّ من ذلك، أن القوم تساهلوا في الدخول على النساء، وكما أن النساء تساهلن في الدخول على الرجال، وكان من حاصل هذا وذلك ما أنَّتْ منه

---

(١) صحيح البخاري: ٤٣٢٤

البشرية، ومن ويلات التفكك الأسري، ومن نتائج هذا الاختلاط الاجتماعي، وممن ليسوا بخنثى، وحين كان من وصفه لهكذا امرأة من ثقيف، أو من غير ثقيف، ومالا يقدر على قوله هذا، وبأمعن عبارة، من قد بلغ في التنظير الأدبي مبلغا حسنا! ولما كان تقعره وصفا ونعتا، ولهذه التي وإذا أقبلت أقبلت بأربع أو تزيد! وحين تدبر ولا تدبر إلا بثمان أو تزيد أيضا! وهذا من ظلال قوله، وهذا من وراء نعته ووصفه، وحين تبين لنا، ومن مثل هذه الزيادة، وليس وقفا على رباعيته، أو قيدا على ثمانينيته! ومنه كان هذا النهي المحمدي الحازم، ومنه كان هذا القول النبوي الحاسم، وعلى قدر الخطوب تكون النوازل!

وهذا خلل اجتماعي، وهذا شرخ مجتمعي، يحسن بل يجب معالجته، وحين نصبو جميعا الى مجتمع الطهر والعفاف والإحصان.

وإلا أن ما يلفت النظر أيضا، وحين دل على عقل راجح، ولهذا المخنث، وهو ذاك فأله الحسن، وبفتح الطائف غدا!

وإلا أن وما يلفت النظر أكثر أيضا، هو ذلك علم المخنث بأحكام السبي والاغتنام! برهان أمة أخرجت أفرادها علماء، ودليل أمة أنبتت منتسبيها فقهاء! ولو من هذه الفئة المخنثين، ولأن العلم الشرعي شارة، ولأنه أجمل عبارة، وأوسم راية، وعلى أن هكذا أمة كانت جديرة أن تتربع على كراسي قيادة العالم وحكمه، ويوم أن جعلت العلم قبلة، ويوم أن جعلت الإبداع والابتكار والاختراع مهنة ومَئِنَّة.

وكما أن فيه دليلا على الحجاب، وإلا ما كان أمره صلى الله عليه وسلم لأم سلمة أم المؤمنين، ألا يدخلن عليهن مثل ذلكم صنف، ومماثلة بغيره ممن هم على غير صفته، ولو كان مشهورا بأنه خنثى، وما بالنا بمن ليسوا بخنثى؟!

وكما أن فيه مسؤولية الرجل في بيته، وأن رعايته من أصل ما خوله له ربه تعالى من سلطان؛ حماية لبيته وأسرته، ومن أن يشابها شائبة، ولئن كان هذا هو التطبيق العملي، ولئن كان هذا هو التنفيذ الفعلي، لمقتضى اسم الراعي الأبي، وحين كان تاجا على رؤوس الخلاق الحسان، وإذ كان متربعا قمم جبال رواسٍ، من نبل الشيم، وكريم القيم، وعظيم النحل الجليلة، وكريم الشيم النبيلة، وحين وسم بهذا الوسام النبوي الخالد، إعمالا لرعايته، وتفعيلا لولايته على بيته، وقيادة أسرته، مهارة، وإتقانا، وفي غير صرعة لهذا البيت، الذي هو اللبنة الأولى، في تنشئة مجتمع الطهر، والعفاف، والفضيلة، والقيم النبيلة الجميلة، والحياة معا، وحين قال صلى الله عليه وسلم: كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ، فالأميرُ الذي على الناسِ راعٍ عليهم، وهو مسؤولٌ عنهم، والرجلُ راعٍ على أهلِ بيتِهِ، وهو مسؤولٌ عنهم، والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ بعلها وولدِهِ، وهي مسؤولةٌ عنهم، وعبدُ الرجلِ راعٍ على بيتِ سيدِهِ، وهو مسؤولٌ عنهُ، ألا فكلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ[١].

ولكن الملفت أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، وحين وجه لزوجه أم المؤمنين أم سلمة، رضي الله تعالى عنها، وإنما كان بالحسنى، ولم نسمع ضجيجا، ولم يك يعرفه، ولا يعرفه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، حلما خلقيا، وجبلة

(١) صحيح البخاري: ٢٥٥٤

طبعية حسنى، قد تَوَّجَهُ الله تعالى بها، وإلفا ربانيا، قد حباه ربنا الرحمن به، وحين كان بهذا الأدب الجم، وهو ذاك الذي عنه صلى الله عليه وسلم نعلمه.

وإذ وما كان الرفق في شيء إلا زانه، واذ وما منع منه من شيء إلا شانه، وتشرفا بقوله، وتيمنا ببيانه، صلى الله عليه وسلم، وحين قال: **إنَّ الرِّفْقَ لا يَكونُ في شيءٍ إلَّا زانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِن شيءٍ إلَّا شانَهُ. وَزادَ في الحَديثِ: رَكِبَتْ عائِشَةُ بَعِيرًا، فَكانَتْ فيه صُعُوبَةٌ، فَجَعَلَتْ تُرَدِّدُهُ، فقالَ لها رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ عَلَيْكِ بالرِّفْقِ...، ثُمَّ ذَكَرَ، بمِثْلِهِ** [١].

وإلا أن هذا المخنث وصاحب حديثنا ههنا، وإن هو إلا ذاك الذي لا ميل منه للنساء، وهذا حكمه وأن يؤخر، وحين غلب على الظن وصفه لهن، وكما أنف.

وإلا أنه أيضا ليس بذاك الخنثى، الذي منه عمل قوم لوط، وإلا فإن هذا له حكم آخر، وليس ذلك منه من شيء.

المشهد الثالث: إنَّا قَافِلُونَ غَدًا إنْ شَاءَ اللَّهُ

وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه: **لَمَّا حَاصَرَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الطَّائِفَ، فَلَمْ يَنَلْ منهمْ شيئًا، قالَ: إنَّا قَافِلُونَ إنْ شَاءَ اللَّهُ. فَثَقُلَ عليهم، وقالوا: نَذْهَبُ ولَا نَفْتَحُهُ! -[وفي رِوايةٍ]: نَقْفُلُ- فَقالَ: اغْدُوا علَى القِتَالِ. فَغَدَوْا فأصَابَهُمْ جِرَاحٌ، فَقالَ: إنَّا قَافِلُونَ غَدًا إنْ شَاءَ اللَّهُ. فأعْجَبَهُمْ، فَضَحِكَ**

---

(١) صحيح مسلم: ٢٥٩٤

النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وفي رِوايةٍ: فَتَبَسَّمَ[1]

وهذا حديث صحيح، رواه الإمام البخاري، رحمه الله تعالى.

وفيه بيان، وكيف عانى هذا النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم، وكما أن فيه برهانا، وأنه كيف بذل معه صحبه الكرام رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وحتى أسلموا لنا هذا الدين، ومن بعد بذلهم وفنائهم في الله تعالى ربهم، أمانة في الأعناق، وأن تسلم إلى من بعدهم، وكما سلمت لنا، محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يضل عنها إلا هالك، ناصعة بيضاء، بيض النهار، أو أشد بياضا منه، وحين خرجوا، ولم يخرجوا إلا لله تعالى العلي الأعلى سبحانه، ولم يخرجهم سواه تعالى، وبرهان هذا أنه صلى الله عليه وسلم، ولما أشفق عليهم، وحين شق عليهم، فَتْحُ حصن الطائف المنيع، فأشار عليهم أن يقفلوا، ومن غد، واستلهم رأيهم، وفقها رشدا أبداه لهم، وحين أصروا رضي الله تعالى عنهم، وألا يرجعوا إلا بنصر مهيب مُحْتَرَم، وألا يعودوا إلا بفوز مُعَظَّم مُفَخَّم، وحين اجتمعت عليهم ثقيف هوازن، ومن معهم من هؤلاء وهؤلاء، وحين استقووا، ولرد هزيمتهم يومي حنين وأوطاس، وما هم بضارين من أعمالهم وليا لله تعالى من شيء!

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم، ورغم أنه كان يعمل بالوحي، وإلا أن مساحة عريضة، تركت للمؤمنين، شورى بينهم، وكيما يعدهم نبيهم قيادة زمانهم، وحيث لا وحي، وإنما يردون كل شيء من أمرهم إلى الله تعالى، وأن نعم، وإنما بهذا السبب الموجب أيضا، وإذ إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة!

ولهذا السبب، وحين رأى نبيهم صلى الله عليه وسلم رأيا مباينا، وإنما لم يرده، بل في سمت القائد الحني، وبل في رد الرائد الهني، وحين اكتفى صلى الله

---

(١) صحيح البخاري: ٤٣٢٥

عليه وسلم بضحك، أو ابتسامة، وها نحن وكأنما نراه بلسما باسما على الشفاه، ويوم قبل الرأي، وعلامة على عدم اليأس، وبرهانا على شدة البأس، ودليل سعة صدر القائد، وألا يضيق صدرا، وحين كانت مؤشرات قوة خصمه، ولأن الأيام دول، ولأن النصر آت، وكفي بهوازن ثقيف هزيمة مرتين: يوم حنين، ويوم أوطاس، وليعشموا وليطمعوا في نصرهم، ويوم طائفهم! وإنما وسوف يفجأون بنصر المؤمنين، وعلى أولاء الهالكين، حين لم يعوا الدرس مرتين: يوم حنين، ويوم أوطاس، وإن يوم الطائف لقريب، وإنما أراد الله تعالى ربنا، وألا يقدم للمؤمنين نصرهم، وعلى طبق من ذهب، بل بذل، بل فناء، بل تضحية بل فداء!

هذا، وحسنت وقفة، بل وجبت تأملا، وأمام قوة حصن الطائف، وحتى كانت شوكة، ولا شك، وأمام المجاهدين المؤمنين. وأمام خصومهم التي كانت لها يد طويلة، وفي قتالهم.

وهذا برهان أن تعد الأمة عدتها، وألا تستهين بعدوها، وألا تقلل من خصمها، وإنما أن تعد عدة لا مكافئة، بل راجحة الكفة، ويومها أمكنهم تحويل الدفة، والى نصرهم، وعلى عدوهم.

وهذا الأمر ليس يتحقق نظريا، بل عمليا، وحين تدأب القوات المسلحة الإسلامية، وعلى تخصيص فريق البحث، والتطوير، والدراسة، والتأمل، والابتكار، والاختراع، لأقوى أسلحة الزمان، وأعتى صواريخ الحْيْنَة، ولا يكتفون باستيرادها، ولا يحزمون أمرهم على شرائها، إنما لكل مورد شرطه، ولكنه لكل بائع بنده، ولربما راح هدف الاستيراد، ولربما خسرنا فلوسنا ودراهمنا، وتحت نير الشروط القاصمة، وحين تبلى الأسلحة، وإلا تستخدم هنا أو هنالك، أو ألا تعمل، وإلا بشرطه، وإلا عطلت برامجها، وحين كان ولا يزال أداؤها من بائعها مبرمجا!

وإلى أن يعفو عليها زمنها، ولتصير بعد قليل لا جديدة، بل قديمة، ولا عاملة، بل خاملة هامدة، ولتباع في سوق النخاسات من بعد!

وهذا أمر مشاهد!

ولكن الذي نقف عنده هو ابتسامة القائد الأعلى للقوات المسلحة الإسلامية، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين يكون القائد جلدا، وحين يكون الرائد صلبا، وحين يكون الهوينى، وأن كل شيء خلقه الله تعالى، وإنما خلقه بقدر، ومن حيث عمل السبب، ومن حيث الأخذ الموجب، وليهون على جنده، ولأن البسمة تبعث السرور والحبور، وسبب ملائم للتغلب على الأوضاع الصعبة، وهذا هدي نهتديه سلمنا وحربنا.

ولكي تبدو صحة عمل القائد، فقد كان من أمرهم تاليا، وأن اشتد وطيس حربهم، وحين رمت ثقيف سهامها، ولما ألقت هوازن نبالها، وحين طلبوا هم من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن نقفل غدا! وليرد ضحكة الأمس، بضحكة اليوم، ومع اختلاف بين ضحكتين سبقتا، وكل بحسبه، ولزمان الموقف، ولملائمة الحال، واقتضائه أيضا.

وفيه بعد نظر القائد، وكما أن في نبل المرؤوسين، وحين أدلوا وأن نعم، ولكنهم وعلى يقين، وألا يتزحزحوا أنملة، وإلا بأمر القائد، ولئن رأوا هم ما رأوا.

وهذا ما يميز الجندية الإسلامية، وهذا ما يميز كل جندية سديدة.

لطائف من غزوة الطائف

-٢-

وهذا هو اللقاء الثاني من ذكر بعض مشاهد من يوم غزوة الطائف، وكما هي بين أيدينا، نستلهم منها هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكأنما نحن معه صلى الله عليه وسلم، وعلى مادته، تاريخا مجيدا، وصفحات خالدة، تنير درب السالكين، وتضيء مسالك الدارجين.

وهذه سبعة مشاهد، نعالج بعضا مما رأيناه نورا، ونهل مما ألفيناه هدى:

المشهد الأول: كانا بجرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضبور.

المشهد الثاني: فابتنى بها مسجدا فصلى فيه

المشهد الثالث: بل هي اليسرى!

المشهد الرابع: إما أن تخرج إلينا، وإما أن نخرب عليك حائطك

المشهد الخامس: من خرج إلينا من العبيد فهو حر.

المشهد السادس: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه فالجنة عليه حرام».

المشهد السابع: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾.

المشهد الأول: كانا بجرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضبور

هذا بيان الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى، عن صحابيين كريمين هما: عروة بن مسعود، وغيلان بن سلمة، ولأنهما لم يحضرا غزوة الطائف مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولأنهما كانا بجرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضبور.

وهذا بيان آخر أن أمتنا مستهدفة، ولهذا السبب كان قمن بها أن تعد عدتها، ولتقوى شوكتها، وحين تحارب، أو هكذا اضطرت إلى مجابهة عدو الله تعالى وعدوها أيضا، ولعل إعداد العدة، وكسلاح للردع كان أمرا واجبا أيضا، ولكلا الأمرين كان اطلاعها بهما معا، واطلاع بعض من أفرادها بهذه مهمة جديرة، وبتلك مئنة قديرة، ولذلكم الذي أعددنا له العدة.

إن القوات المسلحة الإسلامية بحاجة إلى تأهيل قسم منها عظيم؛ ليقوم بمهمات تصنيع الأسلحة، وعلى اختلاف أنواعها، وعدم الاعتماد على استيراد أسلحتها من هنا أو من هناك، إلا في نطاق يكون ضيقا، ولأن الله تعالى جعل الناس بعضهم لبعض سخريا، وهذا حق، ولا مرية فيه، ولا جدال، لكن الحق، ومن وجه آخر أيضا، أنه يجب على أمتنا أن تحقق اكتفاءها ذاتيا، واقتصاديا، وصناعيا، وزراعيا، ومن كل شيء، ولا شك أيضا، وكيما تفرض هي شروطها على العالمين، لا أن يخضع قرارها لابتزاز هذا، أو ما سواه، أو على الأقل، وإن شئت فقل: تستغني.

وقد رأينا كيف خصص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فريقا، كانت مهمته هي صنع السلاح، لإمداد القوات المسلحة الإسلامية، وكلما عنت لها حاجة.

ولكن الأمر ليس بمثل السهولة، ويكأنه من مثلها أيضا!

وذلك لأن التقدم هو السهولة، وذلك لأن التأخر في هذا الجانب أو ما سواه هو غيرها أيضا!

وأقول: إن الأمة بحاجة إلى التصنيع العسكري، وغير العسكري، وهذا سبب موجب من أسباب عقيدة التوكل، التي هي عماد أمرنا، وأس منهجنا، وسبيل دعوتنا.

وقول بغير ذلكم، هو إهمال لتوكلنا، واستدبار له، واستظهار لغيره، من تواكل غير حسن، وما كان ليؤتي أكله يوما لا على صعيد الأفراد، وفضلا عن سبيل الأمم والجماعات.

وأقول أيضا: إن فريق البحث والدراسة في مجالات العلم المختلفة، كان حقا على الأمة تنشئته، ورعايته، وحراسته، ولأن هذا الصنف من الناس يكون دائما مستهدفا، وواقع الحال شاهد، وطبيعة المرحلة حاكمة أيضا، وهذا مما يشكل على البعض، ولكنه ليس يشكل، وحين نعلم أن الحروب لا جبهة لها! فكل جانب من جوانب الحياة، ليعد مسرحا للعمليات، ولا فرق في ذلك بين حرب عسكرية، وأخرى اقتصادية، وثالثة زراعية، أو صناعية، وهلم جرا!

وهذا الذي يجعلنا وقافين بحق عند قوله تعالى ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾. وإذ كان من سابقه قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾، ولأن القوة لفظ عام، فيندرج تحتها كل ما يمكن أن يطلق عليه قوة، حقيقة أو مجازا، ولا يشذ عن ذلك فرع واحد من فروع المجالات الحياتية، والتي تتحدد، وتتحدث، وتتغير،

وتتبدل، وتتعدل، وتتطور، ومن حين لآخر أيضا، وفي مواكبة حقيقية لكل ما جد، وفي بابه.

وقال الله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٦٠].

وإن سلاحا تعده الأمة، وإن قوة تمد بها نفسها، فإن هذا يحقق لها غاية عظمى، وذلك يكون وبامتلاكها زمام المبادرة، فتكون والحال كذلك قد تهيأت لما يمكن أن نسميه أنها تملكت سلاح الردع، وهذا بذاته ربما كان كافيا، ولأنه ندا بند القاعدة الهجومية. فراعى بين صنوف الردع والمواجهة، وواكب بين أنواع الأسلحة المختلفة والمتباينة.

ونشير إلى استلهام عمل قواتنا المسلحة الإسلامية، وعلى مدار التاريخ فقد كان لها فضل السبق في ذلك، ولقد بلغ ذلكم وجْهَهُ وأَوُجَّهُ إبان عصورها المختلفة، وأزمانها المتعددة أيضا.

ودوننا نبينا محمدا صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، ويوم الأحزاب، وحين أرسل نعيما بن مسعود رضي الله تعالى عنه، يوم الأحزاب، وحين قال له: "الحرب خدعة"[١]. وفي تأسيس كريم لأصول الحرب: الخدعة، والإغارة، في آن، وحين أعيت الخدعة، فثمت الحرب والإغارة، وهذا بالطبع عمل جهاز الاستخبارات الفائق القدرة، والعظيم الكريم السطوة، وحين يفرض عزة أمة، ومن عمل الليل، ومن عمل النهار، عيونا ساهرة، وقادة باهرة، ماهرة! وبين أيدينا

(١) صحيح البخاري:٣٠٣٠

الآن يوم حصار الطائف، وها هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يخصص فريقا بحثيا صناعيا؛ للقيام بعمل هيئة التصنيع العسكري الإسلامي، وبإحكام دقيق وشامل في آن أيضا، ولتكون حلقة الاتصال بلا انقطاع، بين تاريخ مجيد لهذه الأمة، الممتازة، الرائدة، القائدة، الفتية، وبدينها، واعتصامها، وقوتها، وصلابتها، وحين استمسكت بحبل باريها، أمة واحدة موحدة، لا تشرك بربها شيئا، وحين أطاعت أوامر ربها، ومن قرآنه استقت، وحين أحبت نبيها، وبشرعه عبدت!

وها هو أمير المؤمنين، عمر الفاروق، رضي الله تعالى عنه، وحين اتخذ من تعليم الناس الرماية، والفروسية، والسباحة، وبرهانا على تنشئة جيل مسلم، قوي، فتي، عتي، يستطيع مجابهة أخطار الحروب، وبصدر مفتوح، لا يخاف عدوا، ولا يرهب مارقا، سلاحه تقواه، وحسبه الإماتة- الشهادة-، وله الجنة، وعماده توكله على مولاه، وحين اتخذ السبب الموجب، وإذ ها هو يمسك بعنان فرسه، طالبا الشهادة، راجيا الجنان، والفردوس الأعلى من الجنة أيضا، وإذ هما زادا المسلم الصحيح، وهما ترياقه، وحين عزت الأمصال!

وإذ آن لنا أن نقول: إن إعداد الجندي المسلم المقاتل، والمحب لبذل المهج، بل وطالبها، هو ذاك الأمر الأهم، وحين أعددنا جنديا شهما مقاتلا، يذود عن دينه وبيضته، وعن كل شبر امتد إليه سلطان أمته، وبكل عزم دفاعا عن حصون الإذعان لله تعالى ربنا الرحمن وحوزته، وإذ هو ذاك الذي سوف يمسك بيديه سلاحا، أعدته له هيئة التصنيع العسكري الإسلامي!

وأمامنا عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، وحين رده نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يوم أحد؛ ولصغر سنه، ولك أن تصَوَّر عبدا، لم يبلغ

أشـده، ولـم يـواتِ رشـده، وإذ هـا هـو تقـوده نفسـه؛ محبـة للشـهادة، ورغبـة في الحسنيين، إحداهما، أوكلاهما!

ولهذا فنحن ننشد تنشئة جيل كهذا!!

فعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: **أَنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَرَضَهُ يَومَ أُحُدٍ وهو ابنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَلَمْ يُجِزْنِي، ثُمَّ عَرَضَنِي يَومَ الخَنْدَقِ وأَنَا ابنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، فأجَازَنِي. قالَ نَافِعٌ: فَقَدِمْتُ علَى عُمَرَ بنِ عبدِ العَزِيزِ وهو خَلِيفَةٌ، فَحَدَّثْتُهُ هذا الحَدِيثَ، فَقالَ: إنَّ هذا لَحَدٌّ بيْنَ الصَّغِيرِ والكَبِيرِ، وكَتَبَ إلى عُمَّالِهِ أنْ يَفْرِضُوا لِمَن بَلَغَ خَمْسَ عَشْرَةَ** [١].

وقد أنف الحديث عن هذا الحدث الكريم، وإبان تناولنا لغزوة أحد، ومن هذه السيرة النبوية المباركة، وقد أسبرنا فقهه، ولما أوفيناه حقه، ما استطعنا.

وكفى أن أمير المؤمنين معاوية بن أبي سـفيان رضي الله تعالى عنه أسـس قاعـدة التصـنيع العسـكري البحـري، وفي سـابقة كانـت عظيمـة فريـدة، وإذ نحـن بحاجة إلى استلهامها، وفي كافة مناحي حياتنا أيضا.

سبق إسلامي فريد

وهـذا هـو علـم الفلـك جنبـا إلى جنـب، ومـع علـوم التصـنيع العسـكري المتعددة، وحين كان استخدام الإسطرلاب ابتكارا إسلاميا صرفا، لتحديد مسارات السفن، ومنه تقدمت- ومن عقدنا أيضا- صناعات التقريب والتوجيه عن بعد،

---

(١) صحيح البخاري: ٢٦٦٤

وإذ كان هذا أساسها الإسلامي المجيد.

وأمامنا، وكيف كان الفتح المبين لمدينة القسطنطينية، وعلما على نبوءة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين استخدم فيها المنجنيق مفاجأة، ولما استخدم فيها مبادأة، ومفاجأة أيضا!

ويلزم قول هذا؛ لنعلم من نحن، وعلى خريطة هذا العالم الممتد؟!

نحن أمة أستاذة!

وإذ نحن أمة مبتكرة مبدعة خلاقة، ولتفرض نفسها قوة ذات عزة، وأمة ذات أنفة، وحين كانت يدها طولى، وتعطي ولا تأخذ، وتمنح ولا تمنن، وتهب ولا تستأثر، وتؤثر ولا أثرة، فضلها عام للعالمين، وخيرها ضاف للآخرين، وكما منه مجدها في الأولين والآخرين.

وإذ نؤكد مرة أخرى، ومرات بلا حصر أيضا، أننا أمة أستاذة، رائدة، قائدة، مبدعة، خلاقة، وكما أننا أمة مستهدفة أيضا، ومن شرق ومن غرب! ولما سبق من مقومات، يعلمها غيرنا، ولربما كان أكثر من علمنا عن أنفسنا، من قوة وشكيمة، وعزة، ونبل، واستقامة، وإرادة الخير للناس أجمعين، مادِّينَ يدا فيها قرآننا، ومتطلعين بيد أخرى أننا ذووا الهيجا، وفي الميدان، وإن لزم!!! ومن هنا وجب اتخاذ الأسباب اللازمة لردع عدونا، وبسلاحنا، ووجب أيضا اتخاذ الوسائل المانعة من غزو الغير لنا، وفي عقر ديارنا، دارا دارا، ولا فرق ههنا بين دار من شرق، ودار أخرى من غرب أيضا، فإن ديار الإسلام وكأنما هي دار واحدة؛ ولأنهم

أمة واحدة، ولأن دينهم هو ذلكم الدين الأبي الواحد، الذي هو الإسلام الحنيف الخالد، وبيضة الدين جامعة، وحوزة الدار مانعة، لا تفرق، وعموم الروابط لا تنفصم، ولا تنفصل، ولا تتأزم، ولا تتقطع، ولا تتجزأ، وإن حدث بينها حادث، فإنما له حدوده، ومن ثم يرجع كل إلى الحظيرة الشاملة، ومن ثم يعود كل إلى حيث قوله تعالى ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾[المؤمنون:٥٢]. وكذا قوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء٩٢].

المشهد الثاني: فابتنى بها مسجدا فصلى فيه

وهذا فعل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويوم كان في طريقه إلى غزوة الطائف، وهو دال بطبيعة الحال على أهمية المسجد في هذا الدين، وإذ كان يمكنه صلى الله عليه وسلم أن يصلي، ومن حيث جعلت له الأرض مسجدا، وتربتها طهورا، ولاسيما أنه يعد مسافرا، والحال كذلك، وإلا أن هذا الفعل، ومن زاوية أخرى، يعد إثخانا في المشركين، وإذ يعد من قبيل الحرب النفسية الفائقة، وإذ كان معناها أنَّا جئنا، وها نحن عسكرنا! وها نحن أقمنا، واستوطنا! وأنت خبير بمدى فعل ذلك في صفوف الخصوم، وحين يفرقها، وما هو فعله في قلوبهم؟! وإذ هو يشتتها، وما هو فعله في أبدانهم؟ وإذ يرعدها، ويقلقلها، ويرجها رجا، وكأنما مرجل، ومن تحته نار، ومن فوقه نار أيضا!

وليس يصرفنا ذلكم عن قيمة الصلاة، في هذا الدين، وحين إقامتها، وعلى وقتها، وعلى أي حال، وتحت أي ظرف مواتٍ! وإذ لا عذر لتركها، أو إهمالها، أبدا.

وإنه ومن حيث نودي بها المسلمون، ومن حيث قد نعت بإقامتها المؤمنون، وإنه والحال كذلك، فليس ثمة عذر مبيح لتركها، وإن كان ما عذر به الناس لإقامتها صورة، وإن قائما، أو قاعدا، أو على جنبه، أو نائما، أو يومئ، وعلى القدرة؛ ولأن تقواه تعالى وعلى قدر ذلكم رحمة، ويسرا، ورفعا لحرج.

وإنه وإن وجد الماء، فثم وجوب الوضوء، وكشرط لصحة الصلاة، وإنه وإن عدم الماء، أو خيف استعماله، فثم عذر التيمم، صعيدا طيبا، وما أكثره! وما أو فره! وإذ كان يمثل الطبقة السطحية الأولى لأرضنا الممهدة لنا.

ولئن عرفنا قبلتنا، فثمة توجيه طاقتنا، ومن ثم لا نبرح إلا مصلين، وحيثما ولينا وجوهنا؛ ولأنه ولله تعالى المشرق والمغرب، ولأنه الله تعالى سبحانه قال ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]. وقال تعالى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

وبل إنه الله تعالى رب المشرقين ورب المغربين، وكما قال تعالى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]. وبل إنه تعالى رب المشارق والمغارب سبحانه، وكما قال تعالى ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات: ٥]. وقال سبحانه ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج:٤٠، ٤١].

وثناء على رب كريم، أهل الثناء والمجد، وكلنا له عبد، وقد أمدنا بطاقات الصلاة، وحين جعل معاشر المؤمنين به يقفون بين يديه تعالى خمس مرات في اليوم! شرفا منه، وتشريفا، ولهذه الأمة القانتة، والمحبة لربها، حبا يعلمه.

وكذلك الصلوات الخمس يمحو الله تعالى بهن الخطايا، وما أكثرها!

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه **أَنَّهُ سَمِعَ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: أرَأَيْتُمْ لو أنَّ نَهَرًا ببابِ أحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فيه كُلَّ يَومٍ خَمْسًا، ما تَقُولُ ذلكَ يُبْقِي مِن دَرَنِهِ؟ قالوا: لا يُبْقِي مِن دَرَنِهِ شيئًا، قالَ: فَذلكَ مِثْلُ الصَّلَواتِ الخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ به الخَطايا** [١].

ودلك على صحة مذهبنا هذا، ماحكاه الإمام الواقدي رحمه الله تعالى في مغازيه أنه: سار رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من أوطاس، فسلك على نخلة اليمانيّة، ثم على قرن، ثم على المليح، ثم على بحرة الرّغاء من ليّة، فابتنى بها مسجدا فصلّى فيه [٢].

المشهد الثالث: بل هي اليسرى!

وهذا هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، في تغيير الأسماء، ومن الأدنى الى الأعلى، ومن الأسوأ إلى الأحسن، ويوم الطائف، واذ سلكوا طريقا يقال لها الضيقة، فأسماها صلى الله عليه وسلم اليسرى، ومن اليسر، لا اليسار، وهو الشمال، وبقوله صلى الله عليه وسلم آنف الذكر، وقد كان هذا من هديه صلى الله عليه وسلم، في الأسماء عموما، وحين غير اسم أحدهم من حَزْنٍ إلى سَهْلٍ.

---

(١) صحيح البخاري: ٥٢٨

(٢) المغازي، الواقدي: ج: ٣/ ٩٢٤

ولما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى: **جَلَسْتُ إلى سَعِيدِ بنِ المُسَيِّبِ، فَحدَّثَني: أنَّ جَدَّهُ حَزْنًا قَدِمَ علَى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ: ما اسْمُكَ قالَ: اسْمِي حَزْنٌ، قالَ: بَلْ أنْتَ سَهْلٌ قالَ: ما أنَا بمُغَيِّرٍ اسْمًا سَمَّانِيهِ أبِي قالَ ابنُ المُسَيِّبِ: فَما زَالَتْ فِينَا الحُزُونَةُ بَعْدُ**[1].

وكما أنه فأل حسن بالأسماء الحسنة، وكما أنه بَعْدُ بالأخرى، ولا أقول تطيرا؛ -ولأنه لا عَدْوَى، ولا صَفَرَ، ولا هامَةَ. **فقالَ أعْرابِيٌّ: يا رَسولَ اللَّهِ، فَما بالُ إبِلِي، تَكُونُ في الرَّمْلِ كَأنَّها الظِّباءُ، فَيَأْتي البَعِيرُ الأجْرَبُ فَيَدْخُلُ بيْنَها فيُجْرِبُها؟ فقالَ: فمَن أعْدَى الأوَّلَ؟** -[2]. وإنما؛ ولأن الاسم يتطبع به صاحبه، ويتخلق بآدابه.

وهذا الذي حدث، ويوم أن أبى جد سعيد بن المسيب رضي الله تعالى عنه، أن يغير اسما سماه به أبوه! وفوق أنه تأبٍّ على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وافتئاتٌ على نبي وقائد أمة، أرسله ربه؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وإذ كان من حق الأطفال على أبويهم، حسن اختيار أسمائهم، وكيما يتأدبوا بآدابها. وكيما يعود على الأبوين أول ما يعود نفعها وثمرها، وكذا الأبناء، ومن قبل ومن بعد أمتهم أيضا.

وفيه سلطة ولي الأمر في تغيير أسماء الأشخاص والمناطق والشوارع، وله ذلك ابتداء أيضا.

---

(١) صحيح البخاري: ٥٧١٧

(٢) صحيح البخاري:٦١٩٣

المشهد الرابع: إما أن تخرج إلينا، وإما أن نخرب عليك حائطك

وهذا أدب القتال في هذا الدين، الذي هو الإسلام الخالد. وحين مر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على بستان، وخشية أن ينالهم منه سوء، أو أن يمسهم منه أذى، فأرسل لصاحبه، وإما أن يخرج إلى نبينا صلى الله عليه وسلم، وإما أن يخربه عليه، وحين أبى، فانفذ فيه تهديده، وبسلطة القائد الحازم، وبقرار الرائد الحاسم، وهو كذلك رحمة للمؤمنين، وكما أنه رحمة للعالمين، وحين يدخلون ومن سببه في دين الله أفواجا، وكما أنه صلى الله عليه وسلم نبي الملحمة أيضا.

وهذا سد للذريعة، وأخذ بشبهة، وظن في محله؛ ولأن الأمر حال مقاتلة، ومنه يحذر من مغافلة عدو، أو من معاجلة خصم، وهذا أيضا من حسن التدبير النبوي، وهو أيضا من كياسة التخطيط المحمدي، وعملا للردع العسكري، وفطنة التفكير، وحكمة التدبير؛ وكيما لا يؤخذ الناس على غرة، وحتى لا يهاجمون من بغتة!

وكما أنه صلى الله عليه وسلم قد غير اسم رقيق، من المضطجع، إلى المنبعث، ولأنه لما حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف، خرج إليه رقيق من رقيقهم ، أبو بكرة وكان عبدا للحارث بن كلدة، والمنبعث، ويحنس ووردان، في رهط من رقيقهم، فأسلموا، فلما قدم وفد أهل الطائف على رسول الله صلى الله عليه

وسلم، فأسلموا، قالوا يا رسول الله: رد علينا رقيقنا، الذين أتوك فقال لا، أولئك عتقاء الله عزوجل ورد على كل رجل ولاء عبده فجعله إليه [(١)].

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى حيث قال: ثم سلك في الطريق يقال لها الضيقة فلما توجه رسول الله ص سأل عن اسمها فقال: «ما اسم هذه الطريق؟» فقيل: الضيقة. فقال: «بل هي اليسرى» ثم خرج منها على نخب حتى نزل تحت سدرة يقال لها الصادرة قريبا من مال رجل من ثقيف، فأرسل إليه رسول الله ﷺ إما أن تخرج إلينا وإما أن نخرب عليك حائطك، فأبى أن يخرج فأمر رسول الله ﷺ بإخرابه [(٢)].

المشهد الخامس: من خرج إلينا من العبيد فهو حر.

وهذا من الحرب الذكية، ولإضعاف جهة الخصم من جانب، وهو مهم وعظيم، وكيف ذهب الإسلام كل مذهب ممكن؛ للقضاء على مملكة العبيد، والتي كانت ناخرة في أنظمة القوم يومهم هذا، ولإفلات الأرقاء منهم، وإلى بحبوحة الحرية، والانطلاق نحو آفاق الحرية، والانعتاق من رين الاستعباد، ومن جانب آخر، وحين كان لله تعالى وحده لا شريك له.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الطائف: «من خرج إلينا من العبيد فهو

(١) السنن الكبرى، البيهقي: ج: ٢٢٩/٩. وقال الإمام البيهقي رحمه الله تعالى: وهذا منقطع.
(٢) تاريخ الطبري، الطبري: ج: ٢ / ٣٥٤

حر». فخرج عبيد من العبيد فيهم أبو بكرة فأعتقهم رسول الله ﷺ [1].

ولذا فقد فتح الإسلام الحنيف الخالد بابا واسعا للتحرر من هكذا ما يكون سبب انكسار، ولغير الله تعالى العزيز القهار، وحين جعل أن كل عبد جاء من دار الحرب إلى دار الإسلام عتق حكما شرعيا مطلقا عاما.

وهذا باب رأينا الناس فيه كم جالوا! وكم ألفيناهم فيه قد صالوا! وإذ نقعد لهذا، ونؤصله، مرة أخرى، ولنضعه على باقة من زهور، وأمام مائدة الناس أجمعين؛ وليروا ديننا، ومن ثقب لا خفي، بل من طرف جلي!

المشهد السادس: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه فالجنة عليه حرام».

وهذا حديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، وهو حديث يحمي قاعدة السلم الاجتماعي في بابها الأوسع، وحين منح، وحين منع.

فإنه منح الأب حق نسبة الولد إليه، وكما قد تضمن هذا منع الولد من الافتئات على هذا الحق الأبوي، والذي خوله إياه القانون الإسلامي.

وفي ذات الوقت منع أيا من كان أن ينسب ولد غيره إليه.

وهذا القانون يمثل حفظا للكيان الاجتماعي، وتقريرا لقواعد النسب.

إلا أنه قائم على قاعدة العلم بالحكم، ومنه فإذا انتفى العلم فلا إثم؛ ولطالما قد بحث فيه بحث الرجل المعتاد، وطاقته ووسعه، وبذله وسعيه.

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج: ٣ / ٦٥٧

ومن جانب آخر، وضع الإسلام لمثل هذه المسألة حلا، وإن وجدت في الواقع، وإذ كان قول القرآن الحكيم في هذا فصلا، وحين جعل المؤاخاة بدلا، وحين جعل الولاء عوضا، وحال حالة النسب، وكيما لا تختلط الأنساب، وكيما يكون الوالد في معزل عن اللعب بنتاج صلبه، ولغايات مختلفة، أو أخرى متباينة، وحين ذلك يكون العقد الاجتماعي في حكم المنهار، وهو ما وقف الإسلام عنده موقفا حصينا، منيعا، حازما، حاسما، وحين قال الله تعالى ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [الأحزاب: ٥].

ومنه فإن هذه الآية الكريمة، وضعت الأسس وقعدت الأصول، وهي:

١- تقرير قاعدة النسب الأولى، وحين كان النسب إلى الأب، وليس إلى غيره.

٢- عقد الأخوة في الدين، وكبديل، عند عدم العلم بالأب.

٣- عقد الموالاة، وهذا كمثل عقد المؤاخاة تماما.

٤- العفو عن الخطأ، وحين لم يكن عمدا، وهذه سعة رحمة رب العالمين، وحين وضع لكل مناسبة حلها.

هذا وقد روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى حديثا قال فيه: ((ليسَ مِن رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أبِيهِ - وهو يَعْلَمُهُ - إلَّا كَفَرَ، ومَنِ ادَّعَى قَوْمًا ليسَ له فيهم، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)) (١)

---

(١) صحيح البخاري: ٣٥٠٨

المشهد السابع: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾

اصطحب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم معه امرأتين من نسائه، وحين كان حصاره صلى الله عليه وسلم لأهل الطائف، وكيما ينزلوا على حكم الإسلام الخالد.

وهذا برهان قيمة المرأة عند زوجها في هذا الدين الخالد أيضا، وإذ كان يقرع صلى الله عليه وسلم بين نسائه يوم سفره، وكيما لا يدخل في قلب إحداهن شيء، وكذا ما جعل الله تعالى من وجود المرأة لزوجها سكنا، سفره وترحاله، وحين قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وهذه مرة أخرى قيمة المرأة في هذا الدين، صاحبة قامة، وقائدة بيت، وراعية أسرة، وحاضنة أولادها وبناتها، وقائمة على راحة المحضن الأول في تنشئة جيل مسلم فريد، ليستحضر من أمامه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ذلكم الماضي التليد، وهذا الحاضر السعيد، ومستشرفا ذلكم المستقبل الهني الرشيد أيضا.

ويكأننا ننظر بفخر إلى أمة جعلت من المرأة المسلمة شقيقة الرجل، لا من قولنا، وإنما هو قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قال: **النساء شقائق الرجال. وحين سُئلَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الرَّجلِ يجدُ البللَ ولا يذكرُ احتلامًا قالَ يغتسلُ وعنِ الرَّجلِ يرى أنَّهُ قدِ احتلمَ ولا يجدُ البللَ قالَ لا غُسلَ عليهِ فقالَت أمُّ سُلَيمٍ المرأةُ ترى ذلِكَ أعلَيها غُسلٌ قالَ نعم إنَّما النِّساءُ شقائقُ الرِّجالِ** [١].

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني:٢٣٦

وإذ كانت مناسبة غزوة الطائف، وبمثل ما ذكر من إطناب، وبسبب ما احتفيناه من إسهاب، تقريرا تقريرا لأهمية المرأة في هذا الدين، وتعزيزا تعزيزا لمجتمع رشيد، أعلى من قيمتها، وألبسها تاج التحية، والاهتمام، والوقار، والوفاء، وحين أعلى من ذلكم، حتى تنسمت عبق النسيم.
وأيم الله، ويكأنها راعية بيتها. وحاضنة ابنها وبنتها.

وهذا النبي العربي الأبي الأمي الوفي ﷺ، وحين يقرع بين نسائه، وتطييبا لخواطرهن، فهذا أيضا أسلوب إداري عبقري، في إدارة المنازل، كريما، حليما، وحين يزاوج هذا النبي ﷺ الأمي العربي الكريم، بين حاجات الأمة شاملة، وبين حاجات بيوتاتها جامعة أيضًا، وهكذا ديننا، لا إفراط في جانب، وعلى حساب جانب آخر، وإلا عد تفريطا أيضا.

وهذا تقرير لقيادة الأمم، وكيف تكون، اهتماما بها، ومن أول محضن فيها، وهو الأسرة، وعلوا بها، نحو آفاق المجد والعلا، وفي نفس الوقت، وإذ ها هو صلى الله عليه وسلم يحاصر أهل الطائف، قيادة عسكرية مجيدة، ورعاية أسرة كريمة رشيدة.

بيد أن معنى واسعا كريما، حسن التنويه إليه، وغير أن شأنا كبيرا عظيما، وجب التعويل عليه، وحين رأينا كم كانت المسافة بين امرأتين من نسائه ﷺ، إحداهما عن الأخرى، وإذ تعدان في محيط متقارب واحد، وما بينهما غير مسجد! قيمة للمسجد، وقيمة للصلاة، وقيمة للمرأة، وقيمة للزوجة، وهذه أربعة من واحد! وإذ كان قرب المسافة بين الزوجتين، نبأ عن اهتمام هذا النبي ﷺ بأسرته، ولو كان الحال حربا!

وهذه رسالة إلى معددي الزوجات أن يقربوا مسافات الإقامة، فلا يرهق الزوج، ولا تعنت الأسرة، ومن جراء ما تراه المجتمعات من كبد، وحين تكون إحداهن في محلة، وأخراهن أبعد عنها، ومن محلة نائية أخرى.

وهذا هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ نقدمه للعالمين، راعيا أسرة، وقائدا أمة!!!

وإذ لا ينسينا هذا العرض الحاني اللطيف، وعن عطف نبي على أسرته، وحين يحاصر أهل الطائف، وعلى ما أنف، سيرة عسكرية حسنة أيضًا، وعبقرية إدارية فذة، وكيما يحافظ على دماء الناس، وإلا إذا أبوا، وإلا إذا رفضوا وعتوا، وإذ ها هنا تكون المقصلة، وإذ ها هنا يكون حكم المسألة، وإذا لم ينزل الخصم، ومن بعد الحصار، فثم السيف والرمح والمنجنيق!

وهذا الذي حدث يوم الطائف، ولما لم ينزلوا على حكم الإسلام الخالد، ومتمثلا في شخص هذا النبي ﷺ، فثم السيف، وإذ رماهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالمنجنيق، عملا عسكريا باهرا، وإذ كان أول من رماهم به هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفي بادرة مؤذنة بهذا الاستعداد القتالي، وإذ كان منه تملك أحدث أسلحة الحين، ولمجابهة المرجفين، على مدار الزمان، وحيز المكان أيضا.

وهذه رسالة أخرى أن تتسلح أمتنا بسلاحها، وسائر أمرها، استغناء واكتفاء. وأن من يملك قُوْتَه وقُوَّتَه ملك قراره.

والعكس عكس أيضا!

وإذ لا يفوتنا قول من قال إن أول من رمى القوم بالمنجنيق هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ودلك على صحة مذهبنا هذا أنه رمي عبد الله بن أبي بكر الصديق يومئذ فاندمل الجرح ثم انتفض به بعد ذلك فمات منه فارتفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضع مسجد الطائف اليوم وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب فضرب لهما قبتين وكان يصلي بين القبتين حصار الطائف كله فحاصرهم ثمانية عشر يوما ونصب عليهم المنجنيق [(١)]

وقال: فحدثني من أثق به أن النبي ﷺ أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق

---

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج: ٢ / ١٥٨

لطائف من غزوة الطائف

- ٣ -

هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود

وهذا عِلْمُ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالتاريخ، وحين أنبأ عن قبر أبي رغال، ومعرفة بنسبه، وأنه من ثقيف، وأنها من نسل ثمود!

علم نبينا صلى الله عليه وسلم بأعماق التاريخ!

وهذه سلسلة تاريخية، ضاربة بجذورها، وفي أعماق الزمان، وحين كان لذلكم عهد مرير، ويوم أن كذبت ثمود فأهلكوا بالطاغية. وحين أنزل الله تعالى فيها من آي القرآن، مزلزلا لأركان الطغيان والكفران، وحين ابتداء سورة الحاقة، وما أدراك ما الحاقة، ولما جاءت بتكرارا مفردة (الحاقة)، وإذ جاءت مفردة مبنى، وما هي بمفردة، وإذ دلت معنى! وحين حملت معها أحداث يوم كامل واحد، وإذ كان مقداره خمسين ألف سنة!!!

أثر المد الكلمي اللازم المثقل في المعاني!

ولما جاءت هكذا، بهذا المد اللازم الكلمي المثقل؛ لفتا للانتباه، وجريا وراء جذب الاهتمام، ولما يحمل من معانٍ، وذات روافد كثيرة، ومصادر وفيرة، جعلت من معاني التركيب المتراص، وبعضه من فوق بعض، لفتا آخر للأنظار، وللانتباه أيضا، وما هو ذاك الذي سوف يحل خبره، ومن بعد ذلكم المد اللازم الكلمي المثقل؟! وإذ ها هي ثمود، ومتقدمة بالتكذيب، وإذ ها هي عاد، ومثناة به أيضا، ذكرا شينا؛ من زكم فعلهم، وكفرهم، وطغيانهم، وحين كان من عقابهم إهلاكهم

بالطاغية، ومن جنس عملهم أيضا! وهذا إعجاز رباني، وهذا لفت قرآني، وحين جاء معنى ملائما من ملاءمات هذا المد اللازم الكلمي المثقل أيضا، ومنه أيضا ما حل بعاد، وحين أهلكوا بريح، وإذ كان حالها مركبا أيضا، وحين كانت ريحا، صرصرا، عاتية، سخرها عليهم ربهم- لا سواه- سبع ليال كاملة متواصلة! وثمانية أيام، كاملة متواصلة أيضا! ولما كان حالها أيضا حسوما، وإذ كان هذا أيضا من المعاني الضافية، ومن مضامين هذا المد اللازم الكلمي المثقل! ومنه أيضا، وحين ترى القوم فيها صرعى، وهذا أيضا من ظلال هذا المد اللازم الكلمي المثقل! وحين كانوا وكأنهم أعجاز نخل خاوية، ومن شدة الخواء، ومن رين الجفاء، الذي وقد أتوا به متلبسين؛ ومن كفرهم، وزادهم الغوى، وكأنهم أعجاز نخل خاوية أيضا، وكل هذا، ومن آثار هذا المد اللازم الكلمي المثقل! أيضا أيضا! وحين قال الله تعالى ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:١-٨].

وهذا تفنن قرآني، وهذا تفرد لفظي، وهذا تميز لغوي، وهذا تفرد بياني وهذا إبداع أدبي، ولما كانت الحاقة هي القارعة، وإذ كانت القارعة هي الحاقة أيضا! ولكن هذا له جرسه وعمله، ولكن هذا أيضا له أثره وفعله، وكل في الأفئدة، وكل في النفوس، وكل في الأبدان أيضا، وحين كانت المزاوجة، وبين اسمين هما الحاقة والقارعة، وإذ كان المدلول لكل منهما واحدا، وإذ كان التأثير لكل منهما مركبا، وإنما نشأ من تراكب الحروف وحركاتها، ومن تآلف المدود ونبضاتها، ومن انسجام المفردات وتبايناتها، ولما كانت الحاقة وبمعانيها من إحقاق حق جعلوه

حياتهم باطلا، وها هم الآن يرونه رأي أعينهم- جميعا- وها هم وإذ يعضون عليهم الأنامل من الغيظ، وكما كانوا قد عضوا على المؤمنين أناملهم من الغيظ أيضا، وفي الحياة الدنيا! ولما كانت بهذا التركيب الإضافي الضافي، ولما جاءت هكذا بمدها اللازم الكلمي المثقل!

وأيضا ولعلنا نلحظ هاما، وذلك أننا وحين ننتقل من مد لازم كلمي مثقل، تضمنته مفردة الحاقة، وإلى لا مد فرعي من أصله، وفي مفردة القارعة، وإلا ما اقتضته طبيعة لغتنا العربية الجميلة، وإلا ما استلهمه اللفظ الوضعي، ومن مد طبيعي أصلي، وإلا ما صار لفظا! ويكأنه انتقال آخر، ومن المعاني المركبة، وإلى معان أخر مركبة أيضا، وإن بغير مد فرعي هذه المرة، وحين كانت القارعة، ولك أن تصَّوَّر كم هو عمل قرع باب تقرعه يد واحدة، أو يدان اثنتان، وحين كان مصمتا؟! ولتدَّاخل من خلاله قرعات، ومن بعدها قرعات أخر، متراكبات متداخلات، ولسبب هذا الباب المصمت الجامد!

وها هم يقولون في فيزيائهم: إن انتقال الصوت في الجوامد أسرع، وأعلى، وأدعى، وأرفع، وأعظم أثرا.

ولله تعالى المثل الأعلى!

وإذ إن اتفاقا في الألفاظ والمباني، وإذ يعني تطابقا في الأداء والمعاني، وكما أنه ليس علاقة بين وجوه النعيم في الجنان، وما رآه أهل الدنيا من النخيل والرمان! فكذلك الأمر وبين قرع آخرة يقرع الآذان فترتعد منه فرائص الولدان والشيبان! والله المستعان.

وهذان مشهدان اثنان، وفي آن، وحين انتقلنا من مفردة الحاقة، وبما حملت مما أنف بعض بيانه، وإلى مشهد آخر، وإلى القارعة، وفي مسافة، وتكاد ألا مسافة بينهما، وهذا بيان لكثرة المشاهد، وتعددها يوم اللقاء، وحين كانت القارعة، والحاقة، والحطمة، والواقعة، والبعث، والنشور، والساعة، والغاشية، والتناد، ويوم الحشر، ويوم التغابن، ويوم الأزفة، ويوم التلاق، ويوم الجمع، ويوم الحسرة، ويوم الخلود، ويوم الخروج، والصاخة، ويوم الفصل، ويوم الوعيد، ويوم الفتح.

وكثرة الأسماء برهان عظم المسمى! والله المستعان.

وإلا أن هذا المد، ومن حيث كونه مدا، وما أتى هكذا إلا لغايات الحبك الصوتي، والجرس الإيقاعي، والنغم الأدائي، وإلا أنه أيضا يشي بامتداد المعاني، وتراكبها وتداخلها، وكما تتداخل أمواج البحار، ولتعلو، ولتنخفض، وكل منها تتوالد عنها موجات أخرى متراكبة أيضا، بقممها، وقيعانها، وعُقَدِها، وسرعاتها، وترددداتها، وأطوالها الموجية، ما يعطي البحر حركته، وموجه، وصعوده، وهبوطه، ونسيمه، وعليله، ومده، وجزره! وهذا تماما بتمام ما يقع بين أيدينا من المعاني المركبة، ولهذا القرآن الكريم، وحين جاء بهذا المد اللازم الكلمي المثقل! وليمنحنا هذا الزاد المركب، المتنامي، المتعالى، المتسامق، ولأنه قرآن الله تعالى!

وعلى قدر ما كان مدا، وإلا أنه مد ذو زخم! وإذ كان ههنا مدا مكونا من جهات، تضافرت، وتعاونت، وتكاثرت، وتضامت، وتآلفت، وانسجمت، وشد بعضها من أزر بعض، حتى كان منه ذلكم التلاحم التركيبي، والأسلوب الإعجازي،

الأدبي، البلاغي، المعجز، المبهر، المؤثر، الآسر، والآخذ بالقلوب والأفئدة والأبدان معا! وإذ ها هي جهاته الأربعة:

الجهة الأولى: ومن كونه مدا لازما.

الجهة الثانية: ومن كونه مدا كلميا.

الجهة الثالثة: ومن كونه مدا مثقلا.

الجهة الرابعة: ومن كونه مدا مستقلا.

ولست أغادر هذا البيان، ومن حيث قد أتت فرصته مواتية، وإذ قد حان وقته، وحل زمانه، وهو ذلكم الإعجاز في قرب المخرج بين حرفي الحاء والألف، وقد جاءا متجاورين متقاربين مخرجا، وكما أنهما جاءا ههنا في لفظ(الحاقة) متجاورين متقاربين أيضا مبنى، ولكنهما جاءا متباعدين وأيضا معنى! وحين كان ذلكم بسبب هذا المد اللازم الكلمي المثقل! وبسبب حرف القاف المشدد، ولما كان من صورته مجيئه هكذا، ومن بعد ألف المد المعروف! وليحمل من المعاني، وكمثل هذا البعد، وبينهما؛ وبسبب هذا المد اللازم الكلمي المثقل أيضا!

تذكار واعتبار

وهذا برهان تذكير الناس بأيام الله تعالى، واغتنام كل فرصة مواتية لهذا التذكير. وكما قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥].

أثر أعلام النبوة في القوم

وكما أن فيه علما من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم، وحين أخبر أن غصنا من ذهب مع رغال هذا في قبره! وقد وضعه قومه معه، وقد كان، وهذه الآيات لها أثرها في تثبيت قلوب المؤمنين: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح:٤].

وكما أن لها أثرا آخر منضافا في إضعاف شوكة المشركين؛ وحين يعلمون كم هو علم هذا النبي! وحين يقفون هم بأنفسهم، وعلى أنه أعلم بتاريخهم منهم! أو على الأقل وكعلمهم- مع الفارق- وإذ كان الفارق أنه ليس من محلتهم، وليس من قبيلتهم!

وهذا أيضا باب من أبواب قوله تعال ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم:٤٢].

أبو رغال الجاسوس!

وأبو رغال هذا هو عين أبرهة الحبشي، ودليله، ويوم أن ساق جيشا جرارا؛ لهدم الكعبة المكرمة المشرفة، وكيما يصرف الناس عن الحج إليها، ومن ثم تحويلهم إلى حج كنيسته القليس، والتي كان قد بناها باليمن حسدا وكيدا.

وكان لزاما أن يختار خريتا، عالما بمسارات الطرق، وخنادق السبل؛ ولذا وحين افتضح أمره، فقد كان عرب الجاهلية يمقتونه حياته، ومن بعد موته أيضا! ورغم كفرهم! وحين غشي على أولاء أن للبيت ربا يحميه، وعلى حد قول عبد المطلب، جد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: أنا رب هذه الإبل، وللبيت رب يحميه، في عقيدة صلدة ههنا، وإن شابها شركها، ومن هنالك!!

وهذا برهان أن عمل الخيانة دنيء، وهو دليل على أن عمل النفاق سُفْلٌ.

عون المعبود في تبيان كفر ثمود

وأما ثمود هذه، فهم عرب خلص، ومن العرب البائدة، وهم أهل الحجر، وهي مدائن صالح.

وهذه ثمود! وحين أخذت قصتهم مساحة واسعة من كتاب الله تعالى، الذكر الحكيم؛ ودلالة على إمعانهم في شركهم، ومخالفة نبيهم صالح عليه السلام، ومن ظلمهم، وتكذيبهم، وإفكهم، وها هم قد حل بهم ما حل بالأمم التي نكصت، واستدبرت، وأبت، وعتت، واستكبرت عن هدي السماء، وحين عقروا الناقة، آية لهم، وعبرة للعالمين.

وهذه ثمود وحين جعل الله تعالى ناقة- واحدة- لهم آية! وليذروها تأكل في أرض الله تعالى، لا أرض أحد من الناس! والله تعالى يتولى إطعامها رزقها رغدا، والله تعالى يكفل لها إرواءها وسقياها! وما عليهم- فقط- وإلا أن ينظروا، وما تحمله من آيات، لا آية واحدة! ولأن لفظ آية جاء نكرة؛ وليحمل آيات عظاما، توجب إيمانا وخضعانا وخشعانا لهذا الرب القدير، وحين كانت ناقة من خلقه تشرب ماء، كان يكفي قوم صالح أجمعهم يوم شربهم!، وإذ كان من رحمتها وهي دابة رباعية! وإذ تمشي على أربع! أنها كانت تكفيهم مؤنة شربهم، ويوم شربها! ورغمه عقروها! وقد كان أقل ما يمكن قوله: وأن آمنا بالله ربنا إنه الحق المبين! وحين قال الله تعالى ﴿هَـٰذِهِ نَاقَـةُ اللَّـهِ لَكُمْ آيَـةً فَـذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّـهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وهذه ثمود، وحين كذبت، وقد قال الله تعالى فيهم ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠].

وهذه ثمود، ولما أعرضت، وقال سبحانه فيهم أيضا ﴿وَآتَيْنَـاهُمْ آيَاتِنَـا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر: ٨١].

وهذه ثمود وحين جعل الله تعالى ناقة- واحد- لهم آية! وليذروها تأكل في أرض الله تعالى لا أرض أحد من الناس! والله تعالى يتولى إطعاما رزقها رغدا والله تعالى يكفل لها إرواءها وسقياها! وما عليهم -فقط- وإلا أن ينظروا وما تحمله من آيات لا آية واحدة! وحين كانت آية ولما تشرب ناقة واحدة

وهذه ثمود، وحين استحبت، وأبت، وحين فضلت العمى على الهدى! في نعت زاكم، وفي وصف معيب، وحين قال الله تعالى ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[فصلت:١٧].

وأنت خبير بصورة هكذا كانت ناشزا! وحين يهدي الله قوما إلى السبيل، وهاهم يعزمون أمرهم، ويجهدون بحثهم، ويتعبون أنفسهم، وإلا أن يكونوا كافرين!

وكيف كان من تكذيبهم، وحين أغدق الله تعالى عليهم منحه، ونعمه، وعطاءه، ورزقه، ورغدهم أيضا؟! وحين كان هذا إملاء، وهو ما يخيف، ويرعب، ويرهب، وحين قال مولانا الله تعالى الكبير المتعال ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣].

ومثل هذه النفوس، وحين يحدث منها هذا الإنكار، لجميل العطاء، وجزيل المنح، ومنه فلا يستغرب ما به حل بهم، ومن تكذيبهم، ومن حمقهم، وحين ردوا جليل الإغداق، وبسوء الأخلاق!

وانظر كيف كان فضله تعالى عليهم، وحين قال تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]

وثمود هذه، هم الذين مر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على قراهم ومساكنهم، وإبان ذهابه صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، وفي السنة التاسعة من الهجرة النبوية الشريفة، وإذ وهو إذ يمر بالحجر «قَالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه

وسلَّمَ لأصْحَابِ الحِجْرِ: لا تَدْخُلُوا علَى هَـؤُلَاءِ المُعَذَّبِينَ إلَّا أنْ تَكُونُـوا بَـاكِينَ، أنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أصَابَهُمْ [1]

وثمود أولاء، هم الذين عطلوا أدمغتهم، وإذ كان سنهم التقليد، وحين كان ضلالهم الابتداع، وعن غير ما رشد من هدى، ودونما مسوغ من فلاح، وحين قال الله تعالى فيهم ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

وعيد وتهديد

ولهذا السبب؛ فإن العبد من حذر؛ وأن يكون على الألسنة حديثا! إلا من خير، وهدى، وتقى، ورشد، وصلاح، وفلاح، وإن الحاذق لمن مهرب؛ ومن أن يكون معتبرا! وإن المرء ليربأ من نفسه؛ وأن يكون ممزقا، كل ممزق! وحين يعتو، ويستكبر، ويضل، ويستكبر، ويستدبر، ويغوى، وينكص، ولا يرشد! ويترك ما خوله ربه ومولاه وراء ظهره!

وهذا هو الذي حل بثمود! وحين قال الله تعالى فيهم، وفي أمثالهم، وإن تباعد زمان! ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:١٩].

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى وحيث قال: عن بجير بن أبي بجير سمعت عبد الله بن عمرو سمعت رسول الله

---

(١) صحيح البخاري: ٤٤٢٠

ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال رسول الله ﷺ: «هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه». قال: فابتدره الناس فاستخرجوا معه الغصن (١).

****

لطائف من غزوة الطائف

-٤-

حول مسألة غنائم يوم حنين

عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الأنصارُ شِعارٌ والنَّاسُ دِثارٌ ولَو أنَّ النَّاسَ استقبَلوا واديًا أو شِعبًا واستقبلَتِ الأنصارُ واديًا لسلَكْتُ واديَ الأنصارِ ولَولا الهجرةُ لَكُنتُ امرأً منَ الأنصارِ (٢).

وعن عبد الله بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لَوْلَا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأنْصَارِ، ولو سَلَكَ النَّاسُ وادِيًا أوْ شِعْبًا لَسَلَكْتُ وادِيَ الأنْصَارِ وشِعْبَهَا. تابَعَه أبو التَّيَّاحِ عن أنسٍ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الشِّعبِ (٣).

---

(١) السنن الكبرى، البيهقي: ج:٤/١٥٦

(٢) صحيح ابن ماجه، الألباني: ١٣٥

(٣) صحيح البخاري: ٧٢٤٥

وهـذان حـديثان صحيحان رواهمـا كل مـن الإمـام ابـن ماجـه رحمـه الله تعـالى، وكـذا الإمـام البخـاري رحمـه الله تعـالى، وهمـا يبـين فضـل المهـاجرين، وحـين تركـوا ديـارهم وأمـوالهم، لله تعـالى، ويـوم أن هـاجروا مـن بطـش قـريش في مكـة المكرمة إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وحيث كان مهاجره صلى الله عليه وسلم بالمدينة النبوية الكريمة أيضا، وهو من قوله تعالى:﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[الحشر: ٨].

ولكـن الحـديثين أيضـا يبينـان فضـل الأنصـار، وحـين جعـل النبـي صـلى الله عليـه وسـلم نفسـه أنصـاريا، وإذ لـم يكـن مهاجريـا، وكمـا قـال الله تعـالى أيضـا: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ولكن الحديثين جاءا معالجين لوضع طرأ على الجماعة المسلمة، وإذ كاد أن يعصف بمجتمع ناشئ جديد، كان نواة أنس الخير في ربوع الأرض جميعها، لا الجزيـرة العربيـة وحـدها، ولهـذا انتصـب لـه نبينـا محمـد صـلى الله عليـه وسـلم، إصلاحا، وترتيبا، وإعادة ثقة وتأهيل جديدين أيضا..

والمهارة ههنا ألا يستوحش القائد من ظهور بوادر فتنة، ويشغل باله كثيرا حولها، وبقدر ما يكون همه منصبا على كيفية مواجهتها، بحكمة، وتدبير، وفطنة، وملاءة تفكير؛ وكيما لا تعاود الظهور من بعد؛ ولهذا السبب رأيناه صلى الله عليه

وسلم يعالج الفتنة، ومن مهدها؛ وكيما لا يطَّاير شررها، فينال كل قاص، ويهرش كل دان.

ولكن الحديثين أيضا كانا مناسبة يوم توزيع غنائم حنين، وحين أعطى نبينا صلى الله عليه وسلم المهاجرين وقريشا ودون الأنصار إلا اثنين.

ويومها ألوى الناس، وقالوا قولهم، وانتشر شأنهم، وذاع اعتراضهم، حتى أعلم سعد بن عبادة النبي محمدا صلى الله عليه وسلم.

وليبين النبي بحكمة، وليظهر من فطنة، وكلاما موجزا، إسراعا في وأد الفتنة أنه:

أولا: كان إعطاء القرشيين تألفا:

١- لمن أسلم وقد كان حديث عهد بإسلام، ومثل هذا الصنف يراعى، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم.

٢- لمن لم يسلم، وكصفوان بن أمية، وتألفا، ولعله أن يسلم، وقد كان، ولما يدخل الإيمان في قلبه، ومن بعد عداء مرير. وهو الذي قال: لقد أعطاني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ حُنينٍ وإنَّه لَمِن أبغضِ النَّاسِ إليَّ فما زال يُعطيني حتَّى إنَّه لَأحبُّ الخَلقِ إليَّ [١].

وأقول أيضا: إن هذا هو الموافق للتنزيل الحكيم، وحين قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ

(١) صحيح ابن حبان، شعيب الأرناؤوط: ٤٨٢٨. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

﴿وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة :٦٠].

وهذا هو بعد نظر القائد، وحصافته، وفطنته، وحين يكون على علم بمن هم تحت قيادته، أو من هم على مرمى بصره، فيعاينهم جميعا، وليعالجهم جميعا أيضا.

ثانيا: إعطاء المهاجرين، وعلى وجه أخص؛ ولأنهم تركوا أموالهم كلها، وديارهم جميعها، وها هم قد حطوا رحالهم، ومن بين إخوانهم الأنصار، وحين لم يقصروا في ضيافتهم، ومن إصلاحهم أمرهم إيثارا، حكى عنه القرآن الحكيم، وكما في آية الحشر التاسعة آنفا، وإذ ولو لم يكن إيثار على غير عادة الإيثار، ما نزل فيه قرآن، وبهذه الحفاوة!

وكان من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بعض اعتبارهم؛ ولإعادة توازنهم المادي، وبعد أن تركوا كل ما عندهم، وحين هاجروا لله تعالى ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ولأنه ولئن كان الأنصار قد قاموا بواجب نصرة إخوانهم المهاجرين، وعلى أفضل ما كان من إيثار، حكاه القرآن المجيد، وإلا أنه تتبقى في النفس بقية، وأنهم مهاجرون، وهذا وصف مع جلالته، وإلا أنه يشعر من خلاله أهله بعضا من عزلة، وبقية من وحشة، ومن شأن ذلك كان تصرفه صلى الله عليه وسلم؛ وليعلي القيمة، وليرفع الشأن.

ثالثا: إعطاء بعض الأنصار، ولو كانوا قلة، وإلا أنه اختيار؛ كان لفقرهم، وعوزهم، وحاجاتهم.

وهـذا شـأن القائـد، وكمـا أنـف، تكـون عينـاه سـاهرتين، على مـن حولـه، متحسسا أمورهم، ومعالجا شأنهم.

رابعا: إن النظر للمصلحة العامة للدولة أقوى اعتبارا، ومن مصالح أفراد فيها، وحين كان يمكن ومن خلال النظر والتبع لمسيرة عداء طويل، من أولاء الذين منحهم النبي صلى الله عليه وسلم، وإما أن يطلوا برأسهم الكفر ثانية، وهذا الذي رأينـاه يـوم نصـر هـوازن الأولي على المـؤمنين، وحـين أطـل بعضـهم بـرأس حربتـه، ونسي أنه قد أسلم! وهذا ما عالجناه يومها في حينه، وإذ كان هذا النبي صلى الله عليه وسلم قائدا فذا، يدرك الأمور وعواقبها، ويسبر الأغوار ونتائجها.

ومن كل مـا أنـف، أعلـم نبينـا محمـد صلى الله عليـه وسـلم النـاس بفعلـه، وحين تنادى سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه، وحين كان في قلبه من مثل ما كان في قلوب كثير منهم! وليسمعوا جميعا، لا أن يخبروا، ولرب مبلغ كان أوعى من سامع.

وكمـا قلـت: فـإن هـذا تفـرد نبـوي كـريم، وحـين لـم يـنفض اجتمـاع النـاس، وإلا بعـد أن رأوا مـن تصـرف نبـيهم صلى الله عليـه وسـلم خيرا، وحـين قـال الأنصـار أنفسهم رضينا.

وهذا هو عمل وزارة الإعلام في عهده صلى الله عليه وسلم، ولتعمل عملها في وأد الفـتن، ولتحسـن قيامهـا بواجبهـا، في رص الصـفوف، ومحافظـة على العقـد الاجتمـاعي، ومـن أن ينالـه انفـراط، أو مـن شـبهه، وإذ لا يستصـغرن شـرر، فـإن عظيم النار من مستصغر الشرر.

خامسا: خلق حميد لنبي كريم: وإلا أن ما أنف ليس يصرفنا عن الإشارة، وغير مرة، وإلى أن تقر في الأذهان، وإلى أن تصير سننا وهديا، ونظاما في القلوب والأفئدة والأبدان، وكمثل مما جاء به هذا النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

وذلكم هو خلقه العظيم، وعلى حد وصف القرآن المجيد له وحين قال الله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

وذلك لأن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم واجه مجتمعا ناشئا، وسمع منه ما ليس يسر، بل يغضب، ولكننا رأيناه صلى الله عليه وسلم، وهو إذ يهدهد، ويعالج، ويوجه، وينصح، ويرشد.

ولنا أن نتصور قائدا، وإذ يجذبه قومه مرة ذات اليمين، وأخرى ذات الشمال، ولسبب لعاعة الدنيا، ومهما كان مبلغها، وإلا أن تظل في عقد الحنفاء لعاعة!

وذلك أيضا وحين روى أبو موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه فقال: **كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو نَازِلٌ بالجِعْرَانَةِ بيْنَ مَكَّةَ والمَدِينَةِ، ومعهُ بلَالٌ، فأتَى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أعْرَابِيٌّ فَقالَ: ألَا تُنْجِزُ لي ما وعَدْتَنِي؟ فَقالَ له: أبْشِرْ، فَقالَ: قدْ أكْثَرْتَ عَلَيَّ مِن «أبْشِرْ»، فأقْبَلَ علَى أبِي مُوسَى وبِلَالٍ كَهَيْئَةِ الغَضْبَانِ، فَقالَ: رَدَّ البُشْرَى، فَاقْبَلَا أنْتُما، قالَا: قَبِلْنَا، ثُمَّ دَعَا بقَدَحٍ فيه مَاءٌ، فَغَسَلَ يَدَيْهِ ووَجْهَهُ فيه ومَجَّ فِيهِ، ثُمَّ قالَ: اشْرَبَا منه، وأَفْرِغَا علَى وُجُوهِكُما**

ونُحُورِكُما وأَبْشِرَا. فأخَذَا القَدَحَ فَفَعَلَا، فَنَادَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مِن ورَاءِ السِّتْرِ: أنْ أفْضِلَا لِأُمِّكُمَا، فأفْضَلَا لَهَا منه طَائِفَةً.[١]

وهذا آخر، وإذ يواجه نبينا صلى الله عليه وسلم، بغلظة من القول، وإذ لا تناسب لا من قريب ولا من بعيد، مقام رجل كان أمين ربه تعالى، وخليفته في الأرض، يأمر بأمره، وينهى عما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله تعالى إلا بما شرع، وإذ تراك تراه في مثل موقف لا وصف له! وحين قال هذا الأحدهم: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله فغضب الرسول r، وقال: "وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟".

"أَيُّهَا النَّاسُ، رُدُّوا عَلَيَّ رِدَائِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ لَكُمْ عِنْدِي عَدَدُ شَجَرِ تِهَامَةَ نَعَمًا لَقَسَّمْتُهُ عَلَيْكُمْ، ثُمَّ لاَ تَجِدُونِي بَخِيلاً، وَلاَ جَبَانًا، وَلاَ كَذَّابًا".

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن عبد الله بن زيد بن عاصم، قال: لَمَّا أفَاءَ اللَّهُ علَى رَسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَومَ حُنَيْنٍ، قَسَمَ في النَّاسِ في المُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، ولَمْ يُعْطِ الأنْصَارَ شيئًا، فَكَأنَّهُمْ وجَدُوا إذْ لَمْ يُصِبْهُمْ ما أصَابَ النَّاسَ، فَخَطَبَهُمْ فَقالَ: يا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، ألَمْ أجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بي؟ وكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فألَّفَكُمُ اللَّهُ بي؟ وعَالَةً فأغْنَاكُمُ اللَّهُ بي؟ كُلَّما قالَ شيئًا قالوا: اللَّهُ ورَسولُهُ أمَنُّ، قالَ: ما يَمْنَعُكُمْ أنْ تُجِيبُوا رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ قالَ: كُلَّما قالَ شيئًا، قالوا: اللَّهُ ورَسولُهُ أمَنُّ، قالَ: لو شِئْتُمْ قُلتُمْ: جِئْتَنَا كَذَا وكَذَا، أتَرْضَوْنَ أنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بالشَّاةِ والبَعِيرِ، وتَذْهَبُونَ بالنَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى رِحَالِكُمْ؟ لَوْلَا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأنْصَارِ، ولو

---

(١) صحيح البخاري: ٤٣٢٨

سَلَكَ النَّاسُ وادِيًا وشِعْبًا، لَسَلَكْتُ وادِيَ الأنْصَارِ وشِعْبَهَا، الأنْصَارُ شِعَارٌ، والنَّاسُ دِثَارٌ، إنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً، فَاصْبِرُوا حتَّى تَلْقَوْنِي علَى الحَوْضِ [١].

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله   في الناس كلهم بمثل محمد

وهذا قول مالك بن عوف النصري، صاحب يوم حنين، وحين اتهم دريد بن الصمة، وبأنه قد خرف، ولما قد كبر سنه! وحين هدد، وأزبد، وأرعد، يوم حنين وان لم يطعه قومه، لوضع الرمح في صدره، ليخرج من ظهره!

وهكذا يبدل الله تعالى قلوب قوم مشركين، وليأتوا بذات أنفسهم إلى الحق، برهانا على أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء سبحانه، ودليلا على أن هذا الدين منصور بإذن الله تعالى، ولأنه دين الحق والهدى، وما كان الله تعالى ربنا الرحمن الرحيم إلا أنه يريد بعباده اليسر كله، لا بعضه، ولا جزأه، بل جميعه؛ ولأنه تعالى قال: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[البقرة:١٨٥]. وتلكم من ألف باء الرحمة، وهذه أولى سطور الرأفة.

وقلت: إن مجيء مالك بن عوف النصري، وإلى الأمام من سيدنا ومولانا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لآية وإعجاز، وعلى أن هذا الدين ومن بعد انتصاره عليه ثلاث جولات متتاليات، ثم يأتي من بعدها مسلما مختارا، وهذا برهان آخر على أن هذا الدين ذو نفس طويل، وفي معاملة الناس أولا، وبرهان آخر على أن عدم قتل مالك هذا يوم حنين، أو يوم أوطاس، أو يوم الطائف، كان لغاية حميدة، وإذ ألفيناها آية رشيدة، وحين يأتي زعيم القوم مسلما، ولتكون

---

(١) صحيح البخاري: ٤٣٣٠

آية، وأن يأتي من بعده قومه، ولما يتمالكهم ذهولهم، وإذ كان يوم سجال دار بين مالك بن عوف النصري ودريد بن الصمة! وليروا بأعينهم، لا نقلا خبرا، عن أحد، فيكون مشوشا، أو يقال: فهم التصريح عن غير سياقه!

هذا، وليست تفوتنا هذه إشادة بهذه عبقرية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين صدر منه تصريح، ولمصدر مسؤول، وإنه وإذا جاءه مالك بن عوف مسلما ليعطينه مائة من الإبل، وليردن عليه أهله وماله!

وهذا برهان ضاف على أن هذا الدين له غاية واحدة، وهي إسلام الناس لرب العالمين، إلها واحدا، لا إله إلا هو إليه المصير، والمرجع والمآب، وحين يكون مصدر ائتمارهم ونهيهم هو الله تعالى رب العالمين، ولأنه تعالى قال ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. ولأنه تعالى قال أيضا ﴿صِبْغَةَ اللَّهِۦوَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةًۦوَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة:١٣٨].

وهذا عنوان أهمية المال في هذا الدين، وليتألف به قلوب قوم آخرين، كانوا يوما أعداء ألداء، ومن ثم يمكن تحويل العداء إلى ولاء، وتأليفا، وكيما يعودوا إلى حظيرة البر والتقوى والصلاح والفلاح والهدى والنور، وليسلموا ومن بعد كفرهم، وليؤمنوا ومن بعد شركهم أيضا.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما قاله الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى: وقال رسول الله ﷺ لوفد هوازن وسألهم عن مالك بن عوف ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف. فقال: «أخبروه أنه إن أتاني مسلما رددت إليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل». فلما بلغ ذلك مالكا انسل من ثقيف حتى أتى رسول الله

ﷺ وهو بالجعرانة – أو بمكة – فأسلم وحسن إسلامه، فرد عليه أهله وماله، ولما أعطاه مائة فقال مالك بن عوف رضي الله عنه:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ومتى تشأ يخبرك عما في غد
وإذا الكتيبة عردت أنيابها بالسمهري وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله وسط الهباءة خادر في مرصد

قال: واستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، وتلك القبائل ثمالة، وسلمة، وفهم، فكان يقاتل بهم ثقيفا لا يخرج لهم سرج إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم [١].

فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ

وهذا قول صحابي يدعى أبا سعيد، وهو مبين عن أعلام نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أعلم أن أبا الخويصرة سيخرج من صلبه قوم يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، وأنهم وسوف يكونون في معزل عن جهاد، وأنهم وقد تزايلوا العطاء، ومنحا في سبيل الله تعالى مولاهم الحق المبين، سبحانه.

ولكن سبب مقتهم هكذا، ولكن موجب نعتهم كذلكم، ولما تطاول أبوهم ذو الخويصرة التميمي، وعلى قسمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم غنائم حينين، وحين اتهمه زورا بعدم العدل في العطية، ولما رماه بهتانا بالميل في القسمة!!!

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ٤١٤

وهـذا تجـرؤ معيـب، وذلكـم تـنقص في غير محلـه، وهـذا سـوء أدب أمـام القائد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قد ائتمنه مولاه تعالى، وعلى دينه كله، وليظهره على الدين كله، ومن ثم فما بقيت قلة من مال، ولو كثرت، يمكن من خلالها أن يتهم هذا النبي صلى الله عليه وسلم.

ولهذا السبب؛ فقد كان من علامة نبوته صلى الله عليه وسلم، أن يحدث الذي حدث، وأن يخرج من صلب هذا الرجل من حاد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ولكن هذا ليس يصرفنا عن أمور منها:

الأمر الأول: هو ذلك الخلق النبوي المحمدي الرشيد، وحين لم يجهل على هذا ذي الخويصرة، ولما جهل عليه، وبخلق مشوب بسوء الأدب، وذلك الفحش، في مواجهة أمين الله تعالى في أرضه، وهو ذلكم النبي الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وبالتـالي وحـين يطعـن في رأس الهـرم، وأي هـرم أمامنـا، ونحـن أمـام قمـة عاليـة، بل فـوق القمـم السـامية، وهـو ذلكـم النبي الرسـول محمـد صلى الله عليـه وسـلم، وحـين قـد وصـفه مـولاه بأوصـاف عـزت، ولما قـد نعتـه مـولاه بنعـوت نـدت، وهو ذلكم الرؤوف الرحيم، وهو ذلكم الرحمة المهداة، والقدوة المسداة، والمرحمة دأبه، والملحمة نظامه، والصفح خلقه، والعفو دينه، والسمت الحسن هديه، وقد تبين هـذا، ومن رده على هـذا الجلـف، ذي الخويصـرة، وحـين قـال لـه: ويلك ومن يعدل إن لم أعدل؟!.

وإن هـذا لـيس يصـرفنا أيضـا عـن بيـان وجـوب مخاطبـة القائـد، بمـا هـو أهلـه، ومن تقـدير، ومن تعظيم، لـيس يخرجـه عـن نطاق عبوديتـه، ولا يدخلـه في معامع الأخذ والرد، وجعله مادة على الألسنة، ومن حشف، وسوء كيلة!

وإلا أن هذا ليس يصرفنا أيضا عن وجوب الرفق، ومع متانة هذا الدين، وحين أخرج البزار عن جابر قال: قال رسول الـه صلى الله عليه و سلم " إن هـذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى " (١).

والوسـطية ديـن، والاعتـدال مـنهج، وسـمو الأخـلاق رفعـة، وتقـدير القائـد منقبة.

الأمر الثاني: هـو ذلكم الجمع مـن صـفات سـفلية كانـت وصـما لأولاء ذريـة نابتـة مـن صلب هـذا الرجـل، وذلـك المتعدي على مقـام أمين الله تعـالى في أرضـه، وهـو ذلكم النبي الـذي أرسـله ربـه تعـالى رحمـة للعـالمين، وحين قـدم إلـيهم العـدل، وعلى مائـدة طيبـة شـهية، ولمـا تضـمنته مـن صـنوف الحـق، والعـدل، والنصـفة، والقسطاس المستقيم، دينا قيما، يهدي إلى الحق، وإلى طريق مستقيم، وحين لـم يجد أكثم بن صيفي، وإلا أن يقول فيه إلا قول الحق، الـذي فيه يمترون، ورغم كفـره، ولأن الحـق ذو قـوة، مـن طبيعتـه، وتركيبـه، ولمـا يجـد المنصـفون غيـر الإنصاف، وإذ وما بال أبو الخويصرة هكذا يخرج عما دخل فيه أكثم؟!

وأخرج أبو نعيم فقَالَ: بَلَغَ أَكْثَمَ بْنَ صَيْفِيٍّ مَخْرَجُ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَرَادَ أَنْ يَأْتِيَهُ فَأَبَى قَوْمُهُ أَنْ يَدَعُوهُ وَقَالُوا: أَنْتَ كَبِيرُنَا، لَمْ تَكُنْ لِتَخِفَّ إِلَيْهِ! قَالَ: فَلْيَأْتِهِ مَنْ يُبَلِّغُهُ عَنِّي وَيُبَلِّغُنِي عَنْهُ. فَانْتَدَبَ رَجُلَانِ فَأَتَيَا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَا نَحْنُ رُسُلُ أَكْثَمَ بْنِ

---

(١) الدر المنثور، السيوطي: ٤٦٥/١

صَيْفِيٍّ، وَهُوَ يَسْأَلُكَ: مَنْ أَنْتَ؟ وَمَا أَنْتَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "أَمَا مَنْ أَنَا فَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَمَّا مَا أَنَا فَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ". قَالَ: ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قَالُوا: ارْدُدْ عَلَيْنَا هَذَا الْقَوْلَ فَرَدَّدَهُ عَلَيْهِمْ حَتَّى حَفِظُوهُ. فَأَتَيَا أَكْثَمَ فَقَالَا أَبَى أَنْ يَرْفَعَ نَسَبَهُ، فَسَأَلْنَا عَنْ نَسَبِهِ، فَوَجَدْنَاهُ زَاكِيَ النَّسَبِ، وَسَطًا فِي مُضَرَ، وَقَدْ رَمَى إِلَيْنَا بِكَلِمَاتٍ قَدْ سَمِعْنَاهَا، فَلَمَّا سَمِعَهُنَّ أَكْثَمُ قَالَ: إِنِّي قَدْ أَرَاهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَيَنْهَى عَنْ مَلَائِمِهَا، فَكُونُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ رُءُوسًا، وَلَا تَكُونُوا فيه أذنابا [١].

الأمر الثالث: وهو ما تضمنه حديث الإمام البخاري رحمه الله تعالى من ذكر لأوصاف سلبية لهذا أبي الخويصرة. وهذه الصفات هي:

١- يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، وإذ وكأنما يخرجون منه وكما خروج السهم، إذا نفذ الصيد من جهة أخرى، ولم يتعلق به شيء منه، والرمية: هي الصيد المرمي.

٢- يخرجون على حين فرقة من الناس: أي وقت افتراق يقع بين المسلمين.

٣- يُحْسِنُونَ الْقِيلَ: يعني القول.

٤- علامتهم التحليق، وهو استئصال الشعر والمبالغة في الحلق.

(١) معرفة الصحابة، أبو نعيم: ٢/ ٤٢٠

٥- لَا يَرْجِعُونَ حَتَّى يَرْتَدَّ عَلَى فُوقِهِ: أي يرجع السهم على فوقه، أي: موضع الوتر من السهم، وهذا تعليق بالمحال، فإن ارتداد السهم على الفوق محال، فرجوعهم إلى الدين أيضا محال.

٦- يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مع صَلَاتِهِمْ، وصِيَامَهُ مع صِيَامِهِمْ.

٧- يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ. أي: عظامهم التي بين نُقَرِ نحورهم وعواتقهم. وهذا كناية عن أن قِراءتهم لا يرفعها اللهُ تعالى، ولا يَقبلُها؛ لعِلمِه باعْتِقادِهم، أو أنَّهم لا يَعمَلونَ بها، فلا يُثابونَ عليها.

٨- يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَمَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ، كذلك هؤلاء لم يتَعلَّقوا بشَيءٍ مِن الإسْلامِ.

٩- التَّسْبِيدُ: وهو تَرْكُ غَسْلِ الشَّعرِ ودَهْنِهِ.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه لاالله تعالى عن أبي سعيد الخدري: **بيْنَما نَحْنُ عِنْدَ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يَقْسِمُ قَسْمًا، أَتَاهُ ذُو الخُوَيْصِرَةِ -وهو رَجُلٌ مِن بَنِي تَمِيمٍ- فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، اعْدِلْ، فَقالَ: ويْلَكَ! ومَن يَعْدِلُ إذَا لَمْ أَعْدِلْ؟! قدْ خِبْتَ وخَسِرْتَ إنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ. فَقالَ عُمَرُ: يا رَسولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لي فيه فأضْرِبَ عُنُقَهُ؟ فَقالَ: دَعْهُ، فإنَّ له أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مع صَلَاتِهِمْ، وصِيَامَهُ مع صِيَامِهِمْ، يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إلى نَصْلِهِ فلا يُوجَدُ فيه شَيءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إلى رِصَافِهِ فَما يُوجَدُ فيه شَيءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إلى نَضِيِّهِ -وهو قِدْحُهُ- فلا يُوجَدُ فيه شَيءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إلى قُذَذِهِ فلا يُوجَدُ فيه شَيءٌ، قدْ سَبَقَ الفَرْثَ والدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ، إحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ المَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ البَضْعَةِ**

تَدَرْدَرُ، ويَخْرُجُونَ على حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ. قالَ أَبُو سَعِيدٍ: فأشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هذا الحَدِيثَ مِن رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأَشْهَدُ أنَّ عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وأَنَا معهُ، فأمَرَ بذلكَ الرَّجُلِ، فَالْتُمِسَ فَأُتِيَ به، حتَّى نَظَرْتُ إلَيْهِ علَى نَعْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الذي نَعَتَهُ[1].

ما أُحِبُّ أنَّ لي بكَلِمَةِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حُمْرَ النَّعَمِ

وهذا قول عمرو بن تغلب، حين قد أنس من إشادة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم به، وحين كان قد تمايز بغنى نفسه، وسمو روحه بعيدا بعيدا، عن هكذا دنيا، وإذ كانت لعاعة، وإذ ها هم الناس يتنافسوها، وخوفٌ أن تهلكهم كما وقد أهلكت أمما من قبلهم.

فعن عمرو بن تغلب: أَتَى النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَالٌ فأعْطَى قَوْمًا ومَنَعَ آخَرِينَ، فَبَلَغَهُ أنَّهُمْ عَتَبُوا، فَقالَ: إنِّي أُعْطِي الرَّجُلَ وأَدَعُ الرَّجُلَ، والذي أدَعُ أحَبُّ إلَيَّ مِنَ الذي أُعْطِي، أُعْطِي أقْوَامًا لِما في قُلُوبِهِمْ مِنَ الجَزَعِ والهَلَعِ، وأَكِلُ أقْوَامًا إلى ما جَعَلَ اللَّهُ في قُلُوبِهِمْ مِنَ الغِنَى والخَيْرِ منهمْ عَمْرُو بنُ تَغْلِبَ، فَقالَ عَمْرٌو: ما أُحِبُّ أنَّ لي بكَلِمَةِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حُمْرَ النَّعَمِ[2].

وهذا حديث يبين منه السلطة التقديرية للقائد، وحين يمنح، أو حين يمنع.

---

(١) صحيح البخاري: ٣٦١٠

(٢) صحيح البخاري: ٧٥٣٥

وذلك لأن المنح والمنع، ولئن كانت تحسمهما قوانين الدولة المسلمة، وليس تخضع لسلطان أحد من البشر، وذلك حفظا للحقوق، وأداء للواجبات، ودرءا للشبهات، ثم إنه إعمال لدين وشرع رب الأرضين والسماوات، وخالق البريات سبحانه، وإلا أنه يتبقى مساحة، يعمل فيها هذا القائد، وحين دلت القرائن، على نزاهته، وحين برهنت الدلائل على أمانته، وليس يعد ذلك افتئاتا على الشرع من شيء، وليس يعتبر ذلك تعسفا في استخدام السلطات من شيء أيضا؛ وذلك لأن قسمة ونصيبا مفروضا كانتا له صلى الله عليه وسلم، وهو مطلق اليد في استخدامهما، عطاء أو منعا، لهذا أو ذاك.

وبيد أن سبيلا شرعه الرحمن، ومن شأنه كان فعله صلى الله عليه وسلم ذلكم أيضا، وحين قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وهذا الطريقان هما اللذان أراهما، وجمعا بين قسمة القرآن الكريم، لمسائل الغنائم، ودفعا ومنحا وعطاءا رأيناه من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكما رأيناه الآن، ومن خلال حديث الإمام البخاري رحمه الله تعالى، السابق الذكر.

خلاصة: إن عطاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن نصيبه للآخرين، وكذا من قسمة الله تعالى، وكم دل على عدله! من جانب، وكم برهن على جوده! ومن جانب ثان، وكم أفاد بعد نظره! ومن ثالث، وحين كان يتألف قلوب قوم، ومن أمثال مالك بن عوف النصري، ولما ينقلب من عدو لدود، وإلى ولي رشيد.

وليس ببعيد عنا فعله ومن مثله مع صفوان بن أمية ويوم الناس هذا أيضا، وحتى قال قوله المشهور، وفي هذا الشأن: لقد أعطاني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ حُنينٍ وإنَّه لَمِن أبغضِ النَّاسِ إليَّ فما زال يُعطيني حتَّى إنَّه لَأحبُّ الخَلقِ إليَّ [١].

هذا، وليس يفوتنا ذلكم الحظ والنصيب، وحين جعله الله تعالى للمؤلفة قلوبهم من المسلمين، حدثاء العهد بكفرهم الذي سبق، أو أولاء المشركين، وحين يكتفى شرهم بعطاء، ولما يستشرف خيرهم بمنح.

ولكن هذا ليس يصرفنا، عن هكذا قوم، كانوا فوق المادة، ولما علت نفوسهم بإيمانهم، وحين سمت واشرأبت أعناقهم بالتقوى، وحين استوى لديهم منعهم، أو منحهم، ومن أمثال عمرو بن تغلب هذا، وحين منعه نبينا صلى الله عليه وسلم، ولما علم من إيمان في قلبه وقر، وحين أيقن من يقين في فؤاده استقر! وهذه درجة، بل درجات، وعلى حال تبين كم كان في هذا الجيل من مترفع، وكم كان منه من شريف النفس، وكم كاتن منه من عالي الهمة، ولا نظر هنا إلى كونه كان فقيرا أو غنيا؛ ولأن النفوس العالية عالية، ودونما نظر إلى حاجة أو عوز، ودون إبصار لغنى أو سعة.

(١) صحيح ابن حبان، شعيب الأرناؤوط: ٤٨٢٨

إسلام مالك بن عوف النصري!

قال الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى: واستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، وتلك القبائل ثمالة، وسلمة، وفهم، فكان يقاتل بهم ثقيفا لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم. [١].

سبحان من كانت، وتكون، ولا تزال القلوب بين إصبعين من أصابعه تعالى، يقلبها كيف يشاء.

ولأن هذا هو مالك بن عوف النصري، وقد من الله تعالى عليه بالإسلام، ومن بعد حرب شعواء ضارية، خاضها ضد الفئة المؤمنة، وفي ثلاث جولات، أذاقه الله تعالى الخزي، والدمار، والخسار، والبوار.

ولعل هذا من فعله تعالى في كونه، ومن تصرفه العظيم القدر، وحين يمهل عبدا كل هذا القدر من الزمن، ويهديه ومن بعد ما رأى الآيات تترى!

ولكن العجب العجاب، هو ذلك التحول من زعيم قوم ثقيف، وفي حربهم ضد محمد النبي الرسول صلى الله عليه وسلم، وثم ها هو الآن يقف زعيما، وعلى حرب ثقيف، وبمن أسلم معه، ومن قبائلهم هم! وحين قدمه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أميرا على ثلاث منها، وحين أسلمت وجهها لله تعالى، ولتكون قضا لمضاجع الكفر، وفي مكسب آخر جديد، يمن به الله تعالى على قلوب قوم مؤمنين، وحين تطهر الأرض، شبرا شبرا، وباعا باعا، من رجس كفر ظليم، ومن بهتان شرك عظيم.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، الطبري: ج ٢ / ٣٥٨

ولكن هذا العمل الفائق هدي نهتديه، ورسم نترسمه، وحين يتميز القائد بطول نفسه، وليشتت تجمع الشرك، ويفرق جمع الكفر، وحين يسلم فريق منهم، وليتوبوا، ومن ثم يكونون هم رأس حربته على أقوامهم، ولأن أهل مكة أدرى بشعابها.

وهذه هي ثقيف ينفصم عنها ثلاث قبائل كاملة، هي ثمالة، وسلمة، وفهم، لتقاتلها، ولتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وليس ذلك فحسب، وإنما يقودهم هذا مالك بن عوف النصري رضي الله تعالى عنه، وحين قد تبدى بدرا بإسلامه ولان الإسلام نور، ولأنه ها هو وقد رجع بوجه غير ذلك الذي جاء به!

وهذا فن دعوي، وهو كذلكم إبداع عسكري، وحين يكونون هم أعلم بأقوامهم، وكيف يديرون حربهم معهم، وبكفاءة، لا كمثلم من أحد سواهم.

وأكرر: إن سياسة النفس الطويل عمل ممتاز، والصبر عمل أكثر امتيازا، وأقوم عملا، وحين يتمكن القائد من مجيئ يوم يشق فيه جمع المشركين، ويفرقهم، ويشتتهم، وليضعفوا، وليوهنوا من بعد قوة، وليتفرقوا ومن بعد جمعهم، وليسهل عمل الدعوة فيهم، وييسر فعل القتل فيهم أيضا، وحين لم تفلح معهم أدوات الدعوة القولية إلى الله تعالى الحق المبين.

سلي تعطي، واشفعي تشفعي

وهذا هو خلق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين جيء بأخته من الرضاعة الشيماء بنت الحارث، وكان الناس قد عنفوا بها وها هي تستجير بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأنها أخت صاحبهم من الرضاعة، وها تجلس بين يديه صلى الله عليه وسلم، ولئن كانت صادقة فيهما دليل وعندها برهان ويوم أن أخبرها بأنها ولو كانت صادقة فإن بينهما دليلا لا يبلى، وإذ كان قد عضها عضة في عضدها ويوم أن كانا صغارا رضاعا في بادية بني سعد ويوم اكت فيهم مباركا وإذ تنزلت عليهم بركات السماء واختفاء به طفلا وتبركا به نبيا منتظرا صلى الله عليه وسلم.

ولكنه صلى الله عليه وسلم كان ذا الأليفة وحين أجلسها ولكنه صلى الله عليه وسلم كان قد أكرمها وحين خيرها٨ وبين أن تكون عنده أختا مكرمة معززة٨ أو أن يردها إلى قومها معززة مكرمة أيضا وليمنحها غلاما وجارية هدية عطاء نبي ومنحة رسول، ومت ثم لتعود إلى قومها.

وهذا فعل هذا النبي صلى الله عليه وسلم وإذ ليس في وسعنا وليس في خلد غير ممن يعرفه إلا ذلكم الحنو وإلا ذلكم المنح وإلا ذلكم العطاء وإلا ذلكم الإكرام هديا وسننا حسنا.

وعلى كل حال فإن هذا ليس ينسينا أن نبادر قولا سبق ذكره وأن العمل الإعلامي الصادق له أثره الإيجابي في تحريك القلوب والأسماع والأبصار، وحين أشعرت هوازن شعرا وله من أثر وحين تداعت له أحاسيس نبي حان كريم، يؤثر

العفو، ويمكن الصفح، ويعتق الرق، ويحرر العبيد، وأيما سبيل لذلكم إلا سلكه، وحين سمع قول شاعرهم:

أمنن على نسوة قد كنت ترضعها إذ فوك يملؤه من محضها درر

أمنن على نسوة قد كنت ترضعها وإذ يزينك ما تأتي وما تذر

وهذا الذي كان سبيلا إلى عفوه وإعتاقه، برهان آخر على كم كان خلق هذا النبي وحنوه، وعفوه ه، وصفحه، وتجاوزه، وإعتاقه، وحين نقدمه هكذا للعالمين، ولما قالوا إنه رق الرقيق، وعبد العبيد، وها هو صلى الله عليه وسلم، ما ترك مناسبة للحرية إلا سلكها، وما كان سبيل للانعتاق إلا ولجه، صلى الله عليه وسلم.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البيهقي رحمه الله تعالى عن قتادة قال: لما كان يوم فتح هوازن جاءت جارية إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله أنا أختك، أنا شيماء بنت الحارث. فقال لها: «إن تكوني صادقة فإن بك مني أثر لا يبلى». قال: فكشفت عن عضدها فقالت: نعم يا رسول الله حملتك وأنت صغير فعضضتني هذه العضة. قال: فبسط لها رسول الله ﷺ رداءه، ثم قال: «سلي تعطي، واشفعي تشفعي».[1].

وقد قيل إنه أبويه من الرضاعة قد حضرا وأكرمهما أيضا والله أعلم

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ٤١٨

«اللهم زده ثباتا»

وهذا دعاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم للنضير بن الحارث يوم الطائف ويوم استجمام قريش وهوازن وما سواها للنيل من هذه الدعوة الربانية الجديدة وإذ كانت تتمثل بين أيديهم جمعا دليل نبوته صلى الله عليه وسلم، وشاء الله تعالى أن تعمل في كثير منهم عملها، وقدر الله تعالى أن تترك في كثير منهم أثرها، وحتى كان منه إسلامهم، وحين جاؤوا بين يدي هذا النبي، معلنين التوبة، ورافعين أعلام الأوبة.

وقد كان منهم النضير بن الحارث هذا ولما كان عقد قلبه أن ينال من نبينا صلى الله عليه وسلم يوم حنين مأربا، ولكنه الله تعالى رب العالمين، ولما يعصم نبيه، ويكأنه الله تعالى ذو السلطان القديم، ولما يحفظ نبيه ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم، وإذ نعرف هذا، وندركه ونعلمه، ونوقنه، ونقف عليه، ونشير إليه.

وإذ نترك هذا الحديث الذي دار بين نبينا صلى الله عليه وسلم، وهذا النضير بن الحارث، ولنقف على ما وراء الحدث، وما وراء الحدث هو دليل النبوة، وبرهان الرسالة، وما خلف الحدث، هو إسلام النضير بن الحارث رحمة من ربه تعالى، وحين تندم على يوم عادى فيه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

فقد ذكر الواقدي، عن إبراهيم بن محمد بن شرحبيل، عن أبيه قال: كان النضير بن الحارث بن كلدة من أجمل الناس، فكان يقول: الحمد لله الذي منَّ علينا بالإسلام، ومنَّ علينا بمحمد ﷺ، ولم نمت على ما مات عليه الآباء، وقتل

عليه الأخوة وبنو العم. ثم ذكر عداوته للنبي ﷺ، وأنه خرج مع قومه من قريش إلى حنين وهم على دينهم بعد، قال: ونحن نريد إن كانت دائرة على محمد أن نغير عليه، فلم يمكنا ذلك، فلما صار بالجعرانة فوالله إني لعلى ما أنا عليه إن شعرت إلا برسول الله ﷺ فقال: «أنضير؟». قلت: لبيك. قال: «هل لك إلى خير مما أردت يوم حنين مما حال الله بينك وبينه؟». قال: فأقبلت إليه سريعا. فقال: «قد آن لك أن تبصر ما كنت فيه توضع». قلت: قد أدري أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى شيئا، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم زده ثباتا» قال النضير: فوالذي بعثه بالحق لكأن قلبي حجر ثباتا في الدين، وتبصرة بالحق. فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي هداه» [1].

يا رسول الله إنه كان عليَّ اعتكاف يوم في الجاهلية فأمره أن يفي به

هذه رواية عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما، وأن ذلك موجب أن هذا الدين دين الوفاء، ومن حيث كان الوفاء بالنذر دينا، ومن حيث كان الوفاء بالنذر المباح دينا أيضا، ولأن هذا الدين لم يأت ناقضا لكل ما كان موجودا في الجاهلية، بل جاء لينقض ما كان مخالفا، وليبقي على ما كان محالفا، ولا سيما أن النذر ههنا قد كان لله تعالى العلي الأعلى سبحانه، وإلا كان قد بينه النبي صلى الله عليه وسلم، أو على الأقل أخذا للأمور، وعلى ظواهرها، وليست هنالك دواع لذلكم بحث. فيما وراء الجدر!

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ٤١٩

وهـذا مـن لطـف هـذا الـدين، ومـن حيـث تـوافر شـرط النيـة، ووجـود الإخـلاص، وكـون أن العبـد إنمـا يفعـل فعلـه، أو أن يتركـه ويـذره، وإنمـا كـان على الصفة المشروعة شرعا، وإنما كانت هذه الصفة بركنيها، وعماد ذلك هو الموافقة للشرع، وإن الإخلاص له تعالى هو المكون الأساس، ومن بعد صدق هذه المتابعة، ومواصفاتها لمتطلبات الشرع الحكيم.

وإلا أن هذا ليس يصرفنا عن ذكر أمور كانت يوم الجعرانة:

الأمر الأول: هو أداؤه صلى الله عليه وسلم عمرة في يوم الجعرانة هذا، وقد كانت في ذي القعدة من أواخر السنة الثامنة من الهجرة.

وهذا مناسبة أن قوما ذهبوا إلى أنه صلى الله عليه وسلم قد اعتمر ثلاثا أو أربعا، وهل اعتمر في رجب أم لا؟

وأما عن عدد عمره صلى الله عليه وسلم، فإنهن أربع

الأولى: عمـرة الحديبيـة، وإنمـا حسـبها النـاس كـذلك، ورغـم أنـه صـلى الله عليه وسلم كان قد رجع، وتحت شروط عقد الصلح المعروف، وعلى معالجتنا له في حينـه، ومن هـذه السـيرة النبويـة المباركـة، وإلا أنهـم ذهبـوا إلى احتسـابها، ومـن حيث ثبوت الأجر، ومن حيث عقد النية، ومن حيث إنه صلى الله عليه وسلم لم يؤدها كرها.

وهذا التوجيه هو الذي تطمئن له النفس. وإلا فكيف نروح محتسبين عمرة الحديبية، ويعرف الناس أنه صلى الله عليه وسلم كان قد رجع يومه هذا، وتنفيذا لعقد الصلح الذي كان يوم ذلك؟

الثانية: وهي عمرة القضاء، وإنما أسميت مكذا ولأنها كانت قضاء عن عمرة الحيبيبة.

والثالثة: وهي عمرة يوم الجعرانة هذا، ويوم انصرف صلى الله عليه وسلم إلى أدائها من الجعرانة، وبعد نصر مؤزر وفي ثلاث جولات متتاليات وعلى ثقيف هوازن وكيما لا تطل برأسها من جديد ويوم أن جاء زعيمهم مالك بن عوف النصري معلنا الولاء ورافعا را]ة الاستسلام والسلام والإسلام معا!

والرابعة: وهذه التي أداها صلى الله عليه وسلم يوم حجه.

وعليه، فقد اعتمر نبينا صلى الله عليه وسلم أربع عُمَرٍ، ومع احتساب عمرة الحديبية، وعلى التوجيه سالف الذكر.

وقد كانت هذه الأربعة العمر، في ذي القعدة منها ثلاث، وفي حجه الأوحد واحدة، وهؤلاء هن الأربعة العمرات.

وأما عن أدائه صلى الله عليه وسلم العمرة في رجب، وقد راح إليه فريق وقد عارضه آخرون.

وإلا أنه لم يرد حديث صحيح يدل على أنه صلى الله عليه وسلم قد اعتمر في رجب أبدا.

وأمامنا حديث الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، وأنه صلى الله عليه وسلم قد اعتمر أربعا، ولم يعتمر في رجب قط.

ومنه فإن الناس قد ذهبوا في البدعة مذهبهم، وحين راحوا يثبتون ما لم يثبت في عمرة رجب، والتي سبق ذكر أنه ليس لها من أساس.

فعن عبد الله بن عمر: **دَخَلْتُ أنَا وعُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ المَسْجِدَ، فَإِذَا عبدُ اللَّهِ بنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنْهمَا جَالِسٌ إلى حُجْرَةِ عَائِشَةَ، وإذَا نَاسٌ يُصَلُّونَ في المَسْجِدِ صَلَاةَ الضُّحَى، قالَ: فَسَأَلْنَاهُ عن صَلَاتِهِمْ، فَقالَ: بِدْعَةٌ. ثُمَّ قالَ له: كَمِ اعْتَمَرَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ قالَ: أرْبَعًا، إحْدَاهُنَّ في رَجَبٍ، فَكَرِهْنَا أنْ نَرُدَّ عليه. قالَ: وسَمِعْنَا اسْتِنَانَ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ في الحُجْرَةِ، فَقالَ عُرْوَةُ: يا أُمَّاهُ، يا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، ألَا تَسْمَعِينَ ما يقولُ أبو عبدِ الرَّحْمَنِ؟ قالَتْ: ما يقولُ؟ قالَ: يقولُ: إنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اعْتَمَرَ أرْبَعَ عُمَرَاتٍ، إحْدَاهُنَّ في رَجَبٍ، قالَتْ: يَرْحَمُ اللَّهُ أبَا عبدِ الرَّحْمَنِ، ما اعْتَمَرَ عُمْرَةً إلَّا وهو شَاهِدُهُ، وما اعْتَمَرَ في رَجَبٍ قَطُّ** (١).

وأقول: ولعله من مذهب قوم قالوا وبأنه صلى الله عليه وسلم قد اعتمر ثلاثا، ومن باب أنه اعتمر عمرة يوم الجعرانة ليلا، وإذ ذهب إلى مكة المكرمة، واعتمر، ومن ثم عاد إلى الجعرانة، ثم انصرف إلى المدينة، وإذ كان كل ذلك ليلا، ولعله من هنا حدث نوع خفاء. وعلاوة على تقديرنا سالف الذكر.

---

(١) صحيح البخاري: ١٧٧٥

فعـن محـرش الكعبي أنَّ رسـولَ اللَّـهِ صـلَّى اللَّـهُ عليـهِ وسـلَّمَ خـرجَ مـنَ الجِعرَّانـةِ لـيلًا مُعتَمـرًا، فـدخلَ مَكَّـةَ لـيلًا، فقضَـى عُمرَتَـهُ، ثـمَّ خـرجَ مـن ليلتِـهِ، فأصبحَ بالجعرَّانةِ كبائتٍ، فلمَّا زالتِ الشَّمسُ منَ الغدِ خرجَ في بطنِ سَرِفَ، حتَّى جاءَ معَ الطَّريقِ طريقِ جمعٍ ببَطنِ سَرِفَ، فمِنْ أجلِ ذلِكَ خفيت عمرتُهُ على النَّاسِ [١].

وعن عائشة أم المؤمنين دخَلتُ على عائِشةَ فقالَتْ: ما اعتَمَرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَّا في ذي القَعْدةِ، ولقد اعتَمَرَ ثَلاثَ عُمَرٍ [٢].

الأمر الثالث: إثبات أنه صلى الله عليه وسلم كان قد جعل الجعرانة مركزا لانطلاقه إلى عمرته الثالثة، ولعل هذا كان شكرا لله تعالى، وعلى ما حباه ربه تعالى من نصر مؤزر، وعلى ثقيف من هوازن، وفي ثلاث جولات متتاليات، أذاق فيها ثقيفا شدة حصارا، وعملا وحتى أتوه مسلمين، مجيبين، وتقدمهم في ذلكم عامر بن عوف النصري! وحين أسلم وجهه لله تعالى، ومن بعد مساجلات مريرة مع هذا الدين.

وأقول: إن الجعرانة، وكما كانت مركزا لانطلاق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى أداء العمرة، وفي ذي القعدة، ومن نهاية السنة الثامنة من الهجرة، وأن ذلك فيما نعتمده كان شكرا لله تعالى، على حلاوة النصر، ومن بعد غزوة الطائف، وكما أنف، وإلا أن الجعرانة أيضا كانت مركزا لتخزين وتوزيع الغنائم، والتي منَّ الله تعالى عليهم بها، ومن بعد حصار يوم الطائف.

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٩٣٥

(٢) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ٢٥٩١٠. خلاصة حكم المحدث: صحيح

وأقول أيضا: إنه صلى الله عليه وسلم كان قد أبقي بعض الغنائم، ودون توزيعها، ولعله كان ذلك لحكمة، ومنه أن يتألف بها قلوب من يقابل في طريق عمرته، ومن ثم يتألفه بها، ردا لعدوانه، أو صدا لمكره، أو تألفا لقلبه ولعله أن يسلم.

فعنِ ابنِ عَبَّاسٍ قال لمَّا قَدِمَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الطَّائفِ نزل بالجِعْرانَةِ فَقَسمَ بها الغنائِمَ ثمَّ اعتَمَرَ منها وذلِكَ لِلَيلَتينِ بَقِيتا مِن شَوَّالٍ [(١)]

الأمر الرابع: هو إثبات الحلق والتقصير، وكشعيرة من شعائر الله تعالى ومن منسك عمرة أو حج، ومن مشعر منى، وحين انتهاء الشوط السابع من السعي بين الصفا والمروة.

قالَ ابنُ عَبَّاسٍ قالَ لي مُعَاوِيَةُ: **أَعَلِمْتَ أَنِّي قَصَّرْتُ مِن رَأْسِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ عِنْدَ المَرْوَةِ بمِشْقَصٍ؟ فَقُلتُ له: لا أَعْلَمُ هذا إلَّا حُجَّةً عَلَيْكَ.** [(٢)]

والمِشقَصُ: ما طالَ وعرُضَ مِن النِّصالِ والسِّهامِ.

والمِشْقَصُ: نصلُ السهمِ إذا كَانَ طَوِيلًا غيرَ عريضٍ، فإذا كَانَ عَريضاً فَهُوَ المِعْبَلَةُ [(٣)]

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ٣٦٦/٤. خلاصة حكم المحدث: غريب جدا وفي إسناده نظر.
(٢) صحيح مسلم: ١٢٤٦
(٣) لسان العرب، ابن منظور: ٧ /٤٨

الأمر الخامس: وهو إثبات الرَمَلِ، وهو الإسراع في الأشواط الثلاث الأول من الطواف حول البيت العتيق الكعبة المشرفة المكرمة، وكذا إثبات الاطباع وهو جعل الأردية تحت الآباط، ثم قذفها على العواتق اليسرى.

فعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ وأصحابَهُ اعتمَروا منَ الجِعرَّانةِ فرمَلوا بالبيتِ وجعَلوا أرديتَهُم تحتَ آباطِهِم قد قَذفوها علَى عواتقِهِمُ اليُسرى [١].

الأمر السادس: وهو إثبات أنه صلى الله عليه وسلم كان قد اضطبع من طوافه حول البيت المحرم الكعبة المشرفة. ويعالجه حديث الإمام أبي داود سالف الذكر.

وهذا قد رأيناه يوم عمرة القضاء، وأنه كان لإغاظة المشركين، ولعله ذلك ومن كونه شرعا، ودينا، ومنهجا، وسبيلا، ولا نسأل فيه أو في غيره عن حكمة فيه، برهان فعله صلى الله عليه وسلم يوم الجعرانة، ولم يكن ثمة إغاظة.

الأمر السابع: أنه صلى الله عليه وسلم كان قد اعتمر أربع عمر هي:

١-عمرة الحديبية حكما، وكما أنف.

٢-عمرة القضاء، وكانت العام التالي ليوم صلح الحديبية.

٣-عمرة يوم الجعرانة، وبعد غزوة الطائف؛ شكرا أداء لله تعالى.

وهذه الثلاث كانت كلها في ذي القعدة.

٤-عمرة أداها صلى الله عليه وسلم يوم حجه في العام التاسع.

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني:١٨٨٤

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى **عن نافع مولى ابن عمر أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عنْه قالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّه كانَ عَلَيَّ اعْتِكَافُ يَومٍ في الجَاهِلِيَّةِ، فأمَرَهُ أنْ يَفِيَ به، قالَ: وأَصَابَ عُمَرُ جَارِيَتَيْنِ مِن سَبْيِ حُنَيْنٍ، فَوَضَعَهُما في بَعْضِ بُيُوتِ مَكَّةَ، قالَ: فَمَنَّ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علَى سَبْيِ حُنَيْنٍ، فَجَعَلُوا يَسْعَوْنَ في السِّكَكِ، فَقالَ عُمَرُ: يا عَبْدَ اللَّهِ، انْظُرْ ما هذا؟ فَقالَ: مَنَّ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علَى السَّبْيِ، قالَ: اذْهَبْ فأرْسِلِ الجَارِيَتَيْنِ، قالَ نَافِعٌ: ولَمْ يَعْتَمِرْ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الجِعْرَانَةِ ولَوِ اعْتَمَرَ لَمْ يَخْفَ علَى عبدِ اللَّهِ. وزَادَ جَرِيرُ بنُ حَازِمٍ، عن أَيُّوبَ، عن نَافِعٍ، عن ابْنِ عُمَرَ، قالَ: مِنَ الخُمُسِ، ورَوَاهُ مَعْمَرٌ، عن أَيُّوبَ، عن نَافِعٍ، عن ابْنِ عُمَرَ: في النَّذْرِ ولَمْ يَقُلْ يَومٍ**[1].

فليست لي حاجة إلى أحد

هذا قول عتاب بن أسيد رضي الله تعالى عنه، وحين خلفه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على مكة، مرجعه من عمرة الجعرانة، وهذا برهان أمور منها:

الأمر الأول: ضرورة الاستخلاف على قيادة المناطق، ومع منح سلطات للقائد المعين الجديد، التي بها يمكنه من إدارة محلته، على وجه شرعي ممتاز.

---

(١) صحيح البخاري: ٣١٤٤

ولأن قوام العالم على النظام، وفي وجود القائد حفظ لهذا النظام. وفي غير وجود القائد عموم الفوضى واختلال الأمن.

الأمر الثاني: هو ذلكم الدرهم الذي منحه نبينا صلى الله عليه وسلم للقائد عتاب بن أسيد، وأجر يومي؛ لقاء عمله كقائد!

ولنا أن ننظر كفاية درهم واحد لقائد ومن يعول معه! وهذا برهان قناعة ودليل كفاء، ولهذه أمة قد خلت، وحين رأينا الرجل فرحا مسرورا، ولما منح درهما واحدا؛ أجرا عن كل يوم؛ لإدارة منطقة مكة المكرمة!

وهذا الدرهم زنته حوالي ثلاث جرامات شعيرا تقريبا! ولأهل العملات أن يعرفوا قيمته، ووقتنا الحالي!!!

وهذا الذي تنبغي إليه الإشارة، وهو الذي يجب لفت الأنظار إليه. وكيما تعاود أمتنا رشدا، كان عليه أسلافها، وكيما تنظر كم كان عليه رضاء الذين خلوا منهم من قبل، وعفافا، وكفاء.

الأمر الثالث: وعتاب بن أسيد هذا، وهو الذي أسلم، ومن بعد أن كان مشركا لدودا، وحين رفع بلال صوته بالآذان، يوم الفتح المبين، فتح مكة البلد الأمين، قال: لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا [١]. ولما يسمع كلمة الله أكبر!

ولكن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

وهذا هو عتاب بن أسيد، ولما أسلم وجهه لله تعالى، وهو محسن قال: أصبت في عملي الذي استعملني عليه رسول الله بردين معقدين، كسوتهما غلامي

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٤ / ٨٧١

كيسان، فلا يقولن أحدكم: أخذ مني عتاب كذا! فقد رزقني رسول الله كل يوم درهمين، فلا أشبع الله بطناً لا يشبعه كل يوم درهمان! [١] وعتاب بن أسيد هذا هو صاحب العشرين سنة ونيفا من عمره ويم ان ولاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على أهل مكة اهل الله وعلى حد قوله صلى الله عليه وسلم، وحين ولى عتابا، وحين قال: " يا عتاب تدري على من استعملتك استعملتك على أهل الله عز وجل ولو أعلم لهم خيرا منك استعملته عليهم " [٢].

وعن عتاب بن أسيد: أَمَرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُخرَصَ العِنَبُ، كما يُخرَصُ النَّخْلُ، وتُؤخَذُ زَكاتُه زَبيبًا، كما تُؤخَذُ صَدَقةُ النَّخلِ تَمْرًا [٣].

وعتاب بن أسيد هذا كان مشهورا بالأمانة والقوة، وهاتان صفتان عاليتان، ولما تتحدان في العبد وإنما عليهما مدار الإدارة، وهذا يبين لنا كيف كان اختياره صلى الله عليه وسلم لذلكم عبد مميز.

وعتاب بن أسيد هذا هو الذي كان يقول: والله لا أعلم متخلفا عن هذه الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه؛ فإنه لا يتخلف عنها إلا منافق، فقال أهل مكة: يا رسول الله، استعملت على أهل الله أعرابيا جافيا، فقال: إني رأيت فيما يرى النائم أنه أتى باب الجنة، فأخذ بحلقة الباب فقعقها حتى فتح له ودخل. [٤] وعن عطاء أن رسول الله محمد قال لما قرب من مكة: " قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم في غزوة الفتح: إن بمكة لأربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك،

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير: ٧٣٨/١

(٢) المرجع السابق: ٧٣٨/١

(٣) تخريج سنن أبي داود، شعيب الأرناؤوط: ١٦٠٣. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(٤) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني: ج٩/٨٥

وأرغب لهم في الإسلام، قيل: من هم يا رسول اللّه؟ قال: عتاب بن أسيد، و جبير بن مطعم، و حكيم بن حزام، و سهيل بن عمرو [1]. وهذا برهان تزكية ودليل عمل الإسلام في هذا العبد الصالح عتاب بن أسيد رضي الله عنه.

وحين مات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلم أهل مكة بذلكم نبأ ضج أهل المسجد، فبلغ عتاباً فخرج حتى دخل شعباً من شعاب مكة، وسمع أهل مكة الضجيج فتوافى رجالهم إلى المسجد، فقال سهيل: أين عتاب؟ وجعل يستدل عليه حتى أتى عليه في الشعب، فقال: ما لك؟ قال: مات رسول الله، قال: قم في الناس فتكلم، قال: لا أطيق مع موت رسول الله الكلام، قال: فاخرج معي فأنا أكفيكه، فخرجا حتى أتيا المسجد الحرام، فقام سهيل خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه وخطب بمثل خطبة أبي بكر، لم يخرم عنها شيئاً [2].

الأمر الثالث: هو استخلاف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه معلما وفقها لأهل مكة، وجنبا إلى جنب عتاب بن أسيد، رضي الله تعالى عنهما، وهذا برهان آخر، على قيمة عمل الدعوة إلى الله تعالى، وجعل الناس فقهاء بمسائل دينهم، وعدم تجهيلهم، ولأن العلم الشرعي حصن أمام معتركات الأحداث، ومواجهة النوائب.

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، الزمخشري: ١٧٤/٢

(٢) الوافي بالوفيات، الصفدي: ج ١٦ / ١٨

وحج الناس ذلك العام على ما كانت العرب تحج عليه

هذا قول الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى، ويوم أن حج عتاب بن أسيد بالمسلمين، وحين ولاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على مكة، ومن يوم عمرة الجعرانة.

وهذا برهان آخر على أن هذا الدين، وكما قد أنف ذكره من قبل، وإنما جاء ليس ينقض كل ما كان قائما، وإنما جاء لينقض كل ما كان مخالفا لملة إبراهيم حنيفا، ولم يك من المشركين، ولا سيما أن عرب الجاهلية قد كانت فيهم بقية من الشعائر، وقد توارثوها كابرا عن كابر، وإنها لتعود إلى ذلكم المجد الحنيف، مجد ملة أبينا إبراهيم علبه السلام، ولم تشذ مناسك الحج عن هذه القاعدة.

ولكن الذي عليه المدار، هو تحويل النية، وتجديد العقد، على أن كل هذا، وإنما كان لله تعالى العلي الأعلى سبحانه.

وقد مر بنا كثير مما أبقاه الإسلام الحنيف الخالد، وكما هو، ولم يغير منه شيئا، ومن حيث كان موافقا لأصول الملة، ولم يك مخالفا لقواعد الديانة. وها نحن حدثاء عهد بنذر عمر الفاروق رضي الله تعالى، وقد أقره عليه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأمره بالوفاء به.

عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عنْه، أنَّه قالَ: **يا رَسولَ اللَّهِ، إنِّي نَذَرْتُ في الجَاهِلِيَّةِ أنْ أعْتَكِفَ لَيْلَةً في المَسْجِدِ الحَرَامِ، فَقالَ له النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أوْفِ نَذْرَكَ. فَاعْتَكَفَ لَيْلَةً** [١].

ولسنا نغادر هذا المكان إلا ببيان عقود النكاح الأربعة، والتي كانت معروفة في الجاهلية، وقد أقر منها الإسلام الحنيف الخالد ما يتناكح به الناس يومهم هذا، وعلى سنة الله تعالى، وعلى هدي نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

فعن عائشة أم المؤمنين أنَّ النِّكَاحَ في الجَاهِلِيَّةِ كانَ علَى أرْبَعَةِ أنْحَاءٍ: **فَنِكَاحٌ منها نِكَاحُ النَّاسِ اليَومَ: يَخْطُبُ الرَّجُلُ إلى الرَّجُلِ ولِيَّتَهُ أوِ ابْنَتَهُ، فيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا، ونِكَاحٌ آخَرُ: كانَ الرَّجُلُ يقولُ لِامْرَأَتِهِ إذَا طَهُرَتْ مِن طَمْثِهَا: أرْسِلِي إلى فُلَانٍ فَاسْتَبْضِعِي منه، ويَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا ولَا يَمَسُّهَا أبَدًا، حتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِن ذلكَ الرَّجُلِ الذي تَسْتَبْضِعُ منه، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أصَابَهَا زَوْجُهَا إذَا أحَبَّ، وإنَّما يَفْعَلُ ذلكَ رَغْبَةً في نَجَابَةِ الوَلَدِ، فَكانَ هذا النِّكَاحُ نِكَاحَ الِاسْتِبْضَاعِ. ونِكَاحٌ آخَرُ: يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ ما دُونَ العَشَرَةِ، فَيَدْخُلُونَ علَى المَرْأَةِ، كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ ووَضَعَتْ، ومَرَّ عَلَيْهَا لَيَالٍ بَعْدَ أنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أرْسَلَتْ إليهِم، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ منهمْ أنْ يَمْتَنِعَ، حتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، تَقُولُ لهمْ: قدْ عَرَفْتُمُ الذي كانَ مِن أمْرِكُمْ، وقدْ ولَدْتُ، فَهو ابنُكَ يا فُلَانُ، تُسَمِّي مَن أحَبَّتْ باسْمِهِ، فَيَلْحَقُ به ولَدُهَا، لا يَسْتَطِيعُ أنْ يَمْتَنِعَ به الرَّجُلُ، ونِكَاحُ الرَّابِعِ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الكَثِيرُ، فَيَدْخُلُونَ علَى المَرْأَةِ، لا تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا، وهُنَّ البَغَايَا، كُنَّ يَنْصِبْنَ علَى أبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا، فمَن أرَادَهُنَّ دَخَلَ عليهنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إحْدَاهُنَّ ووَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا، ودَعَوْا لهمُ**

---

(١) صحيح البخاري: ٢٠٤٢

القَافَةَ، ثُمَّ أَلْحَقُوا ولَدَهَا بالَّذِي يَرَوْنَ، فَالْتَاطَ به، ودُعِيَ ابْنَهُ، لا يَمْتَنِعُ مِن ذلكَ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالحَقِّ، هَدَمَ نِكَاحَ الجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إلَّا نِكَاحَ النَّاسِ اليَومَ [١].

وأكرر، ولعل الفيصل في ذلكم هو الموافقة لأصول الملة، وقواعد الشريعة من جانب، ومن جانب آخر هو ذلكم الإخلاص لله تعالى العلي الأعلى سبحانه.

ولكن الإسلام قد انتفض، وحين أبطل ما جرت عليه جاهلية القوم يومهم هذا، ولم يبق منه شيئا، ولأنه مخالف لعموم الفطرة، ولأنه مغاير لقواعد الشريعة، ويوم أن كانت المرأة تطوف بالبيت عريانة، ويوم كان يسعى به مشرك، وحين جاء هذا الدين؛ ليكنس الشارع مما ذبل، ويميط الأذى من طريق الناس، وكيما لا يروا إلا طيبا، وكيما لا يبصروا إلا حميدا، وحين أعلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من قيمة الحلال الطيب، وحين أدنى وأسفل من قيمة الحرام الخبيث، وفي إعلان عام للعالمين أنه لا يحج العام مشرك! ولا يطوف بالبيت عريان!

عن أبي هريرة **بَعَثَنِي أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عنْه، فِيمَن يُؤَذِّنُ يَومَ النَّحْرِ بمِنًى: لا يَحُجُّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، ولَا يَطُوفُ بالبَيْتِ عُرْيَانٌ، ويَوْمُ الحَجِّ الأكْبَرِ يَوْمُ النَّحْرِ، وإنَّما قيلَ الأكْبَرُ مِن أجْلِ قَوْلِ النَّاسِ: الحَجُّ الأصْغَرُ، فَنَبَذَ أبو بَكْرٍ إلى النَّاسِ في ذلكَ العَامِ، فَلَمْ يَحُجَّ عَامَ حَجَّةِ الوَدَاعِ الذي حَجَّ فيه النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُشْرِكٌ** [٢].

---

(١) صحيح البخاري: ٥١٢٧

(٢) المرجع السابق: ٣١٧٧

وهذه حيثيات تعود بالناس إلى ما لأجله قد خلقوا، وحين خلقهم ربهم الرحمن سبحانه حنفاء لله تعالى غير مشركين به شيئا، وهذا منضافا إلى ما جاءت به الحنيفية السمحاء من رد الناس عن عمل الشيطان اللعين، وحين أقسم معاندا لله تعالى خالقه وبارئه، ألا يذر أحدا قدر عليه، إلا أن يحيد به عن السوية، ولما حلف غير حانث، وأنه لا يترك نفرا ولا يدع حنيفيا، إلا وآتاه من بين يديه، ومن خلفه، صدا، ومكرا، وإمالة عن الديانة، وميلا عن الفطرة. ومنه قول الله تعالى ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

اتباع لا ابتداع

عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: **دخلت أنا وعُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ المَسْجِدَ، فَإِذَا عبدُ اللَّهِ بنُ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عنْهمَا جَالِسٌ إلى حُجْرَةِ عَائِشَةَ، وإذَا نَاسٌ يُصَلُّونَ في المَسْجِدِ صَلَاةَ الضُّحَى، قالَ: فَسَأَلْنَاهُ عن صَلَاتِهِمْ، فَقالَ: بِدْعَةٌ. ثُمَّ قالَ له: كَمِ اعْتَمَرَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ قالَ: أرْبَعًا، إحْدَاهُنَّ في رَجَبٍ، فَكَرِهْنَا أنْ نَرُدَّ عليه. قالَ: وسَمِعْنَا اسْتِنَانَ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ في الحُجْرَةِ، فَقالَ عُرْوَةُ: يا أُمَّاهُ، يا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، ألَا تَسْمَعِينَ ما يقولُ أبو عبدِ الرَّحْمَنِ؟ قالَتْ: ما يقولُ؟ قالَ: يقولُ: إنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اعْتَمَرَ أرْبَعَ عُمَرَاتٍ،**

إِحْدَاهُنَّ فِي رَجَبٍ، قالَتْ: يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا عبدِ الرَّحْمَنِ، ما اعْتَمَرَ عُمْرَةً إِلَّا وهو شَاهِدُهُ، وما اعْتَمَرَ فِي رَجَبٍ قَطُّ[١].

وهذا حديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، مناسبة يوم عمرة الجعرانة، وهو يبين كم كان حرص الناس على الاتباع، وكم كانت منابذتهم للابتداع، وحين عرفوا أن صلاة الضحى سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، وأن نعم، ولكنهم لم يعهدوا عنه أنه صلاها جماعة، وفي المسجد، وإذ إنه الأصل، وأن تصلى النوافل في البيوت، وعلى فرض أنها وإذا أديت في المسجد، فلا جماعة لها.

وهذا نظام هذا الدين، يقف بالناس، وعند الهدي، ويربأ بالناس ألا يحيدوا عن ذلكم الرشد، ولأن الحيدة- ولو لمرة- واحدة سبيل الشيطان إلى الحيدة الواسعة، وحين يتسع الراقع على المرقوع، وحينها ليس يجد الناس هديا به يهتدون، ويومها ليس يحرصون على سنن به يستنون، ولأنه ما ظهرت بدعة إلا وأميطت من سبيلها، ومن محلها سنة.

وهذا أصل عام، جاءنا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قال: مَن أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هذا ما ليسَ فِيهِ، فَهو رَدٌّ [٢].

ولما كانت آفة القوم هي الاستحسان، وحين كان هذا الاستحسان ومن معناه اللازم، هو ذلكم الاستدراك على الله تعالى! والله تعالى ليس يستدرك عليه! وهذه خيبة فاعل ذلكم، وتلكم شاردة كل هالك، وحين يستدرك على الله تعالى!

---

(١) صحيح البخاري:١٧٧٥

(٢) صحيح البخاري: ٢٦٩٧

وهذا أمر ذو بال، ويجب إحاطته بأساور الحق والإذعان، وحين وجب وألا ينقل أحدنا قدما عن قدم وإلا بسنن، ولما يخطو أحدنا خطوا واحدا، وإلا بهدي، ولأن الناس قالوا لنا، ونقلوا أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ما مات إلا وترك لنا من كل شيء علما، وحتى الطائر يرفرف بجناحيه في السماء، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا بين لكم)) [1].

وعن أبي ذر قال: تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علما [2].

وعمرو عن المطلب مرفوعا بلفظ: ما تركت شيئا مما أمركم الله به إلا قد أمرتكم به وما تركت شيئا مما نهاكم عنه إلا قد نهيتكم عنه [3].

ومنه لزم التعبد بما هو موجود، ومنقول عن هذا النبي، وبما أوحى إليه من كتاب ربه، وأن يتبعهما، وحينها ليجدن ذات نفسه مستغنية عن بدعة، ولْيَرُومَّنَهَا منتهية عن استحسان، وحين علمت ومرة أخرى ومرات أن هذا الاستحسان معناه: الاستدراك على الله تعالى العلي الأعلى سبحانه!

---

(١) رواه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٥٥/٢). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٢٦٦/٨): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة. وقال الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (١٨٠٣): إسناده صحيح رجاله ثقات.

(٢) السلسلة الصحيحة، الألباني: ٤١٦/٤

(٣) المرجع السابق: ٤١٦/٤

وإلا أن هذا الحديث العظيم الشأن، والعظيم القدر، وإذ يعالج لنا مسألة عدد العمرات، التي أداها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد عالجناه في حينه. والله الهادي.

منَّ رسول الله ﷺ على السبي

هذا قول عبد الله بن عمر، وردا على والده عمر الفاروق رضي الله تعالى عنهما، وحين رأى سبي المسلمين، ومن غزوات حنين وأوطاس ويوم الطائف معا، ولأن هذه الغزوات الثلاث كانت بمثابة عنوان واحد لفصل واحد من فصول هذه السيرة المباركة، وإن تمايزت كل منها بوحدتها الموضوعية المستقلة، وليخبره بما علم، وأن هذا النبي العربي الأمي الكريم صلى الله عليه وسلم كان من الرحمة ما بلغ بها وسعها، وكان من العفو ما أشرقت له شمس الإسلام وعم ضحاه، وورفت ظلاله، وخيم على الناس ريها.

وأن يصدر عفو عام من القائد الأعلى للقوات المسلحة الإسلامية، فإن هذا عمل تربوي تدريبي لمن هم سواه؛ ولأن القدوة الحسنة وإنما يترسم الهداة سبيلها، وهذا الذي حدث يوم ذلك، وحين علم الفاروق عمر، وإلا وسرعان ما أمر ابنه عبد الله أن يطلق جاريتين، كان قد نالهما، حظا ونصيبا، ومن قسمة يوم الجعرانة.

وهذا الذي نركز عليه أمرنا، وإذ ما كان يجد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بابا لإعتاق جارية إلا فتحه، وما كان يلفى ولو ثقبا لتحرير رق إلا أعمله وفعله صلى الله عليه وسلم.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن نافع مولى ابن عمر: **أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عنْه قالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّه كانَ عَلَيَّ اعْتِكَافُ يَومٍ في الجَاهِلِيَّةِ، فأمَرَهُ أنْ يَفِيَ به، قالَ: وأَصَابَ عُمَرُ جَارِيَتَيْنِ مِن سَبْيِ حُنَيْنٍ، فَوَضَعَهُما في بَعْضِ بُيُوتِ مَكَّةَ، قالَ: فَمَنَّ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علَى سَبْيِ حُنَيْنٍ، فَجَعَلُوا يَسْعَوْنَ في السِّكَكِ، فَقالَ عُمَرُ: يا عَبْدَ اللَّهِ، انْظُرْ ما هذا؟ فَقالَ: مَنَّ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علَى السَّبْيِ، قالَ: اذْهَبْ فأرْسِلِ الجَارِيَتَيْنِ، قالَ نَافِعٌ: ولَمْ يَعْتَمِرْ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الجِعْرَانَةِ ولَوِ اعْتَمَرَ لَمْ يَخْفَ علَى عبدِ اللَّهِ. وزَادَ جَرِيرُ بنُ حَازِمٍ، عن أَيُّوبَ، عن نَافِعٍ، عن ابْنِ عُمَرَ، قالَ: مِنَ الخُمُسِ، ورَوَاهُ مَعْمَرٌ، عن أَيُّوبَ، عن نَافِعٍ، عن ابْنِ عُمَرَ: في النَّذْرِ ولَمْ يَقُلْ يَومٍ.** [١].

وعن صفوان بن يعلى بن أمية أتى يَعْلَى قالَ لِعُمَرَ رَضيَ اللهُ عنه: **أَرِنِي النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حِينَ يُوحَى إلَيْهِ، قالَ: فَبيْنَما النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالجِعْرَانَةِ ومعهُ نَفَرٌ مِن أَصْحَابِهِ، جَاءَهُ رَجُلٌ فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، كيفَ تَرَى في رَجُلٍ أَحْرَمَ بعُمْرَةٍ وهو مُتَضَمِّخٌ بطِيبٍ؟ فَسَكَتَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سَاعَةً، فَجَاءَهُ الوَحْيُ، فأشَارَ عُمَرُ رَضيَ اللهُ عنه إلى يَعْلَى، فَجَاءَ يَعْلَى وعلَى رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثَوْبٌ قدْ أُظِلَّ به، فأدْخَلَ رَأْسَهُ، فَإِذَا رَسولُ اللَّهِ صلَّى**

---

(١) صحيح البخاري: ٣١٤٤

اللهُ عليه وسلَّمَ مُحْمَرُّ الوَجْهِ وهو يَغِطُّ، ثُمَّ سُرِّيَ عنه، فَقالَ: أَيْنَ الذي سَأَلَ عَنِ العُمْرَةِ؟ فَأُتِيَ برَجُلٍ، فَقالَ: اغْسِلِ الطِّيبَ الذي بكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،وانزع عَنْكَ الجُبَّةَ، واصْنَعْ في عُمْرَتِكَ كما تَصْنَعُ في حَجَّتِكَ. قُلتُ لِعَطَاءٍ: أَرَادَ الإنْقَاءَ حِينَ أَمَرَهُ أَنْ يَغْسِلَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؟ قالَ: نَعَمْ (١) .

هذا حديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، وهو فصل فقهي جديد، ومن دروس هذه السيرة النبوية العملية المباركة. وحين طلب هذا الصحابي الكريم يعلى بن أمية، أن يرى نبينا صلى الله عليه وسلم، وحين ينزل عليه الوحي، وحين جاء وليجد هذا النبي الأمي العربي الكريم صلى الله عليه وسلم وناشرا ثوبه، وعلى هيئة مظلة؛ ليظلل معه أصحابه، ممن كواهم الحر من شدته، وممن آذاهم القيظ من لوعته.

وهذا برهان رحمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولطالما قد تحدث الناس عنها، ومن حيث قد تولى القرآن الكريم الحديث عنها، ومن باب موسع، وفي آيات بينات كثر، بينت وأنبأت عن كم كان خلق هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

وحين دخل يعلى بن أمية، وعليه أثر طيب من ثوبه وعباءته، وإذ كان هذا النبي صلى الله عليه وسلم نفسه يعمل، ولا يعمل إلا بوحي، وبرهان ألا يعمل أحدنا أو أن يفعل أو يقول إلا بوحي أيضا، وعند هذا الحد سيجد أحدنا أن دائرة قد ضاقت، ومن بعد اتساع خرقها. وهي دائرة هذا الخلاف، وحين كان مستندا إلى عقل لا نقل.

---

(١) المرجع السابق: ١٥٣٦

وحين سري عنه صلى الله عليه، وليبين للرجل فقه سؤاله، وأنه عليه أن يغسل الطيب من جبة أو ثوب أو جسد، ومن بعد إحرامه، وألا يحرم إلا في غير مخيط، كأصل عام، وألا يطيب، ومن بعد إحرامه، وأما قبل لبسه إحرامه فله تطييب جسده، وبما تيسر من طيب.

وغسل هذا الطيب ثلاث مرات، وللإنقاء، ونزع المخيط، وكالجبة، أو العباءة، والثوب، وما خلا ذلك، ومن ثم فله أن يعتمر، أو أن يحج، ولأن مفسدات العمرة هي نفسها مفسدات الحج.

ولكن هذا النبي أيضا، وكما من رحمته، وقد أظل أصحابه في ثوبه، ومن لهيب حرارة الشمس، وإلا أنه صلى الله عليه وسلم أيضا كشف لنا، وعن حسن خلقه المعهود، وحين لم يعنف يعلى بن أمية هذا، أو أن يمسه بسوء، أو أن يلقي على مسامعه بلفظ آخر، وإذ ليس ذلك من شيم هذا النبي صلى الله عليه وسلم. بل تعليم من رفق، وبل فقه في سمو أخلاق، ونبل الشيم، وكريم القيم.

دعه عنك، فإنه جاء تائبا نازعا

هذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين جاء كعب بن زهير بن أبي سلمى -الشاعر الجاهلي المعروف- مسلما تائبا نازعا.

وهذا وصف مركب، يحمل من الرحمة وسعها، ويتحامل بالرأفة أضعافها، وإذ تساقط كلتاهما ومن بين جنباته، ولما كان هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم ممهورا برحمة، لان للناس أجمعين بها، ولو كان فظا غليظ القلب لنفضوا

من حوله، ولكنه وهكذا يكون الدعاة العاملون إلى الله تعالى، رحماء رؤفاء كرماء، وإذ يجري عفوهم من بين عروقهم، وإذ ينهمر صفحهم، ومن بين شفاههم، وصلى الله على نبينا محمد وسلم أزكي سلام، وأفضل صلاة، ولما كان وهكذا معين رحمة ورأفة معا، سحاء غدقا.

ولكن كعب بن زهير هذا، وحين جاء متخفيا وليأخذ الأمان من النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه من معنى الإجارة، وحين أمر الله تعالى بإجارة أحد من آحاد المشركين، وحين طلبها، وليسمع كلام الله تعالى، ومن ثم نبلغه مأمنه، دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا، ولم يك من المشركين.

ولكن هذه ليست من معنى الإجارة في جانبها الآخر، ولما أتى كعب بن زهير مسلما، فجمع بين أسباب لإجارته:

السبب الأول: كونه جاء طالبا الأمان، وهذا فيه معنى إجارة، ومن وجه.

السبب الثاني: كونه جاء مسلما تائبا نازعا، وهذا يمنحه أمانا آخر ضافيا، ولما عاد إلى الخير والهدى والصلاح والفلاح، وإذ كان نظاما أن يستقبل برحمة، وإذ أضحى إلفا وشرعا أن يمنح أمانه.

وثمة سبب ثالث: وهذه إشاعة إعلامية في الفضاء الواسع، وأن هذا النبي يعفو، ويصفح، وعمن جاءه، وهذا تشجيعا لأغيار أن يأتوا، وهكذا استدعاء للآخرين، أن يسارعوا إلى الخيرات، ويسابقوا إليها. وهذا هو الذي أشاعه أخوه لأبويه بجير بن زهير، وأن هذا النبي وإن كان يقتل من هجاه، وإلا أنه يصفح ويعفو عمن أتاه، وطالبا عفوه، وسماحته، ورضاه، ولما يعلن توبته، وإسلامه، وهداه.

ولكننا أيضا نقف عند هذا الأنصاري، وحين طلب من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يقتل كعب بن زهير هذا، ولسوابقه في هجاء النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذه وعلى كل حال منقبة لأولاء الصحب الكرام، ولما كانت هذه غيرتهم على نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، ولما أضحوا هكذا متفاعلين مع دينهم، وإيمانهم، وإسلامهم.

ولكننا أيضا نقف على نهيه صلى الله عليه وسلم هذا الأنصاري، وفي غير نهرة، ودونما شدة، بل بحلم عنه كان معهودا، وبل بعفو كان عنه معروفا، صلى الله عليه وسلم.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى وحيث قال: ولما قدم رسول الله ﷺ من منصرفه عن الطائف، كتب بجير بن زهير بن أبي سلمى إلى أخيه لأبويه كعب بن زهير، يخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه، وأن من بقي من شعراء قريش؛ ابن الزبعري، وهبيرة بن أبي وهب، هربوا في كل وجه. فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض.

هذا وصف مجيء كعب بن زهير وحين قام إلى رسول الله ﷺ فجلس إليه، ووضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما فهل أنت قابل منه إن جئتك به؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فقال: إذا أنا يا رسول الله كعب بن زهير. قال ابن إسحاق:

فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه: وثب عليه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، دعني وعدو الله أضرب عنقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «دعه عنك، فإنه جاء تائبا نازعا» [1] .

«ألا تريحني من ذي الخلصة؟»

هذا حضٌّ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم للصحابي الكريم جرير بن عبدالله البجلي رضي الله تعالى عنه، وهذه إجابة جرير ودونما تأخير، وهذا بذل هذا الجيل الكريم الأبي الفريد، وهذا عمل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: حماية للعقيدة، وتثبيتًا للتوحيد، وإشاعة له، وبثًّا له في أرجاء الجزيرة، وها هو يتجشم للخروج إلى اليمن، ولتكون للإسلام هناك اليد الطولى، ومن بعد كنيسة القليس، وحين يتحطم ذو الخلصة على أعتاب الحق والعدل، واللذين جاء بهما هذا الحنيف الخالد الدين الجديد.

وأعالجه في مسائل عشر هي:

المسألة الأولى: ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [الزمر: ٢٩].

ومناسبته أن بيتًا كان في اليمن يقال له ذو الخلصة، وكانت فيه أصنام من حجر، وإذ كان الناس يعبدونها من دون الله تعالى، وإنما كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد أرسله ربه تعالى؛ لتحطيم الأصنام صورة ومعنى، ومن القلوب ومن الجوارح والأبدان معًا، ولأن الإسلام له جولات ناجحة فاعلة في هذا الجانب،

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣ / ٦٩٩

وأنه وحينما يكسر صنمًا، ولا يدفع عن نفسه، فذلكم هو البرهان على البطلان المطلق، لا النسبي، لهذا عفن عقدي، كان معششًا في أدمغة القوم يومهم هذا، وهذا الذي جاء الإسلام لتحرير الإنسان كل الإنسان من ربقته، وألا يعبد إلا مولاه الله تعالى الخالق البارئ المصور، وإزالة كل عوالق الشرك من طريق الناس، وكيما ينتقل الناس من رين العبودية المقيتة لحجر أو صنم أو معبود آخر اتخذ صفة الألوهية من دون الله تعالى، وإلى عبوديتهم لربهم الرحمن وحده، وفي هذا تكريم أيما تكريم لهذا الإنسان، وحين جعل معبوده واحدًا هو الله تعالى العظيم الجبار المتكبر، سبحانه وتعالى عما يصفون، ولأن الإنسان وحين تتجاذبه الآلهة المدَّعاة، ومن حين إلى آخر، تراه منكسًا حزينًا أليمًا مهينًا مهمومًا، مكسورًا خاطره، مطأطأً رأسه، وحين تتقاذفه هذه الآلهة مرة إلى هؤلاء، ومرة أخرى إلى هؤلاء، وليمزقوه هو ذلكم الإنسان كل ممزق.

وألم تر كيف كان قول ربنا الرحمن سبحانه، وفي هذا الشأن ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٢٩]؟!

وهذا الذي نراه، وكل آن، وحين يكون العبد أسيرًا لأولاء آلهة أخرى، قد سلكت به سبل المهالك، وقد أردته أسير أهوائها، وحبيس ضلالها.

المسألة الثانية: لطف العبارة وبراعة الإشارة

ولكن الذي نستشرفه هو ذلكم الخلق الحميد لهذا النبي العربي الأمي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم؛ وهو ذلكم أسلوبه البارع، المتميز، المبدع، في توجيه العبد الصحابي جرير بن عبد الله البجلي، وحين جاء على صيغة الحض،

لا الأمر المباشر، وهذا بيان كيف يمكن استدعاء طاقات المبادرة، والمشاركة، والمسارعة، إلى البذل، وبعبارات الحض، وحين قولنا (أَلَا)، أو العرض، وحين قولنا(هَلاَّ)، ودون أوامر الحسم، وغير قوالب الجزم، الإلزاميين.

المسألة الثالثة: من أعمال السيادة

ولكن الذي نستشرفه أيضًا هو ذلكم الفقه في التغيير، وأن إزالة ذي الخلصة، وإنما يكون بقرار سيادي، وتحسب له حساباته جيدًا، ولأن الله تعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن الكريم.

ولكن الذي نهتديه أيضًا ونسترشده، هو ذلكم الواجب في دكِّ قلاع الكفران، وهو ذلكم العزم في خلع الأنداد والشُّركاء والنُّظراء، وبتحطيم فلول الشرك ورؤوسه، وجعل ذلكم آية وعبرة، واسألوهم إن كان ينطقون! وحين قص الله تعالى سيرة من وليِّه ونبيه أبينا إبراهيم عليه السلام، سننًا حسنًا، وهديًا مجيدًا، فقال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٣].

وذلكم هو فعل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نفسه، ويوم كان الفتح المبين، فتح مكة المكرمة البلد الأمين، وحين دخل الكعبة المشرفة، وإذ أخذ يكسر أصنام قريش صنمًا، ومن بعده صنم آخر، وهو إذ كان يتلو قول الله تعالى الحق المبين: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١].

ولكن هديا نترسمه، وذلكم سبيل ندعو إليه، ولأنه يحقق الآيات، وبوسائلها المقتدرة على الحل المنتهض، والجامع للخير أبدًا، والمانع للشر أبدًا.

وذلك لأن استجماع الراعي لما استرعاء مولاه، ولما نصبه خليفته في أرضه، وإنما تكون أولى مهامه، هي اتخاذ الوسائل الممكنة شرعًا، في تعبيد الناس لله تعالى ربهم الحق، وليس يكون ذلكم وعلى وجهه، وإلا بتحطيم الآلهة الأخرى المدعاة، وتطهير الشارع الإسلامي من هكذا رين غطى على القلوب، وليحل نور الهدى، ودين الحق، وليشرق ومن بعد ظلام حل، ومن إثر ضلال طم، وهذا الذي جاء به خليفة الله تعالى في الأرض، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولتكون أول مهامه، ومن بعدها تسهل مهام أُخَر.

ولكن قيام الراعي بهذه المهمة الأصيلة يمنع أيضًا من التعدي، وجعل الناس يعارك بعضهم بعضًا، ولربما حدثت فتنة، يتكاثر على الجميع شرارها، ومن هنا كان هذا التغيير أصالة، ومن عمل الولي، ونيابة ومن عمل جرير بن عبد الله البجلي رضي الله تعالى عنه.

المسألة الرابعة: حسن الاختيار وبراعة التكليف

ولكن اختيار نبينا محمد صلى الله عليه وسلم جرير بن عبد الله البجلي لهكذا مهمة، كان موجب تأمل، وحين كان منتسبًا إلى أولاء قوم، كانوا يعبدون ذا الخلصة! وهذا برهان اختيار الموظف العام لأداء مهماته، وحين أمكن أن يكون من بين ظهراني قومه، أو على الأقل منتسبًا إليهم، وليفعل فعله، وعن قبول، أو أقله، ودون خسار، أو أدناه!

وهذا فن إداري، ولطالَما كان عهدًا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن حيث كان سننًا لرسول محمد صلى الله عليه وسلم أيضًا.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم:٤].

المسألة الخامسة: القوة التنفيذية المساندة

ولكن الذي نستدعيه أيضًا، هو ذلكم الاستعداد لأداء هذه المهمة، وحين أرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم جريرًا بن عبد الله البجلي، صحبة جيش فرسانًا، ولم يكن فيهم راجل واحدٌ، برهان إعداد القوة التنفيذية الملائمة للحدث، ولعلاج الحدث، بأمهر الوسائل، وبأدق الفنون التنفيذية الممكنة، وحين جعل احتمال المواجهة قائمًا، ولوأدها من مهدها، فيستيقظ الناس على هدم أصنامهم، ومن ثم يوقظون من غفلة كفرهم، إلى شروق يوم إسلامهم لله تعالى ربهم، وهذا فن إداري ممتاز.

المسألة السادسة :﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦].

وإذ كَانُوا أصْحَابَ خَيْلٍ، وهذا الذي نقف عليه، ومن أداء المهمات، وعلى وجهها، فلابد من إيقاع الاختيار على ثلة مؤمنة واعية لمهامها، ومدركة لوظائفها، ولإمكان تأديتها عملها، وعلى وجهها الحسن.

وإن ما أصاب الجهة الإدارية من خلل، هو ذلكم إيكال مهامها إلى غير قدير، وهو ذلكم إسناد وظائفها إلى غير جدير!

وهذا الذي أشار إليه القرآن المجيد، وهو الذي وجَّه إليه الذكر الحكيم، وحين جعل القوة، وهي الثقة بإمكان أداء العمل، وعلى وجهه، ومن أمانة وهي

إمكان أدائه، مستفرغًا جهده، ما أمكنه ذلكم، وعلى وسعه أيضًا، وكل ذلكم مما قاله الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص:٢٦].

المسألة السابعة: قيمة المرأة في هذا الدين

ولكن هذا قول امرأة من نساء المسلمين! وحين بلغت من الرشد إن كان قولها صوابًا، وإن لم يكن فيه حرف واحد معابًا! ولما كان رأيها سدادًا، ولما بلغت من الحكمة قَعْرَها، ومن الفطنة غَورَها، وحين أنزله الحكيم في القرآن الحكيم، وعن لسانها، وكما قالت!

وهذا برهان الإعداد الجيد للمرأة المسلمة، وفي مَحضن تربيتها الأولى، وهو ذلكم البيت المسلم الرشيد الهني الأبي، وليخرج هكذا جيلًا نسائيًّا قادرًا على معرفة المتناقضات وتمييزها، ومن ثم يكون ماهرًا في إدراك المتآلفات، فيقعدها ويبسطها، وليخرجها لنا، وهكذا في ثوب الحكمة الباهر، المختصر، المبسط، والناطق بأصول العمل الفذ، الكريم، النجيب، الأريب، الأديب، ومرة أخرى، وكما أنزله الله تعالى في كتابه المجيد، وكما قالت هي، ودونما تغيير أو تبديل أو تعديل.

وهذا الذي أرتئيه، ومن صدق ربي الرحمن سبحانه، ولأنه تعالى قوله الصدق، ولكنه تعالى أيضًا، وإذ كان الصدق قوله أيضًا سبحانه، ولَما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا ﴾ [النساء:١٢٢]، وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٨٧].

وبه دل على أنه تعالى أنزل قولها في قالب آية من آياته، وكما هو معهود من سيرة هذا الكتاب المجيد، وحين سطَّر لنا أمجاد فريق من نساء العالمين مدحًا وثناءً، وكما هو حال امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وعليهما السلام، وحين قال الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَب ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ التِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾[التحريم: ١١و١٢].

وهذا مرة أخرى أيضًا هو جامعة تخريج نسائنا، ولما كانت إحداهما تخاطب والدها بأسلوب الأدب الجم الرفيع الحسن الحميد، وحين اقشعرَّت الأبدان، ومن أدبها، وحين عجز اللسان، وعن وصفها وخلقها، وأدبها، وحكمتها، وبيانها، وفي قرآن يتلى إلى يوم الدين!

وأما عن استفراغ الجهد وسعه وطاقته، وهو كما قال الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقال تعالى أيضًا: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن:١٦].

المسألة الثامنة: علم النبوة في إعداد القادة

ولكن جريرًا وإذ كان لا يحسن الفروسية، وحين دعا له النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ثم ليثبت على ظهر فرسه، ويصبح فارسًا مغوارًا، وإلى أبد دهره، وكامل عمره.

وهذه بركات النبوة، وهذه دلالات الرسالة، وهذه منح الولاية، وحين يجعل الله تعالى عبدًا مباركًا، يكون مستجاب الدعوة فيهم، ويثبت، ويطمئن، ويركن، ويزداد إيمانًا مع إيمانه.

وهذا برهان إسناد العمل الإداري، ولمن يستشرف منه أداؤه من حسن، أول الأمر، ومن ثم متابعته، ومساعدته، وتأهيله، وكيما يتخرج، وعن قريب، عمادًا للجهة الإدارية، وإذ كان هو المحرك الأساس لها، وحين كانت لديه مقومات العمل الباهر، والأداء الماهر، ومن نظرات قائده، ومن اختيارات رئيسه، ومن مساعدة زملاء العمل الوظيفي، والحقل المهني، ولما يمنحه من التفويض، ما يساعد على تخريج قاعدة متينة لقيادة العمل، ومن بعده، أو في وجوده معًا.

وإذ لم يولد أحد خبيرًا!

ودوننا تاريخنا كله، وحين كانت مدارس الخريجين، وفي كل فن على يديه، وحتى بلغ صيتها الآفاق، وحين سمع بصداها كل ناد.

المسألة التاسعة: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ [فاطر: ١٤].

ولكن جريرًا كان ماهرًا أيضًا، وحين حطم ذا الخلصة، وها هو حطام، وهشيم، وها هو مخلى من قوة حسية! وأخرى معنوية! وليظهر للناس ذلكم

التطهير العقدي، وبإزالة هذا الوحل الجاهلي، وحين رأوا بأنفسهم لا نقلًا عن أحد، وأن الذين يعبدهم الناس من دون الله تعالى ربهم الحق ما يملكون من قطمير، وأنهم لا يسمعون دعاءهم، وأنهم ولو سمعوا ما استجابوا لهم، وأنهم ويوم القيامة يكفرون بشركهم، ولا ينبئك مثل خبير، وهذا هو قول الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر:١٤].

المسألة العاشرة: السلطة التقديرية للموظف

ولكن جريرًا بن عبد الله البجلي قد توسع في صلاحياته، وحين وجد رجلًا متخذًا أزلامه وأمامه! وليأخذه في طريقه تهديدًا، وإما أن يكسر أزلامه، ويسلم، وإما أن يقتله، وفيه جواز إعمال السلطة التقديرية للموظف العام، وليس في هذا تعد للأوامر الصادرة من جهة الإدارة، وليس فيه تعسف في استخدام السلطات المخولة.

ويكأنها مناسبة لبيان بعض من ذلكم، وحين أُصيب دولاب العمل الإداري بالشلل، أو قريبًا منه، وحين يتعسف قائده، وبإلزام مرؤوسيه، بالتزام قرار الجهة الإدارية، وكأنما هو القول الفصل وحده، أو كأنما وقد أحاط به كله، أو كأنما كان في الميدان، يعرف شماله، وجنوبه، وشرقه، وغربه، وإحداثيات مواقعه شبرًا شبرًا، ومنه وجبت طاعته، وبحذافيرها!

ولكن هذا الاتجاه هو الذي ليس يقيم للمؤسسة صُلبًا، وإذ تظل دائرة حول نفسها، وكدوران الرحى! لا تطحن بُرًّا، ولا تعجن خبزًا! ولربما أصابها الشلل،

أو لربما قد سقط بنيانها، وانهار عمادها، ويوم أن كانت قرارات قيادتها جامدة، لا روح فيها! وإذ تزداد المهلكة، وحين كانت، ولا سند لها!

إن الذي يمهر ويؤذن الجهة الإدارية بقرب سقوطها، هو ذلكم المسار الجامد المتهرئ، وحين تظل قراراتها جامدة خالية من سلطات تقديرية للموظف، وإذ كانت محلاة بمرونة تُمكنه من الأداء العالي السامق الرفيع، ولأنه أداة الجهة الإدارية، وسلاحها النافذ، وحين منح من صلاحيات، ولما أطلق عنانه للابتكار والتميز والمبادرة.

ولكن متخذ أزلامه أسلم، وتحت تهديد جرير، وإما إسلامه، وإما قتله.

ولكن جريرًا وحين حطم ذا الخلصة هذا، أرسل بشيرًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليبشِّره بأداء مهمته، ونجاح سريته، وفيما أوكل إليها من مهام، جواز البشرى بعمل صالح.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قال لي رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: **أَلَا تُرِيحُنِي مِن ذِي الخَلَصَةِ؟ فَقُلتُ: بَلَى، فَانْطَلَقْتُ في خَمْسِينَ ومِئَةِ فَارِسٍ مِن أَحْمَسَ، وكَانُوا أَصْحَابَ خَيْلٍ، وكُنْتُ لا أَثْبُتُ علَى الخَيْلِ، فَذَكَرْتُ ذلكَ للنَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَضَرَبَ يَدَهُ علَى صَدْرِي حتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ يَدِهِ في صَدْرِي، وقالَ: اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ، واجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا، قالَ: فَما وقَعْتُ عن فَرَسٍ بَعْدُ، قالَ: وكانَ ذُو الخَلَصَةِ بَيْتًا باليَمَنِ لِخَثْعَمَ وبَجِيلَةَ، فيه نُصُبٌ تُعْبَدُ، يُقَالُ له: الكَعْبَةُ، قالَ: فأتَاهَا فَحَرَّقَهَا بالنَّارِ وكَسَرَهَا، قالَ: ولَمَّا قَدِمَ جَرِيرٌ اليَمَنَ، كانَ بهَا رَجُلٌ يَسْتَقْسِمُ بالأزْلَامِ، فقِيلَ له: إنَّ رَسولَ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هَاهُنَا، فإنْ قَدَرَ عَلَيْكَ ضَرَبَ**

عُنُقَكَ، قالَ: فَبيْنَما هو يَضْرِبُ بهَا إذْ وقَفَ عليه جَرِيرٌ، فَقالَ: لَتَكْسِرَنَّهَا ولَتَشْهَدَنَّ: أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، أوْ لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ؟ قالَ: فَكَسَرَهَا وشَهِدَ، ثُمَّ بَعَثَ جَرِيرٌ رَجُلًا مِن أحْمَسَ يُكْنَى أبَا أرْطَاةَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُبَشِّرُهُ بذلكَ، فَلَمَّا أتَى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ، ما جِئْتُ حتَّى تَرَكْتُهَا كَأنَّهَا جَمَلٌ أجْرَبُ، قالَ: فَبَرَّكَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علَى خَيْلِ أحْمَسَ ورِجَالِهَا، خَمْسَ مَرَّاتٍ[١].

---

(١) صحيح البخاري:٤٣٥٧

مراجع الجزء الثالث

حسب ورودها في المجلد

١- الكامل في التاريخ، ابن الأثير.
٢- صحيح البخاري.
٣- تاريخ الطبري، الطبري.
٤- صحيح النسائي، الألباني.
٥- السيرة النبوية، ابن هشام الحميري.
٦- عيون الأثر، ابن سيد الناس.
٧- البداية والنهاية، ابن كثير.
٨- صحيح أبي داود، الألباني.
٩- صحيح مسلم.
١٠- نخب الافكار، العيني.
١١- غاية المرام، الألباني.
١٢- صحيح ابن حبان.
١٣- سنن الترمذي.
١٤- صحيح ابن ماجه، الألباني.
١٥- تخريج مشكل الآثار، شعيب الأرناؤوط.
١٦- النووي على مسلم.
١٧- شرح علل الترمذي، ابن رجب.
١٨- فتح الباري، ابن حجر: ٤٦٢/٨، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.
١٩- معالم السنن، الخطابي.
٢٠- فقه السيرة، الألباني.
٢١- السلسلة الضعيفة، الألباني.

٢٢- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير.

٢٣- الروض والحدائق في تهذيب سيرة خير الخلائق، علي بن محمد البغدادي. المتصوف/الخازن

٢٤- الكشاف، الزمخشري.

٢٥- كتاب الخراج لأبي يوسف.

٢٦- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير.

٢٧- كتاب مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور.

٢٨- مسند أحمد، ت: أحمد شاكر.

٢٩- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر.

٣٠- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر.

٣١- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني.

٣٢- صحيح الترمذي، الألباني.

٣٣- سنن أبي داود، تحقيق الألباني.

٣٤- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ابن سيد الناس.

٣٥- تخريج أحاديث المصابيح، محمد المناوي.

٣٦- الدر المنثور، السيوطي.

٣٧- تخريج صحيح ابن حبان، شعيب الأرناؤوط.

٣٨- مجمع الزوائد، الهيثمي.

٣٩- ضعيف ابن ماجه الألباني.

٤٠- السنن الكبرى للبيهقي.

٤١- الزواجر، الهيثمي المكي.

٤٢- دلائل النبوة للبيهقي.

٤٣- المصنف، عبد الرزاق الصنعاني.

٤٤- بداية السول، الألباني.

٤٥- الطبقات الكبرى، ابن سعد.
٤٦- الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي.
٤٧- عارضة الأحوذي، أبو بكر بن العربي المالكي.
٤٨- صحيح الجامع الألباني.
٤٩- كشف الخفاء، العجلوني.
٥٠- تخريج مشكاة المصابيح، الألباني.
٥١- ضعيف أبي داود، الألباني.
٥٢- مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل.
٥٣- شرح ثلاثيات المسند، السفاريني الحنبلي.
٥٤- الحاوي الكبير،
٥٥- والمجموع، النووي.
٥٦- والمغني، ابن قدامة.
٥٧- بدائع الصنائع، أبو بكر الكاشاني.
٥٨- المبسوط، السرخسي.
٥٩- حاشية الطحطاوي على الدر المختار.
٦٠- المستدرك، الحاكم النيسابوري.
٦١- التلخيص، الذهبي.
٦٢- لسان الميزان، ابن حجر.
٦٣- در السحابة، الشوكاني.
٦٤- تغليق التعليق، ابن حجر العسقلاني.
٦٥- الثقات، ابن حبان.
٦٦- مجلة البيان: (٢٨/٠٤/٢٠٢٠).
٦٧- كتاب شرح سنن أبي داود، عبد المحسن العباد.

٦٨- نيل الأوطار، الشوكاني.
٦٩- كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، التقي الفاسي.
٧٠- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزية.
٧١- شرح معاني الآثار، الطحاوي.
٧٢- تاج العروس، الزبيدي.
٧٣- حياة الحيوان الكبرى، الدميري.
٧٤- تخريج سير أعلام النبلاء، شعيب الأرناؤوط.
٧٥- الإبانة الكبرى، ابن بطة.
٧٦- الصحيح المسند، الوادعي.
٧٧- حلية الأولياء، أبو نعيم.
٧٨- الخصائص الكبرى، السيوطي.
٧٩- نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري.
٨٠- أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، علي محمد الصلابي.
٨١- لسان العرب، ابن منظور.
٨٢- شرح السنة، البغوي.
٨٣- صحيح سنن أبي داود، الألباني.
٨٤- السلسلة الصحيحة، الألباني.
٨٥- الفتاوي الكبرى، ابن تيمية.
٨٦- المغني، عبد الله بن قدامه.
٨٧- مجموعة الرسائل والمسائل: ابن تيمية.
٨٨- فتح القدير، الشوكاني.
٨٩- حكم زواج المتعة، دار الإفتاء، الأردن، رقم الفتوى: ٤٢٠
٩٠- اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية.
٩١- كتاب فتاوى ورسائل، محمد بن إبراهيم آل الشيخ.

٩٢- تصحيح العقائد، الألباني.

٩٣- كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي الحنبلي.

٩٤- كتاب شرح زاد المستقنع - أحمد الخليل.

٩٥- إتحاف الخيرة المهرة، البوصيري.

٩٦- تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي.

٩٧- المغازي، الواقدي.

٩٨- الروض الأنف، السهيلي.

٩٩- معرفة الصحابة، أبو نعيم.

١٠٠- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني.

١٠١- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، الزمخشري.

١٠٢- الوافي بالوفيات، الصفدي.

الفهرس